

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري
(ت ٧٤٩ هـ)

السفر الثاني عشر
كتاب الإنشاء شرقاً

تحقيق

إبراهيم صالح

٨١٠٠٩٢

ف. م. س

ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، ٧٠٠ -

٧٤٩هـ

مسالك الأبحار في ممالك الأبحار: السفر الثاني عشر / تأليف ابن فضل

الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى، تحقيق إبراهيم صالح -

أبوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٢.

٥٣٥ ص.

ببليوجرافية: ص ٤٩٥-٥١٤.

كشاف: ص ٤٩٣-٤٩٤.

١- الإهداء.

٢- المؤلفون.

٣- الشعر العربي - مختارات.

٤- إبراهيم صالح، محقق.

ب- العنوان.

© المجمع الثقافي ١٤٢٣هـ

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص. ب. ٢٣٨٠ - هاتف: ٦٢١٥٣٠٠

Email: library@ns1.cultural.org.ae

http://www.cultural.org.ae

حقوق الطبع محفوظة للمجمع الثقافي

تم تحقيق هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي



مسالك الأبصار

في ممالك الأمصار

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أثار مسالك الأبصار، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الممالك والأمصّار، وعلى آله السادة الأطهار، وصحبه المنتجبين الأخيار.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني عشر من مَعْلَمَةِ ابن فضل الله العمري، وقد قصره على كُتّاب الدواوين من المشاركة، ممن كان في خدمة الملوك والأمراء.

وطريقته أن يورد تعريفاً بالكاتب بأسلوبه المسجّع، ثم يختار له من نشره مجموعة رسائل، تقل أو تكثر، حسب شهرة الكاتب ومكانته؛ فقد اختار لبديع الزمان الهمذاني والقاضي الفاضل -شعراً ونثراً- ما يستحق أن يفرد بكتابٍ مستقل؛ ثم يختار له من نظمه شيئاً، قل أو كثر.

وكثيراً ما نقف في مختاراته -الشعرية والنثرية- على الجديد الذي لا نعرفه في مصادرنا التراثية؛ فترجمة الببغاء -مثلاً- كلّهُ جديدٌ، وكله مما يستدرك على مجموع شعره ونثره.

وكان الاعتماد في إخراج هذا الجزء، على النسخة الوحيدة التي أصدرها الدكتور فؤاد سزكين - جزاه الله خيراً- عن أصلها المحفوظ في أياصوفيا -المكتبة السليمانية بإستانبول، تحت رقم ٣٤٢٥.

وهي نسخة تامة، لا خرم فيها، تقع في ٣٩٦ صفحة، مكتوبة بقلم واحد، وبخطٍ مقروء واضح، قليل الإعجام، نادر الضبط؛ وكثيراً ما يرسم الناسخ بعض الكلمات رسماً دون أن يدرك معناها؛ وهنا لابد من أن يلجأ المحقق إلى تقاليد

الكلمة ليقف على المعنى الذي يتناسب مع السجع ودقة المعنى؛ وفي هذا من الصعوبة ما لا يدركه إلا من دُفِعَ إلى مضايقه.

وإذا كان الناسخ جاهلاً، لا يفرق بين المذكر والمؤنث، فالأمر يزداد صعوبة. وكان من الممكن أن يكون العمل أكثر دقة، لو توفرت لدينا نسخة دار الكتب المصرية، رقم ٢٥٦٨.

فالحمد لله الذي أعان في تحقيق هذا الجزء ويسره، والشكر للقائمين على المجمع الثقافي في دولة الإمارات العربية المتحدة، الذين أحسنوا الظن بنا. ورحم الله امرأاً ستر عيوب أخيه، فالكمال لمن له الكمال سبحانه.

والحمد لله في البدء والختام.

إبراهيم صالح

دمشق/الشام

١٣ ذو القعدة ١٤٢١ هـ

٦ شباط (فبراير) ٢٠٠١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

على الله توكلت

* ثم كانت وزراء وكتاب، مع من سمّينا وبعدهم في خدمة الخلفاء والملوك، ممن لم يرض البرق شرارةً من زياده، ولا العنبر الهندي مدة لمداده؛ طالما عد الهلال لقلمه قلاماً، وكان الأفق لزهرة كمامة، ومد الصباح له صحيفة، وألقى بالرماح لِقَضِيَّتِهِ في كفه نحيفة؛ وحصل لهم من النعم ما فاض فضله، ومن النقم ما أعيت عضله؛ وسنأتي منهم على الغرض: فمنهم من نذكره لاشتهار اسمه، ومنهم من نذكره باستحقاقه؛ ثم هؤلاء على قسمين: قسمٌ اشتهر للإكثار ولا يتعدى طبقة المقبول، وقسمٌ منهم أصحاب الغوص؛ وأكثر ما تجد ذلك للمتأخرين، فقد أبدعوا في استخراج المعاني وتوليدها؛ وقبل ذكرهم نقول:

إن كتابة الإنشاء كانت في المشرق في خلافة بني العباس منوطة بالوزراء، وربما انفرد بها رجل؛ وذكر ابن عبدوس^(١) في مواضع من كتابه من [ولي] ديوان السُرُودِيَّوَانِ التَّرْسُلُ؛ ثم كانت آخر وقت قد أفردت، واستقل بها كُتَّابٌ لم يبلغوا مبلغ الوزارة، وكان في المشرق يسمى كاتب الإنشاء، ثم لما كثر عددهم سُمي رئيسهم رئيس ديوان الإنشاء، ثم بقي يطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء، وتارة كاتب السر؛ وهي إلي أحب، وعندني أنه، وعند الناس أدل؛ وكان في دول السلاجقة وملوك الشرق يُسمى ديوان الطغراوية، وبه سُمي مؤيد الدين الطغرائي^(٢)، والطغراء هي الطرة، وهي التي تكتب فوق البسملة بالقلم

(١) ابن عبدوس: محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشياري، مؤلف كتاب «الوزراء والكتّاب»؛ كان فاضلاً، مداخلًا للدُّول؛ مات في بغداد مستتراً سنة ٣٣١ هـ. (الوافي بالوفيات ٢٠٥/٣).

(٢) مؤيد الدين الطغراني: الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل؛ كان وزير السلطان مسعود بن محمد السلجوقي بالموصل؛ وهو صاحب القصيدة اللامية المعروفة بلامية=

الغليظ، يتضمن ألقاب الملك، وهي لفظة أعجمية، وكانت تقوم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب، ويُستغنى بذلك عن أن يكون للسلطان علامة بخطه، لكثرة الوثوق بصاحب هذه الرتبة -و[عند] أهل المغرب يُسمى رئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى.

وأهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والقرب أكثر من كل عام وخاص، يحتاج الأمراء إلى مداراتهم، وتقصر الوزراء مع علو رتبة الوزارة عن مناراتهم؛ يجتمعون بالملك إذا أرادوا على عدد الأنفاس، وهم معنى الدولة وعليهم عولة كل الناس.

وآخر ما كانت الملوك لا تكاتب الخلفاء ببغداد إلا إلى هذا الديوان، أعني ديوان الإنشاء، وكانت تُسميه الديوان العزيز، ولهذا كانت كُتبتهم تستفتح: أدام الله أيام الديوان العزيز؛ إشارة إلى ديوان الإنشاء، لأن الكتب كانت إليه، والمخاطبة له، وهو المراد بقولهم فيما يوجد في التواريخ وكتب الإنشاء والترسل: الديوان العزيز؛ وعليه كان يطلق هذا الاسم، وله بهذا من الشرف ماله، ومن الفخر ما يجر على السماء أذياله؛ وقد آن أن نذكر من القسمين من يُذكر:

فأما القسم الأول: فمنهم عبد الحميد وابن العميد والصاحب بن عباد، وهم وإن كانوا من مشاهير الكتاب فإنهم بُعداء من الغوص وحسن التوكيد والاختراع، وقد قدمنا في تراجمهم مع الوزراء عنوان قولهم ومبلغ طولهم.

= العجم، وهي من غرر القصائد؛ له ديوان شعر ومصنفات؛ قُتل سنة ٥١٣ هـ وقيل غير ذلك.
(الوافي بالوفيات ١٢/ ٤٣١). وستأتي ترجمته برقم ٧ من هذا الجزء.

١- وأما أبو إسحاق فهو الصّابي^(١)

* وإن كان منهم وفي طبقته غير بعيد عنهم، ولكنه جوال الذكر في الكتاب، مشهورٌ شهرة [الشمس] في يوم الصحو، تكلم وما تكلف، وتقدم ومن قبله تخلف؛ جرى على سجيته في الطباع ودعا عاصي البيان فأطاع، ولم يقف مع السجع يرسف في قيوده، ويكلف فكره فوق قدرته، فجاء بالعاطل الحالي، وتقدم على أهل العصر الحالي، وكان حلو الجنى عذب المشارع لا يرنق مورده، ولا يطفأ موقده؛ وهو في الكتاب بمنزلة امرئ القيس في الشعراء، إمام القوم وحامل لوائهم، وكان يحفظ القرآن الكريم وينتزع منه الآيات ويستشهد بها، وكانت بينه وبين الشريف الرضي^(٢) صداقة مؤكدة، ورثاه لما مات برثاءٍ أسمع الخافقين، وطلع في المغربين والمشرقين؛ وأوله^(٣): [الكامل]

أرأيت من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياءُ النادي

فاسمع بهذا الرثاء ما أعظمه وأفخمه، ولا سيما من مثل هذا الشريف القائل،

(١) أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حُبُون الحرّاني الصّابي، صاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع؛ كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار الديلمي، وتقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩هـ؛ توفي لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال، سنة ٣٨٤هـ عن إحدى وسبعين سنة.

ترجمته في: يتيمة الدهر ١٤١/٢ ومعجم الأدباء ١٣٠/١ وتاريخ الحكماء ٥٤ ووفيات الأعيان ٥٢/١ والعبر ٢٦/٣ وسير أعلام النبلاء ٥٢٣/١٦ والنجوم الزاهرة ١٦٧/٤ والوافي بالوفيات ١٥٨/٦ والبداية والنهاية ٤٤٩/١٥ وشذرات الذهب ٤٣٧/٤.

(٢) الشريف الرضي: أبو الحسن محمد بن الحسين بن محمد المعروف بالموسوي، صاحب ديوان الشعر، وهو ذو أدب ظاهر وفضل باهر وحظ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين؛ توفي سنة ٤٠٦هـ. (وفيات الأعيان ٤١٤/٤).

(٣) ديوان الشريف الرضي ٣٨١/١ ورسائل الصّابي والشريف الرضي ٤٥ ويتيمة الدهر ٣٠٦/٢ ومعاهد التنصيص ٧٧/٢.

واستدل به على ما لهذا الرجل من الفضائل؛ عود عبق أرجه وهو حطب،
وذمي^(١) رقا المنبر فضله وخطب، عقد نده سماء من دخان، وأدار مداماً من دنان،
وكتب دنه عن الملوك البويهية قرار بأولئك القساور، وزار النجوم و سلب الأهله
الأساور، فضرب النحر بالأسداد، وكايل البحر بالأمداد، وأبدع عجباً وأبعد،
فساكن عجباً وجاور عرباً؛ وتوفي سنة أربع وثمانين وثلاثمئة.

* ومما له قوله:

له يد برعت في الجود بنانها، ونظم الدر بيانها، فحاتم كامن في بطن راحتها،
وسحبان مستتر بنمارق فصاحتها؛ فلها يد في كل يد، ومنة في كل عنق، وقرط
في كل أذن، وسمط في كل مهرق^(٢)؛ لها كل يوم مزيد، وعبد الحميد عبد
الحميد.

وقوله من عهد لقاض^(٣):

وأمره إن ورد عليه أمر يعييه فصله، ويشتبه عليه وجه الحكم فيه^(٤)، أن
يرده إلى كتاب الله عز وجل ويطلب فيه سبيل المخلص منه؛ فإن وجدته وإلا في
الأثر عن رسول الله ﷺ، فإن أدركه وإلا استفتى فيه من يليه من ذوي الفقه
والفهم، وأهل الدراية والعلم، فما زال الأئمة والحكام والسلف الصالح وطراق

(١) في الأصل: ودي ١.

(٢) المهرق: الصحيفة. (القاموس).

(٣) من عهد الطائع لله أمير المؤمنين إلى قاضي القضاة أبي الحسين محمد بن عبيد الله بن أحمد بن
معروف. (المختار من رسائل الصّابي ١٦٨-١٨٢).

(٤) في الأصل: وحكم الحكم فيه ١.

السنن الواضح يستفتي واحد منهم واحداً، ويستترشد بعضهم بعضاً لزوماً للاجتهاد، وطلباً للصواب، وتحرزاً من الغلط، وتوقياً من الشطط؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (١).

﴿وأمره﴾ (٢) أن لا ينقض حكماً حكم به من كان قبله، ولا يفسخ من تقدمه، وأن يعمل عليه ولا يعدل عنه، ما كان داخلاً في إجماع المسلمين، وسائغاً في أوضاع الدين؛ فإن خرج عن الإجماع أوضح الحال فيه لمن بحضرته من الفقهاء والعلماء، حتى يصيروا مثله في إنكاره، ويجمعوا معه على رده، وحينئذ ينقضه نقضاً يشيع ويذيع، ويصير به الأمر [إلى] (٣) واجبه، ويعود معه الحق إلى نصابه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤).

﴿وقوله في رحلة صيد﴾: (٥) واعتمدت في الصيد (٦) على من يحضرني من أوليائه، على قوة أبدانهم ونشاطها، ورياضة خيلهم وانبساطها، والزمان ساقطة جماره (٧)، مفعمة أنهاره، ونحن غبّ سحابٍ أقلع بعد الارتواء، وأقشع بعد الاستغناء، والرياض زاهية بحمرائها وصفرائها، تائهة بعوانها وعذرائها، وما نرد منها حديقة إلا استوقفتنا نضارتها واستنزلتنا غضارتها، وخيلنا تشتاق

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) من المختار.

(٣) من المختار.

(٤) سورة المائدة: ٤٧.

(٥) موضع العبارة بياض في الأصل، فلعل الناسخ أراد كتابتها بالحمرة فسها.

(٦) في الأصل: على الصيد.

(٧) سقوط الجمار يكون في شهر شباط؛ فالجمرة الأولى في سابعه، والثانية في الرابع عشر منه، والثالثة

في الحادي والعشرين منه. (الازمنة والأنواء لابن الجدابي ١٤٦).

الصيد وهي لا تطعمه، ونحن إليه كأنها تقضمه، وعلى أيدينا جوارح مؤلفة الخالب والمناسر، مدربة النصال والخناجر، سابعة الأذئاب، كريمة الانتساب؛ إذ وردنا ماءً زرقاً جمامه، طامية أرجاؤه، يبح بأسراره صفاءه، ويلوح في قراره حصباؤه، وأفانين الطير به محدقة، وغرائبه عليه محلقة، متغايرة الألوان والصفات، مختلفة اللغات والأصوات؛ فلما أقبلنا عليها، أرسلنا الجوارح كأنها رسل المنايا أو سهام القضايا، فلم نسمع إلا مسمياً، ولم نر إلا مذكياً؛ وانطلقنا بعد ذلك نعتام في الطير ونتخير ونقترح ونتحكم؛ فاختطفنا ببرائتنا ما طار منه وانتشر، وأخذنا بجوارحنا ملاح منه واستتر؛ فاهتدت إليها تستدل عليها بالشميم، وتهتدي إليها بالنسيم؛ فلم يفتنا ما برز، ولا سلم منا ما احترز، ثم عدلنا من مطائر الحمام إلى مسارح الآرام، وأماننا أدلة فرهة يهتدون، ورواد^(١) مهرة يرشدون، حتى أفضينا إلى أسراب كثيرة العدد، متصلة المدد، لاهية بأطلائها، راتعة في أكلائها؛ ومعنا فهود أخطف من البروق، وألقف من الليوث، وأجدى من الغيوث، وأمكن من الثعالب، وأدب من العقارب، وأنزى من الجنادب، خمص البطون، رُقش المتون، خزرُّ الأحداق، هُرتُّ الأشداق، غلب الرقاب، كاشرة عن أنياب كالخراب، تلحظ الأطباء من أبعد غاياتها، وتعرف حسها من أقصى نهاياتها، فأقبلنا من تجاه الريح عليها، وأغذنا المسير نحوها وإليها، ثم وثبنا لها الضراء، وشننا عليها الغارة الشعواء، وأرسلنا فهودنا، وجرت خيلنا في آثارها كاسعة لأذئابها، فالفينا كلاً منها على ظبي قد افترشه، وصرعه فجمعجه^(٢)؛ وأوغلنا من بعد في اللحاق، وقص آثار ما ند وبعد؛ وقد انتهت التوبة إلى الكلاب والصقور، ومعنا منها كل عريق المناسب لنجيح المكاسب، حلو

(١) في الأصل: وردّواد.

(٢) عجعج: رفع صوته. (القاموس).

الشمائل، نجيب الخايل، أغضف الأذنين^(١)، أسيل الخدين، أبي النفس، ملتهب الشد، لا يمس الأرض إلا تحليلاً وإيماء، ولا يطالها إلا إشارة وإيحاء؛ وكل صقر ماض كالحسام، قاض كالحمام، مشتط في مطالبه، خفيف النهضة في مآربه، سريع الوثبة فيما يريد، ثقل الوطأة على ما يصيد؛ فما لبثنا أن أشرفنا على يعافير^(٢) متطرفة، ويحامير^(٣) متعرفة، فخرطنا القلائد والشناقات^(٤)، فمرت متوافقات مترافقات، قد تباينت في الصور والأجناس، وتآلفت في الإرشاد والالتماس؛ فسبقت الصقور إليها ضاربة وجوها، عاكسة رؤوسها، ولحقت الكلاب بها منشبة فيها، مدمية لها؛ فبادرناها مجهزين، وغنمناها ما يزين، ثم أخذنا في صيد ما يقرب ويخف، وتحصيل ما يلوح ويستدف^(٥)؛ فلاح لنا قنبر، فأطلقنا عليه يؤيؤاً^(٦)، فغاب عن الأبصار، واحتجب^(٧) عن الأنصار، وصار كالغيب المرجم والظن المتوهم، ثم خطفه^(٨) ووقع به، وهما كهيئة الطائر الواحد؛ وعدنا وفي حبالنا الصيد والصائد، ورجعنا والشمس مصبوبة للغروب، مؤذنة بالمغيب، والجو في أطمار مبهجة في أصائله، وشفوف مورسة من غلائله؛ فالله ينصر مولانا في دقيق الأغراض وجليلها، ويقضي له بالظفر في جسيم المطالب وضئيلها.

(١) الأغضف من الكلاب: المنكسر أعلى أذنيه. (القاموس).

(٢) اليعفور: الخشيف. وولد البقرة الوحشية أيضاً. (حياة الحيوان ٢/٤٣٧)

(٣) اليعصور: دابة وحشية نافرة، لها قرنان طويلان كأنهما منشاران، ينشر بهما الشجر. (حياة الحيوان ٢/٤٣٤).

(٤) الشناق: سير أو خيط يشد به فم القربة. (القاموس). والشناق للطير: بمنزلة الزمام للبعير.

(٥) استدف الطائر: حرك جناحيه. (القاموس).

(٦) يؤيؤ: من جوارح الطير، يشبه الباشق. (حياة الحيوان ٢/٤٣٣).

(٧) في الأصل: واحتجبا.

(٨) في الأصل: خطفه.

[وقوله من أخرى]: (١)

مآرب الناس منزلة بحسب قربها، وأولاها بأن يعتدُّ الخاصة ملعباً والعامّة مكسباً: الصيد الذي هو راض الأبدان، وجامع لشمل الإخوان؛ ولما كانت الجوارح المثمّنة، ليست لكل الناس ممكّنة، بل لمن عظم شأنه وحاله، وجَمَّ نسبه وماله، جعلت القول مقصوداً على قسي البندق، التي لا تتعذر على مكثّر ولا مملق؛ وأنا أكتفي في ترغيب من كان عنه منحرفاً، وتثبيت من كان إليه متشوّفاً، بوصف موقف منه شهدته في بعض ظواهر مدينة السلام، وهناك غيضة ذات ماء أزرق، وشجر مُرَجَحِنٌ^(٢) موركٍ؛ فبينما أنا قائلٌ فيها، ومنترّة في نواحيها، وقد تأودت في حلل الورد شجراؤها، وتفاوحت بروائح المسك أنوارها، إذ أقبلت رفقةً قبل الدرور والشروق، وشمرت عن الأذرع والسوق، مقلدين خرائط تحمل من البندق الموزون الملموم، ما هو في الصحة والاستدارة كاللؤلؤ المنظوم، كأنما خرط بالجمر، فجاء كبنان الفهر؛ وقد اختبر طينه، وملك عجيّنه، كافلٌ مطاعم حامليه، محققٌ لآمال آمليه، ضامنٌ لحِمام الحِمام، متناول لها من أبعد مرام؛ يعرج إليها وهو سَمّ نافعٌ، ويهبط إليهم وهو رزق نافع؛ وبأيديهم قسي مكسوة^(٣) بأغشية السندس، مشتملة منها بأفخر ملبس، مثل الكماة في جواشنها^(٤) ودروعها، والجياد في جلالها وقطوعها؛ حتى إذا جردت من تلك المطارف، وانتضيت من تلك الملاحف، رأيت منها قُدوداً مخططة رشيقة، وألواناً معجبة أنيقة، صلبة المكاسر والمعاجم، نجية المنابت والمناجم، خطية الانتماء والمناسب، سمهرية الاعتزاء والمناصب؛ تركبت من شظايا الرماح الراعية، وقرون

(١) موضع العبارة بياض في الاصل.

(٢) ارجحن: مال واهتز. (القاموس).

(٣) في الاصل: مكسورة ا.

(٤) الجواشن: الدروع. (القاموس).

الأوعال الجبلية؛ قد تحت تحني النساك، وصالت صيال الفتاك؛ ظواهرها صفرٌ
 وارسةٌ، ودواخلها سود دامسة، كأن شمس أصيل طلعت [في] متونها، أو جُنح
 ليل اعتكر في بطونها، أو زعفران جرى فوق مناكبها، أو غالية جمدت على
 ترائبها، أو ثني قضبان فضة أذهب بعضها واحترق شطرٌ، أو حيات رمل اعتنقت
 السود منها والصفر؛ فلما توسطوا تلك الروضة، وانتشروا على أكناف تلك
 الغيضة، وثبتت للرمي أقدامهم، وشخصت إلى الطير أبصارهم، وتروها بكل وترٍ
 فُوق سهمه، وأفق انقض نجمه، مضاعف عليها من وترين كأنه بروح ذو
 جسدَيْن، في وسط تسريحه كيس مختوم، أو سرّة بطن مهضوم، كأنها متخازر
 ينظر شزراً، أو مصغ يتسمع نزرأً، تصيب قلوب الطير بالانباض، وتصيب منها
 مواقع الأعراض؛ فلم يزل القوم يرمون ويصيبون، وينجحون ولا يخيبون، حتى
 خلت من البندق خرائطهم، وامتلات بالصيد حقائبهم، فكم عارضت الطير
 فكسرت أجنحتها وجآجئها، واستطارت في الجو قوادمُها وخوافيها، تعاجل قبل
 فناء ذمائها^(١)، ويصير ريشها كالمجاسد من دمائها محمولة على حكم الكفار،
 إذ يقتلون ومصيرهم إلى النار؛ تحنط بتوابلها وأبازيرها، وتوارى في قدورها
 وتنانيرها، ثم تبعث إلى إخوان متوافقين، وخلان مترافقين، قد تماحوا في الطعام،
 وتراضعوا في المدام، لا يشوب صفوهم شائبٌ، ولا يعيب فضلهم عائب؛ فالحمد
 لله الذي أباحنا لذيد المطاعم، ونهج لنا سبيل المغام.

(١) الذمء: بقية النفس. (القاموس).

ومن كلام أبي إسحاق الصَّابِي قوله في عهد كتبه لطفيلي^(١):

هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلِي حين استخلفه على إحياء سنته، واستنابه في حفظ رسومه، من التطفيل على مدينة السلام وما يتصل بها من أكنافها، ويجري معها من سوادها وأطرافها؛ لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، ورآه أهلاً له من شدة مكانه^(٢) في هذه الرفاهية المهملة التي فطن لها، والرفاغية^(٣) المطرحة التي امتد إليها، والنعم العائدة على لابسها بملاذ الطعوم ومناعم الجسوم؛ متورداً على من اتسعت مواد ماله، وتفرغت شعب حاله، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفره ببدايع الطيبات، آخذاً من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف، وضارباً منه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملاً للمدخل اللطيف عليه، والمتولج العجيب إليه، والأسباب التي ستشرح في مواضعها من هذا الكتاب، وتستوفى الدلالة على ما فيها من رشادٍ وصوابٍ؛ وبالله التوفيق، وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالعة، واللجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، يوم لا ينفع

(١) نسخة العهد هذه في كتاب التطفيل للخطيب البغدادي ١٧٥-١٨٠ وصبح الأعشى ١٤/٣٦٠-٣٦٥ والزيادات منهما.

قال الخطيب البغدادي: «حدثني القاضي أبو القاسم علي بن الحسن بن علي التنوخي، قال: كان في نقباء الأمير بختيار- المعروف بعز الدولة- رجلٌ يُسمى عليكا، وكان كثير التطفيل على جميع أهل العسكر، من الحجاب والقواد والكتّاب ووجوه الخاصة والعلماء، وشاع ذلك له عند بختيار، فرسم له أن يستخلف على التطفيل خليفة، وتقدم إلى أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصَّابِي الكاتب أن يكتب له بذلك عهداً لابن عرس الموصلِي عن عليكا، وأن يجعله خليفةً على التطفيل، فكتب له على طريق الهزل عهداً، قرأه أبو إسحاق علينا، فكان نسخته: «.

(٢) كذا في الأصل والتطفيل. وفي صبح الأعشى: من سدّ مكانه.

(٣) الرِّفَاقِيَّة: السَّعة والخصب. (القاموس). وفي التطفيل والصبح: والرَّقاعة.

إلا مثله من الأزواد؛ وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ومراقبته في قوله وفعله، ويجعل رضاه وثوابه ملبسه، والقربة منه أربه، والزلفى لديه غرضه، ولا يخالفه في مسعاه قدم، ولا يتعرض عنده لعاقبة ندم.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه، يتفحصه تفحص^(١) الباحث عن حظه بمجهوده، غير القائل منه بتسليمه وتقليده، فإن كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم؛ فممنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله، ومنهم من شح على ماله، فدافع عنه باحتياله؛ وكلا الفريقين مذموم [وجميعهما ملوم؛ لا يتعلقان بعذور واضح، و]^(٢) لا يتعريان من لباس فاضح؛ ومنهم الطائفة التي لا ترى شركة العنان، فهي تبدله إذا كان لها، وتبدلي عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة في الطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب^(٣) للوارد والواغل، هي أحق بالحريّة، وأخلق بالخيرية، وأحرى بالمروءة، وأولى بالفتوة، وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل، لأنه مشتق من الطُفْل، وهو وقت المساء وأوان العشاء، فلما كثر استعمال في صدر النهار وعجزه، وأوله [وأخره]^(٤)، كما قيل للشمس والقمر: [القمران] وأحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عُمُر.

وأمره أن يتعهد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه، وسمط الأمراء والوزراء بسراياه؛ فإنه يظفر منها بالغنيمة الوافرة، ويصل منها إلى الغريبة النادرة؛ وإذا

(١) في الأصل: يتصفحه تصحف الباحث. وفي التطفيل والصبح: يتصفحه تصحّح الباحث. وكله تصحيف.

(٢) الزيادة من صبح الأعشى.

(٣) في الأصل: وفي المشروب.

(٤) في الأصل: وأكله.

استقرأها وجد فيها من طرائف الألوان، الملمدة لللسان، وبدائع الطعوم، السائغة في الحلقوم، مالا يجد عند غيرهم، ولا يناله إلا لديهم.

وأمره أن يتتبع ما يعرض لموسري التجار، ومجهزي الأمصار من وكيرة [الدار، والعرس] والإعذار^(١) فإنهم يوسعون على أنفسهم في النوائب بحسب تضييعهم^(٢) عليها في الراتب.

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها؛ فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحداً من الناس من خلانها، واتخذته أخصاً من إخوانها، سعد بمرافقتها، وحظي بمصادقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، وسار به إلى جنباتها^(٣).

وأمره أن يتعهد أسواق المتسوقين، ومواسم المتبايعين؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها^(٤)، وأطعمة قد استحشد مشتريها، اتبعها إلى المقصد بها، وشيعها إلى المنازل الحاوية لها، واستعلم ميقات الدعوة ومن يحضرها من أهل اليسار والمروءة؛ فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه ويدخل معه وإن خلا من ذلك اختلط بزم الداخلين، فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوابين والحجاب، حتى يحصل محصلاً قل ما حصله أحد قبله، فما انصرف عنه^(٥) إلا ضلعاً من الطعام، نزيفاً من المدام.

(١) الوكيرة: طعامٌ يُتخذ لفراغ البُنيان. والإعذار: طعام الختان. (القاموس).

(٢) في التطفيل والصبح: تضييقهم.

(٣) في التطفيل والصبح: وما ربه في جنباتها.

(٤) في الأصل: قد زاد فيها.

(٥) في الأصل: فيه.

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين، ومواطن الإناث والمخنثين؛ فإذا أتاه خبر بمجمع تضمهم، أو مأدبة تعمهم، ضرب إليها أعقاب إبله، وأنضى حولها مطايا خيله، وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والشعبان الملتهم، والليث الهاصر^(١) والعقاب الكاسر.

وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين، ومحافل الرعاع المقتربين، وأن لا ينقل إليها قدماً ولا يفغر لماكلها فماً، ولا يلفى في عتب دورها كيساناً، ولا يعد الرجل منها إنساناً؛ فإنها عصابة يجتمع لها ضيق النفوس والأحوال، وقلة الأحلام والأموال، وفي التطفيل عليها إجحاف بها يوثم، وإزراء بمروءة المتطفل [يوصم]، والتجنب لها أجدى^(٢)، والازورار عنها أرجا.

وأمره أن يحرز الخوان إذا وضع، والطعام إذا نقل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب، عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتنانها في الطيب واللذة، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي عند انتهائها، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها؛ ومتى أحس بقلة الطعام، وعجزه عن الأقوام، أمعن في أوله إمعان الكيس في سعيه، الرشيد في أمره، المالى لبطنه من كل حارٍ وباردٍ؛ فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون نظرفاً، ويقلون تأدباً، ويظنون أن المادة تبلغهم إلى آخر أمرهم، وتنتهي إلى غاية شبعهم، فلا يلبثون أن يخلجوا خجلة الوائق، وينقلبوا بحسرة الخائب؛ أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم.

(١) في الأصل: الصاهر.

(٢) في الأصل: أجلا.

وأمره أن يروض نفسه ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً، ويطوي دونه كشحاً، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، ويغمض عن اللفظة الخشنة، وإن أته الكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه؛ وإن وقعت به الصفعة في رأسه، أغضى عنها لمراتع أضراره؛ فإن لقيه لاق بالجفاء، قابلة باللفظ والصفاء، إذ كان إذا ولج الأبواب، وخالط الأسباب، وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، ولا بد أن يلقاه المنكر لأمره، ويمر به المستغرب بوجهه؛ فإن كان حراً حياً أمسك وتذم، وإن كان فظاً غليظاً همهم وتكلم؛ وأن يجتنب عند ذلك المخاشنة، ويستعمل مع المخاطب الملاينة، ليرد غيظه، ويفلّ حده، ويكف غربه؛ ثم إذا طال المدى تكررت الألفاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف، ونال من الحال المجتمع عليها، منال من حُشم وسئل العناء إليها.

ولقد بلغنا أن رجلاً من هذه العصابة، كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفل على وليمة رجل ذي حالٍ عظيمة فرمقته فيها من القوم العيون، وتصرف بهم فيه الظنون، فقال له قائل منهم: من تكون أعزك الله؟ فقال: أنا أول من دُعي إلى هذا الحق؛ قيل له: وكيف ذلك ونحن لا نعرفك؟ فقال: إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي؛ فجيء به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلت لطباخك^(١) أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعويين؟ فقال: نعم؛ فقال: فإنما تلك الزيادة لي ولا مثالي، وبها تستظهر لمن جرى مجري، وهو رزق أنزله الله على يدك، وسببه من جهتك؛ فقال: مرحباً بك وأهلاً وقرباً، والله لا جلست إلا مع عليّة الناس، ووجوه الجلساء والأناس، إذ قد طرفت في قولك، وتغننت في فعلك؛ فليكن ذلك الرجل لنا إماماً نقنّدي به، وحادياً نحدو على مثاله، إن شاء الله.

(١) في الاصل: لصاحبك.

وأمره أن يكثر من تعاهد الجوارشنات^(١) المنفذة للسُدَد، المقوية للمِعَد، المشهية للطعام، المسهلة لسبيل الانهضام؛ فإنها عماد أمره وقوامه، وبها انتظامه والتآمه؛ لأنها تعين عمل الدعوتين، وتنهض في اليوم الواحد بالأكلتين، وهو في تناولها كالكتاب الذي يقط أقلامه، والجندي الذي يصقل حسامه، والصانع الذي يجدد آلاته، والماهر الذي يصلح أدواته.

هذا عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إليك وحجته عليك، لم يالك في ذلك إرشاداً وتوقيفاً، وتهذيباً وثقيفاً، وتمعناً وتبصيراً، وحثاً وتذكيراً؛ فكن بأوامره مؤتمراً، وبزواجه مزدجراً، ولرسومه متبعاً، ولحفظها مضطلعاً؛ إن شاء الله تعالى؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قلت: وسئلت في تقليدٍ لطفي، فعملت:

الحمد لله الذي نعم في طيبات رزقه، ورزق بعض خلقه من خلقه، وأجاز للمرء في بعض المذاهب التوصل بما قدر عليه إلى أخذ حقه، نحمده على نعمه التي وسعت الولاثم، ومتعت بأكل كل ملاثم، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة أول ما يبدأ منها باسم الله الآكل، ويهنا بها ما يهيا من المأكَل، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، الذي ما عاب قط طعاماً، ولا دُعي إلى طعام إلا أكل ما لم يكن نوى صياماً؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاةً تتلقمها المسامع التقاماً، وسلم تسليمًا كثيرًا؛ وبعد:

فلما كان الغداء هو قوام الأبدان، ونظام عمارة البلدان، وموائد الطعام هي التي يجتمع عليها الإخوان، وتزهى به صدور الإيوان، وتفتح وتختم بالحمد، وتمنح من أطايب المطاعم ما يتجاوز الحد، ويكون فيها ما يسر العين من بدائع

(١) الجوارش: نوع من الأدوية يعين على هضم الطعام. (معجم الألفاظ الفارسية المعربة ٤٠).

الألوان، وتسري نجوم زباديها^(١) في سماء الخوان، وقد تحويه دور بعض البخلا، ومن لا يدعو الناس إلى طعامه دعوة الجفلى^(٢)، ويكون في ماله الممنوع حق للسائل والمحروم، ومن لا يتوصل إلى الحق منه إلا بالتطفيل المعلوم، ممن تعين الأكل من ماله بأنواع الحيل، والهجوم على موائده المحجوبة وراء الحلل، واستعمال الإقدام على هذا وأمثاله لأكل طعامه، وإخلاء المائدة من قدامه؛ ولم يوجد لهذه العظيمة، ولا يلام صاحب كل وليمة، إلا من كان إذا أكل اضطلع، وإذا مد يده إلى السماط اقتلع، أو صعد إلى السماء ذبح سعد الذابح وبلغ سعد بلع؛ ولم يزل يزلزل الموائد، ويملا وعاء بطنه بزائد، ولا يعرف ما تكون البطننة، ولا ما تكفي منه اللقمة وتعني منه اللهنة، ولا يقابله صدور الأطباق إلا وهي غير مطمئنة. وكان فلان هو الذي طالما كشف وجه السماط، وحل من سفر الخالي الرباط، وجال في جنبات الموائد حتى أخلاها، وركض فيها ركض الجواد حتى ألحق أخراها بأولائها، وعُرف في الولائم التي لم يزل فيها مشهور الحملة، آتياً على التفصيل والجملة، معروفاً بكبر اللقم التي تكاد تخنق، وترك التشهي وأكل ما يتفق، وقوة النهمة التي لو نقت [على] الصخر لسحنته، أو كلفت خوض البحر إلى أكل لقمة واحدة لاستهونته؛ واشتهر بطبع طبع، عنى كل من يجيء بعده وأتعب، وفرط طمع أطفأ كل طفيلي وأمات أشعب وأم أشعب، ولم يعصم منه باب مغلق، ولا ستر مطبق ولا طعام جالس على الطريق، ولا محبوس من وراء مضيق، بل لو قيل له: إن اللقمة خلف جبل قاف لقام إليها يسعى، أو في فم الأفعى لمد يده إليها ولم يخف لسعاً، قد تبلط وجهه الوقاح، وأفنى لحوم ذوات الأربع والجناح، ولم يدع في القدر شياً عليه يدور، ولا في الخافي ما هو عليه خافي، ولا نوعاً من الأنواع، ولا ما يصلح للأكل مما يشتري ويباع؛ ولو واكل ابن أبي

(١) في الأصل: زيادتها.

(٢) الجفلى: الدعوة العامة. (القاموس).

سُفيان^(١) لأشغله عن العيان أو سليمان بن عبد الملك^(٢) لهلك، أو الملك العادل^(٣)، لأفقره في العاجل، أو عاصر ميسرة التراس^(٤)، لما اشتال له معه رأس، أو عاشر القائد المغربي مولى فارح^(٥)، لأراه في الأكل كل قارح، لا يعجبه لأجل السعي للأكل إلا كل يوم أغر يبدو نوره، وكل ملك إذا تغدى رُفعت سُتوره^(٦)، لا يعد فرداً، إلا من قدم إليه قصعة مكللة لحماً مدفقة ثرداً، ولا يكون منزلاً، إلا لمن قال: وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً^(٧)؛ يتغدى بجمل، ويتعشى بوسقه^(٨) ما حمل، يصرف الأكل بغزارة، ويحمل معدته فوق السبع كارة، ولا يكفيه قدر الرغيف إلا كلما أُرهن عليه قوسه حاجب بن زرارة، ولا يقنعه طبخة القدر، إلا بجميع ما في الكوراة؛ يتنقل بإردب^(٩)، ويأكل كل ما سعى أو دب، يتملح بُمْدٍ ملح^(١٠) وقوصرة بصل، ويتحلى بعديلة تمر ووطب

(١) معاوية بن أبي سفيان، كان يوصف بكثرة الأكل. (محاضرات الأدباء ١/ ٦٣٥).

(٢) انظر عن أكل سليمان بن عبد الملك: عيون الأخبار ٣/ ٢٢٧ والعقد الفريد ٦/ ٣٠١ والمستطرف ٥٤٩-٥٥٠/١.

(٣) هو أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي، أخو السلطان صلاح الدين؛ قال ابن خلكان: وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد، حتى يُقال: إنه يأكل وحده خروفاً لطيفاً مشوياً. (وفيات الأعيان ٥/ ٧٤).

(٤) كان ميسرة التراس في زمن المهدي، وكان يأكل الكيش العظيم ومعة رغيف. (نشر الدر ٢/ ٢٤٩ وربيع الأبرار ٣/ ٣٥٢ والمستطرف ١/ ٥٥٢).

(٥) لم أعرفه.

(٦) من قول الراجز: أبلج بين حاجبيه نوره إذا تغدى رُفعت سُتوره (المستطرف ١/ ٥٣٠).

(٧) من قول المقنع الكندي: وإني لعبد الضيف ما دام ناويا وما شيمة لي غيرها تُشبه العبيدا (ديوانه ٢٠٥ ضمن «شعراء أمويون ج ١»).

(٨) الوسق: حملٌ بغير. (القاموس).

(٩) الإردب: مكيالٌ لأهل مصر.

(١٠) المد: مكيالٌ لأهل الشام.

عسل؛ يشرب من اللبن وطباً، ويتنقل بحمل الحديقة رُطباً، القنطارُ عنده أوقية، والرطلُ توابلُ التغذية، لا يُحب إلا اسم بلعام^(١) وطعمه، ولا يأكل ملء الطبق إلا في لقمة، يأكل باليدين، ويشبع بالعين؛ لم يعرف في طول عمره التخم، ولا خاف الوحش، ولا وقع على جيف المأكَل إلا وقوع الرخم، ولم يأكل - حاشاً - في سبعة أمعاء، وإنما يدخرُ معه في وعاءٍ، ما قرأ من الفقه إلا كتابَ الأُطعمة، ولا سئل : كيف الطريق؟ إلا قال : أنا ما أحب إلا الأشياء الحلوة الدسمة؛ لانعرف أعرف منه بتلفيق الأسباب، وتخريب عرائش النقائق وقباب الكباب، فما حظ يده في طعامٍ إلا محققة، ولا في مأكولٍ إلا وعاد في الحال كأن الله ما خلقه، فافتضى له تقدمه في هذه الطائفة الطائفة^(٢)، أن يُكتب له هذا التقليد، ويزاد به طول يده وباعه المديد، ويميز على أبناء جنسه من طائفة الشيخ ساسان^(٣)، ومن يأخذ أموال الناس باليد ويأكلهم باللسان، ويفعل الفعائل التي ما يظن بها إلا أن زمان أبي الأكَاسرة عاد، وينصب النصبات^(٤) التي لو كان أبو زيد السروجي^(٥) حاضرهما لما زاد، فرسم أن يقلد أمر طائفة الطفيلية، ويعاد إليه أمورهم بالكُلِّيَّة؛ وأن يكونوا جميعهم تحت أمره المطاع وأُعوانه، إذا أكل كل ما على السماط وخلقى الناس وهم جياعٌ، وهو ما يحتاج إلى الوصايا التي تشغله عن الابتلاع، وتلهيه عن النهم الذي هو من خلق السباع؛ وإنما نقول له على سبيل

(١) بلعام بن باعورا: من علماء بني إسرائيل؛ كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه. (تاريخ دمشق ١٠/١٦٥).

(٢) الطائفة الأولى: الجماعة. والثانية: من الطواف.

(٣) بنو ساسان: طائفة من المكدين نشأت في العصر العباسي؛ منهم أبو دلف الخزرجي الينبوعي، انظر قصيدته الساسانية في يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٤ فهي بمثابة دستورٍ كاملٍ لهم.

(٤) قال الزبيدي: والنَّصاب - ككُتَّان - الذي ينصبُ نفسه لعملٍ لم يُنصب له؛ واستعمله العامة بمعنى الخداع المحتمل. (تاج العروس «نصب» ٤/ ٢٨٢).

(٥) أبو زيد السروجي: شخصية وهمية، يروي عنها الحريري مقاماته. (الأنساب ٧/ ٧٥).

التذكرة، ونكتفي بالقليل لما عنده من الخبرة؛ فأول ما نوصيه أنه لا يقف عند منهلٍ، ولا يتوقف في أي شيء تسهل، ولا يتخير ليتحير، ولا يذكر إذا تقدم إلى الطعام؛ بحقد من حقد ولا لوم من لام، ولا يحسبُ حسابُ تقية من حضر، بل يأكل الكل ولا يذر، ولا ينتظر من غاب، ولو كان أسد الغاب، ومهما جاء قدومه رماه بالحاق، وعاجله خوف اللحاق؛ وإذا قدمت المائدة، يذكر اسم الله لتهرب الشياطين، وتغنى لعلا تحضر الملائكة، ويتحيل بكل طريق في عدم المشاركة، ويعجل مهما أمكنه فإنه ما يأمن المداركة وليف الخبز والإدام، ولا يعف عن لحس الزبادي وقرقشة العظام، ولا يتلافى خاطر من حرد ولا يترضى، ولا يدع شيئاً مما يطلق عليه اسم الأكل حتى النار التي تأكل بعضها بعضاً، ولئباًكر الغداء فإنه مكرمة، ويلازم العشاء فقد قال ﷺ (١): «تَعَشَوْا وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ حَشَفٍ فَإِنَّ تَرَكَ الْعِشَاءَ مَهْرَمَةً»، وليداوم على ما هو عليه من هذا الأمر، ولا يلتفت لقول زيدٍ ولا عمرو، وليأكل ما حضر ويحرص على الطيبات، فقد كان ﷺ يأكل القثاء بالرطب، ويحب الحلو والعسل، ويحب الزبد والتمر، ولا أقل أن يكون فيه هذا من السنة؛ ومن تتبع مآكل السلف، وإن كان لا يريد، لأن هذا كله لا مصور على خاطره، وممثل في ناظره؛ ثم ليتعهد المهضومات وما يقوي المعدة، ويزيد لهيب نيرانها المتقدة، ولا يدع استعمال المسهلات، ليهيئ المعدة لمواقع الغداء والعشاء، ومواضع الأكل في مطاوي الأحشاء؛ وليستعلم أخبار الآكلين، وطرائف الطفيلية المحتالين، لما يحصل بذلك من التآسي، وينهض الشهوة للأكل والتحسي؛ وإياه والمضغ، فإنه يطيل المدى ويقلل معه مقدار ما يؤخذ من الغدا؛ ومهما استطاع فليحسن المآكل، ويحزن صاحب الضيافة الحزين الثاقل،

(١) الحديث: أخرجه الترمذي ٤٣٢/٣ رقم ١٨٥٦ وأبو نعيم في الحلية ٢١٤/٨ والخطيب في تاريخ

وليصرف شهرته إلى مالا ينصرف، وما يقف على المعدة ويتوقف، ويلزم مغلفات الغداء ولا يسمع ممن قال: إنه المذموم، وليستكثر من لحوم الجمال والجواميس والبقر وما أشبه هذه اللحوم، وكذلك مارزن من الحبوب ووزن، فجاء أضعاف مثله في القدر المحسوب؛ ودأبك أن تعرف موسم كل مجتمع، ومكان يرجى فيه ملء البطن والشبع، وصرف أعوانك لتعرف أخبار الأعراس التي يولم فيها الولائم، وبقية المواضع التي ينصرف عنها بشبعه الطاعم، وأسمطة الأمراء وآدر الوزراء، ومواضع مناصفات الفقراء، والأوقات التي تعمل لها جلسات الفقهاء والقراء، ومظان الرهان التي تؤخذ فيها الدراهم، وتصرف غالباً في أنواع المطاعم، ودعوات الإخوان وأهل القصف، ومن يكون على ميعاد استعد له ومالا يبعد عن هذا الوصف، ودور أهل اليسار وكبار العامة والتجار، والجندي إذا جاء من الريف وحط هديته عن الحمار، وأرباب الصنائع الذين منهم من أوتى رزقه، ومن لا يبلغ أجره عمله في اليوم درهمين وينفق بعض الأيام أكثر من دينار؛ ومواضع النزاهة، فكثيراً ما يستخرج بها مال البخيل، والبيوت التي تطلب إليها المواشط والدايات، فإن النفقة فيها غير قليل؛ وأقم لك ربيعة^(١) على كل رابية [و] كل مكان يدق عليه بالطبول، ويتبع من يقوم منهم لتهنئة من تجددت له نعمة أو دفعت عنه نقمة أو غير هذا مما يقتضيه الفضول، ثم اقصد هذه المواضع وابسط يدك كل البسط، وتذكر ما كتب ساسان على عصاه^(٢) ولا تنس الشرط، ولف الإوز والدجاج والبط، واشرب بالزبادي المرق ولو أنه ماء الشط، واحرق كل ما قدامك ولو كان النار والكبريت والنفط؛ وصل صولة الفحل، وكل

(١) الربيعة: الطليعة. (القاموس).

(٢) عصا ساسان: دستور العمل عند المكدين، كان مكتوباً عليها: الكسل شؤم، والتمييز مذموم،

والحركة بركة، والتواني هلكة؛ وكلب طائف خير من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يعتل. (ما

يُعمل عليه في المضاف والمضاف إليه، للمحبي، ص ٢٥٩ نسخة دار الكتب الوطنية بتونس).

الشهد وإبر النحل، ولا تخل جنى النحل، ولا ما غرست فيه من الوحل^(١)، واهجم واسأل ولا تسل، ولا تفرق في سد الجوعة بين الصبر والعسل، وإذا رأيت جماعة فاحدس أنهم إنما اجتمعوا لطعام، أو أفراداً فاجزم بأنهم تفرقوا حيلةً للالتئام، فاعمل بالجزم، واقصدهم وصمم العزم، وانضم إليهم واهجم هجوم الأسد المفترس، وكل كل ما بين أيديهم، وتنوع في الشهوات واقترح، ولا تخف من غضبهم فلا بد أنك وإياهم تصطلح، وكل أكلة تكفي سنين، واستكثر بالآلاف المعين، وقل: [الكامل]

يا أكلة من عاش أخبر أهله أو مات يلقى الله وهو بطين^(٢)

فإن ضاقت منك عين بخيل، وإن عجلتك عن الطعام قبل امتلاء الخرطبيل، وبسط إليك أحد يده ليقطلك، أو صفحك بالخفاف ونطلك^(٣)، فاحتسب مصابك، ﴿واصبر على ما أصابك﴾^(٤)، ولا تهتم لما نزل عليك، ولو نزل الماء الأسود في عينيك، وورم وجهك وخلف أذنيك، فلا تنظر هذا الخطب الجليل إلا حقيراً، ولا هذا التعزير البليغ إلا على ماسمي به في الأصل توقيراً، ولا يردك هذا عن فعلك في المستقبل، واسمع من هذه الوصية واقل، ولا تستكثر حمل ألف بعير، ولا تستقل حبة خردل، واجمع جنودك على هذه الطاعة، وإن كانوا ما يجمعهم مندل، وبصرهم بشرق البشارة، وعودهم أن لا يأكلوا بالخمسة والكف دون العشرة، وافتح فمك والتهم، وأوسع بطنك واضطرب في السماط واضطرم، وانتقد على البخيل وانتقم، وافعل في هذا فعل من لا يحتشم، ولا يخاف أنه ينبشم، وابرك في المائدة وارطم، واضرب للعجلة وجهك بيدك والتطم، وحافظ على هذا

(١) يقصد التمر، لأن النخلة توصف بانها من الراسخات في الوحل، المطعمات في الحبل.

(٢) في الأصل: X ومن مات... وبه ينكسر الوزن.

(٣) قال في التاج «نطل» ٣٠/٥٥٥: ونطل فلان نفسه بالماء نطلاً ونطولاً: صب عليه منه شيئاً بعد

شيء، يتعالج به.

(٤) سورة لقمان: ١٧.

واستدم، واستمك ظهور الموائد واستنم؛ ولو رفسك بخفه البعير، نزلهُ منزلة القرص الكبير، واهجم على الرغيف، ولو أنه الغريف^(١)، وهاجم على الفريسة كالأسد، وأدخل الطعام على الطعام ولو فسد، وغالب البخلاء على أموالهم ولا تفكر في أحد، وطالب من لا لك عنده شيء ولا يضرك من جحد، واضرب الحيس بالحيس، وكل السخلة والكبش والجدي والتيس، وكبّ جموع ربيعة على مضر ويمن على قيس، ولا يلج في مسامعك عدلٌ عاذلٌ، ولا يرد يدك منع بخيل ولا بذلٌ باذل، ولا يغب عنك الماء لتسويغ الغصص، وإرفاد الطعام به بالقفص، وعليك بالعزائم وإياك والرخص، والحذر كل الحذر من الكسل والتواني، والقعود عن المواضع التي تُطلب إليها القراء والمغاني؛ فإن كل هذه المظان، والمظان التي تُسلط فيه السكين على الضان، فما كل وقت تصبح وليمةً، ولا كل حين تمضي عزيمةً، والإنسان الشاطر من أكل أكل البهيمة، وما كل أوان يتبوأ الآكل دار مضيف يحلّها، وينعم في جنات جفان ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾^(٢)، فلا يؤخّر يوم سرورٍ ينتظر له غدا، ولا يشيل لعشاءٍ من غدا، ولا يفوت دعوة كريمٍ يضيف يديه في داره ويقول: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾^(٣)؛ ومُر أعوانك فليحمدوا الله الذي أطعمهم من أموال خلقه، وجعل أيديهم تعاجل يد صاحب الطعام في سبقه، وأوصهم بالشكر وقل لهم: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾^(٤)؛ والله تعالى يمتعه بما وهبه من بطن لا يشبع، ونفس أدنى من نفس أشعب الطماع وأطمع، وسبيل كل واقف عليه الانتهاء إلى ما يتقدم به من الأمر، وسلوك مسلك أصحاب أبي نعامة معه حتى يأكلوا معه الجمر، ومن خالفهم منهم يسقط من جريدة هذا الحساب، ويوقف وراء الحجاب، وأدب بين الطفيلية أدباً

(١) الغريف: القصباء والحلفاء. (القاموس).

(٢) سورة الرعد: ٣٥. (٣) سورة البقرة: ٣٥.

(٤) سورة الملك: ١٥.

يبقى به أعجوبة، ويُترك في مكان يبصر الناس فيه يأكلون، ولا يصل إليهم، وكفاه هذا عقوبة؛ والاعتماد على الخط الكريم أعلاه.

*وعنوان قوله في النظم^(١): [الكامل]

فذمت سيف الدولة المحمودا	إن كنت خنتك في المودة ساعة
وجحدته في فضله التوحيدا	وزعمت أن له شريكاً في العلى
لغريم دين ما أراد مزيدا	قسماً لو اني قد حلفت غموسها

وقوله: [الكامل]

والبيض ما سلت من الأغمار	قلم يفل الجيش وهو عرمرم
كرم السُّيول وهيبة الآساد	وهبت له الآجام حين نشابها

وقوله: [الكامل]

ولوا عمائمهم على الأقمار	حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم
أمضى إذا انتضيت من الأقدار	وتقلدوا يوم الوغى هندية
كسحاب غيثٍ ممطر بنهار	قومٌ إذا لبسوا الدورع حسبتهم
أو آمنوك لقيت دار قرار	إن خوفوك لقيت كل كريهة

وقوله وقد شكّا وجع المفاصل^(٢): [مجزوء الكامل]

خِرُّ ما لقيت من الأذى	وجعُ المفاصل وهو آ
والناس من حظّي كذا	ترك الذي استحسنته
سُبُّ في أواخره القذى	والعمرُ مثلُ الكأسِ يرُ

(١) يتيمة الدهر ٢٣/١ ومعجم الأدباء ١/١٣٤.

(٢) يتيمة الدهر ٢/٢٩٩ ومعجم الأدباء ١/٥٨. والثالث في التمثيل والمحاضرة ٣٨٨ وزهر الآداب

٩٠١ ومعاهد التنصيص ٢/٧٦.

وقوله^(١): [مخلع البسيط]

والنُّقل من فستقٍ حديثٍ رطبٍ تَبَدَّى به الجفافُ
زُمُرْدٌ صانهُ حَرِيرٌ في حُقِّ عَاجٍ له غِلافُ

وقوله^(٢): [الطويل]

وللسر فيما بين جنبيٍّ مَكْمَنٍ خفيٍّ قصيٍّ عن مدارج أنفاسي
كأنِّي من فرط احتفاظي أضعتهُ فبعضي له واعٍ وبعضي له ناسي

وقوله: [الوافر]

لقد فاوضتهُ وسدَّتْ أنفي فما نفع احتراسي واحتياطي
عجبتُ لأُمِّهِ إذ قَمَطَتْهُ لقد وضعت خراها في القماطِ

وقوله^(٣): [الطويل]

إذا لم يكن بدٌّ من الموت للفتى فأروحهُ الأوحى الذي هو أسرع
فكن غريصاً بالعيش لا تغتبط به فمحصوله خوف وعقابه مصرع

وقوله^(٤): [الكامل]

حتى إذا داعٍ دعاه إلى الهوى أصغى إليه سامعاً ومطيعاً
كذبالةٍ أخدمتها فكما دنا منها الضرامُ تعلقته سريعا

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٦٢ وأحسن ما سمعت ٦٧.

(٢) رسائل الصابي والشريف الرضي ٨٤ والمختار من شعر بشار ١٥٥ والتذكرة الحمدونية ٣/١٥٤.

— وفي الأصل: ... ممكن X خفيّ قضى ١٠٠٠.

(٣) يتيمة الدهر ٢/٢٩٢.

(٤) يتيمة الدهر ٢/٢٥٦ ومعجم الأدباء ١/١٤٨.

وقوله^(١): [الكامل]

قد كنت طلقت الوزارة عندما زلت بها قدم وساء صنيعها
فغدت بغيرك تستحل ضرورة كيما يحل إلى ذراك رجوعها
فالآن عادت ثم آلت حلفة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقوله في مبخرة: [الرجز]

وقبة ذات حدود أربعة مبنية بناء رأس الصومعة
في ذرعها ضيق وفي الطيب سعة حالية كالغداة المصنعة
مزفوفة لفتية مجتمعة من شاء أن يخلو بها خلت معه
صبت عليها خلج مرتجعة تلبث فيها ثم تُعرى مسرعة

وقوله: [الخفيف]

أقبلت ثم قبلت ظهر كفي فقبلت تنقع الغليل وتشفي
فعضضت اليد التي قبلتها بفم حاسد يريد التشفي^(٢)

وقوله: [الطويل]

فلا تتخذ لحمي غداءً تُسيغه وتحسب جهلاً أن سيمريك أكله
فقد يلسب الفيل المعظم عقرباً فتقتلها من بعد ذلك نعلهُ

وقوله: [مجزوء الكامل]

ما زلت آملُ فتح آملُ منذ سِرتُ تلك الجحافل^(٣)

(١) يتيمة الدهر ٢٨٤/٢ وخاص الخاص ٤٩٧ والإعجاز والإيجاز ٢٧٥ ومعجم الأدباء ١٥٣/١ وهي

مما كتب إلى الوزير أبي نصر سابور بن أردشير، وقد أعيد إلى الوزارة.

(٢) في الأصل: فعضضت...إ.

(٣) آملُ: مدينة بطبرستان. (معجم البلدان ١/٥٧).

لله ما نطق اللسا	نُ به وأومسأت الأناملُ
واستكتمت أسيافنا	نلك العسواتقُ والكواهلُ
فطعماننا يفري الكلى	وضرابنا يبري المفاصلُ
يا برد حـرُحـرُوبنا	في كُل صدر ذي بلابلُ
أبدأ تُرينا في الأوا	خبر ما اقترحنا في الأوائلُ
فامدد يدك لمادنا	ولما نأى فالكلُ حاصلُ

وقوله - وكان شيخنا أبو الثناء يستحسنه^(١): [الطويل]

أقولُ وقد جردتها من ثيابها	وعانقتُ منها البدر في ليلة التّم
وقد آلتُ صدري بشدة ضمّها:	لقد جبرت قلبي وإن أوهنت عظمي

وقوله: [مجزوء الكامل]

قل لاهن نصير قول من	سمع الأذى منه وشمّه:
يالبيت من حفر الكنيـ	ف يوسط وجهك منه ضمّه

وقوله يصفُ الجوزاء بين الشعرين: [البسيط]

وقد تجذلت الجوزاء بينهما	كأنه جُثّة مضروبة العنقُ
ورام أخذ الثريا وهو يحسبها	خريطة سقطت ملأى من الورق

وقوله في الخمر^(٢): [المنسرح]

صفراء كالورس جامها يققُ	شعاعها كالذبال يأتلقُ
كأنها في كف من أتاك بها	ضحى نهار في وسطه شفقُ

وقوله: [الخفيف]

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٥٨ ومعجم الأدباء ١/١٤٩ والوافي بالوفيات ٦/١٦١.

(٢) يتيمة الدهر ٢/٢٦٠.

بين فكيك يا ابن نصر مضيقُ فيه بالشَّم للمنايا طريقُ
فاتقِ الله في الورى وتلثم أي نفسٍ لبعض هذا تطيقُ
وقوله: [الطويل]

إذا كنت قد أيقنت أنك هالكُ فما لك مما دون ذلك تُشفقُ
ومما يشين المرء ذا الحلم أنه يرى الأمر حتماً واقعاً وهو يقلقُ
وقوله: [البسيط]

بكى المظفر من إفراطِ فرونه فكلُّ من أبصرته عينه ضحكا^(١)
كانها إذ بدت والأيرُ راكبها زقٌ يصيدُ عليها سابحٌ سَمكا
وقوله^(٢): [الخفيف]

أيها النابح الذي يتصدئ بقَبيحٍ يَقُولُه لجوابي
لا تؤملُ أني أقولُ لك أخساً لستُ أسخو بها لِكُلِّ الكلابِ
وقوله: [الخفيف]

عظمتُ قِروَةَ المظفرِ حتَّى أعجزتُ كلَّ ناظرٍ يشتهيها
غيببتُ أيره فلم يبقَ إلَّا فيشَّةٌ منه رُما تُبديها
كالسحلفاة حينَ تطلعُ رأساً فإذا أوجِشتُ تراجعَ فيها
وقوله: [الوافر]

أبا الخطَّابِ لو أنِّي رهينٌ ببطنِ القاعِ ينعماني نِعائي
لألزمتُك الوفاءَ وصالَ رَمسي فكيف تُجيزُ هَجري في حياتي

(١) الأول في الأصل: ... قرونه. وانظر ما سيأتي بعد البيتين الآتين. والثاني: ... والابن راكبها.

(٢) يتيمة الدهر ٢٨٤/٢ ومعجم الأدباء ١٥٤/١ والوافي بالوفيات ١٦٢/٦ ومعاهد التنصيص

وقوله^(١): [مجزوء الكامل]

قل للشريف المنتمي	للغُرِّ من سـرواته
شاد الألى لك منصبا	قـرّضت من شـرفاته
والعود ليس بأصله	لكنه بنـيباته
والماء يفسد إن خلط	تـأجـاجه بفـراته
وأحق من نكسـتـه	بالصـفـر من درجـاته
من مجده من غـيره	وسـفـاله من ذاتـه

وقوله في إمام أبخر: [مخلع البسيط]

يامن يصلي صلاة شك	يطول في إثرها قنوته
إن كنت تبغي الثواب فاسكت	رب قم أجـره سـكـوته

وقوله: [مخلع البسيط]

انحر أعادي بني بويه	بالسيف في جملة الأضاحي
فالكل منهم ذوو قرون	تصلح للذبح والنطاح

وقوله في مدخنة^(٢): [الطويل]

ومحرورة الأحشاء تحسب أنها	متيمة تشكو من الحب تبرحا
يحرق فيها العود عوداً وبداءة	فتأخذ جسمها وتبعثه روحا

وقوله^(٣): [المسرح]

قبلت منه فما مجاجته	تجمع مغنى المدام والشهد
---------------------	-------------------------

(١) يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٦.

(٢) معاهد التنصيص ٢/ ٦٨.

(٣) يتيمة الدهر ٢/ ٢٥٨ وخاص الخاص ٤٩٥ ومن غاب عنه المطرب ١٥٧ والإعجاز والإيجاز ٢٧٤.

كَأَنَّ مَجْرَى سِوَاكِه بَرْدٌ وَرَيْقُسُهُ ذَوْبٌ ذَلِكَ الْبَرْدُ
وقوله: [الطويل]

وَقَالُوا: اتَّخَذَ أُخْرَى سِوَاهَا لَعَلَّهَا تُنْسِيكَ ذِكْرَهَا الَّتِي تَتَرَدَّدُ
فَقُلْتُ لَهُمْ: بَعْدًا وَسُحْقًا لِرَأْيِكُمْ أَفْقَلَعُ عَيْنِي حِينَ تَذْوِي وَتَرْمَدُ
وقوله في وردة: [البيسط]

حَمْرَاءُ مَصْفَرَّةُ الْأَحْشَاءِ نَاعَتُهُ طَيْبًا تَخَالُ بِهِ فِي الطَّيِّبِ عَطَارَا
كَأَنَّ فِي وَسْطِهَا تَبْرًا يَخْلُطُهُ قَيْنٌ يُضَرِّمُ مِنْ أَوْرَاقِهَا نَارَا
وقوله: [الطويل]

وَهَبْتُ لَهُ عُمَرَ الشَّبِيبةِ صُحْبَةً وَأَكْرَمَ بِذِي جُرُودٍ إِذَا وَهَبَ الْعُمَرَا
فَلَمَّا أَلَمْتُ لِلزَّمَانِ مُلَمَّةً فَزَعْتُ إِلَيْهِ وَالتَّمَسْتُ بِهِ النَّصْرَا
فَصَمٌّ وَلَمْ يَسْمَعْ نِدَاءً وَلَمْ يُجِبْ دُعَاءَ كَأَنِّي بِهِ مُسْتَنْطِقُ صَخْرَا
وَرَقَّتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ لِي مِنْ صَنِيعِهِ فَاصْبَحْتُ أَشْكُوهُ وَأَسْتَصْرِخُ الدَّهْرَا
وقوله (١): [الكامل]

مَازَلْتُ فِي سُكْرِي أُلْعُ كَفُّهَا وَذِرَاعِهَا بِالْقِرْصِ وَالْأَنَارِ
حَتَّى تَرَكْتُ أَدِيمَهَا [وَكَأَنَّمَا] غُرْسَ الْبَنْفَسِجْ مِنْهُ فِي الْجُمَارِ
وقوله: [السريع]

وَمَنْ طَوَى الْخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ لَأَقِي أُمُورًا فِيهِ مُسْتَنْكَرَةً
وَأَنْ تَخْطَاها رَأْيٌ بَعْدَهَا مِنْ حَادِثَاتِ النَّقْصِ مَا لَمْ يَرَهُ

(١) معجم الأدباء ١٥٦/١ والوافي بالوفيات ١٦٢/٦. والزيادة منهما.

وقوله^(١): [البسيط]

إن نحنُ قسناكَ بالغُصنِ الرطيبِ فقد خفنا عليك له ظُلماً وعدوانا
لأنَّ أحسنَ ما نلقاهُ مُكتسباً وأنت أحسنَ ما نلقاكُ عُريانا

وقوله^(٢): [مجزوء الكامل]

يا من بدتُ عُريانةً فرأيتُ كُلَّ الحُسنِ منها
كانت ثيابُكِ عَوْرَةً فسُتِرتُ بالتَّجريدِ عنها

وقوله: [الطويل]

خِصَابٌ تقاسمناه بيني وبينها ولكن شاني فيه خالفَ شأنها
فيا قُبْحَهُ إذ حلَّ مِنِّي مَفرقي ويا حُسْنَهُ إذ حلَّ منها بنانها

وقوله في اصطِربلابٍ أهداه^(٣): [البسيط]

أهدى إليك بنو الآمالِ واحتفلوا في مهرجانٍ جديدٍ أنت مُبليه
لكنَّ عَبْدَكَ إبراهيمَ حينَ رأى علَّوَ قَدْرِكَ عن شيءٍ يُدانِيه
لم يرضَ بالأرضِ مُهداةً إليك فَقدَّ أهدى لك الفلكَ الأعلى بما فيه

وقوله: [الخفيف]

يشتهي النَّذلُ أن يكونَ كريماً فإذا سيمَ ما اشتهاهُ أباهُ

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٥٨ ومعجم الأدباء ١/١٤٩ ومعاهد التنصيص ٢/٦٧.

(٢) يتيمة الدهر ٢/٢٥٨.

(٣) يتيمة الدهر ٢/٢٧٩ ومعجم الأدباء ١/١٣٥ وآداب الملوك ٢٤٤ والتذكرة الحمدونية ١٣/٥

وبهجة المجالس ١/٢٨٧ وزهر الآداب ٣٩١ والمستطرف ٢/٣٠٩ ومعاهد التنصيص ٢/٧٣.

— وهذا الاصطِربلاب أهداه إلى عضد الدولة في يوم المهرجان.

— ورواية الأول في الأصل: واختلفوا.

فهو مثلُ العَيْنِ يشتهي النَّبيَّ لك ولا يَسْتَطِيعُهُ إنْ أتاهُ
وقوله^(١): [الكامل]

ومنَ العجائبِ أنِّي هُناهُ وأنا المهنا فيه بالنعماءِ
وقوله^(٢): [الكامل]

ياذا الذي جعلَ القطيعةَ دأبهُ إنَّ القطيعةَ مَوضعُ للرَّيبِ
إنْ كانَ ودُّكَ في الطَّويَّةِ كامناً فاطلُبْ صديقاً عالماً بالغيبِ
وقوله: [الخفيف]

صدَّ عني مُستعذباً لعذابي وجفاني كعادةِ الأحبابِ
كل يومٍ يروغُ قلبي بفنٍّ من تجنيه لم يَكُنْ في حسابي
وقوله: [الطويل]

لئن صرتُ حِلْسَ البيتِ حلفَ جداره فبالأمسِ مني تستعبدُ النجائبُ
كذاك أبو الأشبالِ يرئُضُ مُرصداً ولا بُدَّ من أن يعتدي وهوَّابُ
وقوله^(٣): [الطويل]

تَوَرَّدَ دَمْعِي فاستوى ومُدامتي فمن مثلِ ما في الكأسِ عيني تُسكبُ
فواللهِ ما أدري أبا الخمرِ أسبلت جُفوني أم من دمعتي كُنتُ أشربُ
وقوله: [السريع]

(١) يتيمة الدهر ٢/ ٢٨٣.

(٢) البيتان لجعفر بن ورقاء الشيباني في يتيمة الدهر ١/ ٩٧ وخاص الخاص ٤٩٩ قالهما لأبي إسحاق الصَّابي لما انقطع عن زيارته. وهما بلا نسبة في أحسن ما سمعت ٣٥.

(٣) يتيمة الدهر ٢/ ٢٥٦ وخاص الخاص ٤٩٤ ومن غاب عنه المطرب ٢٤٢ والإعجاز والإيجاز ٢٧٤.

سالتُ عنه مجلساً قامهُ قد كان مأكولاً له مُعجبا
فقال: ما قولك في مدخل وجدتُ منه مخرجي أطيبا

٢- وأما أبو محمد عبد الله بن عمر بن محمد الفيّاض^(١)، كاتب^(٢) سيف الدولة:

فكان يكتُب في ماله، بل كان الممول له، والمخول في كل ما ملك؛ وكان يعجن مداده بالمسك، ولا يليق دواته إلا بماء الورد؛ وكان شُعلةً لا تُطفئ، وبارقةً لا تخفى، بذهنٍ متقدٍ، وفكرٍ منتقدٍ؛ إلا أن مادته مقصورة، وجادته محصورة، وبدائعه كثيرة، على قلتها يسيرة، إذا قيست إليها النجوم بجملتها، أرضى سيف الدولة بن حمدان، وأمضى عزائم رأيه وقد نعس الفرقدان، فتقدم أمام الكتاب ولواؤه منصور، وعدوه ببيانه كالليل بالكوكب الدري منحور.

وله نشر، منه قوله:

وقد علم الدُستقُ مواقع سُيوفنا منه، وأيامنا الماضية معه، وأنه ما تحامل إلينا إلا على ظُلّع، ولا أقبل حتى رجع، وها نحن ننشدهُ إمّا القطيعة، وإما الوقعة، والسلام.

ومنه قوله:

وأنتم أحوج إلى طلب الفداء لآساراكم منا إليه، وأجدر إذا استهمت رماحُ الجبلين عليه؛ لأنكم تربعون به تكثراً من قلة، وتعززان من ذلة؛ ولسنا كذلك، إنا لا نأسف على من نقص من عددٍ، ولا نبالي بمن أمسك من مددٍ، ثقةً بما عود الله من النصر، وأتى من الأجر بالصبر.

ومنه قوله:

(١) في الأصل: محمد بن أبي محمد الفيّاض؛ وهو خطأ، والصواب هو المثبت أعلاه.

وترجمته في: يتيمة الدهر ١٠١/١ ومجمع الآداب لابن الفوطي ٥٢٨/٣/٤ (ط. دمشق) و ٢٩٣/٣ (ط. طهران).

(٢) في الأصل: كان سيف الدولة.

وردنا والأرضُ كأذنابِ الطواويس، والطيرُ زجلةٌ كأصواتِ النواقيس، وقد اهتز الشجر، وكلل النبات المطر، والطَّرفُ قد رنح كالطَّرفِ في تلك الميادين، والنسيم قد ضمخ من شذا تلك البساتين، فلم تكن لنا أُمْنِيَةٌ إِلَّا أَنْ نراك، ونثري بلفائك سقي ثراك.

ومنه قوله :

وقد أَجَلَّتْنا يومين وهذا ثالثُ، وأعطيتني عهدين وكُنْتَ الناكثُ؛ فهل ابتدعت ما أَتَيْتُ، أو كان لك عليه باعثُ؟

فيا قسيم روعي، ويا نسيم صبحي، ها قد آن الغبوق، إِلَّا أَنَّهُ يُقْرِفُ مرشفيك وكأس عينيك؛ ووالله لاشربت إِلَّا على آس عذارك وورد خديك؛ فابهرُ قسمي، ورد الجواب من فمك إلى فمي.

*وسياتي ذكرُ أبيه في الشعراء، وبه كانت لابنه هذه المكانة من سيف الدولة، وكلاهما - أعني هذا وأباه - ذو تيهٍ وصلفٍ، وكلاهما من صاحبه خلفٌ.

٣- وأما الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان^(١)، صاحب المقامات *فإنه فيما سواها، ما قاربها ولا داناها؛ حتى عجز عند الامتحان، عن كتابة كتابٍ أمر به على ما وشَّع من تلك المقامات، ووسع من تلك المقالات؛ وبرع في ذلك المذهب، وعُرف له من الحريري المذهب؛ هذا والدهر من دواته، والناس سواء

(١) ترجمته في: نزهة الألباء ٣٧٩ والمنظوم ١٧/ ٢١٤ والأنساب ٤/ ٩٥ و ١٢١ ووفيات الأعيان ٤/ ٦٣ ومعجم الأدباء ٥/ ٢٢٠٢ وإنباه الرواة ٣/ ٢٣ والكامل في التاريخ ١٠/ ٥٩٦ واللباب ١/ ٣٥٢ و ٣٦٠ وإشارة التعيين ٣٦٣ وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٦٠ وطبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٦٦ والبلغة للغيروز أبادي ١٨٧ والبداية والنهاية ١٦/ ٢٥٩ وبغية الوعاة ٢/ ٢٥٧ والوفيات ٢٤/ ١٣١ وشذرات الذهب ٦/ ٨٣ ومعاهد التنصيص ٣/ ٢٧٢.

في عدم مساواته؛ وهو مادة أهل الأدب، والذي ينسلون إليه من كل حذب، إلا أنه لم يقدر أن يكون مكلفاً، ولا استطاع أن يكون لغير أمالي خاطره متلقفاً؛ وهذا مذهب غير مذهب كُتاب الإنشاء المكلفين اتباع غرض غيرهم، حتى يقسروا خواطرهم على ذلك؛ على أن الرجل فضله عظيم، ومثاله الدهر به عقيم، وقدره جليل، ونظيره قليل؛ منبع الفضائل ونبعتها، وصيتُ الفواضل وسمعتها؛ توقته الأعداء سماماً، وألقته الأولياء سهاماً؛ وكان معدن [كل] نائل، وموطن كل طائل؛ باري غرب يريش ويبري، ويجيش قلب خاطره ويجري، أبرز مالم يستطعه الأوائل، وأحرز قصبات السبق على كل قائل.

وكان (١) سبب وضعه لمقاماته، ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله، قال: كان أبي جالساً في مسجده ببني حرام، فدخل عليه شيخ ذو طمرين، عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح الكلام، حسن العبارة؛ فسأله الجماعة من أين الشيخ؟ فقال: من سروج (٢)؛ فاستخبروه عن كنيته، فقال: أبوزيد؛ فعمل أبي المقامة المعروفة بالحرامية وهي الثامنة والأربعون، وعزاها إلى أبي زيد المذكور واشتهرت، فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنوشروان بن خالد القاشاني (٣) وزير المسترشد بالله (٤)؛ فلما وقف عليها أعجبته، وأشار إليه أن يضم إليها غيرها، فأتىها خمسين مقامة؛ وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في الخطبة: فأشار من إشارته حكماً، وطاعته غنم، إلى أن أنشئ مقاماتٍ أتلو فيها تلو البديع (٥).

(١) من هنا نقلاً عن ابن خلكان، والزيادات منه.

(٢) سروج: بلدة قريبة من حران، من ديار مضر. (معجم البلدان ٣/ ٢١٦).

(٣) كان نبيلاً فاضلاً، جليل القدر، له تاريخ لطيف؛ توفي سنة ٥٣٢هـ. (وفيات الأعيان ٤/ ٦٧).

(٤) المسترشد بالله: الفضل بن المستظهر بالله، أبو منصور؛ بويع له بالخلافة سنة ٥١٢هـ وقتل سنة ٥٢٩هـ. (تاريخ الخلفاء ٥٠٩).

(٥) بديع الزمان الهمداني، صاحب المقامات المشهورة.

قال ابن خلكان: ورأيتُ في سنة ستّ وسبعين وستّمئة بالقاهرة، نُسخة مقاماتٍ بخطّ الحريريّ، وقد كتب أيضاً بخطّه على ظهرها، أنه صنّفها للوزير جلال الدين عميد الدولة [أبي عليّ، الحسن بن أبي العزلي بن صدقة] وزير المسترشد أيضاً. قال ابن خلكان: ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى، لكونه بخطّ المصنّف، والله أعلم.

وأما تسمية الراوي بالحارث بن همام، فإنما عني [به] نفسه، وهو مأخوذ من قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ حَارِثٌ، وَكُلُّكُمْ هَمَامٌ»^(١)، فالحارث: الكاسب؛ والهمام: الكثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارثٌ وهمامٌ، لأن كل أحد كاسبٌ ومهتمٌ بأموره.

وكان الحريريُّ قد عمل من المقامات أربعين مقامةً، وحملها إلى بغداد وأدعاها، فقال جماعةٌ من أدباء بغداد: ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي مات بالبصرة، ووقعت أوراقه إليه فادعاها؛ فاستدعاه الوزير إلى الديوان، وسأله عن صناعته، فقال: أنا رجلٌ منشيٌّ؛ فاقترح عليه إنشاء رسالةٍ في واقعة عينها، فانفرد في ناحيةٍ من الديوان، وأخذ الدواة والورقة، ومكث زماناً، فلم يفتح الله عليه بشيءٍ من ذلك، فقام وهو خجلان؛ وكان من جملة من أنكر دعواه أبو القاسم عليّ بن أفلح^(٢)، فأنشد^(٣): [المنسرح]

(١) قال الإمام ابن كثير (البداية والنهاية ١٦ / ٢٦٠): كذا قال القاضي، وإنما اللفظ المحفوظ: «أصدقُ الاسماء حارثٌ وهمامٌ».

قلت: وانظر الحديث في سنن أبي داود ٢٨٨ / ٤ رقم ٤٩٥٠.

(٢) هو جمال الملك، أبو القاسم، علي بن أفلح العبسي: شاعر ظريف، حسن المديح، كثير الهجاء؛ توفي سنة ٥٣٥ هـ وقيل غير ذلك. (وفيات الأعيان ٣ / ٣٨٩).

(٣) لم يحزم ابن خلكان بنسبة البيتين إلى ابن أفلح، بل زاد: وقيل: إن هذين البيتين لأبي محمد [الحسن] بن أحمد، المعروف بابن جكيئا الحريري البغدادي الشاعر.

قلت: وانظر ترجمته في فوات الوفيات ١ / ٣١٩.

— والبيتان في معظم مصادر ترجمة الحريري.

شيخُ لنا من ربيعة الفُرسِ يَنْتَفُ عَشْنُونُهُ من الهوسِ
أنطقهُ اللَّهُ بالمشانِ كما رماهُ وسط الديوان بالخرسِ

وكان الحريريُّ يزعمُ أنه من ربيعة الفرس، وكان مُولعاً بـنتفٍ لحيته عند الفكر، وكان يسكن في مشان البصرة^(٣)؛ فلما رجع إلى البصرة عمل عشر مقاماتٍ أُخر وسيرهُنَّ، واعتذر من عِيهِ وحصرهِ بالديوان، مما لحقه من المهابة^(٢). وللحريريِّ عدَّةُ تصانيفٍ طريفةٍ لطيفةٍ، كدرة الغواص، وملحة الإعراب؛ ويُقال: إنه عملها لجواري الخليفة، فكن يحفظنها ويُقمن السنتهنَّ بها. قلتُ: وهي بما حوت من العلم سهلة المأخذ، كأن شعرها غزلٌ؛ ولو لم يكن منه إلا قوله: [الرجز]

ولن يطيبَ الوصلُ حتَّى تُسعدِي يا هِنْدُ بالوصلِ الذي يروي الصَّدَى
*وله نظمٌ ونثرٌ في غير المقامات، ومنها قوله نثراً^(٣):

ولما استخدم الخادمُ فيما أَهْلُ له أنفأ، اعتمد في الخدمة ما يتهيب قلمهُ الإفصاح عنه، ويعرف بأن سعادة الديوان العزيز هي التي سنَّت ما تسنَّى منه، وتقدَّم له الوعد بأنه عند تصفح مساعيه، يُمنح من المساعفة بما يرتجيه، ولم يقدم قلمه على التذكير بالوعد الشريف، إلا بعد ما أنطقهُ لسانُ التوفيق للخدمة، وكفل له بمزيد الحُظوة من النعمة؛ فإن اقتضت الآراءُ العلية إنجاز

(١) المشان: بُليدٌ فوق البصرة، كثيرة النخل، موصوفة بشدة الوخم، وكان أصل الحريري منها. (وفيات الأعيان ٦٧/٤ ومعجم البلدان ١٣١/٥).

(٢) إلى هنا ينتهي النقل عن ابن خلكان.

(٣) رسائل الحريري ١٣٩ب (نسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، رقم ٦٢ أدب) وهي ناقصة من أولها بما لا يُعلم مقداره.

موعده، كان ذلك إنعاماً يقعُ عند مُعترفٍ بوقعه، مستنفذٍ في الطاعة غاية وسعه.

ومنه قوله^(١):

لولا خبرتي بفضل السائر، وإنعامه المنجد الغائر، لاستريتُ فيما يحكي،
وامتريتُ فيما يروي؛ ولكن ما خلا عصرٌ من جواد ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٢) فإنه
—أبقاه الله— وإن تصرفت الأحوال، وتشعبت الأقوال، كالغمام لا يُقطع سقياهُ،
ولا يستطيعُ أحد برد حياهُ؛ وللرأي الشريف مزيدُ علوه في الإنعام، بتأول ما
أوضحته، والتطوُّل بما اقترحته.

ومنه قوله:

رزءٌ تساهم فيه الأنامُ، وأظلمت ليومه الأيامُ، واستغرب عنده الحِمَامُ، وعُزِّي
فيه الدهرُ بكافل أبنائه؛ ونُدب فيه شقيقُ السحاب، فاستعبر بدموع أنوائه.

ومنه قوله^(٣):

وصل من المجلس —أكمل الله سعوته وأكمد حسوده— كتابٌ اتسم بالمكرمة
الغراء، وابتسم عن النعمة العذراء؛ ووجدت بما ألحف من الجميل، وأتحف من
التجميل، ما كانت أطماعي تهفو إليه، وآمالي تحوم حواليه؛ إذ ما زلت مُد
استمليتُ وصف المناقب الشريفة، أبعثُ قلمي على أن يُفاتح، وأن يكون الرائد
لي والماتح، وهو ينكصُ نكوصَ الهَيُوبَةِ، وينكل نكول الكهام عن الضريبة، إلى
أن بُديتُ وهُديتُ، ورأيتُ كيف يُحيي الله ويُميتُ، فلم يبق بعد أن أنشط

(١) رسائل الحريري ٨ ب.

(٢) سورة الرعد: ٧.

(٣) رسائل الحريري ١٧٢ ب.

العقال، واستدعي المقال، إلا أن أنقل التمر إلى هجر، والهشيم إلى الشجر، فأصدرتها مُتشحة بالخجل، مرتعشة من الوجل، وأنا مُعترف بالتقصير، معتذرٌ باللسانِ القصير، «ولِكُلِّ امرئٍ ما نوى»^(١)، ﴿وَأَن تَعْفُو أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٢).

ومنه قوله:

ولعلَّ الأيام تسمح بمتعة الملاقاة، فاجعلها غرة الأوقات، وأعظمها كتعظيم حُرمة الميقات؛ وهو إذا أتحفني بسطرين في كل شهرين، يكون قد أمطاني رتبةً تضاهي النسرين، وأولى نعمةً تبقى على العصرين.

ومنه قوله يهنئ بشهر رمضان: [الخفيف]

أنت في الناسِ مثلُ ذا الشهرِ في الأشْهُ
هـُـرِبَ لِمِثْلِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِيهِ
أسعد الله المجلس بمقدم هذا الشهر، ومطلع هلاله المنيّف؛ وهذا دُعاء - لو سكّت - كُفَيْتُهُ، وسؤال - ولله الحمد - أوتِيَتْهُ.

ومنه قوله:

إذا كانت المودات - حرس الله عز سيدنا - أنفس المرام المخطوب، وأنفع ما اقتني لدفع الخطوب، فلا لوم على من استسعى قدمه لخطبتها، واستعلق قلمه لطلبها، لاسيما إذا كانت تُعجب المتأمل، وتُسعف المؤمل؛ هذا وأنا مع المغالاة في الموالاة، وعلى هذه الصفات من المصافاة، أعترفُ بوجوب مُعاتبتي، لقصور مكاتبتي، وأعتذرُ من عظيم هفوتي لتمادي جفوتي، ولولا أن لمفاتحة حضرته

(١) من حديث رسول الله ﷺ: إنما الأعمال بالنيّات، ولكل امرئ ما نوى،... (صحيح

البخاري ٢/١).

(٢) سورة البقرة: ٢٣٧.

وقفة المتهيب، وخجلة القطر من الصَّيْب، لما استهدف قلمي لمرام الملام،
ولاستنكف أن يكون سَكَيْتاً في حلبة الأَقلام؛ وها هو الآن قد أقدم إقدام الوقاح،
وتعرض للافتضاح؛ فإن رُزق بالقبول تحسناً، أو بمصافحة يده تزييناً، فقد فاز
فوزاً عظيماً، وحلّ محلاً كريماً، وأنى له؟ ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١) فما
قيل إلا بما هو له أهل: [الكامل]

ولربما استبأست ثم أقول: لا إن الذي استشفعت منه كرم
ومنه قوله:

ولم يزل الخادمُ يستملي من أنباء الكرام الطاهرة، والفضائل المتظاهرة، مايودُّ
لو سعد برؤيته، وقرب إسعاده في روايته، ويوقن معه أن الله أعلم حيث يجعل
رسالاته، ويخص بكراماته؛ وقد أقدم الآن بعد إحجامه في استخدام أَقلامه، فإن
رُزق من الإيجاب الشريف ما يُحقق التأميل، فهو المظنون في كرمه البديع وطوله
الوسيع؛ والآن فللخادم حُرمة من أحرم وقصر، وطلب النصرة فلم يُنصر؛ والله
تعالى لا يُخلي المجلس من تناديه، واسترقاق الأحرار بأياديه.

ومنه قوله:

سطرها الخادم وهو منتسك بالولاء الذي يتمسك بحبله، والدعاء الذي هو
جهدٌ مثله، والثناء على صنائعه، التي طالما أبكى بها وأضحك الأجيال؛ وقصده
أن يتعمد بعواطفه التي تُحقق الأمل، ومجازاته على حسب النية لا العمل.

ومنه قوله:

أصدرت هذه الخدمة، واليد تنكل عن مُطاوعة القلم، لهذه النازلة التي أصم

(١) سورة يونس: ٩١.

نعيمها المسماع، وهون وقعها الفجائع: [الطويل]

فلا قلب إلا قد تباين صدعُهُ ولا عين إلا وهي تذرفُ بالدم

ومنه قوله:

وهنا بالنجاح كل من غشينا إلى ضوء ناره، وانتجع صوب أمطاره، وسمع
أخبار كرمه فاهتدى إلى قصد الكريم بأخباره.

ومنه قوله^(١):

وحبس عليه المدائح التي حازها بالاستحقاق، واستخلصها بكلمة الاتفاق.

ومنه قوله^(٢):

وما زال مُتصفاً من الكمال بما لا يقبل معه مزيداً، ولا يستطيعُ خلقٌ لملايسه
تجديداً، خُلُقاً دانَ الخلقُ لمعجزاته، وقصُرَت الأفعالُ عن تحقيق صفاته، والله أعلمُ
حيثُ يجعلُ رسالاته.

ومنه قوله^(٣):

واشتاق إلى تلك الألفاظ المعسولة، والمعاني المشمولة، التي تميلُ بأعطافها
نشوة الفصاحة، وتفتُر عن محاسنه شفاه الرجاحة، فلا جرم أنها قد شغلتنني أن
أنطق بمنثورٍ مُلقحٍ، أو منظومٍ مُنقَّحٍ.

(١) رسائل الحريري ١٢٠.

(٢) رسائل الحريري ١٥٣.

(٣) رسائل الحريري ١١٢.

ومنه قوله (١):

وكتب الخادمُ هذه الخدمة أواخر شعبان، عظم الله لدى مولانا ميامن تقضيته، وبركات ما يليه؛ جعل الأيام كلها مواسم مساره، وصحائف مباره، ومعالم مآثره الحسان وآثاره.

ومنه قوله:

من شيم السادات، حفظُ العادات، فما بالُ سيدنا أغلق باب الوصال بعد فتحه، وأصلد زند الإيناس عُقيب قدحه، وأوردني أولاً شريعة بره، ثم أجلاني عن شاطئ بحره، بما كان للملل فأنا أنزهه منه، أو لزلل فاستغفر الله منه؛ ولعل سيدنا يعودُ إلى عطفه الكريم، ويروح قلبي بمؤانساته الأرجة النسيم؛ وإذا تكرم عند عرض ما كتبته بما تحسنُ به الجلوة، وتُجلبُ به الحُظوة، شكرت العارفة الحُلوة.

ومنه قوله (٢):

جعل الله الدولة القاهرة مُونقة النضارة، مُشرقة الإنارة، ممنوحة الإطالة، مهروجة الإباله (٣)؛ ولا أخلاها من مآثره تروى عنها وتؤثر، ومنقبة تُذكرُ على تعاقب الأزمنة وتُشكر؛ ولا زالت مُمطرة الأزمنة، حاليةً بالمناقب البينة، متلوة الأوصاف بجميع الألسنة، ماثورة المدائح بكلِّ الأمكنة؛ وأسبغ على أقطار البلاد من عواطفها ما أضحك مباسم الظنون، وحل كالغيث الهتون؛ ولا برحت أيامها

(١) رسائل الحريري ١٦٤.

(٢) رسائل الحريري ١٢٨.

(٣) كذا في الأصل، والعبارة ساقطة من الرسائل.

مُمتدة المدة، محتفةً بالتهاني المستجدة، وأورف ظلّها على الخلق، وأعلى كلمتها القائمة بنصر الحق، مادارت الشُّهب، ودرت السُّحب، وشُهرت القُضُب، ونُشرت الكتُب، واستهلّت الأهلّة، واستهلّت الأنواء المنهلّة.

ومنه قوله^(١):

وصل إلى العبد ما أهّل له، من مدارع التشريف الذي أحيا رُمته، وجلّى غُمته، واتخذهُ فخراً لأعقابه، وذُخراً لمآبه؛ وهو يرجو أن يُقابل مواقع النعمة، بما يجبُ من الشُّكر بلسان الخدمة، وسيتضحُ من مساعي الخادم ونصائحه، تأثيرُ شُكر جوارحه.

ومنه قوله^(٢): [الطويل]

ولو أن أنفاسي أصين بحرّها [حديداً] إذا كاد الحديدُ يذوبُ
ولو أن عيني أطلقت من بُكائها لما كان في عامِ الجُذوبِ جُذوبُ

بي من الاشتياق إلى خدمة ما يصدع الأطواد، فكيف الفؤاد؟ ويهوي بالجال
فكيف البال؟ ولولا التعلُّلُ بترجّي الالتقاء لقليل عنه: لك يا مولانا طولُ البقاء،
إلا أنه يستدفعُ الخوفُ بسوف، ويزجرُ الأسى بعسى ﴿وهو على جمْعِهِمْ إذا
يَشَاءُ قديرٌ﴾^(٣).

ومنه قوله:

المراتبُ تتفاضل مراقيها بتفاضل راقيها، وتتفاوتُ معاليها بتفاوت من يليها،
ولولا ما يعلمهُ سيدي من وظائف الخادم في التوفير على الدُّعاء، لما سبقهُ إلى

(١) رسائل الحريري ١٥١.

(٢) البيتان في رسائل الحريري ٥٣ ب.

(٣) سورة الشورى: ٢٩.

الخدمة قدماً، ولا ترجم عن تهنئته قلم، فمتعته الله بما وهبه من المعالي، وأحله من مقاماتها في المكان العالي، وبارك له في وصل عقيلتها التي تغتبط بوصله، وتقول: الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة من فضله؛ وهو أعزُّ الله يجعل قدره أن يهنأ برتبة وإن علت، ويرخص عنده قيمة كل خطوة وإن غلت؛ فليهن الأنام ما تجدد له من المرتبة المنيفة الذرى، والمهابة التي خضعت [لها] أعناق الورى؛ والله لا يخليه من زيادة يستمدها، وتهنئة يستجدها.

ومنه قوله:

وشكري لما أولى من مكارمه، تُوفي على شكر الروض الذابل، لصنيع الوابل، بل شكر من أطلق من أسره، وجبر بعد كسره؛ ولو نهض بالعبد القدمان، أو أسعده الزمان، لقصد الباب العالي ولو على الأجفان، وقام في زمرة المداح يتلو صحف الشكر باللسان؛ ولما قصرت به الخطوة عن هذه الخطوة، أقدم على أن يهدي الورق إلى الشجر، وبيض من مدائحه شعراً كبياض الشعر، هذا على أن ذنب المعترف مغفور، والمجتهد وإن أخطأ معذور.

ومنه قوله:

طالما شجع الخادم قلمه على إيضاح ولائه، فنكص إلى ورائه، وأحجم للتهيب عن إنهاؤه، وقد أقدم الآن على أن أبان؛ فإن أسعد بجواب يبهج بتأمله، فقد حصل على مؤمله؛ وإن رجع بصفقة الخائب، وطرده طرد الغرائب: [من الكامل]

[الكامل]

فلربما منَعَ الكريم وما به بخلاً ولكن سوء حظ الطالب^(١)

(١) البيت في رسائل الحريري ٦٥ ب والمستطرف ١/ ١٢٣ و ٣٦١ والتذكرة الحمدونية ٨/ ١٥٥

والامثال والحكم للرازي ٨٤ بلا نسبة.

ولعله يرفع الطرف، ويشرفُ في الجواب ولو بحرف، وعليه سلامُ الله ما
حطت أقدامٌ، وخطت أقدامٌ.

*ومن شعره^(١): [البسيط]

قال العواذلُ: ما هذا الغرامُ به أما ترى الشعرَ في خديه قد نبثا
فقلتُ: والله لو أن المفند لي تأمل السحر في عينيه ما ثبثا
ومن أقام بارضٍ وهي مُجدبةٌ فكيف يرحلُ عنها والربيعُ أتى

وقال، وقد أتاه رجلٌ^(٢) لسمته، فلما رآه استزراه^(١): [البسيط]

ما أنت أولُ سارٍ غره قمرٌ ورائدٌ أعجبتُه خُضرةُ الدمنِ
فاختر لنفسك غيري إنني رجلٌ مثلُ المعيدي فاسمع بي ولا ترني

وأورد له عماد الدين الكاتب في «الخريدة»^(١): [مجزوء الخفيف]

كم ظباءٍ بحاجرٍ فتنت بالمحاجر
ونفوس نفائسٍ خدرت بالمخادر
ورئين الخطاير هاج وجُداً لخطاير
وعذار لأجله عاذلي فيه عاذري
وشجون تضافرت عند كشف الضفائر^(٣)

فهذا مقدارُ كافٍ في القسم الأول، من مشاهير الكتاب الذين عظم صيتهم
ولا غوص لهم.

فأما هذا الرجل - أعني أبا محمد الحريري - فإنه - على ما رأيتُ أتمودج

(١) وفيات الأعيان ٤ / ٦٦.

(٢) في الأصل: ... وقد أتاه رجل أتاه... ١...

(٣) في بعض الأبيات في الأصل تصحيف.

كلامه هنا- قليل الغوص بخلاف مقاماته، فإنه فيها كمن طلب الروض فجنى زهرها، وصعد السماء فاقتطف زهرها؛ وإنما تركت اختيار شيء له منها لشهرتها، ولأنها صارت كتاباً بذاته، لا تُعدُّ في سلك ترسلاته؛ وبينهما في حُسن الكون، ما رأيت من هذا البون، على أن ما أوردتُ له من هذه الرسائل هي الفرائد التي لا تُقوَّم، والفوائد التي تعني من يتعلم، مُتماثلة في توفية الأغراض، مُغازلة كالجفون المراض، سهلة على فهم المتناول، قرمة^(١) لا تنالها يد المتناول.

*وأما القسم الثاني من أصحاب الغوص، فسند كرههم على أن حُكم أكثر الكُتّاب القدماء حُكم العرب، كلاهما له فضيلة السبق، وفتح الطريق؛ وحُكم المتأخرين منهم حُكم المولدين من الشعراء، في توليد المعاني والجميء باللطائف؛ وقد وشحوا صناعتهم بالاستعارات الصحيحة والتشبيه والاستخدام والتورية وأنواع البديع، وتناهاوا في التدقيق والتنميق، وتباهاوا في التخيل والتخيير، وقيدوها بالأسجاع، ولزموها كالقوافي، فلم يُعوزها^(٢) من الشعر إلا الوزن فأخملوا الأوائل، وأخمدوا كل قائل، وأثموا الفن وكملوه، وزينوا الفضل وجملوه؛ وهذا مكانٌ للمغرب فيه مع المشرق مجالاً، وميدانٌ له في فرسانه رجالٌ، وهو في هذا غير ممنوع ولا مدفوع، لكنه فيما تقدم المئة الرابعة لا يُذكر له في هذه الفتية فيعة^(٣)، ولا تظهر له هيئة؛ ثم ما عدم في هذا الشأن ما أوهن زُجاج حاسده، وأشرق بغصص الدمع شأن معانده؛ ولا نقولُ هذا على أن للغرب بهذا المزية على الشرق، ولا أنه سلّم إليه في هذا الحق، وإنما نحنُ بصدد إنصاف، وما يبعد فيما بين الغرب والشرق في هذه الفضيلة، ولا نُجحد أن له بمن نعهده هنا

(١) كذا.

(٢) في الأصل: يعوزها.

(٣) الفية: الغنية. (القاموس).

وسيلة، وإلا فالمشرق من كُتابه المتأخرين من اقتطف الزُّهر والزُّهر، وجرُّدنه على
 الحجر والنهر، وأتى بما هو أضوع من العبير، وأضوأ من جبهة القمر المنير؛
 وردواغدر البلاغة فشربوا زرق نطافها، وساموا رياض البراعة وشرعوا في قطافها،
 فولدوا المعاني واخترعوها، وابتدؤوا أحسن الطرق وابتدعوها؛ وفتن الألباب
 كلامهم الدرُّ، ولفظهم الرقيق الحرُّ؛ وأدعى قولٍ نقوله للحق: إنَّ من لدنَّ المنة
 الرابعة وهلم جرا أهل المغرب في هذه الصناعة أكثر رجالاً وأهل المشرق أبرع
 رجلاً، وإنما أردنا بتقديم من قدمنا ذكره من الوزراء والكُتاب، وإن لم يكن ما
 يؤثر عنهم ممَّا يناسبُ دُرَّةُ كله نظم هذا السُّحاب، لإثبات الفضل للشرق على
 الغرب في تلك المدد الطوال والسنين الخوال، فإنَّ الشرق كان معموراً بمثل
 هؤلاء، والغرب قفر يبابُ أكتبُ من فيه نقولُ له: ﴿وما كُنْتَ تَدْرِي ما
 الْكِتَابُ﴾^(١) على أن هؤلاء القُدماء وإن لم يدخلوا في الغوص من هذا الباب،
 ولا أتوا باللبِّ اللَّباب، فما فاتهم سابقةً فضلٍ في فضلٍ، ولا قصرَ بهم راية عن
 غاية، وفي أثناء ما ذكرناه دليل، لولا الاكتفاء به لبيناه مع سعة هذه المقدره
 والتقدم في دول الخلفاء، والتقرب في خواطرهم إلى محل الاصطفاء، وما أُجري
 لهم من الأرزاق، أو جرى بهم من الأموال، وأقلها خزائن والإقطاعات، وأصغرها
 مدائن والنَّفقات، وأهلها قناطيرٌ مقنطرةٌ، والعطايا وبعضها جُمْلٌ مستكثرةٌ،
 والدولة الزاهرةُ وكانوا أطواذها، والصولة القاهرةُ وكانوا إذا رؤوا آسادهَا، والخلافة
 وكانوا عمادها، والإمامة وكانت أعلامهم سُيوفُها والسيوفُ أعمادها، والمفاخر
 وقد جمعوا شتيتها، والمآثر وقد استطابت على مطارف السُّحاب مبيتها، واغتنام
 الأيام وصنائع ملكوا بها رِقَّ الأحرار، وأطافوا بها على الأكباد الحرار؛ فيا أيُّها
 المُباهي للمشرق بالمغرب، والمباهلُ في هذا الفضل المغرب، ها قد قلنا لك بعض

ما عندنا، فقل لنا كل ما عندك، وأرنا نارك إن كنت تحرق، وأقداح زندك.
 *فأما ما نذكره لأصحاب الغوص قديماً، ونصل جناحه بالمفاخرين، فسنعص
 به حُلوق المفاخرين، ونقذي عُيونهم في الآخرين، ونخرهم للأذقان على
 وجوههم داخرين.

وها أنا ذاكرُ القسم الثاني؛ فمنهم:

٤- أبو الفرج، عبد الواحد بن نصر بن محمد، القرشيُّ الخزوميُّ، المعروف بالبغاء^(١)

*هو رأس الجماعة، ورئيسُ القوم في البضاعة، ما قصر في متن تشبيهه عن
 ابن المعتز، ولا في ديباجة لفظه عن البُحْثري، ولا في إحكام معانيه عن أبي تمام،
 ولا في كثرة تنويعه عن أبي نُواس؛ علم لا يخفى، وقلم لا يحفى، عرش آداب
 مخضل النبات، مخضر الجنات، رأي المجد هضبة فأناف رأسها، وحلبة فأجرى
 أفراسها، فطرّف بطارفه التّالِدَ، وشرف بمطارفه الوالد، وأحيا شرف مخزوم، وقد
 فرع عُمر عُمر وفات خالد؛ تُوفي البغاء سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة.
 ومن كلامه يصفُ حمارة^(٢):

مخططةٌ يستطيل بياضُها، فيما يستطيل من أعضائها، ويستدير فيما
 يستدير؛ وهذه الأتانُ بما خرجت عن العادات، وخالفت الموصوفات، ناطقةٌ في

(١) ترجمته في: يتيمة الدهر ٢٣٦/١ وتاريخ بغداد ١١/١١ والأنساب ٧٠/٢ وتاريخ دمشق ٤٤/٤٧
 ومختصره ١٥/٢٦٥ والمنظم ١٥/٦٤ والكامل في التاريخ ٩/٢٠٩ واللباب ١/١١٧ ووفيات
 الأعيان ٣/١٩٩ وسير أعلام النبلاء ١٧/٩١ والعبر ٣/٧٠ وتاريخ الإسلام [وفيات ٣٨١-٤٤٠]
 ص ٣٥٨ والوافي بالوفيات ١٩/٢٧٧ والبداية والنهاية ١٥/٥٢٣ وشذرات الذهب ٤/٥١٥.

(٢) كلُّ النصوص التي لم تخرّج -شعراً أو نثراً- فهي مما أُخلّ به كتاب «البَّغاء: حياته، ديوانه،
 رسائله، قصصه» جمع وتحقيق الأستاذ هلال ناجي.

كمال الصنعة بأفصح لسان، مشتملة على غرائب الإحسان؛ أنفس مُدخِر، وأغرب موشى، وأفخر مركوب، وأطرف محبوب، وأعجزُ موجود، وأبهر محدود؛ كأنما وسمها الكمالُ بنهايته، أو لحظها الفلكُ بعنايته، فصاغها من ليله ونهاره، وحلّأها بنجومه وأقماره، ونقشها ببدايع آثاره، ووشى روضها بيانع أزهاره، ورمقها بنواظر سُعوده، وجعلها بالكمال أحد حُدوده؛ جامعةً شتيتها بالقسمة والترتيب، بين زماني الشبيبة والمشيبة؛ قيدُ الأبصار، وأمدُ الأفكار، ونهاية الاعتبار، بستانٍ بسرجٍ، وروضةٌ بمرجٍ، مُنزهٌ عن الحلي عطلها، مُزينةٌ بالزهر حلّها؛ حدٌ جنسها، وعالمُ نفسها؛ صنعةُ المنشئ الحكيم، وتقديرُ العزيز العليم، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١).

ومن قوله قرين إسطرلابٍ أهده:

أجلُ الهدايا -يا سيدي أطل الله بقاءك- موضعاً، وألطفها من الملائف موقعاً، ما لاعم الاختيار، ووافق الإيثار، وكان العقلُ أخص بفائدته، والفهم أحظى بيمن عائدته؛ ولما كنت -أيديك الله- ممن لا يتوصلُ المتوصلُ إليه إلا بما تُنصفُ (٢) العادة الحكمة عليه؛ آثرتك -وفقك الله- ببرهان الحكمة ونسبها، ومدار الفلسفة وقطبها، ومرشد الفكر ومناره، وميزان الحُسن ومعياره، ونافي الشك ومزيله، وشاهد العالم ودليله، ومصور الهندسة ومُمثلها، ومقسم البروج ومعدّلها، وموقف النجوم ومثيرها، وجامع الأقاليم ومديرها؛ مرآة الحُبك، وصورة الفلك، وأمين الكواكب، وحدُ المشارق والمغارب؛ مما اخترعت العقول تسطيعه، وآتقن الحسابُ تصحيحه، وتمازت الفطنُ في ترتيبه، واصطلحت الحكماء على تركيبه، فاوضحت باليقين تقسيمه، وأبانت بالكتابة قلمه ورسومه، إلى أن

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) في الأصل ينفق.

شافهنا بالارتفاع على بُعد مسافته، وحصر متفرق الأنوار في مجرى عضادته، واحتوى على قطري الشمال والجنوب، وأطلع باللطف على خفيات الغيوب؛ متّعك الله باستخدامه، وأسعدك بمواقع أحكامه، وأغناك بالتوفيق عما يستمدّه منه، وبالحيرة عن الاختبارات الصادرة عنه، وقد آنست وحشته من فهمك بسكنه، ورددته من ذكائك إلى وطنه، فإن رأيت أن تديله من الأفهام الصدئة بصفاء بصيرتك، وتقرّه في أمنع قرار من كنف فطنتك، فعلت إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله يستهدي دواة من الأبوس بآلاتها:

ولعل المولى يُنعم بدواة تكون للكتابة عتاداً، وللخاطر زناداً؛ جدولية العطفين، هلالية الطرفين، مسكية الجلدة، كافورية الحلية، فسيحة الأحشاء، مهففة الأعضاء، فهي من لون جلدها، ووشائع حليتها: [الحفيف]

كشباب مجاور لمشيب أو ظلام مُوضّح بنهار
أضمرت آلة النهى فهي كالقَلْد ب وما تحنويه كالافكار

يُقارنُها قُضباناً^(١) من ذخائر السحاب، وودائع التراب؛ كلُّ مُعدل الكعوب، قويم الأنبوب، باسق الفروع، رويّ الينبوع، نقي الجسد، نازح العقد، مختلف الشيات، متفق الصفات، مما اعتنت الطبيعة بتربيته، وتبارت الدِّم في تغذيته، كالجوهر المصنوع، واللؤلؤ المكنون؛ ملتحف الأجساد بمثل خوافي أجنحة الجراد، أولى باليد من البنان، وآنس بخفي السر من اللسان، مُقترن ذلك بمديّة لا تفتقر إلى جلب^(٢)، ذات غرارٍ ماضٍ، وذبابٍ قاضٍ، ومنسر ناويٍّ، وحديدٍ سمائيٍّ، وجوهرٍ هوائيٍّ، ونصابٍ زنجيٍّ، وحدٍ لجيٍّ، معه مقطّ، يرتفع عليه تقديرها وينحطّ، ذو جسدٍ بجراحها مكلوم، وجلدٍ بآثارها موسوم: [البسيط]

(١) في الأصل: نضات.

(٢) الجلب: النصاب المغطى بالجلد.

في كلِّ عُضْوٍ لَهُ مِنْ وَقْعِهَا أَلَمٌ وليس يَنْجَعُ فِيهِ ذَلِكَ أَلَمٌ
كَأَنَّهُ وَامْتِهَانُ الْقَطْ يَرْعُمُهُ أَنْفُ الْحَسودِ إِذَا أَرْغَمَنَّهُ النُّعْمُ

حتى إذا جيبت غاريه، وأطلقت مضاريه، انصاع من أصون جفير، وكرع في
أعذب غدير، لا ترده غير الأفهام، ولا يمتح بغير أرشية الأقلام، تفيض ينباع
الحكمة من أقطاره، وتنشأ سحب البلاغة من قراره، منير مظلم، مشمس
معتم: [البسيط]

يجري وأجزاؤه في الوصف جامدة ويستهل وما تجري له مقل
إذا الخواطر حامت حول مورده لم يظمها من قراه العل والنهل
كان أقلامنا فيما تحمله إلى القراطيس عن أسرارنا رسل

ومنه قوله لرجل في تزويج أمه^(١):

واتصل بي ما كان من أمر الواجبة الحق عليك، المنسوبة -بعد نسبتك إليها-
إليك، واختيارها من الصيانة التي تحفظ جلالتها، وتحسن إيالتها، وتنمي مالها،
وتشد أخوالها، وتعين طباعها على كرمها، وتقيم مهابتها على خدمها، ما لولا
أن النفس تناكره بغير طريق شرعي ولا دليل قطعي، لكنت في مثله بالرضى
أولى، وبالاعتداد بما جدده الله من صيانتها أخرى؛ وقد آثر الصلة بها من تقوى
بصلته، قوة اليد بالساعد، وتعتهده عمّا بحكم المجاز، والعم صنو الوالد^(٢)؛
وتزوجت أم زيد بن علي فلم يمنعه عمّا جاء به الشرع حمية النخوة، وسئل: لم
تزوجت أمك بعد أبيك؟ فقال: لتبشّر بآخر مثلي من الإخوة؛ وفي هذا لها

(١) النص -باختصار- في صبح الأعشى ٧٩/٩ واللبغاء ١١٧.

(٢) من قوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه». (صحيح مسلم ٦٧٧/٢ رقم ٩٨٣ وسنن أبي داود

١١٥/٢ رقم ١٦٢٣ وأخبار المصنفين ٦٢).

-أصانها الله- مزيدٌ للعفة، ومزيلٌ للكلفة، والزواج يُستحبُّ للرجال والنساء سواء، في طلب تجديده شهوات الأمهات والآباء، وقد جدع الإسلام أنف الغيرة^(١)، وجعل فيما اختاره الخيرة؛ ولا يُسخطك -أعزك الله- ما رضىه موجبُ الشرع، وحبَّب أدبُ الديانة، وحكم به حاكمُ العقل في الصيانة، فمُبَّاحُ الله أحقُّ أن يُتبع، وهوى النفس في الحمية أولى أن يُمتنع؛ فإياك أن تكون ممن إذا عدم اختياره، تسخط اختيار القدرة.

ومنه قوله في فتوح:

أصدرتُ هذا الكتاب بمواقع نعم الله الشاملة، وآثار نعمه المتواصلة؛ وهو أنا لما رأينا السيوف متوتبة في الأيدي للضرب، وحاذرنا هجوم الشتاء على مضيق الدرب، جعلنا آخر الأمر أوله، وركبنا من الصعب أهوله، وأرسلناها تتبارى في الركض، وتتلعب بالأرض، وتتوآب كالظلمان، وتتهافت كالعقبان؛ أسرع من النجوم السائرة، وأنفذ من السهام العائرة؛ إلى أن نزلنا بطن هنزيط^(٢)، فكُنَّا أسبق إلى عيون أهلها من النظر، وأدخل في نفوسهم من تسقط الحذر، ولم يمض صدر اليوم إلّا وقد حصل جميع من فيه من المقاتلة والحامية، والشبي والماشية، والغلام والجارية، تحت رقِّ الصَّفاح، وفي مُلك الخيل والرِّماح؛ ثم يَمُنَّا بلد قالي قلا^(٣)، فوردناها وقد سبقنا الإنذار، وتقدّمنا إليهم الحذار، فرجعنا إليهم بالعزائم الشاقبة، والكتائب العالية، فما كان بأسرع من أن زلزلت بهم الأقدام، وتحصّنوا بالهرب من الحمام، ودخلوا البلد؛ فكاد السور يُقذف بمقاتلتهم،

(١) من قوله ﷺ: «جدع الحلال أنف الغيرة». (ثمار القلوب ١/٥٠٢ وديوان المعاني ١/١٠١ و ٩٥/٢ ومجمع الأمثال ١/١٦٣).

(٢) هنزيط: من الثغور الرُّمية. (معجم البلدان ٥/٤١٨).

(٣) قالي قلا: مدينة بأرمينية، من نواحي خلاط، ثم من نواحي منازجرد. (معجم البلدان ٤/٢٩٩).

والأرضُ تنخسفُ زلزلاً بكافتهم؛ ثم دخلنا البلد والسيفُ يأخذ من أدركه، والطَّعنُ ينحر من استملكه، ثم رجعنا على من استعصى بالكنيسة، فخطبونا بلسان الإذعان، وراسلونا في التماس الأمان، فأجبناهم إلى ذلك مُشترطين ما منعهم حظُّ الإسلام من قبوله، فاقتطعهم الطَّمْعُ عن تحصيله، ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ﴾ (١) وبرقت لهم مكائد النشاب، ودخلت عليهم رُسُلُ الموت على أجنحة النُّسور من كل باب، فاستنزلناهم بحُكم السيف وهم مُهْطعون ﴿وظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٢) وأقمنا على أعلى جُدرانهِ الأذان، ورتبنا المُصلِّين مواضع الصُّلُبان، ثم انقلبنا بأسعد مُنقلب، وأربح مُكتسب؛ ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

ومنه قوله يصفُ تشريقاً وفرساً وصلاً إلي أبي تغلب بن حمدان من الخليفة:

وصل كتابُ أمير المؤمنين مُطلقاً إلى الرُّشد بالتوقيف، مقترناً بخصائص التُّكرمة والتشريف؛ فقبِلْتُ من الملبس الشريف مواقع أفضاله، واعتلقتُ من السعد بأذياله، وبرزت في الخلع الموسومة بإنعامه، والمناطق الناطقة بإكرامه، مُتدْرِعاً منها ثياب السكينة والهدئ، مُختالاً من حُلُلها فيما يروقُ الأولياء ويروعُ العدئ، مُتَقَلِّداً عضبه الذي هزَّ النصرُ غراره، وأحسن آثاره، عالياً على عُنقُ الزمان، بامتطاء ما حبانني به من الجواد الذي تزلُّ الأبصارُ عن صهواته (٤)،

(١) سورة الحشر: ٢.

(٢) سورة التوبة: ٤٨.

(٣) سورة الزمر: ٧٥.

(٤) من قول امرئ القيس: [ديوانه ٢٠]

يَزُلُّ الْغَلَامُ الْخَفُّ عَنْ صَهَوَاتِهِ وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ

وتتبلجُ غُرَّةُ الفجر في ظلماته، وهو مع كونه تحلى بحلية الكافر، يروغُ كلَّ كافرٍ مُشركٍ، ويُحقق برُكضه أن الليل الذي هو مدرك^(١)؛ والحمد لله الذي جعل صنائع أمير المؤمنين عند من يرتبطها بعلائق شُكره، ويحرسُها بالتوقُّر على جميل ذكرها في ذكره.

ومنه قوله:

فُلانٌ يطرقُ الدهر إذا نظر، وينظرُ المجد إذا افتخر، سعى إلى العلياء فادركها، وعاقد عليها الآراء فملكها، وهي ما تُدركُ بغير السماح، ولا تُملكُ إلا بأطراف الرِّماح.

ومنه قوله:

والبلاغةُ ميدانٌ لا يُدركُ إلا بسوابق الأذهان، ولا يُسلَكُ إلا ببصائر البيان؛ وقل من يركبُ طريقها على التغرير، أو أمل قطعها بالتقصير، إلا فضحته المطاولة، وكشفت خلله المساجلة، فسقط من حيثُ أمل الرُّفعة، وذلَّ من حيثُ حاول المنعة.

ومنه قوله:

وأما هذا الفتحُ، فأوصافه لا تُدركُ بالعبارات، ولا تدخلُ تحت العُرف والعادات: [البسيط]

فتحُ أنار الهدى بعد الظلام له واسترجع الدين من بعد الرهان به

(١) من قول النابغة الذبياني: [ديوانه ٥٢]

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خفت أن المنتأى عنك واسع

تَاهَتْ بِأَيَّامِهِ الْآيَامُ وَاعْتَذَرَ الدُّ
 دَهْرُ الْخُؤُونِ إِلَيْهِ مِنْ نَوَائِبِهِ
 تباشرت بورود أخباره المنابر، وشهدت بفضله البواتر، ووفت فيه الخيل بعقد
 الضمان، وناب الخوف له عن مُلاقاة الأقران، وآذن بالعاجل، على ما ادّخره الله
 في الآجل.

ومنه قوله :

وقد شرفني سيدنا بأعزّ الحُمَلائِ، الحامل لي على عُنُقِ الزَّمانِ، فجاء موفياً
 على التأميل فيه، مُناسباً لصنائع مُهديه، مُتفاوت العدو، مُتقاربُ الخطو، حديدُ
 النظر، محمودُ الخبر، عريقُ النسب، مخبورُ الحسب، أخفُّ من الوهم، وأمرقُ من
 السهم، وأسرعُ من البارق، وأشهرُ من لاحق^(١)؛ شخص إقبال، وجملَةٌ
 كمال^(٢): [الكامل]

إِنْ لَاحَ قُلْتُ: أَدُمِيَّةٌ أَمْ هَيْكَلٌ؟ أَوْ عَنْ قُلْتُ: أَسَابِحٌ أَمْ أَجْدَلٌ؟
 تَتَخَاذَلُ الْأَحَاطُ فِي إِدْرَاكِهِ وَيَحَارُ فِيهِ النَّاطِرُ الْمُتَأَمِّلُ
 فَكَأَنَّهُ فِي اللَّطْفِ سَهْمٌ ثَاقِبٌ وَكَأَنَّهُ فِي الْحُسْنِ حَظٌّ مُقْبَلُ

ومنه قوله :

وَإِذَا كَانَ الشُّكْرُ تَرْجُمانَ النِّيةِ، وَلِسَانَ الطُّويَّةِ، وَسَبَباً إِلَى الرِّفَادَةِ، وَطَرِيقاً إِلَى
 السَّعَادَةِ، فَالْسُّنُّ آثَارُهَا عَلَى الشَّاكِرِ مَعَ الصَّمْتِ، أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِهِ، وَبَيَانُهَا عِنْدَ
 الْجُحُودِ أْبْلَغُ مِنْ بَيَانِهِ.

ومنه قوله :

(١) لاحق: فرس كان لغني بن أعصر. (أنساب الخيل لابن الكلبي ٢٢).

(٢) الأبيات في كتاب الببغاء (حياته - ديوانه - رسائله - قصصه) ص ٦٨.

فُلانٌ يَسعُ العالمُ إحسانُهُ، ويستغرقُ الشكرُ امتنانَهُ، ويستخدمُ الدهرُ عزمَهُ،
ويؤدبُ الأيامُ حزمَهُ، كعبةُ فضلٍ، وغمامةُ وبلٍ، الليالي بأفعاله مُشرقةٌ، والأقذار
من خوفه مُطرقةٌ، تحمدهُ أولياؤه، وتشهدُ له بالفضل أعداؤه، ولا يصلُ الشكُ إلى
سريره، ولا ترمُدُ عن الحق عين بصيرته، كالقمر السعد، والأسد الورد^(١):
[البسيط]

إن سارسار لواء النصر يقدمُهُ أو حلّ حلّ به الإقبال والكرم
يلقى العدى بجيوش لا يُقاومها كثر العشائر إلا أنها همم
ومنه قوله:

والحمدُ لله على ما وهب مولانا من عافيةٍ يقتضي بها شكرُهُ، وعارض مرضٍ
يختبرُ بها صبره، ليوجب له الزيادة من نعماه بالشكر، ويدخر له أرفع درج الجزاء
بجميل الصبر: [الطويل]

فبالحمد فقرُ أن يصحَّ له أمرُ بقاء العلى والمكرّمات بقاءهُ
يُدّوي من الرعك الأطباء جسمهُ ويُعَدُّ من وقّع الرماح اتقاءهُ
فياذا الذي في رأيه وحسامه إذا اعتزما برء الزمان وداؤه
رويداً فبالآمال أعظم فاقةٍ إلى غيث جودٍ في يدك سماؤه
فرفقاً بجسم إن أردت بقاءهُ فصفحك للترفيه عنه شفاءهُ
فما حُمّ حتّى حُمّت الخيل قبلهُ [وحتى ترى] الصمّصام يبدو اشتكاؤه^(٢)
ولا تُنكرن من ذا الدؤوب اعتلالهُ بحالٍ فقد يُصدي الحسام انتضاءهُ

ومنه قوله:

(١) البيتان في ديوانه ٨١ (=البغاء، حياته، ديوانه، رسائله، قصصه).

(٢) ما بين حاصرتين إضافة ليستقيم الوزن والمعنى.

وقد ذهب رمضان عن سيدنا يشهد له عند الله بأفعاله، ويثني عليه عند الله بأعماله، تحسّد لياليه على صيامه أيامه، وينافس صباحه على تهجدّه ظلامه، موصوله بالطاعات ساعاته، مقرونة بالخيرات أوقاته: [الكامل]

ولّى ولو ملك اختياراً أنزلتُ شوال عن أيامه أيامه
واسعد بعيد لم يزل يهدي له بل قبل مقدمه البشارة عامه

ومنه قوله:

كتبت إليك بيد أطلق الثقة ببيانها من اعتقال اليأس، وعن رغبة انصرفت إلى تأميله عن جميع الناس؛ مستظهِراً على الدهر بالصبر، إلى أن عدل بي الحزم عن طريق نوائبه، واجتنيبت بيد التوفيق ثمر السلامة من مصائبه، وأنا من المولى متوسط رغبتني وعلاه، وبين شكري ونداه، مع أنني كما قلت: [الطويل]

تطول على الأيام أن يسترقني مع الدهر إلا للكرام المواهب
وما كل حال يكسب المال مرتضى ولكن على قدر النفوس المكاسب

ومنه قوله يشكر منعماً سلك به مسلك والده:

لو ارتفع بر عن شكر، أو جل إنصاف عن اعتراف، لارتفع قدر تفضلك الذي توالى علي أنواؤه، وسابق رجائي ابتداؤه، ولم يجسر حمدي على مطاولة إحسانك، ولا أقدم بنائي على وصف امتنانك، ولكن (١) حق لمن انتهى (٢) إليك أن يفوت الأكفاء، وببذ النظرء، لا سيما من قصدك مقصد أبيك، فغدا يرتجيك: [المتقارب]

(١) من هنا إلى آخر النص، سيكرر بعد قليل.

(٢) كذا في الأصل، وفي تكرار النص: انتمى. وهو أدق.

فقد كان شكري مُلكاً له وأنت أحق بميـــــــرائه
غمماً أنت ماؤه، وبدرٌ أنت ضياؤه، وعضبٌ أنت غراره، وحقٌ أنت مناره؛
سعى فجئت على أثره، وصمت فنطقت عن مفخره، فكرمك فرعُ كرمه،
وهممك نتائج هممه.

ومنه قوله في التهاني بعام:

أسعدُ الأعوام - أطل الله بقاء الأمير - ما ألقى عليه سيدنا أيدهُ الله بالمجاورة
شُعاع سعادته، التي هي حليُّ الدهور، وغررُ الأيام والشهور، وقد أطلَّ هذا الحولُ
السعيدُ، مُبشراً بأكمل مزيدٍ، وأحسن تجديدٍ: [الوافر]

سفيراً بين مُلكك والدوام	فلا برح الزمانُ بكُلِّ سعدٍ
ضميناً للبقاء بالف عام	إذا أفنيت عاماً منه أضحى
ظهرت فصرت حدّاً للتمام	فما عرف التمام الخلقُ حتّى

ومنه قوله:

غرّة الدهر، وقبلةُ الشكر؛ إن رفع الجيش حماه، أو هز الحسام أمضاه، أو أورد
السنان أرضاه؛ تتعززُ بخدمته الأيامُ، وتُضيءُ بمناجاته ظلمُ الأفهام؛ خصمُ
النوب، وشخصُ الحسب: [المتقارب]

يجلُّ عن الهز عند الجلال	ويضحك في حالة الغضب
شجاعته عُدّة المرفهات	وهيبته موكبُ الموكب

لا تطمعُ الأفهامُ بلوغَ حقه في مُطاولته، ولا تسمو هممُ الخواطر إلى
مُساجلته؛ غاية المادح أن يرجع عن الإطالة إلى الاختصار، ويقتنع بالقليل من
الإكثار: [الكامل]

يامن سطوت على الزمان نهائناً
لا غرو إن أخرتُ عنك مدائحي
بالحادثات مُذ اعتمدت عليه
مدحُ الحُسام العُضْب في حدّيه
ومتى تشابهت الشّياتُ فإئتما
يجري الجوادُ إلى مدى أبويه

ذلك المقام مخاطباً على البعد بالفاظك، مرموقاً بالمراعاة من الحافظك، غير نازح عمّا ألفتُه من عواطف الولادة، وانبساط الأنسة المعتادة؛ وإنّ سبباً أوثق حسم دواعي الخلاف، وأدّى إلى دوام الائتلاف، لحقيقّ بالمبالغة في تأكيده بالحرمة، وتخويله في النعمة.

ومنه قوله في هذا المعنى^(١):

وأما أبو النجم^(٢) فقد أدى الأمانة إلى متحملها، وسلم الذّخيرة الجليّة إلى مُتقبّلها، فحلّت من محل العز في وطنها، وآوت من حمى التودد إلى سكنها، صادرة من أنبل ولادة ونسب، إلى أشرف اتصالٍ [وأنبه سبب]، وكيف يتوصّى الناظرُ بنوره؟ أم كيف يُحضُّ القلبُ على حفظ سروره؟ ولو لم يُمتّ أبو النجم بغير الخدمة في هذا الأمر العظيم محلاً، السعيد عقداً وحلاً، لكان للحظوة أهلاً، ولرفع المنزلة أولى أن يُملّى^(٣)؛ فكيف وآثار نُصحهِ في جمع الشمل لائحةً، ودلائل وفائه بهذه الألفة واضحة؟

ومن نشره أيضاً:

وأما فلانٌ، فقد أمنت الأعداء فتكات حُسامه، وبعُد عهد الخيل بأسرجه والجامة.

ومنه قوله:

(١) ينمية الدهر ١/ ٢٥٦-٢٥٧ والبيضاء ١٠١ والزيادة منهما.

(٢) أبو النجم: هو بدر الحرمي.

(٣) يُملّى: يُمنع. (القاموس).

رئاسةُ تَزهَرُ المناقبُ في أفقِ علائها، وتتنافسُ الأشرافُ في التعلق بولائها؛
 أسبقُ إلى الطعن من الأسنة، وأحذقُ من زيد الخيل بتصريف الأعنة؛ إن قال
 فصل، أو حكم عدل، أو نطق صدق، أو سُبوق سبق؛ البيانُ أصغرُ صفاته،
 والبلاغةُ عفو خطراته، مُبرقعُ الطَّلعة بالخفر، مُسفرُ الوجه عن دارة القمر، ما
 ينفك من الكمد حاسدهُ، ولا يسلم من الدهر مُعاندُهُ: [المتقارب]

أقام حُقوق الندى والقنا ليوم السَّماح ويوم الطَّعان
 يَجُودُ بِسابق نُجح السُّؤال وبأسٍ يُطاعنُ قَبْلَ السَّنانِ
 الحُسامُ خديئُهُ، والرَّمحُ قرينُهُ، والسرَّجُ وطنُهُ، والتيقظُ رسنُهُ؛ سائرُهُ قلبُ،
 وجملتهُ لبُّ، من الدوحة التغلبية، والنبعة الحمدانية: [الكامل]

نسبٌ لو أن الليل ألبسه انثنى بضياؤه لسنا الصُّباح يُضاهي
 وخلائقٌ لو صُورَتْ لظننتها زهراً أو انبجست جرت بمياه
 قومٌ بلوتُ مديحهم فوجدتُهُ أحلى من الرشقات في الأفواه
 وطلبتُ مُجتهداً نهاية وصفهم فوجدتُهُ ما ليس بالمتناهي
 ومنه قوله (١):

حقٌّ لمن انتمى إليك أن يفوت الأكفاء، ويَبْذُ النظرَاء، لا سيما من قصد بك
 مقصد أبيك، وغدا يرتجيك، فقد توالى عليَّ أنواؤه، وسابق رجائي ابتداؤه: [المتقارب]

وقد كان شُكري مُلكاً له وأنت أحقُّ بميمِ رائه
 غمامٌ أنت ماؤه، وبدراً أنت ضياؤه، وعضبٌ أنت غراره، وحقٌّ أنت مناره؛
 سعى فجئت على أثره، وصمت فنطقتَ عن مفخره، فكرمك فرحٌ لكرمه،

(١) مضى معظم هذا النص قبل قليل.

وهممك نتائج هممه، ذهب وأبقاك، ونام مطمئناً وقد استرعاك، فلقد خلقت
عندي أياديه خلقاً جديداً، واستصحبْتُ لي من نعمه كرمًا موجوداً.

*ومن شعره^(١): [البسيط]

أحبابنا هذه نفسي تُودُّكم إذ كان لا الصَّبْرُ يُسليها ولا الجزعُ
قد كُنْتُ أطمعُ في روح الحياة لها فالآن إذ بنْتُمْ لم يبق لي طمعُ
لا عذَّب اللهُ روحي بالبقاء فما ظننتُني بعدكم بالعيش أنْتفعُ

ومنه قوله^(٢): [البسيط]

يا مُسقمي بُجفونٍ سقمها سببُ إلى مُواصلة الأسقام في جسدي
عذرتُ من ظلٍ في حُبِّك يحسدني لأنَّهُ فيك معذورٌ على حسدي

ومنه قوله^(٣): [البسيط]

يسعى به البرقُ إلّا أنه فرسُ من فوقه الموتُ إلّا أنه رجلُ
يلقى الرِّمّاح بصدرٍ منه ليس له ظهرٌ وهادي جوادٍ ماله كفلُ

ومنه قوله^(٤): [الكامل]

وكأنما نقشت حوافرُ خيله للنّاظرين أهلةً في الجلمد
وكان طرفُ الشَّمس مطروفٌ وقد جُعل الغُبارُ له مكان الإثمد

ومنه قوله^(٥): [البسيط]

(١) البيغاء ٦١-٦٢.

(٢) البيغاء ٤٢.

(٣) البيغاء ٧١-٧٢.

(٤) البيغاء ٤٥.

(٥) البيغاء ٥٨.

ياغازياً آبت الأحزانُ غازيةً إلى فؤادي والأشجانُ حين غزا
 إن بارزتك كُماهُ الرُّومِ فارمهمُ بسهم عينيكَ يقتلُ كلَّ من برزا
 ومنه قوله يصفُ كأساً وأجاد في وصفه ، وتقدم السابقين وخلاهم خلفه (١) :

[المنسرح]

من كُلِّ جسمٍ كأنه عرضٌ يكادُ لطفاً باللحظِ ينتهبُ
 لا عيب فيه سوى إذا عته السدُ سرُّ الذي في حشاهُ يحتجبُ
 كأنما صاغه النفاقُ فما يخلصُ صدقُ منه ولا كذبُ
 فهو إلى لون ما يجاوره على اختلاف الطباعِ ينتسبُ
 إذا ادَّعاه اللُّجينُ أكذبه بالراح في صبغ جسمه الذهبُ

ومنه قوله في خلعةٍ وفرسٍ (٢) : [البسيط]

لما تحصَّنتُ من دهري بخلعته سمت بحملانه الحاظُ إقبالي
 وواصلتني صلاتُ منه رحتُ بها أخنألُ ما بين عزِّ الجاه والمال

٥- ومنهم: بديعُ الزَّمانِ الهمداني (٣)

* وهو نادرة الدهر وبادرة الزهر؛ قلَّ أن ولد الزَّمانُ مثله، أو وُلدَ شكله؛ إن الزمانَ بمثله لعقيم (٤)، ولا عصبية للعظم الرميم؛ بل هو والله البديعُ حقاً،

(١) الببغاء ٣٢ .

(٢) الببغاء ٧٣ .

(٣) ترجمته في : نديمة الدهر ٢٥٦/٤ والأنساب ٣٤٤/١٢ ومعجم الأدباء ٢٣٤/١ والكمال في التاريخ ٢٠٩/٩ واللباب ٣٩٢/٣ ووفيات الأعيان ١٢٧/١ وتاريخ الإسلام ٣٤٥ [وفيات ٣٨١-٤٠٠] وسير أعلام النبلاء ٦٧/١٧ والعبر ٦٩/٣ والوافي بالوفيات ٣٥٥/٦ والبدایة والنهاية ٥٢٣/١٥ وشذرات الذهب ٥١٣/٤ .

(٤) من قول أبي دهل الجمحي : [ديوانه ٦٦]

عقم النِّساءُ فما يلدن شبيههُ إن النِّساءَ بمثله عقمُ

المعتكر^(١) طرْقاً؛ كاد يلتهبُ فكرُهُ ذكاءاً، وينتهبُ ذكره ذكاءاً^(٢)، كأنما كلمُهُ حبرٌ أو لفظُهُ زُبْرٌ؛ سجعُهُ قصيرٌ، ونفعُهُ كبيرٌ، من سمعَ حُسنَهُ تبعَ إحسانَهُ، ومن فهمَ بيانَهُ، علمَ أن فوقَ السَّحابِ بنانه؛ ورُبما كاد يحكيه لو وهب، لو كان - كما قال - طلقَ المحبِّا يُمطرُ الذَّهبَ^(٣)؛ نافحَ الرِّياضَ فأخذَ أنفاسها، وسافحَ السَّحابَ فنثرَ أكياسها، بزَّ الكواكبَ ولبسَ لباسها، وبذَّ المدامَ وسلبَ الحُميا كاسها، فجاءَ بسحرٍ عظيمٍ إلا أنه حلالٌ، وخمرٍ لا لغو فيها ولا تأثيمَ وفيها الخلال؛ ووراءُهُ جرى الحريريُّ لَكِنَّهُ نَقَّحَ، على أنه مما تركَ البديعُ ولقحَ.

وذكر البديعُ أبو منصورَ الثعالبيُّ، فقال: هو أبو الفضل، أحمد بن الحسين الهمدانيُّ مفخر همدان^(٤)، ونادرةُ الفلكِ وبكرُ عطارِ، وفردُ الدهرِ، وغرَّةُ العصرِ، ومن لم يُلَفْ^(٥) نظيرهُ في ذكاءِ القريحة، وسرعةِ الخاطر، وشرفِ الطَّبعِ، وصفاءِ الذهنِ، وقوةِ النفسِ، ولم يدركَ قرينهُ في ظُرفِ النثرِ ومُلحهِ، وغررِ النظمِ ونكتته، ولم يُرو أن أحداً بلغَ مبلغَهُ من لبِ الأدبِ وسرِّهِ، وجاءَ بمثلٍ إعجازه وسحره؛ فإنه كان صاحبَ عجائبٍ وبدائعٍ؛ فمنها:

أنه كان يُنشدُ القصيدةَ لم يسمعها قطُّ، وهي أكثرُ من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها، ويوردها إلى آخرها، لا يخرمُ حرفاً منها [ولا يُخلُّ بمعنى]، وينظرُ في الأربعِ والخمسِ الأوراقِ، من كتابٍ لم يعرفه ولم يره إلا نظرةً واحدةً خفيفةً، ثم يهْدُها عن ظهر قلبه هذا، ويسرُّها سرداً.

(١) في الأصل: المعير. واعتكر: اختلط واشتجر. (القاموس).

(٢) من قولهم: ذكا المسك ذكاء. (أساس البلاغة).

(٣) من قول البديع نفسه: [ديوانه ٣٤]

وكاد يحكيك صوبُ الغيث منسكباً لو كان طلقَ المحبِّا يُمطرُ الذَّهباً

(٤) في اليتيمة: معجزة همدان.

(٥) في الأصل: لم يكف! وفي اليتيمة: لم يلق. تصحيف.

وكان يُقترحُ عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى غريب وبابٍ بديع،
فيفرغُ منها في الوقت والساعة، والجواب عما فيها .

وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه، فيبتدئ بآخر سطورهِ ثم هلم جراً
إلى الأول، ويُخرجه كأحسن شيء وأملحه .

ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من
النظم ومن النثر؛ ويُعطى القوافي الكثيرة، فيصلُّ بها الأبيات الرشيقة .

ويُقترحُ عليه كلُّ عروض^(١)، فيرتجله في أسرع من الطرف على ريق لا
يلعبه، ونفس لا يقطعه . وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة^(٢)، ومسارقة
القلم، ومجارة الخاطر [للناظر] .

وكان مع هذا مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف،
عظيم الخلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مُرَّ
العداوة .

فارق همدان [سنة ثمانين وثلاثمائة] وهو مُقبلُ الشبية، غضُّ الحداثة،
ووافي^(٣) نيسابور فنشر بها بزه، وأظهر طرزه، وأملى مقاماته وغيرها، وضمنها
ما تشتهي الأنفس من لفظٍ أنيقٍ قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجعٍ رشيق المطلع^(٤)
والمقطع كسجع الحمام، ثم ألقى عصاهُ بهرة، فعاش بها عيشة راضية .

وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة، ناداهُ الله فلبَّاه، وفارق دنياه في سنة
ثمانٍ وتسعين وثلاثمئة؛ فقامت نوادبُ الأدب، وانثلم حدُّ القلم أنه على ما

(١) في اليتيمة: كل عويصٍ وعسيرٍ من النظم والنثر، فيرتجله . . .

(٢) في الأصل: وقبض اليد .

(٣) في الأصل: وولي .

(٤) في الأصل: المقطع والمقطع .

مات من لم يمت ذكره، ولقد خُلد من بقي نظمه ونثره .

وسئل بعض علماء الأدب عن الحريريّ والبديع في مقاماتهما، فقال: لم يبلغ الحريريُّ أن يُسمَّى بديع يومٍ، فكيف يُقاربُ بديعَ زمانٍ! .

*ومن نثره قوله^(١):

وقد نظرتُ في المرأة فوجدتُ الشيب يتلَهَّبُ وينهبُ، والشَّبابُ يتأهَّبُ ويذهبُ، وما أُسرج هذا الأشهبُ إلا لسيرٍ، وأسأل الله خاتمة خيرٍ.

ومنه قوله^(٢):

أبرزتُ^(٣) باطنه، وحركتُ ساكنه، وأخرجتُ دفائن صدره، ورفعتُ أذيال ستره؛ فملاً فكّيه وعيداً، ولحييه تهديداً^(٤)، وكان جوابنا أن قلنا: بعضُ الوعيد يذهبُ في البید^(٥): [السريع]

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحهُ إن بني عمِّك فيهم رماح

إنّا نقتحمُ الخطب، وتوسطُ الحرب^(٥): [المتقارب]

فأرضك أرضك إن تأتينا تنم نومةً ليس فيها حلم
ومتى شئت لقيت خصماً ضحماً، ينهشك قضمًا، ويأكلك خضمًا؛ فجعل الشيطانُ يُثَقِّلُ بذلك أجفان طرفه، ويُقيِّمُ به شعرات أنفه^(٦): [الوافر]

وحَتَّى ظنَّ أنَّ الغشَّ نُصْحِي وخالفني كأنِّي قُلْتُ هُجْراً

(١) رسائل البديع ١٢ .

(٢) رسائل البديع ٣٧-٣٩ .

(٣-٤) ما بينهما ليس في الرسائل .

(٤) البيت لجحل بن نضلة في رسائل البديع ٣٨ والمؤتلف والمختلف للأمدى ١١٢ .

(٥) البيت بلا نسبة في رسائل البديع ٣٨ .

(٦) البيت بلا نسبة في رسائل البديع ٣٨ . وهو من قصيدة لبشر بن عوانة العذري في مقامات البديع

٢٥٢ ومنتهى الطلب ٢٥٨/٨ وفيه تخريجها .

ومنه قوله :

وبيننا عذراء، زُجَّاجُها خدرها، وحبابها ثغرها، بل شقيقة حوتها كمامة،
أو شمسٌ حجبتها غمامة؛ إذا طاف بها الساقى فوردٌ على غصنها، أو شربها
مقهقهة فحمامة على فننها.

ومنه قوله (١) :

انظر إلى الكلام وقائله فإن كان ولياً فهو الولاء وإن خشن، وإن كان عدواً فهو
البلاء وإن حسن؛ ألا ترى العرب تقول: قاتله الله، ولا يُريدون الدم؛ ولا أبأ له،
في الأمر إذا تم.

ومنه قوله :

وفائدة الاعتقاد أفضل في الانتقاد، والسماحُ يكسر الرماح، والصفح يُقلُّ
الصفاح، والجود أنصر من الجنود؛ فإن كشف الضر عن الحر، أجمل من كشف
الصدف عن الدر؛ ومن عُرف بالمنح، قُصد بالمدح، وقد ظلم من يلوم غير ملوم،
فالتغاضي يصحبُ المراضي، واللبيبُ يُعيدُ البعيد قريباً، والعدوُّ حبيباً، وحضرةُ
السُّلطان مفرعُ الراجين، ومنزِعُ اللاجين، إليها يعودون وبها يعودون، وهي المقرُّ،
وإليها المفرُّ، وإذا عدل الملكُ أقصر الحائفُ، وأمن الحائفُ، وخير الإخوان من ليس
بخوانٍ؛ ودهُ ميمونٌ، وغيبه مأمونٌ، فهو يحالفك ولا يخالفك، ويرافقك ولا
يفارقك، ويوافقك ولا يُنافقك، ويُعاشرك ولا يُكاشرك، وإذا حضرت حنا عليك،
وإذا غبت حن إليك.

ومنه قوله (٢) وقد كتب إليه بعضُ من عُزل عن ولايةٍ حسنةٍ، وذوئ يانعٍ

(١) رسائل البديع ٢٤٩ ويتيمة الدهر ٤/ ٢٦٣.

(٢) رسائل البديع ٨٤-٨٩.

غُصْنُهُ؛ يَسْتَمِدُّ مِنْهُ وَدَاداً طَالَمَا تَرَكَهُ، وَيَسْتَمِيلُ فُرَاداً كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ مَلَكَهُ؛ وَإِذَا بِحَوَادِثِ الْأَيَّامِ قَدْ غَيَّرَتْ مَا عَهْدَ، وَحَسَنْتْ لَهُ بِذِلِّ مَا كَانَ يَضُنُّ بِهِ فَلَمْ يُفِدْ:

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ وَرَدَتْ رُقْعَتُكَ فَلَمْ تَنْدِ عَلَيَّ كَبْدِي، وَلَمْ تَحْظْ بِنَازِرِي وَيَدِي؛ وَخَطَبْتُ مِنْ مَوَدَّتِي مَا لَمْ أَجِدْكَ لَهُ أَهْلاً، وَقُلْتُ: هَذَا الَّذِي تَاهَ بِحَسَنِ قَدِهِ، وَزَهَا بِوَرْدِ خَدِّهِ، فَالآنَ إِذْ نَسَخَ الدَّهْرُ آيَةَ حُسْنِهِ، وَأَقَامَ مَائِلَ غُصْنِهِ، وَانْتَصَرَ لَنَا مِنْهُ شَعْرَاتٌ كَسَفَتْ هَلَالَهُ، وَأَكْسَفَتْ بَالَهُ، وَمَسَحَتْ جَمَالَهُ، وَغَيَّرَتْ حَالَهُ؛ فَمَهْلاً مَهْلاً؛ وَتَنَاسَيْتُ أَيَّامَكَ إِذْ تُكَلِّمُنَا نَزْراً، وَتَلْحَظُنَا شَزْراً: [الطويل]

وَمِنْ لَكَ بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيْكَ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ أَنْظِرْ

أَيَّامُ كُنْتُ تَتَلَفَّتُ وَالْأَكْبَادُ تَتَفَتَّتْ، وَتُقْبَلُ فَتَمْنِي وَتُعْرَضُ فَتَضْنِي^(١): [الطويل]

وَتَبَسُّمٌ عَنِ الْمَى كَأَنَّ مُنُوراً تَخْلُلُ حُرَّ الرُّمْلِ دَعَصٌ لَهُ نَدِي

فَاقْصِرِ الْآنَ فَإِنَّهُ سَوْقٌ كَسَدٌ، وَمَتَاعٌ فَسَدٌ، وَدَوْلَةٌ أَعْرَضَتْ، وَأَيَّامٌ انْقَضَتْ، وَيَوْمٌ صَارَ أَمْسٌ، وَحَسْرَةٌ بَقِيَتْ فِي النَّفْسِ، فَحَتَامٌ تَدُلُّ وَإِلَامٌ؟ وَلَمْ تَحْتَمِلْ وَعِلَامٌ؟ وَقَدْ بَلَغْنِي مَا أَنْتَ مُتَعَاطِيهِ مِنْ تَمْوِيهِ يَجُوزُ بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي الْغَسَقِ، وَيَنْفَقُ عَلَى السُّوقِ؛ وَإِفْنَاؤُكَ لَتِلْكَ الشَّعْرَاتِ جِزْأً وَحِصْأً، وَنَتْفَاءً وَقِصْأً؛ فَأَنَا بِرَحْلِكَ وَجَانِبِكَ، وَحَبْلُكَ مُلْقَى عَلَى غَارِبِكَ، وَلَوْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُوجِعَكَ لَقُلْتُ: [مِنْ مَخْلَعِ الْبَسِيطِ]

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِالْيَهُودِ وَلَا يَبْعَادُ وَلَا يُمُودُ

وَلَا يَفْرَعُونَ إِذْ عَصَاهُ مَا يَفْعَلُ الشَّعْرُ بِالْخُدُودِ

وَمِنْهُ قَوْلُهُ^(٢):

كِتَابِي إِلَى الْبَحْرِ وَإِنْ لَمْ أَرَهُ، فَقَدْ سَمِعْتُ خَبْرَهُ، وَاللَّيْثُ وَإِنْ لَمْ أَلْقَهُ فَقَدْ

(١) البيت لطرفة بن العبد، في ديوانه ٩.

(٢) رسائل البديع ٣٥٨-٣٦٠ وبيتمة الدهر ٤/ ٢٧٥ وجمهرة الإسلام ١٢/ ٢١٢.

تصورت خلقه، والملك العادل وإن لم أكن لقيته، فقد بلغني صيته، ومن رأى من السيف أثره، فقد رأى أكثره؛ وهذه الحضرة وإن احتاج إليها المأمون، ولم يستغن عنها قارون، فإن الأحب إليّ أن أقصدها قصد موالٍ، [لا قصد سؤالٍ]؛ والرّجوع عنها بجمالٍ أحب إليّ من الرّجوع عنها بمالٍ؛ قدّمتُ التعريف، وأنا أنتظرُ الجواب الشريف.

ومنه قوله (١):

عافاك الله، مثل الإنسان في الإحسان، كمثل الأشجار في الثمار، سبيلُهُ إذا أتى بالحسنة، أن يُرفَّه من السَّنة إلى السنة، وأنا كما ذكرتُ لا أملكُ عضويَّ من جسدي، وهما فؤادي ويدي؛ أما الفؤاد فيعلقُ بالفؤود، وأما اليد فتولعُ بالجُود؛ لكن هذا الخلق النفيس، ليس يُساعده الكيس؛ وهذا الطَّبع الكريم ليس يحتمله الغريمُ، ولا قرابة بين [الأدب و] الذهب؛ والأدب لا يمكن ثرده في قصعةٍ، ولا صبرُهُ في ثمن سلعةٍ.

ولي مع الأدب نادرةٌ: جهدتُ في هذه الأيام بالطَّباخ أن يطبخ من جيمية الشماخ لوناً، فلم يفعل، وبالقصا ب أن يسمع من «أدب الكتاب» فلم يقبل، واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت، فأنشدت من شعر الكميت ألفاً ومئتي بيت فلم يُغن فيما به اعتنيتُ؛ ولو وقعت أرجوزة العجاج في توابل السُّكبا ج ما عدُّ منها عندي لونٌ، ولا استقرَّ صَوْنٌ، بل ليست تقعُ، فما أصنع؟ فإن كنتُ تحسبُ اختلافك إليّ، أفضل (٢) عليّ، فراحتك راحتي، وراحتي أن لا تطرق ساحتي.

ومنه قوله (٣):

(١) رسائل البديع ٢٢١-٢٢٢ وبيتمة الدهر ٤/٢٦٢ ومعجم الأدباء ١/٢٣٨ وجمهرة الإسلام ٢١١ ب.

(٢) في رسائل البديع: إفضالاً عليّ.

(٣) رسائل البديع ١٢٨-١٢٩ وبيتمة الدهر ٤/٢٥٩ ومعجم الأدباء ١/٢٣٦-٢٣٧ و٢٤٥ وجمهرة الإسلام ١٢١١.

أنا لقرب دار مولاي: [من الطويل]
ومن الارتياح إلى لقائه: [من الطويل]
ومن الامتزاج بولائه: [من الطويل]
ومن الابتهاج بمزاره: [من الطويل]

* ومن شعره قوله^(٣): [البسيط]

عليّ ألا أريح العيس والقنبا
واترك الخود معسولاً مقبلاًها
وظفلة كفضيب البان منعطفاً
قالت وقد علقّت ذيلي تودعني
كنت الشبيبة أبهى ما دجت درجت
أبى المقام بدار الذلّ لي كرم
وعزيمة لا تزال الدهر ضاربة
ياسيد الأمراء افخر فما ملك
إذا دعيتك المعالي عرف هامتها
أين الذين أعدو المال من ملك
ما الليث محتطماً والسيل مُرتطماً
أمضى شباً منك أدهى منك صاعقة

كما طرب النشوان مالت به الحمرة
كما انتفض العصفور بلّله القطر^(١)
كما التقت الصهباء والبارد العذب
كما اهتزت تحت البارح الغصن الرطب^(٢)

وألبس السيل والظلماء واليلبا
وأهجر الكاس يغدو شربها طربا
إذا مشّت وهلال الشهر مُنتقبا
والوجد يُخنّقها بالدمع مُنسكبا:
وكنت كالورد أذكى ما أتى ذهباً
وهمة تصلّ التقريب والخببا
دون الأمير وفوق المشتري طنباً
إلا تمنّاك مولى واشتهاك أبا^(٤)

لم ترض كسرى ولا من فوقه ذنباً
يرى الذخيرة ما أعطى وما وهباً
والبحر ملتطماً واللّيل مُقترباً
أجدى يميناً وأدنى منك مُطلباً

(١) عجز بيت لابي صخر الهذلي، أو مجنون ليلي، صدره:

وإني لتعروني لذكراك هزة X. (ديوان جميل ١٣٠ وشرح اشعار الهذليين ٢/ ٩٥٧).

(٢) عجز بيت للأقرع بن معاذ القشيري، صدره: وتأخذه عند المكارم هزة X.

(التذكرة الحمدونية ٤/ ٩٣).

(٣) ديوانه ٣٢-٣٤ ويتيمة الدهر ٤/ ٢٩٢-٢٩٣.

(٤) في الأصل: * إلا تمنّاك مولى والملوك أبا.

وكاد يحكيك صوبُ الغيث مُنسكبا لو كان طلق المَحْيَا يُمطرُ الذهبا
والدَّهْرُ لو لم يَخُنْ والشمسُ لو نطقت والألِيثُ لو لم يصد والبحرُ لو عذبا
يامن تراه مُلُوكُ الأرض فوقهم كما يرون على أبراجها الشُّهُبا

ومنه قوله^(١): [الطويل]

أيا ملكاً أدنى مناقبه العُلَى وأيسرُ ما فيه السُّمَاحَةُ والبذلُ
هو البدرُ إلا أنه البحرُ زاخراً سوى أنه الضُّرغامُ لكنه الوبلُ
محاسنُ يبديها العيانُ كما بدا وإن نحنُ حدثنا بها صدقَ العقلُ
وجاراك أفرادُ الملوكِ إلى العُلَى وحَقاً لقد أعجزتهمْ ولك الخصلُ
سما بك من عمرو ويعقوب محتدٌ كذا الأصلُ مفخورٌ به وكذا النسلُ

* وحكى ابنُ ظافر قال^(٢): حكى بديعُ الزَّمانِ الهمذاني، قال: قال الصَّاحِبُ يوماً لجلسائه وأنا فيهم، وقد جرى ذكرُ أبي فراسِ بن حمدان: لا يقدرُ أحدٌ أن يزورَ على أبي فراسٍ شعراً؛ فقلتُ: ومن يقدرُ أن يزورَ على شعره، وهو الذي يقولُ—قلتُ ارتجالاً—^(٣): [الوافر]

رويدك لا تصل يدها بباعك ولا تُغزِ السُّباعُ إلى رباعك
ولا تُعنِ العَدُوَّ عليَّ إني يمينُك إن قطعت، فمِنْ ذراعك
فقال الصَّاحِبُ: صدقتُ؛ فقلتُ أيد الله مولانا، قد فعلتُ وزورْتُ على أبي فراسٍ، وهذا شعري! فعجب منه.

* وحكى أنه جرى ذكرُهُ في مجلس شيخه أبي الحسين بن فارس، فقال ما

(١) ديوانه ١٢٠ وبتيمة الدهر ٤/ ٢٠٠.

(٢) بدائع البدائ ٣٥٣ وبتيمة الدهر ٨٧/ ١ ومعجم الأدباء ١/ ٢٤٤.

(٣) البتتان ليسا في ديوان بديع الزَّمان؛ وهما في ديوان أبي فراس ١١١٨٩.

معناه^(١) : إِنَّ بَدِيعَ الزَّمَانِ قَدْ نَسِيَ حَقَّ تَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ، وَعَقَّنَا، وَطَمَحَ بِأَنْفِهِ عَنَّا؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فُسَادِ الزَّمَانِ، وَتَغْيِيرِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ .

فكتب إليه بديع الزمان : نعم، أطلال بقاء الشيخ الإمام؛ إِنَّهُ الْحَمَأُ الْمَسْنُونُ، وَإِنْ ظَنَنْتَ بِهِ الظُّنُونُ، وَالنَّاسُ لَأَدَمُ، وَإِنْ كَانَ الْعَهْدُ قَدْ تَقَادَمَ، وَتَرَكِبْتَ الْأَضْدَادُ، وَاخْتَلَفُ الْمِيلَادُ؛ وَالشَّيْخُ يَقُولُ : قَدْ فَسَدَ الزَّمَانُ؛ أَفَلَا يَقُولُ : مَتَى كَانَ صَالِحاً؟ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَقَدْ رَأَيْنَا آخِرَهَا، وَسَمِعْنَا أَوَّلَهَا؟ أَمْ الْمَلَّةُ الْمُرَوَّانِيَّةُ، وَفِي أَخْبَارِهَا : لَا تَكْسَعُ الشُّوْلُ بِأَغْبَارِهَا^(٢)؟ أَمْ السَّنِينَ الْحَرَبِيَّةِ^(٣) : [مجزوء الكامل]

وَالسَّيْفُ يُعَقِّدُ فِي الطُّلَى وَالرُّمْحُ يُرَكِّزُ فِي الْكُلَى
وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَحُرَّتَانُ وَكُرْبَلَا؟

أَمْ الْبَيْعَةُ الْهَاشِمِيَّةُ [، وَعَلَيَّ يَقُولُ : لَيْتَ الْعَشْرَةَ مِنْكُمْ] بِرَاسٍ، مِنْ بَنِي فِرَاسٍ؟ أَمْ الْأَيَّامُ الْأُمَوِيَّةُ، وَالنَّفِيرُ إِلَى الْحِجَازِ، وَالْعُيُونُ تَنْظُرُ إِلَى الْأَعْجَازِ؟ أَمْ الْإِمَارَةُ الْعَدَوِيَّةُ^(٤)، وَصَاحِبُهَا يَقُولُ : هَلُمَّ بَعْدَ الْبُزُولِ إِلَى النُّزُولِ؟ أَمْ الْخِلَافَةُ التَّيْمِيَّةُ^(٥)، وَهُوَ يَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ مَاتَ فِي نَائَةِ الْإِسْلَامِ؟ أَمْ عَلَى عَهْدِ الرِّسَالَةِ، وَيَوْمَ الْفَتْحِ قِيلَ : اسْكُنِي يَا فُلَانَةُ، فَقَدْ ذَهَبَتِ الْأَمَانَةُ؟ أَمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَبِيدٌ يَقُولُ^(٦) : [الكامل]

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

(١) رسائل البديع ٤١٤-٤١٩ وبتيمة الدهر ٤ / ٢٧٠ ومعجم الأدباء ١ / ٢٥٢ .

(٢) من قول الحارث بن حلزة -أو أفنون التغلبي- : [من السريع]

لَا تَكْسَعُ الشُّوْلُ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِجِ

(ديوان الحارث بن حلزة ٦٥) .

(٣) السنين الحربية : أيام معاوية وابنه يزيد .

(٤) أي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٥) أي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٦) ديوان البديع ١٥٣ .

أم قبل ذلك، وأخو عادٍ يقول: إذ الناسُ ناسٌ والبلادُ بلادٌ^(١)؟ أم قبل ذلك،
وآدم -فيما قيل- يقول^(٢): [الكامل]

تغيرت البلادُ ومن عليها [ووجه الأرض مُغيرٌ قبيحٌ]
أم قبل ذلك، والملائكة تقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ﴾^(٣).

ما فسد الناسُ، إنما اطرَد القياسُ، ولا أظلمت الأيامُ، إنما امتد الظلامُ؛ وهل
يُفسدُ الشيءُ إلا عن صلاح، ويُمسي المرءُ إلا عن صباح؟ وإني على توبيخ
شيخنا، لفقيراً إلى لقائه، شفيقٌ على بقاءه، مُنتسبٌ إلى ولائه، شاكرٌ لآلائه، لا
أحلُّ حريداً^(٤) عن أمره، ولا أَقْلُ^(٥) بعيداً عن قلبه؛ وما نسيته، ولا أنساه؛ إن له
على [كل] نعمة خولنيها الله نارا، وعلى كل كلمة علمنيها مناراً؛ ولو عرفتُ
لكتابي موقعا من قلبه، لا غتنمتُ خدمته به، ولرددتُ إليه سُوركاسه، وفضل
أنفاسه؛ ولكنني خشيتُ أن يقول: ﴿هذه بضاعتنا ردتُ إلينا﴾^(٦) وله -أيده
الله- العُتْبَى، والمودة في القُربى، والمرباعُ، وما ناله الباعُ، وما ضمه الجلدُ، وضمنه
السمطُ؛ ليست رضى، ولكنها جُلُّ ما أملك.

(١) كذا ورد هذا العجز في الأصل، والبيت بتمامه كما في رسائل البديع والبييمة: [من الطويل]
بلادٌ بها كُنَّا وكُنَّا نُحبُّها إذ الناسُ ناسٌ والزمانُ زمانٌ
وفي معجم الأدباء: إذ الأهل أهلٌ والبلادُ بلادٌ

(٢) أبيات آدم -فيما زعموا- فرغنا من تخريجها في منتخب من كتاب الشعراء لأبي نعيم ٤٧-٤٨.
وهي في تاريخ الطبري ١/١٤٥ ومختصر تاريخ دمشق ٢٥/٢٩٦ و٢٦/٨.٤ والمنظم ١/٢٢٤ وتاريخ بغداد
٥/١٢٨... وقد نسبها حمزة الأصفهاني في التنبيه على حدوث التصحيف ١٨ إلى خلف الأحمر.

(٣) سورة البقرة: ٣٠.

(٤) الحريدُ: المعتزل المنفرد. (القاموس).

(٥) أَقْلُ: أذهب. (القاموس).

(٦) سورة يوسف: ٦٥.

اثنتان -أيد الله الشيخ الإمام- [قلما تجتمعان] الخراسانية والإنسانية؛ وإن لم أكن^(١) خراساني الطينة، فإنني خراساني المدينة؛ والمرء من حيث يوجد، لا من حيث يولد؛ فإذا أضاف إلى خراسان ولاء همذان، ارتفع القلم، وسقط التكليف؛ فالجرح جبار، والجاني حمار، ولا جنة ولا نار، فليلمني^(٢) على هناتي، أليس صاحبها يقول: [الخفيف]

لا تلمني على ركاكة عقلي إن تيقنت أنني همذاني
والسلام.

قوله: والعيون تنظر إلى الأعجاز: إشارة إلى قول أحد الذين قتلوا عثمان لما دخلوا عليه، فنظروا إلى نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان، وهي تصيح، فقالوا: إن عجزها لكبير.

* واجتمع بديع الزمان والأستاذ أبو بكر الخوارزمي في دار السيد أبي القاسم المستوفي، بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف، وغيرهم من سائر الناس، فجرى بينهما من المناظرة ما نذكره إن شاء الله تعالى^(٣).

قال الأستاذ أبو الفضل بديع الزمان: سأل السيد -أمتع الله ببقائه إخوانه- أن أملني جميع ما جرى بيننا وبين أبي بكر الخوارزمي أعزه الله من مناظرة مرة ومناظرة أخرى، موادة أولاً ومنازعة ثانياً، إملأ يجعل السماع له عياناً، فما تلقيته إلا بالطاعة، على حسب الاستطاعة، لكن للقصة تشبيهاً لا تطيب إلا به، ومقدمات

(١) في الأصل: يكن.

(٢) في الرسائل: فليحتملني.

(٣) المناظرة في رسائل بديع الزمان ٢٨ وما بعد، والصبح المنبي للبديعي ٣٤ وما بعد، ومعجم الأدباء ٢٣٩/١ وما بعد.

لا تحسن إلا معها؛ وسأسوقُ بعون الله صدر حديثنا إلى العجز، كما يُساقُ الماءُ إلى الأرض الجُرز؛ فنبدأ فيها باسم الله عز وجل، والصلاة على النبي ﷺ [ذهاباً بالقصة عن أن تكون بترء، وصيانة لها عن أن تُدعى جذماء؛ قال رسول الله ﷺ (١): «كلُّ خطبةٍ لا يُبدأ فيها باسم الله عز وجل فهي بترء». وخطب زيادُ خطبته البترء (٢)، لأنه لم يحمد الله عز وجل ولم يصلِّ على رسوله ﷺ؛ وهذا مقامٌ نعوذُ بالله منه، ونسأله التوفيق للصواب، بورده وبصدره.

نعم، أطلال الله بقاء السيد، وأمتع ببقائه إخوانه؛ إن قعدنا نعدُّ آثاركم ونؤدي مآثركم، نغد الحصرُ قبل نفودها، وفنيت الخواطرُ قبل أن تفنى المآثر؛ وكيف لا، وإن ذكر الشرفُ فأنتم بنو بجدة، أو العلمُ فأنتم عاقدوا برده، أو الدينُ فأنتم ساكنو بلدته، أو الجودُ فأنتم لابسو جلده، أو التواضع صبرتم لشده، أو الرأيُ صلُتم بنجده، وإن بيتاً تولى الله بناءه ولزم الرسولُ ﷺ فناءه، وأقام الوصيُّ عليه السلام عماده، وخدم جبريلُ عليه السلام أهله، لحقيق أن يُصان عن مدح لسان قصير؛ ونحن نعود للقصة نسوقها.

فأولها: أنا وطعنا خراسان، فما اخترنا إلا نيسابور داراً، وإلا جوار السادة جواراً، لا جرم أنا حططنا بها الرُّحل، ومددنا عليها الطنب، وقديماً كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه، ونخبره على الغيب فنتعشقه، ونُقدرُ أنا إذا وطعنا أرضه، ووردنا بلده، يخرج لنا في العشرة عن القشرة، فقد كانت الحُمةُ الأدب جمعتنا، وكلمةُ الغربة نظممتنا؛ وقد قال شاعر العرب غير مُدافع (٣): [الطويل]

أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٥٩/٢.

(٢) خطبة زياد البترء، في: أمالي القالي ١٨٥/٣ وعيون الأخبار ٢٤١/٣..

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ٣٥٧.

فأخلف ذلك الظنَّ كُلَّ الإخلاف، واختلف ذلك التقديرُ كل الاختلاف؛ وكان قد اتفق لنا في الطريق اتفاقاً، لم يوجبهُ استحقاقٌ، من بزة بزوها، وفضة فضوها، وذهب^(١) ذهبوا به؛ ووردنا نيسابور براحةً أنقى من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار^(٢)، وزيّ أوحش من طلعة المعلم، بل اطلاع الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطئنا إلا عتبة داره؛ وهذا بعد رُقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها؛ فلما أخذتنا عينه سقانا الدُردي^(٣) من أول دَنَه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنَّه؛ من طرفٍ نظر بشطره، وقيام دفع في صدره، وصديق استهان بقدره، وضيع استخف بأمره؛ لكن أقطعناه جانب أخلاقه، ووليناه خطة رأيه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاوب، وشربناه على كُدرته، ولبسناه على^(٤) خشونته، ورددنا الأمر في ذلك إلى زي استغثه، ولباس استرثه، وكاتبناه نستمدُّ وداده، ونستلين قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منآده، بما هذه نسخته بعد البسملة:

الأستاذ أبو بكر، واللَّهُ يُطيل بقاءه، أزرى بضيفه إن وجده يضربُ آباط القلة في أطمار الغربة، فأعمل في مرتبته أنواع المصارفة، وفي الاهتزاز له أصناف المضايقة، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام عن التمام، ومضغ للكلام، وتكلف لرد السلام؛ وقد قبلت تربيته صبراً، واحتملته وزراً، واحتضنته نُكراً، وتأبطته شراً، ولم آله عُذراً؛ فإن المرء بالمال وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال، وفي هذه الأسمال أتقزز صف النعال؛ فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت إن نواديننا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناساً

(١) في الأصل: وذهبوا ذهبوا به!

(٢) أحلى من جوف حمار: من أمثال العرب، وهو رجل من عاد، يقال له: حمار بن مويلع، وجوفه واد له طويل عريض خصب، دعا قومه إلى الكفر فاخرب الله واديه. (ثمار القلوب ١/١٦٧).

(٣) الدُردي: ما يرسب في أسفل الدَّن. (القاموس).

(٤) في الأصل: كل.

يجرّون المطارف، ولا يمنعون المعارف^(١): [الطويل]

وفيهـم مقاماتُ حسانٌ وجوههم
وأنديةٌ ينسابها القولُ والفعلُ
فلو طرحت بأبي بكر أيدهُ الله طوارحُ الغربة، لوجد منال البشر قريباً، ومحطُ
الرّحل رحيباً، ووجه المضيف خصيباً؛ ورأيُ الأستاذ أبي بكر أيدهُ الله تعالى في
الوقوف على هذا العتاب الذي معناه وُدٌ، والمُر الذي يتلوه شهدٌ، مُوفقٌ إن شاء الله.
فأجاب بما هذه نُسخته:

وصلت رُقعةً سيدي ورئيسي، أطال اللّهُ بقاءهُ [إلى آخر] السّكّاج^(٢)،
وعرفت ما تضمنته من خشن خطابه، ومؤلم عتبه وعتابه، وحملت ذلك منه
على الضجرة التي لا يخلو منها من مسهُ عُسْرٌ، ونبا به دهرٌ؛ والحمدُ لله الذي
جعلني موضع أنسه، ومظنة مُشتكى ما في نفسه.

أما ما شكاهُ سيدي ورئيسي من مضايقتي إياه -زعم- في القيام عن التّمام،
فقد وفيته حقهُ -أيدهُ اللّهُ - سلاماً وقياماً على قدر ما استطعت عليه، ووصلت
إليه، ولم أرفع عليه إلّا السيد أبا البركات العلويّ أدام اللّهُ عزهُ، وما كُنْتُ لأرفعَ
أحداً على من أبوه الرسولُ، وأمه البتولُ، وشاهداهُ التّوراة والإنجيلُ، وناصرهُ
التّأويلُ والتنزيلُ، والبشيرُ به جبريلُ وميكائيلُ؛ فأما القومُ وما وصف سيدي
عنهم فكما وصف حُسن عشرةٍ، وسداد طريقةٍ، وكمال تفصيلٍ وجملّة.

ولقد جاورتهمُ فأحمدتُ المراد، ونلتُ المراد^(٣): [الطويل]

فإن أكَ قد فارقتُ نجداً وأهلَهُ
فما عهدُ نجدٍ عندنا بذيـمٍ

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، في ديوانه ١١٣.

(٢) السّكّاج: طعام يُتخذ من اللحم والخلّ والمرق؛ والمقصود هنا ألوان العتاب.

(٣) البيت رابع أربعة في نفح الطيب ٨٠/١ بلا نسبة.

واللهُ يعلمُ نيتي للأحرارِ كافةً، ولسيدي أدام الله عزهُ من بينهم خاصةً؛ فإن أعانني على ما في نفسي بلغتُ له بعض ما في النية، وجاوزتُ به مسافة القدرة؛ وإن قطع عليَّ طريقَ عزمي بالمعارضة، وسوء المؤاخذة، صرفتُ عناني عن طريق الاختيار، [بيد الاضطرار]: [الطويل]

فما النفسُ إلا نطفةٌ في قرارةٍ إذا لم تُكدر كان صفواً غديرها^(١)
وبعدُ: فحبذا عتابُ سيدي إذا استوجبنا عتباً، واقتربنا ذنباً؛ فاما أن يُسلِفنا العريضة، فنحنُ نصوئهُ عن ذلك، ونصونُ أنفسنا عن احتمالهِ عليه؛ ولستُ أسوئهُ أن يقول: ﴿استغفر لنا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾^(٢)، ولكني أسأله أن يقول: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣).

فحين ورد الجوابُ، وغيرُ العُذر رائدُهُ، تركناه بعزهِ، وطويناهُ على غرهِ، وعمدنا لذكرهِ، فسحوناهُ، عن صحيفتنا ومحوناهُ، وصرنا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه؛ وتنكبنا خُطتُهُ، وتجنبنا خُلطتُهُ، فلا طرنا به، ولا طرنا إليه؛ ومضى على ذلك الأسبوعُ، ودرجت اللَّيالي، وتطاوَلت المُدَّة، وتصرم الشهرُ وصرنا لا نُعيِّرُ الأسماع ذكرهِ، ولا نُودِعُ الصدر حديثهُ، وجعل هذا الفاضلُ يستزيدُ ويستعيدُ، بالفاظٍ تقطِفُها الأسماعُ من لسانهِ وترُدُّها إليَّ، وكلمات تحفظها الألسنة من فمه وتُعيدُها عليَّ؛ فكاتبناه بما هذه نُسختهُ:

أنا أُرِدُ من الأستاذ سيدي -أطال الله بقاءهُ- شرعةً وُدّه، وإن لم تصف؛ وألبسُ خلعةً وُدّه^(٤)، وإن لم تضيف؛ وقصاراي أن أكيلهُ صاعاً عن مُدٍّ؛ فإنني

(١) روايته في رسائل البديع والصبح المنبي: X... كان صفواً معينها

(٢) سورة يوسف: ٩٧.

(٣) سورة يوسف: ٩٢.

(٤) كذا في الأصل؛ وفي الرسائل: بُرة.

وإن كنتُ في الأدب دعيَّ النسب، ضعيف السبب، ضيق المضطرب، سيء المنقلب، أمتُ إلى عشرة أهله بنيقة، وأنزعُ إلى خدمة أصحابه بطريقة، ولكن بقي أن يكون الخليطُ مُنصفاً في الوداد، إذا زُرْتُ زار، وإن عُدْتُ عاد؛ وسيدي -أيدهُ الله- ناقشني في القبول أولاً، وصارفني في الإقبال ثانياً؛ فأما حديث الاستقبال، وأمرُ الإنزال والآنزال، فنطاقُ الطمع ضيقٌ عنه، غيرُ مُتسعٍ لتوقعه منه.

وبعد: فكلفةُ الفضل هينةٌ، وفروض الود متعينةٌ، وأرضُ العشرة لينّةٌ، وطرقُها بينةٌ، فلم اختار قعود التّعالي مركباً، وصعود التّغالي مذهباً؟ وهلاً زاد الطّير عن شجر العشرة، وذاق الحلو من ثمرها؟ فقد علم الله أن شوقي إليه قد كدَّ الفؤاد برحاً على برح، ونكاهُ قرحاً على قرح، ولكنها مرةٌ مرةً، ونفسٌ حرّةٌ، لم تُعد إلا بالإعظام، ولم تلق إلا بالإجلال، وإذا استعفاني من مُعاتبتي، وأعفى نفسه من كُلف الفضل بتجشمها، فليس إلا غُصصُ الشوق أتجرّعها، وحُل الصبر أدرّعها، ولم أغره من نفسي، وأنا لو أعرْتُ جناحي طائرٍ لما طرت إلا إليه، ولا وقعتُ إلا عليه^(١): [الطويل]

أُحبُّك يا شمس الزمان وبدره وإن لآمني فيك السُّها والفراق^(٢)
وذاك لأنَّ الفضل عندك باهرٌ وليس لأنَّ العيش عندك باردٌ

فلما وردت عليه الرُّقعة، حشر تلامذته وخدمه، وزمَّ عن الجواب قلمه، وجشَّم للإيجاب قدمه، وطلع مع الفجر علينا طلوعه، ونظمتنا حاشيتا دار الإمام أبي الطَّيِّب أدام الله عزّه؛ فقلت: الآن حين تُشرقُ الحشمةُ وتُنورُ، ونوجدُ في

(١) البيتان للمتنبي في ديوانه بشرحه المنسوب للعكبري ١/ ٢٨٠.

(٢) مكان البيتين في رسائل البديع بعد بيت ابن المعتز، على هذا النحو: وأنشدناه قول ابن عسرا أبي

الطيب: [البيتين]

وقول آخر، وقد أحسن وزاد: أُحبُّك في البتول... X

العشرة ونُغورُ، وقصدناهُ شاكرين لما أتاهُ، وانتظرنا عادةً بره، وتوقعنا مادةً فضله،
فكان خُلباً شمناهُ، وآلاً وردناهُ، وصرفنا الأمر في تأخرنا عنه إلى ما قاله عبد الله
بنُ المعتز^(١): [الرجز]

إنّا على البعاد والتفريق لنلتقي بالذكر إن لم نلتقي
وأنشدناه قول ابن عسبرنا: [الوافر]

أُحِبُّكَ في البُتُول وفي أبيها ولكنّي أُحِبُّكَ من بعيد^(٢)
وبقينا نلتقي خيالاً، ونقنعُ بالذكر وصلاً، حتّى جعلت عواصفهُ تهبُّ،
وعقاربهُ تدبُّ، وهولا يرضى بالتعريض حتّى يصرح، ولا يقنعُ بالنفاق حتّى
يعلن؛ وشكا إليّ بعضُ إخواننا أنّي خاطبتهُ مُخاطبةً مُجحفةً، ونزلتهُ منزلةً
مُتحيفةً؛ فقال: إني أؤثر العريضة، وأسلف الموحدة؛ ويرميني في ذلك بدائه
وينسل^(٣)، فكتبنا إليه^(٤): [المتقارب]

جُعلتُ فداءك من فاضلٍ بلغتُ التراقي من جـوره
وفي الغيب أكثرُ ما رأيتُ وأين البُلوغُ إلى غـوره
أتني الرواة بما قُلتـهُ بهيئته وعلى كـوره
وقولك إني طوعُ الشجار أضـمُّ ضُلوعي على سـوره^(٥)
فقلتُ حياء لمن قد [أتاني] تجاوز منا مدى طوره

(١) ديوانه ١/ ٥٠٢. وفي الاصل: عبد الله بن المعبد.

(٢) في الاصل ولي نائبها ١١٨.

(٣) المثل: رمتني بدائها وانسلت؛ مجمع الامثال ١/ ٢٨٦ وفصل المقال ٩٢ والمستقصى ١٠٣/ ٢.

(٤) القصيدة لم ترد في رسائل البديع ولا في ديوانه.

(٥) لعله ترقيق مناسب لإقامة الوزن والمعنى.

فما لآت حورا على كوره	فيا من بذلت ودادي له
وقصص تغرّخ عن نوره	بود تبلّج عن نوره
بشطر القيام إلى زوره	فهشّ كما ليس يخفي عليك
وغضّ الجفون على هوره	وبايعته بيمين الرضا
ألا حبذا الأري في شوره	وقلت لحنظل أخلاقه:
طممت بنجدي على غوره	ولو كان ذلك من غيره
فقامرني بيدي حوره	ولاعبته بكعاب الرجوع
حديث الفتى مع سنوره	وكان حديثي لما رجعت
ولم سكن البر من فوره	فلم أدر فيما جفا ضيفه
أم الفلك الغث في دوره	اللزمن النّي في حكمه
كملمت مس الدرّ في ثوره	وكتابت أستمد الوداد
وواجهه دري ببلوره	فقابل صرفي بممزوجه
يلوح التكلّف في موره	وجشّم أقدام إقدامه
بما ليس يخلجل في زوره	وزار وزرناه عن قصده
(١) أوينا منتحى سوره	هلم إلى منبت المكرّمات
ودونك زند المنى أوره	وأما الخطاب فانت ابتدأت

فلما وردت عليه الأبيات، أبرزت باطنه، وحركت ساكنه، وأخرجت دفائن صدره، ورفعت أذيال ستره، وملا قلبه ولحيته تهديداً؛ فكتبنا إليه^(٢): [الهج]

أعني يا أبا بكر	على نفثة مصدور
على ودك مطوي	وعن عتبك منشور

(١) كذا .

(٢) القصيدة لم ترد في رسائل البديع ولا في ديوانه

إلى سلمك مُشتاقٍ
ولا تعدل إلى الظلم
ولا تهو إلى الوهد
ولا تنهج إلى الأضيأ
ولا تحفر لهم بيراً
ولا تنقل إلى الفتنة
فما أكثر ما عند
ولا تغرف على الإخو
فكم أطوي لك السمع
وكم أُلقي عليها طر
وإن تمدد إلى مءاء الـ
تعد عن جهتي والد
ولا مروان بالكوفة
ولا الكلب أتى الجام
وإن أحببت أن تعل
فلا تبطل فدتك النف
ولا تخلف بأخلاق

على حربك مقهور
ة عن ناحية النور
ة من عالية السور
ف إلا سُبُل الخير
تقع في ذلك البير
أسباب المقادير^(١)
ك من سر العقاقير
ن من هذي الأباير
على سود المناكير
في في حلمي وتذكيري
تصافي يد تكدير
محذوف الشوابير
في غُدوة عاشور
ع في فـروة ممطور
م فانشط غير مأمور
س في بُردك تدبيري
ك في العشرة تقديري

فلما وردت عليه الأبيات قال: لو أن بهذا البلد رجلاً تأخذه أريحية

الكرم^(٢)، وتملكه هزة الهمم، يجمع بيني وبين فلان -يعني-: [الرجز]

ثم رأى إذا انجلي الغبار
أفرس تحتي أم حمار

(١) في الأصل: ولا تصل إلى الفتنة X.

(٢) في الأصل: الكريم.

وعلم أيُّنا يُبرزُ خلابهُ عفواً، أو أيُّنا يُغادرُ في المكر، ولودَّ فلانٌ بوسطاه؛ بل
 بيمناهُ، لو دخلنا وقلنا في المناخ له: ثم، إلى كلماتٍ تحذو هذا الحذو، وتنحو هذا
 المنحى، وألفاظُ أتننا من علٍ؛ وكان جوابُنا أن قلنا: بعضُ الوعيد يذهبُ في
 البيد، والصدقُ يُنبئُ عنك لا الوعيد^(١)؛ وقلنا: إنَّ أجرةَ الناسِ على الأسد،
 أكثرُهم رؤيةً له؛^(٢) وقد قال بعضُ أصحابنا. قُلْتُ لفلان: ألا تُناظرُ فلاناً، فإنَّه
 يغلبُك؟ فقال: أمثلي يُغلبُ وعندي دفترٌ مُجلدٌ! ووجدنا عندنا دفاترٌ مُجلدةً،
 وأجزاءٌ مُجرَّدة؛ وأنشدناه قول جحل بن نضلة^(٣): [السريع]

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحه إن بني عمِّك فيهم رماحُ
 هل أحدث الدهرُ بنا نكبةً أم هل رقت أمُّ شقيقٍ سلاحُ
 وقلنا: إنا نقتحمُ الخطب، ونتوسَّطُ الحرب، فنردُّها مُفحمين، ونصدرُ
 بُلغاء: [الطويل]

والسُّننا قبل النزال قصيرةً ولكنَّها بعد النزال طوالُ
 [المقارب]

فأرضك أرضك إن تأتينا تنم نومةً ليس فيها حلُمُ
 [المقارب]^(٤)

فمن ظنَّ ثَمَّ يُلاقِي الحُروب بأن لا يُصاب فقد ظنَّ عجزاً
 فإنك متى شئت لقيت منّا خصماً ضخماً، ينهشُك قضمًا، ويأكلك

(١) المثل في: مجمع الأمثال ٣٩٨/١ والمستقصى ٣٢٨/١.

(٢) المثل في: مجمع الأمثال ١٩١/١.

(٣) مضي البيت الأول، وهما له في المؤتلف والمختلف للآمدي ١١٢.

(٤) البيت للخنساء، في ديوانها ٢٧٧.

خضماً، وحثناه على الأخذ بكتاب الله تعالى من قوله: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(١)
 ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٢) . وأنشدناه قول الأول: [البسيط]

السُّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتُ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعُ
 وَقَلْنَا لَهُ^(٣): [الوافر]

نصحتك فالتمس يا ويك غيري طعاماً إن لحمي كان مُرّاً
 ألم يبلغك ما فعلت ظُباهُ بكا ظمة غداة لقيتُ عمرا
 وجعل الشيطانُ يثقلُ بذلك أجفان طرفه، ويُقيمُ به شعرات أنفه^(٣):
 [الوافر]

وحتى ظن أن الغش نصحي وخالفني كأني قلتُ هجرا
 واتفق أن السيد أبا علي -أدام الله عزه- نشط للجمع بيني وبينه، فدعاني
 فأجبتُ، ثم عرض عليَّ حضور أبي بكرٍ، فطلبتُ ذلك، وقلت: هذه عدةٌ لم أزل
 أستنجزها، وفرصةٌ لا أزالُ أنتهزها؛ فتجشم السيد أبو الحسين، فكاتبه
 يستدعيه؛ واعتذر أبو بكرٍ بعذرٍ في التأخر، فقلت: لا ولا كرامةٍ للدَّهر أن نقعد
 تحت ضيمه، أو نقبل خسف ظلمه، ولا عزازةٍ للعوائق أن تُضيعنا ولا نُضيعها،
 أو تُعنيننا ولا ندفعها؛ وكاتبتهُ أنا أشحذُ عزيمتهُ على البدار، وألوي رأيه عن
 الاعتذار، وأعرفه ما في من ظنونٍ تشتبه، وتُهم تتجه، وتقادير تختلف،
 واعتقادات تُخلف، وقدنا إليه مركوباً، لنكون قد ألزمتنا الحج وأعطينا الرَّاحلة،
 فجاءنا في طبقة أوفٍ وعدد تُفٍ: [السريع]

(١) سورة النساء: ١٢٨.

(٢) سورة الأنفال: ٦١.

(٣) من قصيدة بشر بن عوانة، في منتهى الطلب ٢٥٦/٨ ومقامات البديع ٢٥٠...

كُلُّ بَغِيضٍ قَدُهُ إِصْبَعٌ وَأَنْفُهُ خَمْسَةُ أَشْبَارٍ

مع أرباب عاناتٍ وأصحاب جرباناتٍ، لا تنالُ العينُ منهم إلا خسيساً،
وسرحنا الطرفَ منه ومنهم، في أحمى من است النمر^(١)، وأعطس من أنف
النغر^(٢)، فظننا أنه يُريدُ أن يلقى كتيبةً، أو يهزم دوسراً، أو يقلُّ الأنكدين، أو
يرُدُّ الوافدين؛ ثم رأينا رجالاً جوفاً، قد خلَّقوا صُوفاً، فأمنا المعرة، ولم نخش
المضرة، وقمنا له وإليه، وجلس يحرقُ أرمه، وتمثل بيت لا يقتضيه الحال: من أنا
في الحباله نستبق^(٣).

فتركناه على غلوائه، حتَّى إذا نفّض ما في رأسه، وفرغ جعبته وسواسه،
عطفنا عليه، فقلنا: عافاك الله، دعوناك وعرضنا غير المهارشة، واستزرنّاك
وقصدنا غير المناوشة؛ فلتهدأ ضلوعك، وليفرخ روعك: يا مارسر جس لا نريدُ
قتالاً^(٤)، وما اجتمعنا إلا لخيرٍ، فلتسكن سورتك، ولتلن فورتك، ولا ترقص لغير
طرب، ولا تحم لغير سبب، وإنما دعوناك لتملا المجلس فرائد وتذكر أبياتاً
شوارد، وأمثالاً فوارد، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسالنا فتسرّ بما عندنا،
ويقف كلُّ منا موقفه من صاحبه، وقديماً كنت أسمعُ بحديثك، فيُعجبني
الالتقاء بك والاجتماعُ معك، والآن إذ سهل الله ذلك، فهلم إلى الأدب نُنقِ
يومنا عليه، وإلى الجدل نتجاذب طرفيه؛ فاسمع خبراً وأسمعنا مثله؛ ونبدأ بالفن
الذي ملكت به زمانك، وفَتَّ فيه أقرانك، وملكيت منه عنانك، وأخذت منه

(١) المثل في: ثمار القلوب ١/ ٥٩٤ والميداني ١/ ٥٣ و٢/ ٣٢٣ والمستقصى ١/ ٣٦٨ و٨٧.

(٢) النغر: الغاضب. ولعل الصواب بالعين المهملة، من قولهم: نعر الحمار: إذا دخل في أنفه النعرة،
وهي ذباب أزرق، يدخل أنف الحمار فيركب رأسه، ولا يرده شيء. (القاموس).

(٣) كذا في الأصل والرسائل، ولا يصحُّ له وزنٌ ولا معنى.

(٤) عجز بيت لجرير في ديوانه ١/ ٥٧ وصدّره: قال الأخطل إذا رأى راياتهم: X.

مكانك، وطار به اسمك بعد وقوعه، وارتفع له ذكرك عقب خضوعه، وأفحمت به الرجال، حتى أذعن العالمُ وقلد الجاهلُ، وقالوا قول الصوفيَّة: يا دهشاً كُلُّهُ؛ فجارنا بفرسك، وطاولنا بنفسك؛ فقال: وما هو؟ قلتُ: الحفظُ إن شئت، والنَّظْمُ إن أردت، والنَّثرُ إن اخترت، والبدِهةُ إن نشطت؛ فهذه أبوابك التي أنت فيها ابنُ دُعواك، تملأُ منها فاك.

فأحجم عن الحفظ رأساً، ولم يُجل فيه قدحاً، وقال: أبادهك؛ فقلتُ: أنت وذاك؛ فمال إلى السيد أبي الحسين فسأله بيتاً ليُجيز، فقلتُ: يا هذا، أنا أكفيك؛ ثم تناولتُ جزءاً فيه أشعاره، وقلتُ لمن حضر: هذا شعرُ أبي بكر الذي كدَّ به طبعه، وأسهر له جفنه، وأجال فيه فكره، وأنفق فيه عمره، واستنزف فيه يومه، ودوَّنه صحيفة مآثره، وجعله ترجُمان محاسنه، وعبر به عن باطنه، وأخذ مكانه به، وهو ثلاثون بيتاً؛ وسأقرنُ كُلَّ بيتٍ بوفقه، وأنظُمُ كُلَّ معنى إلى لفقه، بحيثُ أصيبُ أغراضه، ولا أعيدُ ألفاظه، وشريطتي ألا أقطع النفس؛ فإن تهباً لواحد، أو أمكن لناقدٍ ممن قد حضر، يُريدُ النظر، أن يُميز قوله من قولي، ويحكم على البيت أنه له أو لي، أو يُرجِّح ما أنضجه بنار الروية، على ما أمليته على لسان النفس، فله يدُ السبق، أو يكونُ غيرها، فاعفى عن هذه المعارضة، وتنحى لنا عن أرض المماثلة، ويُخلى لنا الطريقُ لمن يبني المناربه؛ فقال أبو بكر: ما الذي يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تُريدُ إنشاده الآن؟ فقلتُ: اقترح لكلِّ بيتٍ قافيةً، لا أسوقه إلا إليها، ولا أقفُ به إلا عليها؛ ومثال ذلك أن تقول: حشر؛ فأقول بيتاً آخره حشر، ثم عشر فأنظُم بيتاً قافيته عشر، ثم هلمَّ جراً إلى حيثُ يتضح الحقُّ، وينتضح الزرقُ، وتستقرُّ الحجةُ وتطرُدُ، وتستقلُّ الشبهةُ وتنطرُدُ، فيعرفُ الحالي من العاطل، ويُفرقُ بين الحقِّ والباطل؛ فأبى أبو بكر أن يُشاركنا هذا العنان، ومال إلى السيد أبي الحسين يسأله بيتاً ليُجيز، فتبعنا رأيه

بما رآه، ولم نرض إلا رضاه، ولم نعدل عن هواه ومُبْتَغَاهُ؛ وأعمل كلُّ منا لسانه وفمه، وأخذ دواته وقلمه، وأجزنا البيت الذي قاله، وكلُّنا أجزناه إجازةً، جارى القلمُ فيها الطبع، وبارى اللسانُ بها السمع، وسارق الخاطرُ بها الناظر، وسابق الجنانُ فيها البنان؛ إلى أن قلنا^(١): [الكامل]

وبروكه عند القريض ببركه	هذا الأديبُ على تعسف فتكه
من نظمه، مُتباطئٌ عن تركه	متسرّعٌ في كلِّ ما يعتاده
من أن يكون مُطِيعُهُ في فكّه	والشعرُ أبعدُ مذهباً ومصاعداً
فانظرُ إلى بحر القريض وفلكه	والنظمُ بحرٌ والخواطرُ معبرٌ
عرضتُ أذن الامتحان لعركه	فمتى توائى في القريض مُقصرٌ
في المكرّمات ورفعه في سمكه	هذا الشريفُ على تقدّم بيته
وأنا القرينُ السُّوءُ إن لم أنكه	قد رام مني أن أقارن مثله
برد اليقين على حرارة شكّه	وإذا نظرت وجدت ما قد قُلْتُهُ
وحطمتُ جانحة القرين بدكّه	عارضتُ بيتاً قُلْتُهُ متعسفاً
نهج الأديم بدبغّه وبذلكه	ودبغتُ منه أديمه فتركته
كالدرُّ رُصّع في مجرّة سلكه	اصغوا إلى الشعر الذي نظمتُهُ
فدمي الحرامُ له إراقةُ سفكه	فمتى عجزتُ عن القرين بديهة

فقال أبو بكرٍ أبياتاً جهدنا به أن يُخرجها عن اللَّحاف، ويُبرزها من الغلاف، فلم يفعل دون أن طواها، وجعل يفرّكها ويعرّكها، فقلتُ: يا هذا، إنَّ البيتَ لقائله كالولد لناجله، فمالك تعقُّ ابنك وتُضيّمُهُ؟ أبرزها للعيون، وخلّصها من الظُّنون؛ فكره أبو بكرٍ أيدهُ الله أن تكون الهرةُ أعقل منه، لأنها تُحدثُ وتُغطي،

(١) القصيدة في رسائل البديع ٤٣-٤٤. وليس منها في ديوانه ١١٧ ومعجم الأدباء ١/٢٣٩ سوى الثالث والرابع والخامس.

فلم يستجز أن يُظهر، ثم بسط^(١) جبينه، وبسط يمينه للبديهة، نفساً دون أن كتب، فقال: أنت وذاك؛ واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيّب المتنبي، حيث يقول^(٢): [الكامل]

أرقُ على أرقٍ ومثلِّي يأرقُ وجوى يزيدُ وعبرةٌ تترقُ
وابتدر أبو بكرٍ أيدهُ اللهُ إلى الإجازة، ولم يزل إلى الغايات سباقاً، فقال^(٣): [الكامل]

وإذا ابتدَهْتُ بديهةً يا سيدي	فأراك عند بديهتي تتقلقُ
وإذا قرضتُ الشعر في ميدانه	لا شك أنك يا أخي تتشققُ
إني إذا قُلتُ البديهة قُلتُها	عجلاً وطبعك عند طبعي يرقُ
مالي أراك ولست مثلي عندها	مُتموها بالثرهات تمخرقُ
إني أُجيزُ على البديهة مثل ما	تريانه وإذا نطقتُ أُصدّقُ
لو كنت من صخرٍ أصمُّ لها له	[مني] البديهة واغتدئ يتفلقُ
أو كُنت ليثاً في البديهة قادراً	لرئيت يا مسكينٌ دُوني تبرقُ ^(٤)
وبديهةً قد قُلتُها مُتنفساً	فقل الذي قد قُلت يا ذا الأخرقُ

ثم وقف يعتذر، ويقول: إن هذا كما يجيء لا كما يجب؛ فقلت: قبل الله عذرك، لكنني أراك بين قوافٍ مكروهة، وقافاتٍ خشنة؛ كلُّ قافٍ كجبلٍ قافٍ، منها: تتقلقُ وتشققُ وتفلقُ وتمخرقُ وتبرقُ وتسرقُ وأحمقُ وأخرقُ، إلى أشياء لا

(١) كذا في الأصل؛ وفي الرسائل: مسح.

(٢) ديوانه ٣٣٢/٢.

(٣) ديوان أبي بكر الخوارزمي ٣٦٨ ورسائل البديع ٤٥ والصبح المنبي ٤٠. وفي معجم الأدباء ٢٤٠/١ الأول والرابع فقط.

(٤) روايته في المصادر:

أو كنت ليثاً في البديهة خادراً لرئيت يا مسكين مني تفرقُ

أكثرُ بها العدد؛ فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداءً لقرضك؛
وقلتُ^(١): [الكامل]

مهلأُ أبا بكرٍ فزندكُ أضيقُ	واخرس فإن أخاك حيُّ يرزقُ
دعني أعرك إذا سكتَ سلامةُ	فالقولُ يُنجدُ في ذوبك ويُعرقُ
ولفاتك فتكاتُ سوءٍ فيكمُ	فدع السُّتورَ وراءها لا تُخرقُ
وانظر لأشنع ما أقولُ وأدعي	أله إلى أعراضكم مُتسلِّقُ؟
يا أحمقاً وكفاك ذلك خزيةُ	جرئت نار معرّتي هل تخرقُ؟

فلما أصابه حرُّ الكلام، ومسه لفح هذا النظام، قطع علينا، فقال: يا أحمقاً، لا يجوزُ؛ فإنَّ أحمق لا ينصرفُ؛ فقلنا: يا هذا لا تقطع، فإنَّ شعرك إن لم يكن عيبة عيب، فليس بطرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطاعن سبيلاً إليك؛ وأما أحمق فلا يزالُ يصفعُك وتصفعُك، حتى ينصرف وتنصرف معه. وعرفناه أن للشاعر أن يرُدَّ ما لا ينصرفُ إلى الصرف، كما أن له رأيه في القصر والحذف؛ وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب، فقال: يجوزُ للعرب ما لا يجوزُ لك؛ فلم يدر كيف يُجيبُ عن هذا الموقف وهذه الواقعة، وكيف يسلم من هذه المناصفة، لكنَّا قلنا له: أخبرنا عن بيتك الأول، أمدحت أم قدحت؟ وزكيت أم جرحت؟ ففيه شيءان مُتفاوتان، ومعنيان مُتباينان؛ منها أنَّك بدأت فخطبت بيا سيدي، والثانية:

أَنَّكَ عطفْتَ فَقُلْتَ: تتقلَّقُ، وهما لا يركضان في حلبة، ولا يحطَّان في خُطَّة. ثم قُلْتَ له: خُذ وزناً من الشعر، حتى أسكَّت عليك فتستوفي من القول حظَّك، واسكَّت علينا حتَّى نستوفي حظنا؛ ثم إنني أحفظُ عليك أنفاسك

(١) الأبيات في رسائل البديع ٤٦ والصبح المبني ٤٠. وليس في ديوانه ١٠٦ ومعجم الأدباء سوى الأول والآخر.

وأوقفك عليها، واحفظ عليّ أنفاسي وواقفني عليها؛ فإن عجزتُ عن اعتلاقها
حفظتُها لك، فسلني عنها بعد ذلك؛ وأخذنا بيت أبي الطيّب المتنبّي^(١):
[المنسرح]

أهلاً بدارٍ سبّاك أغيدُها أبعد ما بان عنك خُرْدُها
فقلتُ^(٢): [المنسرح]

يا نعمة لا تزالُ تجحدُها ومنّة لا تزالُ تكندُها
فأخذُ بمُخَنِّق البيت قبل تمامه، ومضيق الشّعْر قبل نظامه، فقال: [ما] معنى
تكندُها؟ فقلتُ: يا هذا، كند النعمة: كفرها؛ فرفع يديه ورأسه، وقال: معاذ
الله أن يكون كند بمعنى جحد، وإنما الكنود: القليلُ الخير؛ فأقبلت الجماعة عليه
يوسعونه برياً وفرياً، ويتلون له قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٣).
فقلتُ: أليس الشّرطُ أملك؟ والعهد بيننا أن تسكّت ونسكّت حتّى نُتم وتُتم؟
ثم نبحتُ ونفحصُ؟ فنبد الأذب وراء ظهره، وصار إلى السُّخف يكيّلنا بصاعه
ومُدّه، وينفضُ فيه حُمّة جهده، وأفضى إلى السفه يغرفُ علينا غرّاً، ويستقي
من جرفه جرفاً؛ فقلتُ له: يا هذا، إنّ الأذب غيرُ سوء الأذب، وللمُنَاطرة حضرنا
لا للمُنَافرة؛ فإن نقضت عن هذا السُّخف يدك، وثبيت عن هذا السّفه قصبك،
وإلا تركتُ مكالمتك؛ ولو كان في باب الاستخفاف شيء أبلغ من ترك الإنكار
لبلغته منك؛ فأخذ يمضي على غُلوائه، ويمعنُ في هُرائه وهُذائه؛ فاستندتُ إلى
المُسند، ووضعت اليد على اليد، وقلتُ: أستغفرُ الله من مكالمتك، ونفضتُها
قائمة معه، وسكّتُ حتّى عرف الناسُ، وأيقن الجُلّاسُ أنني أملكُ من نفسي مالا

(١) ديوانه ١/ ٢٩٤.

(٢) ليس في ديوانه، وهو في مصادر المناظرة.

(٣) سورة العاديات: ٦.

يملكه، وأسلك من طريق الحلم مالا يسلكه؛ ثم عطفت عليه، فقلت: يا أبا بكر، إنَّ الحاضرين قد أعجبوا من حلمي بأضعاف ما أعجبوا من علمي، وتعجبوا من عقلي، أكثر مما تعجبوا من فضلي؛ وبقي الآن أن يعلموا أنَّ هذا السُّكوت ليس عن عيٍّ، وأنَّ تكلفي للسُّفَه أشدُّ استمراراً من طبعك، وغربي في السُّخف أمثُنْ عوداً من نبعك؛ وسنقرعُ باب السُّخف معك، ونفترعُ من ظهر السُّفَه مُفترعك، فتكلّم الآن.

فقال: أنا قد كسبتُ بهذا [العقل] دية أهل همذان مع قتلته، فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته؟ فقلتُ: أما قولك: دية أهل همذان، فما أولاني بأن لا أُجيب عنه، لكن هذا الذي به تتمدُّح وتبَّجُّج، وتتشرفُ وتتصَلَّفُ، من أنك شحذت فاخذت، وسألت فحصلت، وكديت فاقتنيت، فهذا عندنا صفة ذمٍّ، عافاك الله، ولأن يُقال للرَّجل: يافاعلُ، ياصانعُ، أحبُّ إليه من أن يُقال: يا شحَّاذُ، يامُكدي؛ وقد صدقت، أنت في هذه الحيلة أسبقُ، و[في] هذه الحرفة أعرقُ؛ ولعمرك إنَّك أشحذُ، وأنت في الكُدية أنفذُ، وأنا قريبُ العهد بهذه الصُّنعة، حديثُ الورد لهذه الشرعة، مُرملُ اليد في هذه الرُّقعة.

فأما مالك، فعندنا يهوديٌّ يُمائلك في مذهبه، ويرنك بذهبه، وهو مع ذلك لا يطرُقني إلا بعين الرُّهبة، ولا يمدُّ إليَّ إلا يد الرُّغبة؛ ولو كان الغني حطاً كريماً لأخطأه مثلُ هذا العقل، ولو كان المالُ غنماً لما أدرك بهذا السعي، ولكن عرُفني هل كنت فيما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك، إلا هارباً بدمائك، مُضرجاً بدمائك، مُرتهاناً بقولك، بين وجنةٍ موشومةٍ، وجوارحٍ مهشومةٍ، ودارٍ مهدومةٍ، وخُدودٍ ملطومةٍ؟ ومتى صفت مشارعك، أو أخصبت مراتعك، إلا في هذه الأيام القذرة؟ وستعرفُ غدك من بعدٍ وتُنكرُ أمسك، وتعلمُ قدرك في غدٍ وتعرفُ نفسك، وما أضيع وقتاً قطعتهُ بذكرك، ولساناً دنسته باسمك.

وملتُ إلى القَوال وهو أبو بكرٍ أحمد بن عبد الله الشاذياخي، فقلتُ: أسمعنا خيراً؛ فدفع القَوالُ وغنى أبياتاً، فيها^(١): [الوافر]

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخد الرقيق

فقال أبو بكرٍ: يا قوم، أحسن ما في هذا الأمر، أنني أحفظُ هذه القصيدة وهو لا يعرفها؛ فقلتُ: يا عافاك [الله]، أعرفها، وإن أنشدتُكها ساءك مسموعُها، ولم يسرك مصنوعُها؛ فقال: أنشد؛ فقلتُ: أنشد، لكن روايتي تُخالفُ هذه الرواية؛ وأنشدتُ: [الوافر]

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكتة، وأضجرتُه النكتة، وانطفأت تلك الوقدة، وانحلت تلك العقدة، وأطرق ملياً، وقال: والله لأضربنك وإن ضربتُ، ولا شتمنك وإن شمتُ، ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾^(٢) ولتعلمنَّ أينما الضاربُ وأينما المضروبُ. وقلتُ: يا أبا بكرٍ مهلاً، فإنك بين ثلاثة فصولٍ لم تتخطها من عمرك، وثلاث أحوالٍ لم تتعدّها^(٣) في أمرك؛ وأنت في جميع الثلاثة ظالمٌ في وعيدك، متعدٌ في تهديدك؛ لأنك كهلٌ وأنت شاعرٌ، وكنت شاباً وأنت مُقامرٌ، وكنت صبيّاً وأنت مؤاجرٌ؛ فنطاقُ القدرة في الثلاثة الفصول ضيقٌ عن هذا الوعيد؛ لكننا نصفُك الآن، وتضربنا فيما بعد، فقد قيل: اليوم قصفٌ، وغداً خسفٌ؛ وقيل: اليوم خمُرٌ، وغداً أمرٌ^(٤)؛ فقال أبو بكرٍ: والله لو أنك دخلت الجنة، واتخذت السندسَ والإستبرقَ جُنَّةً، لصُفعت؛ فقلتُ: والله لو أن قفاك غدا في درجٍ في

(١) قارن: بقول كشاجم: [ديوانه ٢٨٦].

يُذكرني بنفسجه بقايا صنيع اللطم في الخد الرقيق

(٢) سورة ص: ٨٨.

(٣) في الأصل: تتعدها.

(٤) هي قولة امرئ القيس المشهورة.

خُرج في بُرجٍ، لأخذك من النعالِ ما قدم وما حدث، وشملك من الصَّفْع ما طاب
وخبث؛ وأنشدتُ قول ابن الرومي^(١): [المجثث]

إن كان شيخاً سفيهاً يفوقُ كُلَّ سفيهِ
فقد أصاب شبيهاً له وفوق الشُّبِيهِ

ثم لما أبت نفسُ العقل، وزال سُكْرُ الغيظ، تمثَّلتُ بقول القائل^(٢):
[الطويل]

وانزلني طُولُ النوى دارَ غُربةٍ إذا شئتُ لأقيتُ امرأً لا أُشاكُله
أجامعُه حتَّى يُقالَ سجيَّةٌ ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقُله

ودُفعَ القوال فبدأ بأبياتٍ، ولحن بأصواتٍ، وجعل النعاسُ يثني الرؤوس، ويمنعُ
الجلوس؛ فقمنا عن الليل وهو يجرُّ بعاع الذَّقن، إلى ما وُطئ من مضجعٍ، ومُهدَّ
من مهجعٍ؛ ولم يكن النوم ملأ الجُفون، ولا شغل العيون، حتَّى أقبل وفدُ
الصُّباح، وحيَّعَل المؤذُن بالفلاح، وندب بالنُّهوض إلى المفروض، وأجبنا؛ فلمَّا
قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى إلى مثواه، وأويتُ إلى الحجرة، وظني أن هذا
الفاضل يأكلُ يدهُ ندماً، ويبكي على ما جرى دمعاً ودماً؛ فإنه إذا سمع بحديثٍ
همذان، قال: الهاءُ همٌّ، والميمُ موتٌ، والذالُ ذُلٌّ، والألفُ آفةٌ، والنونُ ندامةٌ؛ وإنَّه
إذا نام هاله منّا طيفٌ، وإذا انتبه راعه منّا سيفٌ؛ وأخذ الناسُ يترامزون بما جرى
ويتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتُهم، مثلما راب المريضُ تغامزُ العُوداد؛ فجعل
يحلفُ للناس بالعتق، وتحرير الرِّقِّ، والمكتوب في الرِّقِّ، أنه أخذ قصب السبق،
وأنه ينطقُ عن الحقِّ؛ والناسُ أكياسٌ، لا يُقنعهم عن المدَّعي يمينٌ دون شاهدين

(١) ديوانه ٢٦٣٤/٦.

(٢) هما في بيان الجاحظ ٢٤٥/١ و٢٣٥/٢ و٢١/٤ وعبون الاخبار ٢٤/٣ ومعجم الأدباء ٢٤١/١

وسعوا بيننا بالصُّلح، يُحكمون قواعدهُ ومعاقدهُ، وعرفنا له فضل السنِّ،
 فقصدناه مُعتذرين إليه، فأومى إيماءً مهیضةً، واهتزَّ اهتزازةً مغيضةً، وأشار إشارةً
 مريضةً، بكفَّ سحبها على الهواء، ويد بسطها في الجو بسطاً؛ وعلمنا أن
 للمعمور أن يستخفَّ ويستهي، وللقامر أن يحتمل ويلين؛ فقلنا: إنَّ بعد الكدر
 صفواً، كما إنَّ عقب المطر صحواً، فهل لك في خُلُقٍ في العشرة نستأنفها، وطُرقٍ
 في الخُلطة نسلُكُها؛ فإنَّ ثمرة الخلاف ما قد بلوتها؟ فقال: ظَهَرُ الوفاق أَوْطأُ كما
 ذكرت، والجميلُ أجملُ كما علمت، وسنشارك في هذا العنان؛ وعرض علينا
 الإقامة عندهُ سحابةً ذلك اليوم، فاعتللتنا بالصَّوم، فلم يقبل العُذر، وألح؛ فقلتُ:
 أنت وذاك؛ قطعنا عندهُ، وأخذنا ديدان مرده^(١)، وخرجنا والنِّية على الجميل
 موفورةً، وتبعهُ الودُّ معمورةً، وصرنا لا نتعللُ إلا بمدحه، ولا نتنقلُ إلا بذكره، ولا
 نعتدُّ إلا بودِّه، لا بل ملأنا البلد شُكراً، والأسماع نشراً، وبتنا نحنُ من الحال في
 أعذبها شرعةً، ومن الثقة في أطيبها جرعةً، ومن الظُّنون في أفلجها قرعةً، ومن
 المودة في أعمرها بقعةً، وأوسعها رُقعةً؛ حتى طرأ علينا رسولان مُتَحَمِّلان لمقاتله،
 مُؤديان لرسالته، ذاكران بأنَّ أبا بكرٍ يقولُ: قد تواترت الأخبارُ، وتظاهرت الآثارُ
 في أنك قهرت وأني قُهرتُ، ولا شك أنَّ ذاك التَّواترُ عنك صدرت أوائلهُ، والخبرُ
 إذا تواتر به النَّقلُ، قبله العقلُ؛ ولأبدُ أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء، فنتناظر
 بمشهد الخاصة والعامة، فإنك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتي، أو تُقرَّ
 بعجزك وقُصورك عن بلوغ أُمدي ومنال يدي؛ فعجبتُ كلَّ العجب مما سمعتُ،
 وأجبتُ فقلتُ: أما قولُك: قد تواتر الخبرُ بأنك قُهرت، وأنَّ ذلك عن جهتي
 صدر، ومن لساني سُمع؛ فبالله ما أتمدحُ بقهرك، ولا أتبجحُ بقسرك؛ وإنَّ
 لنفسك عندنا لشأناً إن ظننتني أقفُ هذا الموقف، أنا إن شاء الله أبعدُ من ذلك

(١) كذا في الأصل، وفي الرسائل: دندان مزدة.

مرتقى همّة ومصعد نفس، أسألُ الله سترًا يمتدُّ، ووجهًا لا يسودُّ؛ فأما التّواترُ من الناس، والتّظاهرُ على أني قهرتُك، فلو قدرتُ على الناس لخطتُ أفواههم، ولقبضتُ شفاههم، فما الحيلة؟ وهل إلى ذلك سبيلٌ فاتوسل، أم ذريعةٌ فاتوصل؟ ثم هذا التواترُ ثمرة ذلك التناظر، مع ذلك التساير، فإن كان ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومُحتفل أولي الفضل، ولأن يترك الأمر مُختلفاً فيه خيرٌ لك من أن يتفق عليه، فإن أحببت أن تُطير هذا الواقع، وتُهيّج هذا الساكن، فرأيك مُوفقاً؛ فأما هذا الوعيدُ فقد عرضتُه على جوانحي وجوارحي كُلّها، فلم تنشدا رلاً قول القائل: [الوافر]

وعيدٌ تخدجُ الآرامُ منه وتكرهُ نَبه الغنم الذُّبابُ

فكم يتكوكبُ تلامذتُك ويتعسكرون، ويتفحشُ أصحابك ويتباجعفرون^(١)، ولستُ أراك إلا بين ميمين^(٢)، أحدهما^(٣): يروحُ إلى أنثى ويغدو إلى طفل؛ والآخر: يُجيبُ دعوة المضطر إذا دعاهُ بمسلّفات؛ فإن كان الله قد قضى أن أُقتل بأخسّ سلاح، فلا مفر من القدر المُتاح؛ رزقنا الله عقلاً به نعيشُ، ونعوذُ بالله من رأي بنا يطيشُ؛ وقُلنا من بعد: إنّ رسالتك هذه وردت مورداً لم نحتسبهُ، ووصلت موقفاً لم نرتقبهُ، فلذلك خرج الجوابُ عن البصلِ ثوماً وعن البخلِ لوماً.

فلما ورد الجوابُ عليه، وسع من الغيظ فوق ملئه، وحمل من الحقد فوق عبئه، وقال: قد بلغ السيلُ الزُّبى، وعلت الوهادُ الرُّبى في أمرك، وسترى يومك، وتعرفُ قومك.

ثم مضت على ذلك أياماً ونحن مضطرون لفاضلٍ ينشطُ لهذا الفصل، وينظرُ

(١) كذا في الأصل؛ وفي الرسائل: وَيَتَجَشَّصُ أصحابك ويتجمعون .

(٢) يقصد بالميمين: المعلم والمتسول، كما سيأتي .

(٣) هذا عجز بيتٍ لصقلاّب المعلم، وصدره: وكيف يرجي العقل والحزم عند من X .

(ثمار القلوب ١/ ٣٨٧ وفيه تخرجه) .

بيننا بالعدل؛ فاتفقت الآراء على أن يُعقد هذا المجلس في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير، واستُدعيتُ فسرحتُ الطرف من ذلك السيد في عالمٍ أفرغ في عالمٍ، ومَلِكٍ في درع مَلِكٍ، ورجُلٍ نظم إلى التنبُّل تَبْدُلًا، وإلى الترفُّع تواضُعًا، ونطق فودَّت الأعضاء لو أنها أسمع مُصغِيَّةً، واستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسنة ناطقة؛ فقلتُ: الحمد لله الذي عقد هذا المجلس في دار من يُفرِّق، بين من يُحقُّ وبين من يُزَرِّق، وكُنْتُ أول من حضر وانتظر ملياً حُضور من ينظر وقُدم من يناظر؛ وطلع الإمام أبو الطيب، وأخذ من المجلس موضعه؛ والإمام بنفسه أمة، ووحدته عالم؛ ثم حضر السيد أبو الحسين أدام الله عزه، وهو ابنُ الرسالة والإمامة، وعامرُ أرض الوحي، والمحتبي بفناء النبوة، والضاربُ في الأدب بعرقه، وفي النطق بحذقه، وفي الإنصاف بحُسن خُلُقهِ؛ فجشمتُ إلى المجلس قدم سبقه، وجعل يضربُ عن هذا الفاضل بسيفين، لأمرٍ كان قد مَوَّه عليه، وحديثٍ كان شُبّه لديه؛ وفطنتُ لذلك، فقلتُ: أيُّها السيد، أنا [إذا] سار غيري في التشيع برجلين، طرتُ بجناحين، وإذا متَّ سواي في مُوالاة أهل البيت بلمحةٍ دالة، توسلتُ بغُرةٍ لاثحة، فإن كُنْتُ أُبلغتُ غير الواجب، فلا يحملنك على ترك الواجب؛ ثم إن لي في آل الرسول ﷺ قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت في البلاد ولم تسربزاد، وطارت في الآفاق ولم تطر على ساق؛ ولكني لا أتسوقُ بها لديكم، ولا أتنفقُ بها عليكم، وللآخرة قُلَّتْها لا للحاضرة، وللدين أدخرتُها لا للدنيا، وللمعاد نظمْتُها لا للمعاش؛ فقال: أنشدني منها؛ فقلتُ^(١): [مجزوء الكامل]

يَا لِمَ ضَرَبَ الزُّمَـا	نُ عَلَى مُعْرَسِهَا خِيَامَـة
لِلَّهِ دُرُّكَ مِنْ خُـمَزَا	مِى رَوْضَةِ عَادَتِ ثَغَامِـه

(١) القصيدة في ديوانه ١٣٠-١٣١ ورسائله ٥٨-٦١.

لرزية قامت بها
 لمضرج بدم النبـ
 متقسم بطبي السـ
 منع الورود ومـ
 نصب ابن هند رأسـ
 ومقبل كان النبي
 قرع ابن هند بالقضيـ
 وشدا بنغمته عليـ
 والدين أبلغ سـ
 يا ويح من ولي الكتـ
 ليضرسن يد الندـ
 وليدركن على الغـ
 وحمي أباح بنو أمـ
 حتى اشتفوا من يوم بد
 لعنوا أمير المؤمنين
 لم لم تخيري يا سـ
 لم لم تزولي يا جـ
 يا لعنة صارت عليـ
 إن الإمامة لم تـ
 من سبط هند وابـ
 يا عين جودي للبقـ
 جودي بمذخور الدـ

للدين أشراف القيـ
 وة ضارب بيد الإـ
 ف مجرع منها حمـ^(١)
 منه على طرف الثـ
 فوق الوري نصب العـ
 ي بلثمه يشفي غـ
 ب عذابه فرط استـ
 ه وصب بالفضلات جـ
 والعدل ذو خال وشـ
 ب قفاه والدنيا أـ
 مة حيث لا تغني الندـ
 مة سوء عاقبة الغـ
 ية عن طوائفهم حـ
 ر واستبدوا بالزعـ
 ن بمثل إعلان الإـ
 ء ولم تصبي يا غـ
 ل ولم تشولي يا نـ
 أعناقهم طوق الحـ
 للثيم مات تحت العـ
 دون البتول ولا كـ
 ع فدرعي بدم رغـ
 ع وأرسلني بدداً نظـ

(١) في الأصل : X .. مجرع...

جُودِيْ لِشَهِدِ كَرِبَلَا ءَ فَوْفَرِيْ مَنِّيْ ذِمَامَه
جودِيْ يَمَكُونُ الْجُمَا نِ أَجْدُ بِمَا جَادَ ابْنُ مَامَه

فلما أنشدتُ ما أنشدتُ، وسردتُ ما سردتُ، وكشفتُ له الحال فيما اعتقدتُ، انحلت تلك العقدة، وصار سلماً، يوسعنا حلماً.

وحضر بعد ذلك الشيخُ أبو عُمر البسطاميّ، وناهيك من حاكمٍ يفصلُ، وناظرٍ يعدلُ، يسمع فيفهمُ، ويقولُ فيعلمُ. ثم حضر بعد ذلك القاضي أبو نصر، والأدبُ أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدلُ شيمته من شيمه، والصدقُ مقتضى هممه.

وحضر بعده الشيخُ أبو سعيدٍ محمد بن أرمك أيدُهُ الله، وهو الرجلُ الذي تحميه لألاؤه أو لودعيتُهُ، من أن يُدالَ بمن؟ أو ممن الرجلُ؟؛ وهو الفاضلُ الذي يحطُبُ في حبل الكتابة ما شاء، ويركُضُ في حلبة العلم ما أراد.

وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب، وله في الأدب عينُهُ وفرارُهُ، وفي العلم شعلته وناره.

وحضر بعده الفقيهُ أبو الهيثم، ورائدُ الفضلِ يقدمُهُ، وقائدُ العقلِ يخدمُهُ. وحضر بعده الشيخُ أبو نصر بن المرزبان، والفضلُ منه بدأ وإليه يعودُ.

وحضر بعده [أصحابُ] الشيخ أبي الطَّيِّبِ رحمه الله؛ وما منهم إلا أغرٌ نجيبٌ.

وحضر بعدهم أصحابُ الشيخ الفاضل أبي الحسن الماسرجسيّ؛ وكلُّ [إذا] عدُّ الرِّجالِ مُقدِّمٌ. وحضر بعدهم أصحابُ أبي عُمر البسطاميّ؛ وهُم في الفضلِ كأسنان المشطِ، ومنه بأعلى مناط العقْدِ.

وحضر بعدهم الشيخُ أبو سعدٍ الهمذانيّ، وله في الفضلِ قدْحُه المُعلّى، وفي الأدب حظُّه الأعلى.

وحضر بعد الجماعة أصحابُ الأسبلة [المُرسَلَةِ]، والأسوكة المُرسلة، رجالٌ

يلعن بعضهم بعضاً، فصاروا إلى قلب المجلس وصدره، حتى ردّ كيدهم في نحرهم، وأقيموا بالنعال إلى صف النعال؛ فقلت لمن حضر: من هؤلاء؟ فقالوا: أصحاب الخوارزمي.

فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر، وانتظر أبو بكرٍ فتأخّر، اقترحوا عليّ قوافٍ أثبتوها، واقترحات كانوا بيتوها^(١): [الهجج]

فما ظنك بالحلّفا ءأدنيت لهما النارا

من لفظٍ إلى المعنى نسقته، وبيتٍ إلى القافية سقته، على ريقٍ لم أبلعه، ونفسٍ لم أقطعه؛ وصار الحاضرون بين إعجابٍ بما أوردت، وتعجبٍ بما أنشدت، وقال أحدهم، بل واحدٌ هم، وهو الإمام أبو الطيب: لن نؤمن لك حتى نقترح القوافي، ونعين المعاني، وننصّ على بحرٍ؛ فإن قلت حينئذٍ على الروي الذي أسومه، وذكرت المعنى الذي أرومه، وأنت حيّ القلب كما عهدناك، مُنشرح الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك؛ شهدنا أنك قد أحسنت، وأن لا فتى إلا أنت.

فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى ارتفعت الأصوات بالهيللة من جانب، والحوالة من آخر، وتعجبوا إذ أرثهم الأيام ما لم تُرهم الأحلام، وجاد لهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم ما أخلفهم الوهم؛ ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت، وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته، وهب بجملته، بأوداج ما يسعها الزرّان، وعينين في رأسه زرّان، ومشى إلى فوق رقاب الناس، وجعل يدس نفسه بين الصدور يُريد الصدر، وقد أخذ المجلس أهله؛ فقلت: يا أبا بكرٍ، ترحّج عن الصدر قليلاً إلى مُقابلة أخيك؛ فقال: لست بربّ الدار، فتأمّر على الزوار؛ فقلت: يا عافاك الله، حضرت لتناظرني، والمناظرة

(١) البيت بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة ٢٦٥ وثمار القلوب ٢/ ٨٣١.

اشْتُقَّتْ إما من النظر، وإما من النظر؛ فإن كان اشتقاقها من النظر، فمن حُسْنِ النظر أن يكون مقعدنا واحداً، حتى يتبين الفاضلُ من المفضول، ثم يتناولُ السابقُ ويتقاصرُ المسبوقُ؛ وإن كان من النظر، فأنا نظيرُك وأنت نظيري، فلم تتصدرُ أنت وأنا أجلسُ بين يديك؟ فقضت الجماعةُ بما قضيتُ، وعضُّ هذا الفاضلُ من تلك الحكمة، وانحطُّ عن تلك العظمة، وقابلني بوجهه؛ فقلتُ: أراك -أيها الفاضلُ- حريصاً على اللقاء، سريعاً إلى الهيجاء، ولوزبنتك الحربُ لم ترمزم؛ ففي أيِّ علمٍ تُريدُ أن تُناظر؟ فأومأ إلى النحو، فقلتُ: يا هذا، إنَّ النهارَ قد متع والوقتُ، قد ارتفع، والظُّهرُ قد أزف؛ وإن قرعنا باب النحو، أضعنا اليوم فيه، فإذا خرج القومُ، وعلا هُتافُ الناس: أيهما ردَّ الجواب؟ هناك ما يدري الجيبُ، فإن شئت أن أناظرك في النحو، فسَلِّم الآن لي ما كُنت تدعيه من سرعةٍ في البديهة، وجودةٍ في الروية، وقدرةٍ على الحفظ، ونفاذٍ في الترسل، ثم أنا أجاريك في هذا؛ فقال: لا أَسَلِّمُ ذلك، ولا أناظرُ في غير هذا.

وارتفعت المضاجَّةُ، واستمرت الملاجَّةُ، حتى أتلع الأستاذُ الفاضلُ أبو عمرٍ إليه، وقال: أيُّها الأستاذُ، أنت أديبُ خُراسان، وشيخُ هذه الديار، وبهذه الأبواب التي قد عدَّها هذا الشابُّ كُنَّا نعتقدُ لك سبقَ والحذقَ؛ وتثاقُّك عن مُجاراته فيها مما يَتَّهمُ ويُوهمُ؛ واضطرَّه إلى مُنازلةٍ فيها أو نزولٍ عنها، ومُقاراةٍ فيها أو فرارٍ بها؛ فقال: قد سلَّمْتُ الحفظَ؛ فأنشدتُ قولَ القائل (١): [الطويل]

مُسْتَلِئِمٍ كَشَفْتُ بِالرُّمَحِ ذَيْلَهُ	أَقَمْتُ بَعْضُ بِيْ ذِي سَفَاسِقٍ مَيْلَهُ
فَجَعَلْتُ بِهِ فِي مُلْتَقَى الْحَيِّ خَيْلَهُ	تَرَكْتُ عِتَاقَ الطَّيْرِ تَحْجُلُ حَوْلَهُ

(١) نُسب الشعر في اللسان ٢٠٢٧/٣ «سفسق» إلى امرئ القيس، وفي القاموس المحيط ٣٨٠/٢

«سمط» إلى امرئ القيس أو غيره. وجزم الزبيدي في التاج ٤٥١/٢٥ بقوله: وليس لامرئ

القيس؛ وانظر ملحق ديوانه ٤٧٤. وهذا النوع من الشعر يُعرف بالمسقط، وللأشطار خامسٌ وهو:

كان على أثوابه نضحُ جريال.

وقلت: يا أبا بكر خفف الله عنك، كما خففت عنا في الحفظ؛ فقد كفيتمنا مؤونة الامتحان، ولم تُضغ وقتنا من الزمان، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذي أنت فيه أكبر، واللغة التي أنت بها أعرف، والعروض الذي أنت عليه أجرب، والأمثال التي لك فيها السبق والقدم، والأشعار التي أنت فيها مُقدم؛ فقال: ما كنت لأسلم الترسل، ولا سلمت الحفظ؛ فقلت: الراجع في شيعه، كالراجع في قيعه؛ لكننا نُقيلك عن ذلك سماحاً؛ فهات أنشدنا خمسين بيتاً من قبلك مرتين، حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلي خمسين مرة؛ فعلم أن دون ذلك خطر القتاد، تهاب شوكته اليد؛ فسلمه ثانياً كما سلمه بادياً، وصرنا إلى البديهة، فقال أحد الحاضرين: هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله^(١): [الكامل]

أبقى الزمانُ به ندوب عضاض ورمى سواد قُرونه ببياض
فأخذ أبو بكرٍ يخضدُ ويحصدُ، مُقدراً أنا نغفلُ عن أنفاسه، أو نُولى جانب
وسواسه؛ ولم يعلم أنا نحفظُ عليه الكلم، ثم نواقفه عليها؛ فقال^(٢): [الكامل]

يا قاضياً ما مثله من قاض	أنا بالذي تقضي علينا راض
فلقد لبستُ ضفيةً ملمومةً	من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضين إذا نظمتُ تنفُساً	إن الغضى في مثل ذاك تغاض
فلقد بُليتُ بشاعرٍ مُتقادرٍ	لا بل بُليتُ بنابٍ ذيبٍ غاض
ولقد قرضتُ الشعر فاسمع واستمع	لنشيد شعري طائعا وقراض
فلاغلبن بديهةً ببديهتي	ولأرمين سواده ببياضي

فقلتُ: يا أبا بكر ما معنى «ضفيةً ملمومةً» وما الذي أردت بالبارق الفضفاض؟ فأنكر أن يكون قاله قافية؛ فواقفه على ذلك أهل المجلس، فقالوا: قد

(١) ديوان أبي الشيص ٧٥.

(٢) ديوان أبي بكر الخوارزمي ٣٦٠ ورسائل البديع ٦٨ والصبح المنى ٤٦-٤٧.

قُلْتُ؛ ثم قلتُ: ما معنى قولك: «ذيبٍ غاضٍ؟» فقال: هو الذي يأكلُ الغضا؛ فقلتُ: استنوقَ الجمل^(١)، يا أبا بكرٍ، فانقلبتِ القوسُ ركوةً، وصار الذئبُ جملًا يأكلُ الغضا؟ فما معنى قولك: «إنَّ الغضى في مثل ذاك تغاضٍ» فإنَّ الغضى لا أعرفه بمعنى الإغضاء؟ فقال: لم أقل الغضى فقلتُ: فما قلت؟ فأنكر البيت جُملةً؛ فقلتُ: يا ويحك، ما أغناك عن بيتٍ تهربُ منه وهو يتبعُك، وتبرأ منه وهو يلحقُ بك؛ فقل لي: ما معنى «قراضٍ» فلم أسمعهُ مصدراً من قرضتُ الشعر، ولكن هلاً قلتُ كما قُلْتُ، وسُقت الحشو إلى القافية كما سُقته؟ فقال: هذه طريقةٌ لم يسلكها العربُ، فلا أسلكها.

ثم دخل الرئيس أبو جعفر، والقاضي أبو بكر الحربي، والشيخ أبو زكريا الحيري، وطبقة من الأفاضل، مع عدةٍ من الأزدال، منهم أبو رشيد؛ فقلتُ: ما أخرج هذه الجماعة إلى واحدٍ يصرفُ عنهم عين الكمال.

وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست، وله في الفضل قَدَمٌ وقَدَمٌ، وفي الأدب همٌّ وهمٌّ، وفي العلم قديمٌ وحديثٌ؛ فتمَّ المجلسُ، وظهر الحقُّ بنظره، وقال: قد ادَّعيت عليه أبياتٌ أنكرها، فدعوني من البديهة على النفس، واكتبوا ما يقولون، وقولوا على هذا الرُّوي: [الكامل]

برز الربيعُ [لنا] برونق مائه فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالتربُّ بين ممسكٍ ومعنبرٍ من نورهِ بل مائه وروائه

فقلت^(٢): [الكامل]

والماء بين مصندلٍ ومكفرٍ في حُسْن كُدرته ولون صفائه

(١) هذه قولة طرفة بن العبد، وانظر مجمع الأمثال ٩٣/٢ وفصل المقال ١٩٠ والمستقصى ٥٨/١.

(٢) القصيدة مع البيتين السابقين في ديوان البديع ٣٠ والرسائل ٧٠-٧٢ والصحيح المنبئ ٤٧-٤٨. والصواب الفصل بين البيتين والقصيدة كما في أصلنا ومعجم الأدباء ٢٤٣/١.

والطيرُ مثلُ المحصناتِ صواح	مثلُ المغني شادياً بغنائهِ
والوردُ ليسُ بممسكٍ رياهُ بل	يهدي لنا نفحاته من مائه
زمنَ الربيعِ جلبتُ أزكى متجرٍ	وجلوت للرائين خير جلائهِ
فكأنهُ هذا الرئيسُ إذا بدأ	في خلقهِ وصفائهِ وعطائهِ
بحمى أغرَّ مُحجبٍ، وندى أغر	رُمحُجِّلٍ، في خُلقهِ ووفائهِ
يعشوا إليه المُجتلي والمُجتدي	والمُجتري هو هاربُ بزمائهِ
ما البحرُ في ترزّارهِ، والغيثُ في	أمطارهِ، والجوُّ في أنوائهِ
بأجل منه مواهباً ورغائباً	لازال هذا المجدُّ خلف فنائهِ
والسّادةُ الباكون سادةُ عصرهم	مُتمدّحون بمدحهِ وثنائهِ

فقال أبو بكرٍ تسعة أبياتٍ، قد غابت عن حفظنا، لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء وأخطاءٍ وإيطاءٍ؛ ورددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً، ونقدنا عليه فيها كذا نقداً؛ ثم قلتُ لمن حضر من وزيرٍ ورئيسٍ وفقيهٍ وأديبٍ: أرايتم لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قطُّ، ثم أنشد هذه الأبيات فقط، هل كنتم تطلقون امرأته عليه؟ فقالت الجماعة: لا يقع بهذا طلاق؛ ثم قلتُ: انقذ عليّ فيما نظمتُ، واحكم عليه كما حكمتُ؛ فأخذ الأبيات وقال: لا يُقال: نظرتُ لكذا، وإنما يقال: نظرتُ إليه؛ فكفتني الجماعة إجابته؛ ثم قال: لم شبّهت الطير بالمحصنات؟ وأيُّ شبه بينهما؟ فقلتُ: يا رقيعُ، إذا جاء الربيع كانت شوادي الأطيّار تحت ورق الأشجار، فيكن كالمخدرات تحت الأستار؛ ثم قال: لم قلت: مثل المحصنات، مثل المغني؟ فقلتُ: هُنَّ في الخدر كالمحصنات، وكالمغني في ترجيع الأصوات؛ ثم قال: لم قلت: زمن الربيع جلبت أزكى متجر؟ وهلا قلت: أربح متجر؟ فقلتُ: ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة؛ ثم قال: ما معنى قولك: الغيثُ في أمطارهِ؟ والغيثُ هو المطرُ نفسه، فكيف يكون له مطر؟

فقلتُ: لاسقَى الغيثُ اللهَ أديباً لا يعرفُ الغيثُ؛ وقلتُ له: إِنَّ الغيثَ هو المطرُ، وهو السحابُ، كما أَنَّ السماءَ هو المطرُ وهو السحابُ؛ وقالت الجماعةُ: قد علمنا أيُّ الرجلينِ أشعرُ، وأيُّ الخصمينِ أقدرُ، وأيُّ البديهتينِ أسرعُ، وأيُّ الروبَّتينِ أصنعُ؛ فقال أبو بكرٍ: فاسقوني على الظُّفرِ؛ فقالوا: كفَّاك ما سقاك.

ثم ملنا إلى الترسلِ، وقلتُ: اقترح عليَّ غايةً ما في طوقك، ونهايةً ما في وسعك، وآخر ما تبلغُهُ بذرعك، حتَّى أقترح عليك أربعمئةَ صنفٍ من الترسلِ؛ فإن سرت فيها برجلين، ولم أطر بجناحين، بل إن أحسنت القيام بواحدٍ من هذه الأصناف، ولم تُخلف كل الإخلاف، فلك يدُ السبق وقصبتُهُ؛ ومثالُ ذلك أن أقول لك: اكتب كتاباً نقرأ منه جوابه، هل يُمكنك أن تكتب؟

أو أقول لك: اكتب كتاباً على المعنى الذي أقترحُ لك، وانظم شعراً في المعنى الذي أفتريه، وافرج منهما فراغاً واحداً؛ هل كنت تُمدُّ لهذا ساعداً؟

أو أقول لك: اكتب كتاباً في المعنى الذي أقوله وأنصُ عليه، وأنشد من القصائد ما أريدُهُ من غير تثاقل ولا تغافلٍ، حتَّى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره إلى أوله، وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله، هل كنت تُفوقُ لهذا الغرض سهماً، أو تُجبلُ قدحاً، أو تُصيبُ نُجحاً؟

أو قلتُ لك: اكتب كتاباً في المعنى الذي أقترحُ، لا يوجد فيه حرفٌ مُنفصلٌ من واوٍ تتقدَّم الكلمة، أو دالٌّ تنفصلُ عن الكلمة، بديهةً ولا تُجمُّ فيه قلمك، هل كنت تفعل؟ أو قلتُ لك:

اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام، لا تصبُّ معانيه على قالب ألفاظه، ولا تُخرجهُ عن جهة أغراضه، هل كنت تقفُ من ذلك موقفاً ممدوحاً، أو يبعثك ربُّك مقاماً محموداً؟

أو قلتُ لك : اكتبُ كتاباً يخلو من الحروف العواطل، هل كنتُ تحظى منه بطائل؟ أو كنت تبُلُّ لهاتك بناطل؟

أو قلتُ لك : اكتبُ كتاباً أوائلُ صدوره كُلُّها ميمٌ، وآخره جيمٌ، على المعنى الذي يُقترحُ، هل كنتُ تغلو في قوسه غلوةً، أو تخطو في أرضه خطوةً؟
أو قلتُ لك : اكتبُ كتاباً إذا قرئ مُعرجاً، وسُرد مُعوجاً، كان شعراً، هل كنت تقطعُ في ذلك شعراً؟

بلى والله، تُصيبُ، ولكن من بدنك، وتقطعُ ولكن من ذقنك . وأقولُ لك : اكتبُ كتاباً إذا فُسِّرَ على وجهٍ كان مدحاً، وإذا فُسِّرَ على وجهٍ آخر كان قدحاً، هل كنتُ تخرُجُ من هذه العُهدة؟

أو قلتُ لك : اكتبُ كتاباً إذا كتبتُه تكونُ قد حفظتُه من دون أن لحظتُه، هل كنتُ تثقُ من نفسك به إلى مالا أطاولُك بعده؟ بل استُ البائن أعلمُ.

فقال أبو بكرٍ: هذه الأبوابُ شعبةٌ. فقلتُ: وهذا القولُ طرمذة؛ فما الذي تُحسنُ أنت من الكتابةِ وفنونها، حتّى أباحثك على مكنونها، وأكاثرك بمخزونها، وأشبرَ فيها قلمك، وأسبرَ فيها لسانك وفمك؟ فقال: الكتابةُ التي يتعاطاها أهلُ زماننا هذا المتعارفةُ بين الناس؛ فقلتُ: أليس لا تُحسنُ من الكتابةِ إلا هذه الطريقةُ الساذجةُ، وهذا النوعُ الواحدُ المتداولُ بكلِّ قلمٍ، والمتناولُ بكلِّ يدٍ وفمٍ، ولا تُحسنُ هذه الشَّعبةُ؟ فقال: نعم، فقلتُ: هات الآن حتّى أطاولك بهذا الحبل، وأناضلك بهذا النبل، ثم تُقاسُ ألفاظي بألفاظك، ويُعارضُ إنشائي بإنشائك.

واقترحُ كتابٌ يكتبُ في النقودِ وفسادها، والتجاراتِ ووقوفها، والبضاعاتِ وانقطاعِها، والأسعارِ وغلائها؛ فكتب أبو بكر: الدرهمُ والدينارُ ثمنُ الدنيا

والآخرة، بهما يُتوصَّلُ إلى جنّات النعيم، ويُخلدُ في نار الجحيم؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (١) الآية، وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشدَّ الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصّلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاّد، وتعرّفنا في ذلك بما يربحُ الناسُ في الزرع والضَّرْع، يُقدِّم من إليه (٢) أمرُ النفع والضَّرْ؛ إلى كلماتٍ لم تعلق بحفظنا؛ فقلتُ: إنّ الإكبار والإنكار، والعباد والبلاّد، وجنّات النعيم ونار الجحيم، والزرع والضَّرْع، أسجاعٌ قد نبتت في المعد، ولم تزل في اليد، وقد كتبت وكتبت، ولا أطلبك بما أنشأت، فاقراً ولك اليد؛ وناولته الرُّقعة فبقي وبقيت الجماعة، وبُهِت وبُهِت الكافّة، وقالوا لي: اقرأ؛ فجعلتُ أقرؤه منكوساً، وأسرده معكوساً، والعيونُ تبرقُّ وتحارُّ؛ وكان نُسخة ما أنشأناه:

اللهُ شاء إن، المحاضر صُدورُ بها وتُملاً المنايرُ ظُهورُ لها وتُفرع، الدفاتر وجوهُ بها وتُمشق، الحابرُ بطونُ لها تُرشق، آثاراً كانت، فيه آمالنا مُقتضى على، أياديهِ في تأييدهُ الله أدام، الأمير جرى وإذا، المسلمين ظُهور عن الثقل هذا ويرفع، الدين أهل عن الكلّ هذا يُحط أن فيه إليه نتضرع ونحن، واقفةً والتجارات، زائفةً والنقود، صيارفةً أجمع الناسُ صار فقد، كريماً نظراً لينظر، شيمه مصابٌ فانتجعنا، كرمه بارقة وشمنا، هممه على آمالنا أرقاب وعلّقنا، أحوالنا وجوه له وكشفنا، آمالنا وفود إليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن، نُعماه تأييدهُ وأدام، بقاءه الله أطل، الجليلُ الأميرُ رأى إن، وصلى الله على محمد وآله الأخيار.

فلما فرغتُ من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين، وقال الناسُ: قد فرغنا التّرسلُ أيضاً، فملنا إلى اللغة، فقلتُ: يا أبا بكر، هذه اللُّغة التي هددتنا بها،

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل: ويعود إليه أمر....

وحدّثنا عنها، وهذي كُتُبُها، وتلك مؤلفاتها، وهي مؤلّفة فخذ « غريب المصنف » إن شئت، و« إصلاح المنطق » إن أردت، و« ألفاظ ابن السكيت » إن نشطت، و« مجمل اللغة » إن اشتهيت وهو ألف ورقة، و« أدب الكتاب » إن اخترت، واقترح عليّ أيّ بابٍ شئت من هذه الكتب حتّى أجمعه لك نقداً، وأسرده عليك سرداً؛ فقال: اقرأ من « غريب المصنف »: رجلٌ ماسٍ خفيفٌ، على مثال مالٍ، وما أمساه. فدفعْتُ في الباب حتّى قرأته، فلم أتردد فيه، وأتيتُ على الباب الذي يليه، ثم قُلْتُ: اقترح غيره؛ فقال: كفى ذلك؛ فقلتُ له: اقرأ الآن باب المصادر من « اختيار فصيح الكلام » لا أطالبك بسواه، وأسألك عمّا عداه؛ فوقف حماره، وخمدت ناره؛ وقال الناس: اللغة مُسلّمةٌ إليك أيضاً، فهاتوا غيره. فقلتُ: يا أبا بكر، هات العروض، فهو أحد أبواب الأدب، وسردت منه خمسة أبحر بالقابها وأبياتها وعللها وزحافها، فقلت: هات الآن فاسرده كما سردته.

فلما برد، ضجر الناس، وقاموا عن المجلس يُفدّونني بالآباء والأمهات^(١) ويُشيّعونه باللعن والسبِّ، وقام أبو بكرٍ فغشي عليه، وقُمتُ إليه، فقلتُ^(٢): [الوافر]

يعزُّ عليّ بالناس أني قتلتُ مُناسبي جلدأ وقهرا
ولكن رُمت شيئا لم يرمه سواك فلم أطق باليث صبرا
وقبلتُ عينه، ومسحتُ وجهه، وقُلْتُ: اشهدوا أنّ الغلبة له، فهلاّ — يا أبا بكر — جئتنا من^(٣) باب الخلطة، وفي باب العشرة ١٩

وتفرق الناس، وحُبسنا للطعام مع أفاضل ذلك المقام؛ فلما عكفنا على

(١) في الرسائل: يفدّونني بالامهات والاب. وهذا اصح للسجع.

(٢) من قصيدة بشر بن عوانة، وقد مضى تخريجها.

(٣) في الاصل: عن باب.

الخوان، كَرَعْتُ فِي الْجِفَانِ، وَأَسْرَعْتُ إِلَى الرُّغْفَانِ، وَأَمَعَنْتُ فِي الْأَلْوَانِ؛ وَجَعَلَ هَذَا الْفَاضِلُ يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ بِأَطْرَافِ الْأَظْفَارِ، فَلَا يَأْكُلُ إِلَّا قَضْمًا، وَلَا يَنَالُ إِلَّا شِمًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَنْطِقُ عَنْ كَبِدِ حَرَّى، وَيَغِيضُ عَنْ نَفْسِ مَلَأَى؛ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، بَقِيَتْ لَكَ مُنَّةٌ وَفِيكَ مُسْكَةٌ: [البسيط]

يَا قَوْمِ إِنِّي أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا وَالْأَرْضُ تَلْفِظُ مَوْتَاكُمْ إِذَا قُبِرُوا
فَأَخْبِرْنِي يَا أَبَا بَكْرٍ: لِمَ غُشِيَ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: لِحُمَّى الطَّبْعِ وَحُمَّى الْفَرَوِ؛
فَقُلْتُ: أَيْنَ أَنْتَ عَنِ السَّجْعِ؟ هَلَا قُلْتَ: حُمَّى الطَّبْعِ، وَحُمَّى الصَّفْعِ.

وَقَالَ السَّيِّدُ أَبُو الْقَاسِمِ: أَيُّهَا الْأَسْتَاذُ، مَعَ الْحَدِيثِ فَاعْزِلْ، يَعْنِيهِ (١)، فَقُلْتُ:
لَا تَظْلَمُوهُ، وَلَا تُطْعِمُوهُ طَعَامًا يَصِيرُ فِي بَطْنِهِ مَغْصًا، وَفِي عَيْنِهِ رَمَصًا، وَفِي
جِلْدِهِ بَرَصًا، وَفِي حَلْقِهِ غُصَصًا؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ أَسْجَاعٌ كُنْتُ حَفَظْتُهَا، فَقُلْ
كَمَا أَقُولُهُ: يَصِيرُ فِي عَيْنِكَ قَذَى، وَفِي حَلْقِكَ أَذَى، وَفِي صَدْرِكَ شَجَى؛
فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، عَلَى الْآلِفِ تُرِيدُ؟ خُذِ الْآنَ؛ بِفِيكَ الْبَرَى، وَعَلَى هَامَتِكَ
الثَّرَى، وَلَا أُطْعِمُكَ الْخَرَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ، كَمَا تَرَى؛ فَقَالُوا: أَيُّهَا الْأَسْتَاذُ، السُّكُوتُ
أَوْلَى؛ وَمَالُوا إِلَيَّ وَقَالُوا: مَلَكْتَ فَأَسْجَحْ؛ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يُبْقِيَ لِنَفْسِهِ حُمَةً لَمْ
يُفْضِهَا، أَوْ يَدْخِرَ عَنَّا كَلِمَةً لَمْ يَعْرِضْهَا؛ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَرَكْتُكَ مِنَ الْمِيَمَاتِ،
فَقُلْتُ: مَا مَعْنَى الْمِيَمَاتِ؟ فَقَالَ: مَا بَيْنَ مَهْزُومٍ وَمَهْذُومٍ وَمَهْشُومٍ وَمَغْمُومٍ وَمَحْمُومٍ
وَمَرْجُومٍ؛ فَقُلْتُ: وَأَتْرَكُكَ بَيْنَ الْمِيَمَاتِ أَيْضًا؛ بَيْنَ الْهَيَامِ وَالصَّدَامِ وَالْجُدَامِ وَالْحَمَامِ
وَالزُّكَامِ وَالسَّامِ وَالْبِرْسَامِ وَالْهَامِ وَالسَّقَامِ، وَبَيْنَ السَّيِّنَاتِ فَقَدْ عَلَّمْتَنَا طَرِيقَةً؛ بَيْنَ
مَنْحُوسٍ وَمَنْخُوسٍ مَنَكُوسٍ مَعَكُوسٍ مَتَعُوسٍ مَحْسُوسٍ مَغْرُوسٍ؛ وَبَيْنَ الْخَاءَاتِ،
فَقَدْ فَتَحْتَ عَلَيْنَا بَابًا؛ بَيْنَ مَطْبُوخٍ مَشْدُوخٍ مَنَسُوخٍ مَسُوخٍ مَفْسُوخٍ؛ وَبَيْنَ

(١) فِي الرِّسَالَةِ: مَعَ الْجَدِّ وَالْهَزْلِ تَغْلِبُهُ؟

الباءات، فقد علمتني الطعن وكنت ناسياً؛ بين مغلوبٍ مسلوبٍ مرعوبٍ
مصلوبٍ مكروبٍ منكوبٍ منهوبٍ مغصوبٍ؛ وإن شئنا كلناك بهذا الصاع،
وطاولناك بهذا الذراع.

ثم خرجت واحتجرت، وقد كان اجتمع الناس، وغلت الكروش^(١)؛ فلما
خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه تقبيلاً، وبالأفواه تبجيلاً؛ وانتظروا خروجه إلى أن
غابت الشمس، ولم يخرج أبوبكر حتى خفره الليل بجنوده، وخلع الظلام عليه
فروته فهذا ما علّقناه عن المجلس وأديناه؛ والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن
شاء الله، وله المنّة.

* وكتب إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفراييني: (٢)

ما أظنّ -أطال الله بقاء الشيخ السيد- آل سامان إلا مُدّعين على الله
مقاطعة، أرضه، ومُساقاة ثمارها؛ يا هؤلاء، لا تكابروا الله في بلاده، ولا تُرادوا
الله عن مُرادِهِ؛ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٣) وما أرى آل
سيمجور إلا مُعتقدين أنّهم يأخذون خراسان قهراً، لأنها كانت لأهمهم مهراً؛
فلهم من حولها نحيط^(٤)، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾^(٥)، وبلغني أنّ
صاحبهم أَسْر، فإن كان ما بلغني صحيحاً، فمرحباً بالأسر، ولا لعاً للعائر؛ حتّام
كُفر الكافر، وغدر الغادر؛ وأبو الحسين بن كثير خذله الله، لا يكادُ يرى الخير من
ابن واحد، أفرجوه من ابن كثير؟ وهو الترياق المُجرب، لو شمه الملك المُقرب،

(١) أي : إخلاط الناس.

(٢) رسائل البديع ١٦-١٩.

(٣) سورة الأعراف : ١٢٨.

(٤) النحيط : الزفير . (القاموس).

(٥) سورة البروج : ٢٠.

لقدفَ من كُلِّ جانبٍ دُحوراً؛ هذا المؤيِّدُ من السماءِ بيَّمن تدبيره، نُكسَ في بيره؛ وهذا سنانُ الدولة ببركةِ ضميره، وقع في تخسيره، ولا يزالُ هذا البائسُ حتى يسألُ الله العافية في بدنه . وحديثٌ ما حديثُ هذا الحمال، كان إبليسُ يقسُمُ كلَّ صبيحةٍ اللَّحى ألفاً، فصار يقسُمُ أُلوفاً؛ سُلطاناً أتاهُ اللهُ واسطةَ البرِّ، وحاشيةَ البحر، وأمكنهُ من طاغيةِ الهند، وسخر له ملوكُ الأرض يُريدُ حمالٌ مراغمتهُ يا للرجال لنازل الحدَّان؛ إنِّي لأعجبُ من رأسٍ يودُعُ تلكَ الفضول فلا ينشقُّ، ومن عُنقٍ يحملُ ذلكَ الرأسَ فلا يندقُّ، وما أجدُ لابنَ محمودٍ مثلاً إلاَّ ابنَ الريوندي^(١)، إذ ذهب إلى ابنِ الأعرابي^(٢) يسألهُ عن قولِ الله تعالى: ﴿فَأَذْهَبَ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^(٣) أَتَقولُ العربُ: ذُقْتُ اللَّباسَ؟ فقال: لا بأسَ ولا بأسَ؛ وإذا حيَّا اللهُ النَّاسَ فلا حيًّا ذلكَ الرأسُ؛ هبكَ تتَّهَمُ مُحمداً بأن لم يكن نبياً، أنتَهمه بأن لم يكن فصيحاً عربياً، وجئتَ تسألُ ابنَ الأعرابي؟ أليس الأعرابيُّ نفسه جاء بهذا الكلام؟ كذلك ابنُ محمودٍ ينفُضُ استه، ويضربُ مِذْرَوِيه، لينال المُلْك، لا لوافر عُدَّةٍ، ولا لكثرةِ عِدَّةٍ؛ إنما يطمع في المُلْك لأنه ابنُ محمود؛ أفليس محمودٌ نفسه بالمُلْك أحقُّ؟ فالحمدُ لله الذي نصرَكُم وأخزاهُم، وثبتَكُم ونفاهُم، وأركبَ آخرَهُم أولاهُم^(٤)، ولا رحم الله قتلَهُم، ولا جبر جرحَهُم، ولا فكَّ أسرارَهُم، ولا أراكُم إلا قفاهُم، وإن أقبلوا ففضَّ الله فاهُم:

(١) ابن الريوندي: أبو الحسن، أحمد بن يحيى بن إسحاق، الملقب، من أهل مرو الروذ، سكن بغداد، وكان معتزلياً، ثم ترندق، مات سنة ٢٩٨هـ. (سير أعلام النبلاء ١٤/٦١).

(٢) ابن الأعرابي: أحمد بن محمد بن زياد، الإمام المحدث القدوة، البصري، نزيل مكة وشيخ الحرم؛ توفي سنة ٣٤٠هـ. (سير أعلام النبلاء ١٥/٤٠٧).

(٣) سورة النحل: ١١٢.

(٤) في الأصل: وأولاهم.

ويرحمُ الله عبداً قال آمينا^(١).

*وله إليه أيضاً في هزيمة السَّامانية بباب مرو^(٢):

وردت رُقعةُ الشيخ الجليل، أدام الله بسطته، مني على صدرٍ انتظرها، وقلبٍ استشعرها؛ وإنِّي لا أغلظُ في قومٍ أميرهم صبيٌّ، ولا في دولةٍ عميدُها خصيٌّ، وسنائها حلقيٌّ، ونصيرُها شقيٌّ، وعدوها قويٌّ، إنِّي إذا لغويٌّ.

يا قومُ، بماذا يُنصرون؟ أبالِ عليه اعتمادُهم؟ أم بجمعٍ هو مدادُهم؟ أم لعدلٍ به اعتضادُهم؟ أم لرأيٍ هو عمادُهم؟ هل هم إلا شطوٌّ في فُطورٍ؟ إنَّ الله تعالى علم أنَّهم إن ملكوا لم يُصلحوا، وأمرتُهم أنا أن لا يُفلحوا، فسمعوا وأطاعوا؛ طائفةٌ من المدابير، وقوعُهم بين النَّار والنَّير، إن أقاموا فالسَّيُوفُ الهندوانيةُ، وإن أيمنوا فالأتراكُ والخانيةُ، وإن أيسروا فجرجانُ والجرجانيةُ، وإن استأخروا فالعِطشُ والبريةُ؛ هو الموتُ إن شاء اللهُ آخذاً بالحلاقيم، مُحيطاً بالظاعن منهم والمقيم؛ جرجانُ يا مدابير جرجان؛ إنَّ بها شمةً من التَّين، وموتاً في الحين، ونظرةً إلى الثَّمار، والأخرى إلى التَّابوت والحفَّار؛ ونجاراً إذا رأى الحُرَّاسانيَّ نَجَرَ التَّابوت على قدره، وأسلف الحفَّار على لحده، وعطَّاراً يُعدُّ الحنوط [برسمه]، وبها للغريب ثلاثُ فتحاتٍ للكيس؛ أوَّلُها لكراء البيوت، والثَّانيةُ لابتِياع القُوت، والثَّالثةُ لثمن التَّابوت؛ أغلى [الله] بهم أسواق النَّجارين والحفَّارين والمكَّارين؛ آمين ربَّ العالمين.

(١) عجز بيت للمجنون، وصدره: [ديوانه ٢٨٣].

يارب لا تسلبني حبها أبداً X.

ونسب في اللسان (أمن) ١/١٤٤ إلى عمر بن أبي ربيعة، وليس في ديوانه.

(٢) رسائل البديع ١٩-٢١.

* وله أيضاً إليه في فتح بهاطية^(١) :

إنَّ الله وهو العليُّ العظيمُ، المُعطي من شاء ما شاء، منَّ على الإنسان بهذا اللسان؛ خلق ابن آدم وأودع فكَّيه مُضغَّة لحم، يصرفُها في القُرُون الماضية، ويُخبرُ بها عن الأمم الآتية؛ يُخبرُ بها عما كان بعدما خُلِق، وعما يكونُ قبل أن يُخلَق؛ ينطقُ بالتَّواريخ عَمَّا وقع من خطبٍ، وجرى من حربٍ، وكان من يابسٍ ورطبٍ؛ وينطقُ بالوحي عَمَّا سيكونُ من بعدٍ، وصدق عن الله به الوعيد، ثم لم ينطق التَّاريخُ بما كان، ولا الوحي بما يكونُ، أنَّ الله تعالى خصَّ أحداً من عباده - ليس النَّبيِّين - بما خصَّ به الأمير السَّيِّد يمين الدَّولة وأمين المِلَّة، ودُون الجاحد إن جحد أخبار الدَّولة العباسية، والمُدَّة المروانية، والسَّنين الحربية، والبيعة الهاشمية، والأَيَّام الأُمويَّة، والإمارة العدوية، والخلافة التيممية، وعهد الرسالة، وزمان الفترة؛ ولولا الإطالة لعدَدنا إلى عادٍ وثمودَ بطناً بطناً، وإلى نوحٍ وآدمَ قرناً قرناً، ثم لم يجد قائل مقالاً إلا أنَّ ملكاً وإن علا أمرُهُ، وعظُم قدرُهُ، وكبرُ سلطانهُ، وهبَّت ريحُهُ، طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة مُلكٍ، ثم خلاهُ، وعرض الأرض قُوَّة قلبٍ، وصَبَح سجستان، وهي المدينة العذراء، والخُطَّة العوراء، والطِيَّة العسراء، فأخذ ملكها أخذة عزٍّ وعُنفٍ، ثم خلاهُ تخلية فضلٍ ولُطفٍ، ثم لم يلبث أن خاض في البحر إلى بهاطية؛ والسَّيلُ اللَّليلُ جُنودُها، والشُّوكُ والشَّجَرُ سلاحُها، والضَّحُّ^(٢) والريحُ طريقُها، والبرُّ والبحرُ حصارُها، والجنُّ والإنسُ أنصارُها؛ فقتل رجالها، وغنم أموالها، وساق أقيالها، وكسر أصنامها، وهدم أعلامها، كلُّ ذلك في

(١) رسائل البديع ٢١-٢٦. وبها طية : من أعمال الهند، وهي وراء المولتان؛ وهي مدينة حصينة، عالية السُّور، يحيط بها خندق عميق؛ غزاها يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٣٩٥ هـ فافتتحها ونشر فيها الإسلام. (الكامل في التاريخ ٩/١٨٤).

(٢) الضَّحُّ: الشمس وضوؤها؛ يقال : جاء بالضَّح والريح، أي بما طلعت عليه الشمس، وما جرت عليه الريح. (القاموس)

فُسحة شتوة، قبل أن يتطرقها الصيفُ توسطها السيفُ؛ وهو اللهُ ملكُ الملوك، يُؤتي الملك من يشاء وينزعُه من يشاء.

ثم حكمت علماء الأمة، واتفق قول الأئمة، أن سيوف الحق أربعة، وسائرُها للنار؛ سيف رسول الله للمُشركين، وسيف أبي بكرٍ في المرتدين، وسيف عليٍّ في الباغين، وسيف القصاص بين المسلمين؛ وسُيوف الأمير -أيدهُ الله في موافقه- لا تخرجُ عن هذه الأقسام، فسيفهُ بظاهر هراة فيمن عطل الحد، وأتُهم بأنه ارتد، وسيفهُ بظاهر غزنة في وجه العقُوق، نوعاً من الكُفر [والفسوق]، وسيفهُ بظاهر مرو فيمن نقض بعد تغليظه، ونبذ اليمين بعد تأكيده، وسيفهُ بظاهر سجستان فيمن نبه الحرب بعد رُقودها، وخلع الطاعة بعد قبولها، وسيفهُ الآن في ديار الهند سيفُ قُرنت به الفتوح، وأثنت عليه الملائكةُ والرُوح، وذُلت به الأصنام، وعزَّ به الإسلام، والنبيُّ عليه السلام، واختصَّ بفضله الإمام، واشترك في خيره الأنام، وأرخت بذكره الأيام، وأحفيت لشرحه الأقلام.

وسنذكرُ من حديث الهند وبلادها، وغلظ أكبادها، وشدة أحقادها، وقُوَّة اعتقادها، وصدق جلادها، وكثرة أجنادها، نُبذاً ليعلم السامعُ أيَّ غزوةٍ غزاها الأميرُ السَّيِّدُ أدام الله علوه؛ إنها بلادُ لو لم تُحيها السَّحابُ بدرُّها، لأهلكتها الشمسُ بحرُّها؛ فهي دولةٌ بين الماء والنَّار، ونوبةٌ بين الشمس والأمطار، تقدِّمُها صعبُ الجبال، وتحجُّبُها رحابُ القفار، ويعصمُها مُلتفُ الغياض، ويحصنُها طواغي الأنهار، حتى إذا خرقت هذه الحُجُبُ، خُصَّ إلى عدد الرَّمْل والحِصا رجالاً، وشبه الجبال أفيالاً، وإيزاغ المخاض جلاداً، وتشهاق الحمار طعاناً، وأركان الجبال ثباتاً؛ ثم لا يعرفون غدراً ولا بياتاً، ولا يخافون موتاً ولا حياةً، ولا يُبالون على أيِّ جنبه وقع الأمر، وينامون وتحتهم الجمرُ؛ ورُبَّما عمد أحدُهم لغير ضرورة داعية، ولا حميةٍ باعثة، فاتخذ لرأسه [من الطين] إكليلاً، ثم قور قحفه

فحشاهُ فتيلاً، ثم أضرم في الفتيل ناراً، ولم يتأوه، والنار تحطمه عضواً عضواً، وتأكله جزءاً جزءاً؛ فأما مُحرقُ نفسه ومُغرقُها، وأكلُ لحمه ومُفصلُ عظمه، والرّامي بها من شاهقٍ، فأكثرُ من أن يُعد؛ وأقلُّهم من يموتُ حتف أنفه، فإذا مات هذه الميتة أحدهم^(١) سبَّ بها أعقابهُ، وعظَّم عندهم عقابه.

بلادُ هذه حالُّها، وفيلةٌ تلك أهوالها، وجبالُ في السَّماء قلالها، وفلاةٌ يلمعُ ألُّها، وغياضٌ ضيقٌ مجالُّها، وأنهارٌ كثيرةٌ أوحالُّها، وطريقٌ طويلٌ [مطالُّها]، ثم الهندُ ورجالُّها، والهندوانيةُ واستعمالُّها.

زحم الأمير -أدام الله سلطانه- بمنكبه هذه الأهوال مُحْتَسِباً نفسه، مُعْتَمِداً نصر الله وعونه، فركض إليهم بعونٍ من الله لا يخذلُ، ومددٍ من التوفيق لا يفتُر، وقلبٍ عن الأهوال لا يجبنُ، وجدُّ على المطلوب لا يقصُر، وسيفٍ عن الضريبة لا ينكلُ؛ فسَهَّلَ الله له الصَّعب، وكشف به الخطب، ورجع ثانياً من عنانه بالأسارى، تنظَّمهم الأغلال، والسَّبايا تنقلُّهم الجمال، والفيلة كأنَّها الجبال، والأموال ولا الرِّمال.

فتحُ الله ذخره عن الملوك السالفة الخالية، الكفرة الطَّاغية، الجبابرة العاتية، حتَّى وسمه الله بناره، وجعله بعض آثاره؛ فالحمدُ لله مُعزُّ الدين وأهله، ومُذلُّ الشُّركِ وحزبه.

❦وله إليه أيضاً^(٢):

رُفعتي هذه -أطال الله بقاء الشيخ الجليل- من بعض الفلوات، ولو جهلتُ أن الحذق لا يزيد في الرزق، وأنَّ الدَّعة لا تحجبُ السَّعة، لعذرتُ نفسي في الرُّحل أشدَّه، والحبْل أمدَّه؛ ولكنِّي أعلمُ هذا وأعملُ ضدَّه، وأصلُّ سُراي

(١) أي حتف أنفه.

(٢) رسائل البديع ٢٧-٢٨.

بسيري، ليعلم أن الأمر لغيري؛ وإلا فمن أخذني بالمطارفي هذه الأقطار، والمصار
في هذه الأمصار، لولا الشقاء؛ ألم يأتني العمرُ بهيجاً، والرزقُ نهيجاً نضيجاً،
حتى آتية قصداً، وتكلفتُ له زرعاً وحصداً، وأعرضه شيئاً وطبخاً، وأعرض له
الشعاب، والجبال الصُّعب، وأنزل بمناخ السُّوء؛ لكن المرء يساقُ إلى ما يُرادُ به،
لا إلى ما يُريد.

أما آن لهذه الأشقاص، أن يتيسر منها الخلاص؟ بعدما سافرت وسفرت،
وناظرت [ونظرت]، وحفرت وحررت، ونذرت وبذرت، وزرعت وعمرت؛
حمدت الله كثيراً، ورأيتُه مغنماً كبيراً؛ وإن لم يكن من إتمام القصة بُدٌّ، فلا غنى
عن نظر كريم ومُهلة، فيها مجالٌ وتسويغٌ يصلحُ به فاسدٌ، وقرضٌ يتألفُ به
شاردٌ^(١): [الطويل]

وما كُلُّ يومٍ لي بأرضك حاجةٌ ولا كُلُّ يومٍ لي إليك رسولٌ

٦- ومنهم: أبو نصر العتبي^(٢):

وهو من أصحاب الغوص البعيد، والمعاني البديعة، واللفظ السهل، والخطار
الوقاد، والفكر الجوال، والصُّوغ اللائق، والورد السائغ؛ لا يماثل بإنسانٍ، ولا
يُشاكلُ في خراسان؛ دون كلمه سحرُ بابل، ونشرُ كابل؛ لو شاء أوهم الغواني في
عُقودها، والأغصان في بُرودها؛ وكان حفظُهُ مع سعة مُخيلته، وصفاء مُصوّرتِه
ومُمثّلتِه؛ وحفظُهُ أحوى من بقاع الرَّمَل، وأحلى من اجتماع الشمل؛ وفهمُهُ أدقُّ
من مدارج التَّمَل تَمثيلاً، وأرقُّ من طبع صافي الماء تخيلاً؛ كلماتٌ مُحكَّمةٌ بقوة

(١) البيت ليزيد بن الطثرية، ديوانه ٩٨.

(٢) أبو نصر، محمد بن عبد الجبار العتبي؛ ترجمته في: يتيمة الدهر ٤/ ٣٩٧ والوافي بالوفيات

٢١٥/٣. مولده ومنتشؤه بالري؛ وتوفي سنة ٤١٣هـ.

الأسباب، مُحَكِّمَةٌ كَنَشْوَةِ الرِّاحِ لِلْأَبَابِ؛ فَأَهَأُ لَهُ مِنْ خَيْرِ طَوَاهِ أَمْسُهُ، وَمَنْ بَحَرَ حَوَاهِ رَمْسُهُ، وَمَنْ حَرَّ أَضَاءَ لِيَوْمِ^(١)، مَا طَلَعَ حَتَّى غَابَتْ شَمْسُهُ.

وله كتاب «اليميني في تاريخ السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين»^(٢) كَأَنَّهُ رَوْضَةٌ غَنَاءٌ وَعَقْدٌ مَنْظُومٌ، وَأَفَقٌ مُكَوِّبٌ، بِدِيعِ الْجُمْلَةِ، حَسَنُ الْمَجْمُوعِ.

* وَمَنْ نَشَرَهُ قَوْلُهُ قَرِينِ نَصَلَ أَهْدَاهُ^(٣):

خَيْرَ مَا تَقَرَّبَ بِهِ الْأَصَاغَرُ إِلَى الْأَكَابِرِ، مَا وَافَقَ شَكْلَ الْحَالِ، وَقَامَ مَقَامَ الْمَقَالِ؛ وَقَدْ بَعَثْتُ بِنَصْلِ هِنْدِيٍّ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي قِيمِ الْأَشْيَاءِ خَطَرٌ فَلَهُ فِي قِمَمِ الْأَعْدَاءِ أَثَرٌ؛ وَالنُّصْلُ وَالنَّصْرُ أَخَوَانِ، وَالْإِقْبَالُ وَالْقَبُولُ قَرِينَانِ؛ وَالشَّيْخُ أَجَلٌ مَنْ أَنْ يَرَى إِبْطَالَ حَلِيَةِ الْأَبْطَالِ، وَيَرُدُّ إِقْبَالَ مُسْتَجْلِبِ الْإِقْبَالِ.

ومنه قوله من كتاب كتبه عن السلطان محمود:

ووصلنا إلى السومونات^(٤)، فوجدناها تُخْفِي الرِّيحَ فِي مَسَارِبِهَا، وَتَنْزِلُ الْأَبْصَارَ بَيْنَ ذَوَائِبِهَا، بَيْنَ غِيَاضٍ تَشْكُو الْأَرَاقِمَ فِيهَا ضَيْقَ الْمُضْطَرَبِ، وَصُعُوبَةَ الْمُنْسَرِبِ، مُتَكَاثِفَةٌ كَأَعْرَافِ الْجِيَادِ، مُتَدَاخِلَةٌ كَأَشْعَارِ الْحَدَادِ، لَا تَسْتَجِيبُ فِيهَا الْأَفَاعِي لِلرُّقَاةِ، وَلَا يَسْتَنِيرُ الْبَدْرُ عِنْدَهَا لِلسَّرَاةِ، فِي أَذْيَالِ جِبَالٍ تُنَاغِي كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ، وَخِلَالِ آجَامٍ تُوَارِي وَجْهَ الْأَرْضِ عَنْ عَيْنِ السَّمَاءِ، فَوَافِينَا وَقَدْ أَثْقَلَ الْعَيُونَ كِرَاهَا، وَأَتَعَبَ النُّجُومُ سُرَاهَا، فِي مُدَّةٍ اتَّصَلَتْ كُعُوبُ أَيَامِهَا، وَتَنَاسَقَتْ

(١) في الأصل: ومن حرافاً للوم.

(٢) في الأصل: سبكتكين. وكتاب اليميني للعتبي، مطبوع في المطبعة الرهبية بالقاهرة ١٢٨٦هـ.

(٣) يتيمة الدهر ٤/ ٣٩٧.

(٤) سومونات: مدينة ساحلية متسعة، بها علماد الهنود وعبادهم، والصنم المعروف بها يسمى

«البُدَّة»، كانت الهند تعظمه، وعنده أصناف الجواهر والذهب والياقوت والأحجار الكريمة؛ كسره

محمود بن سبكتكين، وحاز جميع ما فيه غنيمة للمسلمين. (وفيات الأعيان ٥/ ١٧٨ والنجوم

الزاهرة ٤/ ٢٦٦ «الحاشية»).

فرائد نظامها؛ فأحطنا بها إحاطة القلائد بالجيد، والشذرة بالفريد، ثم اشتدّ
 الوغى، فخيّلت المعركة سماء غمامها مثار القساطل، وبروقها بريق المناصل،
 ورعودها صرير السّلاح، ورشاشها صبيب الجراح؛ واستقبل المعمة من الجنود
 رجالٌ، يرون الملاحم ولائم، والوقائع نقائع؛ وحطّت الرّماة أيديها في جعاب
 كخراطيم الفيول، مملوءة بنبال كآنياب الغول؛ وظلّت السهام تنهاوى كما تنهاوى
 لوامع الشّهب، وتترامى ترامي نوازع السّحب؛ والطعن يهتك ودائع الصّدور، ويردّ
 مشارع الغموم والسّرور؛ ولم تزل الملحمة حتّى استقلت الشمس إكليلاً على
 الجبل، ونقّضت ورساً على الأصل، فافترق الجمعان، وضرب الليل بينهما بجران،
 إلى أن صافح الليل صباحه، ونثر النجم على الغرب وشاحه، فعادوا إلى أمسهم،
 وتداعوا من آثاره القيام إلى رمسهم، وصارت الأرواح تُسقى بأرشية الأرماع، إلى
 تولّي عسكر البلد هزماً يقفوه الصّباح، وهشيماً تذروه الرياح؛ يتقاسمون الهرب
 جماماً، ولا يردون الماء إلّا لماماً؛ وعسكر السّلطان في آثارهم يرميهم بالصّواعق من
 ظبي السيوف البوارق، ويقذفهم بالشّهب اللّوامع من شبا الرّماح الشّوارع، حتّى
 صار من سلم منهم إلى الأطراف ضرورة، إذ كانت جيوب الآفاق عليه مزرورة.

وما برح السّلطان يتطلّب ملكهم حتّى حصل في معتقله، وحصله في
 مكمن أجله، فهدأ من الخوف سره، وختم بطابع الشقاء عمره، ثم صعد
 السّلطان المدينة، ودخل بيت البُد وظفر منه ومنها بأموال طالما حفظتها صدور
 الخزائن مكتومة، وخنقتها خيوط الأكياس مختومة، مما أوهت في تعدادها أنامل
 الحُساب، وأحفت بل أفنت أقلام الكتّاب، فمن ذهب وفضة، ما منهما إلّا ما
 يُكاثّر الأحجار، ويستقلّ الأمطار؛ ومن لآل كأنما صُورت من الشّمس ضياءً،
 وخلقت لمضاهاة حبّ الغمام عدّاً وصفاءً؛ ومن يواقيت كالجمر قبل الخمود،
 والخرم بعد الجمود، ومن زبرجد كاطراف الآس نُضاره، وأوراق الأقحوان غُضاره؛

ومن ماسٍ كأنما أعارت بعضهُ السَّنانيرُ أحداقها، أو وهبت باقيه حُوَّ الشَّقائِقِ
أوراقها؛ ومن ولدان كاللُّؤلؤ المنثور، ونساءٍ خُلِقن أنموذجاً للحُور، ومن أفيال
كالأسود، محطومةٍ بالأساور السُّود، حكّت أطواداً فارعةً، وأمواجاً مُتدافعةً، تئنُّ
الأرضُ من وطء أطرافها، وتَخَفُ^(١) من ثقل أخفافها؛ تقفُ كأشخاص القصور،
وتتدفقُ كأمواج البُحور، وكأنها بُيوتٌ والخراطيمُ رواشنها المعلقة، وكأنها ليالٍ
افترست النّهار، فلم يبق منه إلّا ما على أنيابها من جلوده الممزقة، يراها الرّاؤون
هضاباً ثابتةً، وجبالاً نابثةً، في ثقل أجسام، وخفّة أقدام؛ كأنها صدعُ الجبال عند
طارقة الزلزال، تُناجي بصُور التهويل والتفخيم، وتفتكُ بالأيدي والخراطيم؛ إن
استُدري بها في الوغى، ضربت بين النفوس والآجال بسُورٍ، وإن خفّت إلى
الحُروب، رأيت قُلُوب اللُّيُوث تحت أجنحة النُّسور؛ فلندع هذه النّعمة التي
عقدت بالنّجوم صفائرها، وأفاضت على الشّرق بعضها وعلى الغرب سائرها، وإنّا
لنرجو أمثالها، مادامت العُيونُ حافظةً سوادها، والعواتقُ حاملةً نجادها.

ومنه قوله:

المؤمنُ البشرُ لامن ورق الشجر، إذا مات فقد فات، وليس ممّا يعودُ، كما
يُورقُ ماعري العودُ.

ومنه قوله:

وهُم مرابيعُ الكرم، وينابيعُ الحكم، ومصابيحُ الظُّلم، ومجاديحُ الأمم، ولُيُوثُ
البهم، وغُيُوثُ القمح؛ سادةُ النَّاسِ، وقادةُ المُلُوك يوم النّدى ويوم الباس.

ومنه قوله:

وبلغ إلى حيثُ لم يبلغه في الإسلام رايةٌ، لم ينل به قطّ سورةٌ ولا آيةٌ، في

(١) تَخَفُ: تصيحُ. (القاموس).

فياف تضلُّ في أرجائها أسرابُ اليعافير، وتحارُ في دهنائها أفواجُ العصافير؛ فتثار
عدوُّ الله يستنهضُ من يحمل حجراً، فضلاً عمن يلقي القوس وترّاً، أو يحسن
بالسيف أثراً؛ فلما قاربهُ في المكان، ودخل بالرُّعب على قلبه العيان، كرّ راجعاً
على آثاره، لفت المُشير موهناً بناره؛ لا زال السُّلطانُ منصوراً، ما طلع يومٌ من
حجاب أمس، وظهرت نفسٌ من قرارة نفس.

ومنه قوله:

وأما بنو فلان، فكوتهمُ الأيامُ بمياسمها، وداستهمُ الليالي بمناسمها؛ فإنَّ في
قرع باب الغيِّ تعرُّضاً للبلَاء، واستئذاناً على سواء القضاء، لولا أن تداركهمُ فلانٌ
بلطفٍ كالأري مُشاراً، ودهاءٍ يسلخُ من الليل البهيم نهاراً.

ومنه قوله مُعزياً:

هذه مُصيبةٌ سفحت الدُموع غروباً، ونثرت قنا الأَصلاب أنبواباً فأنبوباً، ونُعي
بها فتى الجود، ومصَّ بعده الثرى بقية الماء من العود.

ومنه قوله:

ولم تكن إلاَّ صدمةً واحدةً حتَّى زلت الأقدامُ عن مقارها، وتهافت الرُّقابُ
عن مزارها، وجعلت تتساقطُ أشخاصُ الألوِيَّة والمطارِد، وتردُّ النفوس عن ضرب
السُّيوف البوارِد؛ وكرَّت عنها للسُّلطانُ فيولُّ كرُّ عن الجبال، أو كرُّ كُن السُّحب
الثِّقال، مُغشاةً بتجافيف^(١) لم يُعوِّر منها غير حدق النواظر، وحدائد الأنياب
القوافِر؛ يهُولُ سائسُها عليها بمرهفاتٍ كالبروق الخواطر، وصفارات كالرُّعود
القواصف؛ وقد نُشرت عليها التَّمائيلُ في العيان المشهود، كأنَّها الأساودُ

(١) التَّجفاف: آلةٌ للحرب، يلبسه الفرس والإنسان ليقيه في الحرب. (القاموس).

السُّود؛ تخيل اضطراب الرياح فيها أَنَّها تُرجفُ للإلهام، أو تنقضُ لاختطاف الهام؛ وتعالَت عليها أطرافُ العوامل؛ في مبانٍ كالمعاقل، كأنها آجامُ السَّواحل، تأويها شياطينُ الإنسِ فُرساناً، وعفاريتُ التُّركِ والهند مرداً وشُبَّاناً، تُبصُّ عليهم سابغاتُ داود كصفائحِ الماء، تجلوها الشَّمسُ في وسطِ السَّماء، فحثُّ العدوُّ الخيل، تحت اللَّيل، حتى كاد لا تتنفسُ الأرضُ معه بمواطئِ أقدامها، ولا تشعُرُ النَّجومُ بأشخاصِ الويتها وأعلامها، ودنا الفريقان بعضهم من بعض، وظلَّت رحي الحرب تعركُهُم بثفالها، وتدورُ عليهم بأثقالها؛ وحمل سيفُ الدَّولة بنفسه، فتداعت الزُّحُوفُ، وتخالطت الصُّفُوفُ، وخطبت على منابر الرُّقاب السيُوفُ، وثارَت عِجاجةٌ أخذت العُيون عن الأشباح، وأذهلت النفوس عن الأرواح، ونثرت الأعناق ثم نظمتها في سُلوك الرِّماح، وطفقت الخيلُ تتردَّى بجثثِ النفوس، وتلعبُ بأكر الرُّؤوس؛ وأما البقيةُ فإنهم ولَّوا وما ألَّوا، وقد دبَّ الفشلُ في تضاعيف أحشائهم، وسرى الوَهْلُ في تفاريق أعضائهم، واستطار الخوفُ في مزاج دمائهم؛ فجُيِبُ الأقطار عليهم مزرورةٌ، وذُيولُ الخذلان عليهم مجرورةٌ.

٧- ومنهم الحسين بن علي بن محمد عبد الصَّمَد، أبو إسماعيل^(١)، مؤيد الدين، فخرُ الكُتَّاب الأصبهاني، المنشئُ المعروف بالطغرائي.

الكاتبُ الشَّاعرُ، الناظمُ النَّاثِرُ، البديعُ الصَّنعة، الباهرُ الأدب، الزاهرُ الفضل، الطاهرُ المحاسن، الدقيقُ المعاني، الوثيقُ المباني، المشهورُ شهرة الشَّمس، الواضحُ

(١) ترجمته في: الأنساب ٤٩٦/١١ والخريدة (قسم العراق) ١٥١/٢ ومعجم الأدباء ١١٠٦/٣ واللباب

٢٦٢/٣ وبغية الطلب في تاريخ حلب ٢٦٨٣/٦ ووفيات الأعيان ١٨٥/٢ وتاريخ الإسلام ٣٦٤

[وفيات ٥٠١-٥٢٠] وسير أعلام النبلاء ٤٥٤/١٩ والعبر ٣٢/٤ والوافي بالوفيات ٤٣١/١٢ ومقدمة

الغيث المسجوم والبداية والنهاية ٢٥٤/١٦ والنجوم الزاهرة ٢٢٠/٥ وشذرات الذهب ٦٨/٦.

وضُوح البدر، كاثِرُ بدائعهِ النُّجومِ الثَّواقِبِ، وبنَتائِجِ قرائِحِهِ سُجُومِ السَّحائبِ،
فجاءتْ عُرْباً أبكاراً، وشُهْباً لا تلجُ أفكاراً.

وولع بصنعة الكيمياء، فشب لهباً، وصبَّ أدباً لازدهباً، وأذهب زماناً بها في
العناء، وطلب الغنى من غير الغناء، فلم يجد بغيته، ولم يزد على أن صَفَّرَ
وجهه، وبيض لحيته، فَرُدَّ خائباً، واشتعل رأسه شائِباً؛ وطالما شمر طلبُ الصَّنعةِ
دروعه، وصعد أنفاسه وقطر دموعه، وكان من فيض السلطان في غير البشير،
وفي حبرٍ من الإكسير، إلا أنه تعلق بعلم أحابر، وعلق حُكم الصَّنعةِ عن أكابر،
وشدَّ الأوصال، وامتدَّ لأن تسمح له بالوصال، فكان لو شعر به ابنُ أميل، لمال إليه
كلَّ الميل، أو تشبه به ابنُ يزيد، لما كان عليه مزيدٌ، ومع طول مُعاناته، وبُعدِهِ
تارةً ومُداناته، لم يحصل على غير ارتقابها، ولا ظفر من ليلى يحطُّ نقابها، فكم
ضيّع حاصلًا، وكدَّ ولم يَكُنْ واصلًا.

وشعره أسير من نثره، وأيسر في حجم قدره، لأنه إنما عانى النثر وقد قارب
أجله الانتهاء وقارب الرّحيل، ودنت شمسُه من الأفول.

وهو صاحبُ «لامية العجم» التي فصلت عُرى «لامية العرب» وحلّت
لامها، ونكّبت من شفار الشَّنفرى سهامها، فلقد قوّت الشُّعوبيةَ، واحتمت
لعصابتهم، حمية العصبيةَ، وأخذت قسراً شجر البيان، وحكمة ألسنة العرب
وأدمغة اليونان، وكادت تبتزُّ من دولة العرب مدينة السَّلام، ولا تُبقي لهم إلا
عائدة الملام، وعنوان قوله منها^(١): [البسيط]

أريدُ بسطة كفو أستعينُ بها على قضاء حُقوقِ للعلى قبلي

(١) الأبيات من لاميته، وهي في: الغيث المسجم ٢١٢/١ وما بعد ووفيات الاعيان ١٨٥/٢ والوافي

بالوفيات ٤٣٦/١٢ ومعجم الادباء ١١١٠/٣ وديوانه ٣٠١-٣٠٩.

والدهرُ يعكسُ آمالي ويُقنّني
 إنَّ العلى حَدَّتْني وهي صادقةٌ
 لو أنَّ في شرفِ الماوى بُلوغٌ منىً
 تقدّمتني رجالٌ كان شوطُهُمُ
 أعدى عدوك أدنى من وثقت به
 وإنَّ علاني من دوني فلا عجبُ
 وإنَّما رجلُ الدنيا وواحدُها
 من الغنيمة بعد الكدِّ بالقفلِ
 فيما تُحدِّثُ أنَّ العزَّ في النُّقلِ
 لم تبلُغِ الشمسُ يوماً دارةَ الحملِ
 وراءَ وطئي إذا أمشي على مهلِ
 فحاذرِ النَّاسَ واصحبهم على وجلِ
 لي أسوةٌ في انحطاطِ الشَّمسِ عن رُحْلِ
 من لا يُعوِّلُ في الدنيا على رَجُلِ
 وقد قال لما ولي ديوان الطُّغراء، وكان قد كبر وأفن: من فتح دُكانه بعد
 العصر، أي شيءٍ يتعيش؟

* ومن نشره قوله :

وما كان إلا أن تداعوا بالرحيل، وقُدِّمت لهم النِّياقُ للتَّحويلِ، وإذا بقلبي
 قد ودَّعني وسار، وهزَّ جناحه الخافقَ وطار، فعُدْتُ -علم الله- لا أستطيعُ منعه،
 ولا أعقلُ فأجري لي دَمعةً، إلى أن بَكَرت عليَّ العاذلاتُ، وهبت إليَّ باللَّومِ
 قائلات: أمالك أسوةً بالمُحبِّين الأُلى؟ فقلْتُ: لا؛ فمازلن يرقعن جلدي،
 ويُمسكن تجلّدي، وأنا لا أسكنُ إلى حولٍ، ولا أطمئنُ إلى قولٍ، حتّى غلبتني
 صرعةُ كرى، فتخيلت [أنّي] أرى خيالاً عاد مُخبِراً، وخيالاً من الحبيب زار
 مُزوَّراً؛ فإذا بتمثال الأحباب بين يديّ مُصوراً، فقال لي ذلك الطَّيْفُ الطَّارِقُ،
 تحت سُتُور الليل الغاسق: مالك ولهذه الحالة الشنيعة؟ أما كُنْتَ ترضى بأن
 يكون قلبك عندنا وديعة؟ فما خُذها إليك، والسَّلام عليك؛ فقلْتُ: ناشدتك
 الله أيُّها الخيالُ الزَّائرُ، والمثالُ السَّائرُ، إلّا ما تريثت، ووقفت فتلبّثت؛ فما زاد على
 أن زال، ولا حام حتّى حال؛ ثم ولى وما ودَّعَ، وأشبه مُشبهه في الجفاء وما أبدع.

ومنه قوله:

وقد زار الغيثُ، وزار اللّيثُ، وأضاء البدر الزّاهرُ، ودنا الصّباحُ السّافرُ، وقدمُ
العميد يهمني مُتدفقاً هو والغمامُ، ويجري مُستبقاً هو والسّهامُ، فأَيُّ صدرٍ ما
تزحزح لحلوله؟ وأيُّ قدرٍ ما يُصالُ لوصوله؟ وأيُّ بدرٍ ما غاب؟ وأيُّ شمسٍ ما
توارى ضياؤها بحجاب؟ ولولا وقارُ العميد، كادت الأرضُ تميدُ، وياللّه العجبُ،
قدمُ وما نزلت البحارُ، وإلا ضاقت البيدا.

ومنه قوله:

وكتابي هذا إليك، وعندِي عليك لوثُ عتابٍ، لأمرٍ لا يحمله كتابٌ، فإن
آب بك المتأبُّ، وقومٌ أودَّ ودَّك الإعتابُ، استرسلتُ معك في ذكره، وأرسلتُ
إليك رائد سرّه؛ وإلا طويتُ الدّهرَ على مضضٍ ألمه، وأخلّيتُ الصّدرَ للممّه،
وتحاملتُ على ما بي، وصرفتُ عنك ودِّي وعتابي.

ومنه قوله:

سحابةٌ تُرسلُ الأمطارَ أمواجاً، والأمواجُ أفواجاً، سحبت على الأرض أذيالها،
وعلمت افتقارها إلى نفسها، فجادت بها لها، والجودُ بالنفسِ أقصى غاية
الجود^(١)، لاسيما عوارفُ كرمٍ ملأت الوجود.

*ومن شعره قوله^(٢): [الطويل]

وأبيض طاغي المتن يرعدُ حدّه مخافة عزمٍ منك أمضى من النّصلِ

(١) هذا عجز بيت لصريع الغواني مسلم بن الوليد وتماه: [الديوان ١٦٤] [من البسيط]

تجودُ بالنفسِ إذ أنت الضنين بها والجودُ بالنفسِ أقصى غاية الجودِ

(٢) ديوانه ٢٧٤.

عليهم بأسرار المنون كأنما
ومنه قوله^(١): [الطويل]

أجيراننا بالغور كيف خلصتم
لقد سمعت أذناي نجوى فراقكم
أحذركم طوفان دمعي فبدلوا
ففي الحى مرهوم الإزارين بالبكا
ومنه قوله^(٢): [الطويل]

إذا ما دجى ليل العجاجة لم يزل
عليها سطور الضرب يعجمها القنا
وبأيديهم جمر إلى الهند مشبوب
صحائف يغشاها من النقع تريب
وقوله في النهر والروض^(٣): [السريع]

يشقها في وسطها جدول
له سواق طفحت والتوت
فهى رماح أشرعت نحوها
ومنه قوله^(٤): [الكامل]

إنني لأذكركم وقد بلغ الظما
منى فأشرق بالزلزال البارد

(١) ديوانه ٣٩٠.

(٢) ديوانه ٩٣-٩٤.

(٣) ديوانه ١٠٧.

(٤) في الأصل : ... جدرك العذبة منكوحه ١١.

(٥) في الأصل : فهي نتاج أسرع نحوها X قطعنها ١...

(٦) ديوانه ١٤١ وبعضها في معجم الادباء ٣/١١٠٩.

وأري العدئ أن الإساءة منكم
ويصح لي قول الوشاة عليكم
وإذا طويت هواك عنهم ثم بي
وأقول: ليت أحبتي لاقيتهم
وإذا سئلت عن السلو أجبتهم
إن لم يكن سحراً هواك فإنه
ما زلت أجهد في مودة راغب
ولربما نال المراد مُرفقه
هذا هو الرأي الذي ضاقت به

خطأ وتلك سجية من عامد
فأردّه عنكم بظن فاسد
وجد يدل على لسان جاحد
قبل المات ولو بيوم واحد^(١)
بلسان مُعترف ونية جاحد:
والسحر قدامن أديم زائد^(٢)
حتى ابتليت برغبة في زاهد^(٣)
لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
حيل الطبيب وطال يأس العائد

ولعمري ما أعرف ما أصف به هذا الشعر، وهو الذي قل أن يماثل، وجل أن يُقاس به، وهو السحر الطاهر، والرحيق المشعشع، والروض الباسم، والصباح المتألق، وهكذا فليكن؛ ومن يقدر على هذا أو يدانيه؟

وكذلك قوله^(٤): [البسيط]

بالله يا ريح إن مكنت ثانية
وباكري ورد عذب من مقبله
وإن قدرت على تشويش طرته
ثم اسلكي بين برديه على عجل

من صدغ فاقمي فيه واستتري
مقابل الطعم بين الطيب والخصر
فشوشها ولا تبقي ولا تذري
واستبضي الطيب وأتيني على قدر

(١) البيت لم يرد في الديوان.

(٢) في الأصل: ... سحر ... X ... وقد ... ١.

(٣) في الديوان: ما زلت أزهد ... X ... وهي أعلى من رواية أصلنا.

(٤) ديوانه ١٦٨ ومعجم الأدباء ١١١٧/٣ وبغية الطلب ٦/٢٦٨٨.

ونبهيني دُوبن القوم وانتفضي
لعل نَفحة طيب منك ثانية

وقوله^(١): [الطويل]

عليَّ وألّيلُ في شكٍ من السّحرِ
تقضي لبانة قلبٍ عاقر الوطيرِ

وحان على الشّحناء عوج ضلوعه
يُكائرُ فضلي بالشّراء توقُّحاً
أقولُ له لما اشرباً لغايَتي
وأيقظ مني ساهراً غير نائمٍ
لقد فات قرنُ الشّمس راحة لأمسٍ
فإن حدّثتك النفسُ أنك مُدرِكُ
وعلمي بما لم يحو خاطرُ عالمٍ
فما عهدُ أحبابي على البعد ضائعٌ
ولا أنا عمّا استودعوني بذاهلٍ
وإنّ الألى رامو اللّحاق بغايَتي
وراموا باطرافِ الأناملِ غايةً

وقوله^(٢): [الطويل]

يُسدّدُ نحوي صائباتِ المشاقصِ
وفي المال للجُهمالِ جبرُ النّقائصِ
ومدُّ إليها نظرة المتخاوصِ
وحرّض مني هاجماً غير حائصٍ:
وأعيا مناطُ النّسرِ كِفّة قانصٍ
لشاوي فطالبها بمثلِ خصائصي
وخوضي على مالم ينل فهمُ غائصٍ^(٢)
لديّ ولا ظلُّ الوفاء بقالصِ
ولا أنا عمّا كاتموني بفاحصِ
سعوا بين مبهورٍ وآخر شاخصِ
وطئتُ وقد أعيتهمُ بالأخامصِ

صحّا عن فؤادي ظلُّ كلّ علاقةٍ
هوى ليس يُسلي القُربُ عنه ولا النّوى
ففي البُعد قلبٌ بالفراق مُعذبٌ

وظلُّ الهوى النّجديّ لا يتقلّصُ
ولا هو في الحالين يصفو ويخلّصُ
وفي القُرب عيشٌ بالوشاة مُنغصُ

(١) ديوانه ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) في الديوان : X وغوصي ... وهي أعلى وأجود .

(٣) ديوانه ٢٠٩ - ٢١٠ .

وإنَّ خلاصاً كُنْتُ أرجوهُ برهةً
قطعتُ رجائي منه مُذ قال صاحبي:

وقوله^(١): [البسيط]

وكان يزيدُ الأمرُ فيه وينقصُ
رميُ العيون النُّجْل لا يتخلَّصُ

يا صاحبي أعيناني على سكنٍ
ظبيٍّ غريرٍ إذا حاولتُ غرتهُ
مالي وللبرق مُجتازاً على إضمٍ
برقٌ يلوحُ بنجدٍ والحمى وطني
من مُبلغٍ الحي شطَّت دارُهُم ورضوا
ما طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم
إنَّ الزَّمان الذي كانت بشاشتهُ
فإن نسيتُ فيأْساً لم يدع طمعاً
حكمتُ في مُهجتي من ليس يُنصفني
سيان عندي وأمرى صار في يده
حتامُ أنهضُ جدِّي وهو يعثرُ بي

إذا شكوتُ إليه زادني مرضاً
أرسلتُ طرفي سهماً وانثنى عرضاً^(٢)
يسري ويمري جُفوني كلما ومضاً
هفاً بقلبي ولُبي كُله ومضى
بالجار جاراً وما أَرْضى بهم عوضاً
عن الرِّضاع تقضى والشَّبابُ مضى
للقلب والعين ملهى بان وانقرضاً
وإن ذكرتُ فغرق ساكن نبضاً
ولست أبلغ من تحكيمه غرضاً
قضى لغيري بجور أم عليّ قضى
أخاف أن لا يراني الجدُّ إن نهضاً

وقوله^(٣): [الكامل]

ومليحة الحركات إن رفلت
ثم المروطُ بحُسنها فبدا
فتح الصُّبا في صحن وجنتها

في الحي ساعف عقدها القُطرُ
والشمسُ ليس يُكنُّها مرطُ
ورداً يُضاعفُ حسنه اللَّقَطُ

(١) ديوانه ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) في الديوان: X غرضاً. وهي جيدة.

(٣) ديوانه ٢١٧.

قالت وقد ولت حمولهم
كان الشبابُ الغضُّ يجمعنا
غدر الأحبة والشبابُ معاً
والعيسُ فوق جفوننا تخطو:
فمضى وشتت شملنا الوخطُ
فكأننا لم نصطحب قطُّ

وقوله^(١): [الكامل]

في القلب من حرِّ الفراقِ شواظُ
ولقد حفظتُ عهدكم وغدرتُم
للهِ أيُّ مـراقفٍ رقتُ لنا
ومرئ العتابُ جفوننا فتناسبت
يا دارُ ما للركبِ حين وقوفنا
ترك الغرامُ عقولهم مشدوهةً
عهدي بظلك والشبابُ يزينه
والدمعُ قد شرقت به الألفاظُ
شتان غدرٌ في الهوى وحفاظُ
فيها الرسائلُ والقلوبُ غلاظُ
تلك المدامعُ فيه والألفاظُ
ما إن سقاك من الدُموعِ لماظُ
فظننتُهم رقدوا وهم أيقاظُ
أيام ربك للحسانِ عكاظُ

فيا لله ما أسرى هذه البدائع، وما أسرع تدفق هذه البدائء، وبالله هذا الشاعر، لقد ركب هذه القافية الصعبة فذلها، وسلك هذه الطريقة الوعرة فسهلها؛ ولقد حير الأفهام إلى أي هذه المعاني تُسارع؟ ولأيها تفضل؟ ومن أيها تعجب؟ هذا مع هذا التركيب الشديد الأسر، واللفظ الذي اقتاد إلى هذه القافية، وسلسل نطف هذه الأبيات الصافية، وجاء بأبياتها المشيدة كأنها العافية، وهذا الذي تتفاوت فيه أقدارُ القرائح، ويظهر فيها مبلغُ العلم، ويُعلن به باسم قائله، وينفق سوقُ منشده، وأين من يقدر على مثل هذا الكلام؟ أو يتعاطى مثل هذا المدام؟ أو يصح معه هذا السحر، وما أظنه إلا الحرأماً؟ ١٩.

ومن لطائف شعره قوله أيضاً^(١): [الكامل]

يا قلب مالك والهوى من بعدما	طاب السُّلُوْ وأقصر العُشاقُ
أو ما بدا لك في الإفافة والألى	نازعتهم كأس الغرام أفاقوا
مرض النَّسيمُ وصحَّ [و] الدَّاءُ الذي	يشكوهُ لا يُرجى له إفراقُ
وهذا خُفوقُ البرق والقلب الذي	تُطوى عليه أضالعي خفاقُ

وقوله^(٢): [الطويل]

أجمما البكا يا مُقلتي فإننا	على موعدٍ للبين لاشك واقعُ
إذا جمع العُشاقُ موعدهم غداً	فوا خجلتا إن لم تُعني المدامُ

وجاءه مولودٌ وقد بلغ سبعاً وخمسين سنةً، فقال^(٣): [البسيط]

هذا الصَّغيرُ الذي وافى على كبري	أقر عيني ولكن زاد في فكري
سبعٌ وخمسون لو مرّت على حجرٍ	لبان تأثيرها في صفحة الحجر

وقوله^(٤): [الطويل]

أزیدُ إذا أيسرتُ فضل تواضعٍ	ويزهو إذا أعسرتُ بعضي على بعضي
أرى الغُصنَ يعرى ثم يسمو بنفسه	ويوقرُ حملاً حين يدنو إلى الأرضِ

وقوله^(٥): [الطويل]

وكنْتُ أراني مُفلتاً شرك الهوى	فقد صادني سحرُ العيون النوافث
--------------------------------	-------------------------------

(١) ديوانه ٢٦٠.

(٢) ديوانه ٢٥٠.

(٣) وهو الابن الأصغر، واسمه عليّ؛ ديوانه ١٦٣.

(٤) ديوانه ٢١٦.

(٥) ديوانه ١٠٥ - ١٠٦.

تولَّى الصُّبَا فالعذلُ أوَّلُ باعث
صفاً ليس يَمْضِي فيه معولُ باعث
وقد كان بدو الحبِّ مزحةً عابث

فلا تعذلوني في غرامي بعدما
ولا تبَحْثُوا عن سرِّ قلبي فإنَّه
أرى صبوات الحبِّ قد جدَّ جدُّها

وقوله^(١): [الطويل]

تمطَّى بها من حُقوة الرِّملِ برزخُ
بحيثُ التقى منها وقوفٌ ونوخُ
مدى الفترِ إذ أدنى خطاهنَّ فرسخُ
جناحُ خُداري من الليل أفتخُ
ومسكُ شعورٍ بالشباب مُضمخُ
فمالي إذ أشكو ولا لك مصرخُ

هي العيسُ قوداً في الأزمة تنفخُ
فَلَيْنَ الدُّجَى عن غُرة الصُّبحِ فاغتدت
عليها قطافُ المشي أطولُ خطوها
بُدورٍ أَكْنَتْهَا خُدورٌ يُجْنُّها
فوشي خُدودٍ بالجمالِ مُنمَّم
فيا صادحات الورق في الأيكِ أقصري

وقوله^(٢): [البسيط]

عيني سِواكم ولا استمتعتُ بالنظرِ
فإنَّ حُبَّكم غطَّى على بصري

تألَّه ما استحسنتُ من بعد فرقتكم
إن كان في الأرض شيءٌ غيرُكم حسناً

وقوله^(٣): [الخفيف]

أضنى طارفاً شكاً أم تليداً
فأبت وهي تَشْتَهِي أن تعودا
ألم الوجد والمزار البعيدا
أن أمالت [علي] عطفاً وجيدا^(٤)

خبروها أني مرضتُ فقالت:
وأشاروا بأن يعودوا سادتي
وأنت في خُفْيةٍ وهي تشكو
ورأتني كذا فلم تَمالك

(١) ديوانه ١١٥-١١٦ وبغية الطلب ٦/٢٦٩٠.

(٢) ديوانه ١٧٢.

(٣) ديوانه ١٤١-١٤٢.

(٤) في الأصل: X أن مالت عطفاً وجيداً.

وقوله يصف النجم^(١): [المتقارب]

وليل ترى الشَّهْبَ مُنْقِضَةً بها نحو مُسْتَرْقٍ سَمِعَهُ
كما مُدُّ من ذهبٍ مَدَّةً على لازوردية الرُّقْمِعه

٨- ومنهم: أبو عليّ، الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشَّخْبَاء العسقلاني^(٢):

✽ صاحبُ الخُطْبِ المشهورة، والرسائلُ المحبِّرة؛ لسانٌ لا يكفُّ له غربٌ، ولا يكلُّ له ضربٌ، بحسٍّ ذكيٍّ كأنه زُجاجةٌ فيها نارٌ، وحَدَسٍ زكي لا يُطمسُ له نارٌ؛ وبينه وبين ابن الجُمَيْدِ مَكاتِباتٌ، يُنشرُ منها الحلُّ، ويُنظرُ منها ما تحوي الكلُّ؛ وقفتُ عليها، وصرفتُ النظرَ فلم أجدهُ ينصرفُ إلَّا إليها؛ وكانت عندي بالخطِّ الفاضليِّ، وإنَّما أذهبتُه من يديَّ النُّقْلُ، وأطلقتُه من حاصليِّ العُقلُ؛ وكانت بينهما من لطائفِ الشُّتامِ، ما كان لسالفِ النَّقائِضِ كالختامِ، بالفاظٍ عذابٍ كأنَّها تُطفئُ الغواذي، وطعمُ السلامة من يدِ الأعادي؛ وكان لا يُحسنُ منها إلَّا عقيرٌ مُدَّامةٍ يحسوها، وعاقِدٌ راحةٍ على شُعاعٍ يكسوها؛ وكانا عجباً، ونيرينَ ظهرا، والشمسُ والقمرُ قد حُجبا.

ومن نثره قوله:

أمَّا ما افتتحت به من ذكر استحكامِ الثقة، فقد عجبتُ من تعاطيه وصف

(١) ديوانه ٢٥١ .

(٢) وقيل في اسمه: الحسن بن محمد بن عبد الصمد؛ وترجمته في: معجم الأدباء ٩٩٩/٣ ووفيات

الآعيان ٨٩/٢ والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٦٢٧/٢/٤ وسير أعلام النبلاء ١٨/٥٨٧

وتاريخ الإسلام ٨٣ [وفيات ٤٨١-٤٩٠] والوافي بالوفيات ٦٨/١٢ واتعاظ الحنفا ٢/٣٢٨ .

- توفي سنة ٤٨٢ هـ وذكره المقرئ في وفيات ٤٨٦ هـ.

- له مجموعة من الرسائل في الذخيرة وجمهرة الإسلام للشيزري ٢٥٠، ٦٧، ٧٦، ٨١، ١٠٣،

١٩٣، ٢٤٧، ٢٥٥.

ذلك، مع العلم بوضوح دليله، والمعرفة بكثيره وقليله، وأنى يتجاوز تلك الصفة وهو ينبوع الوفاء ومنبته، وممكن أسه ومثبته: [الرجز]

تسكن أحشائي إلى حفاظكم سكون أجفاني إلى رقادها
وأما تخلّفه عن الزيارة للعذر الذي نصّه، فقد رأيت ليلتي بغيبته، فكأنّها
قرنت بيوم الحساب الأطول، أو علّقت نحوها السيارة بأمراس كتان إلى صم
جندل^(١).

ومنه قوله:

فارقتي مولاي، وخلّفتني خلف السهاد، مفترشاً شوك القتاد، أتذكر أخلاقه
تذكر الفقير غناه، وابن ذريح لبناه، وامتدّ عليّ رواق الليلة المذكورة، حتّى كأنّ
نجومها شدّت بمناكب أبان، وقمرها يسير في فلك كيوان: [من البسيط]

يئست من صبحها حتّى التفت إلى وجه الظلام أعزّيه بفقدان
ولم تزل هذه حالتي في الوحشة، إلى حين وصول الرقعة الأثيرية؛ فإنّها رقت
هلهلاً من الجدل مخلّقا، وتركت داوياً من المسرة قصراً مونقاً؛ ووقفت عليها،
فقلت: أجرى الطرس سطوراً؟ أم زهري منثوراً؟ أو نظمت البراعة ألفاظاً أدبية؟
أم سلوكاً ذهبية؟ وأنا أجيب عنها، ولكن كما يجيب قساً باقلاً، وتفاخر
السحب المثقلة جدّاول؛ لما علمت أنه قد عبث عليّ من وجه صحيح، لقيته
مخفوض الجناح، وقابلته بالاستغفار والاستفصاح؛ إذ أنا بحمد الله تعالى لئن
الكنف تحت ظلال المودة، شديد في هواجر الشدة: [الطويل]

(١) من معلقة امرئ القيس: [ديوانه ١٩]

كان الثريا علّقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

جليدٌ على عتبِ الخطوبِ إذا التوتُ وليسَ على عتبِ الأخلاءِ بالجلدِ
وأما الفصلُ المختصُّ بالحضرة السامية، ووقوعُ الأمر بحسب ما كان مولاي ذكره، فلم تزل ألمعيةٌ تمده بالرأي الثاقب، وتكشف له ستور العواقب، والله المحمود على مامنح مولاي من صحة النظر الذي يتساوى فيه حاضر من الأمر وغائب، ومستقبل من الخطب وذاهب، وحسن الألمعية التي عناها الأولُ بقوله: [الكامل]

وُنْصِبُ مُرْتَجِلاً بِأَوَّلِ فِكْرَةٍ أَعْرَاضُ كُلِّ مُخْمَرٍ وَمُبَيَّتِ
وأما الفلانيان، وما تجدد بينهما في هذا الوقت من الصحبة، وانتسج من المودة، فللمُشابهة قضيةٌ دائمةُ الوجوب، وللمُشاكلة حوادثُ تملكُ حبات القلوب؛ وكلُّ نفسٍ بعادتها صبةٌ، وإلى ما يُلائمُ طباعها مُنْصِبةٌ؛ النملةُ تفرحُ بالبرّة، أكثر من فرحها بالدرة؛ والضَيُّونُ يرى القذاريةَ، خيراً من اللطيمةِ الدارية؛ ومولاي يُخالفُهما بصحّةِ ميثاقه، وكرم أخلاقه، ودماثة طبعه، وصلابة نبعه، وطيب أصله وفرعه؛ فلا غرو أن يجهدا في نقضِ دمرته^(١)، ويرغبا عن الاختلاط بحضرته: [السريع]

لا تنظري صدي ولا مِقْنِي ما أنتِ من حَرْبِي ولا سَلْمِي
وأما سؤالُهُ عن قائل البيتين المنظومين، وهما^(٢): [مجزوء الكامل]
ويَقْـودُنِي لوصالِهِ خُرسُ الهوى فلقُ الوشاحِ
ينادُ كالغُصْنِ النُضِيِّ سرِّ بمثلِهِ عِثُّ الرِّيحِ
فقد فتح لي هذا السؤالُ باباً عرفتُ أن مولاي قد أعطى فلاناً مقوده، ومدّ إلى

(١) كذا في الأصل، ولعلها بمعنى: فترة الصائد؛ ولم ترد في المعاجم.

(٢) هما لعبد الصمد بن المعدل، كما سيأتي بيانه بعد قليل، وليس في ديوانه.

مُغازلته يده، ولزم مضجعه، وتوفّر على الخلوات معه؛ فقلتُ: خبرٌ يحتملُ الصّدق والمين، ووقفتُ حائراً بين هذين، حتى عرفتُ اشتهاً ذلك؛ وأنّ الأخ غضب منذ أيام قليلة، وبات في القرافة^(١) بأسوأ ليلة، فلم أدر كيف أُعتبُ مولاي وألوم، ولا كيف أقعدُ في التّأنيب له وأقوم؛ وهو الحياء الذي إذا انثلم فقد انهدم، وإذا تصدّع فقد ذهب أجمع، والمعيشة التي من المروءة حفظُ موادّها، وصلاحُ فسادها، ومع ذلك فالبيتان المذكوران لعبد الصمد [بن] المَعْدَل، في كلمةٍ يقولُ فيها^(٢): [مجزوء الكامل]

هتفت به نُذُرُ المشايـ	بِ فغضُّ من غُربِ الجِماح
هيهات ملّت إلى النُّهى	وأجبت داعية الفَلاح
وجعلتُ من وردِ التُّقى	كأس اغتباقي واصطبّاحي

وقد كان مولاي باستحسان هذه الأبيات أليق، وهي بصفته أعبق؛ وكأني به إذا بلغ إلى هذا الفصل من الرُّقعة، أنشد قول الخطيم بن مُحَرَز^(٣): [الطويل]

وما لامني في حُبِّ عَزّةٍ لائمٌ	من الناس إلا كان عندي من العدئ
ولا قال لي: أحسنت إلا حمدهُ	بما قال لي ثم أتخذتُ له يدا

ولا أتعدّي هذا الحد حرفاً^(٤)، أن أجني ذنباً عظيماً، وأولم قلباً بشهادةٍ لله عليّ كريماً.

ومنه قوله:

(١) القرافة: خُطّة بالفسطاط من مصر. (معجم البلدان ٤/ ٣١٧).

(٢) الأبيات - مع البيتين السابقين - ليست في ديوانه.

(٣) كذا ورد اسمه في الأصل؛ وهو الخطيم المحرزي العكلي، والبيتان من قصيدة له في الفصوص

٢١٠/٤ ومنتهى الطلب ٢٥٣/٣ وأشعار اللصوص ١٥٦/١.

(٤) كذا، ولعلها خوفاً.

وأما الفصل الأخير، فأعلمُ واللهِ أنه صدر عمن احتسنى من كأس المساهمة، وجلّيت لي بؤده وجوه الدهر الساهمة؛ وأنا أؤملُ بفضل الله تعالى أن يقع من غير إرهابٍ، وتتواصل لديّ بغير حسابٍ، حفظاً للعادة التي حكم بها كرمه، وتمت معها عندي الآؤه ونعمه.

ومن شعره قوله: [الكامل]

ألقى بكفيّ جُذوةً في دُرّةٍ	والليلُ يخطرُ في هلالهِ أُرّه ^(١)
أُختُ النجومِ تشعّشعاً وولادةً	سُرقتُ محاسنَ وصفهِ في سُكرهِ
فضرائمُها من خَدّه، وحياتها	من ثغره، ونسيمُها من نشرهِ

ومّا أورد له ابنُ بسامٍ قوله^(٢): [الكامل]

ما زال يختارُ الزمانُ ملوكه	حتى أصابَ المصطفى المتخيّر ^(٣)
قُلْ للألئى ساسُوا الورى وتقدّموا	قُدماً: هَلُمُّوا شاهدوا المتأخّرا
إن كان رأيُ شاوره أحنفاً	أو كان بأسٌ نازلوه عنّترا
ولقد تخوَّفك العدوُّ بجهدِه	لو كان يقدرُ أن يرُدَّ مُقدراً
إن أنت لم تبعثْ إليه ضُمراً	جُرداً بعثتْ إليه كيداً مُضمراً
تَسري وما حملتْ رجالٌ أبيضاً	فيه ولا أدّرتْ كُماةً أسمرا
خطروا إليك فخطّروا بنفوسهم	وأمرت سيفك فيهم أن يخطرا
عجبوا لحلمك أن تحوّل سطوةً	وزُلالَ خُلُقك كيف عاد مُكدراً
لا تعجبوا من رِقّةٍ وقساوةٍ	فالنارُ تقدحُ في قضيبٍ أخضرا

و منه قوله :

(١) لست على ثقة من ضبط الشطر الأول، ولعلها: ... من دُرّة .

(٢) الذخيرة لابن بسام ٦٤٩/٢/٤ ووفيات الأعيان ٩٠/٢ والوافي بالوفيات ٦٩/١٢ .

(٣) في الأصل : ما زال يحتال X .

ولما كان الشناء أحسنَ ما تُدارُ عليه الكؤوس، وتُنقشُ له الأقلامُ في الطُّروس، وجب أن يُطلق في هذه الحلبة الأرسان، ويستخدم في أداء فرضها اللسان.

٩- ومنهم: القاضي الفاضل: [السريع]

وليس لله بمسـتنكرٍ أن يجمع العالم في واحد^(١)
هو منهم، لا بل هم منه؛ وكلُّ ما قيل في محاسن من تقدّم، فإنّما هو
عنه^(٢): [الطويل]

وإن جرت الألفاظ يوماً بمِدْحَةٍ لغيرك إنساناً فانت الذي نعني
وهو: الفاضل مُحبي الدين، أبو علي، عبد الرَّحيم بن الأشرف أبي الحسن عليّ
ابن الحسن [بن الحسن] بن أحمد بن الفرّج^(٣)، اللّخميّ، العسقلاني المولد، عُرف
بالبيساني^(٤)

* كان سلفه من بيسان^(٥)، وولي أبوه قضاء القضاة والخطابة بعسقلان،

(١) البيت لأبي نواس، في ديوانه ١٨٥/١ (فاغنر)

(٢) البيت لأبي نواس، في ديوانه ١٢٩/١.

(٣) في الاصل: بن أبي الفرّج.

(٤) ترجمته في: الخريدة (قسم مصر) ٣٥/١ والتكملة للمندري ٣٥١/١ ت ٥٢٦ ومعجم الأدباء ١٥٦٢/٤ والروضتين ٤٧٢/٤ ووفيات الأعيان ١٥٨/٣ وسير أعلام النبلاء ٣٣٨/٢١ وتاريخ الإسلام ٢٤٤ [وفيات ٥٩١-٦٠٠] وطبقات الشافعية الكبرى ١٦٦/٧ والوافي بالوفيات ٣٣٥/١٨ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ والبداية والنهاية ٦٩٨/١٦ وحسن المحاضرة ٤٨٧/١ وشذرات الذهب ٥٣٠/٦.

- توفي سنة ٥٩٦هـ.

(٥) كذا قال المؤلف رحمه الله تعالى، والامر بعكسه تماماً؛ فمولده وأصله بعسقلان، وكان والده ولي

الحكم والقضاء ببيسان ثم تولى بعسقلان.

وبيسان: هي قصبة غور الأردن من بلاد الشام.

واستخدم شاور^(١) القاضي الفاضل في ديوان المكاتبات مع الموفق ابن الخلال^(٢).

ومولده يوم الاثنين، خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمئة. هو والله البحر الزاخر، والبر الذي ما سلك طريقه أول ولا آخر، وما مثله هو ومن تقدمه إلا مثل النجوم طلع عليها الصباح، والكروم أولها زرجون وأخرها راح؛ بل الحدائد قبل تطبيق الصفاح، والموارد قبل تصفيق الرياح؛ تقدموا قدامه وغرقوا في سيله، وخلقوا قبله وجأؤوا في ذيله؛ وكل وصف قلت في غيره، فإنه تجربة الخاطر، هو أكثر من كل قول، وأكبر من مقدار كل طول. لقد صادف هذا الاسم منه الاستحقاق، لفضائله التي تبلجت تبلج الصباح في الآفاق؛ لقد وطد ملك الدولة بآرائه، جمع السيوف والأقلام تحت لوائه؛ وكان يناضل بجلادة عن حماها؛ يرتشف الزلال من رتي قلمه، وتلتحف الظلال بسحب نعمه؛ وله في الإنشاء تفنن، منه ما يروع الخيل صهيلاً، ومنه ما يروق عذبا سلسبيلاً؛ يفت العنبر على سطورره، ويفوت الجوهر طل منشوره؛ تعقد رسائله راحاً براح، وجنى جناته بجنى تفاح، وتلتقط في مهارقه بنفسج من أقاح؛ أطرب من مناجاة الندام، وأطيب من معاطاة المدام؛ طالما كتب جماناً، وكبت أغصاناً، ولان فاجتنى عسلاً، وقسي فانبرى أسلاً، يسجع كالحمام، ويصرع كالحمام، وقد سطر بحسناته الصحف، وصورت من حسانه ذوات القلائد والشئف؛ وطرق النجد والوادي، ونطق به المداح والحادي، وحاضر به الحاضر والبادي، وسامر به السامر وترنم الشادي؛ وغادر له الأرض مذهباً مذهباً، وغادى الغوادي مصوباً مصوباً، وسار مقرباً، مقرباً وصار للمشرق مشرقاً

(١) شاور بن مجير بن نزار الهوازني، كان والياً على الصعيد، ثم وزر للعاضد الفاطمي؛ كان سيء

السيرة، استعان بالفرج فقتله صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ (الوافي بالرفيات ٩٥/١٦).

(٢) ابن الخلال: يوسف بن محمد، أبو الحجاج، الملقب بالموفق، صاحب ديوان الإنشاء بمصر زمن

الحافظ الفاطمي، توفي سنة ٥٦٦هـ. (وفيات الأعيان ٢١٩/٧).

وللمغرب مُغْرِباً.

فأما ما يُؤثر عن أقلامه، فهو النَّافِثُ لِلسَّحَرِ فِي عُقْدِهَا، وَالْمُنُورُ لِلْأَبْصَارِ
بِكَحْلٍ إِثْمَدِهَا؛ فَضَحَ الزَّهْرَ بِكَلِمِهِ، وَفَتَحَ الْأَقَالِيمَ بِقَلَمِهِ، وَكَتَبَ فِيهَا لَا يُعْقَبُهُ
نَدَمٌ، وَبَارَى قَلَمُهُ السُّيُوفَ، فَفَعَلَ أَكْثَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَتَلَطَّخْ بِدَمٍ؛ كَمْ نَكَّسَ رِمَاحَ
الْكُفْرِ فَقَصَّصَ أَصْلَابَهَا، وَفَصَّمْ أَسْبَابَهَا، وَغَزَاها بِأَسْطَرِهِ ففَلَّ جُيُوشَهَا، وَثَلَّ
عُرُوشَهَا، وَحَطَّ صُلْبَانَهَا، وَحَطَّم قُرْسَانَهَا، وَأَعَادَ بَيْعَهَا مَسَاجِدَ، وَصَوَامِعَهَا
مَعَابِدَ، وَبَدَّلَ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، وَأَسَكَّتِ النَّاقُوسَ لِلْأَذَانِ، وَعَزَّلَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ
لِلْقُرْآنِ، وَقَسَى عَلَى الْقِسَاقِسَةِ^(١) وَأَرْهَبَ الرُّهْبَانَ؛ وَكَاتَبَ الْخِلَافَةَ، فَكَانَتْ
سُطُورُهُ حَلِيَّةَ شَعَارِهَا، وَسَوَادُ مَدَادِهِ سُوْدَدَ فَخَارِهَا، وَتَأَخَّرَ السَّهْمُ وَتَقَدَّمَ، وَخَرَسَ
مُجَاوِبُهُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ تَكَلَّمَ؛ وَحَضَرَ مَوَاقِفَ الْحَرْبِ، فَكَانَ فَارِسَهَا الْبَطْلَ، وَرَأْيُهُ سَيْفُهُ
الضَّارِبَ، وَمَوَاضِعَ الْحِصَارِ، وَكَانَ مَنْجِنِقُهُ الرَّامِي، وَيرَاعُهُ سَهْمُ الصَّائِبِ، وَكَانَ
هُوَ الْحَرَكُ لِلْعِزَائِمِ النُّورِيَّةِ^(٢) عَلَى تَطْهِيرِ مِصْرَ مِنْ دَنْسِ أَوْلَئِكَ الضُّلَّالِ^(٣)، وَدَرَنَ
تِلْكَ الْأَيَّامَ اللَّيَالِ، بَلْ كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ اللَّيَالِي، لِتَرَائِكُمْ ظِلَامَ تِلْكَ الْبَدْعِ، وَتَفَاقُمِ
ضِلَالِ ذَلِكَ الدِّينِ الْمُبْتَدِعِ.

وَلَقَدْ كَانَ وَهُوَ فِي دِيْوَانِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ يَتَحَرَّقُ عَلَى كَشْفِ بَدْعِهَا، وَكَفَّ
شُنْعَهَا، وَكَرَّ جُنُودَ اللَّهِ عَلَى شِيعِهَا؛ وَوَقَفْتُ عَلَى قَصِيدَةٍ كَتَبَهَا إِلَى الشَّهِيدِ نُورِ
الدِّينِ ابْنِ زَنْكِي رَحِمَهُ اللَّهُ، يَقُولُ فِيهَا^(٤): [الطويل]

وما بعدِ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ وما بعدَ هَذَا الْمَالِ مَالٌ فَيُكْتَسَبُ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ. وَجَمَعَ قَسٌ: قَسُوسٌ، وَقَسْبِيسُونَ، وَقَسَاوِسَةٌ. (القاموس)

(٢) يَقْصِدُ السُّلْطَانُ الْعَادِلُ نُورَ الدِّينِ الشَّهِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(٣) يَقْصِدُ الدَّوْلَةَ الْفَاطِمِيَّةَ.

(٤) دِيْوَانُ الْقَاضِي الْفَاضِلِ ٤١٧.

ولو أنه في البأس يمضي أو الندى لهان ولكن في المغاني وفي الطرب
وكانت الأجوبة النورية ترد عليها ، فيرى بها في تلك الظلمات نورا ، ويرتب
على مقتضاها أمورا ؛ ثم كانت دخول العساكر الأسدية^(١) إلى مصر ، باستدعاء
شاور في المرتين وفي الثانية استقرت قدمها ، واستمرت والأيام خدمها ، وهنالك
علا النجم الفاضلي وسعد جدّه ، وصال والسيوف جندّه ؛ وعلى ذكره ذكرت
شعرا كنت قُلتُهُ ، جاء^(٢) فيه ذكره استطرادا ، وهو : [السريع]

أتى بها السّاقى فيا مرحبا ^(٣)	إذ جاء بالمحمول والحامل ^(٣)
ببابلِيّ اللحظ قد زارنا ^(٤)	بقهوة صفراء من بابل ^(٤)
مدامة ما عتقت حقة	إلا من العام إلى قابل
صاغ من الدّير لإبريقها	قللدا من ذهب سائل
وطوقت في الرج تيجانها	بلؤلؤ في كأسها جائل
كانها ممزوجة لونه	مغيراً من خيفة العاذل
تأخذ منا كلنا ثارها	ومالها إلا على القاتل
رقت فقلنا: إنها ريقه	في الكأس أو من خصره النّاحل
دقيقة المعنى على [.....]	الحاظه أو صنعة الفاضل ^(٥)

ولما أثر العاضد إقامة أسد الدين شيركوه عنده ، وهو إذ ذاك مُقدمُ الجيوش
النورية المُجهزة إليه ، كتب الفاضل عنه إلى نور الدين كتاباً ، وقفت عليه بخطّه
ومنه نقلت ، ومضمونه :

(١) يقصد العساكر الشامية بقيادة أسد الدين شيركوه .

(٢) في الأصل : كافيه ١١ .

(٣) في الأصل ... وقد ا مرحبا X ١ .

(٤) في الأصل ... قدرانا ١X .

(٥) كذا في الأصل ...

من عبد الله ووليّه عبد الله الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى الملك العادل، المعظم، الزاهد المجاهد، المؤيد، المنصور، المظفر، نور الدين، ركن الإسلام والمسلمين، عمدة الموحدين، قسيم الدولة، مجير الأمة، عضد الملّة، حافظ الثغور، غياث الجمهور، قانع الملّحين، قاهر المشركين، خالصة أمير المؤمنين؛ رفع الله به منار الدين، وأعلى بعزائمه رايات الموحدين، وأحسن توفيقه في خدمة أمير المؤمنين:

سلامٌ عليك؛ فإنّ أمير المؤمنين يحمّدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصلّي على جدّه محمد صلّى الله عليه وعلى آله الطّاهرين، الأئمة المهديين، وسلّم تسليمًا؛ أما بعدُ:

فإنّه عرضت بحضرة أمير المؤمنين مكاتبتك التي أدت بها واجب حقه، وقُمت بمفترضه، وصدرت عن قلب شفاه الدينُ بهديه، من داء الضلال ومرضه، وتؤمّلت بمقرّ جلاله ومحلّ أمانته، التي منح الله بها الدين مزية إكماله؛ فصرف إليها أمير المؤمنين سمع الإصغاء وطرفه، وعرف منها أرج الولاء الصادق وعرفه، ووقف عليك من لطيف ملاحظاته ما يُديم النعم، وأهدى إليك من شريف دعواته ما إذا حصل لك جمع المسلمين عمّ.

فأما تلقيك أوامره بالامتثال، وإنابتك عن العزم الذي ضربت به الأمثال، وأضربت عنه الأمثال، وتجريدك العساكر التي شدّت من الموحدين، وشادت مباني الدين، ونكص العدو بخبرها قبل نظرها، وانصرف عن بلاد الإسلام بأخزى خجله وأظهرها، وتقديمتك عليها من ارتضاه أمير المؤمنين لارتضائك، وانتضاه في يد الحقّ تيمناً بانتضائك، وأمضى عزمه في تقليد ملكه إذ علم أن عزمه مشتقّ من مضائك، فقد شكر الله وأمر المؤمنين لك —أيها الملك العادل—

هذا الأثر، وذخر لك منه حسنة لم تبسم عن مثلها تُغور الصّحائف والسّير، وميزك على ملوك الشّرق والغرب بفضل هذا النظر؛ ونصرت الدين الحنيف، والبيت الشّريف، وعند ما ترك الحسنى نشهدُها فتُغني عن الإيضاح والتعريف، وهدمت الباطل حين أرسى خيامه، وثبت الحق حين هفت أعلامه، واخترت لخدمة أمير المؤمنين من هو مكان الاختيار وفوقه، وحملت العبء الثقيل من يستقل به ويحمل أوقه، وقلدت الأمر الجليل من لا يُعجز قدرته وطوقه؛ ووردوا إلى الفناء النبويّ بيض الوجوه بنصر واضح، شم الأنوف بتفريغ غمّة (١) الخطب الكالح، جذلى القلوب بصفقة العمل الرَّابح الصّالح، ظاهرة عليهم آثار آدابك الحسنى، بادية فيهم أنوار صوابك الذي ليس فيه مُستثنى ﴿لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) وقد كانت جنایات من تقدم نظره (٣)، عظمت عن الاحتمال، وتجاوزت إلى الدّين بعد أن تجاوزت المال، وظهرت أمارات استنصاره بمن استنصر به بالأمس، وتعويله على ما نزه الله أمير المؤمنين أن يكون به راضي اللسان والنفس، لأن الله استخلفه لاستقامة كلمة جدّه، واكتفى بهديه وهدى آله عن أن يُقَفَّى برسولٍ من بعده، وحينئذٍ بدت للمُشار إليه سوءاته، وأحاطت به خطيئاته، وقصّرت في مجال الحياة خُطواته، ولقي عن كُثب حتفه، وأصبح نكالا لما بين يديه وما خلفه؛ فهنالكَ أجمع أمير المؤمنين والمؤمنون على تقليد السيّد الأجلّ، الملك المنصور وليّ الأئمة مُحيي الأمة، سُلطان الجيوش، أسد الدّين، كافل قُضاة المُسلمين، وهادي دُعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدّين، وأمتع

(١) في الأصل : شم الأنوف بتفريغ غمرة الخطب . ١٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٤ .

(٣) يقصد شاور .

بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قُدرته، وأعلى كلمته، أمر وزارته، وناط به أمانة سفارته، وأطلق يده بسيف الجهاد، وقلم الاجتهاد، وتدبير ما تحويه المملكة الفاطمية من البلاد، وكفله أمر خدمته التي استحقها بارتياح الرشاد، ورأى أن يكبت عدو الدين باصطفائه، ويكف عادية الشرك باستكفائه؛ واختار لتقدمه عساكره، من اخترته أيها الملك العادل لتقدمه عساكره، واستهدى منك هذه الجوهرة المعدومة من جواهره، واستنزلك عن هذه الذخيرة المصونة من ذخائرك، وآثر أن تؤثر به دولته التي تعد نصرتها من مآثره؛ ولثقة أمير المؤمنين أنك تسمح له بكرائم لا يجود بها إلا من كان كريماً، وتقسم بينك وبينه النجدة التي دعي بها والدك الشهيد رحمة الله عليه للدولة قسيماً^(١)، أمضى هذا الرأي لما وضح صوابه، وانتهاز فرصة هذا التوفيق لما فُتح بابه، ورآه القوي الأمين فاستأجره للإسلام وأهله، ومدّ عليهم ما كانت أعينهم ممدودة إليه من ظل عدله؛ ولما تمسك به المسلمون، لم يغلّ منه أيديهم المشدودة عليه؛ ولما اغتبط به أهل الدين، لم يصرفهم عما هداهم الحظ إليه، وأمره أن يعدّ لحرب الفرنج عدته، ويأخذ لغز وهم أهبته، ويطلبهم براً وبحراً، ويوسع لقتالهم درعاً وصدراً، ويُدبل الإسلام من هدنة تظلم منها إلى الله سرّاً وجهراً؛ وحرّت^(٢) وأمير المؤمنين يراها مصاباً يحتسب فيه عند الله جزاءً، وعهد إليه أن يُعمر الأساطيل التي تقطع عن العدو الإمداد، ويُعمر سُجون الدولة بالكافرين مقرّنين في الأصفاد، وأن يسكن المدن التي جنى عليها التدبير العاجز، ويثقل المعازل التي كانت خالية المراكز؛ لتكون أيها الملك العادل من وراء هذا العدو الكافر مستأصلاً، ويكون وزير أمير المؤمنين للغارات عليه والغزوات إليه مواصلاً، فيقطع في الشرك سيف الله

(١) كان عماد الدين زنكي والد السلطان نور الدين يلقب قسيم الدولة.

(٢) كذا في الأصل، وأراها زائدة.

بحدية، ويميس الإسلام في نُصرة بُرديه، ويبطش الحق في أعدائه بكلتا يديه، وغير بعيدٍ من معونة الله أن تخفق على البيت المقدس رايات الدولة الفاطمية، وراياتك التي تُعدُّ من راياتها، وتوجف عليها خيولها وخيولك التي النصرُ أحدُ غُرورها وشيائها، وناخذ للملّة الحنيفة بطوائلها من طُغاة الكُفر وبُغاتها، ويُجري الله الدولة العلوية في النُصرة العلوية على ميراتها وعاداتها؛ فمن الآن قيل للونبة: اذهبي، ونادى الإسلام: يا خيل الله اركبي، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (١) ﴿وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢).

وأمر المؤمنين يؤثر أن تؤثر دولته بهذا السيد الأجل لتكون أيها الملك قد نصرته نصراً دائماً، وقضيت من طاعته فرضاً لازماً، وسررتُه غائباً بحاضره، ووكلت بخدمته من ينوبُ عنك في النصر المتظاهر، وأن تُكاتبه بإلزامه بمقامه، وتُهديه إلى دولته التي اغتبطت باستخدامه، وتُهوّن عليه روعة فراقك؛ فإنّها مُلفتةٌ وجهه إلى شامه، وتسليه بثواب طاعة أمير المؤمنين التي فرضها الله بصريح كلامه، وتبعثه على ارتباط عدة من عسكريك المسير معه؛ يعاضدُ عساكر الدولة العاضدية، وتزدادُ بها القوة، وتتضاعفُ الحمية.

ولولا ما مُنيت به البلاد من تعاقب جوائح الجذب، وتناوب قوادح الحرب، وارتفاع الأسعار وعلوه، وعزّة الأقوات وغلوها، لاستزدنا قوّة إلى هذه القوّة من عسكريك المؤيدة، ولما رأينا إعادة أحدٍ منهم، بل بذلنا لهم الإقامة المؤبدة، ولكن إقامة من تحملهُ البلادُ وتتسع له المواد، ويؤدى به ما فرضه الله سبحانه من الجهاد، مما تنتظم به بمشيئة الله الميامنُ والمناجحُ، وتقرُّ أعينُ المسلمين بما يقضيه ويقتضيه من المنافع والمصالح، ويؤدى به ما يجبُ لله ولرسوله في خلقه من

(١) سورة الحج: ٤٠ وتتمتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

(٢) سورة الحديد: ٢٥ وبدايتها: ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.

الحقوق والنصائح، ويُستكملُ به ما ابتدئتهُ من العمل الصالح.
والله سبحانه يُمدُّك أيُّها الملكُ العادلُ، المُعظمُ، الزَّاهدُ، المُجاهدُ، المؤيَّدُ،
المنصورُ، المظفَّرُ، نورُ الدين، رُكنُ الإسلامِ والمسلمين، بمزيد نصره، ويحوطُك
بمُعَقِّباتٍ من أمره، ويجعلُك ممن أخلصَ له في سره وجهره، ويُحسنُ عن أمير
المؤمنين مجازاتك، ويُديمُ لدولته ذبُّكَ عن حوزتها ومُحاماتك.

فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته.
وكتبُ ثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمئة.
والعلامةُ بين سطره الأولين بالخطِّ العاضديُّ «اللَّهُ رَبِّي».

فعاد الجوابُ الثوريُّ على العاضدِ بامتنال ما أمر، وتكفل أسدُ الدين
بحماية غيله واستمر، وكان ابنُ أخيه صلاحُ الدين قد قتلَ شاور، وقال الفاضلُ:
قتلَ شاور وما شاور؛ قلتُ: وشاورُ وما شاورُ؟ وكتب بالخطِّ الفاضلي عهد أسدِ
الدين شيركوه بالوزارة، ولُقِّب الملك المنصور، وكتب عليه العاضدُ بخطِّه^(١): هذا
عهدٌ لا عهد لوزير بمثله، وتقليدٌ طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلاً لحمله،
والحجةُ عليك عند الله تعالى بما أوضحه لك من مرأشده سُبُلُه؛ فخذ كتاب أمير
المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك اعتزَّت بأن اعتزَّت إلى بنوة
النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ
جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾^(٢).

ثم واثت أسد الدين منيته، وعاجله أجله، وولي ابنُ أخيه صلاحُ الدين.

(١) الروضتين ٢٤/٢ وصبح الأعشى ٤٠٦/٩ - ٤٠٧ وسنا البرق الشامي ٧٩-٨٠.

(٢) سورة النحل: ٩١.

وكتب هذه بالخط الفاضلي، ولقب الملك الناصر، وكتب عليه العاضد بخطه^(١):

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله عليك، فأوف بعهدك ويمينك، وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضاً بيمينك، ولمن قضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة، ولمن بقي بتقلبنا أعظم سلوة، ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(٢).

ثم كان الفاضل رحمه الله، هو الدولة الصلاحية؛ كان كاتبها، ووزيرها، وصاحبها، ومشيرها، والحامل لكلها، والحاكم في كلها، والمجمر لبُعوثها، والمتنر عند إقعاء ليوثها، والدائرة به مناطق بنيها، والسائرة به شمس أيامها وبُدور لياليها؛ فلهذا أذعنت لقلمه الرماح، وطلبت صلح كلمه الصفايح، وانقضت تلك الأيام وما فيها إلا بكر عشايا أو غرر صباح، ومع هذا كله كان لا يزال منكداً مبتلىً، بضنى^(٣) قلبه وجسمه، ومرض همه وسقمه؛ يذكر هذا في كتبه وترسلاته، وشكواه إلى إخوانه وأخذانه، ومما كتب في ذلك:

ولا يسأل سيدنا عن خاطرٍ تزدحم فيه الأخطار، وعن ضلوعٍ تسرح على النار، وقلت: قد عدم الصفاء في دار الأكدار، وجسم قد قارب أن يخلع المعار من الأعمار؛ ولقد دبّ الفناء في عضواً عضواً، وأخذني الزمان جزءاً جزءاً، فكل يوم يذهب مني شيءٌ بعد شيءٍ، ويكثر شبهي بالميت فيبعد عن الحي، ونعود بالله من نار غضبه، فإن آخر الخالط الكي.

(١) الروضتين ٧٤/٢ وصبح الأعشى ٤٠٧/٩.

(٢) سورة القصص: ٨٣.

(٣) في الأصل: وضنى...

قلت: ولهذا كان لا يتكلفُ مع السلطان سفراً في كل مرة، وإنّما كان العمادُ ينوبُ عنه؛ فإذا سافر كان هو المسافرُ للسلطان إذا ركب، والمسامرُ إذا جلس، وكان إذا تأخر عن السلطان في بلدٍ ناب عنه فيه، أو كان ردءاً لمن ينوبُ من إخوة السلطان وبنيه، ويكونُ هو القائمُ بالملك، القائلُ بالحياة والهلك.

ومما بلغ من سُلطانه، ما حدّثني به أبو المحاسن بن عبد الله الكاتب المصري، قال: سمعتُ محيي الدين بن عبد الظاهر، يحكي عن ابن قُريش: أن الفاضل صاحب السلطان مرة في سفرٍ، فنزلوا منزلاً رُخو الأرض كثير الطين، وتوالى به المطرُ، وتعدّر السلوك بين خيمة السلطان وخيمة الفاضل، إلّا على من يسلكه بمشقة، فأمر السلطان بنقل خيمته، وأن تُضرب إلى جنب خيمة الفاضل، ويُفتح بينهما بابٌ حتى لا يقطع بينهما الوحلُ، ولا ينزعج الفاضلُ عن مُستقره؛ وكان إذا غاب عن السلطان تكاتبا، وبينهما مُترجمٌ بقلم توافقا على المُصطلح عليه، فكانا يتكاتبان به ويتخاطبان على بُعد الدّار بلسانه.

وكان القاضي الفاضلُ يكتبُ إلى سُلطانه، ويشفع فيما يُريدُ، كما يشفعُ الصّاحبُ إلى صاحبه، والصّدّيقُ إلى صديقه؛ وكان يُسلمُ في كُتبه التي يكتبُها إلى السلطان على من أراد من أولاد السلطان أو إخوته.

ووقفتُ له من ذلك على كُتبٍ كثيرةٍ، منها ما هو بخطّ يده، ورأيتُ في بعضها أجوبة السلطان، وفي بعضها حُرُوفُ المُترجم بخطّ الفاضل، وخطّ السلطان بإزائه.

ورأيتُ كتاباً كتبه إلى السلطان، وسلم فيه على ولده الملك العزيز عثمان، وقال فيه:

والملك العزيزُ -أعز الله الدّينَ بجهاده- بين يدي المولى، مخصّوصٌ بتحيةٍ

يُفضُّ لديه ختامُها، ويخصُّ وفور الشوق غرامُها^(١): [الكامل]

بتحيّةٍ قد جئتُ فيها أولاً	ومن اقتفأها كان بعدي الثاني
تهدئُ لذي النورين لا تُخطي الضحى	تسري ركائبُها إلى عثمان
ورسولي السلطان في إبلاغها	والناسُ رُسُلُهُم إلى السلطان

*وأما ما يدلُّ على شيءٍ من حال أوله: فوقفْتُ بخطه على ما صورته:

كانت بين والدي رحمه الله وبين المرتضى الطرابلسي مُتولي الديوان بعسقلان، هنأت ارتضعا أفوايقها، ولزما مواثيقها، فصحبا بها الأعمار، وحكّما فيها الأعمار، فكانت حربها سجلاً، وأيامها أحوالاً، إلى أن قضى الله سبحانه أن سبقه والدي إلى الحمام، وفرغت منه قبله الأيام؛ فقال لي رحمه الله وقد انقطع الحبلُ من يده، وعلم أن يومه لا يدفعه إلى غده: ما أرى فلاناً إلا سيوفيك ما أسلفته، ويقضيك الوعد الذي أخلفته؛ فقلتُ: أرى أن يُكاتب بكتاب، تُثبت فيه بخطك أسطراً، وتُحلب فيه من الوعظ أشطراً، وتجعله كالوصية؛ فإن الذي بينكما من العداوة، قد أشبه المودّة لطول المدّة؛ فقال: هيهات، عناء ما وراءه غناء، ورقّة لا تُحلُّ بها ربقّة، ولو أفردت الله تعالى بقصدك لكفاك، وأنت وذاك؛ فمثّل لي هذه المعاني والأقوال، وكان الحال في عدم النفع على ما قال.

والرسالة^(٢): [الطويل]

ونم بعد أخذ النّار عني فطالما قطعت بي الدنيا وأنت مُسهّدُ
كتب العبدُ هذه الجملة - جعل الله لحضرة سيدنا البقاء الذي لا يحلُّ الغيرُ

(١) ديوان القاضي الفاضل ٥٠١. والأول والثالث في: الروضتين ٤٧٩/٢ وصبح الأعشى ٤١/١.

- ورواية الثاني في الأصل: يهدي بذئ النورين لا تخطي الضحى X يسرى ركائبها إلى عثمان.

(٢) البيت ليس في ديوان القاضي.

ساحته، والأمد الذي لا يحصر العدد مساحته— وقد تقدّمها إلى محلّ المحاكمة، وجثا قبلها في موقف المخاصمة، ورفع الظّلامة إلى من لا يجوز عليه ولا منه الأحكام الظّالمة، وأسمع داعي الرّحيل شفاهها، ونأت به الدّار وشطّبت نواها، ووضعت الآمال من يده عصا سُرّاهَا، واستردّت الأيام ما فرقته في جُملةٍ، وأشرفت به على موردٍ يطول بوارده النّهلة؛ وحسّن الظن بالله تعالى قد وطأ تحت جنبه مهاداً، وآتسه عند النزول بلحده فرادى، وما سوى ذلك فمتى أخذ ضيفُ الكريم زاداً؛ والحمدُ لله الذي نقل عبده من دار فناءٍ إلى دار بقاءٍ، ومن محلّ حجبهِ إلى محلّ لقاءٍ، ومن الإقامة مع مُسيءٍ يُخافُ جوانبه، إلى القدوم على مُحسنٍ تُرجى مواهبُهُ؛ وقد كان حُكمُ القضاء سبق، وسهمُ القدر مرق، بتلك الهنات التي نال فيها ونيل منه، والأغراض التي حامت عنها وحُميت عنه، والدّهْرُ فيها يومان، والحربُ بها طعمان، فيومٌ يكونُ له متحملٌ فيكون ظفْرُهُ مشبهاً بالهزيمة، ويومٌ يكونُ عليه مُتحملاً فيكونُ هزيمتهُ مشبهةً بالغنيمة؛ هذا وقد كانت هذه الحضرة—وطاعتُها تعصيتها— تُكثرُ الجراح، وتناولُ يدها عنان الجمّاح، ويبقى لإيلامها فيه آثارُ الصّفاق، فما مات حتّى ماتت حقوقُها، واعتلّ من طولِ الضراب حديدُها، وقد بقي بعد أن رأت بعده، وتجاوزت في الحياة حدّه، أمران هُما آخرُ رتبة اللّوم، وأقصى غاية اللّوم، وهي الشّماتة، وتلك خديعةُ الطبع العاجز، وطبيعةُ الخرق الخانز^(١)، وبديعةُ لا يركبُها من مركبهِ الجنائز؛ وما لجرحٍ بميتٍ إيلام^(٢)، وتلك سبيلُ لستٍ فيها بأوحد^(٣)؛ والأخرى

(١) الخانز : المتن. (القاموس).

(٢) من قول المتنبي. [ديوانه ٩٤/٤]

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجَرَحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ

(٣) من قول الوليد بن عبد الملك [التذكرة الحمدونية ٣٧/٥]

تَمْنَى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمِتَ فَتَلِكُ سَبِيلُ لَسْتِ فِيهَا بِأَوْحَدَ

تتبع الخلف بجناية السلف، وأخذ الوارث بجزيرة المورث، وهذه مُحافَظَةٌ في العداوة، ومطاوَعَةٌ على القساوة، فيها لحكم الله ردُّ ظاهرٍ، وجرأةٌ عليه تُعجلُ عُقبى الجائر، وسوءُ مقدرةٍ لا تبعدُ أن يغضب لها القادرُ، واستعنافُ حرب خاسرها الرابعُ ومخذولها الظَّافِرُ؛ وقد أكثر الناسُ المدح لحفظ موات الأموات، ومُصافاة أهل العظام والرُّفات؛ فإِما المكافأة وهم في كُفاة اللُّحود، أو المظاهرة بالعداوة لهم وهم في ضمائر القُبور رِقودٌ؛ فما عهدٌ مهدهُ البدعةُ قائمٌ، ولا على هذه الشرعة حائمٌ، وحوشيت من أن تُحشر من بين الأمة أمة وحدها، وتُطيع العصبية فتُجاوز سمت المروءة وتتعدى حدَّها.

هذا وقد استفتحتُ الخطاب ببيتٍ، إن ألمَّ بما ألمَّ به في معناه، فإنه لا يُريدُ أن يتبعه بما يُشيدُ مبناه، وهو أنها رأت في صحائف التجارب وتواريخ الأعاجيب، أنه قل ما تقاول فحلان، وتصارول بطلان، إلا استويا في الدنيا النصيبين، وكانا إلى منهالٍ من وردهما قريبين، وكان سابقهما طليعة التالي، وأولهما مُقدِّمة الثاني؛ وإذا كان الله قد أفردا بمدِّ طلق البقاء، وخلفها لينظر كيف تعملُ فيما أمتعها به من النعماء، فالأولى أن تحفظ عبدها في أيتامه، وتُخلف عليهم ما غرمه في أيامه، وتصون مُخَلَّفِيهِ من هتك الأستار، وحطُّ الأقدار، وتشفي من لا خلاق له من الأشرار، وتُعطيهم بما أطال الله من دُبول أنوائها، وتحتسب بالحسنة فيهم مع ما كثر الله من ذخائر ثوابها، ولا يُزعج مُخَلَّفُوهم بالشكوى إليه في الدَّار التي ثوى بها، فإنَّها بحيثُ ترفعُ الظُّلَّامة إلى قريب، من مكانٍ قريبٍ، وإن سمع الميتُ ولم يُجب فإن الله يسمع ويجيب: [الطويل]

تقصي الذي قد كان بالأمس بيننا وأسكتني دهري فهل يسكت الدهر
وهو يُحلُّها من كل ما ارتكبت فيه، وأطاعته من موارد الأوهام إن حفظت

وصية الله تعالى السابقة لوصيته في هؤلاء الأيتام؛ فأما إن أتبعنا القادحة بالقادحة، وأشبهت الليلة بالبارحة، فالحسابُ يبقى عليها مدة بقائها بعده، ويفضلُ به عندها ما لا تجدُ فضلُه عنده، لانقطاع عمله واتصال عملها، وإغضاء طوله وامتداد طولها، وعند الله تجتمعُ الخصومُ^(١)، ويُضربُ على يد الظُّلوم ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾^(٢).

* وأما نشره فمنه قوله:

وقد كان يقال: إن الذهب الإبريز لا تدخلُ عليه آفةٌ، وأن يد الدهر البخيلة عنه كافةٌ، وأنتم -يا بني أيوب- أيديكم آفةٌ لا تُقايِسُ الأموال، كما أن سيوفكم آفةٌ تُقوسُ الأبطال، فلو ملكتمُ الدهرَ لأَمْطِيتُم لياليه أداهم، وقلدتُم أيامه صوارم، ووهبتُم شُموسه وبدوره دنائير ودراهم؛ وأوقأتكم أعراسٌ، وكان بما تم فيها على الأموال مآتم؛ والجودُ خاتمٌ في أيديكم، ونقشُ حاتم في نقش ذلك الخاتم.

ومنه قوله:

أدام الله أيام الديوان العزيز ممهدةً لمن رضيت^(٣) عنه درجاتُ الجنة، منتشرة على من سخطت عليه كواكب الأسنة، مُغرقة لمن يغرقُ في طاعتها بحار الأعنة، مُبشرة النفس المتطامنة لولائها بأنها النفسُ المطمئنة، وأُسبغ نعمه فإنَّ النعم في ضمنها، وملا الآمال بمنِّها، وأفاض أنوارها التي قد علم قرنُ الشمس أنه غير قرنها، وأمضى سيوفها التي تُعربُ فيغرقُ ضميرُ النصر في لحنها، وأعلى آراءها التي تلتقي العداة بدرع يقينها، وتلقى الغُيوب بسهم ظنها، ولا برحت راياتها

(١) من قول أبي العتاهية: [ديوانه ٣٥٥]

إلى دِيَّانِ يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

(٢) سورة ص: ٦٧.

(٣) في الأصل: وضفت

سويداوات قلوب العساكر، وأجنحة الدُّعاء المُحلَّق إلى السماء من أفق المنابر.

ومنه قوله:

سرنا وروضة السماء فيها من الزهر زهرٌ، ومن المجرة نهرٌ، والليل كالبنفسج
تخلله من النجوم أقاحٌ، أو كالريح شمله من الرُّمح جراحٌ، والكواكب سائراتُ
المواكب لا مُعرَّس لها دون الصُّباح، وسُهيلٌ كالظمآن تدلِّي إلى الأرض ليشرب،
أو الكريم أنف من المُقام بدار الذلِّ فتغرب، فكأنه قبسٌ تتلاعب به الرياح، أو زينةٌ
قدمها بين يدي الصُّباح، أو ناظرٌ يغمضه الغيظُ ويفتحه، أو مغنى يغمصه^(١)
الحسنُ ثم يشرحه، أو صديقٌ لجماعة الكواكب مُغاضبٌ، أو رقيبٌ على المواكب
مُواظبٌ، أو فارسٌ يحمل على الأعقاب، أو داعٍ به إليه وقد شردت عن الأصحاب؛
والجوزاء كالسُّرادق المضروب أو الهودج المنسوب، أو الشجرة المنورة، أو الحبر
المصورة؛ والثريا قد همَّ عنقودها أن يتدلَّى، وجيش الليل قد همَّ أن يتولَّى.

ومنه قوله:

وأما النيلُ فقد ملأ البقاع، وانتقل من الإصبع إلى الذراع، فكأنما غار على
الأرض فغطَّها، وأغار عليها فاستقعدها وما تخطَّها، فما يوجد بمصر قاطعٌ
طريقٍ سواه، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إياه.

ومنه قوله في جواب كتاب بعثه العمادُ الكاتب^(٢) في ورقٍ أحمر، فقطعت
العربُ الطريق على حامله وأخذوه، ثم أعادوه:

ووصل منها كتابٌ بآخر جرابه، لأن العرب قطعوا طريقه، وعقُّوا عقيقه، ثم
أعادوه وما استطاعت أيديهم أن تقبض جمره، ولا ألبأهم أن تسيع خمره، ولا

(١) يغمصه: يحقِّقه ويتهاون بحقه. (القاموس).

(٢) العماد الكاتب: سنائي ترجمته بعد ترجمة القاضي الفاضل مباشرة.

سَيُوفُهُمْ أَنْ تَكُنْ يَتِيمَتَهُ، وَلَا عَرَاضُهُمْ أَنْ تَأْخُذَ لَطِيمَتَهُ؛ فَقَطَفَ وَرَدَهُ مِنْ شَوْكِ أَيْدِيهِمْ، وَحَيَا حَيَاةَ الَّذِي جَلَّ عَنْ وَادِيهِمْ، وَحَضَرَ مِنْهُ حَاضِرُ الْفَضْلِ الَّذِي مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِالْغَرِيبَةِ فِي بَوَادِيهِمْ، وَتَشَرَّفَ مِنْهُ بِعَقِيلَةِ الْأَنْسِ الَّتِي مَا كَانَ اللَّهُ لِيَمْتَحِنَهَا بِقَتْلِ وَادِيهِمْ، وَسَأَلَتْهُ: بَأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتُ؟ وَأَيُّ شَفَاعَةٍ فِيكَ قُبِلْتُ؟ فَقَالَ: عَرَفْتُ الْأَعْرَابُ بِضَاعَتِهَا مِنَ الْفَصَاحَةِ، وَتَنَاجَدْتُ أَهْلُ نَجْدٍ فَكُلُّ صَاحٍ: يَا صَبَاحَهُ، وَقَالُوا هَذِهِ حَقَائِقُنَا السَّحَرِيَّةُ، وَهَذِهِ حَقَائِقُنَا الشَّحَرِيَّةُ، وَهَذِهِ عَقَائِدُنَا السَّرِّيَّةُ مَحْمُولَةٌ، وَهَذِهِ مَوَارِيثُ قَيْسِنَا وَقُسْنَا الْمَأْمُولَةُ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ الْفَصَاحَةَ تَنْتَقِلُ عَنِ الْأَنْسَابِ، وَإِنَّ الْعِلْمَ يَنَالُهُ فُرْسَانُ فَارَسٍ وَلَوْ كَانَ فِي السَّحَابِ^(١)، فَدَعَوْا عَنْكُمْ ثَمَرًا عَلِقَ بِشَجَرَاتِهِ، وَاتْرَكُوا نَهَبًا صَبِيحَ فِي حُجَرَاتِهِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ؛ ثُمَّ لَمَسَتْهُ عَلَى الشَّعْثِ، وَأَحْلَلَتْ بِهِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ، فَاسْتَبَاحَ الطَّيِّبَ وَحَاشَاهُ مِنَ الرَّفَثِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

وَالْأَسْرُ ذُلٌّ مَا بَعْدَهُ عِزَّةٌ، وَأَثَرُ السَّلْسَلَةِ يَمْنَعُ مَعَاطِفَ الْهَزَّةِ، وَالْمَلْسُوعُ يَفْزَعُ مِنَ الْحَبْلِ، وَالْجَرِيحُ يَعْلَمُ أَنَّ الْجَرْحَ بَابُ الْقَتْلِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

وَقَدْ طَيَّبَ لِمَالِيكَ الْحَيَاةَ فِي إِنْعَامِهِ، وَهُوَ عَلَيْهِمُ الْمَمَاتُ لثَقَّةَ كُلِّ مِنْهُمْ بِاهْتِمَامِهِ بِأَيْتَامِهِ؛ فَالْوَارِثُ يَرِثُ مِنْ أَبِيهِ النَّسَبَ، وَمَنْ كَرَّمَ مَوْلَانَا النَّشَبَ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

(١) يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَ الدِّينُ مَعْلَقًا بِالثَّرِيَا، لَنَا لَهُ رَجَالٌ مِنْ فَارَسٍ». (ذَكَرَ أَخْبَارَ أَصْبَهَانَ ٣/١).

وَبُورَتْ رِمَاحٌ نَصَلَهَا الطَّعْنُ، فَكَانَهَا غُصُونٌ قُطِعَتْ أَزْهَارُهَا؛ وَيُغَادِرُ غُدْرَانُ
الدِّمَاءِ فَكَانَهَا رِياضٌ عَطَفَتْ أَنْهَارُهَا.

وقوله من رسالة يصف آمد^(١):

وَأَمْدٌ ذَكَرُهَا مِنَ الْعَالَمِ مُتَعَالِمٌ، وَطَالَمَا صَادَمَ جَانِبُهَا مِنْ تَقَادَمٍ، فَرَجَعَ عَنْهَا
مَقْرُوعاً أَنْفَهُ وَإِنْ كَانَ فَحَلًّا، وَفَرَّ عَنْهَا فَرِيداً بِهِمَّةً وَإِنْ اسْتَصْحَبَ خَيْلاً وَرَجُلًا؛
وَرَأَى حَجَرَهَا فَقَدَّرَ أَنَّهُ لَا يُفَكُّ لَهُ حَجَرٌ، وَسَوَادُهَا فَظَنَ أَنَّهُ لَا يَفْسُخُهُ فَجَرٌ، وَحِمِيَّةُ
أَنْفٍ أَنْفَتَهَا فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لَزَجْرِ مِنْ مَلُوكٍ كُلِّهِمْ قَدْ طَوَى صَدْرُهُ عَلَى
الْغَلِيلِ إِلَى مَوْرِدِهَا، وَوَقَفَ وَقْفَةُ الْمَحَبِّ السَّائِلِ فَلَمْ يَفْزُ بِمَا أَمَلَ مِنْ سُؤَالٍ مَعْهَدِهَا.
وَلَهُ مِنْ أُخْرَى يَصِفُهَا:

وهي العقيلة التي صدر الصدر الأول محللاً عن ورودها، والخريدة التي
حصل منها على راحة يأسه وتعب طردتها؛ والمحجبة التي كشفت ستورها، ودار
لعصمتها كسوار معصمها سورها، وغلت على أنها السوداء على خطابها لأن
المهيج مهورها؛ ولربما نأى بجانبها الإعراض، ونبا جوهرها عن الأعراض، وطاشت
دون أوصافها سهام الأغراض؛ ودرجت الملوك على حسرتها، فلم تحسر لها لثاماً،
ولا استطاعت لثغرها ثلماً ولا له التثاماً.

وله من أخرى يصف قلعة نجم^(٢)، وهي من عيون الرسائل، منها:

هي نجمٌ في سحابٍ، وعُقابٌ في عقاب^(٣)، وهامةٌ لها الغمامة عمامة، وأتملةٌ

(١) آمد: قصبة ديار بكر، وأعظم مدنها. (معجم البلدان ١/٥٦). والنص في الروضتين ٣/١٥١.

(٢) قلعة نجم: قلعة حصينة مطلة على الفرات، على جبل، تحتها روض عامر، وعندها جسر يُعرف

بجسر منبج (معجم البلدان ٤/٣٩١).

(٣) العقاب - بالضم - : طائر معروف. والعقاب - بالكسر - : جمع عقبة.

إذا خضبها الأصيلُ كان الهلالُ لها قلامَةً، عاقدةٌ حبوةً صالحها الدهرُ أن لا يحُلها
بفرعةٍ، ناديةٌ عصمةً صافحها الزمنُ على أن لا يُروعها بخلعةٍ، فاكتنفت به
عقاربُ منجنيقاتٍ لم تُطبع بطبعِ حمص في العقارب، وضربتُها بحجارةٍ أظهرت
فيها العداوة المعلومَة في الأقارب، فلم يكن غيرُ ثلاثةٍ إلا وقد أثرت فيها الحجارةُ
جدرِيًّا بضربها، ولم تصل إلى السابعة إلا والنَّجرانُ مؤذُنٌ بنقبتها، فاتسع الخرقُ
على الراقع، وسقط سعدُهُ عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالعٌ، وفُتحت
الأبراجُ ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا، وَسَيَّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ (١).

ومنه قوله:

ومن اعتقل خصماً فقد ملك قيادَهُ، وأمن شرادَهُ، وصارت تحت ختمه، وحبس
جسمه في حصنه، وقلبه في جسمه؛ وإذا كان الله قد أعطانا البلاد وهي آلهُ
المقيم وأعطاهم المراكب، هي آلهُ الظَّاعن الهارب، فقد علمنا لمن عُقبى الدار؛ وقد
نقلهم الله نقل قوم نُوحٍ من الماء إلى النَّار، وقد وريت بمولانا للإسلام زنادٌ، وذاك
الزَّنادُ هو السيفُ القاضِبُ، [و] المُستطيرُّ من شرره هو دفعُ الدَّمِ السَّاكِبِ.

ومنه قوله:

وعرف المملوكُ ما يُكا بدُهُ مولانا، وكلُّ يُعينُ الله، وما تغلو الجنَّةُ بثمن؛
ومن عرف ما يطلبُ هان عليه ما يبذلُ، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ﴾ (٢) الغمراتُ ثم ينجليه (٣)؛ فإنَّك نصلُ والشَّدائدُ للنَّصلِ، وكلُّما اشتدَّ

(١) سورة النبأ : ١٩-٢٠.

(٢) سورة آل عمران : ١٣٩.

(٣) المثل من رجز للأغلب العجلي . (مجمع الأمثال ٥٨/٢ وجمهرة الأمثال ٨٠/٢).

الحناقُ قوي اليقين؛ إنَّ الله يُريدُ يعظُم موضع الفرح: [الكامل]

والحادثاتُ وإنَّ أصابك بؤسها فهو الذي أدراك كيف نعيمها^(١)

لا زعزعتك الخطوبُ يا جبل؛ كل ما يمرُّ بمولانا من المغائظ ومن تثاقل الأولياء يتحملة ويحملة الله، ويعلم أن الطباع البشرية يستولي عليها الضجر، ويعلم أن الذي يطلبه من الناس أعظم من الذي يدفعه إليهم؛ فإنه يعطيهم الأموال ويطلب منهم الأرواح، ولابدَّ من تلطف الترفيه فيمن يُستنزَل عن نفسه، وأين من يجودُ بها؟ ألا قليلٌ ما هم: [من الوافر]

وقد كانوا إذا عُددوا قليلاً فقد صاروا أقلَّ من القليل^(٢)

ومنه قوله:

فسُبْحان من جعل آراءه في الظُّلُمات مصابيح، وفي المُشكلات مفاتيح، ويده إذا امتطت الأقلام بارت الغمام، وإذا اتَّشحت بالأعنة بارت الريح؛ وبابُ مولانا ميدانُ العلى، ومجلسه معرضُ الحلَى، وتُرابه غرر وجوه السادة الألى.

ومن أخرى في فتح بيت المقدس، شرفه الله تعالى، ومنها^(٣):

وأتينا المدينة من جانب، فإذا هو أودية عميقة، ولججٌ وعمرٌ غميقة^(٤)، وسورٌ قد انعطف عطفة السَّوار، وأبرجةٌ قد نزلت مكان الواسطة من عُقر الدار، وقدم المنجنيقات التي تتولَّى عقاب الحصون، عُصيها وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب ولا تُفارقها سهامها ولا نصالها، فصافحت السور، فإذا سهامها في ثنايا

(١) البيت لابي تمام في ديوانه ٢٧٣/٣.

(٢) البيت بلا نسبة في ربيع الأبرار ٥٨٩/٢ والصدقة والصديق ٩٥ والمستطرف ٣٧٦/٢ والروضتين ١٧٧/٤.

(٣) وفيات الأعيان ١٨٤/٧ والروضتين ٣٥٩/٣ وصبح الأعشى ٥٠١/٦ و٢٨٦/٨.

(٤) أرضٌ غميقة: كثيرة الأنداء وبئة. (أساس البلاغة). وفي مصادر النص: غريقة.

شُرَفَاتِهَا سَوَاكُ، وَقَدْ قَدِمَ النَّصْرُ نَسْرًا مِّنَ الْمُنْجِنِيقِ يَخْلُدُ إِخْلَادَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَيَعْلُو
عُلُوَّهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَشَجَّ مَرَابِعَ أَبْرَاجِهَا، وَأَسْمَعَ صَوْتَ عَجِيجِهَا، وَرَفَعَ مِثَارَ
عَجَاجِهَا، وَأَسْفَرَ النَّقَّابُ عَنِ الْخَرَابِ النَّقَّابِ، وَأَعَادَ الْحَجَرُ إِلَى خَلْقَتِهِ الْأُولَى مِّنَ
الثَّرَابِ، وَمَضَغَ سَرْدَ حَجَارَتِهِ بِأَنْيَابِ مَعُولِهِ، وَأَظْهَرَ فِي صِنَاعَتِهِ الْكَثِيفَةَ مَا يَدُلُّ
عَلَى لَطَافَةِ أُنْمُلِهِ، وَأَسْمَعَ الصَّخْرَةَ الشَّرِيفَةَ أُنَيْنَهُ، إِلَى أَنْ كَادَتْ تَرُقُّ لِمَقْتَلِهِ.

وَلَهُ أَيْضًا مِّنْ أُخْرَى:

فَنَصَبْنَا عَلَيْهَا الْمُنْجِنِيقَاتِ تُمَطَّرُ سَمَاءُهَا نِبَالُ الْوِبَالِ، وَتَمَلَأُ أَرْضُهَا بِالنَّكَايَةِ
وَالنَّكَالِ، وَتَهْدُ بِسَارِيَاتِ حَجَارَتِهَا رَاسِيَاتِ الْجِبَالِ، وَتَنْزِلُ نَوَازِلُ الْأَسْوَاءِ
بِالْأَسْوَارِ، وَتُوسِعُ مَجَالَ الدَّوَائِرِ فِي الدِّيَارِ، وَتَخْطِفُ بِخَطَافَاتِهَا أَعْمَارَ الْأَعْمَارِ؛
وَتَطِيرُ حَمَامُهَا بِكُتُبِ الْحِمَامِ، وَتُدَيِّمُ إِغْرَاءَ سَهَامِهَا فِي أَهْلِهَا بِتَوْفِيرِ سَهَامٍ؛
وَكَشَفِ النَّقَّابُونَ السُّرُورَ الْمَحْجُورَ فَتَهْدِمُ بُنْيَانَهُ، وَتَدَاعَتْ أَرْكَانُهُ، بِتَظَاهُرِ
الْمُنْجِنِيقَاتِ عَلَيْهَا وَالنُّقُوبِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

فِي لَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ^(١)، لَهُ أَتْجَمُ كَحَبَبِ النَّهْرِ، قَدْ حَشَرَ الْهُمُومَ وَحَشَدَهَا،
وَهَدَى ضَوَائِلَهَا لِلْقُلُوبِ وَأَنَشَدَهَا، فَأَقُولُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ^(١): قَطَعَ اللَّهُ صُلْبَكَ؛
وَمَتَى أَرَى عُمُودَ الصَّبَاحِ: قَدْ عَجَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ صُلْبَكَ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

وَلَنَا مِنَ الْجَيَّرَانِ مَنَ يَجُورُ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ إِلَى اللَّهِ لَنَ يَحُورُ، وَيُصَدِّقُ وَعْدَ

(١) اقتباس من قول امرئ القيس في معلقته: [الطويل]

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

الشیطان، وما یعدّه الشیطان إلا الغرور، ویصدرُ عنه کُلُّ عظیمۃ المورّد، ویجهل أن الله علیمٌ بذات الصدور، ویظُنُّ أنه یرثُ الأرض، وینسى ما کتب الله فی الزبور، وینشدُ ضالة الولاية بجیشه وبيته وما یُقبل بیتٌ مکسورٌ، ولا یضمن النصر جیشٌ مکسورٌ.

ومنه قوله:

والمسؤول أخذُ دستورٍ لملوکه للحجّ فی هذه السنة، فقد جفا بیت الله جفوة طویلة، واشتاق إلى زورةٍ، وتماُمها أن یكون المولى فیها الوسيلة، وقد تحقّق المملوک أن المولى یُلبیه ولا یحرّمه، فکاد یُلَبّي ویُحرّم، ولولا أن ذکره و ذکر والده کمسُ المسک، لکان على هذا العزم یُتمم ویحزم، وما ینقطعُ مرافقُ خدمه ولا منافعُ لسانه وقلمه عن الدولة الناصرية، فقد کان حجّ فحشد جیوش اللیل، وفوقوا سهام الأسحار، وأعانوا فی تلك السنة سلطان الدنیا وجنود النهار، وما یدّعی المملوک فی الدعاء رتبة المجاب، ولكن فی الحشد رتبة السمسار.

ومنه قوله:

فوضعتُ یداً فیهِ وقدماً على النجم، ورشفتُهُ على حرّ الوجد بارد الظلم، وصرفتُ به عن الخاطر کلّ همٍّ، فما باشرُهُ بعده ولا همّ.

ومنه قوله:

وأما خلعهُ الكرئى على العشاق^(١)، فهي عوائد سماحةٍ، ومن أشرق کإشراقه، فما یكونُ أبدأً فی ليله، إنما یكونُ فی صباحه، فما ضرُّهُ أن یهب ما لا

(١) من قول الشریف المرتضى: [دیوانه ٢/٢٠٢]

وخذا النوم من جفوني فإني قد خلعتُ الكرئى على العشاق

تدعو إليه حاجةً، وأن يخلع ديباجة كراه كما يخلع ديباجه.

ومنه قوله: وهم بأن يأخذ من كلام سيدنا في كتابه، فيعيد إليه حلاله؛ فإنه ما وجد لفضله أوصف من وصفه، ولا أكشف لبراعته من كشفه، ثم استحيا من ريبة يسود لها وجوه الأقلام، وأشفق أن يأكل أموال الناس بالباطل ويدلي بها إلى الحكام^(١).

ووصف أيضاً المنجنيق من رسالة، فقال:

فسلمت كأنها بنانٌ، ونضنضت كأنها لسانٌ، وأضاءت كأنها مارجٌ من نارٍ، واهتزت كأنها جانٌ، وتقومت كأنها سنانٌ، وانعطفت كأنها عنانٌ، وأقدمت كأنها شجاعٌ، وأحجمت كأنها جبانٌ، ورمت رؤوسهم الموقرة من أحجارها بأمثال الرؤوس المخلقة، فأعادتهم إلى الخلقة الأولى مخلقةً وغير مخلقة.

ومنه قوله:

وكان الثريا لجامٍ مفضضٌ في أدهم الليل، أو غشاءً حمله داهم السيل، أو جيبٌ جود زره اللباس، أو كفٌ تفصل الأفق على الليل بقياس.

ومنه قوله:

أطال الله بقاء المجلس إلى أن يقضي للكفر أعماراً، ويملك منهم رقاباً ودياراً، ولا يذر على الأرض منهم دياراً، ولا يصلوا أن يضلوا العباد ولا يبلغوا أن يلدوا فاجراً كفاراً^(٢)، وإلى أن يغرقهم من دمائهم في طوفانٍ، وإلى أن يعرضهم على الجذوع فيكونوا عنده صلبان كالصلبان.

(١) من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨]

(٢) اقتباس مما ورد في سورة نوح: ٢٦-٢٧.

ومنه قوله :

خدمة المملوكِ واصله من يد الشريف فلان ، وهذا الشريف قد زكى نسبه بأعمالٍ صالحة ، وعمله بسيرةٍ ناصحة ، وله عائلةٌ هي وإن كانت غلاً ، فقد فسحت خطاهُ في الانتجاع ، وبه فاقةٌ هو وإن كان في ضائقتهَا فقد بعثته في الأرض على الاتساع ، ولما قلب طرفه في سماء القصد ، هُدي إلى قبله مولانا التي يرضاها كل متوجهٍ ، وإلى هدف المدايح الذي تُسدّد إليه سهامُ كل أُلكنٍ ومُفوهٍ ، فإن رأى مولانا أن يُشفع فيه جدّه شافع البشر ، ويُلين حظّه فإن حظّه كالحجارة أو أشدّ قسوةً من الحجر .

ومنه قوله : (١)

ورد كتابُ المجلس ، ومرحباً بمقدمه وأهلاً بمنجمه ، والسوقُ تختلف نقود صروفه ، وتتنوعُ صنوفُ ضيوفه ، فلا بد أن تنبعض إذا انبعضت المسافات ، ولو أنه إلا بمقدار ما يدنو اللقاءُ على الرسول السائر ، بالكتاب الصّادر ، والخيال الزائر ، بالحبیب الغادر ، والنسيم الخاطر ، من رسائل الخواطر ، ويقرّبه طرف الناظر من الصديق الحاضر ؛ ووقفتُ على هذا الكتاب المُشار إليه ، وما وقفتُ عنه لساناً شاكراً ، ولا صرفتُ عنه طرفاً ناظراً ، وبلغتُ من ذلك جهدي وإن كان قاصراً ، واستفرغتُ له خاطري وما أعدّه اليوم حاضراً ؛ وما أُسرُّ به أن يكون في الخدمة السلطانية ، أعلاها الله ورفعها ، ووصلها ولا قطعها ، وألف عليها القلوب وجمعها ، واستجاب فيها الأدعية وسمعها ، من يُكثر (٢) قليلي ، ويشفي في تقبيل الأرض غليلي ، فإن تقبيل سيدنا كتقبيلي ؛ فلو شرب صديقٌ وأنا عطشانُ

(١) هذه الرسالة كتبها إلى النظام أمير حلب ؛ كما في نهاية الأرب ٨ / ٢ .

(٢) في الاصل : تكثير .

لأرواني، ولو استضاء بلمعة في الشرق وأنا في الغرب لأراني، كما أن الصديق إذا مسته نعمة وجب عنها شكره، وإذا وصلت إليه يد منعم وصلتني، وتغلغت إلي ولو كنت في قبري.

ومنها (١):

وأعود إلى جواب الكتاب: الأخبار لا تزال غامضة إلى أن نشرحها، ومقفلة إلى أن نفتحها، بخلاف حال خادمها مع الناس؛ فإن القلوب لا تزال سالمة إلى أن تخرجها، والهجوم خفيفة إلى أن ترجحها؛ وفي الخواطر في هذا الوقت أمور موجودة نجعلها في العدم، ونخرجها من الألم إلى اللمم، ونعادي بين الأسماع والألسنة، وبين العيون والقلم؛ والقلوب بيد الله سبحانه، وعليها بالاستجارة والاستخارة، فتلك تجارة رابحة، وكل تجارة لا تخلو من خسارة؛ والله تعالى يجمع كلمة المسلمين على يد سلطاننا، ولا يخلينا منه ومن بني حلي زماننا وسيوف إيماننا، ويسعدنا من أكابرهم بتيجان رؤسنا، ومن أصاغرهم بخواتم إيماننا؛ ولقد تفرغت العزمة الفلانية لهذا الكتاب (٢)، ولو ذكرت السلطان بالعدو فيرجم كلبه، ويكف غربه، ويذيقه وبال أمره، ويطفئ شرار شره، ويعجل له عاقبة خسره، فقد غاظ المسلمين وعضهم، وقتل جموعهم وفضهم؛ ولو جعل السلطان عز نصره غزو هذا الطاغية مغزاه، وبلاده مستقر عسكره ومثواه، لأخذ الله الكافر بطغواه، كما أخذ ثمود بطغواه، ولأبقى ذكراً.

وقوله (٣):

وللمودة عين لا يكحلها إذا رمدت إلا إثم مداد الصديق، وما في الصبر

(١) نهاية الأرب ٨/٣.

(٢) كذا في الأصل، وفي نهاية الأرب: لهذا الكلب.

(٣) نهاية الأرب ٨/٤.

سعةً لصحبة أيام العُقوق، بعد صحبة أيام العقيق؛ وقد بلغني أن ولد المذكور خدم في المجلس السلطاني، وسررتُ بأن يجتمع في خدمته الأعقاب والذراري، وتطلع في أفقه الأعمار والذراري؛ والله تعالى يحفظ علينا تلك الخدمة جميعاً، ولا يُعدمنا من يده سحاباً ومن جنبه ربيعاً، وللموداتِ مقرُّ ما هو إلا الألسنة، والقلوبُ قضاةٌ لا تحتاجُ إلى بينةٍ.

ومنه قوله يذكرُ كتاباً جاءه في ورقٍ أخضر:

ولما تناولته في الحلة الخضراء، مُخطراً بسريرة السراء، قلتُ: الله أكبر، من كان خاطره غيثاً رَوْض، وفاض فأعشب فذهب ففضض، وما شككتُ أنني دخلتُ الجنة لما فاض من أنهارها، وأفيض من سُندسها، أو طلعتُ إلى سماء الدنيا لما ملأ سمعي وعيني من شهبها وحرسها، ولا أنني قد جاءني رسالة الرّوض الأرج لما فغمني من نفيس نفسها؛ فقلتُ لصحيفته: ما هذه اللبسة الغريبة، والحلية الحبيبة والورقة، التي هزّت عطفِي في ورق الشبيبة بعد رداء المشيب، والريحانة التي لا يدعيها عذارُ حبيب؟ فقالت^(١): [المتقارب]

شققنا مرائر قوم [به] فنحن نُسمّيه شقّ المرارة

ومنه قوله:

وكيف ما حل أهل هذا البيت، فهم في كُل بيت صُدوره، وفي كل مطلع نجومه وبدوره، لا تُذلُّ أنوارهم بإشارة الأصابع، ولا تُبتذلُّ أقدارهم في مصونات المجامع؛ كأن الأرض بهم سماءً فإنهم طوالعها، وكأن الدنيا بهم رياضٌ فإن أوجهُهم دهرها، وأيديهم مشارعها.

(١) البيت للصنوبري في ديوانه ٧٨ والمستطرف ٢/ ٢٠٩.

ومنه قوله:

وقد أثمر هذا القلمُ أكرم الثمر وهو يابسٌ، وأبرَّ جوداً على أخضر المغارس،
وأتى أكله كلَّ حينٍ وكلَّ وقتٍ، وطال وإن كان القصيرُ يقصُرُ عنه كل نعتٍ؛
ووصل كتابه فأكرم به من ساق وحبیب، وخلوت به وليس علينا ولا بيننا من
الأنام رقيبٌ، وقبلتُ منه خدّاً بل يداً، وأجلُّه عن أن يكون نسيباً للنسيب،
وهزرتُ منه قضيب بانٍ للعلی يجتنیها بفتكة القضيب .

ومنه قوله:

والفترة مُسطرةٌ أن يُنفخ الروحُ في صريعها، ويُرشَّ نور الشمس على وجه
صديعها، وإلا فإنه مُغشىٌ عليه، مغشيٌ بليلٍ تحتهُ فقد قريب بنات نعشٍ إليه .

ومنه قوله:

ومن مُستهلٌّ ذي الحجة ما استهل من يده كتابٌ، ولا استقل من تلقاء جهته
سحابٌ، ولعل قلمه في الميقات قد أحرم، فلم يمسَّ الطيب من أنفاسه، ومسح
المداد عنه لتمام الإحرام بكشف رأسه، والآن فقد انقضت الأيامُ المعلومة، فهلاً
قضى عنا الأيام التي تبادت فيها شقوةُ العيون المحرومة .

ومنه:

وعليه السلامُ الطيبُ الذي لو مرَّ بالبهيم لأشرق، أو بالهشيم لأورق،
وكتبها الكريمة إن تأخرت فمامولةٌ، وإن وصلت فمقبولةٌ، وإن أنبات بشارٌ
فمشهورةٌ، وإن أنبات بسرٍ فمشورةٌ .

ومنه قوله:

وأما ما ذكره من القرض، فلم يزل القرضُ للذرية الأيوبية - أعادها الله من الانقراض - ميسم كرمها، وعنوان علو هممها؛ فبيوت أموالهم في بيوت رجالهم، وعقد أيامهم في قلوب خدامهم، والكنوز التي جعلها الماضون سبائك في الثراب، جعلها ملوكنا قلائد في الرقاب؛ فهم يتحملون بالقرض ويفتخرون؛ وإذا ادّخرت الملوك في أيدي أنفسهم مالا، فهؤلاء في أيدينا يدخرون.

ومنه قوله: (١)

وصل كتابُ الحضرة، وصل الله أيامها بحميد العواقب وبلوغ المآرب، وصحبت الدهر على خير ما صحبه صاحب، وأنهضنا بواجب طاعته فإنه بالحقيقة الواجب، وكل واجب غيره ليس بواجب، من يد فلان، ورجوت أن يكون طليعة إلى الاقتراب، ومُبشراً بالإياب، ومُخبراً بعودها الذي هو كعود الشباب لو كان يعود الشباب؛ وعرفت الأحوال جُملةً من كتابها، وكلها تشهد بتوفيق سلطانها، وبأيامها التي تعود بمشيئته بإصلاح شأنه وشأنها، والذي مدّه ظلاً يمدّه فضلاً؛ فالفضل الذي في يديه في يد خلق الله، والذي أحالهم بالرزق عليه، فكيف ما دعونا له [دَعَوْنَا] لأنفسنا، وكيف ما كانت أسنّة رماحه فهي نُجومُ حرسنا، فلا عُدّت أيامه التي هي أيامُ أعيادنا، ولا ليلاليه التي هي ليلالي أعراسنا (٢).

ومنه قوله:

وهذا أُنْفَقَ لا مطار فيه إلا للعقاب وابنه، وبحرٌ لا مسبح فيه إلا لمن يُخرجُ الدُرَّ من فيه ويُدخلُ البحرَ في رُده؛ وما عنيتُ بالبحر هنا إلا يدهُ الكريمة، فأما البحر فلم أعنه؛ وأغرقتني في البحار وأنجيتني منها، وعرفتني وزن خواطر البلغاء،

(١) نهاية الأرب ٦/٨.

(٢) في الأصل: ليلالي عرسنا.

ولولا عروضُ خاطره لم أزنهها؛ زاد الله في هذه الأنفاس، وفديتُ هذه العقائل
التي أيامي بها أعيادٌ ولياليٌ أعراسٌ.

ومنه قوله:

وما يأتيني من المجلس من ذكر مُحدثٍ يُسرُّ به المُحدثُ، وخبر يتأثَّلُ به الآنسُ
ويتأثُّ، إلا استمعتُهُ؛ ولسمعي على قلبي المنَّةُ، وفتحتهُ كأنما فُتحت لي أبواب
الجنة، وتناولتهُ كأنما تناولت كتابي بيمينِي، ورفعتهُ فكأنما رُفِعَ التاجُ فوق جبينِي،
وقابلتهُ بالحمد فكأنه عرضُ كاتبه، وقرنتُهُ باللثم فكأنني ظفرتُ بيد صاحبه.

ومنه قوله:

وأصدرتُ هذا الكتاب مقصوراً على أجوبة كُتبه التي كتبت لي عُهدة
الشكر، وأباححت في شهر الصَّيَّام كؤوسها السُّكر.

ومنه قوله: وكتبتهُ وشعبانُ قد وصل إلى أعقابهِ، وقمرهُ المحقوقُ قد بعثهُ
رمضانُ بكتابه؛ فجمع الله لسيدنا منهما كلَّ خير يستحقُّ جمعه، وأعلى يدهُ
التي سألها الكرمُ لم تر منعه.

ومن أجوبيته^(١):

ورد على الخادم - زاد الله أيام المجلس وأصفهاها من الأكدار، وأبقى بها من
تأثيراته أحسن الآثار، وأسمع منه وعنه أطيب الأخبار، وجعل التوفيق مُقيماً
حيث أقام، وسائراً أينما سار - كتابهُ الكريمُ، الصَّادرُ عن القلب السليم، والطبع
الكريم، والباطن الذي هو كالظَّاهر، كلاهُما المُستقيم، ولا تزال الأخبار عندنا

مُحْجَمَةٌ، والأحاديثُ مُستعْجَمَةٌ، والطُّنُونُ مترجحةٌ، والأقوالُ مسقمةٌ ومصحَّحةٌ، إلى أن يرد كتابه فيُحقِّق الحقَّ ويُبطل الباطل، ويتضح الحالي ويُفتضح العاطل، ويُعرف الفرقُ ما بين تحرير قائل، وتحوير فائل، فتدعو له الألسنة والقلوبُ، وتستغفرُ بحسناته الأيامُ من الذنوب، والشجاعةُ شجاعتان، شجاعةُ في القلب، وشجاعةُ في اللسان، وكلاهما لديه مجموعٌ، ومنه وعنه مرويٌّ ومسموعٌ، وذخائرُ الملوك هم الرجالُ، وآراءُ الحزماء هي النُصاالُ، وموداتُ قلوبهم هي الأموال، ومجالسُ آرائهم هي المعركة الأولى التي ربّما أغنت عن معارك القتال؛ والله تعالى يُجدِّدُ للمُسلمين به حالاً يجمعهم على جهاد الكُفار، ويلهمهم أن يبذلوا في سبيله النفس والسيف والدرهم والدينار، ويُزيلُ ما في طريق المصالح من الموانع، ويفطم السُيوف عن الدماء الإسلامية ويُحرِّمُ عليها المراضع، ويجعل للمجلس في ذلك اليد العُلى والطريقة المُثلى، ويجمعُ له بين خير الأخرى والأولى؛ والأحوالُ هاهنا بمصر مع بُعد سُلطانها، وتماذي غيبته عن سائر شأنها، على ما لم يُشهد مثله في أوقات السُكون، فكيف في أوقات القلق، وعلى ما يحفظ الله به من في البلاد من الجموع، ومن في الطُّرقات من الرِّفق.

ومنه قوله :

ومن اللُّطف في كون الحضرة كتبتها عجلة، وروَّجتها مُرتجلة، وأصدرتها في حالة المُتبدل، ولم تُعرها ناظر المُتأمل، وإلا فلو [تأنيت] (١) لأرسلت البوارق والصواعق؛ وما أصنع؟ وما كلُّ من جاشت بحاره، وقذف دُرَّة بحاره، أغرق الإخوان في لججه، وأخرس اللهجان بحُججه .

ومنه قوله :

(١) الزيادة لازمة.

وصل كتابُ الحضرة لا زالت رياضُ ثنائها مُتفاوحة، وخطراتُ الردى دُونها مُتسارحةً، والليالي بأنوار سُعودها مُتألّفة، والأيامُ الجافية عن بقية الفضل منها مُتجافية؛ باركة للمجد منها فيه، يتخير إليها المُكرّماتُ إذا لم يكن لها فيه، فأنشده ضالة هُدى كان لنشدانها مُرصدًا، ورفع له ناراً مُوسوية، سمع عندها الخطاب، وآنس الخبر، ووجد الهدى؛ وكانت نارُ الغليل بخلاف نار الخليل، فإنّها لا تقبل ندئ الأجفان بأن يكون برداً وسلاماً، ولا يُزيدها نداها إلا كانت أضرى ما كان ضرماً.

ونعودُ إلى ذكر الكتاب الكريم: وسجد لمُحاربه وسلّم، وحسب سُطوره مباسم تبسّم، ووقف عليه وقوف المُحبّ على الريح يُكلّمه ولا يتكلّم، ويُبطلُ جفنه وكأنّ جُمادى بدمعه وكأنّ على خده المُحرّم؛ فالله المسؤول لها في عاقبة حميدة، وبقية من العمر مديدة؛ فإنّها الآن نُوحُ أهل الأدب، وطوفانها العلم الذي في صدرها، ولا غرو أن يبلغ عُمره كعُمُرها، على أنها طالما أقامت الحدّ على الدنيا حتى بلغت في حدها الثمانين، وأدبت الأيام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السّلم من قلمها تأديب المجانين، وما حملت العصا بعد السيف إلا وقد وضعت الحرب أوزارها، ولا استقلت بأنه موسى إلا لتفجّر الخواطر وتضرب أحجارها، وما هي إلا رُمحٌ، وكفى بيدها لها سناناً؛ وما هي إلا جوادٌ يحتثُ السّنين خلفها، فتكونُ أناملها لها عناناً.

ومنه قوله (١):

ورد كتابُ الحضرة السامية، أحسن الله لها المعونة، ويسّر لها العواقب المأمونة، وأنجدها على حرب الفئة الكافرة الملعونة، يُخبر بخُروج الخارج من قلعة

كذا، وما صرَّح به من الخوف الذي ملأ الصدور، والاستحثاث في مسير العسكر المنصور؛ وكلُّ قضيةٍ وردت على القلوب، ففزعت فيها إلى ربِّها فَرَجَتْ فَرَجَهُ، وأذكى لها اليقين سُرْجَهُ، ولم تشرك معه غيره مستعاناً، أو لم تدع معه من خلقه إنساناً؛ فما القضية وإن كانت مُنْذِرَةً إِلَّا مُبَشِّرَةً، والخُطَّةُ وإن كانت وعرةً إِلَّا مُبَشِّرَةً؛ لا جرم أن هذا الكتاب أعقبه وصولٌ خبر نهضة فلان نصر الله نهضاته، وأدَّى عنه مفترضاته، واستنهض العساكر، وقوبل العدو الكافر، فنفس ذلك الخناق، وتماسكت الأرقام؛ وما أحسب أن الأمر يتمادى مع القوم؛ بل أقول: لا كرب على الإسلام بعد اليوم؛ يتوافى بمشيئة الله ولأه الأَطْراف، ويُرْقَلُ من نفس العدو وسمعه ما استشعره من المسلمين من الخلاف، ويجتمعون إن شاء الله على عدوهم، ويُذهب الله بأهل دينه ما كان من فساد أعدائه في أرضه وعُلُوهم؛ وقد شممنا رائحة طلب الهدنة بطلب الرسول، وبخبر هلاك ملك الألمان الذي هو بسيف الله مقتولٌ، والموت سيفُ الله على الرقاب مسلولٌ.

ومنها:

فأما ما أشار إليه من القلاع التي شحنها، والحصون التي حصَّنها، والأسلحة التي نقلها إليها، والأقوات التي ملأ بها عيون مقاتليها ويديها، فإن الله يَمُنُّ عليه بأن يسره لهذه الطاعة، ورزقه لها الاستطاعة، فكم رزق الله عبداً رزقاً حرمه منه، وفتح باباً من الخير وصرفه عنه؛ الآن والله مَلِكُ المَلِكِ العادلُ ماله الذي أنفقه، وأودعه لخير مستودعٍ من الذي رزقه؛ وشتان بين الهمم همّة ملكٍ ذخر ماله في رؤوس القلاع لتحصين الأموال، وهمّة ملكٍ أودع ماله في أيدي المقاتلة لتحصين القلاع^(١): [الكامل]

(١) البيت ليس في ديوان القاضي. وما بين حاصرتين زيادة يستقيم بها الوزن والمعنى، من نهاية الأرب.

ببني الرجال [وغيره] ببني القرى شتان بين مزارع ورجال
والحمد لله الذي جعل ماله^(١) له مسرة، يوم يرى الذين يكتزون الذهب
والفضة المال عليهم حسرة؛ ما أحسب أحداً من هذه الأمة إن كان عند الله من
أهل الشهادات بين يديه، وإن كان كريم الوفاة لديه، إلا تلقاه شاكراً لهذا
السُّلطان، شاهداً بما يولي هذه الأمة من الإحسان ﴿وفي ذلك فليتنافسِ
المتنافسون﴾^(٢).

سيحصد الزارعون مازرعوا، والله يزيدُه توفيقاً إلى توفيقه، ويُلهمُ كلَّ مسلمٍ
القيام بمُفترض بره، ويُعيذه من محذور عُقوبه؛ وأنا أعلم أن الحضرة تفرد لي
شطراً من زمانها المُبهم، بكتاب الله تكتبه إليّ، وخبر سارٍ تُورده عليّ؛ وأنا أفردُ
شطراً من زمانٍ لشُكرها، وأُسِرُّ والله لها بتوفيق الله في جميع أمرها، فإنَّ الذَّاكر
لها بالخير كثيرٌ، فزاد الله طيب ذكرها.

ومنه قوله:

والمشكوُّ في هذا الوقت وجع المفاصل وآلامها وأورامها، فيديّ منها في
جامعةٍ، ورجليّ منها في واقعةٍ، وأعضائي كلّها قد رابتني بعد صحةٍ، وصارت لما
تمَّ عليها من أيدي الرّاقين والذّاكرين كأنها خرزاتٌ سُبحةٍ، ولقد سئمتُ تكاليف
الحياة، وسهّلت عليّ تخاويف الوفاة، وحملت الأيام على ظهري حمل الخطب،
فما يسوى أن تشتعل فيها نارٌ أجلّ يكون من الأنفاس المزعجة ذاتُ لهبٍ، وما
أغرِبتُ على الأيام في تهجّمها، ولا جاءني آياتُ الكبر في غير مَوْسمها؛ ومن
استضاء بسراج المشيب مسته اللّيلي في ظلّمها، فقد صرعتني الأمراضُ،

(١) في الأصل: آماله.

(٢) سورة المطففين: ٢٦.

وصدعت عظمي المنهاض.

اللهم لا أشكو إلا إليك، ولا أسأل إلا أنت، ولا أثبتُ عبادك ما بي من بلائك، إلا لأستلزم إليك الشفعاء، وأستدعي منهم الدعاء؛ فإن دعوتك من حقها أن يُنظف لها الوعاء؛ فاما طاحونة مدينة الجسد وهي الأسنان، فبعض السن ظعن مع السن، وبعضه بقي منه جذم غير مرجح، وما كنت أدري ما معنى قيد الحياة إلى أن قيدتني المفاصل بوجعها، وعلة النقرس بتسفلها وبرفعها؛ وأنا الآن بالحقيقة في ضد الحياة إحساساً، ولايس جسم قد كرهته النفس لباساً.

ومنه قوله (١):

ورد كتاب المجلس السامي، نصر الله عزائمه، وأمضى في رؤوس الأعداء صوارمه، وشد به بُنيان الإسلام ودعائمه، واسترد به حقوق الإسلام من الكفر ومظالمه، وأخلف نفقاته في سبيل الله ومغارمه، وجعلها مغائمه؛ وكان العهد به قد تطاول، والقلب في المطالبة ما تساهل، ولحتُ اشتغاله بالطاعة التي هو فيها وما كل من تشاغل تشاغل، فهناك الله بما رزقه، وتقبل في سبيل الله ما أنفقته، وعافى الجسم الذي أنضاه في جهاد عدوه وأخلفه، وقد وفق من أتعب نفساً في طاعة من خلقها، وجسماً في طاعة من خلقه؛ فهذه الأوقات التي أنتم فيها أعراس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهوور الحور في دار القرار؛ قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلّفه وهو خير الرّازقين﴾ (٢).

وأما فلان وما يسره الله له وهوته عليه من بذل نفسه وماله، وصبره على المشقات واحتماله، وإقدامه في مواقف الحقائق قبل رجاله، فذلك نعمة الله عليه،

(١) نهاية الأرب ٨ / ١٠.

(٢) سورة سبا : ٣٩.

وتوفيقه الذي ما كلُّ من طلبه وصل إليه؛ وسواد^(١) العجاج في تلك المواقف
بياض ما سودته الذنوب من الصحائف ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً
عَظِيماً﴾^(٢).

فما أسعد تلك الوقفات، وما أعود بالطمأنينة تلك الرَّجفات، وقد علم الله
سُبْحَانَهُ مَنِّي ما علم من غيري من المسلمين من الدُّعاء الصَّالح لَكُمْ في الليل إذا
يغشى، ومن الذِّكر الجميل لَكُمْ في النهار إذا تجلَّى، والله تعالى يزيد لَكُمْ
إيمانَكُمْ، وينصرُكُمْ وينصُرُ سُلْطَانَكُمْ، ويصلحُكُمْ ويصلحُ بَكُمْ زمانَكُمْ،
ويشكُرُ هجرتَكُمْ التي لم تُؤثروا عليها أهليكم ولا أموالكم ولا أوطانكم،
ويُعِيدُكُمْ إلينا سالمين سالبين، غانمين غالبين؛ إِنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ومنه قوله :

ولا حول ولا قوة إلا بالله، قولٌ من قعد وراء الأحاب يُودَّع في كل يومٍ
حبيباً، ويعيش في الدُّنيا بعدهم غريباً، كأنه النجمُ طلع عليه الصُّباحُ فغابوا،
وبقي مُنتظراً للمغيب، وصَبَّحَهُ ما قد علاه من المشيبِ.

ومنه قوله :

هذا وما تمَّ بحمد الله مُتجدِّدٌ، إلا ما تقدم ذكره له من أمراض الكبر،
وأعراض الغير، وتداعي هذه البنية لرحيل ساكنها، وانزعاج هذه النفس إلى ما
يختاره لطفُ الله من مواطنها، فإنَّ التَّسعين قد جُزَّتْ عيناها، وقطعت عَقِبُهَا؛
وَأَسْأَلُ اللهَ الخيرة في القُدوم عليه، واللُّطف عند الوقوف بين يديه.

(١) في الاصل : وجواد.

(٢) سورة النساء : ٧٣.

ومنه قوله :

وأشكو بعد قلبي جسمي، فقد ضعفت قوته، وقوي ضعفه، ونسجت عليه
 همومي ثوباً دون الثياب، وشعاراً دون الشعار، من الحرب الذي عادى بيني وبينني،
 وانتقم بيني من جسمي، واستخدمها بحرث أرضه؛ فإن لم يكن لأرضه عجاجٌ
 فلي عجيجٌ، وإن لم يكن فيه بذارٌ فلي من الحب ثمارٌ، وإن لم يكن لي سنبلةٌ فلي
 أُملةٌ، وإن لم يكن في كل سنبلةٍ معه حبةٌ آكلها، ففي كل أُملةٍ معه حبةٌ تأكلني؛
 وقد كنتُ مسلماً لأعضائي إلا سنّاً أقرعها، فما يخلو زمنٌ من مندماتي، أو إصبعاً
 أعضها فما أكثر ما على الظالم الذي يعضُّ يديه؛ فأنا أفرعُ أعضائي كلَّها ثنياتٍ،
 وأعضُّ على جوارحي كلَّها أناملٌ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
 هُوَ﴾^(١) والحربُ همٌّ للأجسام، والهمُّ حربٌ للقلوب، والفكرُ للقلبِ حِكٌّ، والحكُّ
 للحمِ فكرٌ، وبالله ندفعُ ما لا نطيقُ^(٢)؛ يا واهبِ العمرِ خلِّصهُ من الكدرِ^(٣).

ومنه قوله^(٤):

وصل الكتابُ الحضرةَ مُبشراً بالحركة الميمونة السلطانية إلى العدو خذله الله،
 ومسير المسلمين نصرهم الله، تحت أعلامه أعلاها الله، ومباشرة العدو واستبشار
 المسلمين بما أسعدهم الله من الجراءة عليه، ومن إضمار العود إليه، وهذه مقدمةٌ
 لها ما بعدها، وهي وإن كانت نصرةً من الله، فما نفعُ بها وحدها، فالهمةُ العاليةُ

(١) سورة الأنعام : ١٧ .

(٢) عجز بيت لعلي بن أمية ، تمامه : [المتقارب]

فبالله نبليخ ما نرتجي وباللله ندفع ما لا نطيقُ

[تاريخ الطبري ٣١٧/٩ وعيون الأخبار ١/١٣٢]

(٣) شطر بيت من البسيط، لم أقف على تمامه .

(٤) نهاية الأرب ١١/٨ - ١٢ .

السُّلْطَانِيَّة لِلْحَرْبِ الَّتِي تَسْلُبُ الْأَجْسَامَ رُؤُوسَهَا، وَالسُّيُوفَ حَدَّهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ غَالِيَةُ الثَّمَنِ، وَالْخَطَابُ بِالْجِهَادِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْمَلِكِ الْعَادِلِ دُونَ مَلُوكِ الْأَرْضِ وَإِلَّا فَمَنْ؟ فَهَذِهِ تُشْتَرَى بِالشَّقَاتِ، كَمَا أَنَّ الْأُخْرَى —أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا— رَخِيصَةُ الثَّمَنِ وَتُشْتَرَى بِالشَّهَوَاتِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

وَقَفَ الْخَادِمُ عَلَى مَا شَرَّفَ بِهِ طَبْعَهُ، وَشَنَّفَ بِهِ سَمْعَهُ، وَضَيَّقَ بِسَعْتِهِ ذِرْعَهُ، مِنَ الْخَطَابِ بِالْعَتَابِ، الَّذِي خَفَضَ لَهُ الْجَنَاحَ، وَاسْتَعَذَّبَ بِهِ الْجِرَاحَ، وَأَسْرَقَلَبَهُ فِي قَيْدِ أَسَى مُسْتَطَارٍ لَا يُرَادُّ مِنْهُ السَّرَاحُ، وَقَذَفَ بِهِ فِي لَهَوَاتِ لَيْلٍ لَمْ يَدُ أَنْ يَبْسُمَ فِيهِ ثَغْرُ الصَّبَاحِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مَا يَوْجِبُ الْمَذَامَ، وَيَطْلُقُ أَلْسِنَةَ الذَّمِّ، وَأَنَّهُ لُمُسْتَيْقِظٌ فِي حُقُوقِ الْخِدْمَةِ، إِلَّا أَنْ حَظَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكَهْفِ بِطُولِ النَّامِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

وَأَمَّا الْبَرْدُ وَكَلْبُهُ، وَالْهَوَاءُ وَغَلْبُهُ، فَمَا كَتَبَتْهَا إِلَّا وَالْيَدُ تَرْتَعِدُ، وَالْخَوَاطِرُ لَا تَتَعَدُّ، وَالْغُلَامُ يُذْهَبُ شَبَحَ الْفَحْمِ بِمَا يُلْهَبُ، وَالشَّرَارُ يَبْقَى مُنْطَفِئُهُ فِي خُدُودِ الثِّيَابِ خَيْلَانًا، وَمِمَّنْ عَنِي كَمَا يَمْنَعُهَا أَنْ تَطْرُدَ فِي قَوْلِ الْقَلَمِ مِنَ الطَّرْسِ خَيْلَانًا.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

وَأَنَا الْآنَ إِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، بَأَنْ يُمْتَعَنِي بِسَمْعِي وَبَصْرِي عَنِيتُهُ، وَإِذَا قُلْتُ: وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي، فَهُوَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ لَذَلِكَ وَارْتَضَيْتُهُ؛ وَبِالْجُمْلَةِ إِنِّي مُسْتَحْسِنٌ قَوْلَ جَمِيلٍ، وَأَنْقَلُهُ إِلَى أَهْلِ الْجَمِيلِ^(١): [الطويل]

وَمَا أَحْدَثَ النَّايُ الْمَفْرُقَ بَيْنَنَا سُلُوءًا، وَلَا طُولُ اجْتِمَاعٍ تَقَالِيَا

كذلك صُحِبَةُ المجلس قد تناولت، وكلّما ألحّ عليها الصُّقَالُ لاح جوهرها،
وكلّما تكررت عليها الفُصولُ فُصِّلَتْ آياتُها وسُيرت سورُها.

ومن كتابٍ كتب به إلى القاضي مُحْيِي الدين بن الزُّكي^(١):

بعد أن أصدرتُ هذه الخدمة إلى المجلس - لا عدمتُ عواطفه وعوارفه، ولطائفه
ومعارفه، وأمتع الله الأمةَ عُموماً بفضائله وفواضله، ونفعهم بحاضره كما نفعهم
بسلفه الصّالح وأوائله، وعادى الله عدوه، ودلّ سهامه على مقاتله - ورد كتابٌ منه،
وما بقيتُ أذكرُ الإغباب، فإن سيدنا يُقابله بمثله، ولا العتابُ فإن سيدنا يُساجله بما
فيض من سجله، ولا أُلقي عليه من قولي قولاً ثقيلاً، ولا أقابل به من قوله قولاً جليلاً
جليلاً، فقد شبَّ عمرو عن الطوق^(٢)، وشرفُ البراقُ عن السُّوق، وذلك العمر ما
برح محتسكاً غير أجنبي، والطوق للصبي، وذلك البراق حمى لا يقدم إلا للنبي
، ومع هذا فلا تقلص عني هذه الوظيفة، واعتقدُها من قُرب الصّحيفة، فإنك
تسكن بها قلباً أنت ساكنه، وتسربها وجهاً أنت على النوى مُعائنه.

ومنه قوله:

يا سيدنا العمادُ، صَبَّحَكَ اللهُ بِأَيْمَنٍ من فعلك، ولا أعرفُ فعلاً منه أَيْمَنُ وأحسن
من وجهك، ولا أعرفُ وجهاً منه أحسن، وأحسن وجهٍ في الوريّ وجهٌ مُنعم^(٣).

(١) القاضي محي الدين بن الزكي : محمد بن علي بن محمد بن يحيى، أبو المعالي القرشي، من بيت
القضاء والعلم؛ شهد فتح القدس مع السلطان صلاح الدين، وخطب أول جمعة في القدس
ارتجالاً؛ عظمت رتبته عند صلاح الدين، توفي سنة ٥٩٨هـ. (وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٩ والوافي
بالوفيات ٤/ ١٦٩ وطبقات السبكي ٦/ ١٥٧). والنص في نهاية الأرب ٨/ ١٢.

(٢) مثل يضرب في تزيين الكبير بزينة الصغير، وهو لجذيمة الأبرش في عمرو بن عدي. (جمهرة
الأمثال ١/ ٥٤٧ والمستقصى ٢/ ١٢٦).

(٣) عجز بيت من الطويل، لم أقف على تمامه.

كيف أنت في هذه الرحمة التي تركتتنا رحمة؟ وكيف الخرakah^(١) وكيف الخيمة؟ أمّا نحنُ ففي خيمةٍ من عُنُصُرنا وهو الطين، وفي خرگاه كَأَنَّا من ضائقها في عقد التسعين، قد حاصرنا الأمطارُ، وقلَّ احتفالُها بالخنادق المحفرة، وفعلت بنا ونحنُ المسلمون ما فعلنا بمن حاصرناه من الكفرة، فليت لنا ولو كمفحص القطاة في السعة والحفوف، وليت لنا جبلاً يعصمنا من أنواع السيول إذا جاءت ممرودة السيوف، وقد حال الجريض دون القريض^(٢)، وشغل توقُّع اللئيم عن توقيع القلم.

ومنه قوله:

وقد كانت ليلةُ الخميس بدمشق ليلةً مباركة، ما غسل ظلامها إلا السيولُ لولا الصباحُ، ولا ابتسم صباحُها إلا وقد كادت تبتسمُ الجبالُ والبطاحُ.

ومنه قوله:

وقد جاركرمُ يده على أموالها، وعلم الخلائقُ الاشتطاط في آمالها، فما يأخذُ أحدهمُ البدرة إلا بكسر الخاتم منها، ولا يقبلُ الخلعة إلا وقد عصبت المنشور بعصبتها، ولا يركبُ الجواد إلا وهو بالتبر مُثقلٌ، وبالخلي في وجهه ورجليه أغرٌ مُحجلٌ، ولا يقنع بالإقطاع إلا وباطنه قلعةٌ وظاهره رستاقٌ، ولا بالمنشور إلا وحاصلهُ ثمراتٌ واسمُهُ أوراقٌ؛ فقد فرَّ الناسُ من الصنائع إلا إلى اصطناعه، ومن المعاش إلا إلى انتجاعه، وهان عليهم أن يكتبوا في قرطاسٍ ويُجاوبوا بأكياسٍ، ووقفوا على التراب فلهقوا بالسحاب، وغمر الجودُ كل دينارٍ، حتى توارى دينارُ

(١) الخرakah : كلمة تركية بمعنى الخيمة.

(٢) مثل يضرب للمعضلة تعرض، فتشغل عن غيرها؛ وهو لعبيد بن الأبرص . (جمهرة الأمثال

الشمس بالحجاب .

ومنه قوله إلى العماد الأصفهاني^(١): كانت كُتِبُ المجلس - لا غير الله ما به من نعمه، ولا قطع منه موادّ فضله وكرمه، ولا عدمت الدنيا خطّ قلمه وخطو قدمه، وأعادها الله بنعمه وجوده من شقوة عدمه - تأخرت، وشق عليّ تأخرها، وتغيرت عليّ عوائدها، والله يُعيدُ مما يُغيرُها، ثم جاءت كما جاء بيتُ ابن حجاج^(٢): [معزوء الرمل]

غاب ساعاتٍ ووافا ني على ما كُنتُ أعهدُ
وأجبتُهُ ببيت الرضي^(٣): [الرمل]

ومنتى يدنُ النوى بهمُ يجدوا قلبي كما عهدوا
كتابةٌ لا ينبغي ملُكُها إلا لخاطره السُّليمانِي، وفيضاً لا يصدُرُ إلا عن نوح قلمه الطُوفاني، أوجبت على كلِّ بليغٍ أن يتلو ﴿ومنهْمُ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾^(٤).

وبالجملة فالواجبُ على كلِّ عاقلٍ أن لا يتعاطى مالم يُعطه، وأن يدخل باب مجلس سيدنا ويقول: حِطَّةٌ؛ فأما ما أفاض فيه من سُكون الأحوال بتلك البلاغة، فقد كدتُ أسكرُ^(٥) بها بما استخرجته، من المحاسن التي لو أن الزمان الأصم

(١) نهاية الأرب ١٣/٨.

(٢) خلت نسخة دار الكتب المصرية من ديوانه (شعر تيمور ٦٠٦) من قوافٍ عدةٍ، منها قافية الدال . وابن الحجاج : أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن الحجاج، معظم شعره في السخف والمجون (يتيمة الدهر ٣/٣٠).

(٣) ديوان الشريف الرضي ٣٨٨/١.

(٤) سورة البقرة : ٧٨.

(٥) في الأصل : أشكوا.

يسمعُ لأسمعته، ولو أن الحظَّ الأشمَّ يخضعُ لأخضعته؛ وبالجملة فإنَّه لا يُسبُّ
 زمنٌ أبقي من سيِّدنا نعمة البقية، التي مهما وُجدت فالخيرُ كُلُّه موجودٌ، والمجدُ
 بحفيظته مشهودٌ؛ وكما تيسرت راحةُ جسمه، فينبغي أن يقتدي به قلبه في
 راحته من همه؛ وأعراضُ الدنيا متاعُ المتاعب، وقد رفع الله قدره، وإلا فهذه الدنيا
 وهدةٌ إليها مصابُ المصائب، والحالُ التي هو الآن عليها عاكفٌ، من علمٍ يدرسه،
 وأدبٍ يقبسه، وحريمٌ عقائلُ يذُبُّ عنه ويحرسه، هي خيرُ الأحوال؛ فالواجبُ
 الشُّكرُ لواهبها، والمسرةُ بالإفضاءِ إلى عواقبها، وما ينقصُ شيءٌ من المقسوم، وإن
 زاد عند المجلس فليس من حظِّه، ولكن من حظِّ السائل والمحروم؛ ولا يسمحُ
 المجلسُ بكتابٍ من كُتبه على يدٍ من الأيدي التي لا تؤدِّي، فلا يؤمنُ أن تكون
 أناملُها حروف التعدي.

ومنه قوله :

وقد تأملتُ ما تفننت في وصفه حين دُعيت إلى قتل الأسير، وأن القدرة
 المحيطة بعُنقه، والأسر السَّادُّ لسبُل القتل وطرقه، أبى لها أن تشغل به بالها،
 ونصَّ لها أن لا تُنجس بدمه نصالها، فإنَّ قتل الأسير ويداهُ مغلولَةٌ، وحبالُ أذرعهِ
 محبولةٌ، قُدرةٌ مازالت النفوس على استقباحها مجبولةٌ، وما كان يؤمنها أن
 تشخص الأبصار نحوها، وكما نظر في الطُّروس كأنها تنتظرُ في الطُّروس^(١)
 محوها، فيكون غيظُ الحُسام من قلمها حاملاً له على أن لا يُحدَّ مضاءٌ، ولا
 يُمضي حدًّا، وباعثاً له على أن ينثني عن عنق الكافر مرتدًّا، فيورثنا معشر
 الكُتَّاب عاراً يُعدي عُره، وينهي العلم ما يسوءه والسيف ما يسره، وينفتح باب
 القيل والقال، ويحتاج إلى العذر الصدي في نبوة السيف الصقيل.

(١) كذا في الأصل، ولعل قوله (في الطُّروس) الثانية زائدة.

ومنه قوله :

وكان ينتحي لقافية الثاء المثلثة التي خضعت لأمره، وسُخرت لفكره، وخفضت جناحها، وتركت جماحها، ورقت رقة الرءاء، وأعطته القياد الذي منعت من الكتّاب والشُعراء، وهذا ملكُ البلاغة السُّليمانّي؛ وهذا القلم سيدُ النصر اليماني، وهذا المعجزُ وأنا أول المؤمنين، وهذا السحر البياني وإن لم يكن السحر المبين؛ وما تصورت أن الثاء تهون هذا الهوان، ولا تنقاد في الكلم إلا أن يكون قلمه العنان، فقد صارت عروساً ونقطها نقوط العرائس، ووجبت جنوبها، فلا جرم أنه مثل قوله : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ ﴾^(١) وقد صرنا نبذل السين بها بغير لثغةٍ، ونقدر على استعمالها بلاغةً، وما كُنّا نقدرُ على استعمالها إلا بلُغةً.

ومنه قوله :

وذكر الله ذلك العهد بخير ما ذكرت به العهود، ولعن الله الفرنج المخذقين، وقتل أصحاب الأخدود، فقد قطعوا طُرقات المسار، وأطالوا عُمر البيكار^(٢)، وسكبت نارُ مقاساتهم الدّينار، فعجل الله إعلام الكافر لمن عُقبى الدار^(٣).

ومنه قوله، وكتب [إلى] ابن الزُّكي^(٤) :

كان كتابي تقدم إلى المجلس السامي -أدام الله نفاذ أمره، وعلو قدره، وراحة سرّه؛ ونعمه ويسّره، وأجراه على أفضل ما عودّه، وأسعد جده وأصعبه،

(١) سورة الحج : ٢٨ .

(٢) البيكار : الحرب، المعركة، الحملة؛ وهي فارسية . (معجم دوزي ١/ ٥٠٦)

(٣) من قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٤٢] .

(٤) نهاية الأرب ٨/ ١٤ .

وأحضره أمثال العام المستقبل وأشهده، ولا زال يلبس الأيام ويخلعها، ويستقبل الأهله ويدعها، وهو محروس في دنياه ودينه، مُستلثم من نوب الدهر بدرع يقينه؛ وأعماله مقبولة، ودعواته على ظهر الغمام محمولة، والدنيا ترعاه وهو يأبى رعيها، والآخرة تدخر له وهو يسعى لها سعيها - من أيدي عدة من المسافرين، ولثقتي بهم ما قيدت أسماءهم ولضيق صدري بتأخير كتب المجلس ما حفظت ما جاء منه .

وما كنا إلا دعونا الله سبحانه دعوة الأولين أن يبعد بين أسفارنا^(١)، وأردنا أن يقطع بيننا وبين أخبارنا، فأجبت الدعوة، ولا أقول لسابق الشقوة، بل لللاحق الخطوة، فبان بأن مكابدة الأشواق إلى الأبرار، تسوق إلى الجنة ولا تسوق إلى النار؛ وأقسم أنني بالاجتماع به في تلك الدار أبهج مني بالاجتماع به لو أتيح في هذه الدار؛ فعليه وعلي من العمل ما يجمع هنالك سلك الشمل ويصل جديد الحبل، فثم لا يلقي العصا^(٢) إلا من ألقى ها هنا العصيان، وهنالك لا تفر العين إلا لمن سهرت منه ها هنا العينان، ولا وجه يجمع اسمي مع اسمه في هذه الوصية، مع علمي بسوء تقصيري، وخوفي من سوء مصيري، ولكن ليزيد سيدنا في وظائفه وعوارفه، فلعل فعله تفضل من فضله، بما يخلصني بقربه؛ فإنني أستحق شفاعته لشفاعة جوار قلبي لقلبه، والخواطر في هذا الوقت منقبضة، والشواغل لها معترضة، وأيام العمر في غير ما يقرض من الدنيا والآخرة^(٣) منقرضة؛ ومتجدد نوبة بيروت قد عمت كل قلب، وهاجت

(١) من قوله تعالى : ﴿ربنا باعد بين أسفارنا﴾ [سبا : ١٩] .

(٢) من قول الشاعر : [الطويل]

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

[التذكرة الحمدونية ٢ / ٤٩٣ وشرح العيون ١٨٨]

(٣) كذا في الأصل ، ولعل الصواب : للآخرة .

للمسلمين أشواقاً إلى الملك الناصر، وذكرى بما ينفعه الله به من كل ذاكر، وأخذ الناس في الترحم على أول هذا البيت، والدعاء للحاضر والآخر، وليس إن شاء الله بآخر.

ومنه:

وسيدنا يتوصى بالدار بدمشق، فقد خلت، وإنما الناس نفوس الديار، وسيدنا يحسن في كل قضية من بعد، كما أحسن من قبل، فهو الذي جعل بيني وبين الشام نسباً، وأنشبنى فيه إلى أن ادخرت عقاراً ونشياً، فعليه أن يرعاه ما أقناه، وينفي الشوك عن طريق اليد إلى جناه، والجار إلى هذا التاريخ ما اندفع جوراً، ولا أدرك غوره، يعد لسانه ما تخلف يده، ويدعي يومه بما يكذبه فيه غده، وأنا على انتظار عواقب الجائرين، وقد عرف الغيظ مني، وألفاظ مجهولة ما كنت أشتهي أن أعرفها، وكشفت مستور من أسباب الحرج ما يسوى أن أكشفها، لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم^(١) وأسوأ خلقاً من السيء الخلق من أحوجه إلى سوء الخلق، وما ذكرت هذا ليذكر، ولا طويت عليه الكتاب لينشر، والسر عند سيدنا ميت، وهو يقضي حقه بأن يقبر.

ومنه قوله:

ولما تأملت الكتاب الأزرق، طاعنت به الخواطر التي كنت صريع طعانها، وعقير أقرانها، ومما دلني على الصحة نشاط الخاطر العمادي لقافية العين، التي اطردت له متونها، وتفتحت لقلمه عيونها، واقتضى الدعاء بأن يقر الله العين في يده، كما أجزاها على لسانه، فتجتمع له البلاغة والغنى، وتتوفر الأولى عليه وتكون الثانية قسمة ما بيننا.

(١) سورة النساء: ١٤٨.

ومنه قوله :

والكتب من جهتها مُرتقبةٌ لذاتها، لا لما فيها من طرائث الأحوال
ومتجدداتها، ويكفي خبر صحته من الأخبار، فلينعَم الماءُ بإطفاء النار.

ومنه قوله :

ووافى الأسطول الميمون في خمسين غراباً^(١)، طائراً من القُلوع بأجنحته،
كاسراً بمخالب أسلحته، فما وافى شمالاً إلا دعاهُ إلى الحَيْن، وحقق ما يُعزى إلى
الغراب من البين.

ومنه قوله :

وكتبتُ هذه الخدمة ليلاً، والناظر كالناظر كلاهما مُشتملٌ بالظلام شعاعاً
ودثاراً، والخطراتُ كالأنجُم في ليلة الأسي، إن رامت الطريق فحيارى، أو رامت
المسير فأسارى.

ومنه قوله :

إلى أن طوى الليلُ ملاءته، ومدَّ عليهم كلاءته، فإنه دعيُّ مأمنه، وبينهم من
مناسبة صحائفهم لسواده، ولأن الليل يُدعى كافراً فقد خبَّأهم في فؤاده، وخاف
العدوُّ تصريف العنان، فكأنما في يده منه صلٌّ لادغ، ورأى السيف وماء الموت
يتفرقُ منه، فروي دلاءً من إناءٍ فارغ.

ومنه قوله :

فأما هذه الدنيا فإنها دار الأكدار، ومثارُ العثار، لا تسمحُ بمودة صاحبٍ إلا

(١) الغراب : نوع من السفن الحربية.

لتعرف قدر فراقه، ولا تفسح في حبل لقاء خليلٍ إلا لتجعله عُدَّةً لحناقه .
ومنه قوله :

فقلت لصاحبي لجوأي: خُذا في عرض محاسنه عليّ، لعلّي آخذُ منها؛
فقالا: وما الفائدة إذا عجزت في الصلة عن أن تُعيد عليه ألفاظه العائدة؟ فقلتُ:
ليعلم أن كُلَّ خير عندي من عنده، وأسأله الصفح عن تقصير بلاغتي عن بلوغ
حدّه، وأسره بتقصيري عن مداه وإن كان هذا عهدي بوّده؛ فقالا: أرسل نفسك
على سجيتها، وتعرض لنفحات صديقك، فما يبخلُ عليك بيلنجوجيتها؛
فقلت: نعم على تفيهُفكما في النسبة إلى اليلنجوج^(١)، وعلى كون حروف
هجائها أطول من عوج^(٢).

ومنه قوله^(٣):

الخادمُ يخدم وينهي وصول كتابٍ كريمٍ، تفجرت فيه ينابيع البلاغة،
وتبرعت بالحكم أيدي البراعة، وجاد منه بسماءٍ مزينةٍ بزينة الكواكب، وهطل
منها لأوليائه كلُّ صوبٍ، ولأعدائه كلُّ شهابٍ واصبٍ، وتجلّى فما الغيدُ
الكواعب، وما العقودُ في الترائب، وتفرق عنه جيش الهمم، فانظر ما تفعل
الكتُّبُ في الكتائب؛ وما ورد إلا والقلبُ إلى مورده شديدُ الظما، وما كحل به
إلا ناظره الذي عشي عن الهدى وقرب من العمى؛ وما نارُ إبراهيم بأعظم من
نوره، ولا سُورُوه صلى الله عليه حين نجا بأعظم في يوم وصوله من سُوروره؛ فحيّا
الله هذه اليد الكريمة التي تنهلُ بالأنواء، وتحركُ سوابغ النعماء، وتُعطي أفضل

(١) اليلنجوج: عود البخور . (القاموس).

(٢) عوج بن عنق: شخصية أسطورية يضرب بطولها المثل . (المستطرف ٥٣٣/٢).

(٣) نهاية الأرب ١٧/٨ .

عطاءً، يسرّها في القيامة، وتحوز به أفضل أنواع الكرامة؛ فأما شوقه لعبده، فالمولى أبقاه الله قد أوتي فصاحة لسان، وسحب ذيل العي على سحبان، ولو أن للخادم لسان موات، وقلباً^(١) يقال له: هيهات؛ لقال ما عنده، وأذكر عهده وودّه، وباح بأشواقه، وأذاع الرمز عند اعتناقه.

وأما تفضّله بكذا، فالخادم لا يقوم بشكره، ولا يُبطله حقّ قدره، وقد أحال مكافأة المجلس على مليّ قادر، ومسرّة خاطره عليه يوم تُبلى السرائر؛ والله تعالى يصله برزق سنيّ يملأ إناءه، ويوضح له هُداة، ولا يخلي المجلس من جميل عوائده، ويمنحه أفضل وأجزل فوائده، إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله^(٢):

وفي الحال أطافت المقاتلة من جميع أقطاره، ولَبّوا تلبية الحجيج، وكلُّ من جمره سهمه كرامي جماره، وعبرت الآجالُ المسماةُ سهاماً على قناطر القسيّ الحنية، وقدحت زُنودُها البيضُ شرار جمر المنية، فصارت الأبرجةُ مُستلعمّةً بسلاحها، أو كأنها بكثرة ريش السهام طائرةً بجناحها، أو كأنها صُدورٌ أظهرت حسك الضغائن، أو كأنها لازدحام السهام بها كنائن؛ إلى أن سرى داءُ النُّقوب إلى المقاتل، ودبَّ سُكرها بين المفاصل، ورُتبُ الجدران قائمةٌ، والبلاءُ سائرٌ في أعقابها، متجلدة والنارُ تحت بنائها، غرارةٌ بالحاظها، والقبح حشو نقابها؛ فلما كان وقت الظُّهر ﴿ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾^(٣)، ووقعت القلعةُ، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤)، وتحصَّنوا من نيران القُضْب بنيران الحطب، وقُطعوا

(١) في الأصل: وقلب أ.

(٢) النص في الروضتين ٤٢/٣-٤٣ وقد كتبه القاضي الفاضل بعد فتح حصن بيت الاحزان بفلسطين.

(٣) سورة التوبة: ٤٨.

(٤) سورة الاعراف: ١١٨.

بين المسلمين وبينهم بطوفان نارٍ كانت القلعة سفينة إلا أنها لا سفينة نجاة بل سفينة عطب، والفرنج الملاعين من وردھا عاجلاً وإن منهم إلا واردھا، وأقحم نفسه فيها فأحاطت بعنقه مقاوڈھا، وبات الناس مُطيفين بالحِصن والنَّارُ بهم مُطيفةٌ وعليه مشتملةٌ، وعذباتُ ألسنتها^(١) على وجهه منسدلةٌ، ومن خلفه مسبلةٌ، ولفحاتها جهنمية ﴿وَقَوَّذُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(٢)؛ والبلاءُ يُنادي طبرية بلسان مُصابها: إِيَّاكَ أَعْنِي واسمعي يا جارة^(٣)؛ فولجت النَّارُ موالج تضيقُ عنها الفكر، وتعجزُ عنها الإبر، وقال الكُفْر: إنها لإحدى الكُبر، وخولف المثل في أنَّ السعادة لتلحظُ الحجر^(٤)، وأغنى ضوءُ نهاره أن يُسأل معه هذا وما الخبر، إلى أن بدا الصَّبَّاحُ وكأنه امتار منها الأنوار، وانشق الشرقُ وكأنه من عصفرها صُبغ الإزار، فيحنئذٍ تقدم الخادمُ فأقلع بيده الأحجار من أسبها، ومحا حُرُوف البُنيان من طرسها، وأدار فيها كأس المنون دهاقاً، وحلَّ الرؤوس ضرباً، وشدَّ الأعناق وثاقاً.

ومنه قوله:

حوشي مجلس سيدنا، ولا زال من كل مكروه محاشي، ودامت الصحةُ تنشرُ له علماً وتطوي فراشاً، وجعل الله ليل الدنيا بأمنه لباساً ونهارها معاشاً، من مرضٍ يحسه، ومن ألمٍ يحسه ومن أن يتكدَّر من العافية أنسه، وحرس الله نفسه على الإسلام، فإنه نفسه.

(١) في الأصل: سنھا.

(٢) سورة البقرة: ٢٤ والتحريم: ٦

(٣) المثل في: جمهرة الأمثال ٢٩/١ ومجمع الأمثال ٤٩/١ والمستقصى ٤٥٠/١ وهو لسيار بن

مالك الفزاري، قاله لأخت حارثة بن لام الطائي.

(٤) المثل: لم يرد في كتب الأمثال.

ومنه قوله:

فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الأسارى يُساقون بها مُقرنين، لحمدت
﴿الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١) ولقد شابت خضابُ العجاج ما
أرسلته راياتُ الأبرجة من ذوائب مفرقها، وأسلمت وجهها لله وقطعت دمار
خندقها.

ومن مكاتباته يتشوق إلى إخوانه وأودائه ومُحببيه وأوليائه:

ومنه قوله:

فأنجدوا المسلمين يا حملة سلاح الصَّلاح، وابعثوا سرايا دعواتكم فإنَّا ننتظر
غِبَّ سُرَاهَا الصَّبَاح؛ فأنتم في وكر قبلتنا، فلتهن أدعيتُكم خفة الجناح.

ومنه قوله:

فلولا سدّ سدّته الكريمة لانفتح على الإسلام ما انفتح من سدّ مأرب، ولولا
سيفه لما وجد بعد العصا الكليمية سيفٌ مثلها فيه مأربٌ، وانتظرُ فرصةً انتهزها
في بابهِ، فما ازدادت الأحوالُ إلّا ضائقةً، ولا العذرُ إلّا اتّساعاً؛ والله المُستعان.

ومنه قوله:

وقد علم الله خدمتي للبيتين الشَّريفين -بيت الله بما يعودُ عليه بالعمارة،
وبيت النُّبوةِ صلوات الله على أهله بما يُبقي في عقبه كلمة الإِمارَةِ- بمُنَى نفسه ما
دونه جَزُّ النواصي بل حَزُّ الغلاصم؛ يروم أن يرتضع أخلاف الخلاف، والله له عن
آل الفواطم فاطمٌ؛ فنهض لآل رسول الله كلُّ بعيدٍ وقريبٍ، ونصر لواء حمده حتى

(١) سورة الزخرف: ١٣.

الصليب، وقوبل عدوه بعدو وحسم داءٍ ومستغيثٍ عجيب، وحينئذ اندفع
شريكوه ميمماً صعيداً طيباً، وكيف لا يتيمم من عدم الماء قاصداً للقبلة ولن
يدار إليها إلا من فارق الدماء .

ومنه قوله :

ووقف المملوك على الأبيات النونية التي فتنته فتوناً، وزخرت ببحراً فصادف
منه قافية النون نوناً، وأشرقت عليه أبياتها أقماراً، صار القمر لحسدها عرجوناً .

ومنه قوله :

وحين وقف عليها وقف لها، وحين فتحها ارتج أبواب الهموم وأقفلها
وتأملها، ونظر من غرائب الحسنات ماتم بها وماتم لها، فإذا فصل كنعيم أهل الجنة
كلما نفذ جدد، وكنفس أهل الحياة يلذُّ كلما ردد؛ وسيدنا كان لسانه يده في
جماح السماح، وكان لسانه في إيراد قرائح الاقتراح، كل عذب قراح .

كتب إلى بعضهم^(١) (٢): [الطويل]

أحبابنا هل تسمعون على النوى تحية عانٍ أو شكية عاتب
ولو حملت ريح الشمال إليكم كلاماً طلبنا مثله في الجنائب

أصدر العبد هذه الخدمة ، وعنده شوق يغور به وينجد [ويستغيث] من ناره
بماء الدمع فيجيب وينجد، ويتعلل بالنسيم فيغري ناره بالإحراق ، ويرفع النواظر
إلى السلوان فيعيدها الوجد في قبضة الإطراق ، أسفاً على زمنٍ تصرم، ولم يبق

(١) الرسالة في نهاية الأرب ١٨/٨ .

(٢) البيتان في ديوان القاضي ٤٨٢ ونهاية الأرب ١٨/٨ .

ولست أقطع بنسبة هذه الأبيات إلى القاضي، ولعلها من استشهاده .

إلا وجداً تضرم، وقلباً من يد البين المشتّ تظلم^(١): [الوافر]

ليالي نحن في غفلات عينٍ كأن الدهر عنا في وثاقٍ
وما تنفس خادمه نفساً إلا وصله بذكره، ولا أجرى كلاماً إلا قيده بشكره،
ولا سار بقفري إلا شبهه برحيب صدره، ولا أطل على جبلٍ إلا احتقره بعلي قدره،
ولا مرّ بروضة إلا خالها تفتحت أزهارها عن كريم خلقه ونسيم عطره، ولا أوقد
المصطلون ناراً إلا ظنهم اقتبسوها من جمرة، ولا نزل على نهرٍ إلا كاثر دمعهُ
ببحره^(٢): [الطويل]

سقى الله تلك الدار عودة أهلها	فذلك أجرى من سحب وقطره ^(٣)
لئن جمع الدهر المشتت شمله	فما بعدها ذنبٌ يعد لدهره
فكيف ترى أشواقه بعد عامه	إذا كان هذا شوقه بعد شهره
بعيدٌ قريبٌ منكم بضميره	يراكم إذا مالم يزركم بفكره
ترحل عنكم جسمه دون قلبه	وفارقكم في جهره دون سرّه
إذا ما خلت منكم مجالس وده	فقد عمرت منكم مجالس شكره
فيا ليل لا تجلب عليه بظلمة	وظلمة بدر الدين طلعة بدره

ونسأل الله تعالى أن يمن بقربه، ورحاب الآمال فسائح، وركاب الهموم
طلائح، والزمن المناظر بالقرب مسامح، هنالك تطلق أعنة الآمال الخوابس، ويهتز
مخضراً من الشعور عود يابس^(٤): [الطويل]

(١) ليس في ديوان القاضي .

(٢) ديوان القاضي ٤٨٨ ونهاية الأرب ١٩/٨ .

(٣) كذا في الأصل: أجرى ولها وجه، ولعل الوجه الأدق: أجدى، أو أخرى ، والله أعلم .

(٤) ديوان القاضي ٤٩٠ ونهاية الأرب ١٩/٨ .

وما أنا من أن يجمع الله شملنا بأحسن ما كنا عليه بآيس
وقد كان الواجب تقديم عتبه ، على تأخير كتبه ، ولكنه خاف أن يعجني ذنباً
عظيماً ، ويؤلم قلباً عليه كريماً^(١): [الطويل]

ولست براضٍ من خليلٍ بنائلٍ قليلٍ ولا راضٍ له بقليلٍ
وحاشى خلاله من الإخلال بعهود الوفاء ، ومن انحلال عقود الصفاء ، وما
عهدت عزمة الهوى في حلبة^(٢) الشوق إلا من الضعفاء ، وحاشية خلقه ، إلا
أرق من مدامع غرماء الجفاء^(٣): [الكامل]

من لم يبت والبين يصدع قلبه لم يدر كيف تقلقل الأحشاء
ومنه قوله في مثل ذلك^(٤) :

كتب مملوك المولى عن شوقٍ قدح الدمع من الجفون شراراً ، وأجرى من سيل
الماء ناراً ، واستطال واستطار فما توارى أواراً ، ووجد على تذكر الأيام التي ذهبت
قصاراً ، والليالي التي طابت فكأنما خلقت جميعاً أسحاراً^(٥): [الطويل]

وبي غمرةً للشوق من بعد غمرةٍ أخوض بها ماء الجفون غماراً
وما هي إلا سكرةٌ بعد سكرةٍ إذا هي زالت لا نزول خُماراً
رحلتُم وصبري والشباب ومرطني لقد رحلت أحبابنا تتبارى
ومن لم تصافح عينه نور شمسهِ فليس يرى حتى يراه نهاراً

(١) البيت لكثير عزة ، في ديوانه ١١٢ .

(٢) في الأصل : من حلبة .

(٣) ديوان القاضي ٤٨١ ونهاية الأرب ٢٠ / ٨ .

(٤) نهاية الأرب ٢٠ / ٨ .

(٥) ديوان القاضي ٤٨٩ ونهاية الأرب ٢٠ / ٨ .

سقى الله أرض الغوطتين مدامعي وحسبك سحباً قد بعثت غزارا
وما خدعتني مصر عن طيب دارها ولا عوضتني بعد جاري جارا
أدار الصبا لا مثل ربعك مربع أرى غيرك الربع الأنيس قفارا
فما اعتضت أهلاً بعد أهلك جيرة ولا خلت دار الملك بعدك دارا

وماضر اليد الكريمة التي أياديها بيض في ظلمات الأيام، وأفعالها لا تقوم بمدحها إلا ألسنة الأسنة والأقلام، لو قامت للمودة بشرطها، وأمضت خط الأسي بخطها، وكتبت ولو شطر سطر ففرغت قلباً من الهم مشحوناً، وأطلقت طرفاً في فضاء الاقتضاء مسجوناً، ونزهت ناظر المملوك في رياض مشهورة الحلوى، وجلت غمومه بمكارم ماثورة العلى^(١): [الطويل]

وما كنت أرضى من علاك هذا الجفا ولكنه من غاب غاب نصيبه
ولو غيركم يرمي الفؤاد بسهمه لما كان ممن قد أصاب يصيبه

ولمملوكه مذ حطت بمصر أثقاله، وجهز الشام رحاله، وألقت النوى عصاها، وحلت الأوبة عراها، يكتب فلا يجاب، ويستكشف الهم بالجواب فلا ينجاب^(٢): [الكامل]

يا غائباً بلقائه وكتابه هل يرتجى من غيبتيك إياب

وما يصفى الله ورد الحياة من التكدير، ويحقق بلقائه أحسن التقدير ﴿وهو

على جمعهم إذا يشاء قدير﴾^{(٣)(٤)}: [الخفيف]

(١) ديوان القاضي ٤٨٢ ونهاية الأرب ٢١/٨.

(٢) ديوان القاضي ٤٨٢ ونهاية الأرب ٢١/٨.

(٣) سورة الشورى : ٢٩.

(٤) ديوان القاضي ٤٨٩ ونهاية الأرب ٢١/٨.

وزمان مضى فما عرف الأو ول إلا بما جناه الأخير
 أين أيا منا بظلك والشم ل جميع والعيش غض نضير
 وحوشي المولى أن يكون عوناً على قلبه، وأن يرحل إثره الذي مذ سار سربه،
 وأن ينسيه بأغباب الكتب ساعات قربه، وأن يحوجه إلى إطلاق لسانه بما يصون
 السمع الكريم عنه من عتبه؛ الأخ فلان مخصص بسلام كما تفتحت عن الورد
 كمائمه، وكما توضحت عن الفكر غمائمه: [الطويل]

إذا سار في ترب تعرف [تر] بها برياه والتفت عليه لطائمه
 وقد تبع الخلق الكريم في الإغباب والجفوة، وأعدت عزائمه قلباً فاستويا في
 الغلظة والقسوة^(١): [من مجزوء الكامل]

إن كنت أنت مفارقي من أين لي في الناس أسوة
 وهب أن المولى اشتغل - لازل شغله بمساره، وزمنه مقصور على أوطاره -
 فما الذي شغله عن خليله، وأغفله عن تدارك غليله؟ هذا وعلائقه قد تقطعت،
 وعوائقه قد ارتفعت، وروضة هواه قد صارت بعد الغضارة هشيماً، وعهوده
 عادت بعد الغضاضة رميماً^(٢): [الخفيف]

إن عهداً لو تعلمان ذميماً أن تناما عن مقلتي أو تنيما
 وما أولى المولى أن يواصل بكتبه عبده، ويجعل ذكره عقده، ولا يقصيه
 ويألف بعده، ويستبدل غيره بعده.

(١) ليس في ديوان القاضي.

(٢) ديوان القاضي ٤٩٩ ونهاية الأرب ٨/٢٢.

ومنه قوله [في] ذلك أيضاً^(١): [مجزوء الخفيف]

أَكْثَرُ كَلِّ غَائِبٍ غَابَ عَمَّنْ يُحِبُّهُ
غَابَ عَنْهُ بِشَخْصِهِ وَسَلَا عَنْهُ قَلْبُهُ

لو أن لي يداً تكتب، أو لساناً يسهب، أو خاطراً يستمل، أو فؤاداً يستدل،
لوصفتُ إليه شوقاً إن استمسك بالجفون نثر عقدها، أو نزل بالجوانح أسعر
وقدها؛ أو تنفس مشتاق أعان على نفسه، وظننه استعارة من قبسه، أو ذكر مُحِبٌّ
حبيباً خطر في خلده، وتفادى أن يخطر به ذكرُ جلده^(٢): [البسيط]

حَتَّى كَأَنَّ حَبِيباً قَبْلَ فُرْقَتِهِ لَا عَنْ أَحَبَّتِهِ يَنَائِي وَلَا بَلَدِهِ
بِاللَّهِ لَا تَرْحَمُوا قَلْبِي وَإِنْ بَلَغْتَ بِهِ الْهُمُومُ فَهَذَا مَا جَنَيْ بِيَدِهِ

ولولا رجاؤه أن أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح^(٣)، وزيارة طيف
يخلعها الصبح، لاستطار فؤاده كمداً، ولم يجد ليوم مواعده غداً، ولكنه يتعلل
بميعاد لقيائه، ويدفع ما أعله بلعله وعساه^(٤): [الطويل]

غَنَى فِي يَدِ الْأَحْلَامِ لَا اسْتَفِيدُهُ وَدِينٌ عَلَى الْأَيَّامِ لَا اتَّقَاضَاهُ

ومن غرائب هذه الفرقة، وعوارض هذه الشقة، أن مولانا قد بخل بكتابه،
وهو الذي يدوي به أخوه غليل اكتتابه، ويستعدي به على طارق الهم إذ لجّ في
انتيابه^(٥): [المنسرح]

(١) الرسالة في نهاية الأرب ٢٢/٨ وما بعد . والزيادة منه .

(٢) ديوان القاضي ٤٨٢ ونهاية الأرب ٢٢/٨ .

(٣) ديوان القاضي ٤٨٦ ونهاية الأرب ٢٣/٨ .

(٤) من قول عمران بن حطان : [شعر الخوارج ١٧ وثمار القلوب ٢/٩٢٩] [الطويل]

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تَحِبُّ كَانَهَا سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ

(٥) ديوان القاضي ٥١٦ ونهاية الأرب ٢٣/٨ . وروايته في الأصل : X لا اتقضاه .

كمثل يعقوبَ ضلَّ يُوسُفُهُ فاعتاض عنه بشمُّ أثوابه
 وهب أن فلاناً عاقه عن الكتب عائقٌ، واختدع ناظره كمن هو كناظره عيشٌ
 رائقٌ، فما الذي عرض لمولاي حتى صار جوهر وُدّه عرضاً، وجعل قلبي لسهام
 إعراضه غرضاً؟^(١): [البسيط]

بي منه ما لو بدا بالشَّمس ما طلعت من الكآبة أو بالبرق ما ومضا
 وما عهدهُ أدام الله سعادتهُ إلا وقد استراحت عواذلهُ، وعُري به أفراسُ الصبا
 ورواحلهُ^(٢)، إلا أن يكون قد عاد إلى ذلك اللّجج، ومرض قلبه وما على المريض
 من حرج؛ وأي ما كان ففي فؤادي إليه سريرة شوقٍ لا أذيعها ولا أضيعها،
 ونفسي أسيرة غلةٍ لا أطيقها بل أطيعها^(٣): [الطويل]

وإنني لمشتاقٌ إليك وعاتبٌ عليك ولكن عتبه لا أذيعها
 الأخ النظام—أدام الله انتظام السعد ببقائه، وأعداني على الوجد بلقائه—
 مخصوصٌ بالتحية الأريحية؛ ووالهفاً على تلك السجية السخية، وردت منها
 البابلي معتقاً، [وظلت من أسر الهوم بلقائها معتقاً]^(٤): [الطويل]

خلائق إمّا ماء مُزنٍ بشُهده أغادئ بها أو ماء كرم مُصَفَّقا
 ومنه قوله:

لو كاتبتُ سيدنا بمقدار شوقي لأضجرتُه، ولو أغببته بمقدار ثقتي به لهجرتُه.

(١) البيت لأبي العلاء المعري . في سقط الزند ٦٥٤/٢ .

(٢) من قول زهير بن أبي سلمى : [ديوانه ١٢٤] [الطويل]

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعُري أفراسُ الصبا ورواحله

(٣) ليس في ديوان القاضي .

(٤) ديوان القاضي ٥٠٩ ونهاية الأرب ٢٤/٨ .

ومنه قوله:

ووصف في كتابه شوقاً أعانه على وصفه منه ما خذلني مني، وأخبرني عنه
وإنما أخبرني عني.

ومنه قوله:

كُتِبُ الحُضرة لو تتابعت وطالت، عندي بمنزلة المُقتنص البهجة، المُبتكر اللذة،
فكيف وهي لا تصل إلا وترأ، ولا تزور إلا غباً، ولا ترخص للهائم إلا في النهلة، ولا
تُنفسُ خناق المُشتاق إلا بعد المهلة، وهي في أوسع العُذر لأشغالها، وفي أضيقة
لأشراقي، وقد نالت بأول كُتبها كُلَّ المودة، فهي لا تُتعبُ نفسها في طلب الباقي،
وأين ذلك الباقي؟ وما أشبه هذه القصة بقول جميل^(١): [الطويل]

إذا نظرت قالت: ظفرتُ بودّه وما ضرني بخلي فكيف أجودُ
وما المراد ما يُحملُ فيه على الخاطر، فقد عُرِفَت محاسنُه الغرُّ، ولا أن يتأتَّى
بقدر الرُقِّي إلى الدراري والغوص على الدرر؛ وعلى ذكر جميل فأحسنُ
قوله^(٢): [الطويل]

وإنني لراضٍ منك يابُثُن بالذي لوايقنُه الواشي لقرتُ بلبله
ومنه قوله في ذلك أيضاً^(٣):

إن أخذ العبدُ -أطال الله بقاء المجلس وثبت رفعتُه- في وصف أشواقه إلى
الأيام التي كانت قصاراً، وأعادت الأيام بعدها طوالاً، واللَّيالي التي جمعت من

(١) ديوانه ٦٣ باختلاف رواية في صدره.

(٢) ديوانه ١٦٩. ورواية العجز في الأصل: X لو استيقنه وبه ينكسر الوزن.

(٣) نهاية الأرب ٢٤/٨.

أنوار وجهه شمساً، ومن رغد العيش في داره ظلالاً^(١): [الطويل]

وجدتُ اضطباري بعدهنَّ سفاهةً وأبصرتُ رُشدي بعدهنَّ ضلالاً
وإن أخذ في ذكر ما ينطلقُ به لسانُهُ من ولاءٍ صريحٍ، ويعتقلُ جنائهُ من ثناءٍ
فصيح^(٢): [الطويل]

تعاطى منالاً لا يُنالُ بعزيمةٍ وكُلُّ اعتزامٍ عن مداهُ طليحُ
ولكنَّهُ يعدلُ عن هذينِ إلى الدُّعاء، بأن يُبقِيه الله للإسلام صدراً، وفي سماءِ
الملَّةِ بدرأً، وفي ظُلُماتِ الحوادثِ فجرأً، وأن يجمعَ الشملَ بمجلسه وعراضُ الآمالِ
مطلولة، وسهامُ القُربِ على نُحُورِ البُعدِ مدلولة، وعقودُ الندى بيدِ اللقاءِ
محلولة، ﴿وما ذلك على الله بعزيزٌ﴾^{(٣)(٤)}: [الطويل]

فقد يجمعُ الله الشَّيتَينِ بعدما يظُنُّ أن كلَّ الظَّنِّ أن لا تلاقيا
وما رمت به النوى مراميها، ولا سلكت به الغربة مهاويها، ولا استجد شوقُهُ
من الجُفون ما فيها^(٥): [الكامل]

أغلت على السُّلوان شوقكم فما باعت كما أمر الغرامُ من اشترى
ومُذ فارقت تلك الغرَّةَ البدريةَ، والطلعةَ العزيزةَ، ما ظفرتُ بشخصه نوماً،
ولا بكتابه يوماً، فيا عجباً حتَّى ولا الطَّيفُ طارقُ^(٦): [من الطويل]

(١) ديوان القاضي ٤٩٦ ونهاية الأرب ٢٤/٨. وفي الأصل: X ضلالاً.

(٢) ديوان القاضي ٥٠٤ ونهاية الأرب ٢٥/٨.

(٣) سورة فاطر: ١٧.

(٤) البيت للمجنون في ديوانه ٢٩٣.

(٥) ليس في ديوان القاضي.

(٦) ديوان القاضي ٥٠٤ ونهاية الأرب ٢٩/٨.

وأعجب له في الحرب نشرُ كتائبٍ بكفُّ أبت في السُّلم نظم كتاب
يُحاسبُني في لفظةٍ بعد لفظةٍ ومَعروفُهُ يأتي بغير حساب^(١)

ولو رضيتُ — وكلاً بأن أحمل من هذا الجفاء كلاً — لما رضي به لخلقه الرضيُّ،
ولأخذ بقول الرضي^(٢): [الطويل]

هَبُونِي أرضي في الإياس بهجرُكم أيرضي لمن يرجوه ما دون وصله
ومنه قولُه يتشوق^(٣): [من الطويل]

فيا ربَّ إنَّ البين أضحت صُروفُهُ عليّ ومالي من مُعينٍ فكُن معي
على قُرب عُدالي وبعْد أحبَّتني وأمواه أجفاني ونيران أضلَّعي

هذه تحية القلب المُعذب، وسريرة الصُّبر المُذبذب، وظلامَةُ عزم السُّكون
المُكذَّب، أصدرتها إلى المجلس وقد في الحشا نارُها، والزَّفيرُ أوارُها، والدُّموعُ
شرارُها، والشُّوقُ آثارُها^(٤): [الكامل]

لوزارني منكم خيالٌ هاجرٌ لهدته في ظلماته أنوارُها

وإلى^(٥) الله يرغبُ أن يجعله بالسَّلامة مكنوفاً، وصرف الحدثان عن ساحته
مكفوفاً، ووفود الرِّجاء على أرجائه عُكوفاً، وأن يُمتع الوجود بوصفه الذي هو
أشرفُ من كُلِّ وحيدٍ موصوفاً^(٦): [الكامل]

(١) في الأصل : ... في لطفه بعد لفظة X والمثبت من نهاية الأرب

(٢) ليس في ديوان الشريف الرضي .

(٣) صبح الاعشى ١ / ٢٧٤ ونهاية الأرب ٨ / ٣٠؛ والبيتان فيهما وديوان القاضي ٤٩١ .

(٤) ليس في ديوان القاضي .

(٥) من هنا وإلى نهاية النص ، من رسالة أخرى في نهاية الأرب ٨ / ٣٥ .

(٦) ديوان القاضي ٥٠٩ ونهاية الأرب ٨ / ٣٦ .

من كان يُشركُ في عَلاكِ فيإنني وجَّهْتُ وجهي نحوهُنَّ حنيفاً
وقد كان ينتظرُ كتاباً يُشرفُهُ ويُشَنِّفُهُ، ويستخدمُهُ على الأوامر ويُصرِّفُهُ،
ويجتني به ثمر السرور غَضُّ المكاسر ويقتطفُهُ؛ فتأخر ولم يحدث له التأخير ظناً،
ولا صرفُهُ أن يعتقد أن مولاه لا تحدث له الأيام بخلاً بفضله ولا ضناً^(١): [الطويل]

ولو تُصرفُ السُحبُ الغزارُ عن الثرى لما انصرفت عن طبعك الشيمُ الحسنى
وهو ينتظرُ من الأمر والنهي ما يكونُ عملُهُ بحسبه، وما يُثبتُ له عهد الخدام
بنسبه.

ومنه قوله في ذلك^(٢): [الطويل]

ومن عجب أني أحنُّ إليهم وأُساءلُ عنهم من أرى وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
كتبتُ والعبرات تمحو السطور، ويوقدُ ماؤها نار الصدور، وتهتكُ وجداً كان
تحت الستور، وترسل من بين أضلعي نفس الموتور^(٣): [الخفيف]

قد ذكرنا عهودكم بعدما طأ لت ليالٍ من بعدها وشهور
عجباً للقلوب كيف أطاقت بعدكم ما القلوب إلا صخور
وما وردت الماء إلا وجدتُ له على كبدي وقد لا برداً، ولا تعرضتُ لنفحات
النسيم إلا أهدى إليَّ جهداً، ولا زارني طيفُ الخيال إلا وجدني قطعتُ طريقه

(١) ديوان القاضي ٤٩٢ ونهاية الأرب ٣٦/٨؛ والبيتان فيه وديوان القاضي ٥٠٣.

(٢) الرسالة في نهاية الأرب ٣٦/٨؛ والبيتان فيه وديوان القاضي ٥٠٣.

(٣) ديوان القاضي ٤٩٠ ونهاية الأرب ٣٦/٨.

سهداً، ولا خطف البارقُ الشاميُّ فأراه قلبي خُفوقاً ووقداً^(١): [المتقارب]
 وأيسرُ ما نال منِّي الغليـ
 ل أن لا أحسَّ من الماء برداً
 فسقى الله داره ما شربت من الغمام؛ وأيامنا بها وبدور ليالي تلك الأيام
 تمام^(٢): [الكامل]

دُم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام
 وكان قد وصل منه كتابٌ كالطيف أو أقصر زوراً، وكالحب أو أظهر جوراً،
 والربيع أو أبهر نوراً، أو النجم أو أعلى طوراً، أو الماء الزلال أو أبعد غوراً؛ فنثرت عليه
 قبلي، وجعلت [سطوره قبلي]^(٣) [بل قبلي، ووردت منه مورداً^(٤)]: [البسيط]
 أهلاً به وعلى الإظماء أنشدُه
 لو بل من غللي أبلت [من] عللي^(٥)
 إلا أنه أبقاه الله ما عززه بئان، ولا آنس غربته، وإني وإياه غريبان^(٦):
 الطويل]

وكم ظل أو كم بات عندي كتابه
 سمير ضميري أو جنان جناني
 وأرغب إليه، لازالت الرغبات إليه، وأسأله لا جثم السؤال إلا لديه، أن
 يلاطف بكتابه قلبي، ويمثل بمثاله أيام قربي^(٧): [مجزوء الكامل]

(١) ديوان القاضي ٤٨٧ ونهاية الأرب ٣٦/٨ .

(٢) البيت الجريح في ديوانه ٩٩٠/٢ والمنازل والديار ١٤ والنقائض ٢٦٩/١ .

(٣) الزيادة من نهاية الأرب ٣٧/٨ . وقبلي الأولى : تجاهي . والثانية : قبلي .

(٤) ديوان القاضي ٤٩٧ ونهاية الأرب ٣٧/٨ .

(٥) في الأصل : ... وعن الظلماء ... X لو بل من عللي أو بلت غللي .

(٦) ديوان القاضي ٥٠٠ ونهاية الأرب ٣٧/٨ .

(٧) ديوان القاضي ٤٨٣ ونهاية الأرب ٣٨/٨ ؛ وهما لظافر الحداد في ديوانه ٥٣ .

والله لولا أنني أرجو اللقاء لقضيتُ نحبي
هذا وما فارقْتُكُمْ لكنني فارقْتُ قلبي

ومنه قوله جواب كتاب ورد عليه^(١): [الطويل]

شكرتُ لدهري جمعه الدار مرةً وتلك يدٌ عندي له لا أضيعُها

ورد^(٢) على الخادم كتابُ المجلس -أعلى الله سُلطانه وثبَّتَه، وأرغم أنفِ
عدوّه وكبَّتَه، وأصمَاهُ بسهام انتقامه وأصمته، ولا أخلى الدنيا من وجوده، كما
لم يُخل أهلها من جوده، ولا عطّل سماء المجد من صعوده، كما لم يُعطّل أرضها
من سُعوده - فقام له قائماً على قدمه، وسجد في الطرس مُماتلاً سُجود قلمه،
واسترعى الله العهد على أنه تعالى قد رعى ما أودعه في ذمة كرمه، وصارت له
نجرانُ علاقة خيرٍ صرف إليها وجهه فكأنها قبله، ودعا بني الآمال إلى اعتقاد
فضل مالِكها، فكأنما يدعوهم إلى ملّة؛ والله يوزعه شُكر هذا الافتقاد على
البعاد، ولا يُخلّيه من هذا الرأي الجميل الذي هو عقد الاعتقاد.

ومنه قوله^(٣):

ورد كتابُ [المجلس] ووقفتُ منه على مالا يجدُ الشُكر عنه محيداً، وآنستُ
به القلب الذي كان وحيداً، وعددتُ يوم وصوله السعيد عيداً، ووردتُ منه بقرأ
مُعطلةً، وحللتُ قصرأ مشيداً، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاً وُسْعَهَا﴾، وتلك الغاية
ليست في وسعي، ولا تعلم نفسٌ إلا ما طرق سمعها، وتلك المحاسنُ ما طرق مثلها
سمعي، وهذه الأوبدِ الأبعاد ما طالها ذراعي، ولا استقلَّ بها ذرعي.

(١) ديوان القاضي ٥١٤ ونهاية الأرب ٣٨/٨.

(٢) نهاية الأرب ٣٨/٨.

(٣) نهاية الأرب ٣٩/٨.

ومنه قوله^(١):

المملوك يُقبلُ التُّراب الذي يوماً يُستفزُّ بحوافز سيله، ويوماً يستقرُّ بحوافر خيله؛ فلا زال في يوم السيل^(٢) جُوده سحاباً صائباً، وفي يوم الحرب شهاباً ثاقباً، وينهي أنه وردت عليه المكاتبُ، التي استيقظت بها آماله من وسنها، وأفادته معنى من الجنة، فإنه أذهبت ما بالنفس من حزنها؛ وتلقى المملوك قبلتها بالسُّجود والتَّقبيل، وتحلى بعُقود سطورها فهيئات بعد هذا شكوى التَّعطيل، واكتحل من داء السُّهد بإثمها، وأدار على الأيام كأس مُرقدها، وأسمعته نغم النِّعم التي هي أعجب إلى النفس من نغمات معبدها^(٣)، وأطالت الوقوف عليها بركاب طرفه، فما وقوفُ ركاب طرفه ببرة تُهمدها^(٤)، وضرع إلى من يشفعُ وسائل المتضرعين، وبملاَ مواقع آمال المتوقعين، أن يغلَّ عنه كل يدٍ للخطوب بسيطة، ويفكَّ به كل رقبةٍ للأيام بأعناق منها محيطة^(٥).

ومنه قوله:

وصل كتابُ الحضرة السامية -لازالت رياضُ نباتها مُتفاححةً، وخطراتُ الردى دُونها مُتنازحةً، والبركاتُ إلى جنابها مُتواليةً، والليالي بإبراز سعادتها مُتلايةً، والأيامُ الجافيةُ عن بقية الفصل منها مُتجافيةً، تُنحر إليها المكرُمات إذا لم

(١) نهاية الأرب ٨ / ٤٠ .

(٢) كذا في الأصل، وفي نهاية الأرب: في يوم السلم.

(٣) هو معبد بن وهب، كان من أحسن الناس غناءً، وأجودهم صنعة، وهو فحل المغنين، وإمام أهل المدينة في الغناء؛ مات في خلافة الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده . (الأغاني ١ / ٣٦).

(٤) يشير إلى قول طرفه بن العبد: [ديوانه ٦]

لخولة أطلال ببرة تُهمد تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليد

(٥) في نهاية الأرب: ويفكَّ به كل رقبةٍ للأيام بأعناق بنيتها محيطة.

تكن لها فئة - فأنشده ضالة هوى كانت سُدى، ورفع له ناراً موسوية، سمع عندها الخطاب، وأنس الخير، ووجد الهدى، وكانت نارُ العليل في فؤاده بخلاف نار الخليل، فإنَّها لا تقبلُ ندى الأجفان بأن يكون برداً وسلاماً، ولا يرى إلا أضرى ما يكونُ ضراماً؛ وشهد الله لقد كان العبدُ حصر القول نشوزاً، منذ فارقتها على تلك الصفة، فلا هو قضى من حقها فرائض لزمته، والله وتعينته، ولا الضرورة في مقامها بحيث تُبلغه الشهادة أذنت، ولا الأيام بالبُعد ما أساءت، فإنَّها بالقرب ما أحسنت^(١): [الطويل]

وإنَّ امرءاً يبقى على ذا فؤاده ويخبر عنه إنَّه لصبورٌ
ونعودُ إلى ذكر الكتاب الكريم، فإنَّه سجد لمحاربه وسلَّم، وحسنتُ سُطوره فحسبها مباسم تتبسَّم، ووقف عليه وقوف المحبِّ على الطفل وكلمه ولا يتكلم، وهطل جفنه وقد كان جُمادى، وتصفحه وقد كان على تصفحه المحرم، وجدد له صباية لا يصحُّبها أمل، وخاف أن لا يدرك الهيجا حمل^(٢)، وقال الكتاب^(٣): [البسيط]

إنَّا محيوك فاسلم أيُّها الطُّللُ [وإنَّ بليت، وإن طالت بك الطُّيلُ]
وأنشد نيابة عنها^(٤): [الطويل]
وإنَّ بلاداً ما احتلت بي لعاطلٌ وإنَّ زماناً ما وفى لي لحوانٌ

(١) البيت ليس في ديوان القاضي .

(٢) من قول الراجز : [المستقصى ٢/ ٢٧٨]

لَبَّثَ قليلاً يلحق الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

(٣) البيت للقمامي في ديوانه ٢٣ .

(٤) ديوان القاضي ٥٢٠ .

واللهُ المسؤول لها في عاقبة حميدة، وبقية من العمر مديدة، فإنها الآن نُوحُ
 أهل الأدب، وطوفانها العلم الذي في صدرها؛ ولا غرو إن بلغ عُمره مُدَّة عُمرها،
 على أنه يتحقق خلودها في الجنة بعملها، وفي الدنيا بذكرها، وإن الدارين تتغايران
 على عقائل فخرها، ولا يتأخران عن إجراءاتها على عاداتها في رفع قدرها، وعلى أنها
 طالما أقامت على الدنيا السُّكرى، حين أقامت في حدّها من العُمر الثمانين، وأدّبت
 الأيام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السّلم من قلمها تأديب الخائنين، وما
 حملت العصا بعد السيف حتّى ألقت إليها السّلم، فوضعت الحرب أوزارها، وما
 استقلت بآية موسى إلّا لتعجز بها أنهار الخواطر وتضرب بحارها، وما هي إلّا رُمحٌ
 وكفى بيدها سناناً، وما هي إلّا جوادٌ تجنبُ السنين خلفها فتكون أناملها لها عناناً.

وقوله:

ولعله الآن قد عوفي من الأمرين، وقرّت بوجهه العين، وجُدّد عهده بنظره،
 وقرب عليه لسانه إسناد خبره، وبلّت منه غُلة الحائم، ورأت منه هلال الصائم،
 وطالعتها وجه الزمان المُغضب بصفحة الباسم، ووفى مواعيد الأُنس منه الضّامنُ
 الغارم؛ وهو يُسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد، ويستمدّ الوفاء من غرس
 ذلك العهد، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم، موضع الطوق من الحمام، يتقلده
 فلا يخلع، ويُعجبه فلا يكاد يسجع، ويحكيه طوقاً على الأسى، إلّا أنه بدرّ
 الدّمع يرصع؛ وإذا أنعم به فليكن مع ثقة، ويخشى أن يكون هذا الشرط له
 قاطعاً، بل مع من اتفق فإنه كالمسك، لا يدعه العرف الضائع أن يكون
 ضائعاً^(١): [الكامل]

أُكْتُبُهُ يَكْتُبُ لِي أَمَاناً مَاضِياً وَابْعَثْهُ يَبْعَثُ لِي زَمَاناً رَاجِياً

إن أشتريه بمهجتي فقليلة فاسمح به فمتى عرفتك مانعاً
ومنه قوله:

وقف الخادم على ما شرف به طبعه، وشنف به سمعه، وضيق سعة ذرعه،
من العتاب الذي خفض له الجناح، واستعذب به الجراح، وأسر فيه بقيد أسى
مُستطابٍ لا يُرادُّ منه السراح، وقُذِف به في لهوات ليل لم يودَّ أن يبتسم فيه
الصباح؛ وقد علم الله أنه بريء من كل ما يُوجب المذام، ويُطلق ألسنة الملام،
ومليء من الخدمة بما لا يُغضي فيه عن حق سبقه لأحدٍ من الخدام، وأنه لجوادٌ
يبدُل جهده وما عليه أن يحلب الأيام، وأنه لمُستيقظٌ من حقوق الخدمة إلا أن
حظه من أهل الكهف لطول المنام، وما كان تأخره عن المكاتبات التي يخدم بها
مجلسها، ويقتدح بها من الإجابة قبسها، إلا الرغبة أن يكون مُقترناً بحصول
أمر، فما أسعفته الأقدار بمُراد، ولا لنجح رائد اجتهاده؛ وكتب هذه الخدمة حين
أُحصر على ما استيسر من الهدى، قد ركب من قديم الإخلال حدَّ النهي، مُتبرئاً
من التقصير الذي ما هو منه ولا إليه، ومُعولاً في العذر الذي ما كان مخلوقاً قبل
خلق يديه؛ ووصل الأمير أن معظم الأنس بِمَقْدَمِهَا الكريم، وقدا إلى بلادٍ
صارت كظل رامة لا يريم، ولا يُؤدِّي يومه الجديد ما كان يُؤدِّيهِ أمسه القديم،
وكيف ما حل أهل هذا البيت، فهم في كل بيت صدوره، وفي كل مطلع نجومه
وبدوره، لا تذال أنوارهم بإشارة الأصابع، ولا تتبدل أقدارهم في مصونات
المجامع: [البسيط]

بحميه للأؤة ولو ذعيتُهُ عن أن يُذال بمن أو ممن الرَّجلُ

كان الأرض بهم سماء، فإنهم طوالعها، وكان الدنيا بهم رياض، فإن
أوجههم زهرها، وأيديهم مشارعها؛ وما يدعُ العبد غاية من الخدمة لهما إلا

بلغها واعتذر، واجتهد ورأى أنه قد قصر، لازالت الأيام نازمة لعقد المجد ببقاء
الواسطة، ولا برحت الجنة العليا مصرفة بأيديهم الباسطة.

ومنه قوله:

سَطَّر هذه الخدمة - ثَبَّتَ الله قواعد مجده وأرساها، ولا ابتزُ أفنيته حُلاها من
السُّعود وكساها، وقرن بالسُّكون والأنوار مصباحها وممساها - في ساعة رحيل قد
غرَّد حاديه، وسال شطُّ واديه، وكان يُؤملُ اجتماعاً يُغنيه عن تحمُّلِ منن الأقلام
وصنائعها، ويُدينه من مُشافهة الأنوار التي إلى اليوم ما تناست العيونُ فضل
ودائعها، فأحصرتهُ الأنوارُ دُونَ منسكه، وعشرته الأيامُ بذيل العجز في مسلكه،
وعزَّت جناحه بما لم يستقلُّ مُجاذبته من شركه، فسارت الراية الناصرية نصرها
الله^(١): [الكامل]

وأقمتُ بُعد، وللزمانِ عجائبُ منها ترحلُ مُهجتي ومُقامي
ويعزُّ عليه أن لا يتطوَّفَ بربعه، ولا يرى الديار إلا بسمعه، ورضي بما يرضي
الرضى من ساكني سلعه.

ومنه قوله:

وصل إلى خادم المجلس - لازال جفنُ الدهر عنه كليلاً، ولا برج مجده فوق
مفرقه إكليلاً، ورأيه في غياهب الأمور فجرأ ساطعاً، وفي مفاصل الخطوب سيفاً
قاطعاً، وشُعاع صوابه في ظلام المشكلات شائعاً - كتابٌ منه فكٌ منه قُفل النفس
من أسرها، وحاز لها الأمانى بأسرها، وتغلغل لطفاً في القلوب إلى حيثُ مُستقرُّ
المستودع من سرها، وجدد له لهفاً لولا التماسك لهفاً قلبه بأدنى أنفاسه، وتدرَّع

من سهام الدهر به ولا غرو أن يدخر لباسه لبأسه.

وأما الكتب المنعم بها على يد فلان فلم يصل شيء منها، والطرفُ بها معقودٌ، والقلبُ إلى حيثُ ورودها مورودٌ؛ ولا شبهة في أن الطريق كالخواطر— وما يعني إلا خواطر نفسه— مربوطة لا تنفذ مسالكها، وكم طالع فكرةً مظلمة لا تنجلي حوالكها، وهو من كتب المجلس—أدام الله نعمته— بين روضة قد تلاحت غُرر محاسنها، وتناسقت دُرر معادنها، فمن نورة في كمام، وزهرة في نظام، وثمرة في تمام، ونضرة في ضحى وعبقة في ظلام، فهو من واصله ومتواصلة، وواقعة ومتواقعة، وطالعة ومتطلعة، وبانعة ومتنوعة، لا خلت من صوب سحاب خاطره الروى يروضها ويروضها، ويرفع مياسم الجذوب ويقضها ويقوضها، وما يحسب الخادم أن هذا الكتاب إلا مساوقاً لوصول الركاب الناصري إلى الشام، فهنيئاً له أن زاره السحاب الطبق والربيع الطلق، وأن أضاء بمحضره فجٍّ وأظلمت بمغيبه فجاجٌ، وأن خمدت للمخافة ناراً واتقد للأمنة سراجٌ وهاجٌ، ومصرٌ وإن كانت داراً، ما خرج عنها من الشام إلا إلى دهليزها، فإنه عزيزٌ عليها—والله— وعلى أهلها فراقٌ عزيزها.

وأما حال الخادم بعد فرقة الركاب المشكور، فوالله لقد عرد قلبه من أمره وووعده، بما لم يف به لا من سلوه بل من صبره، وسار بعد ذلك القلب فما وجد منه عزيمة فيطالبه بموعد نصره، وما خالف عادة تسرعه، وأخلف عدة تبرعه، إلا أنه كان في غير سفرة ما كان نفى غبارها، وفي إلال فرقة ما كانت كفات إسارها، ولا سيما بعد أن أطلعت الأربعون شرفها، ونصبته الخمسون هدفها، فأنكر تلك التي كان عرفها، وفارق عصر شببته وما وجد في المشيب خلفها، ولحق أمله ببذنه وكلاهما قد أنهج، وقربته الخمسون مع معترك^(١) الستين، وكلاهما

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب : من معترك ..

قد أزعج؛ والله المسؤول في يقظة قلب وعين، وصُحبة تبين قبل صيحة بين؛
والله المشكور إذا عشي عن المجلس عُيون الأيام ولواحظها، وأفهمه إشارات الدنيا
ومواعظها، فقد أبطل بعصاه سحرها، وفضح بقلمه سرها، وانتضاها فقطع بها
ولم تقطعه، ولبسها فخلعها ولم تخلعه، وانتظم أيامها في سلك
أعوامه، وغصب أهلها حتى أنوارها، وألقى الجنا على قوامها لا على قوامه، فلا
زالت في عمر وريق الأفنان، وثيق الأركان، تنزود كل يوم فيما يتزود، ويشتد
رُكنها ويتأيد ولا يتأود.
ومنه قوله رحمه الله:

أدام الله أيام المجلس، وأيده في كل مقام ومقال، ووسع له كل مجال ومنال،
وأنفذ له كل رسم ومثال، وحرس عهود سعوده من الانتقال والملال، ولازال مفيد
الفوائد، معروف العوارف، منصور الأنصار، ظليل الظلال، ورفع علمه، وثبت
قدمه، ونصر سيفه وقلمه، وكرم شيمه وهممه، وعزز موارد جوده وديمه،
وأعدى بها كل ولي على الدهر إذا ظلمه.

ورد كتاب مولانا الذي هو مولى الكتُب وسيدّها وأوحدّها، وموردّه على
القلوب منهلها العذب وموردّها، وفيه من الإنعام مالا سبيل إلى شكره، بل إلى
شكره، بلسان ذكره، ومالا يقوم الخادم بواجب حق بشره إلى يوم نشره؛ وكان
وصول الكتاب الكريم، والخادم على قلقٍ لتأخر الكتُب وإبطائها، وشذوذ الترسُّل
وتواني خواطر استدعائها، وقد قابل تأخر الكتُب المظفرية تأخر الكتُب الناصرية،
وتعاونت الشواغل على الخواطر، وتواحي طيف خيال السكون من جانبيهما
لجفوة ناظر المشفق الساهر، ولا جرم أن وصولهما صبّحت به بكرة يوم لا يومين،
فكأنما كانا على ميعاد، وطُرقت الليلة بتوأمين بكتابيهما، فسقياً ليلية هذا
الميلاد.

ووقف المملوكُ على ما في الكتاب المظفريّ، ولائح الأمر أن المولى قد قلا
مصر وجفاها، وأنه خلّى الديار تستوحشُ ممن بناها: [الوافر]

فإن ترك العراق وساكنيه فقد تُمنى المليحة بالطلاق

والمولى إذا حلّ في مكانٍ نهضت عواثرُ جدوده، وطلعت طوابعُ سعوده، وكان
بنفسه عسكرياً، وبذكره عديداً مُستكثرّاً، وجدّد من عزمه حديثاً مُذكراً، ولم
يحتج معه إلى جيوش في ديوان، ولا إلى سُيوفٍ في أجفان، وقام بنفسه النفيسة
مقام الفئة، وأقلق العدو في موطنه وحرّم عليه موطنه، والخدمُ خادمُ أغراض الخلق
في هذه الدلالة، وإسائه نائبُ السنتهم في هذه المقالة^(١): [الطويل]

[فعاجوا فائتوا بالذي أنت أهله] ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

ومنه قوله رحمه الله :

ورد على المملوك -أدام الله ورود السُعود على الجناب الملكي المظفريّ، ولا
زالت السُعودُ تصحبه، والنُوبُ تخدمه، والشّفاةُ تلثمُ ترابه، والسعادةُ تستمطرُ
سحابه، والوفودُ تلتزم أبوابه، والأيامُ تتهيبُ حجابهُ، وتيجانُ الملوك تحفُ ركابه،
والأقدارُ تُقربُ آرابه، والنّصرُ يغلبُ أحزابه- مواهب مولانا المُسماة كُتباً، وآثارُ
سُجبه التي أنبتت من الأسطر عُشباً، ولحظت حظه الحجريّ فأعجب وأعشب،
وإن السعادة لتلحظُ الحجر فيدعي ربّاً؛ لا برحت نعمة مولانا فوق شكر
الشّاكرين، وكتبهُ راحة قلوب المنتظرين، وعُقلة عُيون النّاظرين، ووصل ما سيّر
من الحمل إلى الخزّانة على يد جامع ورُفقتة، في وقت الحاجة الدّاعية، والخلة
البادية، والضّرورة المُتمادية، وأنفق في الحاشية والتّعدية، وفُرق في أرباب المطالب
والمطامع القريبة والمُتعدية، وتضاعف الشُّكرُ لمن جمع هذا المال ووَقَّره، ويسرهُ

(١) البيت لنصيب بن رباح، في ديوانه ٥٩. والزيادة منه.

وسيرهُ، واستخدم فيه ناظرهُ ونظرهُ؛ وما يعدُّ المملوك ما وصل إلا موهبةً صرفها إليه، ونعمةً أسبغها عليه، ومنَّةٌ تقلَّدها وقلد بها المنن، وصنيعةٌ استرقَّتْهُ وإن كان قد سَلَفَ استرقاقُهُ بأوَّلِ ثَمَنٍ، فإنَّه وفي بذِّقَةٍ، لِسَانِهِ، وبَيَّضَ وَجْهَ ضَمَانِهِ، وكلُّ مَنْ وصل إليه شيءٌ من هذا البرِّ شكر المولى فأكثر، وفرح بأنَّ غرس الرِّجاء قد أثمر، ورأى من وجوه رُسُلِهِ أهلةً، وظنَّ الإحسان عيد صيام الانتظار، فقال: الله أكبرُ، وتشيع سيِّبُهُم عند فيض سنيِّ عطائه فتوالى فغفر؛ وبالمعروف، فلولا له لكان قد درست أعلامه، بل لولاهُ [لم] يعرفهُ، [و] لكان قد سُلِّبَت أَلْفُهُ ولأُمُّهُ؛ وإنَّ غِيثاً يُصْبِحُ من مصر بحمص لقد أبعد مرماه، وكرَّم مُنْتَمَاهُ، وسما مُسمَّاه، وسرى طيف الخيال، ولكن إلى من لم ينم، وجرى مجرى النسيم إلا أنه ينفخُ الأرواح في النسم؛ وللمملوك سبَحٌ طويلٌ في الحمد، ولا بد أن يدخر منه ما يستأنفه عند تكملة الإنعام، على أن يشرع في الشكر عند كل مسألة، ثقة بما وراءه من الاهتمام؛ فأما العافية الشاملة لأهل الإقليم، فكيف لا تشملُهُم وسيف المولى الطبيب، ومهابتُهُ دون محبوب الأعداء منهم والرقيب؟ وكيف لا يَأْمَنُ الغابُ وهو مُسْبَعٌ؟ وكيف لا يُتَوَقَّى وهو مُشْرَعٌ؟ لا عدِموا هذا الظل فإنه كثيف، وهذا الطبع فإنه شريفٌ، وتلك الحماية فإنها الأمان، وتلك الولاية فإنها زمانٌ لا يُرجى مثله من الزمان.

ومنه قوله من كتاب إلى الملك المظفر تقي الدين^(١):

أصدر المملوكُ هذ الخدمة من ظاهر حماة، وهو ينظرُ إليها نظر المحبِّ إلى الحبيب، ويتذكر منها أيام الخدمة التي هي وطنه، ولو نأى عنها — وهي في

(١) الملك المظفر تقي الدين: عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي، صاحب حماة وأبر أصحابها؛ كان بطلاً شجاعاً مقداماً، جواداً ممدحاً، عالي الهمة؛ تملك حماة بإذن عمِّه صلاح الدين، وتوفي شاباً وهو يحاصر مناز كرد سنة ٥٨٧هـ. (وفيات الأعيان ٥٦/٣ وسير أعلام النبلاء ٢١/٢٠٢ وشفاء القلوب ٢٣٤).

فطنه- لكان كالغريب، ولولا حياءُ المملوك من مصر لكان بشرها وأهلها من قربه
منهما بفرجهما القريب، ولكن لابد من عصبيةٍ لمصر، فلا نفجؤها بمشيئة الله من
ذكر يوم فراقه باليوم العصيب، وآثار المولى على قلعة بلدها بمكان التيجان من
الرؤوس، وذكره بين أهلها من ناسك وخليع، يفتح المصاحف ويدير الكؤوس.

وكان ورود الركاب العالي الناصري نصره الله إليها في يوم كذا، أحسن الله
تقصيه، والمرضُ قد أحسن الله في تقصيه، والشفاءُ قد أنعم الله به على سلطاننا
وعلى من يليه، فيالها من نعمةٍ لا عُذر فيها للشكر إذا اعتذر، وبإلها موهبةٌ منةٌ
منَّ الله بها، آمن الذي آمن بها وبُهِت الذي كفر، وبإله صفوٌ لا كدر فيه، وكلُّ
صافيةٍ لم تخلُ من كدرٍ.

ومنه قوله:

﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١) فسُبْحَانَهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ جَلَّاهَا، وقد بلغت القلوب
الحناجر، وفرَّجها وقد بلغت الدُمُوعُ المحاجر، ومنَّ بالسُّلْطَانِ عَلَى الخلق، وأقامه ليعتمَّ
به إن شاء الله دينُ الحقِّ، فالمملوكُ يُبَشِّرُ مولانا -أدام الله له البُشْرَى- بالعافية
الناصرية، وقد سار المُبَشِّرُ عَنِّي بِكُتْبِهِ كَمَا يَقُولُ الْمُقَلِّلُ وَالْمُكَثِّرُ، وقد سِيرَ المملوكُ كتابه
الكريم لما فيه من زياداتٍ، ولما تضمنه من مُتجدداتٍ، وعند مولانا له كُتُبٌ كثيرةٌ
قد قضى منها الوطر، وقد نزه فيها النظر، وقد وجب أن يُردَّ طيرها إلى وكرها،
وعرائسها إلى خدرها؛ وأصدر المملوكُ هذه الخدمة ساعة سير السائر، كما أن المكاتبة
بما قبلها قد كانت أم الكبائر؛ وغير ذلك فهو يُنهي وصول كتاب مولانا، ومُطالعة
مولانا الناصرية بخطه، التي أنعم بتسييرها مفتوحة، وأفاد المملوكُ كلَّ فائدةٍ،
بالوقوف عليها، وقد سيرها فكان وصولها من حُسْنِ الاتِّفَاقِ، وكتابتها من سعادة

كاتبها تأتي عند العشي بالإشراق، لأن مولانا هنا بها عن العافية الأولى المكتوب بها، لينقطع الإرجاف، فصارت الآن هنا بعافية لا خلاف في أنها ما فيها خلاف.

ومنه قوله:

أدام الله سلطان الديوان العزيز، ولا زالت كتائب أعلامه تكتب أقلامه مرفهة، وأحلام وفاقه مرشدة، وأحلام أهل خلافه مسفهة، وسيوف عزائمه تستوعب كل حديث حسن، فلا تبقي إلا أحاديث عن السيوف مموهة، والقول بتوحيد فضل خلافته لازماً، فلا يقبل شبه المعطلة ولا تعطيل المشبهة؛ وأفعالها التي يتبغى بها وجه الله باسمه الشريف في الملكوت الأعلى منوهة، ولا زال قوله بلغاً، وأمره بالغا، وفضله سائغاً، وفضل الله به سابغاً، والحالي بعده للعاطل فاضحاً، والحق للباطل دامغاً، وإخلاص فطرة لا يدع للكفر شيئاً غابطاً، ولا للنفاق شائناً نابغاً.

الخدام يذكر أنه ورده، بل أورده من سدى الديوان، بل من أفق الإحسان، كتاب مرقوم، بل سحاب مركوم، أثبت في الأسماع، بل أنبت في الطباع، العقد النقي، وأهدى إلى البصائر الصادقة، بل أبدى للأبصار الرامقة، أي سابقة أنس، بل أي شارقة شمس، فأضاء الفضاء بنوره، وضرب بينه وبين الظلماء بسوره، فاستقلت ملوك المعاني على سريه، ودخل الفهم حينه، ورفلت الليالي في حريره، ونقلته عينه في الحال إلى ضميره، فأنست معانيه بما هناك من عقائد اختصاص، وموارد إخلاص، مستقرة في حيث لا تجري كل الأسرار، ولا تسري كل الأنوار، ولا تستودع إلا عقود التكليف، وخواطر التعريف، فالقت عصاها، ولقيت من أطاعها وما عصاها، وحلت حيث حلت، وجلت حيث جلّت، وانتدبت العزمات بمراجعتها، فهي المرأة إلا أن الصدا مصدود على صفحتها،

وهي العينان، إلا أن الليل والنهار سواء في وصف صحتها، وهي القلق، إلا أن العيون دائمة الاستمتاع بلمحتها، وهي الرّوض، إلا أن أنفاس النسيم مُنَافِسةٌ في العبارة عن غير نفحتها، وهي المذكراتُ الأنفس بالله، إلا أن أسطرها سلوكُها، وحروفها دُررُ صفحتها^(١)؛ ولا زال الخادمُ إلى مثل هذه الفقر فقيراً، وبها على نفسه بصيراً، وإذا أنعم بتسييرها إليه عدّها نعيماً مُقيماً، وإذا ملكها رآها مُلكاً كبيراً، وما تُردُّ واردةٌ من الدار العزيزة، وذلك أن المواصلَةَ ما فرغوا إلى دار الخلافة إلى أن فرغوا، وإلا فطالما طمع أولهم كما طمعوا، وقديماً دُعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما انتجعوا؛ ولا يُربّى الصغيرُ إلا بما رَبَّى^(٢) عليه الكبير، ولا سُبَّ على جناية الأول إلا بما جناهُ الأخير، وقد كانت دولة العجم بالعراق استعلت ثم استقلت، وهبت ثم وهنت، فتعبت رجالُ الليالي والأيام، وأولو تدبيرات السيوف والأقلام بدار الخلافة، إلى أن صرفوا العدى عن موردها، وأبعدوا الأذى عن معيها، واستقلت الخلافة وحدها، ولزمت الأمور حدها؛ وإذا كانت المواصلَةُ قد تقطعت بهم الأسباب، وأوصلهم حسابُ الحرب إلى العقاب، وتبرأ الذين أتبعوا من الذين اتَّبَعُوا، وتفرَّق الذين اجتمعوا بعدما جُمِعُوا، وفريقٌ فرّ نازحاً، وفريقٌ قرَّ مُصالحاً، وفريقٌ على البُعد راسل مستصلحاً ومُتطارحاً، وفريقٌ فتح بلده الذي كان التقليدُ له فاتحاً، فلم يبق للمواصلَةِ إلا أن يأووا إلى جبل يعصمُ من الماء، ويتعللوا بسرابٍ بقية لا مُتعلل فيه للظم، ومعلومٌ أنهم إذا اختلبوا تلك الجهة، عادوا عود طائر نقاقٍ إلى عشه، واسترجعوا خاتم مُلكٍ، فرُبما رجع الأمرُ جارياً على نفسه، وما أولى ولاهُ المناصب، وكفاة المراتب وحملَةُ الأمانات، وخدمُ سُدَّة السادات، إلى أن يُفيقوا لهذه العُمرة حق

(١) في الاصل : سفتحها.

(٢) في الاصل : ماريي.

الإفاقة، ويلحظوا طليعة هذه العواقب، ولا يُهمَلوها إلى أن تَجِيءَ في السَّاقَةِ ،
فهذا في مصالح الدولة الجزئية .

فأما المصالحُ الكلِّية؛ فإن عواقبها منهم عظيمةٌ، وبوائقها بأيديهم وأيدي
قديمهم قديمةٌ، فشدَّ ما أخذوه بالأمس براً بلثيم وبرءاً بسقيم، وهرب من لا حيلة
فيه، فاستبيحت منه حرمةٌ وحريمٌ، فكم عينٌ أزعجوا عنها إنسانها، وكم يدٍ بانوا
منها بنانها، ومنهم أولادُ ابن زين الدين علي كُوجك^(١)، التابع للخادم الآن،
فإنَّهم كشفوا منهم وجوهاً مصونةً، وهتكوا منهم عوراتٍ أمينةً، وحكَّموا فيهم
نظراتٍ ظنيَّةً، وطافوا بهم البلاد نهاراً، ولم يخافوا لله غضباً، ولم يرجوا له
وقاراً، كذلك وجدوا آباءهم على أمةٍ فاقتدوا بآثارهم، وعلى إيقاد نار حقدٍ
يستجمعون بهم في نارهم .

فأما الجباياتُ التي يأخذونها من الرعايا ظُلماً، وتضمنُ الشريعة لمن لا
يُمضي الله له على لسانه ولا يده حُكماً، واستباحةُ مُلك الأوقاف والأيتام،
والترقة في الحكم بين الخاص والعام، فكلُّ ذلك ممام لا يسع خليفة الله إقرارهم
على حيفه، ولا يعذرُهُ الله سبحانه في ترك مُجاهدتهم بكتابه إلى عبده الذي
جاهدهم بسيفه، ولا خفاء أنَّهم غابوا عن الجهاد للكفار، وحالوا بين الفرض وبين
أولي القُوَّة عليه والاعتدار، فلا يقنعون بأنهم لا يُجاهدون إلى أن يمنعوا من
يُجاهد عنهم، وبأنهم لا يُساعدون المسلمين إلى أن يُساعدوا عليهم عدوَّهم
الكافر، فقد تولَّو الشيطان تليداً وطريفاً، ووطئوا الإسلام وأهله وطعاً عنيفاً، فإذا
جاء وعدُ الآخرة جاء الله بهم في زُمرة الشياطين لفيفاً، فإن لم يرجع إلى الخادم

(١) زين الدين علي كوجك، صاحب إربل، كان قصيراً ولهذا قيل له كُجك وهو لفظ تركي معناه
الصغير، وأصله من التُركمان، ملك إربل وبلاداً كثيرة في تلك النواحي؛ كان موصوفاً بالقوة
المفرطة والشهامة؛ توفي سنة ٥٦٣ هـ . (وفيات الأعيان ٤ / ١١٤) .

فليرجع إلى قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾^(١).

والقومُ فما أبقوا للصُّلح موضعاً، ولا تركوا في رجعةٍ مطمعاً، ولا تخلّفوا عن سوءٍ بلغوه ناظراً ومسمعاً؛ فالمسلم القريب استزلّوا يمينه، والمسلم البعيد استخفّوا سكينه، والكافر استنصروا سيفه، والحشيّشي^(٢) استصرخوا سكينه، والأموال التي في بلاد تقليده أكلوها وأضاعوها، وأماناتُ الله ابتغوا بها ثمناً قليلاً فباعوها، والذخيرة التي كانت بقلعة حلب لو أنّ لها لساناً يتكلّم تظلم، ولو أنّ لذهبها الذي تصرم فؤادُ تضرّم، وحملت إلى الكفار فضربت بها أسنة يطاعن بها صدور المسلمين، أوبقيت في أيديهم فضيّعت لتنتهك بما فيها حرمة الدين، ومتى استشفّ النّظرُ العالي حال الخادم معهم لمح أنه من مبدأ وصوله إلى الشام الذي نوى به في الكفار إقامة الجهاد، وفي الإسماعيلية إمامة الإلحاد، وفي المسلمين إزالة الفساد، شغلوه ثلاث سنين عن هذه الفرائض، وجاءته قوارصُ لا تُحتقر وقوارضُ، وقد استولوا على حلب بلا حجة، وأخذوا ما فيها من الأموال بلا شبهة، وخرجوا عن اليمين المعقودة بلا معذرة، واستفزّوا من وافقهم من أمراء المسلمين بلا جريمة؛ والخادم على أن أجاب رسلهم بأنّي قد رضيت الديوان العزيز حكماً، واخترتُ من اختاره الله للمسلمين قيماً، فكان هذا الجواب [سبباً] أن يفرّوا إلى الفرنج، فحالفوا كفرتهم عليه، وإلى الإسماعيلية فأنهضوا مجرمهم إليه، ونازلوا طرف بلاده، وهو متوسط بلاد الكفار، فهدموا قلعة من قلاعها كانت زينة سلم ومفرز حذارٍ، وراسلهم واستنزلهم، وقال لهم قولاً ليناً، أنه

(١) سورة النساء : ٧٦.

(٢) الحشيّشيون : فرقة من الإسماعيلية، عرفوا باغتيالاتهم المتكررة لعدد من قادة المسلمين بالسكاكين. (انظر كتاب الدعوة الإسماعيلية لبرنارد لويس).

يحملهم به عنه، فحملهم، ثم ما برح كلما طوى بلادهم، وجاز مدنهم، يحضهم المناصحة، ويدعوهم إلى المصالحة؛ وممن عرضها عليهم على يده فامتنعوا، وشافهم على لسانه فما سمعوا، شيخ الشيوخ، وإن سئل عن الشهادة أداها، وإلى مسطوره في الديوان أداها، وبعد مصدر فلان عنه حشد عليه ملوك الأقطار، وخرجوا من دمنة القرية المحصنة والجدار، وتحرك إليهم فتحركوا لكن قدامه لا إليه، وراح إليهم فراحوا عنه، وكان ينتظر رواحهم عليه، وقتلهم السيف وهو في غمده، وكفى ما كان متوقعا من قبل جدّهم وقيل جدّه، وقد أخرجوه إلى أن أقطع البلاد الحلبية والجزيرية والموصلية لمن يخدم عليها، وسبقوه بين يديه إليها؛ والله سبحانه فقد أخذهم بما علم وعلموا، وتمكن منهم بما ظلموا، وما استبقاهم إلا ليكرر عليهم الرقة، فقد رقت لتقتل الشفار، ولا لألين القول فقد سمى ليذبح الجزار؛ فإن كان التعلق بالدار العزيزة وهم يحاصرون دار السلام بأحزابهم، ويرامون التاج الشريف بنشابهم، ويصاقون الخلفاء مصافة المواقف، ويكاشفونهم مكاشفة المخالف، ولو تحرك اليوم متحرك كانوا له كنانة، ولكانت دارهم له خزانة، ويعلم أن الخادم ما ذهبت عنه؛ ويرجو الخادم بالموصل أن يكون الموصل إلى القدس وسواحلها، ومستقر الكفر من القسطنطينية على بعد مراحلها، وبلاد الكرّج؛ فلو أن لهم من الإسلام جاراً لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن؛ فلو أن لها ماء سيف لأطفأ ما فيها من النار، إلى أن تعلوا كلمة الله العباسية الدنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصليب المرفوع خطباً طريحاً في المواقد، والناقوس الصهل أخرس اللهجة في المشاهد، هذا كله يجري بمشيئة الله في السيرة الناصرية، فتحلّى بها السير، ويجلّى بها الغير، ولا يكلف الخادم مالا ولا مدداً، ولا يتخلف عن نصرة ولي الله إذ كاد أعداء الله يكونون عليه لبدأ، ولا يقول أنه ينقص ما في الديوان بل يزيده، ولا يستفيده بل

يُفِيدُهُ، وَإِنْ اسْتَعْظَمَ هَذَا الْمَأْمُولُ، وَاسْتَقْصَرَ دُونَ هَذَا الْمُبْدُولِ، فَالَّذِي وَقَعَ أَعْظَمُ
مِنَ الَّذِي يُتَوَقَّعُ، وَالَّذِي طَلَعَ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي يُتَطَّلَعُ، وَالَّذِي رَأَى أَمْسَ أَكْثَرُ مِنَ
الَّذِي يَسْمَعُ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ دُنْيَا يَرِيدُهَا لِدُنْيَا يُتَزِيدُهَا، وَلَكِنْ
لِيَقْوَى بِهَا عَلَى تَقْوَى يَتَزَوَّدُهَا، فَإِنْ أُعِينَ عَلَى النَّيَّةِ، وَإِلَّا فَقَدْ حَصَلَ أَجْرُهَا، وَإِنْ
نَجَحَ جَهْدُ الْإِرَادَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَّا فَقَدْ سَرَّ فِي الْآخِرَةِ سَرُّهَا.

ومنه قوله:

كُلُّ مَا يَرُدُّ عَلَى عَبْدِ الْمَجْلِسِ -لَا زِلْتَ الْمَسَارُّ عَلَى جَانِبِهِ وَارِدَةً، وَالْأَيَّامُ
بِمُتَدَادِ عُمُرِهِ وَاعِدَةً- مِنْ أَنْفَاسِهِ الْعِطْرَةِ، وَكُتُبِهِ الْبَهْجَةِ النَّضْرَةِ، وَلَاءُ رَأْيِهِ
الَّتِي تُمَطِّرُ مِنْ صَدْرَتِ إِيْلَيْهِ صَوْبُ الصَّوَابِ، وَتَجْعَلُ لِمَنْ صَدْرَتْ عَنْهُ ثُوبُ
الثَّوَابِ، وَتَشْهَدُ لَهُ بِالْفَضْلِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جَاحِدٌ، وَتَذَكِّرُ بَيْتَ أَبِي
عُبَادَةَ^(١): [الطويل]

وَلَمْ أَرِ أَمْثَالَ الرُّجَالِ تَفَاوَتْوَا إِلَى الْفَضْلِ حَتَّى عُدَّ أَلْفُ بَوَاحِدٍ
ثُمَّ سَلَكَ عِبْدُهُ غَيْرَ هَذَا الْجَدِّدِ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْعَدَدِ، وَيَنْشُدُ قَوْلَ
الْآخِرِ: [الطويل]

وَمَا النَّاسُ إِلَّا قَدْحَةٌ أَنْتَ زَنْدُهَا وَفِطْرَةٌ غَيْثٌ أَنْتَ مُنْشِي سَحَابِهَا
فَلَا عَدَمَتْ دَوْلَ الْإِسْلَامِ، وَصَدُورَ الْأَيَّامِ، مِنْهُ الْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ، وَالْحَسَنَةُ
الرَّاجِحَةُ، وَالسَّيْفُ الَّذِي يُبْلِي الْأَيَّامَ فَهِيَ غَمْدُهُ، وَيَنْظُمُ السَّاعَاتِ مَحَاسِنُ فَهِيَ
عَقْدُهُ، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ خَدَمَ عَبْدِهِ عَنْ مَجْلِسِهِ، وَأَمْسَكَ عَنْ أَنْ يُقَابَلَ بِدَجَاهُ نُورِ
قَبْسِهِ، فَقَدْ عَلِمَ أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ أَنَّ الطَّرِيقَ لَيْسَ بِقَاصِدٍ، وَالْعَدُوَّ لَيْسَ بِوَاحِدٍ، وَأَنَّ

الْكُتُبُ لَهَا أَقْوَامٌ سُوءٌ فِي الطَّرَقَاتِ، يَقْصِدُونَهَا وَيُرْصِدُونَهَا، وَأَنْ فَلَجَاتِ الشَّامِ
قَدْ حَالَ دُونَهَا؛ إِلَّا أَنْ الْأُمُورَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، قَدْ سَفَرُ وَجَدَ صِلَاحَهَا، وَاللَّيْلَةُ قَدْ دَنَتْ
مِنْ صَبَاحِهَا؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُتِمُّ مَا تَعَدَّى بِهِ الْخَائِلُ الْمُتَوَسِّمَةَ، وَيَحْمَدُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ
عَوَاقِبَ هَذِهِ الْخَائِلِ الْمُتَنَجِّمَةِ.

ومنها:

وقضايَا كُلِّهَا تَوْجِبُ أَنْ يَنْعَكِفَ الْمَجْلِسُ عَلَى فَرْضِ يَوْدِيهِ، وَنُصَحَ يَهْدِيهِ
وَدَعَاءُ لِمَوْلَى النِّعْمَةِ يُحْفِيهِ، وَاللَّهُ مُظْهِرُ أَثَرِهِ وَمُخْفِيهِ، مَعَ أَنَّهُ لَا يُدْفَعُ عَنْ مَنْزِلَتِهِ
الْعُلْيَا وَدَرَجَتِهِ الْكُبْرَى مِنَ الْقَلْبِ الْأَصْمَحِ، وَالرُّوْعِ الْأَرُوعِ، وَالْعَزَمَاتِ الَّتِي هِيَ
كَالطَّافِ اللَّهُ الَّتِي مِنْهَا الْوَاقِعُ وَمِنْهَا الْمُتَوَقَّعُ، فَمَا حُصِرَ قَطُّ فِي مَازِقٍ إِلَّا سَفَرُ عَنْ
نَصْرِ تَبَيَّنُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ ثِيَابِهَا، أَوْ عَنْ سَلَمٍ يَأْتِي فِيهَا الْبُيُوتُ مِنْ أَبْوَابِهَا؛ وَأَمَّا
الْقَرْيَةُ الْمَسْؤُولَةُ فَهِيَ مِنَ الْبُغَاثِ الَّذِي لَا يَصِيدُهُ ذَلِكَ الْجَارِحُ، وَإِنْ هَذَا مِيدَانُ
يَضِيقُ عَنْ شَأْنِ ذَلِكَ الْقَارِحِ.

ومنه قوله:

وَصِلَ—وَصَلَ اللَّهُ الْمَجْلِسَ السَّامِيَّ بِأَفْضَلِ وَصَائِلِ نَعْمِهِ، وَلَا أَخْلَى الدِّينَ مِنْ
الْفَخْرِ بِأَمْسِ سَيْفِهِ وَيَوْمِ قَلَمِهِ، وَحَمَلَ مَوَاقِفَ الْجِهَادِ بَثْبُوتَ قَدَمِهِ وَخُفْرَ عِلْمِهِ،
وَأَدَامَ تَذْكَارَ خَوَاطِرِ الْإِسْلَامِ لِأَيَّامِ ذِي سَلَمِهِ، وَأَمْتَعَ الْمَجْدَ بِأَيَّامِ حَيَاتِهِ الَّتِي هِيَ
تَوَارِيخُ فَخْرِهِ وَأَيَّامِ حَكْمِهِ—كِتَابٌ مِنْهُ كَرِيمٌ، وَكُلٌّ مَا يَصِلُ مِنْهُ مَا يُعَدُّ إِلَّا كَرِيمًا،
وَكَلَامٌ شَرِيفٌ شَفَّ يَدًا كَلِمِيَّةً وَشَفَى فُؤَادًا كَلِيمًا، وَخَطَابٌ عَذْبٌ فَاضٌ عَلَى
الْأَعْيُنِ رَوْضًا، وَجَرَى عَلَى الْأَكْبَادِ نَسِيمًا، وَأَبَانَ مِنْهُ عَلَى الْحِفَازِ الْحَفُوظَ فِي
شِمَتِهِ، وَلَا نَحْسِبُهَا يَنْسَاهُ يَوْمٌ لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا؛ أَكْرَمَ كِتَابًا نَقَعَ الْغَلَّةَ
فَطَرًا وَ طَرًّا، وَفَرَجَ الْعِلَةَ فَجَرَى مَخْرًا، وَأَوْضَحَ مَحْجَةَ النُّورِ لِسَالِكِهَا فَبَدَأَ بِدَرًّا،

وسقى ماء الفضل فزها زهراً، وسبح الله قارئه وأجرى أجراً، ومن الناس بسخطٍ يكونُ للدنيا زيناً وللآخرة دُخْراً؛ وقد علم الله أن العبد ليمتأحُ من بحرِها، ويرتاحُ إلى ذكرِها، ويستقصرُ سعيه، وإن كان يستوعبُ الأشواط ولا يرى علمه كُفءَ نيته في الخدمة، وإن كان مُستوفي الأشراف فإنه حسنةٌ في الدهر، بالإضافة إلى أهل بيته وكلهم حسناتٌ، وغرسةٌ في الدهر كأنما كان آباؤهم رحمةُ الله عليهم من جنة الجنات، ولقد أعجبوا وأنجبوا، فهمُ المعنيون بقوله: ألكم البنون ولهم البنات^(١).

ومنه قوله:

وصل - أدام الله أيام المجلس، ولا زال سيبه مسؤولاً، وسيفه في الحق مسلواً، وأمره مُقتبلاً ومقبولاً، وعدوه بالإحسان - أو بإساءته إلى نفسه - مقتولاً، ووليّه على النجاة في الدارين مدلولاً، وبشر وجهه بجود يده رسولاً، والغمام لا يطمعُ بأن يكون لتلك اليد في مضمار الكرم رسيلاً - كتابٌ كريم يُحملُ على يد فلان، وثان^(٢) على يد القاضي الواصل إلى مصر، ولم تزل أيادي المجلس تتصلُّ إلى أوليائه قربوا أو بعدوا، وقصروا في الخدمة أو اجتهدوا؛ ووقف على الكتابين الكريمين اللذين قبلهما على أنهما يدان، واهتدى بهما على أنهما فرقدان، وإن لم يكونا يدين يُقبلُ ظهْرهما، فإنَّهما يدا نعم يجبُ شكرهما، وإن لم يكونا فرقدا ليل أنارا في سوادٍ، فإنَّهما فرقدا نهاراً أنارا في مدادٍ؛ وما يخرجُ عن تلك اليد، ولا يصدرُ عن ذلك الصدر إلا كُلُّ ما تُكشفُ به الأنوار، وتُروَّحُ به الأسرار، ويُجلبُ به المسار، وتُجدد به المبار، ويبقى به شرفٌ لا يُخلقُ جديدهُ جديدُ الليل والنهار.

(١) يريد قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [سورة فاطر: ٣٩].

(٢) في الأصل: وثانياً ١.

وأورد نجم الدين من الأحوال هناك، والضُرورات إلى الكثير والقليل، وحُسن السيرة المُشملة على الجميل، وأنه بمصر أدام الله ظله على مشقات العفاف، ويسلك لنفسه القصد ويُعطي منها الأشراف، وأن كرمه لا مادة له ولا حاصل، ورواتب نفقاته لا أصل لها ولا واصل، وكلفُ خرجه لا محمول لها ولا حامل، وذكر ذلك في كلِّ مشهدٍ حضره، وفي كلِّ موقف وقفه، وبين يدي كلِّ كبير عرفه، ورقاه إلى العلم الناصري فأثبتته فيه ومكّنه وكشفه، وتبع هذا الفقيه نجم الدين رأي أبيه رحمه الله في خدمة هذا البيت الذي كان يتعبّد به، ولولا الغلو لقلت: وكان يعبّده، ومضى شهيداً في جنة رحمة مُستشهداً، ووجب أن يلحظه المجلس بعين صاحبٍ سابق، ومُحبٍ صادق، وذوي سريرة لا يخجلُ بها الواصل، وذو كفاية ينقُذ في الأمور نفاذ السهم المارق؛ فما كلُّ صاحب له وجاهة في كل مكان، وإن كانت له وجاهة فقد لا يكون له جنان، وإن كان له جنان فقد لا يكون له لسان، وإن كان له لسان فقد لا يكون له بيان؛ وهذا يجمع هذه الشرائط، ويحضر في عُقود المجالس فيكون فيها مكان الوسائط، وفي لسانه وقلبه بإدراك الفوائد واستدراك الفوارط؛ فهو أحقُّ عبد تُضمُّ اليدُ على رقبته، وأولى ولي يُجازى بتصديقه وسبقه، على أن الآمال العظيمة، والمطالبات الكريمة تبلُغ به الهمة الفخرية بأيسر العزمات وأدنى الحُرُمات؛ ولم يُذكر في هذه الإجابة ما ذكر من أمره، إلا أن كثيراً من الرُسل الواردين والأصحاب الوافدين، يسعى في قصد مُرسله ومقصده، وهذا سعى لمرسله بمفرده، وما جعل حظَّ نفسه وغاية قصده إلا الخدمة وبلوغ غرضها، وشكر النعمة والقيام بمفترضها؛ وإذا وردت الكُتب الفخرية جددت بورودها فخراً، وفرضت على لساني مع شكره الذاتي شكراً، وعلى القلب مولاة إلى مولاة أخرى^(١)؛ وردت على المملوك مُكاتبة كريمة،

(١) من هنا إلى آخر النص، في نهاية الأرب ٤١/٨ .

رفعها حيثُ ترفعُ العمائم، ومدَّ إليها كما يُمدُّ إلى الغمام، وفضها بعد أن قضى
باللثم فرضها، واستمطرت نفسه سماءها فأرضت أرضها، وكاد المملوك يتأملها،
لولا أن دمع الناظر إلى العين سبقه، على أنه دمعٌ قد تكون بتلون الأيام في فراقه،
فلو فاض لعصر الكتاب وخلقه، فلا أعدمه الله المولى حاضراً وغائباً، ومُشافهاً
ومُكاتباً، وأحله في جانب السعادة، ويعزُّ على المملوك أن يحلُّ من مولانا جانباً.
ومنه قوله^(١):

ودر كتابه، ووقفتُ على ما أودعه من فضل خط وفصل خطاب، وعقائل
عقولٍ ما كُنَّا لها من الأكفاء، وإن كانت من الخطَّاب، وآثار أقلام تناضل عن الملة
نضال النضال، وكأنها فضل سبقٍ لما يحوزه له من حق السبق وخصل الخصال،
فأعيد الإسلام من عدمه، ولا عدم بسط قلمه وثبوت قدمه، فإنه الآن عينُ الآثار
وأثرُ الأعيان، وخاطر الحفظ إلا أن الخطوب تصحب فيه خواطر النسيان، ولئن
انتصر الدهر سطواً، واختصر خطواً، فإنه سيفٌ يمان، إن قدُم عهداً فقد حُسُن
فرنداً وخُسُن حدّاً، وأجرى نهراً وأورى شراً، واخضر خميلةً، وقطع للأيام
جميلةً، وضارب [الأيام فأجفلت عن مضاربه ضرائبها، وشردت عن عزمه
غرائبها]، ولبسها حتى انهجت بوالي، ثم اختار منها أياماً وأبى أن يلبسها
ليالي.

ومنه قوله^(٢): وصل كتابُ الحضرة، فجعل مستقره مستقر النعمة في الصدور،
وأخرجتني ظلماتُ خطه إلى نور السرور، ووقفت وكأني واقفٌ على طللٍ من
الأحبة قد بكى عليه السحاب بطله، وابتسم له الروض عن أخبار أهله، فلم أزل

(١) نهاية الأرب ٨ / ٤١ والزيادة منه.

(٢) نهاية الأرب ٨ / ٤٣.

أرشف مسك سطره ولماها، وأنزه العين والقلب بين جنيها وجناها، وأطلق عنان
شوقٍ جعلتُ الأقلام له أنجماً^(١)، وحسبتُ النّفس ليلاً، والكتاب طيفاً^(٢)،
والوقوف عليه حُلماً، إلى أن قضت النّفس وطراً، وحملت الخواطر خطراً، وقرنته
بما ظنه سحاباً ما ظنه مطراً؛ هذا على أنه قريب العهد بيد النعماء، فإن هرب
فمن ماءٍ إلى ماءٍ.
ومنه قوله^(٣):

وقف على الكتاب [و]، جدد العهد بلثمه، لما لم يصل إلى اليد التي بعثته،
وشفى القلب بضمه، عوضاً عن الجوانح التي نفثته^(٤): [المتقارب]
وأين المطامع من وصله ولكن أعلل قلباً عليلاً
ومنه قوله رحمه الله^(٥): وصل كتابه، فكان من لقائه طيفاً، إلا [أنه] أنس
بالضحى، وأثار^(٦) حرب الشوق وكان قُطب الرّحى^(٧): [الطويل]
تخطى إلى الهول والقفر دونه وأخطاره لا أصغر الله ممشاه
ومنه قوله يصفُ بلاغة كتاب^(٨):

كتابٌ إلى نحري ضمته، وذكرتُ به الزمن الذي ما ذمته، وأكبرتُ قدره،
فحين تسلمته استلمته، والتقطتُ زهره فحين لحته استملحته، وامتزج بأجزاء

(١) في الأصل: أنجمنّا... طيفنا.

(٢) نهاية الأرب ٤٣/٨.

(٣) البيت في ديوان القاضي ٤٩٧ ونهاية الأرب ٤٣/٨.

(٤) نهاية الأرب ٤٣/٨ والزيادة منه.

(٥) في الأصل: وأثا.

(٦) البيت في ديوان القاضي ٥٠٢ ونهاية الأرب.

(٧) نهاية الأرب ٤٤/٨.

نفسي فحين لحظته حفظته، وجمعتُ بينه وبين مستقره من صدري، واستطلت به مع قصره على حادثة دهري، وجعلتُ سحره بين سحري ونحري، واستضأتُ به ورشفته فهو نهاري وهو نهري؛ فإن أردتُ العطر بلا أثر أمسكتُ مسكه بيدي، وإن أردتُ السكر بلا لثم^(١) أدتُ كأسه في خلدي؛ فله أناملُ رقمته ما أشرف آثارها، وخواطرُ أملتُهُ ما أشرق أنوارها! ولم أزل مُتنقلاً منه بين روضةٍ فيها غديرٌ، وليلةٍ فيها سميرٌ، وإمارةٍ لها سريرٌ، ومسرةٍ لها طليقٌ أسيرٌ، ونعمة أنا لها عبدٌ بل بها أميرٌ، حتى أدبرت عني جيوش الأسي مفلولة، وقصرت عني يد الهم مغلولة، وملئت مني مسامعُ المكارم حمداً، وخواطرُ الصنائع ودأ، وحطُّ الأملُ بربعي رحله، وأنبت الربيعُ بفنائى بقله، ولبستُ من الإقبال أشرف خلعة، ووردتُ من القبول أغزر شرعة، وانتعجتُ من رياض الرجاء أرجى نجعة.

ومنه قوله^(٢):

هذا مع عفو الخاطر، فكيف إذا استدعى المجلسُ خطية خطه فجاءت تعسلُ،
وحشد حُشود بلاغته، فأتت من كلِّ حدبٍ تنسلُ.

ومنه قوله^(٣):

ورتع في رياض بلاغته التي لم يقتطفهنَّ من قبله غارسٌ ولا جانٌ، واجتلى الحُور المقصورات في الطُّروس التي لم يطمثنَّ إنسٌ قبله ولا جانٌ، وغني بتلك المحاسن غنى خيراً من المال، واعتقد فيها كؤوساً إذا شاء أنفق منها الجمل، وإذا شاء أمسك منها الجمال.

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: بلا لثم، كما في نهاية الأرب.

(٢) نهاية الأرب ٨/ ٤٤.

(٣) نهاية الأرب ٨/ ٤٥.

ومنه قوله أيضاً :

كتابٌ اشتمل على بديع المعاني وباهرها، وزخرت بحار الفضل إلا أنني ما
تعبتُ في استخراج جواهرها، بل سبحتُ حتى تناولتها، وجنحتُ إليّ فما
حاولتها، واقتبستُ من محاسن أوصافه، وبدائع أصنافه، نُكتاً استقلت أجسامها
بالأرواح، وزهت جياذها بما فيها من الغرر والأوضح، فيالله من بدائع وروائع
ولطائف وطرائف ! فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، وما يُقرِّطُ الأسماع
وتقرِّطُ الألسن، كأنه طَرْفُ طَرْفٍ صوبه مدرار، وعَلَمٌ عَلِمٍ منصوبٌ في رأسه نارٌ؛
صحَّح السحر وإن كان ظناً، وفضَّح الدرَّ وإن كان أبرع معنىً وأسنَى حسناً،
وأدنى مجنىً وأغنى مغنىً، فما ضرتُ أخير زمانه مع تقدم بيانه، ولا من سبقه
في عصره مع أنه قد سبق في مصره.

ومنه قوله (١) :

ولله هو من كتابٍ لما وقفت عليه الغلَّة شفاها، وحدثها الودُّ شفاها، ورأت
وردها كل ماءٍ غيره شفاها (٢)، ووطئ مضاجع أنسها بعد أن كان الشوق يُقلب
الجَنُوب على شفاها (٣)؛ فلا عدم وُدّها الذي به عن كل مودةٍ سلوةٌ، ولا برحت
كفاية الله تُحلُّها في الذرئ وتُعلي قدرها في الذروة، ولا فقد مما يُنعم به أي
نعمةٍ، وما يُنشيه أي نشوةٍ.

ومنه قوله :

كتاب كريم تبسّم إليّ ضاحكاً، وظن مداه أنه قد جلا سطره علي حالكاً، فما

(١) نهاية الأرب ٤٦/٨.

(٢) يُقال : ما بقي إلا شفى : إلا قليل . (القاموس).

(٣) الشفى : حرف كل شيء . (القاموس).

هو إلا سواد الحدقة منه انبعثت الأنوار، وما هو إلا سويداء ليلة الوصل اشتمل على دجى تحتها نهار، فله هو من كتاب استغفر الدهر ذنب المشيب بسواده، واستدرك الزمان غلظه بسداده.

ومنه قوله^(١):

كتابٌ تقارعت الجوارحُ عليه فما كادت تتساهم، فقالت اليد: أنا أولى به؛ شددتُ على مولاهُ ومولاي عقد خنصري، ورفعت اسمه فوق منبري، وقبضتُ عليه قبضتي، وبسطتُ في بسط راحته وقت الدُّعاء راحتي؛ وقالت العين: أنا أولى به؛ أنا وعاءُ شخصه، وإليَّ يرجع القلبُ في تمثيله ونصّه، وأنا سهرتُ بعد رحيله وعندي وحشةٌ، وأنا أذكرُ ذكر هجير القلب عليه رشّةً بعد رشّةٍ؛ فقال القلبُ: طمعتما في حقِّي لأنني غائبٌ، وهل أنت لي يا يدُ إلا خادمٌ؟ وهل أنت لي يا عينُ إلا حاجبٌ؟ أنا مُستقرُّهُ ومُستودعُهُ، ومرتَعُهُ ومشرعُهُ، وأنا أذكرُهُ وبه أذكرُكُما، وأحضرُهُ وبخدمته أحضرُكُما؛ فاليدُ استخدمتُها مرةً في الكتابِ إليه، ومرةً في ملاحظة وجهه غائباً وفي توقُّع لقائه آيماً، وفي السُّهد شوقاً إلى قربهِ، والمطالعة لما يخرجُ أمري بكتبهِ من كُتبه؛ فهناك سلّمنا واستخرنا، واكتفينا واستأخرنا، وكدتُ أرشُفُ نقسهُ إلى أن أنقلهُ إلى سويداهُ، لولا أن سواد العين قال: أنا أحوجُ إلى الاستهداء بهُداهُ.

ومنه قوله:

ورد كتاباهُ الكريمان فسراً وبرّاً، وتصرفاً في القدر فنصباً، وفي الطَّرف فرفعا، وفي الأنس فجرّاً، وما وقف على صدرٍ منهما إلا شهد القلبُ بأنه أولى الصدور بأن يكون صدرّاً، ولا أهديا إليه يداً كبرى إلا أفضيا به إلى بحرٍ، وما دار في

خلده أن البحر يكون كله دُرّاً، وتحقق ما له منه من منابٍ يصرفه كلما ناب، ويؤنسه في كلّ ماراب، ويلبيه إذا دعا، ويزيده بصيرةً إذا أجاب، ويصله إذا غب^(١)، ويحضره إذا غاب، ويبعث عزمه إذا ألب^(٢)، ويورد أمله إذا لاب^(٣)، فعلى هذا المقدمات تنتج، ومتى عرضت عوارض من الشك تزدهم، سنحت سوانح من الثقة تفرج، وقد علم ما رامت عليه هذه الأحوال التي يظن أنها في أعقابها وهي في مبادئها، وما أسفرت عنه هذه الليالي التي تحسب أنها في بلجة غررها وهي في دهمة دآديها، وليس للمعضل من الداء إلا كيئه، وليس للغازي إلا الشهاب الذي يدخر به استراقه ويحسم به غيئه؛ وقد طالع الديوان العزيز بما يرغب في الوقوف عليه، والمشورة بما وقعت الإشارة إليه، فلم يكلف المجلس ذلك إلا لأنّ الملتمس من التقليد لصالح الجملة وصلاح الدولة باد قبله، ولحل الخلافة شرفها الله رافع قبل أن يرفع محلّه، وما شام من ذلك أمراً يصعب مثله، ولا ذخراً يتعذر بذله، ولا جيشاً يخلو فناء الخلافة بأن ينقص عنها جعله، ولا عزل والٍ يجلّ على الإسلام عزله، ولا تجريد سيفٍ من يد الخلافة العالية يتوقى أن لا يمضي نصله، ولم يسم إلا إلى ما أفاده إليه ولاؤه واعتقاده، ووفقه عبده نظره واعتقاده، من أن يكون نظره شرعياً، وتصرفه بعين الخلافة مرعياً، وتقلده سنياً، وجمعه إجماعياً، فتكون الأمور أمراً واحداً، والمناهج المختلفة القصد نهجاً قاصداً، والرّايات القاعدة عن الكفار رايةً مستقلة، يؤنسها الانفراد، وينهضها الجهاد، ويبيض عواقبها السّواد، لا تختلف تحتها الآراء، ولا يتشتت عندها الأهواء، ولا يعوزها النصر في الأرض إلا أن ينزل من السماء، ولا يحوجها التأييد إلا أن تصحر إلى الفضاء؛ هذا إلى ما ينضاف إلى يد الخلافة وكلمتها من

(١) إغباب الزيارة : أن تكون كل أسبوع . (القاموس).

(٢) ألب : أقام . (القاموس).

(٣) لاب : عطش . (القاموس).

بلادٍ بها تُخصُّ، ومنابر ومناير تعلو سماؤها عليها وتُنصُّ، فالسعاداتُ سمحةٌ إن تسمحوا، والدُّنيا مُستفتحةٌ إن تستفتحوا، والمُمتنعاتُ ما دونها حجابٌ، والدينُ لا يصلُّبُ دون فطرته صخرٌ، ولا يبعدُ دون تناوله سحابٌ؛ والمجلسُ السامي يتأملُ المراد بعين الولاء، والخادمة بعين المحبة، ويعلمُ أن مثل الحروف المثبتة في هذا التقليد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ﴾^(١) وما أحرأه في ذلك بتحريه، وما أولاه في هذا المَهْمَّ بما يُوليه، فإنه إذا أنجز ما وعد به حسنُ الظنِّ، وأهدى إليه وإلى الإسلام ما يُكسبه القوة، وإلى الأُمة ما يحميها الوهن، فليذهب أدام الله نعمته من ذلك بواجده ما ذهب بمثلها من الدُّنيا واجدٌ، وليقرر المجد بعظمته ما جدَّ في مثلها ما جدَّ، وليكن أدام الله دولته مع الحق فإن الذي يُدعى إليه هو الحق، والرجُل الذي يعرف ما بين الرجال من الفرق.

ومنه قَوْلُهُ :

وما برح قلمه يقومُ خطيباً في محافلها، ونائباً عن مناصلها، ومُعظماً لشعائرها بشعارها، ومُعلناً لماثرها بآثارها، ومُناضلاً لأعدائها بكل قطاعة العُرى، طلائع الدُّرى، إلى غير ذلك من توشيحة مدارس التدريس، بالدُّعاء. بخلود أيامها، ونفوذ أحكامها، والرواية عن سلف الأئمة الصالح من آباء أمير المؤمنين وأجداده، والتنبيه على مناقب الدولة التي تُجدعُ بها أنوفُ أعدائه وأضداده، هذا إلى أنه ربِّي في ظلال الدولة العزيزة الممدودة، وتصرف في خدمتها المحمود، وأدرك الصُّدور من خدامها، وأدى أمانتي اللسان واليد في استخدامها، وهذبته تلك الآدابُ إلى أن أمن العثار، واعتد الخادمُ به من إنعام الدولة التي حصَّلت له قبل الحاجة الأقدارُ، وقد أضاف إلى تلك الحقوق التالدة حقاً طارفاً، واستأنف

إلى تلك الأسباب القديمة سبباً آنفاً، وهو صحبة الخادم، وكتابه عن يده، وترجمته عن معتقده، وثقته بمغيبه ومشهده، ومُجادلة أعداء الدولة بلسانه ويراعه، وإبهاثه أبصار أوليائها بالقول المحكوم على كل ذي لُب باتّباعه؛ وله مما أقناه الإنعام الشريف، مُلكٌ بواسط في شركة أقاربه، ما برحت العناية مُتوفرةً بعقوده، حاميةً لحقوقه وحدوده، مُثمرةً لُستغله، مُزجيةً لدخله، ما نعةً الأيدي من أن تتطرق إليه، أو تتسلط عليه، وقد تجدد الآن من مُفْظعي المجاورين لملكه دخولٌ في الحدود، وخروجٌ عن المعهود، ودعوى مُعوزة البراهين والشهود، والمسؤول فيه خروجٌ الأمر بما يُزيلُ صادق الشكوى، ويُبطلُ كاذب الدعوى، ويردُّ الحق ويحمي الحدود، وبيده توقيعاتٌ إماميةٌ أجرته على ما يلتبسُ الآن الإجراء عليه، ولو لم يكن هذا الحدُّ بيده لما استكثر الإنعام أن يصفح له عنه، ويُعاد إليه، فكيف والحجج الشرعية والتواقيع الإمامية مُثبتةٌ لحقه، شاهدةٌ بقدم ملكه وسبقه؛ والمتوقع إجابة سؤاله فقد جرده، وإن تأخرت الإجابة بالإيجاب جدّده.

ومنه قوله:

أسعد الله المجلس، ولا برحت الأيام شاكرةً لأيامه، والصوارم معدودةٌ من حُساد أعلامه؛ الهمّةُ العالية مذخورةٌ عند المهمّات، مُستضاءً بأنوارها في ليالي القصد المدلهمّات، والآراء المجديّة مُستمدّةٌ بحمد الله من المكرمات، تُسلُّ بها ولاسيما إلى أهلها، ويأتيها على علمٍ إذا أتى على الناس من جهلها، ويبتكرها بخاطر خطارٍ، ويبتدرّها بضمير فضل لا يُجارى في مضمارٍ؛ وإذا عرضت اللبّانة أنزلت بكرمه الفسيح اللبان، وحدت ركبها إلى أفناء إحسانه الذي ينتهي إليه غايةُ سرى الركبان؛ وقد قصد هذه الخدمة على حالٍ تفصيل فلان في مُلكٍ له بواسط، قد استولى عليه من حادده وجادّه من المقطعين، وأضرّبه من حاز عليه

من المجاورين، ومعه من التوقيعات الإمامية ما يوضح الإشكال، ويرشد من الضلال، ولو لم يكن الحدُّ له مستحقاً، والملك بيده مسترقاً، لوسعه من الإنعام ما يسع من ليس له من الخدمة المرعية، والأذمة المرئية، كما لهذا المذكور، فله في ولاء الدولة الشريفة السبب الوثيق، والعرق العريق، والسابقة التي لا تُمارى، واللاحقة التي لا تُجارى، والنشأة في ظلال الدار العزيزة، والتربية في أكنافها الحريزة، واستمداد العلم من بحرها، واستمطار الأدب من قطرها، واستلماح الأنوار من فجرها، والتقلب في آلائها، والثبوت على ولائها، والمناضلة بلسانه وقلمه الذين يلحدون في أسمائها، إلى غير ذلك من المكاتبات التي تُجاهدُ فيها عن الدولة الناصرية حق الجهاد، ويُرهفُ بها الأولياء ويُفلُّ الأضداد، ويستعطفُ بها القلوب النافرة، ويجمعُ بها الأهواء المتنافرة، ويجادلُ فيها بالتّي هي أحسن، وبالتّي هي أخشن، ويوضحُ حقها بالتّي تثبتُ من أخلص، وتستخلصُ من أدهن؛ والمجلسُ السامي عارفٌ بقديمه وحديثه، ومُكتسبه وموروثه، معرفةٌ توجب الذمّام، وتُنَجِّح المرام، وتدخُرُ الأيام، وتتوقَّعُ ظهور ثمرتها في أوقات القدرة؛ لا عطلُ المجلس من حُلّيتها، ولا خلا من اقتطاف ما حلا من جنيها، فإنه جانب من الدولة العالية، لا ينفصلُ عنها ولا يخرج منها، ولا يُعدُّ إلا من أقطارها، ولا ينتظمُ القائمُ به إلا في أنصارها؛ وقد شُرِعَ في الشكر ثقة بالنجح، وألقيت عصا السُرى علماً أنها مسبوقَةُ الحمل بطلوع الصُّبح، وتركت محاربةً خواطر الشك علماً أن المطالب به مُذعنةٌ إلى الصلح؛ والمجلسُ السامي سريعةٌ ورده، وفلكُ القصد والمهمةُ المُجدية طليعةٌ سعده؛ ومن ورد عنايته فقد استكره الموارد، ومن جعله قبلة القصد فقد استنجح المقاصد؛ والمتوقع وصول كتاب أخيه الشاكر لإنعامه، الداعي لأيامه، بأن هذا الحد قد رُفعت عنه اليد، ولئن تكاثفت الأشغالُ عليها، وتزاحمت المهماتُ لديها، فما هي لخواطرها إلا بمثابة

الصقال للسُيوف المُرَهفة، ومرور النسيم بالرياض المُفوفة؛ فالصقلُ للأولى يُفيدُها قطعاً ولمعاً، والنسيمُ للأُخرى يُفيدُها نفحاً ونفعاً، ولا شُبْهة في أنها مدفوعةٌ إلى بحر أشغالٍ مُتدافع، ومقدوفٌ بها في بحر هولٍ يرجعُ عنه كلُّ طمعٍ متراجع، وهي بحمد الله سابقةٌ، للطبع فاتقةٌ؛ فالعقبَةُ الكؤودُ لا تؤودُ، وعزمُها فيما ترقُّ له الصُّخور لا يجوز؛ والله تعالى يُحسنُ إليها كما أحسنَ بها، ويجعلُ لها راحةً عنده في تعبها، وخواطر الحبين لخواطر الشعراء في كل وادٍ تهيمُ، وكلما أملَ القُرب يومٌ مسفرٌ قد دفعهُ الدهرُ بليل بهيمٍ، وكتابها الكريم، فينعمُ بها مُضمناً ما يسنح من خبرها، ويعزُّ من وطرها؛ والله لا يُعدمُني خبرها إلا بوجهها، وكتابها إلا بنظرها.

ومنه قَوْلُه :

ما أُصدرتُ هذه الخدمة إلى مجلس الحضرة العالِية، لازالت الأيام خُدامها لخواطرها، والأسماعُ نطاقاً لجواهرها، والطُّروسُ ساحلاً لزواجرها، والمسارُ ساريةً إلى سرائرها، والأيامُ قاضيةً بكلِّ قاضيةٍ عليهم، تخفضُ من محلهم وترفع من محلِّها، وتعتقدُ لها عقدة عزٍّ تعجزُ أيديهم عن حلِّها، من ثغر الإسكندرية حمأه الله، عند الوصول إليه لخدمة الضريح المُعظمي، الذي حل فيه ملكُ الكُرماء، ولزيارة القبر الحافظي، الذي حل فيه ملكُ العُلَماء؛ والله تعالى يؤجرُ الكافة في الفجيعة بالعلم والكرم، على أن الحضرة العمادية أولى ألي الكرم، والعلم فلا تشتكي العدم، ولا بد أن أُخرجُ إلى مُراد هذه الخدمة وثباً كخروج البُحتري في مدائحه، وأن أهرُ عزمها لأمر مُهمٍ تُثابُ في تسبیب مناجحه، ولا أُطيلُ بذكره فإنَّه في الخدمة الناصرية الصادرة عني في معنى الفقيه ابن سلامة، وهي تفعل ما يقومُ الله عزَّ وجلَّ بأجره، وأقومُ أنا بشكره، وما بعده مما يبيُّضُ الصحيفة على أنها نظيفةٌ، ومما يتوصلُ إلى المراد الجليل منه بفكرتها الدقيقة اللطيفة، وقد ضاق وقتي عن مكاتبة أعزیه بمقتضاها، فأسألها إن كان الرُّكابُ العزِّيُّ أدام الله أيامه،

ونصر أعلامه، بالعسكر المنصور، فتعرض عليه الفضل من المطالعة، ولا أقول: ويهز عزمه، فإنه سيف قاطع لذاته، يستحيل أن يرى إلا قاطعاً، ومولى يرى الثواب من لذاته، فلا يمكن أن يرى إلى داعيه إلا مسارعاً؛ ومن عول على خطابه في الأسفار التي تملأ الغرائر، ولا تستقل بها الأباعر، فإني أعول في خطابها على اللفظة المعرضة، ومن استدعيت عزائمها بالماشاة والمصافحة؛ فإني أستدعي عزمها باللحظة الممرضة، لا زالت مساعيها مقرونة بالمساعد، وهمها موفية لما كلفته عنها الظنون الحسنة المواعد

* ومن شعره قوله^(١): [الكامل]

إن البنان الخمس أكفاء معاً
وإذا الفتى فقد الشَّبابَ نشاله
واخصُصْ بوسم تحيَّتي من لم أبح
من أودُّ لها الرَّدَى لا عن قلى
والحلي دُونَ جميعها للخنصر
حبُّ البنين ولا كحُبِّ الأصغر
لك باسمه ولعله لم يذكر
وتودُّ لو أبقى بقاء الأدهر

ومنه قوله^(٢): [الكامل]

ذكرتُ وجوهكم والبدر يسري
سقاني الله قُربك عن قريب
كلا البدرين مسكنه السحابُ
دُعَاءُ طال واختُصر الخطابُ

ومنه قوله^(٣): [البسيط]

تفدي الليالي التي بالسَّعد تُسخطني
كانت بكم فرعاها الله تُضحكني
تلك الليالي التي بالقُرب تُرضيني
فأصبحت لارعاها الله تُبكييني
يا بُعدَها غايةً للشوقِ غائلةً
من غور مصرٍ إلى علياء جيرون

(١) ديوان القاضي ٤٤٢.

(٢) ديوانه ١٦٣.

(٣) ديوانه ١٢٣.

أودعتم مسمعي مكنونَ دُرُكُم

فهاكُم دَرّ دمعي غيرَ مكنونٍ

ومنه قوله^(١): [البسيط]

من أين أنتِ ومن - يا ريحُ - أين أنا
ما جئت مبعوثَةً بل جئتِ باعثةً
لبثتُ في الحبِّ عُمرًا لا أُحصِلُهُ
كروا اللّواحظَ بحثاً عن محاسنه

الجدُّ خلقي ومن أخلاقك العيبُ
همي ولا خاطرٌ في الهمِّ منبعثُ
كفتية الكهف لا يدرون ما لبثوا
ومادروا أنّهم عن حتفهم بحثوا

ومنه قوله^(٢): [الكامل]

زار الصُّباحُ فكيف حالُك يا دُجى
رأت الغُصونُ قوامه فتأودتْ
يا زائري من بعد يأسٍ ربما
أثرى الهلالُ ركبتُ منه زورقاً
أم زرتني ومن النجوم ركائبُ
لعبتْ جُفونك بالقلوب وحبّها

قُم فاستدِمّ بفرعه أو فالنُّجا
[و] الرّوضُ أنشُر نشرة فتأرجا
تمنى المنى من بعد إرجاء الرّجا
أو لا فكيف قطعْتُ بحرًا من دُجى
فأرى ثرياها تُريني هودجا
والحدُّ ميدانٌ وصدُغك صولجا

منها:

لا أرتجي إلا الكرامة وحدها
تتلو الليالي سورة من فضلكم

فالمالُ قد أعجلته أن يرتجى
فتقيمها شعراؤكم أنموذجا

منها:

ناران: نارُ قري ونارُ وقائع
باشرتُ بشرك لا بمئة شافع

لله دُرُكٌ مُطفئاً ومُؤججا
فغنيتُ يا شمس الضُّحى أن أسرجا

(١) ديوانه ٢١ .

(٢) ديوانه ١٣٥ .

ومنه قوله^(١): [السيط.]

قائل بغير سلاح الهجر إن له
كتمت ما بي في وجهي دلائله
ضرباً تسيل دموعي منه وهي دم
والهم نار فقل لي كيف ينكتم؟

وقوله^(٢): [الوافر]

وميدن خدة لحول لثمي
تلفت بشعره وسمعت غيري
وصولج صدغه والخال أكره
يقول: سلمت من تلفي بشعره
بكيت عليك ملء العين حتى
بقيت بأدمعي في الشمس عصره^(٣)

وقوله^(٤): [الرجز]

ممسحة نهارها
كأنها منذ خلقت
يجن ليل الظلم
منديل كم القلم

ومنه أخذ شافع^(٥) قوله^(٦): [الوافر]

ومسحة تناهي الحسن فيها
فأضحت في الملاحاة لا تبارئ

(١) ديوانه ١٠٧.

(٢) ديوانه ٢٢٧-٢٢٩.

- رواية الأول في الأصل: وميدان... I X.

(٣) هذا البيت ملفق من بيتين، ففي الديوان:

ولا استمطرت سحب العين إلا بقيت بأدمعي في الشمس عصره

بكيت عليك يا مولاي حتى صرعت، وليس في عيني قطره

(٤) ديوانه ٤٤٤.

(٥) شافع بن علي بن عباس، الكنانى العسقلاني المصري، الإمام الأديب، كان يباشر الإنشاء بمصر

زماناً، إلى أن أضر ثم عمي، ولزم بيته إلى أن توفي سنة ٧٣٠هـ. (الوافي بالوفيات ١٦/ ٧٧

ونكت الهميان ١٦٣).

(٦) البيتان له في الوافي بالوفيات ١٦/ ٨٣ ونكت الهميان ١٦٦ وأعيان العصر ٥٠٩/ ٢.

ولأنكر على القلم الوافي إذا في وصلها خلع العذارا
والأصل قولُ ذي الرُّثَاسَتين^(١): [المنسرح]

ممسحةٌ تكتُمُ الظَّلامَ فما تُبديهِ إلا سوافرَ الظُّلمِ
تُؤدِّعُ فيها الأَقلامُ فضلةَ ما تنفُقهُ في مصالحِ الأُمِّ
عُدنا إلى الفاضل :

ومنه قولُه^(٢): [الكامل]

منعت دُمُوعَ العينِ من أَطلالي لأرى صنيعَ الدَّهرِ بالأطلالِ
ومن المساءِ ما يكونُ مسرَّةً ما الدَّمْعُ إنْ حُجِبَ المكارهُ غَالِ
ومنه قولُه^(٣): [البسيط]

أيا بدرُ قد أسهرت عيني فارُقدِ وشاهدت ما جاهدتُ يا نجمُ فاجهدِ
إِذْ أَلَمْتُ عَيْنَيْنِ فِي الصَّبَاحِ مَسْرَّةً فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ بِسَرْمَدِ
وَيَا عَاذِلِي رَفَقاً كَفَانِي صُدُودُهُ فَإِنْ شِئْتَ فَانْقُصْ مِنْ مَلَامِكِ أَوْزِدِ
تَمَازَجَ فِي خَدَيْهِ مَاءٌ وَجَمْرَةٌ تَمَازَجَ دَمْعِي فِي الْهَوَى وَتَوَقُّدِي
وقولُه^(٤): [الطويل]

وفوا غير أن السَّمَهرِيَّ وأَنَّهُ يُجَارُ بِأَيْدِيهِمْ شَكَا لِلْمُهَنْدِ

(١) ذو الرُّثَاسَتين : الفضل بن سهل ، سماه المأمون بذلك لأنه دبر أمر السيف والقلم؛ توفي سنة ٢٠٢هـ.

(٢) ثمار القلوب ١/ ٤٥٥ ووفيات الأعيان ٤/ ٤١).

(٣) ليسا في ديوانه.

(٤) ديوانه ١٩٤.

(٤) هما من القطعة السابقة.

لَهُمْ فِي الْوَعَى أَغْصَانُ سُمْرٍ كَأَنَّمَا

تُحْفُ إِذَا أَجْرُوا الدِّمَاءَ بِمُورِدٍ

وَقَوْلُهُ مِنْهَا^(١): [الطويل]

جَمَعْتَ الَّذِي فِيهِمْ زَدْتَ عَلَيْهِمْ

فَأَنْتَ كَمَعْنَى نَازِمٍ مُتَوَلِّدٍ

وَمَا فَوْقَ مَا قَدْ نَلْتَهُ مِنْ زِيَادَةٍ

بَلِ اللَّهِ أَوْلَى بِالزِّيَادَةِ فَازْدَدِ

وَقَوْلُهُ^(٢): [الخفيف]

لَا حَ فِي خَدْيِهِ دِيْبَاجَةٌ

طَرَزَهَا الشَّعْرُ بِلِبْلَابٍ

بَابُ سُلُوءٍ دُونَهُ مُغْلَقٌ

وَصُدَّعُهُ الزُّرْفَيْنُ لِلْبَابِ

يَا مَانَعِي حَتَّى مَوَاعِيدُهُ

مَنْ لِي بِوَعْدٍ مِنْكَ كَذَّابٍ

وَقَوْلُهُ مِنْ مَرثِيَةٍ فِي أَخِيهِ^(٣): [الطويل]

خَلِيلِي قَدْ أَبْصَرْتُ عَيْشِي بَعْدَهُ

كَأَنِّي قَدْ أَبْصَرْتُ عَيْشِي مِنْ بَعْدِي

وَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو الْبُعْدَ وَالْقُرْبُ يَرْتَجِي

فَكَيْفَ أَكُونُ الْيَوْمَ فِي الْيَأْسِ وَالْبُعْدِ

وَكَانَ أَجَلَ الْخُطْبِ عِنْدِي صَدُّهُ

فَمَنْ لِي وَطُوبَى لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّدِّ

إِذَا مَا فَقَدْتَ الْأَنْسَ تَمَنَّيْتُ تَحِبُّهُ

فَنَفْسُكَ لَا الْمَحْبُوبُ أَفْجَعُ بِالْفَقْدِ

وَقَوْلُهُ مِنْهَا:

فَنَيْتُ أَسَى لَمَّا بَقِيتُ مُكَارِماً

فَأَصْبَحْتُ فِي دَارٍ وَأَصْبَحْتُ فِي لَحْدٍ

لِيَهْنِكَ مِنْ بَعْدِ الرَّدَى بَاقِي الثَّنَا

وَإِنْ كُنْتُ مِنْ تَحْتَ الثَّرَى بِأَلْيِ الْبُرْدِ

وَقَوْلُهُ^(٤): [البسيط]

(١) هما من القطعة السابقة.

(٢) ديوانه ١٨. والزرفين: حلقة الباب.

(٣) ديوانه ٣٩٢.

(٤) ديوانه ٢.

أشكو إليك جُفوناً عَيْنُهَا أَبَدًا عَيْنٌ تُتَرْجَمُ عَنْ نِيرَانِ أَحْشَائِي
كَأَنَّ إِنْسَانَهَا وَافَى بِمُعْجَزَةٍ فَكَانَ مِنْ أَدْمُعِي يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ
وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ (١): [الكامل]

إِنَّ الشَّجَاعَةَ وَهِيَ مِنْ أَوْصَافِهِ غَلَبَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ مِنْ أَسْمَائِهِ (٢)
يَقْرِي الطُّيُورَ طَعَانُهُ فَضِيُوفُهُ تَنْتَابُهُ مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ (٣): [الخفيف]

لَا تُحَدِّثُ سِوَاكَ نَفْسٌ بِفَضْلٍ ذَاكَ رَجَعُ عَنْ الْأَمَانِي بِعَيْدٍ
وَقَوْلُهُ مِنْهَا:

وَانْجَلَتْ مِصْرٌ إِذْ تَجَلَّى عَرُوسًا وَكَانَ الْأَهْرَامُ فِيهَا نَهْدُ
وَقَوْلُهُ:

أَنَا مِنْ قَائِمِ الْحَسَامِ نَذِيرُ فَهُوَ إِنْ قَامَ فَالْرُّؤُوسُ حَصِيدُ
هُوَ كَأْسٌ وَسَكْرَةُ الْمَوْتِ قَالَتْ: ذَلِكَ مِنِّي مَا كُنْتُ مِنْهُ تَحِيدُ (٤)
وَمَتْنِي يَلْفِظُ الْعَدُوُّ بِقَوْلٍ فَعَلِيهِ مِنْهُ رَقِيبٌ عَتِيدُ (٥)
وَقَوْلُهُ:

وَإِذَا رَشَتْ بِالْأَيَادِي جَنَاحِي فَمَعَانِي الْعَلَاءُ مِمَّا أُصِيدُ

(١) ديوانه ١٣٤ .

(٢) كذا ورد الشطر الثاني في الأصل والديوان، وهو مكسور الوزن، ولعل الصواب: X... وهُنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ.

(٣) ديوانه ١٩٥ .

(٤) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق ١٩].

(٥) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق ١٨].

وقوله من أبيات^(١): [الطويل]

سأشكرُ عن شكري نداءه لعلهُ
إذا أنا بعد الجهد قصرتُ شاكرًا
يقومُ لها ذنبي بأحسن عُذره
فقد صار للتقصيرِ ذنبي كشكره

وقوله^(٢): [الطويل]

إذا أنت أعطيتُ اللهى بذريعةٍ
فلاتشكرن إلا لتلك الذرائعِ

وقوله من مرثية في أخيه^(٣): [مجزوء الكامل]

أأخي هونتُ الحـمـا
لم لا أهونه وقـد
مَ فكان يـضعُفُ عنه عـزـمي
قدّمتُ رُوحـي قبل جـسـمي

وقوله^(٤): [من الكامل]

وإذا اجتليتُ عُقودَ أسطـره
ظفر الهوى بمراشِفِ لُـعـسِ

وقوله^(٥): [البيسط]

ما حلّ هذا الهوى إلا لا تحـلا
ولا بعثتُ خيول الدمع خلفكم
يا ربيع ما أنت إذ زُمتُ رحالهم
لقد تمثّلتُ في ترك الجواب بهم
ولا سرى الدمعُ إلا عن هوى نـزـلا
إلا لتلحق قلباً فيكم رحـلا
للبين أولُ صبِّ البسـوه بلى
فما تُجيبُ كما كانوا لمن سـأـلا
أما ترى طـللاً يستـخـبرُ الطلـلا
وقفتُ فيه فقال الناسُ من سـقـمي:

(١) ديوانه ٢٣٥.

(٢) ديوانه ٢٥٣.

(٣) ديوانه ٤٠٥.

(٤) ديوانه ٥٦.

(٥) ديوانه ٩٣.

وقوله^(١): [الكامل]

أَسْدِي أَفْكَارٍ إِذَا لَبِلُ الْأَسَى	أُرْخَى دُجَاهُ فَرَأَيْهُ السَّرْحَانُ
هَذَا وَكَمْ لَكَ فِي الْوَعَى مِنْ عِزْمَةٍ	بَكَرْنَ مِنْ ثَقَةٍ بِهَا الْعَقْبَانُ
تَغْدُو خِمَاصاً [مِثْل] مَا قَدْ مَثَلُوا	فِي حَرِبِهِ وَتَرَوْحُ وَهِيَ بَطَانُ ^(٢)
وَعَلِمْتُ أَنَّ حَدِيثَ كَسْرَى بَعْدَهُ	زُورٌ فَلَمْ يَتَشَامَخِ الْإِيوَانُ
لَوْ عَاشَ شَاهِنشَاهُ أَيْقَنَ أَنَّهُ	مَلِكُ الدُّسُوتِ وَأَنَّهُ الْفِرْزَانُ
تِلْكَ التَّوَاقِيعُ الَّتِي هِيَ جَنَّةٌ	أَقْلَامُهُ فِي دَوْحِهَا أَغْصَانُ
أَمْنَصِلَ الرُّمَحَ الطُّوِيلَ بِكَوْكَبٍ	مَنْ ذَا يُطَاعِنُ وَالسَّمَاءُ سَنَانُ

وقوله:

وَالشَّمْعُ فَوْقَ الْبَحْرِ تَحْسَبُ أَنَّهُ	مَنْ لُجْبِهِ قَدْ أُطْلِعَ الْمَرْجَانُ
وَالْمَاءُ دِرْعٌ وَالشُّمُوعُ أَسَنَةٌ	وَلَهَا إِذَا خَفِقَ النَّسِيمُ طِعَانُ

وقوله:

يَا مَالِكِي أَنْبَتُ رِيثِي بِالنَّدَى	لَكِنِّي مَا قَصْدِي الطَّيْرَانُ
---	-----------------------------------

وقوله:

ضَاقَتْ مَعَاذِرُهُمْ إِلَى ضَيْفَانِهِمْ	لَكِنْ رَحْبُنْ مَنَازِلُ وَجَفَانُ
يَغْدُونَ عِنْدَهُمْ بِأَعْيُنٍ	وَدَّتْ تَكُونُ جَفَانُهَا الْأَجْفَانُ

وقوله من أبيات^(٣): [الطويل]

(١) ديوانه ٣١٥.

(٢) الزيادة من الديوان. وليس هذا من الأمثال، وإنما هو من قول رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

(٣) ديوانه ١٨٤.

ركبنا رياحاً من كرائم خيله
فقل لليالي الخطب: طولي أو أقصري
ولما نضا الأستار عن نور وجهه
وقوله من قصيدة^(١): [البسيط]

نؤم سحاباً من سماء سماحه
فإننا على وعد السرى من صباحه
تغطيت من دهري بظل جناحه

أستودع الله في أظعانهم قمراً
عندي سهاد وعند الهاجرين كرى
وقوله منها يرثي بني رزيك:

إليه لوضلت الأقمار يحتكم
فالليل مشترك بيني وبينهم

بأي وجه يراني الناس بعدهم
أبكي الذي زال عند التاج دولته
أعزز عليّ بأن ظلت ديارهم
وما لبست دموع العين عاطلة
إن ينهدم بكم للدهر بيت علأ
معنى من الكرم المهجور فرت به
وكان حقكم لو كان لي قبل

حيأ ويا أسفاً إن قلت بعدهم
إذا بكى الناس من زلت به القدم
تسدئ الهموم بها أو تندب الهمم
إلا وفيض دمي في ردنها علم
فإن بيت رثائي ليس ينهدم
وفي الرثاء لمن لا يرتجى كرم
أن ينصر السيف لا أن ينصر القلم

وقوله^(٢): [الطويل]

نفينا سواد الليل عن دولة الهدى
وبين مجازاة ضررنا وجزية

فلا راية سودا ولا أمة سودا
فمن طائع أدى ومن خالع أودى

وقوله من قصيدة^(٣): [الكامل]

(١) ديوانه ٤٠٥ .

(٢) ديوانه ١٩٦ .

(٣) ديوانه ٣٢٤ .

تلك الرياضُ إذا تهجَّرَ حادثُ
لمع النُّضارُ بها فقلنا: شمسُها
وقوله منها:

لم تلق إلا ظلَّها وجناها
وجرى اللُّجِنُ فخلتُ أمواها

نظروا الخيولُ فاثبتت نظراتُهم
ولربَّ هاتفةٍ دعتهم للوعى
هي كالوارد في العيونِ وطالما
هي في بحارِ يديه أمواجُ تُرى
لا بل زنادُ جهنمٍ في كَفِّه
لو أن أرضاً مرةً فدتِ السَّما
ومن المحدثُ نفسه بلحاقها
وقوله من أبيات^(١): [الطويل]

غُرراً عليها وقد وسمن جباها
جعلوا صليل المرففاتِ صداها
نقَعُوا بهاماتِ الكُماةِ صداها
ونُفوسُ من قتلته من غرقاها
منها فُكِّلُ مُكذَّبٍ يصلاها
كانت عداها في الخطوبِ فداها
فدع الحديث عن الذي ساواها

حمائمٌ قد حثَّت زُجاجاتِ أدْمعي
وما درج الكُثبانُ مرُ نسيمها
ولما مررنا بالرُّسوم تنفَّذت
بكيننا فغطَّى الدَّمعُ أنوارَ أعينِ
وقوله من أبيات^(٢): [من الكامل]

فما خلتُ إلا أنهنَّ حوائمُ
بلى درج الكُثبان ما أنا لائمُ
بها للهوى في العاشقين المراسمُ
ومن عجبٍ أن الدَّموعَ كَوَاتِمُ

يا من إذا ما المألُ جاز بأرضه
يلقى إليه فلا يليقُ بكفِّه

يصفرُّ خوف فراقه أن ينهبها
فكأنما يلقى عليه ليحسبها

(١) ديوانه ١٠٧

(٢) ديوانه ٤١٧ .

وقوله^(١): [الطويل]

وكان مخوفاً قبلكم ومدارئ
كذا طلقاء المكرمات أسارئ

برأيكم أمسى الزمان مدارا
ورب طليق قد أسرتم بكفكم

وقوله منها:

فإن القوافي في علاه غيارئ
فذلك سبق قد أثار غبارا
فتجتمع الأنواء منه غزارا
فترسل من فيض الدماء شرارا

سأنصف أصناف القوافي بمدحه
فإن أبصروا في الطرس أثر مداده
يفيض لنا كفاً ولله مقلّة
وتقدح نار الحرب من أزند الظبا

وقوله من أبيات^(٢): [البسيط]

للجد والجود من نار وجنات
فالناس ما بين رعي أو مراعات
والوصل ينقص من بعض الصبابات
فما يظن العدئ هذي النهايات
وحرب من لا يظن الحرب تارات
من القواضب في عصل الثنيات
والطعن بينهم مثل التحيات
كالشرب حين تهادئ بالزجاجات
والسيف ماء لنيران الحزازات

لُهنئ الملك ما أظهرت من همم
تحمي وتهمي بعين أو بجود يد
مواصل المجد لا ينفك من شغف
هذي البدايات قد نلت السماء بها
عطاء من لا يظن الجود يفقره
الله جارك والآجال كاشرة
وقد تداعت بها الأبطال واعترفت
وقد تهادت سيوف الهند إذ خضبت
فكم بردت بماء السيف غلتها

وقوله من أبيات^(٣): [الطويل]

(١) ديوانه ٢٣٥.

(٢) ديوانه ١٧٢.

(٣) ديوانه ٩٣.

أمستصحباً فليبي وكان محلّه
إذا ما جرى جفني دماً بمدامعي
وقوله^(١): [الطويل]

لئن نالت الأملاكُ ملكاً بحظّها
وهذا عيانُ المجد فيكم فما الذي
دفعت الأذى عَنّا ومثّعت بالئني
والله ما كُلّفتُ في المدح كُلّفةً
وقوله من أبياتِ في الشَّيب^(٢): [الوافر]

أرى شيبِي مُعاري فيه بعضي
فلا تُنكر له تعبِيس وجهي
وقوله من أبيات^(٣): [مجزوء الكامل]

بالله يا قمر التَّمام
أنسيت في نور الكما
وقوله من أبياتِ في ذكر الرِّماح^(٤): [الكامل]

تمشي بها سُرْجاً ويومك مُظلمٌ
مثل الصُّلال تحوفُ نفث طعانها
ويجرُّها طوراً وبصلًى حرّها
فترى الذُّوابِل نُصَلتْ بذُّبال
يستلعمُ الغاзи ثياب صِلالٍ
فيكونُ مُحْتَطباً وطوراً صالٍ

(١) ديوانه ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) ديوانه ٤٤٨ .

(٣) ديوانه ٧٤ .

(٤) ديوانه ٢٧٥ .

وقوله من أبيات^(١): [الطويل]

فإن تكتسي يا دارُ ثوباً من الصُّبا
من تُكتم الأشواقُ ما بين نائمٍ
فلا تلبسي من أدْمعي غير معلمٍ
نومٍ ودمعٍ بالدماءِ مُنمنمٍ

وقوله من أبيات^(٢): [الكامل]

وإذا أفاض الصَّبُّ صبَّ دُموعه
ما دام وجهٌ ينجلي عن روضةٍ
أغنى الديار عن الحيا المتهلِّل
فعليَّ عينٌ تنجلي [عن] منهلٍ

وقوله^(٣): [الكامل]

من ثغره وحليّه ونسيمه
ومتى يفوزُ بما تمنيَّ عاشقٌ
لَكَ من نسيبي فيك روضٌ يانعٌ
رتعت جُفوني من سناك بجنةٍ
ما لا تقومُ بكتمه الظُّلماءُ
وجميع ما يهوى له أعداءُ
تجري عليه من دُموعي الماءُ
وتبوءات منه بحيثُ تشاءُ

وقوله^(٤): [الطويل]

برُوحِي من رُوحِي إليه مسُوقَةٌ
وأصلُ الهوى في القلبِ عيني وعينهُ
وقلبي من قلبي عليه مُقطَّعُ
وكلُّ بلاءٍ عنهم ما يتفرَّعُ

وقوله في عمارةٍ سور عكا^(٥): [السريع]

ميزانُ أعمالك لا شك في
رُجحانه والحقُّ لا يشتبهُ

(١) ديوانه ١٠٨ .

(٢) ديوانه ٩٤ .

(٣) ديوانه ٣ .

(٤) ديوانه ٦٣ .

(٥) ديوانه ٣٢٦ .

بالحجر الأسود إذ صُنَتْهُ

وقوله من قصيدة^(١): [البسيط]

والحجر الأبيض إذ صُنَتْ به

يَمِينُكَ الْبَحْرُ أَمْ فِي وَجْهِكَ الْقَمَرُ
فَلِلتُّرَابِ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْأَثَرُ
دَنَا بِهِ الْجُودُ حَتَّى قِيلَ: ذَا بَشَرُ
وَكُلُّ لَيْلٍ لَنَا مِنْ ذِكْرِهِ سَمَرُ
لَا يَنْقُضِي وَعَلَى أَمْوَالِهِ سَفَرُ
وَهُمْ بَنُوكَ وَمَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ
وَخَدُّهَا فِيهِ مِنْ فَيْضِ الدَّمَا خَفَرُ
وَالطَّعَنُ بِالسُّمْرِ مِنْ آثَارِهِ سُرُرُ
وَمَا سَرَى كَوَكَبٌ فِيهَا وَلَا قَمَرُ
أَوْ بِالْبَعِيدِ يُبَاعُ مَا بِهِ قَصَرُ
تَرْمِي الْعُدَاةُ بِقُوسٍ مَالَهَا وَتَرُ
فِيهَا وَلَا الذَّابِلُ الْخَطِيئُ مُنَاطَرُ
وَعَزَمْنَا آمَرَ وَالذَّهْرُ مُؤْتَمَرُ
وَالذُّكْرُ إِنَّ الشُّجَاعَ الْحَيَّةَ الذُّكْرُ
فَمَا أَضْرَبْنَا إِنْ أَصْفَقْتَ مُضَرُ
فَمَا نُنِي الطَّيْفَ إِلَّا ذَلِكَ السَّهْرُ
وَالْعَدْلُ يَفْعَلُ مَا لَا يَفْعَلُ الْمَطَرُ
مُلْكٌ بِهِ الْجُودُ عَيْنٌ وَالثَّنَا أَثَرُ

أَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ أَمْ فَوْقَ السَّمَاءِ فَنِي
يُقَبِّلُ الْبَدْرُ تُرْبًا أَنْتَ وَاطْنُهُ
نَأَى بِهِ الْمُلْكُ حَتَّى قِيلَ: ذَا مَلِكُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مِنْ مَجْدِهِ عَجَبُ
نَظَرْتُ فِي نَجْمِهِ فَالْسَّعْدُ طَالَعُهُ
أَبَا الْفَوَارِسِ وَالْآبَاءُ مُشْفَقُهُ
تَلَقَى عُرُوسَ الْمَنَايَا وَهِيَ حَاسِرُهُ
وَالضَّرْبُ بِالْبَيْضِ مِنْ آثَارِهِ عُكْنُ
وَرُبَّ لَيْلَةٍ خُطِبَ قَدْ سَرَيْتَ بِهَا
سُمْتُ الْعَرِيصِ بِعَزَمِ مَالِهِ ضَجَرُ
وَأَنْتَ فِي جَيْشٍ رَأَى لَا غُبَارَ لَهُ
هِيَ الْحُرُوبُ الَّتِي لَا السَّيْفُ مُنْثَلِمُ
سَرْنَا وَسَارَ شُجَاعٌ وَهُوَ يَقْدُمُنَا
وَكُنْ زَجْرُ اسْمِهِ فِيهِ الْحَيَاةُ لَنَا
كَانَ الْحُسَامُ يَمَانِيَّ الْهَوَى مَعْنَا
وَبِتِ وَالْمَوْتُ طَيْفٌ قَدْ أَلَمَ بَنَا
سَقَى بِكَ اللَّهُ دُنْيَانَا فَأَخْصَبَهَا
لَمَّا اسْتَقَلْتَ سُبُورَ الْمُلْكِ لَاحَ لَنَا

في كعبته للندى لو حلها ملكٌ
وسائل لي ما العلياء؟ قلتُ له
ما أنصفت مجده نظّام سيرته
نال السّماء بأطراف القنا فبدت
لا يحدثُ النّصر في أعطافهم مرحاً
أجروا دماء العدوّ بين الرّماح فما
ترى غرائب من أفعال مجدهم
خلائق في سمواتِ العليّ زهرٌ
النّاسُ أضياؤكم والأرضُ دارُكم
ما أنصف الشّكر لولا أن يُسامحنا
وقوله من أبيات^(١): [الكامل]

سأل اللّوى وسؤاله تعليلُ
يا دارُ جهد جُفوننا وضلوعنا
زرت عليه من الرّياض ملبسٌ
رقّ العذول لما رأى من حالتي
أو ما تراني حاملاً من بعده
من لي بحظّ بالفضائل عارفٍ
أغمد لسانك أن يقول فيّ إنّه
وامنعه من نفثاته وكفى بها
كفل زمانك أن يغيّر كلّ ما

تهيب التّلق حتّى فيل: ذا حجرُ
في فعله الخيراً | وفي قوله الخبيرُ
إنّ الذي ستروا فوق الذي سطوروا
من النّصول عليها أنجم زهرُ
حتّى كأنهم بالنّصر ما شعروا
يُقال: عندهم ماءٌ ولا شجرُ
يردّها الفكر لو لم يشهد النّظرُ
منها تُنير وفي روض النّهي زهرُ
فهو المقام فلم قالوا: هو السّفَرُ
فانت تُطبّبُ جوداً وهو يختصرُ

ومن المحال بأن يُجيب مُحيلُ
لك بالبكاء وبالأسى مبدولُ
خيّط الغمام لوشيّها محلولُ
فالיום عاد إليه وهو رسولُ
ثقل الأسى فكأنني محمولُ
فيحقّ حينئذٍ لي التّفضيلُ
عضبٌ أحاط بجانبيه قللُ
فمن الكلام أسّةٌ ونُصولُ
أنكرته فكفّاك منه كفيلُ

وقوله^(١): [الطويل]

أَمَّا عَلَى الْمَلِكِ الْيَالِي بَعْدَمَا
 إِمامٌ أَقْرُوا جَوْهَرَ الْمَلِكِ عِنْدَهُ
 دِيَارُ الْعَدَى مِنْ نَقْعِهِ وَدِمَائِهِمْ
 يُلَاقِيهِمْ بِالسَّيْفِ وَالطَّيْرِ طَاعِماً
 يَقُولُ لَنَا دُرّاً وَيَنْدِي سَمَاحَةً
 وَلَمَّا انْتُنَتْ مَنَّا عَلَيْهِ خَنَاصِرٌ
 لَأَفْنَتْ طُبَاكُم فِي الرُّغَى وَصَفَائِهَا
 فَيَا عَجَباً لِلْمَلِكِ قَرُّ قَرَارِهِ
 طَوَاعِنُ أَسْرَارِ الْقُلُوبِ نَوَاطِرُ
 تُمَدُّ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْهَا مَعَاصِمُ
 وَقَوْلُهُ مِنْهَا فِي الْخِيلِ:

لَهَا غُرٌّ يَسْتَضْحِكُ النَّصْرُ وَجْهَهَا
 وَقَوْلُهُ مِنْهَا فِي ذِكْرِ الْقَصِيدَةِ:

إِذَا مَا أَتَتْ تَخْتَالُ بَيْنَ سَطُورِهَا
 هِيَ السَّائِرَاتُ الْخَالِدَاتُ بِمَجْدِهِ
 وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ^(٢): [الطويل]

وَرِثْتُ الْمَعَالِي عَنْ أَبِيكَ شَرِيعَةً
 إِذَا مَا كَسَوْتَ الْوَفْدَ لِلْجُودِ مَلْبِئاً
 وَقُتِمَتْ بِهَا فِي فِتْرَةِ الْبُخْلِ مَذْهَبَا
 فَقَدْ لَبِسُوهُ بِالْبِشَاشَةِ مَذْهَبَا

(١) ديوانه ٢٣٦.

(٢) ديوانه ١٦٣.

لو أن زياداً كان أدرك عصره
يُقطعُ عمر الليل عمرُ سجوده
وفي فقر عافية إليه وسيلة
وقوله^(٢): [الطويل]

يُقول ولو أن الليالي خُصومه
مَحارِبُهُ تُثني على صلواته
ومعني ولو أن النجوم مطالبه
ولكن على الأعقاب يثني مُحاربه
ومنها:

جنائبُ في بحر العجاج سفائن
وقد خفقت رايته فكانها
فإن حُرِّكت للركض فهي جنائبه
أناملُ في عُمر العدو تُحاسبه
وقوله^(٣): [الكامل]

لو كنت جاورت الحمام نائحاً
سل طائراً صدع الفؤاد بسُحرة
قال ألوشاة: أضع سرَّك بائحاً^(٤)
أترأه غرْدَ صادعاً أم صادحاً
يا ضعف من أمسى الفريسة في الهوى
وقوله^(٥): [البسيط]

يا ليلة بات فيها البدرُ مُعتنقي
والنَّاسُ بالبدرِ والظُّلُماءِ في شُغلٍ

(١) زياد : هو النابغة الذبياني ، والإشارة إلى قوله : [ديوانه ٧٨]

ولست بمستيق أخلا تلمُّه على شعثٍ أي الرجال المهذب ؟

(٢) ديوانه ١٦٤ .

(٣) ديوانه ٢٧ .

(٤) في الأصل : لو كنت حامت الحمام بايخان IX

(٥) ديوانه ٩٢ .

بتنا نفضُ عُقوداً للحبيب فإن
قُل في الزُّلالِ إذا وافي على عطشٍ
وقوله من أبيات^(١): [الوافر]

وبالأسعار نعرفُ قائلِها
سبقتُ بها فقد صارت لقومٍ
وقوله^(٢): [مجزوء الرمل]

سَقْنِي يا بدرُ شمساً
واجعل الظُّلُماءَ شمساً
إنَّما الكاساتُ تيجاً
وهي نارٌ جـعلوها
قد طويْنَا إذ أُديرَت
كانطواء الخُوفِ عَنَّا
وقوله من قصيدة^(٤): [الخفيف]

يا غزالاً له السُّيوفُ حجابُ
ما عهدنا والنَّائباتُ كثيرُ
أغليلاً والماءُ فوق الثنايا
أين تلك الرُّسومُ أين تُراها
في فُؤادي أضعافُ تلك الحُجبِ
أنَّ ضيفاً يُضامُ بين العُربِ
وهواناً بين القنا والقُضبِ
تبعَت في الرُحيلِ إثر الرُّكَبِ

(١) ديوانه ٣٤٢.

(٢) ديوانه ٣٣٢.

(٣) هو طيِّب بن شاور، قتله ضرغام بن عامر. (النجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٨).

(٤) ديوانه ١٩.

بُريها كمثل قلب الصَّبِّ
وبكت بالحيا جُفُون الشَّهْبِ

ما كان خدِّي بالمدامع حال
فسواده في خدِّه بالخال
أفعال حصن الدين بالأموال
للناس إلا فتنه بجمال^(٢)
صارت بكفك فالرَّماح عوالي

تداعت بها الألفاظ وهي دُموعُ
فذا الدَّمعُ يجري واللَّسيعُ لسيعُ
فحُزنُك يشدي والدُّموعُ تبيعُ

فشفاؤه في دائها
والقلبُ من أعدائها
مشبوبةً من مائها
في حُسنها وغنائها

أترى يا زمانُ أنت مُعَنَّى
زفرت بالصُّبَا صُدُورُ اللَّيالي
وقوله من قصيدة^(١): [الكامل]

لولم يُعطَلْ خاطري من سلوةٍ
أودعتهُ قلبي فخان وديعتي
فَعَلَ السَّقَامُ بِمُهجتي وجوارحي
لم يبق في أيامه من فتنةٍ
تُسمي الرَّماحُ قنأً فأما بعدما
وقوله^(٣): [الطويل]

أساكن أكنافِ المُقَطَّمِ دعوةً
يقولون: درياقُ الهوى الدَّمعُ إن جرى
أبى الحُزنُ لي من أن أماكس في الهوى
وقوله^(٤): [مجزوء الكامل]

دع عينه لعنائها
العينُ من أعدائه
هذا ونيرانُ الهوى
قُمَرِيَّةٌ قَمَرِيَّةٌ

(١) ديوانه ٢٧٤ .

(٢) في الأصل : لولم يبق ... IX .

(٣) ديوانه ٣٩٨ .

(٤) ديوانه ١٢٧ .

القلبُ كارهٌ نأيها والسَّمْعُ عاشقٌ نأيها
ولقد رضيتُ بقتلتي إن كان ذاك برأيها^(١)

وقوله من قصيدة^(٢): [مجزوء الكامل]

يا مالك الحَسَنَيْنِ والـ حُسْنَيْنِ من خَلْقٍ وخُلُقٍ
لو لم يكن من فضل مد حي فيك إلا فضلُ صدقي
ماضراً جهلُ الجاهليـ من ولا انتفعتُ أنا بحدقي
وزيادتي في الخلقِ فهـ سي زيادةً في نقصِ رزقي

وقوله من مرثية^(٣): [البسيط]

تبكي عليك عُيونُ أنت قُرتُها وما قضى الحقُّ باكي البحرِ بالخُلجِ
في كُلِّ شدةٍ دهرٍ لم تزل فرجاً [فا] عظم الله أجر الناسِ بالفرجِ

وقوله^(٤): [البسيط]

قالوا: جرى قلمي في مدح غيركم لا والذي علم الإنسان بالقلم
وما خلوتُ بذكراكم وكان معي ثانٍ يثَلُثُ ذكراكم سوى الكرمِ

وقوله من أبيات^(٥): [الطويل]

إذا هزَّ فيها صارمُ البرقِ خلتهُ بُرُوعٌ من تلك الجداولِ أرقشا
يُدُّ عليها المدسوراً مُفضضاً ويرجعُهُ طوراً سواراً مُنقشاً^(٦)

(١) في الأصل: بقتلي IX.

(٢) ديوانه ٢٥٩.

(٣) ديوانه ٣٩١.

(٤) ديوانه ٣٠٤.

(٥) ديوانه ٢٤٤.

(٦) في الأصل: ... منتضاً IX.

فيسري بأوراق الغُصون مُرِيشاً
نُكْتَمُهُ وَالشَّمْسُ لَيْسَ لَهَا غِشَا
بَحِيَّاتُ سُمْرٍ بِالْأَسْنَةِ نَهْشَا
[وَيُرْسَلُهَا] إِنْ يُنْزَلُوا الْقُلُبُ الرِّشَا^(١)
وَأَطْرَافُهَا أُولَى مِنَ الِهِمِّ بِالْحِشَا
فَأَذْهَلُ وَصْفُ اللَّيْثِ مِنْ وَصْفِ الرِّشَا

وَيُرْجَعُهُ سَهْمًا إِلَى مَقْتَلِ الثَّرَى
هُوَ كَسَمَاحِ الصَّالِحِ الْمَلِكِ الَّذِي
يُقْتَلُ حَيَاتِ الْحُقُودِ مِنَ الْعَدَى
وَيَنْصُبُهَا إِنْ يَرْتَقُوا السُّحْبَ سَلْمًا
فَأَوْسَطُهَا أُولَى مِنَ الْعَيْنِ بِالْهُدَى
غَنِينَا عَنِ التَّشْبِيبِ قُدَّامَ مَدْحِهِ

وَقَوْلُهُ^(٢): [البسيط]

حَسَبْتُ بَعْضَ الَّذِي مَازَالَ يُعْطِينِي
مَا تُشْكُرُ السُّحْبُ إِلَّا بِالْبَسَاتِينِ^(٣)

وَكَيْفَ أَحْسَبُ مَا يُعْطِي الْعُفَاةَ وَمَا
الْكُتُبُ تُشْكُرُهُ عَنَّا وَلَا عَجَبُ

وَقَوْلُهُ^(٤): [المتقارب]

تَبَدَّيْ عَلَى الْخَدِّ مِنْهُ الشُّفْقُ
فَكَانَ الْحَبَابُ عَلَيْهِ الْعَرَقُ

وَأَغِيدَ لَمَّا دَجَا عَثْبُنَا
صَفَا فَوْقَ خَدَّيْهِ جَمْرُ الصَّبَا

وَقَوْلُهُ^(٥): [الكامل]

وَكَأَنَّنِي بِسَحَابِهِ قَدْ أَغْدَقَا
لَا تَذْكُرُنْ زَمْنَ النَّفَارِ مِنَ النَّقَا
حَتَّى تَلَا شَيْبِي وَأَنْ تَفَرَّقَا

أَمَّا الْمَشِيبُ فَإِنَّهُ قَدْ أَبْرَقَا
فَإِبْرَزُ إِلَيْهِ أَبْيَضًا فِي أَبْيَضِ
كَانَ الْهُوَّى خَلَّ الصَّبَا وَصَدِيقُهُ

(١) في الأصل : وينصبها إلى أن يرتقوا السحب سلماً X إلى أن ...

(٢) ديوانه ٣١٧.

(٣) يشير إلى المثل : الكُتُبُ بَسَاتِينُ الْعُلَمَاءِ.

(٤) ديوانه ٧٥.

(٥) ديوانه ٤٤٨.

وقوله^(١): [المديد]

أي شئان لا يُباحُ به	بعد ما قد باح لي شئانُ
وكلامُ الصَّبِّ أدمُعُهُ	لك والأفواه أجفانُ
أدمُعي والحبُّ إن حكموا	فهو دعوى وهي برهانُ
ما زها من قبل معطفه	فوق عُصن البانِ بُستانُ
جُلُنازل الوجنتين له	من ثمار الصُّدر رُمانُ
كيف أرجوهم وعندهم	حُرُماتُ الحبِّ أضغانُ

ومنها:

وله سـيـفٌ كـناظـره	حارسٌ للخلق يقظانُ
عاد كُفـرُ الكافـرين إذا	مـا رآوه وهو إيمانُ
يتـداعى إذ دعوت به	[حين] يلقى الشُّرك أوثانُ
للظُّبا الأجفانُ تعرفُها	ولهذا السَّيف آذانُ
وهو مرآةٌ يبينُ بها	من ضمير الضُّدِّ أضغانُ

ومنها:

قـم لتـمـلا من نفوسهم	ورمـح الخطِّ أشطانُ
وخـدودُ الأرض مُشرقة	من دمٍ والخيلُ خيلانُ

١٠- ومنهم: محمد بن محمد، عماد الدين، أبو حامد القرشي، الأصبهاني، الكاتب^(١).

* ركن الدول وعمادها، ومُزن الممالك وعهادها، علمٌ يهتدي به الساري، وكرمٌ ينتدي بسببه الجاري، رسا كالطُود المرجحُ وسرى كالجُود فأوى إليه المُستكنُّ، وتحلّت به ترائبُ الأيام، وحلت بحُجبه ربائب الخيام، فعلا مقداراً، وأبى أن يتخذ دارة البدر داراً، فقُصّت دونه أجنحة النعامي، وطُرت أفنية المعالي الأبيكار والأيامي، وعزّ في تلك الدول فغالت في قيمته، وغالبت في نشر لطيمته، وكان ذا أيدٍ تنهضُ بكلِّ عظيمة، وتأبى كل هزيمة، بعزم يُزاحمُ أبان^(٢)، وتقدّم إذا نكل كلُّ جبانٍ، بأقدار لسانٍ، وابتدار بديهة الإحسان؛ وكانت قصباتُ السبق لا تُحرزُ إلا لأدهمه، ولا تُحرزُ داراتُ البُدور إلا لدرهمه.

نشأ في حجر عمّه المستوفي^(٣)، وتأدّب بأدبه، وعُرف في ديوان الخلافة

(١) ترجمته في: الروضتين ٤/ ٤٨٥ والتكملة للمندري ١/ ٣٩٢ وتلخيص مجمع الآداب ٤/ ٢/ ٨٤٤ (دمشق) ٢/ ١٥٩ (طهران) ووفيات الأعيان ٥/ ١٤٧ ومعجم الأدباء ٦/ ٢٦٢٣ وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٤٥ وتاريخ الإسلام ٣١٦ [وفيات ٥٩١ - ٦٠٠] والعبر ٤/ ٢٩٩ والمختصر المحتاج إليه ٦٩ والوافي بالوفيات ١/ ١٣٣ والبداية والنهاية ١٦/ ٧١١ والمقفى الكبير ٧/ ٢٠٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٧٨ وحسن المحاضرة ١/ ٤٨٨ وتوضيح المشتبه ١/ ٢٦٣ وشذرات الذهب ٦/ ٥٤١.

- وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله الأصبهاني الكاتب، ويُعرف بابن أخي العزيز.
- كنيته في الأصل: أبو حامد، وهو يوافق ما في الروضتين ١/ ٢٩. وفي مصادر ترجمته: أبو عبد الله.
- توفي سنة ٥٩٧هـ.

(٢) أبان: جبل لبني فزارة. (معجم البلدان ١/ ٦٢).

(٣) هو أبو نصر أحمد بن حامد بن محمد بن أله الأصبهاني المستوفي، يلقب بالعزيز؛ توفي مسجوناً - وقيل مقتولاً - سنة ٥٢٦هـ. (توضيح المشتبه ١/ ٢٦٢)

باسمه، وخدم الأبواب الإمامية، فقدم على الأولياء، وتمسك بالأسباب العلمية وموارث الأنبياء، وكتب للدولة النورية فازدادت به نوراً على نور، وازدانت منه بفرائد بحورٍ على نُحورٍ، واتصل بالمقام الصّلاحي، فأصلح الفاسد، وأربح الكاسد، وكان بالخدمة الناصرية كاتب الإنشاء بها حقيقة، وساحب ذيل كلّ حديقة؛ وأمّا الفاضل فكان قد رُفِعَ عنها وكَبُرَها ثم كان أكبر منها، وكان العمادُ بحرّاً يتلاطم موجاً، وأفقاً يتلأل أوجاً، وكان ملازماً للسُّلطان سفراً وحضراً، وورداً وصدرًا، ومُحصلاً بصُحبته آلافًا وبدراً.

وكان فقيهاً جدلياً، عالماً فاضلاً، أديباً، أريباً، كاتباً، شاعراً، ناظماً، ناثراً، ذا تصوّف في البيان، وتفنّن في الكلام، لو ازدحم عليه ألفُ بريدٍ لجهزه، أو نظّم كلّ فريدٍ لما أعجزه؛ وله الجيّد النادر، والغضُّ الناضر، والبعيد المرام عملُ الوقت الحاضر، وله التأليفات الكثيرة، والمصنّفات المفيدة، والرسائل البديعة، والقصائد الصنيعة، إلا أنه كان مُتطبّعاً متصنّعاً، يظهر عليه أثر الكلفة وثقل التصنّع، مُغرَى بالتجنيس مع ما فيه من الكلّ على المسامع، لقرب مخارج الحروف، مما تنفّر منه الطباع.

وسئل الفاضل عنه، فقال: سيّدنا العمادُ، مثلُ الزناد، ظاهره باردٌ، وباطنه واقدٌ.

وكان محلّ الثقة من الفاضل، آمناً من توثبه عليه، وتغلّبه على ما جعله السُّلطانُ إليه، وبهذا كان يطمئنُّ إذا غاب مع ما ينويه من قلب السُّلطان.

وكان^(١) العمادُ شديد الحرص على تحصيل الدُّنيا، وكان الفاضلُ يلومه ويعتبه، ويعذّله ويؤنبه؛ فبعث مرةً يشكو إليه ضرورة، فكتب إليه الفاضلُ:

(١) نقله المقرئ في المقفى ٢٠٦/٧.

ياسيد أخيه، لا تُسمع الدَّهر هذه الشكوى، فيستعذبها فتستمر على العدوى؛ ولو اشتغلنا بالله لكان يُغنينا، ولو قعدنا عن الرزق لأتانا لا يُعينا؛ وفي الحديث (١): «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» ولا ندري كيف يكون المنقلب؛ فباللَّهِ إلَّا ما سمعت وأخذت هذا الأدب.

وله في هذا حكايات، منها (٢): أن رجلاً من أهل حمص جاءه بطبق كيزان، وتفصيلة كتان، قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً، وسأل حاجة، فأخذ قصته وقرأها على السلطان، وكان قد بلغه الخبر، فلم يُجبه، فأعاد العماذ عرض القصة وقرأتها مرات في مجالس عدة، والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهي؛ ففطن العماذ وعلم أن الخبر قد اتصل بالسلطان، فأعاد عرض القصة، فلما لم يُجبه عنها، قال: يامولانا، الطَّبَّقُ الذي أحضره صاحب هذه القصة باقٍ إلى الآن، لم أتصرف فيه، فإن كان ما ينقضي شُغله أعدتُ إليه طبقه؛ فضحك السلطان، وعجب من دناءة نفسه، وأمر بقضاء شُغل الرجل.

وحكي (٣) أنه كان شديد التَّهافت على أخذ الختم الذهب الذي يجيء على كتب الفرنج، فوصل منهم كتابٌ بغير حضوره، ففتحه السلطان بيده وأخذ بعض الحاشية الختم، فلما جاء العماذ قيل له: اكتب جواب هذا الكتاب، فقال: يكتب جوابه من أخذ الختم؛ فعزَّ قوله على السلطان، وقال له: قم اخرج الوقت، ماهو مُحتاج إليك؛ فأتى العماذ الفاضل، وعرفه بما كان، فقال له: رُح إلى الخانقاه، واقعد بها مع القُراء، والبس زِيَّهم؛ فإذا طلبك السلطان قل: أنا قد دخلتُ في أمرٍ لا أخرجُ منه؛ ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان بنفسه مرضياً؛ ثم لم يلبث

(١) نقله المقرئ في المقي ٢٠٦/٧.

(٢) الحديث: أخرجه ابن ماجه ٧٢٥/٢ رقم ٢١٤٤.

(٣) المقي ٢٠٧/٧.

الفاضلُ حتَّى أتته رُسُلُ السُّلطان في طلبه، فلمّا أتاهُ شكّا إليه العماد، وقال له: اكتب جواب هذا الكتاب؛ فقال: واللّٰه ما أعرفُ ما أكتب فيه، لأن العماد كان يُصدر هذه الكتب، ولا يعرفه سواه؛ ولم يزل يُلفظ الأمر حتَّى قال: اطلبه؛ فبعث في طلبه، فلم يحضر، واعتذر، فعظّم الفاضلُ الأمر، وكرر الرُّسل في طلبه وهو لا يحضر، فقال الفاضلُ: أنا أروحُ خلفه، وأتلفُ به، فواللّٰه هذا بابٌ ما يسدّه سواه؛ ثم ذهب إليه، فأطال المكث، ثم عاد إلى السلطان وقال: لقد حرصتُ به فلم يُجب، ورأيتُه مقبلاً على ما دخل فيه إقبالاً ما أظنه بقي يخرجُ عنه، وما ضر السلطان لوزار الفقراء، وترضى عبده؛ ولم يزل به حتَّى أتاه وترضاهُ.

*ومن نشره قوله جواباً عن السُّلطان في تفضيل دمشق^(١):

عرفنا طيب الديار المصريّة ورقة هوائها، ونحن نُسلم إليها المسألة في طيبها وتوفير نصيبها، ورقة نسيمها ورائق نسيبها، لكن هلاً رأيت أن الشام أفضل، وأن أجر ساكنه أجزل، وأن القلوب إلى قبله أميل، وأن الزُّلال البارد أعل وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الزَّهر به أشبُّ، والنبت به أكهل، وأن الجمال فيه أكمل، وأن القلب به أروح، والروح به أقبل؛ ودمشقُ عقليتُه الممشوطة وعقلتُه المنشوطة، وحديقته الناضرة، وحديقته الناظرة، وهي عينُ إنسانه، بل إنسانُ عينه، وصيرفيّ نقوده، وعينُ نضاره ولجينه، فمُستامُها مُستهام، وما على مُحبِّها ملام، وما في رؤيتها ريبة، وفي كُلِّ جيرةٍ منها حبيبة، ولكل شائبٍ من نورها شبيبة، ومع كُلِّ ورقةٍ ورقاء، وعلى كُلِّ مُعانقةٍ من قدود البانات عنقاء، وشادي بانها على الأعواد يُطري ويُطرب، وساجعائها بالأوراق تُعجم وتُعرب،

(١) الروضتين ٣/ ٢١٥ والزيادة منه.

وكم فيها من جوارٍ ساقياتٍ، وسواقٍ جارياتٍ، وأثمارٍ بلا أثمانٍ، وروحٍ وريحانٍ، وفاكهةٍ ورُمانٍ، وخيراتٍ حسانٍ، وقد تمسكنا بالآية والسنة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع.

أما أقسم الله تعالى بدمشق في قوله: ﴿والتين والزيتون﴾^(١) والقسم من الله بها دليلٌ على فضلها المصنوع؛ أما قال رسولُ الله (ﷺ)^(٢): «الشَّامُ خَيْرُ اللَّهِ من أرضه، يَسوقُ إليها خيرةُ اللَّهِ من عباده»؟. وهذا أوضحُ بُرْهانٍ قاطعٍ على أَنَّهُ خَيْرُ بلادِهِ؛ أما الصَّحابةُ رضوانُ الله عليهم، أجمعوا على اختيار السُّكنى بالشَّام؟ أما فتحُ دمشق بكرُ الإسلام؟ وما يُنكرُ أن الله ذكر مصرَ وسماها أرضاً، فما الذُّكْرُ والتَّسميَةُ في فضيلة القسم، [ولا الإخبارُ عنها دليلاً على الكرم، وإنَّما اكتسبت الفضيلةُ] من الشَّام، بنقلِ يوسُفَ الصَّدِّيقِ إليها عليه أفضلُ الصَّلَاةِ والسلام، ثم المَقَامُ بالشَّامُ أَقْرَبُ على الرِّباط، وأوجبُ للنشاط، وأجمعُ للعساكرِ السائرة من سائر الجهات؛ وأين قُطوبُ المَقْطَمِ^(٣) من سنا سنير^(٤)؟ وأين ذُرَى منف^(٥) من ذُرْوَةِ الشَّرَفِ المُنِيفِ^(٦) المُنِيرِ؟ وأين الهرمُ الهَرِمُ من الحرمِ المُحترَمِ؟ وبينهما فرق، ما بين القدم والفرق؛ وهل للنَّيلِ مع طُولِ نَيْلِهِ وطُولِ ذيلِهِ،

(١) سورة التين : ١ .

(٢) الحديث : أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١١٠ / ٤ وأبو داود في سننه ٤ / ٣ رقم ٢٤٨٣ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٧ / ١ وما بعد ومختصره ٥١ / ١ وفضائل الشام ودمشق ١٣ ، بالفاظ مقاربة .

(٣) المقطم : هو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة ، وهو جبلٌ يمتدُّ من اسوان حتى يكون منقطعه طرف القاهرة . (معجم البلدان ١٧٦ / ٥) .

(٤) سنير : جبل بين حمص وبلبك . (معجم البلدان ٢٦٩ / ٣) . ويُعرف اليوم ببجبال القلمون .

(٥) مَنَفٌ : اسم مدينة فرعون بمصر . (معجم البلدان ٢١٣ / ٥) .

(٦) يقصد الشرف الأعلى، وهو موضع بدمشق مقابل التكية السليمانية من الطرف الشمالي .

واستطالة سيله بردُ بردى في نقع الغليل؟ وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل،
وسيلُ هذا السلسبيل؛ وإذا فاخرنا بالجامع وقبة النسر^(١)، ظهر عند ذلك قصرُ
القصر، على أن باب الفراديس^(٢) بالحقيقة باب النصر، وما رأس الطابية كباب
الجابية^(٣)، ولو كان لناسها باناس^(٤) لم يحتاجوا إلى قياس المقياس؛ ونحن لا نجفو
الوطن كما جفاهُ، ولا نأبى فضله كما أباهُ، وحُبُّ الوطن من الإيمان، ومع هذا فلا
ننكرُ أن مصر إقليمٌ عظيمُ الشأن، وأن مغلها كثيرٌ، وماؤها غزيرٌ، وأن عدّها نميرٌ،
وأن ساكنها ملكٌ أو أميرٌ، وأن الذهب فيها لا يُوزنُ بالمشاقيل ولكن بالقناطير؛
ولكن نقولُ كما قال المجلس السامي الفاضلي، أسماءُ الله: إن دمشق تصلح أن
تكون بُستاناً لمصر، ولا شك أن أحسن ما في البلاد البُستان؛ وهل دمشق إلا مثلُ
الجنان؟ وزين الدين^(٥) وفقه الله تعرض للشام فلم يرض أن يكون المساوي حتى
شرع وعدّ المساوي! ولعلّه يرجع إلى الحق، ويُعيد سعد إسعاد وفاقه إلى الأحق.
ومنه:

ولو واصل خدمته بمقتضى مخالصته، لما وفى في جميع عُمره، ببعض ما
يجبُ عليه من حق المجلس وشكره، لكنّه يهابُ الفضل العزيز فيتجنبُ،
ويستصغرُ قدره عند قدرة المعظم فيتأدبُ، ومن يُقدّم على مقابلة الشمس
بسراجة؟ والعذب بأجاجة؟ والدُرُّ بزُجاجة؟ وأيُّ قدرٍ للقطرة عند البحر الخضم؟

(١) الجامع : هو الجامع الأموي الكبير بدمشق ، وقبة النسر: هي القبة التي تعلو الجامع .

(٢) باب الفراديس : من أبواب دمشق القديمة، ولا يزال معروفاً بهذا الاسم، ويقع في حيّ العمارة .

(٣) باب الجابية : من أبواب دمشق القديمة، ولا يزال معروفاً بهذا الاسم .

(٤) باناس : من أنهار دمشق . (معجم البلدان ١ / ٣٣٠) .

(٥) هو زين الدين الواعظ ، علي بن نجا، من أهل دمشق، ومن ساكني مصر؛ كان ذا لهجة في الوعظ

فصيحة، وكان مقرباً من السلطان صلاح الدين ، فكتب إليه كتاباً يشوقه إلى مصر، فكتب له

العماد هذه الرسالة جواباً عن السلطان . (الروضتين ٣ / ٢١٤) .

وأَيُّ فخرٍ للسُّهْيِ عند إنارة البدر التَّم؟ وكلُّما شرع في خدمة، فنُصب يده المهابة وبسطُها الصَّبابة، وجلَّى له جلاله وجه الهيبة، فرجع مَّا رجاه من سماحة خاطره بالظُّنة والخيبة، وقال لقريحته: دعي الاقتراح، ولا تستدعي الافتضاح، وليس إلا الاعترافُ بالقصور، لا الافتراقُ للمحذور.

ومنه قَوْلُهُ:

على أَنَّهُ لم يبلُغ مع استغراغ جهد البلاغة في الدُّعاء والثَّناء أمدُ المقصرين، وإن بذَّ القرين وزاحم الأسود وولج العرين، فالعجزُ عن الإدراك إدراكٌ، والمعجبُ في التوحيد بادِّعاءِ الحول والقُوَّةِ إشراك.

ومما كتبهُ في فتح القدس^(١):

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٢).

الحمدُ لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وله الحمد الذي حقق بفتحهِ ما كان في النفس، وبدَّل وحشة الكُفر فيه من الإسلام بالأُنس، وجعل عزَّ يومه ما حيأ ذُلُّ أَمْس، وأسكنهُ العالم والفقير بعد البطرك والقس، وعبَّاد الصُّليب والشمس، وأخرج أهل الجُمعة منه أهل الأحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) وقد

(١) الروضتين ٣/ ٣٤٦ وما بعد ومعجم الادباء ٦/ ٢٦٢٧.

(٢) سورة النور: ٥٥.

(٣) سورة الإخلاص: ١.

فتح الخادمُ بحمد الله من الداروم^(١) إلى طرابلس، وجمع ما حوت مملكة الفرنج إلى نابلس، ورجع الإسلامُ الغريبُ منه إلى داره، وقرَّ سِلُّ السير في قراره، وطلع قمرُ الهدى، وملاً بالسنة عزَّها ﴿نَصَرَ من الله وفتح قريبٌ﴾^(٢) قريبُ المدى، وعاد الإسلامُ بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بُنيانُه من التقوى إلى تقديسة تأسيسه.

ومنه قوله:

جودُهُ جودٌ، وطولُهُ طودٌ، وكرمهُ كرمٌ يُعْتَصِرُ صفو سلافه، ونعمه نَعَمٌ تُنَحِرُ وتُنْهَرُ لأضيافه، ولا يُحِبُّ الدِّينارُ إلا مبدولاً لعافيه، ولا يدْخُرُ كثيراً إلا لجنى راجيه.

ومنه قوله:

ما ظفر مُدْلَجُ الإِظْلَامِ بالسُّنَا، ومُحَوَّجُ الإِعْدَامِ بالغِنَى، كظفر الخادم وفوزه بشرفه وعزّه، وسعادة جدّه وجدّة سعده، وحياء رُوحه وروح حياته، وحُسْنِي حاله وحلية حسناته، وسنا سنائه المشرق عند إسفار إصباح أمله، وسُفُور وجهه جذله، بُورود المثل المُمْتَمِلِ، المُقْبِلِ المُقْبَلِ، المُفْضِلِ المُفْضَلِ، عن المجلس العالي الفاضلي، لا فتى حُكْمُ الشَّرْعِ في شرع حُكْمِ فُتْيَاهُ فُتْيَاً، وروض الولي بولي رضاهُ وجوده مُجوداً مولياً، ولا برح كاشحه يطوي على الشَّحِّ بَرَحَ هوى، جوه بالغيم مُغيمٌ، ومُنَاصِحُهُ يحوي المُنَى، صَحَّةُ عَقِيدَتِهِ وعقدُ صَحْتِهِ مُبرمٌ قويمٌ.

ومنه قوله:

وكتبها المملوك في منزلة عيونها سخينةً، ونطافها ثخينةً، وفوارها فواراً،

(١) الداروم : قلعة بعد غزة للقايد إلى مصر. (معجم البلدان ٢/ ٤٢٤).

(٢) الصف: ١٣.

وأنجدها أغوارٌ، وساكنها غيرُ ساكن، وقاطنُها غيرُ آمنٍ، وجداً جداولها علاقمٌ،
وجنًى جنادلها أراقمٌ، وحياتُها موحياتٌ، تسعى مُتلوياتٌ، وتلتوي ساعياتٌ،
كأنما صاغت الجن من سنايكها الخلاخل، أو أراغت لنا من لواذعها الغوائل،
ثقالُ الرؤوس، كأنها نُصَبُ الفُؤوس، فهي حطبُ العطب، وخشبُ الأشب؛ فمن
طوالٍ كحراب الزنج، وقصارٍ كبنادقِ الشُّطرنج، وأوساطٍ كأسواطِ العذاب، سراعٍ
كأناملِ الحُساب، وقصارٍ كبارقاتِ السَّحاب، ومارقاتِ النَّشَاب، ومنها ما هو
كدباسقِ الأتراك، أو كألويةِ الأملاك، ومنها بترٌ كأيدي السَّارقين، وخفافٌ كدين
المارقين؛ ومنها ما هو كمزمارِ الزُّطّ أو كزنتارِ القبط؛ ومنها ما هو كأنه أصهبُ
الفُهود، أو تككُ ذواتِ النُّهود، أو أنيابُ النُّمور، أو كمخالبِ الصُّقور، أو
أعصابِ الحُيول، أو أنيابِ الفُيول، أو طواميرِ الكُتّاب، أو مساميرِ الأبواب؛ ومنها
كلُّ برقاءٍ إذا انسلخت من جلدها أَلقت كُفَّ درعٍ، ونقبت حديد ذرعٍ، وسوداء
كصحيفةِ المُجرم، وصفراء كصفحةِ المُتألم، قصيرةٌ مقتصرةُ الأعمار، دقيقةٌ جليلةُ
الأخطار؛ الحياتُ أُمها، والمماتُ سُمها، عنبرةٌ لا يحملُها حاملٌ ولا يشُمها.

* وبهذه الرسالة ذكرتُ شعراً كُنْتُ وصفتُ فيه منزلةً كثيرةَ الأفاعي؛ ومنه:]

[الطويل]

وأرضٍ ترى الحياتِ فيها سوارياً	كأنّ مساريها ضُروبٌ من الرُّقم
أساود رُقطٌ كالنِّمالِ دبيبُها	ولكن تراها في القساوةِ كالدهم
وتختلفُ الألوانُ منها كأنها	أزاهيرُ روضٍ وشعثها يدُ الوسمي
إذا نُشرت كانت حزاماً وإنها	كعُروةٍ إذ تُطوى المساحبُ للضم
ومُطرقةٍ فوق الكثيبِ كأنها	ضفائرُ ضَمَّتْها مُبدنةُ الجسم
وآخر من دُونِ الطَّرِيقِ مُحملٌ	شُجاعٌ على متنِ الطَّرِيقِ لهُ يحمي
يُنضِضُ في فيه لسانُ مُخصَّر	كأنّ عليه طائرُ القُطنِ والشحم

يشم دُخان الموت من ليس دانيأً
 يذوبُ به قلبُ الحديدِ مخافةً
 تقنعُ شبهها بالكمي وإنه
 بمُرهفةٍ دليقٍ يُقصِرُ دونها
 يُساورُ أوهام اللُبيبِ أدكاره
 إذا ما ترقى الطُودُ خلت بآئه
 وذوحنقٍ ما البرقُ إلا شرارةً
 ويُحدثُ مالا كان في شُهْبِ الدُجى
 وأقسمُ لو ألقى على الصمِّ سُمَّه
 إليه ويلقى الموتَ من عاجلِ السِّمِّ
 ويفعل فعل النَّارِ في موقدِ الفحمِ
 لأفتكُ منه إذ يُطاعنُ أو يرمي
 مدئِ القاطعِ الهنديِّ والرُّمحِ والسهمِ
 ويقتله قبل الغوائل بالوهمِ
 يُجاوِزُ كُثبانَ السَّحابِ إلى النُّجمِ^(١)
 لأنفاسه أورشقُ الحَاظِهِ المُصمى
 خُسوفاً عُقيبِ الشمسِ بالقمرِ التَّمِّ
 لأثرِ ذاك السِّمِّ في شاهقِ الصِّمِّ

ثم نعودُ إلى تنمة كلام الأصفهاني، فمنه قوله:

صدرت هذه البُشرى ودماءُ الفرنج على الأرض وقيل لها: ابلعي، وعجاجُها
 في السَّماءِ وقيل: أقلعي، وفاض ماءُ النِّصال، وغاض ماءُ الضُّلال، وهي بشارَةٌ
 اشترك فيها أولياءُ النُّعمة، ونبتهم أن الماءَ بينهم قسمةٌ^(٢).
 ومنه قوله:

ووجدناها قلعةً أرضها في السماءِ، وتلعةً في حوزها حِوازُ الجوزاءِ، وعلى
 كلابها عواءُ العواءِ، ما ثمرُ السُّحبِ إلا على سُفوحها، ولا تسرقُ شياطينُ الكُفْرِ إلا
 من سُطوحها؛ إنا جعلنا نُجومَ النِّصال لها رُجوماً، وأدمننا لوبلِ الوبالِ عليها
 سُجوماً.

(١) في الأصل: ... أنه X. وبه ينكسر الوزن.

(٢) من قوله تعالى: ﴿ونبتهم أن الماء قسمة بينهم﴾ [سورة القمر: ٢٨]

ومنه قوله:

وأسلم البلدُ، وقُطِعَ زُنارُ خندقه، وأُبيحَ حمىُ حماته، واستولى الفرقُ على
فرقه، وتطارت الصُّخورُ في نُصرة الصَّخرة المباركة، وحجرت على حُكم السُّور
بسفه أحجارها المتداركة، وطُهرت الصَّخرةُ بمياه العُيون التي ببِعدها قذيت،
وصُقلت بالشفاه وطالما كانت بأيدي المشركين قد صدئت.

❦ ومن شعره قوله من قصيدة أولها^(١): [الطويل]

وأسألُ عنكم عافياتٍ دوارساً غدت بلسان الحال ناطقةً خُرساً

ومنها:

مضى أَمَسٌ مِنِّي في انتظارِ غدٍ لَكُمْ وكلُّ غدٍ لا شكٌ منقلبٌ أَمَساً
وقيل لنا: في الأرضِ سبعةٌ أبْحُرٍ ولسنا نرى إلا أناملِك الخمسِ

ومنه قوله^(٢): [البسيط]

ما طبتُ نفساً ولا استحسنتُ بعدكم شيئاً نفيساً ولا استعذبتُ لي نفساً
وكيف يُصبحُ أو يُمسي مُحِبُّكُمْ وشوقكم يتولاهُ صباحُ مساً
نادمتهُ وأخوهُ النجمُ يحسدني فإنني كُنتُ أرعاهُ إذا خُنسا

ومنها قوله يصفُ مقتولاً:

ما زال يعطسُ مزكوماً بغدرتهِ والقتلُ تشميتُ من بالغدرِ قد عطساً

(١) القصيدة في الروضتين ٣/ ٣٦١ - ٣٦٣ ومعجم الأدباء ٦/ ٢٦٢٩ وديوانه ٢٣٠-٢٣٦ وليس فيها الثاني.

(٢) ديوانه ٢٢٧ وليس فيه الثالث. والرابع في الروضتين ٣/ ٣٠١.

ومنه قوله^(١): [مجزوء الرمل]

حيرتي طالت بذِي حَوْرٍ طال في النَّجْوَى مُحَاوَرُهُ
حلُّ ما شَدَّتْ مناطِقُهُ ثَقُلُ ما شَدَّتْ مَآزِرُهُ

ومنه قوله^(٢): [الطويل]

ثوى همُّهُ لما ثوى الصَّبْرُ عنده مُقيماً وشطَّ الصَّبْرُ في جيرةٍ شَطُّوا
وأرقَّه طيفُ فرى نَحْرَهُ الدُّجَى وقد كان جيبُ الليلِ بالصَّبحِ ينعطُّ
تشاغلتمُ عنه وثوقاً بوَدِّهِ كأنَّ رضاكم عن مُحِبِّكم سُخْطُ
ملكتم فأنكرتم قديم مودَّتي كأن لم يكن في الحُبِّ معرفةٌ قطُّ

ومنه قوله وقد اعتقل ببغداد^(٣): [الكامل]

قُلْ للإمام: علام حبس وليُّكم أولوا جميلكم جميل ولائهِ
أوليس إذ حبس الغمام وليُّهُ خَلَى أبوك سبيله بدُعائهِ

ومنه قوله^(٤): [الكامل]

في بُردك الأسدُ الهصورُ مُحَرَّشاً وبُجود كَفْكَ تُسكبُ الأمطارُ
تهبُّ الألوفُ ولا تهابُ ألوفَهُم هان العُدُوُّ عليك والدِّينارُ

ومنه قوله وقد جاء قفلٌ من أصفهان لم يعرفه أحدٌ منهم، وعرفهم كلُّهم

بآبائهم^(٥): [مجزوء الخفيف]

(١) ليسا في ديوانه.

(٢) ديوانه ٢٧٦.

(٣) وفيات الأعيان ٥/ ١٥١ والوافي بالوفيات ١/ ١٣٨ والمقفى ٧/ ٢١٠ وديوانه ٧١.

(٤) الثاني في ديوانه ١٦٥ من قصيدة، وليس فيه الأول.

(٥) وفيات الأعيان ٥/ ١٥٢ والوافي بالوفيات ١/ ١٣٩ والمقفى ٧/ ٢١٠ وديوانه ٢٩٨.

أنا ضيفٌ وإنّما
أنكرتني معارفني
أين أين المضيفُ
مات من كنتُ أعرفُ
ومنه قوله^(١): [الطويل]

وما هذه الأيامُ إلا صحائفُ
ولم أرفي عمري كدائرة المنى
نُسَطِرُ فيها ثم نُمحي ونُمحى
توسّعها الآمالُ والعمرُ ضيقُ
ومنه قوله^(٢): [الخفيف]

هي كُتبي فليس تصلح من بعد
هي إمّا مزادٌ للعقاقيد
لدي لغير العطار والإسكافي
برِ وإمّا بطائنٌ للخفاف
ومنه قوله^(٣): [الرمل]

وهضيم الكشح في حُبِّي له
كرمُ العاشقُ فيه مثلما
لم يزدني كاشحي إلا اهتضاماً
لؤمَ العاذلُ فيه حينَ لاما^(٤)
بقسوام عَلمَ الهزَّ القنا
خدهُ يجرحُه لحظُ الورى
ولحافظ تودعُ السكرُ المداما
فلذا عارضُه يلبسُ لاما
ومنه قوله^(٥): [الطويل]

هَلُمُّوا إلينا نحو مشمسٍ جَلَّقِ
ونم بمن نهوى على الأكلِ نلتقي

(١) معجم الأدباء ٦/٢٦٣١ والوافي بالوفيات ١/١٣٩ وطبقات السبكي ٦/١٨٣ والمقفى ٧/٢٠٨ وديوانه ٣١٣ - ٣١٤.

(٢) الوافي بالوفيات ١/١٣٦ والمقفى ٧/٢٠٨ وديوانه ٣١٠.

(٣) الوافي بالوفيات ١/١٣٥ وديوانه ٣٧٢.

(٤) في الأصل : ما كرم العاشقين ... X I

(٥) الروضتين ٤/٣٥١ والوافي بالوفيات ١/١٣٦ وديوانه ٣١٦.

كَانَ مُذَابُ الشَّهْدِ فِيهِ مُجَسَّدٌ أَجْدَلُهُ عَهْدُ الرَّحِيقِ الْمَعْتَقِ
 حَكَى جِمْرَاتٍ بِالْغَضَاقِدِ تَعَلَّقَتْ فَيَا عَجَباً مَنْ جِمْرِهِ الْمَتَعَلِقِ
 كَانَ نُجُومَ الْأَرْضِ فَوْقَ غَصُونِهِ كُرَاتُ نُضَارٍ بِالزُّمَرْدِ مُحَدِّقِ
 قلت: وقد ذكر الفاضل صلاح الدين أبو الصفا خليل الصفدي، أن العمادَ
 كان قالها:
 كُرَاتُ نُضَارٍ فِي اللَّجَيْنِ مُطَرَّقِ
 فلما أنشدت السلطان صلاح الدين قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق؛
 فغيرها العماد كما ذكرنا.

وقوله^(١): [الكامل]

قَدْ كَانَ يَسْمَحُ بِالْوَصَالِ خِيَالُهَا لَوْلَمْ تَضُنَّ الْعَيْنُ بِالْإِغْفَاءِ
 وَدَنْتُ تُودِعُ لِلْفِرَاقِ وَإِنَّمَا إِقْصَاءُ سَهْمِ الْقُوسِ فِي الْإِدْنَاءِ
 وقوله^(٢): [الكامل]

بَدْرٌ نُؤَادِي فِي مَحَبَّةٍ وَجْهِهِ بَدْرِيَّةُ الْمَعْدُودُ مِنْ شُهَدَائِهِ
 رَمَقَ الْمُحِبِّ فَلَمْ يَدْعَ رَمَقاً لَهُ هَلَا أَخَذَتْ ذِمَامَهُ لِدِمَائِهِ
 وقوله^(٣): [الكامل]

مَاءُ الصَّبَا فِي وَجْنَتِيهِ وَنَارُهُ ضِدَانٍ [بَيْنَ] تَمْوُجٍ وَتَلْهَبٍ
 وَكَأَنَّ وَجْنَتَهُ وَخَطَّ عِزَارِهِ فِيهَا طَرَاؤُ مُفَضِّضٍ فِي مُذَهَبٍ
 وقوله^(٤): [الرملة]

(١) ليسا في ديوانه.

(٢) ديوانه ٦٧. ورواية الأول في الأصل: X بداية ١٠٠ والثاني ... مقاله ١٠٠.

(٣) ليسا في ديوانه. وما بين حاصرتين زيادة لصحة الوزن والمعنى.

(٤) ليست في ديوانه.

قهوة تُهدي إلينا الفرحا
إنَّ روح الرَّاحِ يبغِي شبحا
واسقنيها كُلُّ دورٍ قدحا
سُكر قلب فيك لوصحِّ صحا

هات يا بدر الدُّجى شمس الضُّحى
واملا الكأس إذا فرغَتْها
واقتمدح زند سُروري طرباً
لا تلم يا صاح - أفديك - على

وقوله^(١): [الكامل]

فيه فؤادُ المستهام مُقَيِّدُ
بمدامعي أو مثلها متقلِّدُ
إلا وسواده لقلبي أسود
وعليه رعبٌ للعذار مُزْرَدُ

وعلى السوالف منه فودٌ مرسلُ
متقلِّدٌ بدمي وطني أنه
ما عاينت عيناى صُدغاً فاحماً
أيخافُ عارضه عقارب صُدغه

وقوله^(٢): [الطويل]

كسا كاسها بالورس ثوباً مُصبِغاً
وقد عُرِفَتْ منه الفصاحةُ ألثغا
وروى به عودَ الأراكِ المضغاً
وما عقرب الصدغين إلا ليلدغا

مشعشةٌ لاحت كأن مزاجها
يطوفُ بها ساقٍ من السكر خلتهُ
إلى ريقه المعسول يظما مُحِبُّهُ
وما فتر العينين إلا ليقتلا

وقوله^(٣): [المنسرح]

ومن قُدود الحسان أهيفُها
أفتكُها بالقلوبِ أضعفُها
علاقةٌ ما يكادُ يعرفُها

يروقني في المها مُهفُفُها
يا ضعفَ قلبي من أعينٍ نُجِّلُ
يا مُنكراً من هوى بُليتُ به

(١) ليست في ديوانه .

(٢) ليست في ديوانه .

(٣) ديوانه ٣٠٦ .

وخلّ حالي فلستُ أكشفُها

دع سرّ وجدي فما أبوحُ به

وقوله^(١): [الطويل]

ونهنهتُ دمعِي في الغرام فمارقا
إذا لم ترقُوا لي فما تنفعُ الرقيّ

نهيتُ فؤادي عن هواكمُ فما انتهى
ومن فرطِ وجدي خلّتمُ بي جنةً

وقوله^(٢): [الكامل]

ما نافعِي والدَّمْعُ ليس بقابلٍ
ملّوا وليس يملُّ غيرُ الواصلِ

هب أن قلبي للنصيحة قابلٌ
مالوا إلى وصلي فحين وصلتهمُ

وقوله^(٣): [الكامل]

وعلى دمي لم دَلُّهُ قَدُّهُ
عن قوسٍ حاجبه يُفوقُ نبلهُ
واحسُد على عسلٍ بفيه تمْلُهُ
في خلّتي والمرءُ يُنجدُ خلُّهُ
أهلٌ وخَفُّفٌ عن فؤادي ثقلهُ
طرف المريبِ وحيّ عني أهلهُ

سلّ سيفِ ناظره لماذا سلُّهُ
واحذر سهام اللّحظ منه فإنما
واقبل وإن حسدوك عذره
يا مُنجداً ناديتهُ مُستنجداً
سرّ حاملاً سرّي فانت لحمله
فإذا وصلت فغضُّ عن وادي الغضا

وقوله^(٤): [الوافر]

وما تُجري المدامعُ من شؤوني
سوى بلوى هواها من خدينِ

ألا ياعاذلي دعني وشأني
بكلّ خدينةٍ للحسنِ مالي

(١) ليسا في ديوانه .

(٢) ديوانه ٣٤٥-٣٤٦ .

(٣) ديوانه ٣٦٢-٣٦٣ وليس فيه الثاني والثالث .

(٤) ديوانه ٤٢٢-٤٢٣ .

كريمٍ أو كغصنٍ أو كبدرٍ بلحظٍ أو بقدرٍ أو جبينٍ
تبسمُ درُها عن أقحوانٍ وأزهر ورُدُها في ياسمينٍ
وقوله^(١): [الطويل]

قفوا وسلوا عن حالِ قلبي وضعفه فقد زاده الشُّوقُ الأسى فوق وضعفه
أرقتُ فجفني ما يُريقُ سوى دمي كأنَّ الهوى أوصى جُفوني بنزفه
١١- ومنهم: نصرُ الله بن محمد بن محمد، ضياءُ الدين، أبو الفتح، ابن الأثير
الجزري، الكاتب^(٢).

* مُتَكَبِّرٌ، نفخ في غيرِ ضرمٍ، وبذخ^(٣) بالسُّمن وشحمه ورمٌ، ولم يلتفت
الدَّهرُ إليه بعطفه، ولا أقبل عليه ببعض عطفه، حتى شمخ شمماً، ونطق خُرساً،
وأصغى صُماً، وكانت له مخيلةٌ ظهرت بارقتُها، وبهرت سارقتُها، شرب بودقها
الهُيام، وضرب ببرقها الغمام الخيام؛ وقد كان بالموصل، وشبابُه مُسودُّ اللَّحم،
مُحتدُّ الهمم، في درسٍ يُباكرُه ويغاديه، ويسقيه ماطرُه بروائحِه وغواديهِ، فملاً
الحفظُ خاطره حتى اندفق، وكلاً الحظُّ سائرُه حتى توقدَّ الشفقُ، فقلب الأسود،
وقارب أن يسود، لولا عجبُ رداه، وردَّ وجهه عن الطريق فما أداه، فوقع إذ
أسفَّ، وتكدَّر إذ شَفَّ، واتصل بالخدمة الأفضليَّة فغمط به فضلها، وقبض بسببه

(١) ليسا في ديوانه.

(٢) ترجمته في: عقود الجمان ٥٢/٩ والتكملة للمنذري ٥٣٥/٣ وتكملة إكمال الإكمال ٥ وذيل مرآة
الزمان ٦٥/١ ووفيات الأعيان ٣٨٩/٥ والمستفاد ٤٠٥ والحوادث ١٦٥ وتاريخ الإسلام ٣٥٣ [وفيات
٦٣١-٦٤٠] وسير أعلام النبلاء ٧٢/٢٣ والعبر ١٥٦/٥ والوافي بالوفيات ٣٤/٢٧ وطبقات
الشافعية للإسنوي ١٣٣/١ ونزهة الأنام ١٢٤ وبغية الوعاة ٣١٥/٢ وشذرات الذهب ٣٢٨/٧.

- توفي سنة ٦٣٧هـ.

(٣) بذخ: تكبر. (القاموس).

ظَلَّهَا، فلم يَحْمَدُ أَحَدُ لَهُ وَلَا لِسُلْطَانِهِ فِعْلاً، وَلَا عَدْلُهُ وَلَا لِلْأَفْضَلِ^(١) فَضْلاً،
 وَجَلَسَ لِلنَّاسِ وَقَدْ لَبَسَ رِداءَ الْكِبَرِيَاءِ، وَسُلِبَ بِحِمَقِهِ وَقَارَ الْكِبَرَاءِ، فَأُخْرِجَ
 الصُّدُورُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَلِكِهِ، وَأُحْجِجَ الْمُقَدُّورُ بِمَا لَدَيْهِ إِلَى مَهْلِكِهِ، فَتَمَيَّزَتِ الْخَوَاطِرُ
 عَلَيْهِ غِيْظاً، وَأُبْرَزَتِ الضَّمَائِرُ لَهُ بَرْدَ الْقُلُوبِ قِيْظاً، فَأَوْدَعَ النُّفُوسَ وَدَائِعَ الْحَقِّقِ،
 وَأَتْرَعَ لَهُ الدَّهْرُ الْعَبُوسَ مَشَارِعَ الرِّيقِ، وَخَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ فِي صِنَادِيقِ الْمَطْبِخِ
 مَخْتَبِئاً حِينَ أُخْرِجَ الْأَفْضَلُ مِنْهَا، وَكَانَ يَنْتَقِصُ الْفَاضِلَ وَالْعِمَادَ وَسَائِرَ الْكُتَّابِ،
 وَيَحْطُ قَدْرَ الْفَاضِلِ، وَيَسْخَرُ بِالنَّاسِ، وَيَتَوَقَّفُ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، وَيَحْمِلُ مَلِكُهُ
 عَلَى جَفَاءِ أَهْلِهِ وَقَطْعِ ذَوِي رَحْمِهِ، وَيُبْعِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِ، فَلِهَذَا مُقَتٌّ، وَغَضٌّ
 طَرَفُهُ وَبُهِتٌ؛ وَفِيهِ يَقُولُ الشَّهَابُ فُتَيَانُ^(٢): [مَجْزُوءُ الرَّجَزِ]

مَسْتَيْ أَرَى وَزِيرَكُمْ وَمَسَالَهُ مِنْ وَزِرٍ
 يَقْلَعُهُ اللَّهُ فَنَدَا أَوَانُ قَلْعِ الْجَزْرِ
 وَفِيهِ يَقُولُ ابْنُ عُنَيْنٍ^(٣): [الْوَاغِر]

كَأَنَّ قَفَا الرَّزِيرِ عَرُوضُ سُوءٍ يُقَطِّعُ بِالْبَسِيطِ وَبِالْمَدِيدِ
 فَذَالُ لَا يَزَالُ النَّعْلُ فِيهِ كَمَنْزِلِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَدِيدِ
 وَكَانَ كَاتِباً مُطَّلِعاً، مُتْرَوِياً بِالْعُلُومِ مُضْطَلِعاً، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُتْكَلِّفاً مُتَطَبِّعاً،
 وَمُتَعَجِّزاً مُتَصَنِّعاً، وَكَانَ يَتَعَاطَى أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّ.

(١) الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ ابْنُ صِلَاحِ الدِّينِ : أَبُو الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ، كَانَ أَكْبَرَ أَوْلَادِ أَبِيهِ، وَإِلَيْهِ
 كَانَتْ وِلَايَةُ عَهْدِهِ، فَلَمَّا تَوَفَّى صِلَاحُ الدِّينِ اسْتَقْبَلَ الْأَفْضَلُ بِمَمْلَكَةِ دِمَشْقَ، وَجَرَتْ لَهُ مَعَ إِخْوَتِهِ
 وَقَائِعٌ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَلَى مَلِكِ سَمِيسَاطَ، فَمَاتَ بِهَا سَنَةَ ٦٢٢ هـ. (وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ ٤١٩/٣ وَشَفَاءُ
 الْقُلُوبِ ٢٥٦).

(٢) دِيْوَانُ فُتَيَانِ الشَّاعِرِ يُوسُفَ بْنِ ٢٠٣.

(٣) لَيْسَا فِي دِيْوَانِهِ، وَلَا فِي النُّسخَةِ التَّاسِعَةِ مِنْهُ؛ وَهُمَا فِي عَقُودِ الْجَمَانِ لِابْنِ الشُّعَارِ ٢٢١/٦
 (نُسخَةُ السُّلَيْمَانِيَّةِ - إِسْتَنْبُول)

وله تصانيف، منها «المثل السائر» و«الوشي المرقوم» و«المعاني المبتدعة» وأمثلها «المثل السائر» وقد عمل عليه موفق الدين [ابن] أبي الحديد^(١) كتاباً سمّاه «الفلك الدائر على المثل السائر» وعمل آخر كتاباً على كتاب [ابن] أبي الحديد سمّاه «القطع الدابر على الفلك الدائر»^(٢) وكلام هذا الرجل - أعني الضياء - وإن كان مُحكم الصنعة، ناظراً إلى دقائق المعاني، فإنه في غاية التكلف، لاعتماده على معاني الناس، وإكثاره من الحلّ والاقْتباس، وقد بنى كتابه المُسمى «بالوشي المرقوم» على هذا؛ وعليه كانت طريقته، في كلامه ومنحاه في قوله، لا يكاد يُسمعُ له من النظم إلا ما قلّ. مولده يوم الخميس، العشرين من شعبان، سنة ثمان وخمسين وخمسمئة بالجزيرة^(٣).

❦ ومن نشره قوله في وصف كريم:

فلان يغار من جود غيره إذا جاد، ويرى الأفضلية في المكارم إلا في وحدة
الانفراد، فصدّيقك الذي يحب محبة الله في وده، ولا يتعدّى الخجل إلى الثقة
بعهده؛ ولو أعطينا الرشد كما كُنّا نأسى على ما يختلف على تغييره المساء
والصباح، وكان ﴿كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾^(٤).

(١) كذا ذكر المؤلف لقبه موفق الدين، وإنما هو لقب أخيه؛ أما مؤلف «الفلك الدائر» فهو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد ابن أبي الحديد، المدائني المعتزلي، وهو مصنف كتاب «شرح نهج البلاغة»؛ توفي سنة ٦٥٥ هـ. (الوافي بالوفيات ١٨/٧٦). وستأتي ترجمته برقم ١٤ من هذا الكتاب.

(٢) قال حاجي خليفة: وصنف عبد العزيز بن عيسى كتاباً سماه «قطع الدابر عن الفلك الدائر» (كشف الظنون ٢/١٥٨٦).

(٣) هي المعروفة بجزيرة ابن عمر.

(٤) سورة الكهف: ٤٥.

ومنه قوله في وصف البلاغة :

إذا نزل من سماء فكري ماءً، سالت أوديةً بقدرها، واهتزت رياضُ بزهرها،
وليسَت الأوديةُ إلا خواطِرُ الأفهام، ولا الرياضُ إلا وشائِعُ الأقلام .

ومنه قوله :

وفي الآباء عوضٌ عن الأبناء، وفي الأسَّ خلفٌ لما يستهدمُ من شُرَفاتِ البناء،
وقد قيل : إنَّ في سلامةِ الجَلَّةِ هدرٌ للنَّيب^(١)، وإذا سلَّمت طلعهُ البدر، فأهون
بالأنجُم إذا انكدرت للمغيب؛ وما دام ذلك المعدنُ باقيً، فالقُضْبُ كثيرةٌ وإن
أودى منها قُضيبٌ.

قُلْتُ^(٢) : لو قال : الدَّوحُ، أو الأصلُ، أو ماشابه ذلك، كان أنسب من
قوله : المعدن، وأكثر ملاءمة مع قوله قُضيب .

ومنه قوله :

وفُلانٌ قد خبر الدَّهر في حلب أفوايقه، ونقض موائيقه، فهو لا يردُّ الماء إلا
بماءٍ، ولا يهتدي في مسرى أرضٍ إلا بنجوم سماءٍ؛ ومن شأنه أن يرد الأمور برأيه ولا
يبعث فيها رائداً، وإذا قيل : إنَّ فلاناً ذو كيدٍ، قال : من الكيد أن لا يُدعى كائداً .

ومنه قوله :

لقُونا وقد أشرعوا الأسنَّة التي شاركتهم في الأسماء، وإذا أوردت أروتهم من
غليلِ الحقد كما يتروى من شُرْب الدماء، لكن زادها عن الورد ما هو أصْلَبُ
منها عوداً، في يد من هو أمضى منهم جدّاً وأسعدُ جدوداً، وإذا لاقت الرِّيحُ

(١) المثل في مجمع الأمثال ٢٣/١ : إن تسلَّم الجَلَّة، فالنَّيب هدرٌ.

(٢) القائل هو المؤلف العمري .

إعصاراً، زالت عن طريقه، وضاق ذرعها بمضيقه.

ومنه قوله:

رأيتُ أجمةً ولا ليثَ يحمي تلك الأجمة، بل رأيتَ بيضَ عُقابٍ تحضنه
رخمةً، وليس المُشارُ إليه إلا نائماً في صورة يقظان، وهو كزيد و عمرو إذ تجري
عليهم الأفعال وهما لا يشعران.

ومنه قوله:

وفلانٌ قد جعل الرأى دُبرَ أذنه، ووضع جفيرا^(١) السيف تلقاء جفنه، ولم
يُعرِّج على لهو فيقول^(٢): اليوم خمراً وغداً أمراً، ولا يُصغي إلى مسيرٍ فيأخذ
بقول زيد ولا عمرو، فهو مُطلٌّ على مُغيبات الأمور، غير غافل بتمام الأعقاب إذا
تمت له الصدور.

ومنه قوله: الغناء يخفُّ بكثير من الأوزان، والنظرُ في هذا إلى الأثر لا إلى
العيان، ولا عجب أن يُوزن الواحدُ بجميع الوري، ولهذا قيل: كُلُّ الصيد في
جوف الفرا^(٣).

ومنه قوله: كم في الأرض من شمسٍ تخجل لها شمسُ السماء، وتتضاءلُ
إليها تضاؤل الإماء، وتعلم أن ليس لها من محاسنها إلا المشاركة في الأسماء؛
فلربما طلعت في الليل فقال النَّاسُ: هل يستوي بياضُ النهار وسوادُ الظُّلُمات،
ولا عجب للعيون إذا رأتها أن تظنَّ ذلك في أحلام النوم، أو يخيل لها أن

(١) الجفيرا: جعبة من جلود. (القاموس).

(٢) كلمة امرئ القيس المشهورة.

(٣) المثل في: مجمع الأمثال ١٣٦/٢ وجمهرة العسكري ١٦٢/٢ والمستقصى ٢٢٤/٢.

يوشع^(١) في القوم.

ومنه قوله:

ولقد رأيته فرأيتُ العالم في واحدٍ، وعلمتُ أنَّ الدهر للنَّاسِ ناقدٌ، وما أقولُ
إلاَّ أنَّ الله ردَّ به الأفاضلَ إلى معادٍ، ثم وضعهُ موضعه^(٢)، فذلك من جُملة
الأعداد في الاعتداد، لكن [إن] كان ذنبي خطأً، فقد جاءت معذرتي عمداً، ولا
عقوبة مع الاعتذار، ولو كان الذنبُ شيئاً إداً، والمقدرة لا تسبغُ للكريم أن يمضي
غيظاً أو يطيع حقداً.

ومنه قوله:

الأحوالُ شبيهةٌ بالأبدان في عوارض سقمها، وكلُّ داءٍ من أدوائها له علاجٌ
إلاَّ ما كان من سأمها وهرمها، وقد قيل: إنَّ الطَّبَّ هو مُعالجة الأضداد بالأضداد،
ولهذا لا يُطبَّ مرضُ الآمالِ إلاَّ بجود الأجواد، وفي شُهود الجناية من الأشراف
ظلمٌ للسَّادات لا تُعده النفوس من ظلمها، ولربَّما كلم السَّوار يداً فذهب فخرُ
زينتها بالم كلمها، ولهذا هانت جناية بني عبد المدان، وضُرب بها المثلُ في
شرف المكان، والنَّاسُ في المنازل أطوارٌ، فمنهم أنجادٌ ومنهم أغوارٌ.

ومنه قوله:

بازي^(٣) أشهبٌ، تفخرُ السوايق بأنها له سميَّةٌ، وترتمي الطيرُ في جو
السَّماءِ وهي له رميَّةٌ، كأنَّما يجلو القذى عن عقيقتين، ويظلُّ من توحشه

(١) يوشع بن نون، من أنبياء بني إسرائيل، وخليفة موسى عليهما السلام. (مختصر تاريخ دمشق

٩٥/٢٨).

(٢) في الأصل: موضع.

(٣) يقال: بازي وبازٍ وبازيٌ. (حياة الحيوان ١/١٥٢).

وإيناسه من خليقتين، ومن أدنى صفاته أن يُقال: هذا خلقٌ من الرياح، في صورة ذي منسرٍ وجناحٍ، وقد لُقب بالبازي لكثرة وثوبه، وما غدا لمطلب صيدٍ ففاته شيءٌ من مطلوبه، ولقد تكاثرت قلوبُ الطير لديه في كُلِّ حالٍ، حتَّى شَبَّهَ رطبُها ويابسُها بالعُنب والحشف البال^(١).

ومنه قَوْلُهُ في المطر:

وانحلَّ بها خيطُ السماء، حتَّى استوى ريُّ بطونها للظُّماء، ولكِنَّه للريح التي حَبَّتْ بها حبا، ولم يَكُنْ مسكٌ طَلَّه مُعْتَصِراً إلَّا من كافورِ الصَّبَا.

ومنه قَوْلُهُ:

ولقد سنّوا دروع الحديد على مثلها، ولولا اتقاءُ البغي لرأوا حمل العار في حملها، فإذا صافحتها أسنَّةُ الحُرْضان^(٢)، رأيت أشخاص الكواكب في عُدران.

ومنه قَوْلُهُ في الثام:

أُصلح الإفسادُ، ورُدَّ البلادُ؛ وقد استذأبت نقادُها^(٣)، واستجبلت وهادُها^(٤)، ووردت وعولُها بحيثُ ترد آسادُها!

ومنه قَوْلُهُ:

فعلم ذلك جهلٌ لا يُرْعُ^(٥) منه عُنْفُ الملامة، وداءٌ لا يكفي في تقليل دمه

(١) من قول امرئ القيس: [ديوانه ٣٨]

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي.

(٢) الحُرْضان: جمع حارِض، وهو من لا خير عنده. (القاموس).

(٣) النقاد: جمع نقد، وهو صغار الغنم. واستذأبت: حاكت الذئاب.

(٤) أي حاكت وهادها الجبال.

(٥) الرْعُ: السكون. (القاموس).

الفصْدُ للحجامة، بل اليد لمن وضع السِّيف فيه موضع العصا، ومن عمى الضلالة
مالاً يُبصرُ إلا بسفك الدَّم، ومنه ما يُبصرُ بتسبيح الحصى.

ومنه قوله:

وكم لطيف الخال من يدٍ يبدِّلُها، وصاحبةٍ يمنعُها، ولطالما سمح برؤية عينٍ لا
يراهما، ونجوى حديثٍ لا يسمعُها، فياله من باطلٍ أشبه في مراره حقاً، وأوهم
القلب أنه داواه وما داوئى، والغليل أنه شفاه وما أشفى.

ومنه قوله:

قليلُ الاحتفالِ بالخطوبِ المختلفة، وإذا انتقلت أحوالُ الزَّمان، كانت حاله غير
منتقلة؛ فعلمه يُطلُّ على أفكاره، ويرى الأمر الخفي من خلف أستاره، ولا تبلغُ
الأنجادُ والأغوارُ مدى أنجاده وأغواره، فهو اليقظُ الذي هجع النجمُ وهو لا يهجعُ،
والماضي الذي يجزعُ السيفُ ولا يجزعُ، والمعافى المضروبُ له المثلُ بأنه لا يُخدع.

ومنه قوله:

ربعانُ العمرِ تشتركُ فيه نهضةُ الأجسامِ والهممِ، ولهذا كان شبابُ العلَى في
الشَّبَابِ، وهرمُها في الهرمِ، وما تشابها في اللفظِ إلا لتشابُّهما في المعنى،
وكلاهما ذو رونقٍ في حسنه، إذا اجتمعا زادا حسناً؛ وما أقولُ إلا أن بين سواد
الشَّعرِ والسُّوددِ غراساً، كما أن بينهما في التسمية جناساً.

ومنه قوله :

من كل بطل يزحم غوارب الأهوال بغاربه، ويلقى وجوهها الكريهة بجانبه،
ولطالما كافحها في الحرب، حتى نفضت وقائعها غباراً على ذوائبه، فهو يُقدمُ
فيها إقدام من ليس له أجلٌ، ولا يرى للخذ الأسيل حسناً، لا يخذ من الأسل.

ومنه قوله :

تماثلت فرائد عقودها وثغرها، فلا يُدرى أنظمت حلية نحرها في تبسّمها،
أم حلية مبسمها في نحرها؛ فلو انتثرت تلك الفرائد في الليل البهيم، لالتقطت
حبّات العقد النّثير في ضوء العقد النّظيم.

ومنه قوله :

إذا نظر الخادم إلى حبسه المقتنى من خدمة الديوان العزيز لم يحتج إلى أولية
مجدٍ قديم، ولا إلى فضيلة سعيٍ كريم، فالحظوظ مُقتسمةٌ في تلك الأبواب بلثم
التراب؛ ولو عقلت النّجوم، كما يزعم قومٌ، لنزلت إليها خاضعة الرقاب، وقالت
لها: أنت أولى بمكان السّماء الذي منه مطلع الأنوار ونُشوء السّحاب.

ومنه قوله في رؤوسٍ علّقت على قلعة :

ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هُدّمت نفسُ الأعناق، كأنّما أُصيّبت بجُنونٍ
فعلقت عليها القتلى مكان التّمائم، أو شينت بعطلٍ فعُلقت مكان الأطواق.

ومنه قوله :

لم تكسُهُ المعركة نسج غبارها، حتّى كسّته الجنّة نسج شعارها، فبدّل ثوبُ
أحمره بأخضره، وكأسُ حمّامه بكأس كوثره.

ومنه قوله في وصف الحياء :

الحياء لباسٌ يتّقى وجه الكرم بوقائه، وهو له كاللّحاء الذي يبقى العود ببقائه.

ومنه قوله :

لو أردت دوام الدّهر على حالٍ واحدةٍ مادام، والبأساء والضّرّاء خيالاتُ

أحلام، فما ينبغي لك أن تؤليه حمداً ولا ذمّاً، فإنك تتقلدُ منه يداً ولا يداً، ولا تشكو منه ظلماً ولا ظلماً.

ومنه قوله:

ولئن صبرت فلأن الجزع لا يُفيد ردَّ الفأث، ولقد علمت أن للمصائب أجراً، ولكنه لا يفي بشماتة الشامت.

ومنه قوله:

مررنا عليهم مُرور الأمحال، وأُمّيناهم وهم رجالٌ بلا أرض، وتركناهم وهم أرضٌ بلا رجال، ولقد مشت المنايا في دمائهم حتى ظلت حسرى، وشبع السيفُ منهم حتى تفزر بطنه، وشرب الرُمح حتى تأود سُكراً، ولم يبق للإسلام في عقده غلٌّ إلا شفاؤه، ولا عنده دينٌ إلا استوفاه.

ومنه قوله:

في الحرب إذا أَيْتَم^(١) السُّيُوف من الأغمد، فقد أَيْتَم الأولاد من الآباء وأثكل الآباء الأولاد، فلا يرى أدهمُ نفعٍ إلا وهو ببياضها أبلق، ولا أحمر دمٍ إلا بحدّها مُهرق، فهو مصارعُ النفوس، ومُطالعُ السُّعُود والنُّحُوس، والنارُ التي عُبِدَت من قبل المجوس.

ومنه قوله:

لا يكونُ الكريمُ كريماً، حتى يكون لنفسه غريباً، فإنَّ العطايا حقوقٌ واجبةٌ على أقوام، وإذا لم يجد الغمامُ بمائه فأَيُّ فائدةٍ في كثرةِ ماءِ الغمام؟.

(١) في الأصل: أَيْتَمُوا. =

ومنه قوله:

توانى عنه رسلُ النَّجاح، ووكلت به عزيمةً أوقفتُهُ على رجلٍ وأنهضتُهُ
بجناح، وتمنعه من الإتيان على عجلٍ، إنَّ القضاء على مهلٍ.

ومنه قوله:

هَوَّنتُ نفسي حتى صرتُ أَصْرُفُها كما أَشْتَهِي، وأنهاها وآمرها فتأتمرُ
وتنتهي، ومن صفاتها أنها لا تُمنى من غيرها بزاجرٍ، وقد استوت حالتها في
باطنٍ من الأمر وظاهرٍ.

ومنه قوله:

جمعُ المال فقرٌ لا غنى، وهو كشجرةٍ لا ظلَّ لها ولا جنى، وصاحبه لا
يستفيدُ به إلا ذمًّا، ولا يستزيدُ بالسعي له إلا همًّا، واليسارُ على هذه الحال هو
عينُ الإِملاق^(١)، والذهب والحجرُ سواءٌ إذا لم تتصرف فيه يدُ الإنفاق، وفضيلةُ
المال داءُ الأعراض، كما أن فضيلةُ الزاد داءُ الأجساد؛ وعلاجُهُما شيءٌ واحدٌ، في
الوقوف على درجة الاقتصاد.

ومنه قوله:

وصنائعُ المعروف تُورثُ من الثناء خُلوداً، وتكون لغير ذوي الجدود جدوداً،
تبتنى العلياء بما يغني ولا يبقى، وترقى بصاحبها إلى منال النجم وهو لا يرقى؛
والسَّعيدُ من جعل ماله نهباً للمعالي لا للآلي، وعرضةٌ للمآثر لا للذُّخائر، ومن
نال الدنيا فاشتري آخرته ببعضها، وأقرض الله من مواهبه التي دعاهُ إلى قرضها،
فذلك الذي فاز بالدارين، وحظي فيها برفع المنارين.

(١) في الأصل: الإِتلاف

ومنه قوله :

سارية تمشي لثقلها مشي الرِّداح، ويكاد يلمسها من قام بالراح^(١)، وما نتجت
نتاجاً إلا أسرت في ضمنه حمل أقاح، ولا أظلمت إلا أضاء البرق في جوانبها،
فتمثلت ليلاً في صباح، فهي مسودة مبيضة الأياد، مقيمة وهي من الغواد، نائمة
على طول سهرها بالوهاد، فكم في قطرها من ديباجة لم تُصنع أفوافها، ولؤلؤة لم
تُشق عنها أصدافها، ومسكة لم تُخالط سرر الغزلان أعرافها؛ فما مرت بأرض إلا
أحيتها بعد مماتها، ووسمتها بأحسن سماتها، وغادرت عُدرانها فائضة من
جهاتها، ومثلها والنبت مُطيف بها بالأقمار المتعلقة بأردية ظلماتها.

ومنه قوله :

فلان قد كشف عن مقاتله، وعرض بجهة الأدلة نفسه على قاتله.

ومنه قوله :

وقلمه هو يراع نفث الفصاحة في روعه، وكننت الشجاعة بين ضلوعه، فإذا
قال أراك نسق الفرند في الأجياد، وإذا صال أراك كيف اختلاف الرماح بين
الآساد؛ طوراً ترى نحلة تجني عسلاً، أو شفة تمللي قبلاً، وطوراً ترى إماماً يلقي
دروساً، وآونة تنقلب ماشطة تجلو عروساً، ومرة ترى ورقاء تصدح في الأوراق،
وأخرى ترى جواداً مخلّقا بخلق السباق؛ وربما تكون أفعواناً مطرقاً، والعجب
أنه لا يزهى إلا عند الإطراق؛ ولطالما نفث سحراً، أو جلب عطراً، وأدار في
القرطاس خمراً؛ وتصرف في وجوه الغناء، فكان في الفتح عُمَر و في الهدى

(١) من قول أوس بن حجر : [ديوانه ١٥]

دان مسف فوق الأرض هيدبة يكاد يدفعه من قام بالراح

عمّاراً وفي الكيد عمراً^(١)، فلا تحظى به دولةٌ إلا فخرت على الدول وقالت :
أعلى الممالك ما يُبنى على الأقلام لا على الأسل، والقلم مزمارُ المعاني، كما أن
أخاه في النسب مزمارُ الأغاني؛ وكلاهما شيءٌ واحدٌ في الإطراب غير أن
أحدهما يلعبُ بالأسماع، والآخرُ يلعبُ بالألباب.

ومنه قوله :

وقلمه هو الذي إذا قذف بشُهْبِ بنانه رأيتُ نُجوماً، وإذا ضرب بشبا حدهِ
رأيتُ كُلوماً، وإذا صور المعاني في ألفاظها رأيتُ أرواحاً وجُسوماً، ولطالما قال
فاستخفَ موقراً وكسا وقاراً، وأطال فوجدتُ إطالته بحلاوته إقصاراً، فهو دقُّ
المعاني المخترة، يستخرجُها من قلبها، ويُبرزُها في ثوبها القشيب، وليس خلقُ
الأثواب كقشيبها، يجتني معانيه من ثمراتٍ مُختلفةٍ طعمُها، وينسج ألفاظه من
ديابيحٍ مؤتلفةٍ رُقمُها.

ومنه قوله في ذم كاتب :

لا يمشي قلمه في قرطاسٍ له إلا ضلَّ عن النهج، ولا يصوغُ لفظاً إلا قيل : رُبُّ
حدثٍ من الغم كحدثٍ من الفرج، ولكن ما كل من تناول قلماً كتب، ولا كل من رقا
منبراً خطب، والدعاوى في هذا المقام كثيرةٌ، ولكن ليس القنا كغيرها من القصب.

ومنه قوله^(٢) :

وكان بين يدي شمعةٌ تَعْمُ مجلسي بالإيناس، وتُغنيني بوحدتها عن كثرةِ
الجلّاس، وينطقُ لسانُ حالها أنّها أحمدُ عاقبةً من مُجالسةِ الناس؛ فلا الأسرار

(١) يقصد : عمر بن الخطاب في فتوحاته، وعمار بن ياسر في هديه، وعمرو بن العاص في كيده.

(٢) الوافي بالوفيات ٢٧/ ٣٨ ورسائل ابن الأثير ٩٦-٩٧.

عندها بملفوظة، ولا السَّقَطَاتُ لديها بمحفوطة؛ وكانت الريحُ تتلَّعبُ بلهبها،
وتختلفُ على شُعبه بشُعبها، وطوراً تقيمهُ فيصيرُ أُمْلَةً، وطوراً تُميلُهُ فيصيرُ
سلسلةً، وتارة تجوفهُ فيصيرُ مدهنةً، وتارة تجعلهُ ذا ورقاتٍ فيتمثلُ سوسنةً، ومرةً
تنشرُهُ فينبسطُ منديلاً، ومرةً تُلْفُهُ على رأسها فيستديرُ إكليلاً؛ ولقد تأملتُها
فوجدتُ نسبتها إلى العنصر العسليِّ وقدَّها قدُّ العسَّالِ، وبها يُضربُ المثلُّ
للحليم، غير أن لسانها لسان الجُهاال ومذهبها مذهبُ الهُنود في إحراق نفسها
بالتَّار، وهي شبيهةُ العاشق في انهمال الدَّمع، واستمرار السَّهر، وشدةُ الاصفرار.
ومنه قولُه:

ولقد عدا السَّحابُ طوره إذا هطل في بلدةٍ هو بها مُقيمٌ، لكن عُذره أنَّه أتى
مُتعلِّماً، وقد جرت العادةُ بإفادة التعليم، وما أقولُ: إنَّه يُقابلُ ذاك الوجه النَّدِي
إلا بوجهٍ قل ماؤه، ولو استحيا منه حقَّ الحياءِ لما هطلت سماؤه، وأنى يقاسُ فيضُ
كرم السَّحاب بفيض كرمه، أو ديمُهُ الدائمةُ بإقلاع ديمه.

ومنه قولُه:

إذا رفعت الخطوبُ أعناقها، لقيها من رأيه بسعد الذَّابِح، وإن بقي ليلها
غشيه من عزمه بالسَّماك الرامح، فهو يسفكُ دماءها، ويجلو ظلماءها، ولهذا ترى
وقد أجفلت عن طريقه، فرجعت عن حرب عدوِّه إلى سلم صديقه.

ومنه قولُه في اليأس والطَّمع:

إن نظر إلى اليأس والطَّمع، وجدا سواءً في جدوى الإعطاء، ولا فرق بينهما
إلا في روح التعجيل وكرب الإبطاء، ومن هاهنا عُجِّل اليأسُ غنىً والطَّمعُ فقراً،
وأوسع صاحبُ هذا ذمًّا، وصاحبُ هذا شُكراً.

ومنه قوله:

إذا فاز المرء من اليقين بحظه، ولحظ الدنيا بقلبه لا بلحظه، علم أن عطاياها عاريةٌ مردودةٌ، وأنها وإن طالَّت مُدَّةٌ وجودها فإنَّها مفقودةٌ، وما ينبغي له حينئذٍ أن يُسرَّ بالشَّيءِ المعار، ويُنقلَ له من دارِ المتاع إلى دارِ القرار.

ومنه قوله:

وكانت الدنيا بهٍ مسرورةً، فطوى عنها لباس السُّرور؛ وكانت الزُّلفى لهٍ بحياته، فانتقلت الزُّلفى إلى أهل القبور؛ وما أقولُ إنَّه كان للأرض إلا بمنزلة الأرواح من الأجساد، ولا شك أن السَّماء حسدتها على الاختصاص به مما اعتادت من حسد الحساد، فبماذا يمدحُه المادحُ وقد أسلمه العيانُ إلى الخبر؟ وإن قيل: لولا النَّبي لم تُخلَق شمسٌ ولا قمرٌ، قلتُ: ولولا موته لم تُخسف شمسٌ ولا قمرٌ.

ومنه قوله:

وكيف يظلمُ ذاك اللَّحدُ وبه من أعمال ساكنه أنواراً؟ أم كيف يجذبُ وبه من كف فيضه سحابٌ مدراراً؟ أم كيف يُوحش والملائكةُ داخلَةً عليه ببُشرى عاقبة الدار؟ أم كيف يُخفيه طولُ العهد على زواره وطيبُ ترابه هادٍ للزُّوار؟ وأسفي كيف أطأ على الأرض وهو في بطنها ملحدٌ؟ أم كيف ترعى^(١) نجوم السَّماء وما هو بينها موجودٌ؟ أم كيف أعدَّ أسماء البحار وليس في جملتها معدودٌ؟ أم كيف أحمد من بعده عيشاً ولم يكن العيش إلا به محموداً؟

ومنه قوله:

(١) كذا في الاصل، ولعل الصواب: أرعى ..

العفو عن المذنب عُقوبةٌ لعرضه، وإن نجا بسلامة نفسه، وخيانتُهُ هي التي تلبسُهُ من غضاضتها ما لم يبلغهُ العقابُ بلبسه؛ وقد قيل: إِنَّ الرُّقَّ بالجاني عقابٌ، والإحسان إليه متابٌ؛ ولا شكَّ أَنَّ بسطةَ القُدرةِ تُذهبُ بالحفيظة، وتُزيلُ وجد الصُّدورِ المغيظة، وشيم المولى تُحبُّ أن يكون رضاها شفيعاً إلى غضبها، وإن نبضت منه بادرةٌ سهم، ردتها شيمة التغمد على عقبها، فلا شافع إليها إلا وسيلةُ كرمها، ولا ذمة عندها إلا الاستدمام بحرمتها.

ومنه قوله:

إذا ادعت له الأوصاف رتبة فضلٍ، شهد شاهدٌ من أهلها، وكفته وراثتها عن آبائه أن يشارك البعداء في فضلها، وأحق الناس بالمعالي من كان فيها عريقاً، ولا يكون المرء خليقاً بها إلا إذا كان أبوه بها خليقاً، وإذا زكت أصول الشجر زكت فروعه، ولا يعذب مذاق الماء إلا إذا طاب ينبوعه.

ومنه قوله:

وأكرم بيديه التي تسمح بدية القتل، ويرى الكثير من عطائها بعين القليل، وما كل من شاء استمرت يده بالسماح، وقد تحجم عنه من تقدم على مكروه الصفاح، على أنه قد قيل: إن بين التسميتين إخاءً، فالسقاء يكون نجدةً، والنجدة تكون سقاءً؛ ومصادق هذا القول اجتماعهما لليد الكريمة التي ألقت إنجاح الوعد وإنجاح الوعيد، وضمنت أرزاق الناس وأرزاق الحديد، وقالت في الندى: هل من صاديٍّ في الوغى: هل من مزيدٍ؛ فالساري إلى أبوابها لا يصل إليه في نهج السرى، وهو مهتدٍ منها على قبس القراع أو قبس القرى.

ومنه قوله في وصف هملاج^(١) :

له في العربية حسب أصلها، وفي العجمية نسب جهلها ، فهو من بينهما مستنتج ، لا ينسب إلى الضبيب^(٢) ولا إلى أعوج^(٣)، سديد الحملة، شديد الجملة، لا يشأن بالغلو، ولا يتعب راكبه بفرط العلو، أثبت من الصافنات صبراً، وأوطأ ظهراً، وأطوع للتصريف، وأسلم في الهيكل والوظيف، رحب اللبان، عريض البطان، سلس العنان، طوع الكرة والصولجان؛ قد استوت حالته بادناً ومضطماً؛ فإذا أقبل خلته مرتفعاً، وإذا أدبر خلته منحدرًا، كأنه دمية محراب، أو درة هضاب، فهو مخلّق بخلق المضمار، وبدم السرب والصوار^(٤)، بناصية شائلة، وغرة سائلة، كنوارة في شقيق، ولؤلؤة في عقيق، يثنى عليه بأفعاله، لا بعمه وخاله؛ وإذا كان الكريم في كل جنس، فهو كريم جنسه؛ وإذا كانت العرب أنسابها، أبناء أمهاتها، فهو ابن يومه لا ابن أمسه، كأنما ألقى لجامه على سالفه عقاب، أو شد حزامه على بارقة سحب.

ومنه قوله في الخيل والسير :

ولما دهم نزلنا للاستراحة، والهجير قد أخذ في الاستعار، وقذف بالدرك الأسفل من النار؛ والحرباء قد لجأ إلى ظل المقيّل، وسمح بمفارقة عين الشمس وهو بها عين البخيل؛ فلم يكن إلا مقدار وضع الرجل من الركاب، ومُصافحة الجنب لصفحة التراب، حتى قيل : قد فجأتكم عصابة من أهل العبت، تشد في

(١) الهملاج : من البراذين؛ والهملجة : حسن سير الدابة في سرعة . (اللسان)

(٢) الضبيب : فرس حسان بن حنظلة الطائي ، وهو الذي حمل عليه كسرى أبرويز يوم النهروان فنجاه.

(أنساب الخيل ٩٥).

(٣) أعوج : كان سيد الخيل المشهورة، وكان لملك من ملوك كندة . (أنساب الخيل ٢١).

(٤) الصّوار : القطيع من البقر . (القاموم).

ضرائها، وتجنب نفعها من ورائها، وقد فرطت أجيادها بأعنتها، وطاولت هوائها بأسننها، فغدت حينئذٍ نجزةً من الخيل، تدرك ما كانت له طالبةً، وتفوت ما كانت منه هاربةً، لا تمل من موالاة الدروب، وهي عند النزول كمثليها عند الركوب؛ فلما استويتُ على ظهرها، عقدت مع الريح عقد الرهان، وعرضتُ عليها حكم الشقراء والميدان، ثم قلت: إن استشعرت مسابقتي، فقد جئت شيئاً فرياً؛ وتلوت قوله تعالى: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾^(١) وما كان إلا هنيهة حتى حال الركب للروح عند الإظهار، واستسلفت المدى بالتقريب قبل الإحضار، وجئت القران فلقيته منها بصدرٍ يطاردُ الأمواجُ مطاردةَ الفجاج، وعينٍ لا يروعها هبوات الماء كما لا يروعها هبوات العجاج؛ فتلك فرسي التي أعدُّها لكل مخوفةٍ، وهي حوتٌ في كل معبرٍ، وظليمٌ في كل تنوفةٍ.

ومنه قوله في الناقة والفرس:

سرت وتحتي بنت قفرةٍ، لا تذهب السرى بجماحها، ولا تستزيد الحادي من مراحها، فهي طموحٌ بإثناء الزمام، وإذا سارت بين الآكام قيل: هذه أكمةٌ من الآكام، ولم تسم جسرَةً إلا أنها تقطع عرض الفلا كما يقطع الجسر عرض الماء، ولا سميت حرفاً إلا أنها جاءت لمعنى في العزائم لا لمعنى في الأفعال والأسماء، وخلفها جنبٌ من الخيل، يقبل بجذعٍ، ويدبر بصخرةٍ، وينظر من عين جحظةٍ، ويسمع بأذن جسرَةٍ، ويجري مع الريح الزعزع، فيذرهما وقد ظهر فيها أثر الفترة، وما قيد خلفها إلا وهو يهتدي بها في المسالك المضلة، ويطأ على آثارها فيرقم وجوه البدور بأشكال الأهله؛ هذا والليل قد ألقى جوانبه فلم يبرح، والكواكب

(١) سورة الزخرف: ٣٢.

قد ركبت فيه فلم تسبح، وإنما أود لو زاد طوله، ولم تظهر غرة أدهمه ولا حجوله، فقد قيل: إنه أدنى المبعد، وأكتم الأنوار، ودل عليه القول النبوي^(١) «بأن الأرض تطوى فيه مالا تطوى في النهار»، ومازلت أسير مرتدياً بثوبه حتى يكاد أن ينضو لون السواد، وظهر ذنب السرحان فأغار على سرح السماء كما يغير السرحان على النقاد، فعند ذلك نهلت العين من الكرى نهلة الطائر، ولم يكن ذلك على ظهر الأرض المطمئنة، وإنما كان على ظهر السائر.

ومنه قوله في الخاطر :

الخطر كالضرع، إن حلبته طف، وإن تركته جف.

ومنه قوله :

لا ريب في أن لحاظ النواظر كمتون البواتر، وإنما اشتركت جفونهما في الأسماء، لا شتراكهما في سفك الدماء.

ومنه قوله في الحكمة :

عقل المرء من حول ماله، وماله من حول صبره؛ فإذا افتقرت يده ذهبت بعقله، وإذا صبرت نفسه ذهبت بفقره.

ومنه قوله :

فروا وقد علموا أن العار مقرون بالفرار، لكنهم رأوا كلمه الأعراض أهون من كلمه الأعمار، وتلك نفس خدعت بالحياة الدليلة التي الموت ألد منها طعماً، وليس الموت إلا في أن تلاقي النفس ذلاً، أو تفارق جسماً؛ ولربما يسلا المهزوم

(١) من حديث أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٩٧٩/٢ (كتاب الاستعذان رقم ٣٨): «... وعليكم بسير الليل، فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار،...».

بقول القائل: إن الأسد يغلبه^(١) الأسود ، وإن الحرب ليست بمضاء العزائم، وإنما هي بمضاء الحدود؛ وهذا القول مسلاة كاذبة لهم مكذوبة ، ولولا العزم لم تر حصوناً مفتوحة ، ولا جموعاً محزوبة، وبالجد يدرك الجد، ولولا القدح لم ينفث الزند، ولما جيء بأسرى القوم منّا عليهم بإطلاق السراح، وقاتلت عنهم شيمة الصفح إذ لم تقاتل عنهم شيمة الصفاح، وحمية الآباء لا تقتل من لم يحوه مكر الطراد، ولا حمية صهوات الجياد؛ وأي فرق بين الأسير في عدم الدفاع، وبين أشباهه من ذوات القناع؟

ومنه قوله :

وما زال يزعج ديار الكفر بغزواته، حتى لم تهنَ حاملةً بإتمامها ، ولا تمتعت عينا بلذة منامها؛ فاسم القروور من نسائهم منسوخٌ بغارةِ المقربات الجياد، ولذيد النوم بأرضهم مسلوبٌ بإيقاظ جفون البيض الحداد .

ومنه قوله في بليغ :

إذا ارتجل أتنه المعاني غير مكرهةٍ ولا محرجةٍ، وأبرزها كوامل الصور غير مخدجةٍ ، وإن تروى تهافتت على توقد خاطره تهافت الفراش، وجاءته سوانح وبوارح حتى تقول^(٢) : تكاثرت الظباء على خراشٍ.

ومنه قوله في تكذيب أهل النجوم :

ولقد أوهم أهل التنجيم بالتسيير والتقويم، والحكم على أفعال العليم

(١) في الأصل : يغلبها .

(٢) هذا صدر بيت بلا نسبة في المنتخل ٢ / ٦٣٠ والتمثيل والمحاضرة ٣٦١ والأمثال والحكم للرازي

٨٧ ، وتمامه : [الوافر]

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراشٌ ما يصيدُ

الحكيم، فأخبروا عن النجوم في سُعودِها ونحوسِها، بما لم تخبره من نفوسِها، وقضوا في ترتيب أبراجِها، واختلاف مزاجِها، وحكموا على حوادث العمر من حال وجوده إلى عدمه، في سعادته وشقائه وصحته وسقمه، وأشباه ذلك من الزخارف، التي نصبوها حبائل للاكتساب على غير ذوي الألباب، وكلها أضغاث أحلام، وأوضاعٌ لا تخرج عن خط الأقلام.

ومنه قوله:

ولم أبك إلا عصر الشباب الذي هو في الأعمار بمنزلة الربيع من الأعوام، وما كنت أعرف كُنْه أمره حتى مضى، فرحلت معه الحياة بسلام^(١)، فالأيام فيه غوافلٌ، والسنون لقرب عهدها مراحل، ولم أقض وطراً إلا خلفت أندى منه مرتعاً، وأحسن مرأىً ومسمعاً؛ أيام لا أعاقِرُ خمرةً إلا لمى، ولا وردةً إلا خدأ، ولا نقلاً إلا فماً، ولكاني ما كنت^(٢) قمرأً حلف إلا بالقدود وهيفها، والجفون ووظفها، وليالي الذوائب وسدفها، ووجوه الأعمار التي لا تشاب بكلفها، ولا يُرى في غُرر الشهور ولا منتصفها؛ فأصبحت قد بدلت غريب الأحوال باليفها، وعوضت من نضرة الأوراق ببس خريفها، فولى الصبا الآن بسلام، ولوعة ينبي بها الدمع السجام.

ومنه قوله فيمن قصر:

ولتقر تفاح الحدود، فلست من تقبيله غراً، ولا من عضه، اللهم غفراً، وقد ينطق المرء بما يكون فيه لسانه آثماً وفعاله براً، ولولا حكم الفصاحة لما ذكرت بانه ولا علم، ولا وقف المتغزل بأقواله موقف التهم.

(١) من قول منصور النمري: [ديوانه ٩٦]

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

(٢) في الأصل: ولكانا ليت.

ومنه قوله :

كما عود الطير من جزر أعدائه تتبعه أسراباً، واستسقى سحابها ما تحته من سحاب خيله، فاستسقى سحابٌ سحاباً، ولقد مرت عليه الشمس فضعفت أن تحرق جناحاً، أو تحمي بحرّها سلاحاً، فلم يلق بين الريش فرجةً ينثر فيها دراهمها، ولربما خالسها النظر إذا هزت قوادمها.

ومنه قوله في الاستعطاف :

المولى إذا لين له غلب على أمره، وأزيلت مغيظة صدره، وهذه خليقتان من البعيد الذي يمسه بلحمةٍ، ولا يمت إليه بحرمةٍ، فما للظن بالقرب الذي فاز بمزية الشركة في عرقه؛ وفضل الجوار لاحق أوجب من حقه، فكيف نسي المولى عادة كرمه، ووضع وجوه قومه تحت قدمه، وجعلهم حصائد سيفه وقلمه؛ وحاشاه أن يقطع رحماً أوصاه الله بوصلها، ويعضد شجرةً أصله الكريم من أصلها، ويزعم بأنهم أخرجوه عن معهود خلائقه، وبدلوا أنواء غيوثه بمخيلة صواعقه؛ ولكنهم شفعوا للذنوب بالاعتذار، وعلموا أن خيط أرشيتهم لا يؤثر في كدر البحار؛ وقد قدر المولى، والمقدرة تصغر كبار الذنوب، وتذهب ترات القلوب، فإن نقم منهم أنهم جمعوا قلة الآداب إلى إدلال ذوي الانتساب، فتلك سنة سنّها حكمه، وجبلهم عليها حلمه، وما يتحدث الناس أن الكريم عاد عن عادة إغضائه، ورجع في حكم قضائه؛ وأول راضٍ سيرة من يسيرها^(١)؛ فليسبل المولى عليهم ستر فضله، ويُنجز إساءة فعلهم بإحسان فعله، وليأخذ بأدب الله وأدب رسله في الإعراض عن الجاهل وجهله؛ ويعلم أن قوم المرء كنانته التي بها

(١) هو عجز بيت لخالد بن زهير في التذكرة الحمدونية ٢١٢/٧ وتماه: [الطويل]

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فاول راضٍ سيرة من يسيرها

يناضل ، وذروته التي بها يطاول ، وإذا لم يحمل ما يريب من أدانيه رمته أقاصيه، ولا بد للإنسان من طاعةٍ ومعصيةٍ، ومن أجل طاعته تغفر معاصيه ﴿١﴾ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴿١﴾

وبعد، فإذا شاء المولى أن يقتل حراً فليعف عن زلله، فإن إصابة عرضه أشد من إصابة مقتله .

ومنه قوله :

سليب المدائح أبهج حسناً من الغصون المكسوة بأوراقها، والحمائم المتحلية بأطواقها، فهو عارٍ من اللباس، مكسو من المحامد التي صاحبها هو الكاسي .

ومنه قوله في ذم الود المتكلف :

خير الود ما عطف عليك اختياراً، لا ما أعدته بالعتاب اقتساراً ؛ فإن شيمة التبرع كحسن التأدب غير مجلوبٍ، والإنجاح في الطلب إتعاب لوجه المطلوب ، إلا أن خير الود ودٌ تطوعت به النفس لا ود أتى وهو متعبٌ .

ومنه قوله :

والشيب يعيد جدة الشباب وهي أخلاقٌ، وهو على كراهة لقائه مكروه الفراق، فوهاً لنزوله، وآهاً لرحيله، وسحقاً له بديلاً من الشباب، وسحقاً لبديله .

ومنه قوله في الهجو :

لم أر له في حظوظ المساعي من قسم، كأنه فيها واو عمروٍ أو ألف بسم^(٢)،

(١) سورة هود : ١١٤ .

(٢) لعله ينظر إلى قول أبي سعيد الرستمي : [ثمار القلوب ١ / ٢٦٦]

كما ألحقت واو بعمر وزيادة وضويق «بسم الله» في ألف الوصل

فهو لا يزال منكراً غير معروفٍ، فإما زائدٌ لا حاجة إليه وإما محذوفٌ.

ومنه قوله :

السرامانة لا تباع، ووديعه لا تضاع؛ فالعين تكاتم القلب فيها ما تبصره، والقلب يكاتم اللسان ما يضمره، وإذا حووظ على السر هذه المحافظة، فقد ألقى في مهولةٍ لا يرام اطلاعها، ونيط بصخرةٍ أعيا الرجال على كثرة المحاولة انصداعها.

ومنه قوله في قتال قومٍ كانوا بجبل، ثم نزلوا فهزموا :

وبعد، فإن العساكر ركبت لارتياح موقف الحرب، واختيار المصعد السهل في الجبل الصعب، لتكون على بصيرةٍ من أمورها، ولتأتي البيوت من أبوابها لا من ظهورها، فانبسطت كتائبها في كل منخفض ومنحدرٍ، ومزلزلٍ ومستقرٍ، فحينئذ نفخ الشيطان في أنفه وساقه إلى حتفه، فبرز بمن قبله من الجنود، ونزل عن قُلل الأوعال إلى مصطحر الأسود، وكان حزن الخطب في أحزانه، وتباعد مناله في تباعد مكانه، فلما أسهل أسهل النصر في طلبه، وأمكن يده من سلبه؛ لا جرم أنهم ردوا على الأعقاب، ونسفوا نسف الريح السحاب، فلم يكن لهم سلاحٌ أوقى من الفرار، ولا عاصمٌ إلا الجبل الذي عصم من طوفان السيف وما عصم من طوفان العار.

ومنه قوله :

وثار بين أيدينا سرب ظباءٍ مدرب على القنص ومقانصه، عارفٍ بغوائله ومخالصه، وقد طرق مكانه حتى لم يهن بمرتعه ومشرعه، ولا أمن نبوة مصرعه، وكبس منه ما تمتع برؤية أشباهه من الفرقدين، ولم ينس الفجيعة بإلفه الذي خر

لغمه واليدين، فلما أحس بنا طار خيفة حتفه، وكاد أن يخلف ظله من خلفه، فأرسلنا عليه سلس الضريبة، ميمون النقيبة، منتسباً إلى نجيب من الفهود ونجيب، كأنما ينظر من جمرة، ويسمع من صخرة، ويطأ من كل برثن على شفرة، وله إهابٌ قد حيك من ضدين بياضٍ وسوادٍ، وصور على أشكال العيون، فتطلعت إلى انتزاع الأرواح من الأجساد، وهو يبلغ المدى الأقصى في أدنى وثباته، ويسبق الفريسة فلا يقنصها إلا عند التفاته، وقد علمت الطباء أن حبائلها في حبل ذراعه، وأن نفوسها مخبوءة بين أضلاعه، فلم يكن إلا نبضة عرق، أو ومضة برق، حتى أدرك عقيلةً من تلك العقائل، فأناخ عليها بكلكله، ووقف بإزائها ينتظر وصول مرسله.

ومنه قوله :

والتاريخ معادٌ معنويٌّ يُعيد الأعصار وقد سلفت، وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت، ويستفيد به^(١) عقول التجارب من كان غراً، ويلقى آدم ومن بعده من الأمم وهلم جرأً، فهم لديه أحياءٌ وقد تضمنتهم بطون القبور، وعنه غيبٌ وقد جعلتهم الأخبار في عدة الحضور؛ ولولا التاريخ لجهلت الأنساب، ولم يعلم الإنسان أن أصله من ترابٍ، وكذلك لولا [التاريخ] لماتت الدول بموت زعمائها، وعمي عن الأواخر حال قدمائها، ولم تخطُ علماً بما تداولته في الأرض من حوادث سمائها؛ ولمكان العناية إليه لم يخل منه كتابٌ من كتب الله المنزل، فمنها ما أتى بأخباره المجملة، ومنها ما أتى بأخباره المفصلة، وقد ورد في التوراة في سفرٍ من أسفارها، وتضمن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومدد أعمارها.

(١) في الأصل : وعفت به ويستفيد عقول.....

وقد كان العرب على جهلها بالقلم وخطه، والكتاب وضبطه، تصرف إلى التواريخ جُل دواعيها، وتجعل له أوفر حظ من مساعيها، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتعتاض برقم صدورها عن رقم مسطورها، كل ذلك عنايةً منهم بأخبار أوائلها، وإبانة فضائلها؛ وهل الإنسان إلا ما أسسه ذكره وبناه؟ وهل البقاء بصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه؟.

ومنه قوله :

الخادم يعود المولى من شكاة جسمه، والناس يعودون الخادم من شكاة همه؛ وإذا مرض المولى المنعم سرى مرضه إلى عبيده وخدمه، فهم مشاركوه في اسم مرضه، وإن خالفوه في صورة ألمه؛ وقد تمرض أرواح المرض أجساداً، ويشتركان في كل شيء حتى في عيادة العواد.

ومنه قوله في السير :

ولقد سرت مسير الأخبار، وأخذت بمطالع الليل والنهار، حتى عدت رفقةً ورفقاً، وصيرتُ للغرب غرباً وللشرق شرقاً.

ومنه قوله :

إذا وقفت بالدار تسائل أحجارها، وتبكي آثارها، فإنك لا تبكي التراب، بل الأتراب، ولا تندب الآثار الحائلة، بل الأحباب الزائلة، ولا فائدة في سلامك على الطلل الذي لا يعي خطاباً، ولا يرد جواباً، فإنما تخاطب أصداءً لا تملك إعادةً ولا إبداءً؛ وإذا شغلت نفسك بسؤال التراب والجنادل، فلا فرق بين سؤال من لا يجيب، وجواب من لا يسأل.

ومنه قوله قريب منه :

ولقد قصد منه كريماً لم تزل معاهد أكنافه معهودّة، ومن مواهبه أن تكون قاصدةً قبل أن تكون مقصودةً؛ من يسأله غير درجات المعالي فقد قدح في مواهبه، وحط من مراتبه؛ أمسك المال وجعل حادث هلاكه في ضمن إمساكه، فلو حلف سائله أن يصافح السحاب لبر في يمينه بمصافحة يمينه، وليس هذا من المجاز الذي يتوسع في مقاله، بل هو من حقيقة القياس الذي يحمل على أشباهه وأمثاله.

ومنه قوله :

وبأيديهم كل لدنٍ شدته في لينه، وتمكن النصر منوطاً بتمكينه ، فما منهم إلا من اعتقل ما يماثله قدأً، ويناسبه جدأً ، فإذا مثلت شكولها وشكولهم قيل : صعاد، في أيدي صعادٍ وإذا مثل غناؤها وغناؤهم قيل : أساودُ في أيدي آسادٍ؛ ومن صفاتها أنها لا تنشد [إلا] إذا كانت قصائد، ولا تجور إلا إذا كانت قواصد، قد أدبها الثقاف من عهد فطامها، وكانت منابت التراب من شرايها، فأصبحت منابت الترائب من طعامها، فهذه هي الرماح التي تعلقها أيدي الأبطال ، وتأوي منها إلى معاقل بذلك الاعتقال .

ومنه قوله :

منّا عليهم من الأسلاب بالبيض القواطع، ليجعلوا حليها أساور في أيدي البيض ذوات البراقع^(١)، وحلية السيف لا تحسن إلا بكف يكون به ضارباً لا له حاملاً، وإذا عطل في موقف الجهاد ، فالأولى له أن يُجعل عاطلاً، فحفننا أن ينشدهم قول أبي العتاهية^(٢): [الهزج]

(١) في الأصل : دارت البراقع !.

(٢) ديوانه : ٦٠٨ .

فصنع ما كنت حليت به سيفك خلخالاً
فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالاً

ومنه قوله :

ولقد تعقبت الأيام نقصها بإتمامها، ونقضها بإبرامها، ونسي نعي ميتها
ببشرى حيها، ونشرت المكارم التي كانت طويت ، فوفى أنس نشرها بوحشة
طيها، وأصبح عزاء الناس مستدركاً بالهناء، وعوضوا عن كنز الغنى بكنز الغناء،
حتى استرجعت العبرات ماجادت به من سحاب مزنها ، واستبدلت ببرد مسرتها
من حرارة حزنها.

ومنه قوله في الحلم :

إذا حكمت قدرته في الذنوب كان العفو لها عاتقاً ، وإذا أحب الشفعاء أن
يشفعوا إليه كان كرمه لهم سابقاً ، فلا بارقة في بوارقه إلا وهي مغشية بغمامة
حلمه ، ولا بادرة من بواده إلا وهي محبوسة في قبضة كظمه ؛ وعلى هذا فإن
الجانني غير مقتصر لديه إلى إقامة الأعذار، ولا إلى التوبة التي تستر عورة الإصرار،
فيوشك أنه تخلق بخلق الله سبحانه في عموم المغفرة ، ورأى أن لا أثر يبقى في
صدر المغيظ إذا تولت إذهابه يد المقدرة .

ومنه قوله في الخمر :

سُقيت مغارسُها بالسرور بدلاً من الماء ، وجمع لها بين وصفين من تذكير
الأفعال وتأنيث الأسماء، وما سجنّت في دنها إلا لما عندها من النفار، وكانت
حمراء اللون فألبسها السجن ثوب الاصفرار، وقد شبهت بالنار الموسوية في تألق
ضرامها، وبالنار الخليلية في بردها وسلامها، وإذا نظر إليها وإلى زجاجها أشكل
الأمر بينها وبين الزجاج ، وقيل : هذا سراج في كأس أم كأس في سراج؟

ومنه قوله :

النفوس تؤثر الخير تكلفاً والشر طبعاً ، وهي مجبولةٌ على حب الشهوات قلباً
ولساناً وبصراً وسمعاً ، لكن للتدريج أثر في تقويم الاعوجاج ، واصطناع الياقوت
من أحجار الزجاج ، ولهذا استخرج من أوراق الشجر وشائع الديباج .

ومنه قوله في المدح :

إذا أفضت في الثناء عليه ، تنافس النظم والنثر في الاستقلال بأوصافه ، وما
منهما إلا من فض ختام طيبه ونشر مطاوي أفوافه ، فما ترى في مديحي لمولانا من
حُسْنِ فليس لها مخلوقاً ، بل من أوصاف سيدنا مسروقاً : [البسيط]

إذا القصائد كانت من مدائحهم يوماً فأنت لعمرى من مدائحها

ومنه قوله :

المال يكون في خزائن أربابه صامتاً ، وإذا خرج في العطايا صار ناطقاً ، فيا
قبحه في أيديهم حبيساً ، ويا حُسْنه عنهم آبقاً ، ولم يسمع قبله بآبقٍ أفاد
صاحبه حمداً ، وبنى له مجدداً .

ومنه قوله في قريب منه :

جود مولانا قد هون على الناس مشقة الاغتراب ، وأراهم من نعيم الإنعام ما
حبب إليهم فراق الأحباب ، فما منهم إلا من يحمد خطوب الأيام التي أخرجته
من دياره ، ونقلته عما لم يؤثر الانتقال منه إلى ما لقيه من إيثاره ؛ فمثال بابه
الكريم بقتلى الأيام ، كمثال الجنة بقتلى الحمام ؛ فلو علم داخل الجنة أنها تكون له
مصيراً ، لاستعذب كأس الحمام وإن كان مريراً ؛ وذلك كما قال ابن الخياط (١) :

(١) ديوانه ابن الخياط : ٧٠ .

[البسيط]

لأشكرن زماناً كان حادُّهُ وصرفه بي إلي معروفكم سببا

ومنه قوله :

إذا حكمت سيوفنا في أموال العدى ، حكمت فيها وسائل الندى ، فهى طالبةٌ ومطلوبةٌ ، وسالبةٌ ومسلوبةٌ ، إلا أنها تأخذ ما تأخذه اقتساراً ، وتعطي ما تعطيه اختياراً ، فلها بسطة الغالب ومنة الواهب .

ومنه قوله في شكر منعم :

إذا تقابلت مدائحي وسجاياه ، رأيت مرآةً صقيلةً ، تقابل صورةً جميلةً ، فلولا هذه ورونق صقالها لما تمثلت تلك على هيئة جمالها ؛ وأنا أول من طبع مرآةً من الكلام ، وصور الأخلاق فيها بصور الأجسام .

ومنه قوله :

وردت إشارة سيدنا أن أنظم في فلان قصيداً ، يكون في نظمه فريداً ، وقد علم أن أحرار الكلام وردت أن لها عزة الأحرار ، وهي كالنفوس الأبية في الاستعلاء والاستكبار ، فإذا كلفت مدح لئيمٍ صدت مجانيةً ، وذهبت مغاضبةً ، ولهذا أبى كلامي وهو الحرفي نسبه ، الكريم في حسبه ، أن يمدح من عرضه حُرَّاقُ قادحٍ ، وفريسةُ جارحٍ ، وطعمةُ هاجٍ لا مادحٍ ؛ ولطيمةُ الطيب لا تلتئم بالكيف ، وصورة الشوهاء لا يزين منها التسيير والتشنيف .

ومنه قوله في قلم :

أخرس وهو فصيح الإيراد ، وأصم وهو يسمع مناجاة الفؤاد ، لا ينطق إلا إذا قطع لسانه ، ولا يضحك إلا إذا بكى أجفانه .

ومنه قوله في تفضيل الإحسان على الثناء :

الشكر أخف من الإحسان وزناً، وصاحبه يستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى، ولقد ربحت صفقته إذا باع أقوالاً وحاز أموالاً، وأعطى كلمات خفافاً وأخذ عروضاً ثقالاً؛ ومن زعم أن شكر الشاكر أفضل من موهبة الواهب فقد أغلى القول فيما ليس بغال، وأتى ويده السفلى من مكان عال؛ وأي فضل لمن غايته أن يكون مجازياً لا موازياً، ومعاملاً لا معادلاً؟ وإذا أنصف علم أنه جاء أخيراً، ولا فرق بينه وبين من أُعطي أجره فصار أجيراً، وما أرى الشكر إلا حديثاً يذهب في الرياح لو لم تقيده مكارم السماح، فلا حاجة مع لسانها إلى الشاكر، وإذا نطقت الحقائق فقد أغنت بنطقها عن مديح الشاعر^(١).

ومنه قوله :

الخادم لا يشكو الأقوام، ولكن يشكو الأيام؛ فإن المَعْدَى على قدر العدوى، والمشكو إليه على قدر الشكوى؛ ومما يشكوه منها أنها تباده ولا تواجهه، وتسارره ولا تجاهره، ولو كان لها شخص للقيه بعزم مولانا فقارعه، أو أرهبه باسمه الكريم فوادعه؛ وهي عبيده، تجني وهو المطلوب بعنايتها، وإذا رأت بأحد عناية من جاهه قرنتها بعنايتها؛ والمملوك يطالب مولانا بأرش^(٢) جراحها، ويسأله عناية تكف من غرب جماحها.

ومنه قوله في سرى النياق :

كم للركاب من يدٍ لو علمتها لجعلت تراب أخفافها للعيون إثمداً، وخطط

(١) من قول نصيب : [ديوانه ٥٩].

فاجأوا وأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

(٢) الأرض : الدية.

منازلها للجباه مسجداً ؛ فهي الحاملة أعباء الهمم ، والممكنة من نواصي النعم .

ومنه قوله :

جوده بعيدٌ على الأمل ، غير مفتقرٍ إلى العذل ، وإذا احتفل فهو نهر طالوت
الذي حلل للغرفة لا للنهل .

ومنه قوله في كريم :

لا يضرب بين ماله حجاباً وبين السائلين ، وإذا عذل على الجود أجاب بقوله
تعالى : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾^(١) .

ومنه قوله في الاقتصاد في طلب الرزق :

الإنسان في كفالة الله يرزقه غير واثق ، وهو في كل طريق إليه سالك ولكل
باب فيه طارق ، وكثيراً من يأتيه الرزق وهو عن طلبه نائم ، ويقعد عن ابتغائه
وهو إليه قائم ، ولا يصرف الأقدار إلا القادر على خلقها ، وكم من دابة مرزوقة
وهي ضعيفة عن حمل رزقها .

* قلتُ : ذكرت بهذه الكلمة دعاء كتاب كتبه ابن عبد الظاهر عن الملك الظاهر
إلي وزيره بأن يربع^(٢) دواب الحرس ، وكان قد أمر بإخصائها ، لإزعاجها له
بالنهيق ، ثم رآها فرحمها ، فأمر بذلك ؛ والدعاء :

ولا زال يشكره غرب البلاد وشرقها ، وحمامها وورقها ، وما من دابة في
الأرض إلا على الله - وعلى حسن تدبيره - رزقها^(٣) .

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٢) ربع الدواب : حبسها في المرعى .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ . سورة هود : ٦

عدنا إلى ابن الأثير:

ومنه قوله في ذكر الخدمة :

لو ساع لولي من أولياء الديوان العزيز أن يمت بولائه، أو يدل بما أبلاه في الخدمة من حُسن بلائه ، لكان لسان الخادم في هذا المقام أكرم صدقاً، أو مكانه منه أشرف حقاً، لكن ليس لقائم بخدمتها أن يمت بقيامه، كمن ليس لمسلم أن يمت بإسلامه؛ والخادم وإن أمسك عن ذكر خدمه، فقد نطقت بها شهرة سماتها ، وأصبحت مواقفها في المواقف أبكاراً، ونطق البكر في صماتها، ولم تزل معروضةً بالديوان العزيز ، وكل وقت إبان وقتها، وهي كالأيات التي لا تأتي منها إلا كانت أكبر من أختها.

ومنه قوله :

ولطالما أورى الاغتراب عزاً، وأثار من السعادة كنزاً، حتى إن الله جعله سنةً في أنبيائه ورسله، ونهج لهم سبيل العز بسلوك سبله، كسنة الغربة الشريفة، في الهجرة النبوية، وما أوجسه من القوة بعد الفرار، والكثرة بعد ثاني اثنين إذ هما في الغار؛ والتقليل سببٌ للسكون، والشهادة داعيةٌ لهدوء العيون، ولو لزم السيف غمده لم يبن أثر مضاربه، ولا خدمه لسانٌ في نظم شاعره ولا نثر خاطبه، وبالاغتراب عذب ماء البحر لما فارق السحاب.

ومنه قوله :

له القلم الذي يصرع الخطب الجليل بضعفه، ويسبق الحرف الأمون^(١) بحرفه، وإذا نكس رأسه رأيت أبهة الخيلاء في عطفه، فهو يجلب بأساً ويدق

(١) الحرف الامون : الناقة القوية.

جسماً ، ويمج من لسانه شهداً وسمّاً ، فإذا ارتقى أنامله قيل : خطيبٌ رقا منبراً ،
وإذا اهتز في يده كأنه جانٌّ ولي الخطب مدبراً .

ومنه قوله :

لو ذهب الحزن بالدمع وانهماله ، لكان الصبر بصاحبه أخرى ، ولو لم ينل به
أجرأ ، فكيف وصلوات الله ورحمته من ثوابه ، وما اعتاض المرء صبراً عن
المصاب ، إلا كان فيه عوض عن مصابه .

ومنه قوله :

المكر ضرابٌ من تحت الثياب ، وسيفه لا يقطع إلا وهو في القراب ، وصاحبه
يلقى بوجه الأحباب ، وهو كالجبل الذي تحسبه جامداً وهو يمر مر السحاب ،
يفرق الجموع وقد كادت تكون عليه لبدأ ، ويجعل قوتها أضعف ناصرأ وكثرتها
أقل عدداً ، ويستغني بلين كيده عن شدة أيده ، وكثيراً ما يطعن أقرانه قبل
الطعان ، ويفاجئهم بالذعر وهم من الأمن في صوان .

ومنه قوله في التضرع إلى قريب مضايق :

أنا أسأله بالرحم التي أمر الله باتقائه واتقائها ، وتكفل بالإسقاء يوم القيامة
لمن تكفل بإسقائها ، واشتق لها لكرامتها عليه اسماً من اسمه ، وقسم لواصلها
ببسط العُمر والرزق اللذين هما من أفضل قسمه ، فلا تتركني أتأوه بقلب
المتألم ، وأجهر بلسان المتظلم ، وأن أصله بسهام الدعاء القاصدة ، وأحاكمه إلى
صراعة البغي التي ليست عن الباغي براقدة ، وأتمثل بقوله تعالى : ﴿إن هذا أخي
له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةً واحدةً﴾^(١) ويعز علي أن ألقاه بهذا القول

الذي أنا فيه غير مختارٍ ، ولعن كان من المحذور النهي عنها، فالمحذور يباح لمرتكبه عند الاضطرار .

ومنه قوله في تذكير بعض الطغاة :

تذكير الطاغى من سنة الله التي خلت في عباده، وإن عسر نقله عما جبلت عليه فطرة ميلاده، وقد أمر موسى بتذكير فرعون مع أنه لم يستفد ذكرى ، بل زاد إلى طغيانه طغياناً وإلى كفره كفرًا .

ومنه قوله : ونصبت المجانيق فالتقت عصيها وحبالها، وصبت على أقطار البلد نكالها، فسجدت لها الأسوار سجود السحرة لفعل العصا، وبادرت بالإيمان لها مبادرة من أطاع وما عصى، فلم يكن إيمانها إلا بعد إذن الأحجار، التي ما أذنت لمشيدٍ إلا أخذ في البوار، وخر من الأقطار، وأصبح كشجرة اجتثت فوق الأرض مالها من قرارٍ.

ومنه قوله في كتاب :

ورد كتابه فطلع طلوع الصباح السافر، على المدلج الحائر، لا بل أقبل إقبال الحياة على الأجساد، والحيا على السنة الجماد، فعظم موقعه أن يزال باليد أو ينال بالنظر، أو يوصف بأنه ثاني المطر، أو ثالث الشمس والقمر.

ومنه قوله ، رسالة في البندق :

من المآرب ما يفعل طالبه ، ويرتاح ناصبه ، ويشترك فيه الناس ، فكل منهم صاحبه كالقنص الذي هو للخاصة نهزة مراح ، وللعمامة صفقة أرباح، وهو جامع لرياضة أجسام ومسرة أرواح؛ وسأذكر موقفاً وقفته وموسماً عرفته، تخلصه الدهر إذا عرفته؛ وذلك أني في زمن الربيع، والأرض ديباجة، والسماء زجاجة، والجو

قد أصبح بأنفاس الرياض معطراً، والشمس قد ضربت في أرجائها عموداً،
فاخضر اخضراراً معصفاً ، ولقد أصاب من مثل العام شخصاً، وجعل الربيع
بمنزلة ثغره النسيم، أو عمراً وجعله بمنزلة شبابه الوسيم ، وقد زاد عندي حسناً
أنني أصبحت في هذا اليوم أصحب أخاه الذي شابهه في اعتدال زمانه، لا في
تلون ألوانه ، وناسبه في طيب شيمه، لكنه أسخى منه في فيض كرمه، وهو
مولانا الملك الذي سعيه مشتق من لقبه، وسبقه إلى المعالي كسبق المنتمي إليه
من نسبه، والمسمون بالملك كثيرٌ ، غير أن هذا الاسم لا يختص إلا به^(١):
[الكامل]

ملك زَهَتْ بِمَكَانِهِ أَيَّامُهُ حتى افتخرن به على الأيام

وكان المنتظم بخدمته في هذا اليوم غلمانٌ كأنهم لؤلؤٌ منظومٌ ، وهو أشرف
خادمٍ لأشرف مخدمٍ، ومقامهم في الحسن سواء ، فلا يقال فيهم: وما منا إلا له
مقامٌ معلومٌ، وكلهم قد تأهب للطرد تأهبه للطراد، وهم متقلدون قسي البندق
مكان النجاد، فإذا تناولوها في أيديهم قيل: أهلةٌ طالعةٌ من أكفٍ أقمار، وإذا
مثل غنائوها وغنائوهم قيل: منايا مشوقةٌ بأيدي أقطارٍ؛ وتلك قسيٌ وضعت للعب
لا للنضال، ولردي الأطيال لا لردى الرجال، وإذا نعتها ناعتٌ قال: إنها جمعت بين
وصفي اللين والصلابة، وصيغت من نوعين غريبين، فحازت معنى الغرابة، فهي
مركبةٌ من حياةٍ ونباتٍ، ومؤلفةٌ منهما على بعد الشتات، فهذا من سكان البحر
وسواحله ، وهذا من سكان البر ومجاهله، ومن صفاتها أنها لا تتمكن من
البطش إلا حين تشدُّ، ولا تنطلق في شأنها إلا حين تعطف وترد؛ لها بناتٌ أحكم
تصويرها، وصحح تدويرها، فهي في لونها صندلية الإهاب، وكأئنا صنعت
لقوتها من حجر لا من ترابٍ، فإذا قذفتها الأطيال قيل: ويصعد من الأرض من

(١) البيت للمتنبي ، في ديوانه ١١/٣ .

جبال فيها من بردٍ، ولا ترى حينئذٍ إلا قتيلاً، ولكن بالمثل الذي لا يجب في مثله قودٌ، فهي كافلةٌ من تلك الأطيّار بقبض نفوسها، منزلةٌ لها من جو السماء على أم رؤوسها، فما كان إلا أن ابتدر أولئك الغلمانُ طلقاً من الرمي، يأتي على اختيار المختار المنايا ذات أسماعٍ وأبصارٍ، وإذا عرض له السُّرب لم يخش فوت خطأ ولا فوت قرارٍ، فمن بين دراجةٍ أدرجت في ثوب دمائها، وحمامةٍ حمٍ عليها نزعُ دمائها، ومن كروانٍ فُجع بينهم فراخه، وإوزةٍ ودّت لو لجأت إلى الصائد ومكيد فخاخه، فلم يضرنا مع ذلك فقد المنتخب من الجوارح، وكان اليوم كيوم المحصب^(١) من كثرة الذبائح، وشهدتُ في خلال هذا المنتزه من لطائف اللذات ما يغلو على مستامه، ولا يجيله خاطر المنى في أوهامه، وإذا تذكّرت النفس أعاد آخر طعمه أوله، وقالت : ترى الدهر نام عنه أو أغفله، على أنه لا يستغرب موأاةً مثله لمثل هذا السلطان ، الذي الأيام له عبيدٌ ، ولا تمضي إلا ما يريد، ومن أكرم نعم الله عليّ أن أصبحت من خدمه معدوداً ، وعلى خدمته محسوداً فللهذه النعمة أن أمسكها إمساك الشكور، وأصاحبها مصاحبة الغيور، وقد كنت بالأمس أنذر لها ندوراً، وأنا الآن وافٍ بتلك النذور، والسلام.

ومنه قوله من كتابٍ كتبه في معنى كتابٍ فاضلي، كتبه إلى الظاهر يعزّيه بوالده؛ وكان جرى حديثُ هذا الكتاب في بعض المجالس فاستحسن، وطلب الجماعة الحاضرون أن يعارض بمثله، فأملى هذا الكتاب عليهم، وكان المتوفى قد مات وقت الصباح:

كتب المملوك كتابه هذا في ساعةٍ أفلت الشمس فيها عند الصباح، وذهبت بروح الدنيا التي ذهبت بذهابها كثيرٌ من الأرواح ، وتلك ساعةٌ ظلت بها

(١) يوم المحصب: يوم رمي الجمار بمنى.

الألبابُ حائرةٌ، وتمثلت فيها الأرض مائرةً، والجبال سائرةٌ، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصرَه، فهو أعظم فاقِدٍ لأعظم فقيدٍ، وليس أحدٌ من الناس إلا وقد أصم سمعه الخير، وأصيب في سواد القلب والبصر، وقال وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر، ولما غلبت على الدفاع عنه ألقىت بيدي إلقاء مكسور الجناح، واستنجدت الدموع والدموع من شرِّ السلاح، ونظرت إلى العساكر حوله ولا غناء لها عن كثرة السيوف والرماح، وقد ودعته وداع من لا مطمع له في إيباه، وحال الترب بيني وبينه فصار بعيداً مني على اقترابه، وبرغمي أن يمشي لي قلمٌ بعزائه، وأن أكاتب به أعزائه، وليس عندي صبرٌ حتى أحتُ على مثله، ولو كنت من رجاله لغلبنني الأسى بخيله ورجله، والذي يستنطقه المولى من رأي فإن هذه الرزية أخرسته عن الكلام، وتوفته مع مخدومه الذاهب فاستويا جميعاً في الحمام، ولكن في وصية عبد الملك لأولاده ما يغني عن الآراء واستنطاقها، وقد ضرب لهم مثلاً في الاجتماع والافتراق باجتماع القداح وافتراقها؛ والسلام.

ومنه قوله ما كتبه إلى الأفضل عليّ عند عوده إلى الديار المصرية المحروسة:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (١)

يقبل الأرض بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأفضل النوري، جعل الله الليالي والأيام من جنده، وأظهر آيته في اعتلاء أمره وتجديد جده، ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وعقد له لواء نصرٍ لا شركة للناس في عقده؛ ويهنئ مولانا بأثر نعم الله المؤذنة له باجتماعه، حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه، ولو أنصف لهذا الأرض منه بوائرها والأمة بكافلها، خصوصاً أرض

مصر لأنها قد حظيت بسكناه، وغدت في بحرين من فيض البحر وفيض يمناه،
فأصبحت تشمخ بأنفها، وتسمو بطرفها، وتجير من الأيام وصُدْفها، فكأنما
حيزت له الدنيا بحذافيرها، أو سيقت إليه الجنة بنضارتها وسرورها^(١) :
[الكامل]

مازلت تدنو وهي تعلو عزةً حتى توارى في ثراها الفرقد

وقد كان منتهى أمل الأولياء أن تعود الضالة إلى ربها، وتفك الطريدة
المغصوبة من يد غضبها، فأتى فضل الله بما لم يؤمله أمل الآمل، وعوض عن
القطرة الواحدة بسحاب هائل، وهذه نعمةٌ يضيق عنها مجال القول المعاد،
ويسرع بياضها في سواد الحساد؛ فلو غدت الجباه ساجدةً، والقلوب حامدةً،
والأيدي ترفع الدعاء بادئةً وعائدةً، لما وفى ذلك بحقها، ولا أخرج الأعناق من
عهدة رِقها؛ وأحسن ما فيها أنها زارت على غير ميعادٍ، وحثت ركابها من غير
سائقٍ ولا حادٍ، وتخطت وقد ضرب دونها بسورٍ من صدور الطبّا ورؤوس
الصعاد، فلم يكن لأحدٍ فيها منة سوى الله الذي قرب بعيد أسبابها، وفتح
مستغلق أبوابها، وأبرزها على حين غفلةٍ من حجابها، فيجب على مولانا أن
يخترنها بالإِنفاق، وأن يقيدها بالإِطلاق، وأن يقص أجنحتها لتظل طائفةً في
الآفاق؛ والمملوك في هذه الوصية كصيقلٍ نصل له من جوهره صقالٌ، وعاصِرٍ
سحابٍ له من نفسه انهمالٌ.

ومنه قوله في المجانيق :

ونصب المجانيق فأنشأت سحاباً يخشى محلها، ولا يرجى وبلها، فما
سيقت إلى بلدٍ حي إلا أماتته، ولم تأت إلا أتاها أمرُ الله إذ أتته، فلم تزل تقذف

(١) البيت للمتنبي، في ديوانه ١/ ٣٣٤.

السور بصوبها المدرار، وتنزل عليه جبلاً من برد غير أنها من أحجارٍ.

ومنه قوله في التوكل :

والطاف الله لا يعرفها إلا من عرف الله فوفاه حقه، ولم يكن ممن ضرب له مثلاً ونسي خلقه.

ومنه قوله :

وأفتى قومٌ بوقار المشيب بغير علمٍ فضلوا وأضلوا، وما أراه إلا محراثاً للعرم، ولم تدخل آلة الحرث دار قومٍ إلا ذلوا.

ومنه قوله في الحث على الصدقة :

إنما الصدقة لمن قمصه الفقر لباساً، فستر ذلك اللباس ، وكان لا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس، والنار تتقى بشق تمر، وما سد رمقاً لا يطلق عليه اسم قلةٍ ، وإن لم يكن موصوفاً بكثرةٍ.

ومنه قوله في عيادة مريضٍ:

ولما بلغ المملوك خبر شكاته، هيض منه ما ليس بمهيضٍ، وأصبح وهو الصحيح أشد شكوى من المولى وهو المريض، وقد ودَّ لو وقاه، وتلك أقصى درجات الوداد، ولم يق إلا نفسه بنفسه، وقد تجتمع النفسان في جسدٍ من الأجساد، ولقد ناجى المملوك نفسه: إن هذه الشكاة لا تلبث إلا تلبث الزائر عند المزور، وإنها لم تأت إلا لتظهر ما عند الناس من مودات الصدور ، فكم من أيدٍ بالدعاء ممدودة، ونذورٍ عند الله ليست بمعدودة، ولقد أخذ المملوك بالخبر النبوي، فجعل الصدقة طبيباً ، وتقال بأحاديث منامٍ لم يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً.

ومنه قوله :

وهم سيوف الله التي إذا جردت زالت الهام عن مناكبها، واستوى في القتل نفس مضروبها وضاربها، فما عليها جاهدت صابرة محتسبة ما كان من موارد هلكها، ولا ألم عندها للكلوم إذا جاءت يوم القيامة ، ولونها لون دمها وريحها ريح مسكها.

ومنه قوله في عدم قبول توبة باغ:

التوبة وإن جبت ماقبلها، فإنها معتبرة ممن ندم على ما فات ، وأخلص فيما هو آتٍ، وأما من يظهر أمراً ويبطن خلافه فإنه لا يلجُ بابها، ولا يرجو ثوابها.

ومنه قوله :

الفراصة تقرب عيونها، وتصدق ظنونها، والإنسان شر مكنونٌ ، يظهره الاختيار، ويخفيه الاختبار، وقد عولنا في ولاية فلانة على فلانٍ، وما أهلناه لها حتى توسمنا منه ما نتوسم من الصالحين، وعضدنا رأينا فيه برأيٍ من عندنا من الناصحين.

ومنه قوله :

فلانٌ يومه في الصحبة كغده، ولسانه في العفاف كيده، لا يحفر لأخيه قلبياً، ولا يكون على عوراته رقيباً.

ومنه قوله :

مواقيت الحمد مقسومةٌ على مواقيت النعم، ولكلٌ منهما قسمةٌ منه وإن تفاوتت في أقدار القسم، ولا نعمة أعظم من سعادة المثل بالديوان العزيز الذي يرغبُ إليه ويرهبُ، ويقرأ فضله في السماء ويكتب، ويحجب لمهابته عن

الآبصار ، ويداه عنها لا تحجب؛ والعبد يحمد الله على هذه النعمة حمداً لا يزال جديداً، وليس فوقها غايةً في الزيادة حتى يسأل مزيداً ، ولو أمن إنكار أمير المؤمنين لخرّ بهذا المقام ساجداً ، وهو يسجد له طائعاً كما يسجد لله عابداً :
[المتقارب]

طلبنا رضاهُ بترك الذي رضينا له فتركنا السُّجودا

ولو بصر مخدوم العبد بمكانه لحسده على مواضع رجله، ورأى العلياء وهي شراكٌ لنعله، وقال : ياليتني فزتُ بمثل هذا الحظ الذي ليس شيء كمثلته، وكيف لا يحسدُ وقد وقف بموقفٍ يقرب من الجنة ويباعد من النار، ويقمص الواقف به رداءً فخراً لا يخلق على تطاول الأعمار، ويعطيه أماناً من زمنه حتى يُصبح وله على الزمن الخيارُ، ولا جناح عليه أن ملكته مخيلة الإعجاب، وأن رأى السماء فوقه وهي منال يدٍ في الاقتراب، ولولا أنه بصدد أداء الرسالة التي يحملها لبسط من عنانه، وانتهى إلى غاية ميدانه .

الآن ينهي خدمة مخدومه الذي له في الأولياء نسب كريمٌ، وعرقٌ قديمٌ، يقول الاستحقاق : وأنا به زعيمٌ، ومن أحسن أوصافه أنه لا يمتُّ بما عنده من عقيدة في الطاعة ناصعة من الأكدار، راقية كل يومٍ إلى درجةٍ تحتاج في التي قبلها إلى الاستغفار، ولئن حصل بذلك على مرضي أمير المؤمنين فإنه لا يني فتوراً، ولكنه يأخذ بالقول النبوي فيقول : «ألا أكون عبداً شكوراً .

وله شعر ذكره ابن العطار^(١) ، منه قوله^(٢) : [الطويل]

(١) ابن العطار : أحمد بن محمود الشيباني، سنأتي ترجمته برقم ٢٢ من هذا الكتاب .

(٢) هما له في المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٤٠٦ .

— رواية الأول في الأصل : X وقلت . . . ١ .

والثاني : X كلمني . . . ١ . وفي المستفاد : X يكلمه عني ولم أتكلم

رضيت بما ترضى به لي محبةً
ومثلك من كان الفؤاد شفيعه
وقوله: [المنسرح]

لا طرق الداء من بصحبته
لا عجباً أن نقيكم حذراً
وقوله: [الطويل]

وساء لتموه بعدكم كيف حاله
فعن قلبه لا تسألوا فهو عندكم
وقوله (٢): [مجزوء الرجز]

ثلاثة تجلو الفـرح
ما ذبح الدنُّ بها
وقوله: [الطويل]

وأهيف تحكيه الغزاة مقلّة
أعار قضيب البان لين انعطافه
وقوله: [البسيط]

لولا الكرام وما سنّوه من كرمٍ
لم يدر قائلٌ شعريّ كيف يمتدحُ

وهذا البيت عكس قول أبي تمام (٣): [من الطويل]

(١) صدر الاول في الاصل: ... من نصحته X. وأصلحته اجتهدا.

(٢) عقود الجمان ٩/ ٦١ ووفيات الأعيان ٥/ ٣٩٦ والوافي بالوفيات ٢٧/ ٣٦.

(٣) ديوان أبي تمام ٣/ ١٨٣.

ولولا خللاً سَنَها الشَّعر مَادَرْتُ بغِصاةِ الندى من أين تُؤتَى المكارمُ

١٢- ومنهم: ابن زبادة ، قوام الدين ، أبو طالب ، يحيى بن سعيد بن هبة الله

ابن علي بن زبادة الشيباني^(١)

باني عللاً لا تفرع ذروتها، ورامي صفاً لا تفرع مروتها؛ أطل على السماء
والسماء، وأقل الانهمال في سُحْب المسرة والانهماك، وأنشأ البدائع وأنشأ
الوشائع، وقلد من صنائع الخلفاء أشرف الصنائع، وولي أجل الوظائف بحضرة
الخليفة، وكان بالديوان العزيز كاتب الإنشاء، وأستاذ الدار، وحاجب الباب ،
وبيده كثيرٌ من هذه الأسباب، ثم نقم عليه لأمرٍ ما جناه بيديه، فعُزل وبقي
معزولاً ، ثم تولى وماتَ سميناً وكان مهزولاً.

*ومن نشره قوله :

لا تُنالُ مناقبُ الفتوح إلا بمقانبِ الحتوف ؛ وخليقٌ بالأمير أنه ينجد ويمير،
والديوان العزيز منتظرٌ لأنجاهه، وتعليق سيف المضاء بنجاهه .

ومنه قوله :

وكم لك من تدبيرٍ غدت به سماء الخطوب مصحيةً ، وشموسها بيمن

(١) ترجمته في : ذيل الروضتين ١٤ والتكملة للمنزدي ٣١٥/١ والكامل في التاريخ ١٣٨/٢
وتلخيص مجمع الآداب ٤/٤/ ٨٧٠ (دمشق) و٥٦٣/٣ (طهران) ووفيات الأعيان ٦/٢٤٤
ومعجم الأدباء ٦/٢٨١٧ وسير أعلام النبلاء ٢١/٣٣٦ وتاريخ الإسلام ١٧٤ [وفيات ٥٩١-
٦٠٠] والمختصر المحتاج إليه ٣٨٩ والبداية والنهاية ١٦/٦٨١ وتوضيح المشتبه ٤/٣٣٦ وشذرات
الذهب ٦/٥٢٠.

قال ابن خلكان : وزبادة - بفتح الزاي - هو القطعة من الزباد الذي يتطيب النسوان به .

- مولده سنة ٥٢٢ هـ ، ووفاته سنة ٥٩٤ هـ .

سعيك مضحيةً، يتشعب الخلل إذا تفاقم وطرا، وتقرع أنف الحوادث إذا طم أو طغى؛ ولا مضيق إلا وبك انفراجه، ولا طريق للثناء إلا عليك انعراجيه، فقد تكلفت بمصالح الدولة حتى صرت لها أبا، وكفيت من المهم ما سلم لك الحاسد الفضيلة فيه شاء أم أبى، فلذلك نادى منك أمير المؤمنين يقظاً أجاب، ورفع بينه وبينك الحجاب، فانهض بما ناطه بك نهوض من لا يتعاضمه أمر وإن ثقل عبؤه ومحملة، واكفه المهم فيما تستقبله وتتقبله، وسارع إلى كل ما يرسمه لك وتمثله، واسحب على ثرى التفويض إليك أذيال الحل والعقد، واقدر قدر هذه النعمة التي أحلتك ذرى فلك المجد.

* ومن شعره قوله: [السريع]

من كانت البغضاء في طبعه لم يكف الإحسان عدوانه
فالماء تطفي النار طبعاً وإن أطال حرُّ النار إسْخانه

ومنه قوله: [الكامل]

مشمولةً جاء النديم بها كالنار يقدحها من القدح
نحيا من الهم المميت بها فتميتنا من شدة الفرح

ومنه قوله^(١): [الخفيف]

باضطراب الزمان يرتفع الآن نذالُ فيه حتى يعمّ البلاء
وكذا الماء ساكناً فإذا خُر ركَّ ثارت من قعره الأقداء

ومنه قوله^(٢): [البسيط]

إني لأعظم ما تلقوني جلدأ إذا توسطت هول الحادث النكد

(١) معجم الأدباء ٦/٢٨١٨ وابن خلكان ٦/٢٤٥ وابن كثير ١٦/٦٨٢ والشذرات ٦/٥٢٠.

(٢) ابن خلكان ٦/٢٤٥.

كذلك الشمس لا تزداد قوتها إلا إذا حصلت في زبرة الأسد
ومنه قوله^(١): [البسيط]

لا تغبطن وزيراً للملوك وإن أناله الدهر منهم فوق رتبته
واعلم بأن له يوماً تمور به الـ أرض الوقور كما مارت بهيبته
هارون وهو أخو موسى الشقيق له لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته

ومنه قوله مما كتب إلى المستنجد^(٢): [من البسيط]

يا ماجداً جلّ قدراً أن نُهنئَه لنا الهناء بظل منك ممدود
الدهر أنت فيوم العيد منك وما في العرف أنا نهني العيد بالعيد

١٣- ومنهم: شهاب الدين النسائي، أبو المؤيد، محمد بن أحمد بن علي بن
عثمان بن المؤيد الحرّ ندزي^(٣)

(١) ابن خلكان ٢٤٦/٦ وتاريخ الإسلام ١٧٤ سير أعلام النبلاء ٣٣٧/٢١ والشذرات ٥٢٠/٦.

(٢) ابن خلكان ٢٤٥/٦.

— عجز الأول في الأصل: X... بظل لك ممدود.

(٣) ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ١٨٢/٢ وتلخيص مجمع الآداب ١١٨٥/٢/٤ (الهامش) وصبح
الاعشى ٣٠٧/٤ ومقدمة محقق كتابه، الدكتور ضياء الدين موسى بونيادوف.

— نسبته في الأصل: الحررندري ١١. وخرنندز: قلعة من أعمال نسا في خراسان، ولد فيها (معجم
البلدان ٤١٥/٢) (طبعة وستنفلد) وهذه المادة ساقطة من طبعة دار صادر — بيروت)

— توفي بحلب سنة ٦٤٧هـ.

— قال ابن الوردي في أحداث سنة ٦٤٧: وفيها بحلب، توفي شهاب الدين محمد بن [أحمد] المنشئ
النسوي، صاحب تاريخ جلال الدين بن خوارزم شاه وكاتب إنشائه، اتصل بعد قتله بالمظفر غازي
صاحب ميافارقين وخدمه وناداه... ثم اتصل ببركة خان كبير الخوارزمية، فعرف له حقه
وموضعه من جلال الدين، وسلم إليه بلاده، فبسط العدل... توجه رسولاً إلى التتر مرات،
فعظموه على سائر الرسل لمكانه من جلال الدين، وحصلت له ثروة ضخمة، وتقدم عند الناصر
صاحب حلب حتى مات رحمه الله. وكان كثير المروءة، عذب الالفاظ، حليماً....

* كتب الإنشاء للدولة الخوارزمية، وكبت الأعداء بالصولة العجمية، وكان ذا فصاحة بَلَّغَتْهُ شغاف الأرب، وسوَّغَتْهُ نطاف الأدب كالضرب، وفرغته لاقتطاف بدائع العرب؛ وصنف سيرة سنيَّة^(١) تُسمع وقائع سيوفها المشرفية في الرقاب، وتبصر صنائع معروفها وقد مضت عليها الأحقاب، وفاءً بعهدده لتلك الدولة التي والاهَا وخدمها، وأولاهَا ما شَرَّفَ بغيره خدمها، فلم يدع مما يبهج حرفاً ولا يدعُ للسان الطيب اللهج عرفاً، بعبارة صاغها بلطافة، أعجب من الفريد، وأعجل في القلوب تأثيراً من لواحق الغيد.

* ومن نشره قوله من كتاب كتبه إلى الديوان العزيز مع رأس طغرل^(٢)، وصل بغداد في الرابع والعشرين من ربيع الأول، سنة تسعين وخمسمئة، افتتحه بقوله تعالى ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾^(٣) قال فيه:

وردت المراسم الشريفة بردع ذلك المارق الخائن، والمنافق الحائن، الذي استمرأ مرعى بغيه، واستعذب آجن غيِّه، وأدلج في ليل ضلالته، وخبط في عشواء جهالته، شارباً من آسن الطغيان نهلاً وعلاً، غير مراقب في الله ذمّة ولا إلأً، مستسهلاً للخطر الجسيم، مغترّاً بحلم الحليم غير مبال بانسلاخه من الدين، وخروجه عن زمرة المسلمين؛ نبذ أمر الله وراء ظهره، ولم يخش أليم عذابه، ولا راقب وبيل عقابه، فراسله الخادم داعياً له إلى الطريق اللاحب، ومشيراً عليه

(١) هي «سيرة جلال الدين منكوبرتي» لها عدة طبعات، آخرها وأجودها في موسكو ١٩٩٦م بتحقيق

د. ضياء الدين موسى بونبادوف

(٢) طغرل شاه بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، آخر ملوك السلاجقة في الشرق، خرج على الإمام الناصر خليفة بغداد، فسار إليه خوارزم شاه، فالتقى به في الري، فقتل طغرل وقطع رأسه وبُعث به إلى بغداد سنة ٥٩٠هـ. (الكامل في التاريخ ١٢/١٠٦ والوافي بالوفيات ١٦/٤٥٦)

(٣) سورة النمل: ٤٠.

باعتقاد الواجب، مهيباً به إلى طاعة الإمام، وعارضاً عليه تجديد الإسلام، أو الاستعداد للمصاف، والرجوع إلى حكم الأسياف، فخيره بين هذين الأمرين، وحكمه في أحد القسمين، وكلاهما عنده خطة خسف، ومورد حتف؛ فلما أبى إلا إصراراً على خطيئته، وإمراراً لحبل منيته ﴿١﴾ ومن يضل الله فما له من هادٍ ﴿٢﴾ (١) دلف إليه الخادم في كتيبة شهباء من جنود الإمام، مقنعة بالزرد المحبوك، محتفة بالملائكة، محفوفة بالملوك، يتألق حديدتها، وتندامر أسودها، وتئن كالجبل العظيم، والليل البهيم، ضاربة رواقات العجاج، ممتدة الأطناب في الفجاج، وكان ظللها ليلٌ ولهاذم الرماح نجومٌ، ودخان الأسنة نارٌ، والصوارم جحيمٌ؛ وكان رماحها آجالٌ إلا أن الممنايا في أوائلها، وحديدتها نارٌ إلا أن المنايا تجولُ في مناصلها؛ ولم تزل ترجف وفوقها جيش من النسور والعقبان، ويدأب بين أيديها جيش من السباع والذؤبان، وأرثها شخص المنون وهو عُريان، إلى أن وافى ذلك المخدول وقد جمع للقاء، واستعد في جيشٍ جمٍ تضيق بهم قذفُ البيداء، قد استلأموا للقتال، واستلموا كعبة الضلال، إلا أن الله صب عليهم الخذلان، لما تراءى الجمعان، وبرز الكفر إلى الإيمان، فتلا الخادم عليهم: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ (٢) ولم يكن إلا كنغبة خائفٍ أو لمعة خاطفٍ، حتى انجلت جندُ الله عنهم وهم كأعجاز نخلٍ خاوية، وأصولٍ ذاوية، لا يعرف لهم قتيلٌ من دبيرٍ، ولا يفرق بين مأمورٍ وأميرٍ، وأنفذ الله حكمه في الطاغية، وعجل بروحه إلى الهاوية، وملك الخادم بلادهم، وحاز طريفهم وتلاذهم، ونساءهم وأولادهم، وبادر بإنفاذ رسولٍ مبشراً، وأنفذ معه رأسه وطبله وعلمه،

(١) سورة الرعد: ٣٣ وسورة الزمر: ٢٣.

(٢) سورة التوبة: ١٤-١٥.

ليعلم أن قد كسر وطل دمه، والخادم ينهي أن وراءه بلاداً شاسعةً، ومدناً واسعةً، وهو بعيد الأيام، ولا يمكنه طول المقام.

قلت: وسلك هذا النسائي مع سلطانه مهمهاً يعزف الجن في بیدائه، وتضيق
الريح في أرجائه، في يومٍ تتلحم أفاعيه في رمضائه، وتسجن وحشه في
فضائه، يذوب به حصا الآكام، ويلفح الوجوه أشواظ الضرام، وقد صرَّ الجندبُ،
وصكَّ وجه الغدير الطحلب، وصح أن الصدى قد قام يبلغ والخرباء تخطب، ولا
ورد إلا راكد الشراب، أو مورد كانه هجر الأحباب، كأنما صب على وجهه الزيت
الذائب، أو ذرَّ الكبريت للشارب، لا يهنأ برده، ولا يسوغ ورده، فقال له
سلطانه: صف ما نحن فيه، فقال على البديهة: [الرجز]

قذفت بالعُبس وجه المهمه	رمى من مشبهها بمشبه
والشمس قد أذكت ضرام نارها	لكنه في موقد من أوجه
والقفر خاف لا يبين طرفه	واضحها للعين كالمشبه
وجندب الأرض بها مبلغ	وخاطبُ الخرباء كالمبتده
والورد لو يشربُ عصفور به	على فسيح غدره لم يروه
مقتّرٌ مقدّرٌ مكدرٌ	تقصر عنه صفة المشبه

فاستحسن أبياته، وأجازه عليها بلداً بعمله.

وسايره وقد لمع برق فائلق، كانه غرة في أدهم أو أبلق، أو سلاسل من ذهب
وما لها حلق، لا يني غمامه ينهمر انهماراً، ويلد إثر القطار قطاراً، وهو يجلو
الظلماء بضوء جبينه الشرق، ويمتد من أرجائه ذهب ثم يتحدر من حافته ورق؛
فأمره أن يقول فيه، فقال: [الرجز]

أنعت برقاً في الدجى يأتلق	كأنه في جلدتيه بلق
---------------------------	--------------------

يجلو الدجى له صباحُ شرقُ يرفضُ منه وإبلُ مغدودقُ
كأنه جُودُ المليكِ المغدقُ أو أنه من كفه متدققُ
طوراً بدى حمأً وطوراً علق

* ومن شعره قوله: [المتقارب]

وإني لفي قيد هذا الزمانِ لكالدُّرِّ إذ باتَ حشوَ الصدفِ
وإني على الرغم من حُسْدي لأسلافي الصُّيد نعم الخلفِ
فإن كان أنكر قدري الزمانُ فداهرةٌ صدرت عن خرفِ
فعن أمّ تنجلي عَمّتي كبدر الدجى بعدما قد خُسِفِ
وتأتي المقاديرُ منقادةً تقولُ: عفا الله عما سلفِ

١٤- ومنهم : ابن أبي الحديد ، عز الدين ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد الحسين بن أبي الحديد ، المدائني ، أبو حامد^(١).

* كتب في ديوان الخلافة، وكبت من برع في المقال خلافه، وكان ذا لسن وبراعة، ورسنٍ ممتدٍ في البراعة؛ وكان من غلاة الشيعة، وولاة مقالات الرضى الشنيعة؛ رأس في الاعتزال، وكيس جدلٍ يتفقاً سمناً بالهزال، على أنه كان

(١) ترجمته في: عقود الجمان ٤/ ٢١٤ ووفيات الأعيان ٥/ ٣٩٢ وذيل مرآة الزمان ١/ ٦٢ وفوات الوفيات ٢/ ٢٥٩ وتاريخ الإسلام ٢٠٢ [وفيات ٦٥١-٦٦٠] والوافي بالوفيات ١٨/ ٧٦ والبداية والنهاية ١٧/ ٣٥٤ والمنهل الصافي ٧/ ١٤٩ والدليل الشافي ١/ ٣٩٥ وعقد الجمان ١/ ١٦٤.
- مولده سنة ٥٨٦هـ، ووفاته سنة ٦٥٥هـ.

كنيته عند ابن الشعار : أبو محمد .

- في الأصل : ابن أبي الحديد، موفق الدين(؟) أبو القاسم (؟) بن هبة الله.....

قلت : موفق الدين : هو لقب أخيه القاسم، الآتي ذكره بعد قليل؛ وأبو القاسم : صوابه القاسم، وهو اسم أخيه موفق الدين ١ . وهذا خلطٌ من المؤلف رحمه الله؛ وقد مضى مثله في بداية ترجمة ابن الأثير؛ وسيأتي في ترجمة أخيه ماهو أشد من هذا!!!

يظهر التمهذب للشافعي، وكان أصوليا لا يحبسُ لسانه بالعي، مع أنه كان بالبيان يسحر، وبالجمان يسخر.

وهو الذي عاب على ابن الأثير الجزري في «المثل السائر» ووضع عليه «الفلك الدائر» كما قدمناه في ترجمة المذكور، وما قصر في المناقشة، ولا عذر في المعالجة له والمباطشة.

*ومن نشره قوله :

وبعد ، فقد عُرض بالديوان العزيز كتابك أيها الزعيم، وخطابك وأمير المؤمنين عليم، وشرحت ولاءك وذلك حبلك الوثيق، وكذلك إخلاصك القديم، وانتماؤك إلى الباب الأشرف، وهذه عقيدة أخذتها عن سلفك ﴿وما يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(١) نعم، ولا يلقتها إلا ذو فعلٍ كريمٍ، من ذي سلفٍ كريمٍ ؛ وبرز الأمر الأشرف عن الديوان العزيز بتلقي وارك بالكرامة التي عَدَّيتَ بها رتبة كل نظير، وأصبحت وعلى رأسك شربوشٌ وتاجٌ ، وأنت صاحبٌ تختٍ وسرير، وستجاب من ديوان الوزارة المشرفة مفصلاً عن فصول كتابك، وحَسْبُكَ حَسْبُكَ شرفاً تتشرف به من الديوان العزيز، إذ كان هذا من خطابك.

ومنه قوله :

وانتهى أمر الجزري إلى أنه قلع قلع الجزر، وما أغناه ماتكهن أو حزر، وهذا معجل كل مائق، وله مؤجل يأتيه يوم تقوم الخلائق.

ومن نشره قوله في تقليد قاضٍ :

وأرفع المناصب وأعلاها، منصب الحكم العزيز، الذي يجتبي الشرع في

(١) سورة فصلت : ٣٥.

ندبه، ويجتني السمع ثمرات كل شيءٍ من جنبه، ويعرف به الحلال والحرام، ويتصرف في أوامر ذي الجلال والإكرام، وإن أحق من أُلقي زمام أحكامه إليه، من تفرد بما لديه، وفاز بسهم معلّى من العلوم، وأخذ من فُنونها بنصيب معلوم، دأب نفسه في تحصيل نفائسها، واجتلاء غرائسها؛ فكم من أحاديث نبويةٍ يعرف السقيم فيها من الصحيح، والعدل من رجالها من الجريح، وعلم الرواية على تشعبها، والأسانيد وطرقها، في حالتها تسهلها وتصعبها؛ وكم تفاسير كشف حقائقها، ومشكلات تأويل أظهر تحسين إيضاحه طرائقها، وكم فروع مسائل أصلها، وأصول فقه حواها وحصلها.

وكنت أيها القاضي فلان، لك فخر بعلم علمها لا يباهى، وورع لا تُثأل فيه ولا تُضاهى، وإفادّة ينصب الطلبة لاستفادتها، وتشره الأسماع لحسن إيرادها واستعادتها؛ فلذلك أعهد عليك في القضاء بمدينة كذا، وألق من علومك ما يلاقي من أجله ذوو الطلبة للاستفادة، واعلم أنك حصلت على السعادة الدنيوية، فاعمل على الآخروية، فإنها أعلى السعادة، واجر على عادتك [في] التحرز في الأحكام، وامض على سننك في الاحتياط في كل نقض وإبرام، وأرع يراعك كل ما يفتقر أن يُرعى، وكل ما يجب أن يمعن فيه النظر عقلاً وشرعاً؛ ثم والعدول فلتعتبر أحوالهم، وألزمهم بكل ماهو أجمع وأحوى لهم، فبهم تؤخذ الحقوق وتقام الحدود، وهم أمناء الله في أرضه، حيث هم على خلقه شهود، ومن وصايا العلم في تحقيق مسائل الخلاف لك عناية، فها عادة لا تقطع، وعدة لا تستدفع، وهي للمكمل الأدوات، المبرز بجميل الصفات، تذكرة تبدؤك نصائحها، وتتضح لديك مصالحها، فخذها نصب عينيك وتجاه أمرك، وأدم إحضارها في قضاياك ومرورها على فكرك .

* ومن شعره قوله: [الكامل]

بالله ضع قدميك فوق محاجري
وأطل مُعَاتِبَتِي فَإِنْ مَسَامِعِي
لا عَانَقَتِكَ مِنَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
كَلَا وَلَا رَشَفْتَ رِضَابَكَ بَعْدَمَا
فلقد قنعت من الوصال بذاكا
تهوى حديثك مثل ما أهواكا
إلا يدي اليمنى وبَندُ قِباكا
قد ذقتَه إلا التي تهواكا

ومنه قوله في ملبح جعل عارض الجيش، وخلع عليه خلعة خضراء^(١): [مخلع

البسيط]

وأهيف كالقضيبي قدأ
قبلته باعتبار معني
في خضر أثوابه يمد
لأنه عارضٌ جديدٌ

*واتفق له سرى ليلة برقها قد سرى، موهناً كوجيب الفؤاد، وموهماً بأن
طرفه لم يكتحل برقاد، كأنه فرسٌ معارٌ أشقر، أو نارٌ تشب ضربةً وما خفي منه
أكثر، والرباب دون السحاب كخليع من الفتیان يسحب مئزرأ، وأم رؤوم على
الأرض تدهن لم الثرى، فقال: [الطويل]

أسري وومض البرق يخفق قلبه
ويوهمني أن ليس يكحل عينه
ودون الغواصي للرباب جلاجل
تزرور بمبتل الحيا هامد الثرى
ويذكي له في الليل قدح زناد
رقاد، بلى قد كحلت برقاد
تزرور وهادأ من علي نجماد
وترشف ثغر النور ريق غواد

ثم لما أبهم عليه الأمر وأشكل، ولم ينخ راحلته فيعقلها ويتوكل، وقد سرى
في ليلٍ يخفي ظلامه قصد السبيل، ويملاً هوْلُهُ صدر الدليل، ويفترس غوله
خلب الغرير فكيف الدليل، تملل وتضجر، وقال لم يتصبر: [السريع]

(١) هما لآخيه القاسم في المنهل الصافي ٢٥٣/٢ والوافي ٢٢٦/٨ والفوات ١٥٤/١.

مالي وللليل وظلمائه ومهمه يحار فيه الدليلُ
 كأنني في لجة غارقٌ يا قوم قولوا لي كيف السبيل؟
 ومن شعره أيضاً مما أنشدنيهِ شيخنا أبو الثناء الحلبي^(١)، قوله: [البسيط]

أفدى الذي زارني والخوف يقلقه يمشي ويكمن في العطفات والطرق
 قبلت أطراف كفيه على ثقة بالأمن منه وخديه على فرق
 فكان في أخريات السكر مضطرباً إذا أراد انتظام اللفظ لم يطق
 لله ما أحسن الصهباء منعمةً علي إذ علمته طيبة الخلق
 أهدت إليه سروراً نلت معظمه كالفعل ينصب مفعولين في نسق
 وقوله: [الكامل]

أعدى البياض إلى مجاوره ماذاك إلا أنه مرضُ
 هلا نيسر للسواد كذا وكلاهما في حكمنا عرضُ
 وقوله: [الكامل]

يامن يدلس بالخضاب مشيبه إن المدلس لا يزال مريباً
 هب ياسمين الشعر عاد بنفسجاً أيعود عرجون القوام قضيباً
 وقوله على الجادة في تفضيل السيف على القلم: [الطويل]

وماتدرك الأقلام شأو مهندٍ يضيء إذا ما قام بين الكواكب
 وأنتى لها وهي التي في طروسها تخر على الأذقان سود الذوائب
 وكم بين من يبكي إذا ما انتدبتة لأمرٍ وبين الضاحك المتلاعب

(١) هو شهاب الدين، أبو الثناء، محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق،

توفي سنة ٧٢٥هـ. (الدليل الشافي ٧٢٤/٢). وستأتي ترجمته في هذا الكتاب برقم ٢٤.

وقوله في عكسه على طريقة ابن الرومي في المغيرة: [الطويل]

وما تطرق الأقلام في الطرس ذلةً ولكنها حيات رمل قواتلُ
ومن أين يلقي السيف بعض فعالها وآثارها من غير جرح عوامل
إذا كان بين المرء والسيف حائل فليس عن الأقلام والمرء حائل

وقوله مما كتب به إلى بعض أصحابه وقد فصد: [البسيط]

يدٌ تسيل المعاني بين أسطرها ما عودت غر مس الطرس والكاس
تجري دماء الأعادي وهي سالمةٌ أنى جرى دمها من مبضع الآسي
سهلت يا وارث العليا المقام له أم كان فاصدها من أشجع الناس
كأنما شق منها رأس مبضعه بحرأ من الجود أو طوداً من الباس

وإذ ذكرناه فلننبه على ذكر أخيه:

١٥ - موفق الدين ، القاسم بن هبة الله ، أبي المعالي (١)

* وكان باقعةً في الاعتزال (٢)، ومعقلاً للاختزال، ودويهيّةً تصفرُّ منها

(١) ترجمته في: عقود الجمان ٦٠١/٥ ووفيات الأعيان ٣٩٢/٥ والحوادث ٣٦٥ وذيل مرآة الزمان ١٠٤/١ وتاريخ الإسلام ٢٧٩ [وفيات ٦٥١-٦٦٠] وسير أعلام النبلاء ٢٣/٢٧٤ و٣٧٢ وفوات الوفيات ١/١٥٤ والوفائي بالوفيات ٨/٢٢٥ و٢٤/١٧٠ والدليل الشافي ١/٩٤ والمنهل الصافي ٢/٢٥٣ وشذرات الذهب ٧/٤٨٥.

- ترجم له اليونيني وابن تغري بردي والصفدي وابن شاکر باسم: أحمد بن هبة الله...

وقال الذهبي في السير: ويقال له: أحمد

- مولده ٥٩٠هـ، ووفاته ٦٥٦هـ.

- قال الذهبي: مات قبل أخيه العز، فراه العز بأبيات... وقد مضى أن وفاة العز سنة ٦٥٥هـ.

- اسمه في الأصل: القاسم، أبو (؟) المعالي، عز الدين (؟)، أبي حامد (؟)، عبد الحميد (؟) ١١.

(٢) قال الإمام الذهبي في السير ٢٣/٢٧٥، والموفق أحسنهما عقيدةً، فإن العز معتزلي، أجازنا الله.

قلت: العجب من المؤلف رحمه الله. كيف وقع في هذا التخليط العجيب!!

الأنامل^(١)، وتزور مقل السيوف والعوامل.

وقفت من نشره على قوله:

ولي بيان في وصف مجده لا يكلُّ، ولسان في ذكر مناقبه لا يذل، وسهمي
لا يخطئ غرضه، وفعل لا يردي إلا معترضه، إلا أنني لو واصلت الأمداد،
وزاحمت الأطواد، وأرسلت السحب، وراست الشهب، لما وفيت حقه المتعين،
ولا قلت إلا الحق البين.

ومن شعره قوله^(٢): [البسيط]

يُصِحُّني حُبُّه [طوراً] وينكسني فكم أصح من البلوى وانتكسُ

وقوله^(٣): [الكامل]

يا هاجري لما رأي شغفي به ما كان حق متيم أن يهجرا
إن الذي خلق الغرام هو الذي خلق السلو فلا يغرك ما ترى

وقوله^(٤): [البسيط]

أبدت من الشعر في تشبيه وجنتها لما أحاط بها سطر من الشعر
كالظل في النور أو كالشمس عارضها خط من الغيم أو كالحو في القمر

(١) من قول لبيد بن ربيعة: [ديوانه ٢٥٦].

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهة تصفر منها الأنامل

(٢) ذيل مرآة الزمان ١٠٩/١ وعقود الجمان ٦٠٥/٥.

(٣) عقود الجمان ٦٠٨/٥ وذيل مرآة الزمان ١١٠/١.

(٤) عقود الجمان ٦٠٨/٥ وذيل مرآة الزمان ١٠٨/١ والوافي بالوفيات ٢٢٦/٨ وفوات الوفيات

١٠٤/١. ورواية الأول فيها جميعاً: بيت من الشعر X...

وقوله فيما أنشدنيه شيخنا أبو الحسن الكندي^{(١)(٢)}: [الخفيف]

قد بدا ما تسرفيما تقول	إنما أنت عاشقٌ لا عذولُ
رابني منك في ملامك تكثي	رُ لصبري ببعضه قليل
وحديثٌ ملجلج فيه للقلد	ب على السَّـرَّـيَّةِ ودليل
يا رعى الله شادناً أمست الأضـ	مداد فيه للحين وهي شكولُ
قسم البدر بيننا فله النور	ر وعندي محاقه والذبولُ
إنما أنت مهجتي واتخاذي	بدلاً عن حشاشتي مستحيلُ

ومنها :

ثروتي فوق همتي ومرامي فوق طولي وساعدي مغلول^(٣)
وقد رواها شيخنا أبو الثناء الحلبي لأخيه الموفق^(٤)، وكلاهما ثبتٌ، ولعل
الكندي أدرى بطرق الرواية.

١٦- ومنهم : ابن بصاقه، فخر القضاة، أبو الفتح ، نصر الله بن هبة الله بن
عبد الباقي بن الحسين بن يحيى الغفاري، الكناني^(٥).

(١) هو علاء الدين، أبو الحسن ، علي بن مظفر بن إبراهيم، الكندي الوداعي؛ كان إماماً بليغاً شاعراً
مجيداً، توفي سنة ٧١٠ هـ. (الدليل الشافي ١/ ٤٨٥)

(٢) الأبيات لأخيه عز الدين في عقود الجمان ٣/ ٢٥٢..

(٣) كذا في الاصل، وفي العقود : ثروتي ودون همتي... X. وهو الصواب.

(٤) كذا ١ والصواب : لأخيه العز.

(٥) ترجمته في : عقود الجمان ٩/ ٩٧ والطالع السعيد ٦٧٦ وتاريخ الإسلام ٤٥٦ [وفيات ٦٤١ -
٦٥٠] والوافي بالوفيات ٢٧/ ٤١ وفوات الوفيات ٤/ ١٨٧ والبداية والنهاية ١٧/ ٣١٩ والنجوم
الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ٢٩٩ والجواهر المضية ٣/ ٥٥٤ وعقد الجمان ١/ ٧٥ وحسن
المحاضرة ١/ ٤٩٠ وشذرات الذهب ٧/ ٤٣٥.

- مولده سنة ٥٧٩ هـ، ووفاته سنة ٦٥٠ هـ.

كتب للناصر داود بن عيسى^(١)، ووزر وجلس معه في صدر الإيوان والطرده، ونشأ وتأدب بالشام، وأومضت له بارقة كانت تشام، ثم صرف عن وزارة الناصر عنانه، ونفض منها بنانه، لأمر نقمها، وشروخ خاف نقمها، وكان يحذر سوء خلائق مالكة، وتوعد طرائق مسالكه، فطالما أظلم جوّه، وأعتم دوه، فتسلل منه بمخيلة ذبت في السراء، ودلت على الضراء، فخاف مساورة ذلك الأرقم، وترك مساقاة الشهد به خوفاً من العلقم، وكان طود حجاباً وحجاج، وطوق جيداً وحجاج، زينة إلى فصاحة شب على إرضاعها، وسماحة تولى حفظ مضاعها، وبلاغة كانت حلية لنظامه، وحلة لإحلاله في الصدور وإعظامه؛ ووزر جدي رحمه الله بعده، ثم عاف تلك الدولة ففارقها في ليلة قمراء مسودة، لأمر ما هذا ميقات شرحها، ولا مرقاة صرحها؛ فأما ما لابن بصاقة:

﴿فمن نشره قوله :

وأما الأبيات الجيمية، الجمّة المعاني، المحكمة المباني، المعوذة بالسبع المثاني، فإنها والله حسنة النظام، بعيدة المرام، مقدمة على شعر من تقدمها في الجاهلية وعاصرها في الإسلام، قد أخذت بمجامع القلوب في الإبداع، واستولت على المحاسن فهي نزهة الأبصار والأسماع، ولعبت بالعقول لعب الشمول، إلا أن تلك خرقاء وهذه صنائع، فإذا اعتبرت ألفاظها كانت درأ منظوماً، وإذا اختبرت معانيها كانت رحيقاً مختوماً، جلّت بعلوها عن المغاني المطروقة، والمعاني المسروقة، ودلت بعلوها على أنها من نظم الملوك لا السوق، فلو وجدها ابن المعتز

(١) الملك الناصر، صلاح الدين، داود بن عيسى بن محمد بن أيوب، ولي السلطنة في دمشق بعد والده، ثم انتزعها منه عمه الكامل، فسار إلى الكرك وأعمالها؛ كان حنفي المذهب، عالماً فاضلاً، مناظراً، ذكياً، توفي سنة ٦٥٦هـ. (الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٨٠ وشفاء القلوب ٣٤٦).

لأجرى زورقه الفضة في نهرها، وألقى حمولته العنبر في بحرها^(١)، وألقى تشبيهاته^(٢) بأسرها في أسرها، ولو لقيها ابن حمدان لاغتم فرمى قوس الغمام، وانبرى زي السهام، وتغطى من أذيال الغلائل المصبغة بذيل الظلام^(٣)، ولو سمعها امرؤ القيس لعلم أن فكرته قاصرة، وكترته خاسرة، وأيقن أن وحوشه غير مكسورة، وعقبانه غير كاسرة؛ فأين الجزع الذي لم يشق من الدر الذي قد يُنظم ويهذب^(٤)؟ وأين ذلك الحشف البالي من هذا الشرف العالي؟ فالله يكفي الخاطر الذي سمح بها عين الكمال الشحيحة، وتشفي القلوب العليلة بأدوية هذه الأنفاس الصحيحة.

وأما الأبيات فهي هذه^(٥): [الكامل]

بمدامه صفراء ذات تأجج	يا ليلة قطعت عمر ظلامها
عن روضه المتضوع المتأرج	بالساحل الباقي روائح نشره
من بعد طول تقلق وتموج	واليم زاه قد هذا تياره

(١) يشير إلى قول ابن المعتز في وصف الهلال: [ديوانه ١٨٥/٢]

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

(٢) انظر عن تشبيهات ابن المعتز، ثمار القلوب ١/٣٦٨.

(٣) يشير إلى أبيات سيف الدولة الحمداني: [وتنسب إلى ابن الرومي في ديوانه ١٤١٩/٤ وإلى

غيره]

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا على الجو دكنا والحواشي على الأرض

تطرزها قوس السحاب بأحمر على أصفر في أخضر إثر مبيض

كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة، والبعض أقصر من بعض

[انظر تخريجها في ثمار القلوب ١/٧٨]

(٤) يشير إلى قول امرئ القيس: [ديوانه ٥٣]

كان عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يشق

(٥) الأبيات في ذيل مرآة الزمان ١/١٥٩ والوافي بالوفيات ١٣/٤٨٨.

طوراً يدغدغه الشمال وتارةً يكرى فتوقظه بنات الخزرج^(١)
والبدرُ قد ألقى سنا أنواره في لجه المتجعّد المتديج
فكانه إذ قدّ صفحة مئنه بشُعاعه المتوقّد المتوهج
نهرٌ تكون من نضارٍ مائع يجري على أرضٍ من الفيزوزج

قالها الملك الناصر داود ، وبعث بها إليه يعرضها عليه ؛ وهي أبياتٌ يحق لها أن توصف بجودتها وشرف قائلها ، وإن لم تحل الذروة ، ولا أوشكت ؛ ثم نعود إلى تنمة ما نذكره :

فمن قوله :

يقبل الأرض ، وينهي أنه فارق مالك رقه مراراً ، وما وجد لفراقه من الألم ما وجده هذه المرة ، وبعد عن جالب رزقه ، فانضّر ولا مثل هذه المضرة ، حتى لقد توهم أنها فرقة الأبد ، وداخله من الأسف ما لم يبق معه صبرٌ ولا جلدٌ ، وكلما شرع في الصبر أبى الذكر أن يحدث له صبراً ، وكلما سهل عليه الأمر لم يزدّه تسهيله إلا عسراً ؛ والله تعالى يسهلُ من اللقاء كل صعبٍ عسيرٍ ، ويجمع شمل المملوك بمالكة وهو على جمعهم إذا يشاء قديرٌ .

ومنه قوله :

المملوك يشافه أرض مالكة بقبول خضوعه ، ويبل ترابها بوابل دموعه ، ويستقل فيضها ولو أنه من سيل نجيعه ، لما ناله من الحادث المؤلم الملم ، والخطب المظلم المدلهم ، بانتقال الولد العزيز ، الملك العزيز ؛ فلقد ورد المملوك من الكتاب الوارد بنعيه مشرعاً كدر الموارد ، عسر المصادر^(٢) ، وحضر منه مجمعاً كثير

(١) في الأصل : X ... فوطه

(٢) في الأصل : المصدر !

البوادي والخواضر، فياله ناعياً أصم الأسماع وأصماها، وأقذى العيون بل أعماها، وجرح القلوب فأدماها، وما أهمل سحب الجفون لكن أهملها وأهمها، وتباً له من نغيص نغص الدنيا على أربابها، وإن كانت معشوقةً محبوبةً، وكره الحياة عند أصحابها مع أنها شهيةً مطلوبةً، وكان الأولى بالملوك أن يصرف عن ذكر الحادثة صفحاً، ولا ينكأ بتجديده بالقرح قرحاً، ولا يقصد لباب الجزع بعد انغلاقه فتحاً، ولا يطلع التعزية ليلاً وقد طلعت التسلية صباحاً.

ومنه قوله :

وينهي ورود المثال الكريم، فوقف منه على اللفظ البليغ والمعنى البديع، وعلم عند تدبره أنه ﴿فوق كل ذي علم عليم﴾^(١)، ﴿وأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾^(٢) وتصور أن كاتبه قد جاوز البحر فأتخفه بجواهره، بل جاور الملك فأسعفه بعساكره؛ وصدق تصويره كون ألفاظه جواهر وكنانة كتائب، وعجبت لخروج الدر من العذب حتى تذكرت أن عادة البحر العجائب؛ وأما ما أمر به من النيابة عنه في خدمة مولانا الوزير، فقد ناب عنها لكن مناب تراب التيمم عن الماء الطهور، وأنهى مشافهاته، وأدى من جملها في الساعة الواحدة مالا يفصل في عدة من الشهور؛ وأما أحوال الملوك، فإنه من صدقات الديوان ما يعدم سوى النظر إلى طلعة مولانا التي هي عديمة النظير، ولا يشتهي غير الفوز بخدمته، وذلك هو الفوز الكبير؛ وكل هذا برفع محل مولانا لمحلي، ولأجله لا لأجلي: [الطويل]

أضم قضيب البان من أجل قدها والثم ثغر الكاس أحسبه فاها

(١) سورة يوسف : ٧٦.

(٢) سورة الحديد : ٢٩.

إلا أن المملوك قد أطلال الإقامة في دار المقامة، ونال الكرامة حتى يكاد يسأم الكرامة، وله أسوةٌ بالقائل وقد طالت حياته: سئمت تكاليف الحياة^(١)؛ وإذا أغرقت المياه وإن كانت عذبةً شكيت المياه.

ومنه قوله :

وينهي ورود المثال الكريم ، بالنبأ العظيم الذي أصمى القلوب، وأصم المسامع، وأوقف الخواطر، وأجرى المدامع، وضيق على النفوس مجرى الصبر الواسع ، وفزعت الآمال فيه إلى الكذب ، فما أجدى جزع الجازع من نعي الإمام الطاهر النقي، العلم الزاهر الزكي، خليفة الله المستنصر بالله، بوأه الله جنان عدنه، وأسكنه غرفات أمنه، وانتقاله عن الغمة الضيقة إلى الرحمة الواسعة، ومصيره من الدار المفرقة إلى الدار الجامعة؛ فأظلم بها الأفق لكسوف شمس الضياء، ودجا ليل الجو لحسوف قمر العلواء، وضحيّت وجوه المكارم لتقلص تلك الأفياء، وكادت تنفطر لفقده السماء ذات البروج بقضاء نحبها، وبكته بدموع قطرها من جفون سحبها ، حتى خدت خدود المروج، وشقت للأرض جيوب تربها فالبسها حداداً من بياض الثلوج، فياله خطباً عم الوجود بأسره بأسره، وحص جناح الإيمان بحصه بل بكسره، وعرف كل عارفٍ بفضاعة نكره ، وقضى لكل قلب بتجمع همه وتقسم فكره، وأعاد الإسلام غريباً كما بدأ أول عُمره؛ لكن أقرن به الخبر الذي سر السرائر وجلّى الدياجر، وثبت القلوب بعد أن بلغت الحناجر ، بولاية مولانا الإمام المحتوم الطاعة، خليفة الله في أرضه، والقائم بسنة الإيمان وفرضه، أمير المؤمنين المستعصم بالله ابن خليفته ووليه، وابن عم رسوله ونبيه، فأجلت بوائق الحادث الجلل، وقضت بانقباض الوجلل، وانبساط الأجل ،

(١) صدر بيت لزهير، تمامه : [ديوانه ٢٩]

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

وحصل العطف والتوكيد بهذا النعت وهذا البدل، فالحمد لله الذي تدارك بالجبر كسر الإسلام، وحسم بالبرء مواد الآلام، وأزال باليقين عوارض الأوهام، وعاجل بالرتق فتق الأيام؛ فيالها دعوة أجاب داعيها كل مبصر وسامع، وأمن عليها كل ساجد وراكع، وتليت آياتها في كل مصر جامع، وتلقى العبد هذه النعمة بالشكر الذي استغرق غاية جهده ونهاية وسعه، وأكثر الحمد لله على ما أولى من جزيل منه وجميل صنعه، وسارع إلى تلقي المثل الكريم باتباعه وامثاله، وأخذ البيعة على نفسه وشيعته ورعيته، وأعلن بالدعاء لإمامه، على منابر بلاده، التي هي من إنعامه، ولولا أنه في مقابلة عدو الدين لما قنع في تأدية فرض العين بسنة النيابة، وكان يسعى إلى الباب الكريم بعزيمة وارية غير وانية، ويشفع هجرته الأولى إلى الحرم الشريف بهجرة ثانية.

ومنه قوله في توقيع لقاضي القضاة محيي الدين أبي الفضل يحيى بن الزكي العثماني^(١):

ونحا سيرة أجداده فما عدل عنها ولا حاد، وفضل بالفضائل فما عد غيره في الجم الغفير إلا كان معدوداً في الأفراد والآحاد، فإذا تولى أمراً بلغ فيه أقصى الأمل والإرادة، وإذا باشر مهما استقصى الغرض فلم يبق موضعاً للزيادة؛ فرأينا أن ننوله من رتب السعادة ما رأيناه له أهلاً، وأن نؤتيه منا فضلاً، وأن ننصبه بين أهل بلده حاكماً، وننضيه لحسم مواد الخصامات صارماً، ونحمله من أعباء المناصب ما يكون بحقوقه قائماً، ويرتضى منه لتدبير عوالي المراتب طبا خبيراً، وإماماً عالماً.

(١) محيي الدين، أبو الفضل، يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى، ينتهي نسبه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ناب في القضاء بدمشق وولي التدريس في بعض مدارسها، وحدث بدمشق ومصر، توفي سنة ٦٦٨هـ (نزهة الخاطر ١/ ٣٠٦ والبداية والنهاية ١٧/ ٤٨٩).

ومن قوله في خطبة صداق المراجعة :

﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾^(١)
الحمد لله جامع الشمل بعد الشتات، وواصل الحبل بعد البتات، ومحبي الأرض
بعد الممات، ومنزل الماء الفجاج من المعصرات لإخراج الحب والنبات، والعالم بما
كان وما يكون وما مضى وما هو آتٍ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك
له، شهادة تُضاعفُ الحسنات، وتمحو السيئات؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
المبعوث بالآيات البينات، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وأزواجه الطاهرات ،
صلاةً باقيةً بعد نفاد الأزمنة وفناء الأوقات؛ وبعد :

فالنكاح من السنن التي أمر الله بها، وندب إليها، ورغب رسوله صلى الله
عليه وسلم فيها، وحض عليها، فقال تعالى في كتابه العزيز المنزل على أفضل
أنبيائه ورسله، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله:
﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم
الله من فضله﴾^(٢). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المخصوص
بالشفاعة والكرامة^(٣): « تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة » وقد جعل
الله تعالى للزوجين أن يتواصلا وأن يتقاطعا، وأن يتباينا وأن يتخالعا، ورخص
لهما في المراجعة بقوله تعالى: ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾^(٤) وكان من
قضاء الله السابق علمه، وقدره المارق سهمه، ما ذكر في هذا الكتاب المقرون

(١) سورة الفرقان : ٧٤ .

(٢) سورة النور : ٣٢ .

(٣) أخرج النسائي في سننه ٦٦/٦ رقم ٣٢٢٧ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا الولود

الودود، فإني مكاثربكم » وعند ابن ماجه ٥٩٩/١ رقم ١٨٦٣ : « انكحوا، فإني مكاثربكم » .

(٤) سورة البقرة : ٢٣٠ .

بالبركة رقمه، المعجون بالسعادة ختمه، كذا وكذا.

ومنه قوله، وهو حل بيت المتنبي، وهو^(١): [الكامل]

إن القتيل مضرراً بدموعه مثل القتيل مضرراً بدمائه

قتيل^(٢) الجفون الفواتر في سبيل حبه ، كقتيل السيوف البواتر في سبيل
ربه، إلا أن هذا يغسل بدموعه، وهذا يزمل بنجيعة، وهذا في حال حياته ميت
يرمق ، وهذا في حال مماته حي يرزق.

ومنه قوله في حل^(٣) أبيات ابن الرومي^(٤): [الكامل]

وحديثها السحر الحلال لوانه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يمل وإن هي أوجزت ودُ المحدث أنها لم توجز
شرك العقول وفتنة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

لا جناح على من شغف بفاترة الجفون ، فاتكة العيون ، عليل لحظها،
صحيح لفظها، تعدد السقام الشفاء من قربها، وتوقع الأنام في شرك من هدبها؛
وإن أثبتت طعنت من ناضر غصن رطيب بعامل ذابل، وإن رمقت رشقت عن
قوس حاجب بنبل نابلي، وإن نطق فاستمع لما أنزل على الملكين ببابل ، فهو
السحر الحلال، مع قتله النفوس عمداً ؛ والعذب الزلال؛ إلا أنه يزيد المرتشف له
وقداً، والعاقل للعقول فلا تجد من وقوعها في عقاله بدءاً، يؤمن على طويلة الملك،
وكل طويل سواه مملوك ، ويود سامع قليله لو أنه بالكثرة متصف، وبالإضافة

(١) ديوان المتنبي ٦/١ .

(٢) عقود الجمان ١٠٧/٩ .

(٣) في الأصل : حال .

(٤) ديوان ابن الرومي ١١٦٤/٣ .

مشمولٌ، يلهي المشتغل عن قضاء أشغاله، ويعوقُ عن مضي استعجاله بنزه
النواظر في رياض حسننها الناظرة ، وتغرق الخواطر في بحار ذهنها الزاخرة، تقيد
الألباب ولو أساءت ، وعهدنا الإنسان بالإحسان يتقيد، وتصيد القلوب طوعاً
وكرهاً، فاعجبوا من غزالة تصيد .

﴿ومن شعره قوله^(١)﴾: [مخلع البسيط]

فازوا وما فزت بالرغائبُ	يقول لي ما دحوه لما
قلت: لأنني بغير حاجب	مالك فينا بغير عين؟
وردت بحراً عذب المشارب	فإن تعجبتم لكوني
فالبحر من شأنه العجائب	ولم أنل من نداه ريبي

ومنه قوله^(٢): [السريع]

لما غدا باسمك مأنوسا	غبت عن القدس فأوحشته
وأنت روح القدس يا عيسى	وكيف لا يلحقه وحشة*
	ومنه قوله في الصوم: [الطويل]

وعند دخول الليل ينضى ويخلع	وما خاتم طول النهار لباسه
وما دخلت فيه مدى الدهر إصبع	وأعجب شيء أن يسموه خاتماً

ومنه قوله في قصب السكر: [الكامل]

مجيب في الوصال بلا محال	جعلت فداك هل لك في حبيب
له ريقٌ ألد من الزلازل	نقي الثغر معسول الثنايا

(١) الأول والثاني في الطالع السعيد ٦٨٠ والوافي بالوفيات ٢٧/٤٦ وفوات الوفيات ٤/ ١٩٠ .

(٢) عقرد الجمان ٩/ ١٠٦ .

ولم يسرق ولم يُتَّهَمَ بِمالٍ
فيبدي الشكر من كرم الخلالِ

يقام عليه حد القطع ظلماً
ويعصر كعبه من غير ذنبٍ

ومنه قوله في السيف^(١): [الطويل]

فأحسن حتى ما أقوم بشكره
أكلفه يلقي الأعادي بصدرة
فيهتز منه مستقلٌ بأمره
على حدةٍ فيه وثقتُ بصبره^(٢)

وأبيض وضاح الجبين صحبته
شدت يدي منه على قائمٍ بما
إذا نابني خطب شديدٌ ندبته
صبورٌ على الشكوى فلو دست خدهُ

ومنه قوله في الرمح^(٣): [الطويل]

مطيعٌ خفيف الكل حين يُقصِّرُ
ومغريٌ بغزو الروم وهو مزنرُ
ومن مستطيل الشكل وهو مدورُ
ومن أرعنٌ مذعاش وهو موقرُ

عصيٌّ ثقيلٌ إن أطيل عنانهُ
ترى منه أميًّا إلى الخط ينتمي
عجبت له من صامتٍ وهو أجوفُ
ومن طاعنٍ في السن ليس بمنحنٍ

ومنه قوله في الإبرة: [الطويل]

إذا زال عنها سمها ليس تنفع
لخوفٍ وإن كانت تمض وتوجعُ
تجرو إن الرأس منها لأقرعُ
لها خلعٌ بين الأنام توزعُ
ليلبس ما تنضوه عنها وتخلعُ

ومسمومةٌ بالضد من أخواتها
إذا لدغت لم يدخل القلب إبرةُ
ترى خلفها مهما تمشت ذؤابةُ
تملت بضيق العين وهي سخيةُ
وإن أجل الناس قدراً وقدرهُ

(١) الوافي بالوفيات ٢٧/ ٤٢ .

(٢) في الأصل : وصبور X . والواو زائدة .

(٣) الوافي بالوفيات ٢٧/ ٤٣ وفوات الوفيات ٤/ ١٨٨ .

ومنه قوله في صاغرة الإراقة: [المنسرح]

ياسيداً لم تزل أوامره فرضاً على العبد فهو ممتثل
 هل لك عند الماء في أمّة بيضاء حمراء ما بها خجل
 إن تدنها تأت وهي صاغرة أو تُقصّها لا يغيظها الملل
 تنكحها كلما أردت ولا يضجرها منك ذلك العمل
 تحبل في ليلها فإن تركت إلى غد زال ذلك الحبل
 وهي إذا فُتشت فلا دبر يولج فيه لها ولا قبل

ومنه قوله^(١) : [المتقارب]

وعلى تعلقته بعدما غدا وهو من سقطات المتاع
 فغرقني منه نوء البطين ورواه مني نوء الذراع

ومنه قوله في الخفة^(٢): [الطويل]

وحاملة محمولة غير أنها إذا حملت ألفت سريعاً جنينها
 منعمة لم ترض خدمة نفسها فغلماؤها من حولها يخدمونها
 لها جسداً ما بين روجين يغتدي ولولاها كان الترهّب دينها
 فقد شبهت بالعرش في أن تحتها ثمانية من فوقها يحملونها

ومنه قوله في الإبرة^(٣): [الطويل]

وعارية لا تشتكي البرد في الشتا على أنها منهوكة الجسم بالبرد

(١) الطالع السعيد ٦٨٠ والنجوم الزاهرة لابن سعيد ٢٩٩-٣٠٠ والوافي بالوفيات ٤٦/٢٧ وفوات الوفيات ٤/١٩٠.

(٢) تاريخ الإسلام ٤٥٧ والوافي بالوفيات ٤٢/٢٧ وفوات الوفيات ٤/١٨٧.

(٣) عقود الجمان ٩/١٠١.

إذا زال عنها سمها زال نفعها وكان دواء السم في ذاك بالضد
ومنه قوله في الميل: [الطويل]

ومعتدل في شكله وقوامه وليس له مثل وإن كان كالغصن
يسن وإن لم يرهف السن حده على أنه كالسيف سل من الجفن
ومنه قوله في المشط^(١): [الطويل]

يعض بأسنانٍ وليس له فمٌ ويثغر أحياناً وليس بذئ ثغر
رأى الزهد رأياً فاغتدى متجللاً على جسمه العاري بمسحٍ من الشعر

١٧- ومنهم ولده^(٢)، وهو محمد بن نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد

الكريم الشيباني، أبو عبد الله^(٣)

* فطرة ذكاءٍ غذي بلبانها، وغدا في ورق الشباب يهتز اهتزاز قضبان بانها؛
طلب العلياء والشبيبة ممدودة الطراف، والحبيبة غضة الأطراف، وكان دأبه في
أدبٍ يوشيه، لطربٍ ينشيه، بفكرٍ ينديه، لبكرٍ يهديه، فأهداها خفرات، وأبداهـا
مسفرات، من غرز وسامٍ ودُررٍ لا تسامُ، نثرها نثر الجمان، ونظمها قلائد في جيد

(١) عقود الجمان ٩/ ١٠٢.

(٢) كذا، مع بعد الشقة بين الأب وابنه فأبوه هو ابن الأثير الجزري، نصر الله بن محمد بن محمد،

المترجم برقم ١١ من هذا الكتاب

(٣) ترجمته في: عقود الجمان ٦/ ٥٤١ ووفيات الأعيان ٥/ ٣٩٧ في نهاية ترجمة أبيه.

* قال ابن الشعار: كانت ولادته بالموصل، في شهر رمضان، سنة خمس وثمانين وخمسمئة، وتوفي
صبيحة يوم الاثنين، ثاني جمادى الأولى، سنة ثنتين وعشرين ومستمئة. كان يتعاطى فن الرسائل
والشعر، ويدعي الفصاحة في النثر، ذا حمتٍ ورقاعةٍ، كثير العجب بنفسه، متكبراً على أبناء
جنسه، وخبرت عنه أنه كان يطعن في القرآن، ويتسامح في حق العلماء الأعيان، ويضع منهم،
ويعرض بحمقه عنهم.....

الزمان، فقدحت الأنوار ، وفتحت بين نرجس المجرة أعين النوار، فطابت بها الأيام
بكر وأصائل، وطالت بسحبها الأيام غُدْرَ وخمائل ، وكان مخالفاً لمذهب أبيه
في التيه الذي مقت لأجله، ووقت ميقات الحب لنجله .

ذكره أبو العباس ابن العطار، وقال : ولد بالموصل في رمضان، سنة خمس
وثمانين وخمسمئة . وله كتاب «غرة الصباح في أوصاف الاصطباح» وكتاب
«الأنوار في نعت الفواكه والثمار»^(١) وله نثر رائق، ونظم فائق .

❖ومن نشره قوله :

بين المشوق وبين الحمام مناسبة في شجو تعبيره لا في شجو ضميره، فهو
يعلن نحيبه تألماً، وهي تعلن بعتابها ترنماً ، وفرق بين الأشجان الملهية الأضالع،
والألحان المطربة للمسامع ، وقد زعم قوم أنها تذكر عهداً، وتجدد جداً ، وهذا
شأن من كانت عهوده منسية الأيام، ومن لم يكن له من وجده حماسة لم يهتج
لتغريد الحمام، ولست براضٍ أن أرعى للإخوان عهداً يفتقر إلى تذكاري، وأضمر
لهم جداً يحتاج إلى تجديد آثاري، وأشواقِي إليهم على النوى بين الأشواق التي
تذهب بجلد الجلد، وتوري زناد الصبابة تحت الحشا الصلد، وإذا صافحت برد
الموارد، وجدت حر الغليل في ذلك البرد ، وإن زاد غيرها بحديث سعدٍ ،
وكذلك هي في ارتياحها إليه والتمسحها عليه .

ومنه قوله يصف سحابةً :

خفقت بها بنود الرعود، وأطردت فيها خيول السيول؛ فالسحاب بها بين
سائر ونازلٍ، وواضعٍ وحاملٍ .

(١) نقل منه الغزولي في مطالع البدور ١/ ١٢٧ .

ومنه قوله :

ولقد وافيتها في زمن المشمش الذي له المثل السائر والذكر الدائر، فرأيت
منظر أبهاءٍ، ومخبر اشتهاٍ، ذا لونٍ ذهبي وشكل كوكبي، وعرفٍ مندلي، وطعم
عسلي، فهو يتمزق للطافة جلده، ويزهى بلذة طعمه، وعظم قدّه.

ومنه قوله :

وصل الورد على يد مشبهه عرفاً، ومخجله وصفاً؛ وما أقول إلا أني جرتُ
في التشبيه، فعدت على خاطري بالتنبيه، وقلت : أين الورد الذي تناله الأيدي
بتناولها، وتبذله بتداولها، من وردٍ لا يُجنى إلا بالعيون، ولا ينال إلا بالظنون؟.

ومنه قوله :

كأنما خلقت أغصانها منابر لخطباء الغرام، وصُورت أوراقها محاجر لدموع
الغمام، وخرطت أزهارها مجامر للمندل الرطب، وقدر أقحوانها فماً لمؤشر الشجر
العذب، والطير^(١) ما بين متطلع من وكنه، وقائم على غصنه، من كل مُفوّف
الطيلسان، ذا طوقٍ يزهى به على طوق العقبان، يترنم خلال أوراق الغُصون،
فيلتقي شأن المتيم بين الشؤون: [الطويل]

بصلن بنوحى نوحهن وإنما بكيت بشجوي لا بشجو الحمائم

ومنه قوله في البنفسج والورد :

أنا حبيب النفوس، وتاج الرؤوس، والعطر الموضوع في الجيوب، واللون الذي
يشبه عذار المحبوب، ولئن ذممت بأن لباسي لباس السواد، فإن هذا من شيم أهل

(١) في الأصل : للعذب والطيب

الوداد؛ فأقبل الورد في عسكره وجنوده، خافقاً ألسنة عذباته وبنوده ، محمر
الوجنات من الغضب، منكراً على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال في
ميدان المفاخرة وصال، وهتف بالبنفسج وقال: [الكامل]

أعلي يفتخر البنفسج جاهلاً وإلي يُعزى كل فضل ينهرُ
وأنا المحبب في القلوب زمانه وبمقدمي أهل المسرة تفخر

كيف أطعت هوى نفسك الأمانة ، حتى افتخرت بحضرة الأمانة؟ أأست
صاحب الاسم المعجم، والرداء الذي ليس يعلم؟ بينا ترى ناضراً، ويرى الطرف
عنك نافراً، تهلك من الفخر، إلا أن تشبه بالعدار إذا بقل، والكبريت إذا اشتعل،
ولم تحظ من هذين الوصفين إلا بالصيت المذموم ، لأن هذا إحراق النار، وهذا
تسويد الخد الملثوم، على أن بعض البلغاء قد أنكر تشبيهك بالعدار، ونزع عنك
ضعة هذا الثوب المعار، فقال: [الكامل]

ومَهْفَهفٍ لما بدا في خده شبه البنفسج وانطفأ توريده
غم البنفسج حين شوه خلقه وغدا على مبيضه تسويده

لكن أنا مرتقب الأيام، ومنتظر الأعوام، وأيامي أيام الأفراح، ومراوح الأرواح،
لا يشرق الربيع إلا بورودي، ولا تشبه خدود الغيد إلا بخدودي .

ومنه قوله :

وبينما الغمامة تطلق لسانها ، وتذكر إحسانها، إذ عارضتها الشمس ،
فخرجت من أثوابها، وقالت هذه منةٌ على الأرض، أنا أولى بها، وأنا معجزةُ
الجبار، وعروس الفلك الدوار، ومربية الأزهار والثمار، ومصلحة ما أفسده تابع
الأمطار؛ على أن للمطر يداً لا تنسى ، وطباً به جراح الرق يوسى ؛ فإنه مخرج
الأرض من موتها إلى نشورها، وموقدٌ فيها مصابيح نورها، تزف إلى عرائس

الرياض وافي مهورها، ويظهر ما في بطون الأرض من الكنوز إلى ظهورها، قام
بنسج أبرادها، ورد أرواحها إلى أجسادها، فهي المقدمة تهيج، وتهتز وتنبت من
كل زوج بهيج.

✽ وأما نظمه، فلم أقف له منه على قصيدة مطولة فأذكرها متما ولا مختارا، إلا
بائية مختصرة ستأتي؛ ومن مقطعاته قوله: [الرمل]

لمع البرق فهاجت لرعة لفؤادٍ بالتجني متعب
فتخال الجو من لمعته حبشياً في رداءٍ مذهب

وهذا معنى مطروق، يشبه الليل بالحبشي، ولكن حسنته هذه التتمة التي
جاء بها، ولا شيء أحسن من ردائه المذهب هنا؛ وإن نُظِر قول المعري، حُسِبَ
الليل زنجياً جريحاً.

وله: [الكامل]

في روضةٍ سلت بها أنهارها من كل ماضي الشفرتين مهند
قد صيغ فيها فضة بيد الضحى وأتى الأصيل فصاغه من عسجدٍ

وله: [الطويل]

ولم يطلع البدر السماء لأنه رأى بيننا بدرأ له يخجل البدر
تغنى وأسباب السرور تمده وفي لفظه درٌ والحاظه سحرٌ

وله: [الرجز]

أما ترى الليمون يب لدو في خلال الورق
بظاهرٍ من ذهبٍ وباطنٍ من ورق
تحوطه غلائلٌ من أخضرٍ إستبرقٍ

إذا دنا الليل لنا
وله في المشمش: [السريع]

والمشمش الغض الجني بدا
إن رمت أن أجنيه يشغلني
سبحان خالقه وجاعله
وهذه الكلمة حسنة لولا كاف التشبيه في «أنجم» فإنها قذى في عين هذه العروس، ودعامة ملحقة في هذا البيت.

وأما قوله : وعسجد الثمر، فمطرب^(١) ؛ وكذلك كلمة العماد^(٢) نشرأ، وهي قوله : كأنما خرط من الصندل، أو خلط بالمندل.
عدنا إلى ابن الضياء الجزري.

وله: [الوافر]

وكمثرى حبوت به الندامى
كأكواب صغار من زجاج
وله: [السريع]

قد أسفر الصبح لنا عن نقاب
فقم بنا نشرب من قهوة
ورقت الكأس وراق الشراب^(٣)
يلمع للشرب كلمع السراب
من قبل أن تلتقط شمس الضحى
من أعين النرجس ورد السحاب

(١) في الأصل : وإن رمت X

(٢) هو العماد الكاتب الأصبهاني ، وقد مضت ترجمته .

(٣) في الأصل : فقم بنا يشرب... IX.

أما ترى الخمر وإيماضها كالسيف والكأس لها كالقرباب
فَهُزَّها في كأسها هزةً تجن بها أثمار شرخ الشباب

وقوله: [الرجز]

وروضةٍ طليقةٍ حباءٍ غناءٍ مخضرةٍ جناباً^(١)
ينجاب عن نورها كمامٌ ينحط عن وجهه نقاباً
بات بها مبسم الأقاحي يرشف من طلها رضاها

وله: [السريع]

السحب تبكي والثرى ضاحكٌ بكاء صبٍ ملٌّ من جفوته
والزهر قد فثح أزواره كأنه استيقظ من رقدته

وله: [الكامل]

هب النسيم على الغصون فخلتها مثل الأحبة ساعة التوديع
وبكيت من وجددي وفرط صبابتي حتى سقيت أصولها بدموعي

وله: [الرجز]

والشمس خلف الغيم كالـ حسناء خلف المعجير
تبكي إذا ما احتجبت من شدة التحسر
لها النعامة نفسٌ والدمع مساء المطر
تسفر أحياناً لكي تحظى ببعض النظر
كأنما تنثر في الـ أرض لجوم السحر
أو ذهبٌ منتثرٌ على بساط أخضر

(١) في الأصل : وروضة طليقة ... X غناء.....!

وله : [الكامل]

نثر النسيم الطل من أغصانه
فتخاله فوق الغدير وقد طفا
والروض بين مذهبٍ ومفضض
حبباً يدور على شرابٍ أبيض

وله : [الكامل]

والروض ساهٍ باسمٍ مستعبر
والفصل معتدل فيا عجباً له
خَضِلٌ بطلٌ سماءه مطلول
كيف النسيم يمرّ وهو عليل

وله : [السريع]

في روضةٍ تطرب أغصانها
قد فتح الزُّخْر أحداقه
وتحسب الأنهار في جريها
ودغدغ الغيث بطون الثرى
سجع طيور في ذراها فصاح
[و] قبل الطل ثغور الأقاح
قد حمت الزهر ببيض الصفاح
فابتسمت فيه ثغور الأقاح
شقت جيوب النور هوج الرياح
وكلما غنت هزاراتها

وله : [الرجز]

إنني رأيت بالأراك هتافاً
تبكي بلا دمعٍ وأبكي بدمٍ
تزعّم أن عندها ما عندي
شئان بين وجدها ووجدني

وله : [الوافر]

تغني يا حمامةً فوق غصنٍ
فإنك كلما غردت صوتاً
ثنت أعطافه ريح الشمال
أميل من اليمين إلى الشمال

وله : [مجزوء الكامل]

زهر البههار بلونه
يزهو على شمس النهار

فلذا ك سمي بالبهارِ

بهر العيون بحسنه

وله: [السريع]

وهو لنا في ليلنا حارماً
فظل يخشى أن يرى ناعساً
تراه من فطنته ناكساً

أما ترى نرجسنا قائماً
قد فتح الأحداق مستيقظاً
حتى إذا قبلت من اشتهي

وله: [المنسرح]

قد جرد البيض وهو يحميها
تراقص الزهر في نواحيها

والماء بين الرياض تحسبه
وكلمما غنت الطيور بها

وله^(١): [مخلع البسيط]

نمت إلينا به الجنوب
فملأت المضجع الجنوب
طاب لكم وقتكم فطيبوا
يخجل من لينه القضيبي
لكاد من لحظه يذوب
إلا لتشقى به القلوب
صبا إلى شربها اللبيب
في قعر كاساتها وثوب
هانت على قلبه الخطوب
هيئات عن شربها أتوب

للروض عند الصباح طيب
واستمتع الطرف من كراه
والطير فوق الغصون يدعو
والكأس في كف ذي قوام
لولا لباس يقويه طرفي
ما سعد الوالدان فيه
راح إذا الراح أبرزتها
لها إذا الماء جال فيها
إذا سرت في عروق شخص
وقائل: تب، فقلت: كلا

إذا استقام الأنام طرا قل لي: لمن تغفر الذنوب^(١)

وله^(٢): [الخفيف]

فهي شمسٌ لكن بغير مغيبٍ ولهيبٌ لكن بغير انطفاء

١٨- ومنهم: ابن قُرناصٍ، محيي الدين^(٣).

وهو من أهل حماة؛ ووقفت له على بديع رقمٍ بغرائب النوار حماه، بياناً
كالجوهر المعدود، وإحساناً كلُّ سمعٍ به معقود؛ كأنه شخص الحبيب بدا لعين
محبه، أو طيف الخيال وأدني في قربه؛ وسمعت له كلماً كلماً قرأتها استجدها،
وفقرا لقرى المسامع، مهما قدمت لك استزدتها.

* فمن نثره قوله:

وسار في فرسان كالأسود، إلا أن برائتها السلاح، وجنود كالطيور، إلا أنها
تسبق الرياح، حتى أتى فلانة، ورتب عليها نوبَ اليزك^(٤)، للمخايلة لا
للمخاتلة، وانتظر أن يخرج إليه صاحبها متضرعاً، أو يقصد إليه متخضعاً، لأنه
إنما قصده غضباً لله، لما انتهكه من محارمه، وأقامه لما رأى العدل الذي شرع في
هدم معالمة؛ وشفقةً على خلق الله الذين بسط عليهم منذُ وليهم أيدي مظالمه؛
فلما أبى إلا الطغيان، والتمادي في مهالك العصيان، واغتر بأصحابه الذين هم
معه بأجسامهم وعليه بقلوبهم، ووثق برعاياه الذين كانوا أوقعوا معه بذنوبهم،

(١) في الأصل: قال لي... ١...

(٢) عقود الجمان ٥٤٥/٦.

(٣) الفضلاء من آل قرناص كثيرون؛ ولم أقف على ترجمة لمحبي الدين هذا، وله أشعار في المستطرف
ومعاهد التنصيص وأعيان العصر وفوات الوفيات ونزهة الأنام للبدرى.

(٤) اليزك: طلائع الجند. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ٣٦٤).

فلصق الجيش المنصور بالسور المقهور، فدنا وتدلى ، ورأى الخصم عين القصم،
فعبس وتولى، فكشفت الستور، وهتكت حجابها، وتبرج كل برج فحسر
الزراقون لثامه، وأماطت النقابون نقابه، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام
الشريفة كل راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، وأيد الله الذين آمنوا على
عدوهم فأصبحوا ظاهرين .

ومنه قوله :

فلم تر إلا شجرة قائمة على أصولها، وكروماً خاوية العروش، وسقيط البلح
المبثوث، وجبالاً كالعهن المنفوش .

* ومن شعره قوله : [الرجز]

من يعمل يوماً مثته فقد نجا	خذه إليك أدهماً محجلاً
« طرة صبح تحت أذيال الدجى » ^(١)	يريك من تحجيله ولونه

ومنه قوله : [الخفيف]

لي شغل عن حاجر والعقيق	من لقلبي من جور ظبي هواه
خنصراً فيه خاتم من عقيق	خصره تحت أحمر البند يحكي

ومنه قوله : [الكامل]

ظبي من الأتراك معسول اللمى	جرح الفؤاد غداة جاء مجرحاً
وعليه أعين درعه تبكي دما	أيلام عاشقه لفرط بكائه

ومنه قوله : [الكامل]

(١) الشطر الرابع مضمّن ، وهو لابن دريد في مقصورته . (شرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ١٣) .

وكان مسطولاً غريباً قد غدا
يرعى الحشيشة من جاذر جاسم
«وسنان أقصده النعاس فرنقت
في عينه سنة وليس بنائم»^(١)

ومنه قوله: [الطويل]

إلى الله أشكو داحساً قد أضربني
بوخزٍ حكى وخز الرماح المداعس^(٢)
وإني لفي حربٍ إذا بات ضارباً
عليّ ومن يقوى على حربٍ داحس

١٩- ومنهم : ابن العجمي، كمال الدين، أحمد بن عبد العزيز الحلبي، أبو

العباس^(٣)

* كتب الدرج في أيام الناصر بن العزيز^(٤)، فرقم ديباجها بالتطريز، وفضل فرادها وأزواجها بالتبريز، وكان صدر رئاسة وبدر عرفان وسياسة، لاقت العلياء بمعاطفه، وراقت الفضائل في كؤوس معارفه، من قوم وهبتهم الشريا سيادتها، وحببتهم جارة الشمس سعادتها، فثنت الجوزاء إليه عنائها، وأنقذته النجوم أعيانها، فجعلته الدول حليةً للبتها، وشيةً لأيامها، وقد نفضت عليها الليالي صبح ملتها.

وقدم دمشق في أوائل دولة الظاهر بيبرس وكتب بها، ثم طلب إلى مصر

(١) البيت الثاني مضمّن، وهو لعدي بن الرقاع في ديوانه ١٢٢.

(٢) الداحس: قرحة أو بثرة تظهر بين الظفر واللحم، فينقلع منها الظفر. (القاموس).

(٣) ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٣٨٨/٢ وتاريخ الإسلام ٢١٤ [٦٦١-٦٧٠] والوافي بالوفيات ٦٨/٧.

— توفي بظاهر صور، ونقل إلى دمشق، ودفن بمقابر الصوفية سنة ٦٦٦هـ.

(٤) الملك الناصر صلاح الدين، أبو المظفر، يوسف بن الملك العزيز، تملك عدة من بلاد الجزيرة الفراتية، ثم ملك دمشق والبلاد الشامية، ولما دخل التتار الشام خرج منها، وقتل في أذربيجان سنة ٦٥٨هـ. (وفيات الأعيان ١٠/٤)

واستكتب، واستعتب لحظه الناقص فأعتب؛ وله الآن يقتنى بقية العبق في المشام، والشهب في آخر الظلام.

ومن نشره قوله:

ولم يكن إلا كلمح البارق الخاطف، أو شرف الطائر الخائف، حتى علونا جدارها، وتسورنا أسوارها، وهذه قيسارية^(١) كان ريد أفرنس^(٢) قد أحكم عمرانها فألحق بالسماء أرضها، وأبرم أسباب تحصينها إبراماً منعه نقضها، وجعلناها أمام ما نقصده من الثغور الساحلية، لتعلم الفرنج المخذولين أن قصدنا بحصونهم أمام ما نقصده من الثغور الساحلية شامل، وعزمنا إليهم من كل جهةٍ واصل، وأنا لا بد أن نغرق ببحر عساكرنا ما بأيديهم من الساحل، لتتفرق عزائمهم فلا ينصب إلى جهةٍ واحدةٍ، وتذهل خواطرها، فتتوهم كل فرقةٍ من الجيوش إليها قاصدةً.

ومنه قوله:

وكنا لما شمخت بأنفها إباءً، ورفعت رأسها منعةً واستعصاءً، وكُنَّا^(٣) باستلانة جانبها، ورياضة مصاعبها، كل طويل الباع، رحب الذراع، مضطلع بأمر الحصر أي اطلاع، فقدفها بشهب نجومه، وواصلها بتوالي رجومه، حتى عرف منها موقعه، واستبان من أبراجها موضعه، وألان من شامخها جامحه ومتمنعه، فلم يزل يقبل ثغرها حتى أثغر^(٤)، ويُصادمُ ركبها حتى خرَّ، وجاء

(١) قيسارية: مدينة على ساحل بحر الشام، تعدُّ في أعمال فلسطين. (معجم البلدان ٤/ ٤٢١).

(٢) ريد أفرنس: ملك فرنسا. والعامّة تقول: الفرنسي. (صبح الأعشى ٥/ ٤١٢ و ٤٨٥).

(٣) في الأصل: وكَلَّنا.

(٤) أَثْغَرَ الْغُلَامُ: ألقى ثغره. (القاموس).

مالاصقه على الأكثر ، وفي ضمن محاذاتها بالمجانيق ، تخللنا حولها الأرض طرقاتاً وأسراراً ، وصيرناها إلى الخنادق أنفاقاً وأبواباً ، وصبر جنود الله حتى وصلوا بالحجارة إلى جدارها ، فجاذبوا أذيال بنائها الشامخ ، وحلوا عقد أساسها الراسخ ، فتعلقوا بأبراجهم تعلق قرارٍ لا لانتصارٍ ، ولا ذوا بمعاقلهم ليأذرع لا توهم اقتدارٍ ، وأذعنوا بلسان الاستعطاف فأجبناهم على أن يبقوا تحت أيدينا أسارى ، وأغمدنا عنهم السيوف إلا من سبق في قتله السيف العذل ، وأتاه الموت قبل تحقيق الأمان على عجلٍ ، وقد فتح الله على المسلمين حصناً كان عليهم وبلاً ، وحل عنهم من معقله عقلاً ، وخفف عن أعناق محاذيه من سوء جبرته أعباءً ثقالاً ، ثم أمرنا بهدمها حتى عاد ما كان يرى منها شاهقاً للعيان لا يكاد يُدرك باللمس ، وأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس .

ومنه قوله :

فنصبنا عليها من المجانيق كل صائب سهمه ، ثاقب نجمه ، محرقٍ لشياطين الكفر رجمه ، يهد ويهدم ، ويردي ويردم ، ويوهي ويوهن ، ويسر بإرصاده ويعلن ، لم تنصب عوامله على سورٍ متصلٍ إلا هدمته ، ولا مدت أسبابه على مبنى رفع واستغلق بابه إلا كسرتة ، ولم يزل يرمي غاديتها بالقارعة ، ويصمي أسماعها بأحجاره الطائرة الواقعة ، وأقبلنا بالمجاهدين إليها ، فأحاطوا بها إحاطة الخاتم بخنصره ، والسوار بمعصمه ، وأمطرنا عليها بسحب القسي وبلاً غرقهم بدافق أسهمه ، فتجلد أعداء الله وجلدوا ، وتعاقدوا على الموت وتعاهدوا ، وأرسلوا من جروحهم سهاماً لا يردها رادٌّ عن الأجسام ، ولا يكسر عينها ما تصم ، الأعضاء من تظاهر الآلام ، وإذا شوهدت راعت الناظر ، فلم يدر أعمدٌ هي أم سهامٌ ؟ وشفعوها بضمٍ أحجارٍ صمَّت لها أسمعُ الدرق ، وكسرتُ بها رؤوس البيض ،

وفقئت أعين الحلق؛ وصبر أولياء الله، ولم يزلوا حتى ألحقوا النقاين بجدارها؛ وبوؤوهم المقاعد تحت أسوارها، وأضرموا ناراً طاف بأهل السعير سعيرها، ونطقت عما أكنه ضميرها، فأنحل من عقود بنيانها ما كان متسق النظام، ونبد من شمل بروجها ما كان حسن الالتئام، وكانت لا تلوي جيداً صعراً، فألصقَ خدّها وهي راغمة بالرغام.

٢٠- [ومنهم]: ابن الأثير الحلبي، تاج الدين، أبو جعفر، أحمد بن سعيد^(١)

* رأس المعالي وتاجها، ولقاحُ المعاني ونتاجها، كان معدن الجلالة، وموطن الرقة والجزالة، ولم يزل بدر الفضائل وكمالها، وصدر المحافل وجمالها، ونفس المآثر وعنصرها، وخاتم المفاخر وخنصرها؛ صحب الأيام مسالماً، وقاسم الليالي على النجوم الزهر مساهماً، واكتنف البلاغة فقلدته تقليد العموم، وقدمته تقديم الإمام على المأموم، وخدم الدول فأولته إنعاماً، وخولته مواهب طالما أخدمته للزمان عاماً؛ وكان نداه موارد ملكها، ونهاه عطارده فلكها، فأرته وجوهاً وساماً، وأرضته مصرأً وشاماً، فأهدى من فرائده ما^(٢) ابن العزيز، فاستخدم في ديوان الإنشاء واستكتب، واستعجب له الحظ لو يعتب، ثم نقل إلى الباب الظاهري، فكان هناك أحد المتخذين الأعيان، والمتحدين بسحر البيان، وولي في الأيام الأشرفية كتابة السر بالحضرة السلطانية، فلم يتم الشهر حتى مات، ودفن بغزة، فأغمدت المنايا منه غضباً، ووهبت منه إلى جانب البحر الملح بحرأً عذباً،

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣٩٢/٦ والمنهل الصافي ٣٠٠/١ والدليل الشافي ٤٧/١ والنجوم

الزاهرة ٣٤/٨ وتذكرة النبيه ١٥٨/١ وتالي وفیات الأعيان ٢٣.

- توفي بغزة ذهاباً إلى القاهرة، في شوال سنة ٦٩١هـ.

- بيت ابن الأثير هؤلاء، غير بيت ابن الأثير بالموصل.

(٢) في الكلام هنا نقص، ولعل صواب العبارة. ما [يعجزُ عنه] ابنُ العزيز. وابنُ العزيز هو صاحب

الترجمة السابقة.

وكان هلالاً للشهر، وروضاً يلقط من أفنائه الزهر.

* قال شيخنا أبو الثناء : كان يبطن ولا يخطئ. وقال : كان اعتناؤه بالألفاظ أكثر من المعاني.

قلتُ : ويدل على هذا ما يرى، وقد وقفنا على كثيرٍ منه وأكثره متزن، لو تجسد لاختزن؛ كأنه في تساويه سجع الحمامة، أو وقع الغمامة.

وحكي^(١) أنه لما أناخ هولاءكو على شاطئ الفرات، وفرش خوفه الحدود لمواطني العبرات، وقطعت من تلك الدولة الأواصر، وأصبحت ومالها قوة ولا ناصر، كان الناصر بن العزيز قد جهز ولده إلى أردو هولاءكو بطرفٍ بعثها، وكتابٍ حل في سطوره عقد السحر ونفثها، كتبه له هذا الكاتب المذكور، واستشهد فيه بالبيت المشهور^(٢): [البسيط]

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
فلما عرضه على الملك الناصر قال له : هذا كتابٌ لا يلام دونه القاصر، وكان الأنسب في هذا المكان لو استشهدت فيه بقول ابن حمدان^(٣): [الطويل]

فدى نفسه بابلٍ عليه كنفسه وفي الشدة الصماء تفنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره ويدخر للأمر الكبير الكبائر^(٤)
فأقر له بالصواب وعلى نفسه بالخطأ، وبدل الاستشهاد بما قال، ثم ما أنقذ ذلك الكتاب من عثرةٍ ولا أقال.

(١) الخبر في الوافي بالوفيات ٦/٣٩٥.

(٢) البيت لصريع الغواني مسلم بن الوليد، في ديوانه ١٦٤، وقد مضى.

(٣) ديوان أبي فراس ١٢٨.

(٤) روايته في الوافي : X وتُدحر بالأمر الكبير الكبائر. وفي الديوان : X وتُدفع بالأمر.....

* ومن نشره قوله :

كتابنا هذا والمرقب^(١) في قبضة ملكنا، وربوعه قد عادت أطلالاً ،
والأسياف التي كانت في أيدي أهلها قد جعلناها في أعناقهم أغلالاً ، وقد علم
المجلس ماكانوا يحدثون به نفوسهم ويشبعون^(٢) به رؤوسهم ؛ واستفزه من
يحسن لهم في الطمع أموراً ، ويعدهم الأباطيل ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا
غروراً ﴾^(٣) وكان المانع أولاً ، ماكان من اضطراب الأمور ، والتقاء الجيوش ،
واختلاف الآراء ، وتغير النيات ، إلى أن أمكن الله عز وجل من كل مناوئٍ منافٍ ،
وظفرنا من الأعداء بكل كافرٍ ، وكل من هو للنعمة كافرٌ ، ونحن مع ذلك نحيط
بما يمكرونه علماً ، ونملي لهم ليزدادوا إثماً ، فلما تلمحنا مخايل النصر ، سرنا إليها
سرى الخيال الطارق ، وأسرعنا نحوهم كما تسرع لحة البارق ، ولم نزل نوقد لهم
البواتر ، وندير عليهم الدوائر ، ونشتت لآرائهم شملاً ، ونقطع من مكائدهم
جبلاً ، ونفض لعزائمهم جمعاً ، وتكون جنودنا واقفة بإزائهم ، فيخيل إليهم من
خوفهم أنها تسعى ، إلى أن أدركنا فيهم الثار ، وأطفأنا بهم النار ، وضربنا عليهم
الدلة ، وجمعناهم جمع القلة ، وأصبح ماكان يحميهم ، يتحاماهاهم ، وقلنا :
ياسيوف ، دونك وإياهم ؛ وكانت هذه القلعة مكانها في جوار النجم ، وفناء
اليم ، يقدمها الجبال ، ويعصمها البحر ، وتحجبها الأودية ، ويحصنها الوعر ،
وتحف بها سيوفٌ لا تكلٌ ، وآمال لا تمل ، وآجالٌ يحفظونهم ولا يضيعونهم ، وقومٌ
يعصون الله ويطيعونهم ؛ وطرناها وبلادهم مهدومةٌ ، وجموعهم مهزومةٌ ، ويد
الله فوق أيديهم ، والخذلان من كل ناحيةٍ يناديهم .

(١) المرقب : حصن على ساحل بحر الشام مقابل جبلة . (معجم البلدان ٥ / ١٠٨) .

(٢) في الأصل : ويشبعون .

(٣) سورة النساء : ١٢٠ وسورة الإسراء : ٦٤ .

ومنه قوله :

وبعد فإن الرتب شرفها بمتوليها ومتوقلها يزيد، والعقد ما امتاز على السلوك
إلا بواسطة حسبها نظام كل فريد، والمملكة جمالها وزيرها، وقوامها مشيرها،
وأمرها تكون ضياعاً، وحزمها يكون مضاعاً، مالم تؤازرها يد وازر شديد،
ورأي سعيد، وقلم يقلم ظفر الملم ويقوم بعبء المهم، ويجري بالأرزاق
ويدخرها، ويقتني الأموال العظيمة لمن يستصغرها ؛ ولولاه لما افتخرت الدول،
ولكانت مضطربة لولا ابتناؤها على الأقلام والأسل؛ وكان أولى من عول على
تدبيره، واهتدى في الأمور بنوره، أهل العلم، فإنهم المذكورون لمن ملك،
والمستفتون في الأرواح والأموال ليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك ،
ويسترشد بهم من إذا ضلت الآراء ، وأظلت الأهواء، وطُلت الأنواء، وتحكمت
الأدواء، وتقسمت الأضواء، وكان فلان هو المعني بهذه المدح، والجدير بأن تجلّى
عليه هذه الملح، وتجمل بإلقاء دروسه صدر كل إيوان، وبتصريفه مكان كل
ديوان، وتحاسدت الوزارة والأحكام عليه ، إلى أن نالت الوزارة منه نحتها،
منشدةً : [الطويل]

هو الجد حتى تفضل العين أختها .

ومنه قوله :

يقبل اليد، لازالت أقلامها محسنةً في سفارتها، وكتبها لا تسلك إلا
بخفارتها، والخدمة إذا لم يكن معها ذمام لا يؤمن عليها شئ غارتها، وينهي
ورود مشرفته التي أبهجته بما أسمعته ، وأدت الأمانة فيما استودعته وحملت
إليه الرياض زواهر، وأغننته بما أهدى إليه ذلك البحر من الجواهر، وقبل الرسالة
والرسول ، وقبل الحامل والمحمول، وأعاد الجواب وهو من خوف التقييد على

وجلّ، وكتبه والقلم من حياء المماثلة لا يكاد يرفع رأسه من الخجل، فيعرضه مولانا على فكره النقاد، ويتصفحه بنظره الذي زمام الفضل به منقاد، ويسبل عليه ستر معروفه الذي [...] (١)، ويعيره نفحة أنفاسه التي يكاد يفوح المسك من عرفها الشذي، والله يشكر له الإحسان الذي لا يبلغ الوصف مداه، ويحرس عليه من الفضل ماملكت يداه، ويفديه بكل مقصر عن شأوه، فلا أحد إذاً إلا فداه.

ومنه قوله (٢):

يقبل اليد الشريفة المحيوية المحبوبة إلى كل قبلة، المحتوية على الكرم الذي هو للكرماء قبلة، لازالت مخصصة بفضائل الإعجاز، والبلاغة التي كل حقيقة عندها مجاز، والإحسان الذي يظن الإطناب في وصفه من الإيجاز، وينهي ورود مشرفته التي أخذت البلاغة فيها زخرفها، وأشبهت الرياض منها أحرفها، وأبانت عن معجزات البراعة، ومثلت له السحر كيف ينفت في عقد تلك اليراعة، وأبانت مجاري فضله على مثل الجمر وأفردته بالرتبة التي لا يدعيها زيد ولا عمرو، وعلمته كيف يكون الإنشاء، وأعلمته أن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء؛ فوقف المملوك عليها وقوف من أفحمه الحصر، وتناول لمباراته فيها، وكم يطول من في باعه قصر؟ واستقدم القلم في جوابها فأحجم، واستنطق لسانه ليعرب عن وصفها فأعجم، وقال لحسنها الذي استرق القلوب: قد ملكت فأسجج (٣)؛ وبلغ الغاية في نفسه التي قصرت عن شأوها، ومبلغ نفس عذرها

(١) سقط لا تتم السجعة إلا به.

(٢) الوافي بالوفيات ٦/٣٩٢.

(٣) من قول الطرماح بن حكيم، في ديوانه ١٠١ والمناقب والمثالب ٣٥٦: [الطويل]

. إذا صك وسط القوم رأسك صكة يقول له الناهي: ملكت فأسجج

مثل منجح^(١) ، ومن أين لأحد تلك البديهة المتسعة، والروية التي هي عن كل ما ينتج وينتج متورعة ، والمعاني التي قطف نوارها أبكاراً ، والغرائب التي بحرهما لا يهدي الدر إلا كباراً، والخاطر الذي^(٢) يستجدي الفضلاء من سماحته، واللسان الذي يخرس البلغاء عند فصاحته ، والقلم الذي هو مفتاح الأقاليم، والطريق الذي كل فيه ضل ولو أنه عبد الحميد أو عبد الرحيم^(٣) ، والكتابة التي تشرق بأنوار المعاني ، فكأنها الليلة المقمرة، واليد التي إن لم تكن الأقلام فيها مورقة فإنها مثمرة ؛ ومولانا أوتي ملك البيان ، واجتمع له طاعة القلم واللسان، وخطبت الأقلام بحمده على منابر الأنامل، وأخذت له البيعة بالتقدم على كل فاضل ولو كان الفاضل^(٤) ، وأصبح محله الأسنى، وأسماءه فيها الحسنى، وجاء من المحاسن بكل ما تزهى به الدول، وأصبحت طريقته في هذا الفن كأنها ملة الإسلام في الملل ، وعرف الإشارة إلى حلب وما صنعت بها الأيام، وما أشجى من ربعها الذي لم تبق فيه بشاشة تستام، ووقوف مولانا على أطلالها، وملاحظته الآثار التي أعرضت السعادة عنها بعد إقبالها ، وتفجعه في دمنها، وتوجهه لتلك المحاسن التي أخذتها الأيام من مأمنها، وإنه وجدها وقد حلت عراضها، وزمت للنوى قلاصها، وغربانها في رسومها ناعبةً ، وأيدي البلاء والبلى بها لاعبة^(٥) : [الطويل].

فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ولا نحن من فرط الأسى كيف نسأل

(١) عجز بيت لعروة بن الورد، في ديوانه ٥٣ وثمار القلوب ١٩٦/١ تمامه: [من الطويل]

ليبلغ عذراً أو يُصيبَ رغبةً ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

(٢) في الأصل : التي

(٣) عبد الحميد الكاتب، وعبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل.

(٤) يقصد القاضي الفاضل.

(٥) البيت للبحثري ، في ديوانه ١٧٨٨/٣ .

فشكر الله موقفه في تلك الدمن، ورقته التي قابل بها جفوة الزمن، ورأى هذا العهد الذي تمسكت منه الآن بحسبٍ، ورعى له حق الدمع الذي جرى فقضى في الربع ماوجب، ومن للملوك بوقفة في رسومها، واسترواحة بنسيمها، وسقيها بدمعه، وتجديد العهد بمغناها الذي كان يراه بقلبه فأصبح وهو يراه بسمعه، ولقد علم الله أن الأحلام ما مثلتها لعينه إلا تأرقت، ولا ذكرتها النفس إلا تمزقت، ولا تخيلتها فكرةً فاستقرت على حالٍ من القلق، ولا جردتها الأماني لخياله إلا وراحت مطايا الدمع في السبق^(١): [الطويل]

ولا قلت إيه بعدها لمسامرٍ من الناس إلا قال قلبي : آها
على أنه قد أصبح من ظل مولانا في وطنٍ، وأنساه أنسه من خف ومن قطن،
وشرف بخدمته التي تعلي لمن أخدمها مناراً، واستفاد من الأيام التي أخذت منه
درهماً فأخذ عوضه ديناراً، وأصبح لي عن كل شغلٍ بها شغل، فاسأل فؤادي
عني، وما ذكرت حبيباً إلا كنت الذي أعني: [الطويل]

وإن نظرت عيني سواك تلثمت حياءً بأردان الدماء مع الدمع
ولو أنني استطعت خفضت طرفي، ولو وصفت ما عسى أن أصفه من الشوق
لكان الأمر فوق وصفي: [الطويل]

وإني في داري وأهلي كأنني لبعيدك لا دارٌ لدي ولا أهلٌ
وعرف المملوك الإشارة إلى هذه السفرة ومتاعبها، والطرق ومصاعبها،
والثلوج التي^(٢) شابت منها مفارق الجبال، والمفاوز التي يتهيب السرى فيها
طيف الخيال، والمرجو من الله تعالى أن تكون العقبي مأمونةً، والسلامة فيها

(١) البيت لياقوت المستعصي، في شذرات الذهب ٧٧٣/٧ .

(٢) في الأصل : الذي .

مضمونةً ، وكان مولانا بالديار وقد دنت ، والراحة وقد أذنت ، والتهاني وقد أشرفت بوفودها تلك الرحاب ، والرياض وقد أبدت من ملحها ما يكفر به ذنب السحاب ، والأنس وقد أمسى وهو مجتمع القوى ، والرحلة وقد ألفت عصاها واستقرت بها النوى^(١).

ومنه قوله في كتاب كتبه عن الملك المنصور^(٢) إلى ابنه الملك الأشرف^(٣) بفتح المرقب:

أعز الله نصره الجناب العالي الولدي، الملكي الأشرفي الصلاحي، عضد أمير المؤمنين ، ولا زالت جيوشه تفتح من الممالك حصونها، وتبتذل مصونها، وتستنشر من السعادة غصونها، وتطوى لهم الأرض، ولا يبعد عليهم مرمى يعملون إليه العزائم وينضونها، ويقصون أجنحتها بالشكر ويفضونها، تهدي إليه كل ساعة خبر جنوده وما ملكت ، وخيوله وما سلكت ، وسيوفه وما فتكت، ومهابته وما أخذت، ومواهبه وما تركت؛ وتبدي لعلمه الكريم أن الهمم بها تنال الممالك ، وترتقى المسالك؛ وقل ما ظفر بالمراد وادع، وكل أنف لا يأنف المساء فهو أحق الأعضاء بالمجادع ، ولم نزل نمثل في أفكارنا الصورة التي أقدم عليها أهل حصن المرقب في مبدأ الأمر، عند اضطراب النيات، وضعف البيئات، وغرور الإيمان الكاذبة، واستمالات الخيالات الجاذبة، ونأخذ في أمرهم الظاهر

(١) من قول المعقر بن أوس بن حمار البارقى، في تمام المتن ٣٦٦: [الطويل]

فألفت عصاها واستقر بها النوى كما قرعنا بالإياب المسافر

(٢) الملك المنصور ، إبراهيم بن شريكوه الثاني، تملك بعد أبيه حمص وتدمر والرحبة وغيرها، توفي سنة ٦٤٤ هـ. (وفيات الأعيان ٢ / ٤٨١ وترويح القلوب ٤١).

(٣) الملك الأشرف ، موسى بن إبراهيم ، تملك بعد أبيه؛ توفي سنة ٦٦٢ هـ. (وفيات الأعيان ٢ / ٤٨١ وترويح القلوب ٤١).

بالرخصة دون العزيمة، ونعمل على ما لو تمثل لهم صورةً لجروا منه ذيل الهزيمة، ونستر ما تسدده إلى نحورهم من سهم، ونريهم أنا ندفع في صدور الحقيقة بالوهم، ونعرض عن مناقشتهم في الحساب ﴿وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمر مر السحاب﴾ (١) ومتى لم يؤخذ المسيء بفعله، ويعرف مقدار جهله، استدأ طمعه، واستقام طلعه، وحركته دواعي الشره والشره، وتخيل السلامة في كل مرة؛ فلم نزل نترى بهم ريب المنون، ونترك منهم ما كان في جنب ما يكون، إلى أن إن إمكان الفرصة، وجمعنا لهم بين الشرقة والغصة، فأنفذنا إليهم المرمى، وأعدنا مسعانا في طاعة الله غنماً، إذ كانت مساعي الملوك غرماً، ووصلنا السير بالسرى، وطرقناهم كما يطرق الكرى، وأوطأناهم حوافر الخيل، وجئناهم مجيء السيل، وظللنا عليهم ظلل الغم، وغشيتهم منا ما غشي فرعون وجنوده من اليم، مع كون مكانهم قد جمع لهم منعة البر والبحر، وحل منهم بين السحر والنحر، تصد الرياح الهوج عنه مخافة، ويرجع عنه الطرف حسيراً لبعده المسافة، فلم يكن بأسرع من أن فاجأناه، وحللنا بعرضته وهاجمناه، وأحاطت به رجال الحرب، وشافهته بخطاب الخطب، وعسكرنا بحمد الله قد ملأ الفجاج، واستعذب الأجاج، وقاسمهم الرماح، وأعطاهم الأسنة وأبقى الزجاج، يتعرض أبطاله المنايا وإن كانت عرضاً، ويقول كل منهم : ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ (٢). فلم يزل القتال ينوبهم وسهام المنون تصيبهم، وسحابها يصوبهم، والمجانيق تذلل سورتهم، وتسكن فورتهم، وترميهم بنجومها، وتصممهم برجومها، وتقذفهم من كل جانب دحوراً، وتعيد كلاً منهم مذموماً مدحوراً، وتشير إليهم أصابعها بالتسليم لا بالسلم، وفتنناهم

(١) سورة النمل : ٨٨.

(٢) سورة طه : ٨٤.

﴿ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾^(١) إلى أن فتحناها ولله الحمد عنوةً ، وحللنا مكائدهم فيها عقدةً عقدةً ، ونقضناها عروةً ، واطرنا هذه البشرية ، وأعلام النصر قد خفقت عليها بنودها ، وذلت لها علوجُ الكفرة وكنودها ، والسيف من دمائهم يقطر ، والصليب خزيان ينظر ، والآذان مكان الناقوس ، والقراء موضع القسوس ، والكنيسة قد عادت محراباً ، والجنة قد فتحت للمجاهدين فكانت أبواباً ، وكنا نود أن يكون الولد معنا في هذه المشاهد ، وأن ينظرها بعين المشاهد ، وإنا لنرجو أن لا يكون ممن يستلين المرقد ، وإن لم نحضره هذه الغزوة فيتأهب للأخرى فكأن قد .

ومنه قوله من كتاب كتبه إلى صاحب اليمن بفتح طرابلس :

هذه الخدمة بما تسنى من فتوح طرابلس الشام ، وانتقالها بعد الكفر إلى الإسلام ، وهو فتح طال عهد الإسلام بمثله ، وقدحٌ فت في عضد الشرك وأهله ، لم يجل أمره في خلدٍ ولا فكرٍ ، ولا رقت إليه همة عوانٍ من النوائب ولا بكرٍ ، مرت عليها الأيام والليالي ، وعجز عنها من كان في العصر الخوالي ، ولم تزل الملوك تتحاماها ، وإذا خطرتها الظنون في بالٍ تخشى أن تحل حماها ، ولما أفضى الله إلينا أمر الملك ، وأنجى بنا من الهلك ، عاهدنا على أن نغزو أعداءه براً وبحراً ، ونوسع من كفره قتلاً وأسراً ، ونورد المشركين موارد الحرب المفضية بهم إلى الهرب ، ونجليهم عن البلاد جلاء طوائف المشركين عن جزيرة العرب ، فجئناهم وزلزلنا أقدامهم ، وأزلنا إقدامهم ، وبرزنا لشقائهم بشقاقهم ، وسددنا عليهم أنفاق نفاقهم ، وقصدناهم في وقتٍ تجمعت فيه أشتات الشتاء ، وطرق خفية المدارج ، أبية المعارج ، صيفها شتاءً ، وصباحها مساءً ، شائبة المفارق بالثلوج ،

منهلة المدامع من عيون الجبال على خدود المروج، مزررة الجيوب على أكمام الغيوم التي ما للابسها من فروج، ولم تزل أقران الزحف، في غدران الزعف^(١)، ترميهم بالقوارص، وتأتيهم من البأس بما ترعد منه الفرائص، وتقلب لهم ظهر الجن، وتطرق أفئدتهم من الحرب بكل فن، وتقرب الأسواء من الأسوار، وتمزج لهم الأدواء في الأدوار، إلى أن وهى سلكها، ودنا هلكها، وسفل منها ما علا، ورخص ما غلا، وفتحناها وأنخناها، وخليناها وقد أخليناها، فأمست كالذي يتخبطه الشيطان من المس، وأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس.

وهذه المدينة لها سمعة في البلاد، ومنعة ضربت دون العزم بالأسداد؛ فتحت في صدر الإسلام في ولاية معاوية بن أبي سفيان، وتنقلت في أيدي الملوك، وعظمت في زمن بني عمار، وبنوا بها دار العلم المشهورة في التواريخ، فلما كان في آخر المئة الخامسة وقدر ما قدر من ظهور طوائف الفرنج بالشام، إذ استولوا على البلاد، امتنعت هذه المدينة عليهم مدة، ثم ملكوها في سنة ثلاث وخمسمئة، واستمرت إلى الآن، وكان الملوك في ذلك الوقت ما منهم إلا من هو مشغول بنفسه، مكب على مجالس أنسه، يصطبج في لهوه ويغتبج، ويجري في مضمار لعبه ويستبق، يرى السلامة غنيمة، وإذا عن له وصف الحرب^(٢)، لم يسأل إلا عن طريق الهزيمة؛ أموال تنهب، وممالك تذهب، ونفوس قد تجاوزت حد إسرافها، وبلاد تأتيها الأعداء فتتنقصها من أطرافها، إلى أن أوجد الله من أوجده لنصرة دينه، وإذلال الشرك وشياطينه، فأحيا فريضة الجهاد بعد موتها، ورد ضالة الملك بعد فوتها؛ ونرجو بقدره الله أن نجلي ديارهم من ناسهم، ونظهر الأرض من أذناسهم، ونجدد للأمة قوة سلطانها، ونعيد كلمة الإيمان إلى أوطانها؛

(١) الزعف: السحاب الذي قد هراق ماءه، وهو مجلل السماء. (القاموس).

(٢) في الأصل: وصف له الحرب.

والله تعالى يثبت في صحائفه أجر السرور بهذه المتجددات ، التي يعظم بها أجر
الحامد الشاكر، ويجعل له أوفى نصيبٍ من نوم^(١) الغزوات، التي أنجد فيها
بهممه؛ والإنجاد بالهمم مثل الإنجاد بالعساكر.

* ومن شعره يداعب ابن البصري الكاتب، وكان رديء الخط: [البسيط]

للمجد خط حكى في القبح صورته ناهيك من خطأ بادٍ ومن خطل
لم يلقه أحدٌ إلا وينشده رميت يا دهر كف المجد بالشلل

وقوله: [المجث]

أُنْبِئْتُ أَنْ كِتَاباً بعثته مع رسولي
ملأته منك طيباً فضاع قبل الوصول

٢١- [ومنهم]: شهاب الدين، أبو محمد [يوسف] بن كمال الدين أبي العباس
أحمد بن عبد العزيز بن العجمي^(٢)، المتقدم ذكر أبيه.

* قائل كلمٍ حسانٍ، وقائد كرمٍ وإحسانٍ، سليل صدورٍ كرامٍ، ورسيل سحبٍ
مغدة وبدورٍ تمامٍ، من بيت في حلب الشهباء رفع على صهواتها، ولزت به

(١) كذا في الأصل. (النون بدون نقطة)

(٢) هو بهاء الدين، أبو المحاسن، يوسف بن أحمد بن عبد العزيز... ابن العجمي، سبط الكمال ابن
العدم، ولد سنة ٦٥٥هـ... كتب المنسوب، ودرّس بحماة، وناب في الحكم بها، وولي كتابة
الإنشاء بدمشق؛ وكان ديناً مشكوراً؛ مات في جمادى الآخرة سنة ٧١٦هـ.

وترجمته في: معجم الشيوخ للذهبي ٣٨١/٢ والدرر الكامنة ٤٤٦/٤ وأعيان العصر ٦٠٣/٥ وتالي
وفيات الأعيان ١٧٨ وتذكرة النبيه ٧٩/٢ والبداية والنهاية ١٨/١٥٥ والدارس في تاريخ المدارس
٤٧١/١.

- وقول المؤلف أعلاه في لقبه وكنيته: شهاب الدين، أبو محمد؛ فلا أدري ما هو.

- مضت ترجمة أبيه برقم ١٩.

الخضراء وسائر أخواتها ، أعاد الصبح العشاء ، وكتب الإنشاء ، وصرف أوامر الوزارة ، وقاسم الوزير حسناته لا أوزاره ، وكلامه عذب المساغ ، للقلوب به شغلٌ وفراغٌ ، كأنما نشر به حلىً أو صباغ ، وكان بريئاً من ظلمة التعقيد ، كأنه الزهر الضاحك في رونق الربيع الجديد .

* ومن نشره قوله في توقيع كتبه لقاضي اسمه يوسف^(١) :

لأنه المستوجب بهجرته إلينا تحقيق ما نواه ، وإنه يوسف الفضل الذي لما قدم مصر قيل لشيمننا الشريفة : أكرمي مثواه ، وأرته أحلامه من الأمانى ما جعلناه صدقاً ، وأنجز الله تعالى له منها ما قال معه : ﴿ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾^(٢) .

فليعتصم من طاعة الله بأقوى حبلٍ ، ويقف عند مرضيه ليجتبيه ويتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبل ، وليتمسك من أسباب التقوى بما يكون له جنّة ، ويحرص على أن يكون الرجل الذي عرف الحق فقضى به ، وكان المخصوص من القضاة الثلاثة بالجنة ، ويجعل داء الهوى عنه محسوماً ، ولحظه ولفظه بين الخصوم مقسوماً ، ولا يال ما يجب من الاجتهاد إذا اشتبه عليه الأمر ، أن يعلم أنه إن اجتهد وأخطأ فله أجرٌ ، وإن أصاب فله أجران ، وصبوب الصواب واضحٌ لمن استشف بنور الله برهانه ، وليتوكل على الله في قصده ، ويثق ، فإن الله سيهدي قلبه ويثبت لسانه ، وليجعل الاعتصام بحبل الله تعالى في كل ما تراود عليه النفوس من دواعي الهوى معاذاً ، ويتبصر من برهان ربه ما يتلو عليه عند كل داعية : ﴿ يوسفُ أعرضُ عن هذا ﴾^(٣) .

(١) النص لأبيه ، ضمن ترجمته في الوافي بالوفيات ٦٩/٧ - ٧٠ .

(٢) سورة يوسف : ١٠٠ .

(٣) سورة يوسف : ٢٩ .

ومنه قوله :

وينهي أنه وردت عليه مشرفة شريفة ، وتحفة ثمنها على الأعناق ثقيلة ،
وبمواقعها من القلوب خفيفة ، فقبلها المملوك ولثمها ، ونثر عليها درر قبله
ونظمها ، ونقل معناها إلى قلبه فشف ، ونقد ذهبها الخالص وأعاده من الصرف ،
وانتهى إلي ما تضمنه من صدقات مولى ملك رقه ، وأتاه من الفضل فوق ما
استحقه ، وأنزل له الكواكب فتناولها بلا مشقة ، وآوى إلى حمى حرمه ، وتغطى
عن عين الخطب بستور نعمه ، ورأى فيه الأزاهر وشم شذاها ، والجواهر وضم إلى
العقود حلاها ، وشكر هذه المن ومن والاه ، وسبح لمن وهب من يحبه هذه
البدائع وأتاها ، وعمل بما أمره به مولاه في أمر تلك الورقة ، وسدد سهمها إلى
الغرض وفوقه ، وتحجب لها فأخلى الطريق وطرقه ، وعرضها في مجلس الوزارة
الشريفة ونشر إستبرقه ، وبرز المرسوم بالكشف ، ويرجو أن يتكامل بالتوقيع ،
ويكمل بالتأصيل والتفريع ، ثم يجهزه المملوك إلى خدمته الكريمة كما أمر ، وما
آخر الجواب هذه المدة إلا ليجهزه معه ، فتعذر وما قدر .

ومنه قوله :

أول من عاودته عوائد فضلنا بمحابها ، وتلقته صدور عوارفنا برحابها ،
ونقلت مكارمنا أطماعه من لامع سرابها إلى نافع شرابها ، من هاجر ولاءه إلى
حرم دولتنا القاهرة ، وكان من أنصارها ، وبادر في هيجاء أعدائها ، فأغرقهم
وأحرقهم بتيارها وبنارها ، وتشوقت المسامع إلى ما تشتهي ، فكان ذكره الجميل
من أعظم أسباب مسارها ؛ والفارغ ذروة هذه الصفات ، القارع مروءة هذه الصفاة ،
الجلس الفلاني ، لأنه جامع محاسنها بمفرده ، والحامي لسرحها ببطش يده ، ورامي
غرضها بصفاء مقصده ؛ حمى الأطراف وحاطها ، ورفع بهمة فعلق بالثريا مناطها ،

وكان واحد أولياء الدولة بأساً لا يكل شباه، وعزماً لا يوفر كاهل الريح يفتاد
جنائبه ويركب صباه، وفضلاً جاملاً جامعاً فاق فيه كل شبيه إلا أباه.

ومنه قوله :

ولا زال بابه الكريم للآمال ملاذاً، وجنابه المحروس من حوادث الأيام معاذاً ،
وثوابه وعقابه لوليه وعدوه هذا لهذا، وهذا لهذا، وينهي أن مولانا - ولله
الحمد- قد جَبَلَهُ الله على فعل الخير وجعله من أهله، وحبب إليه الإحسان
ومكن من فعله، خصوصاً من ينتمي إلى خدمته الشريفة ويلجأ إلى ظله،
ومملوكه فلان ممن يعد نفسه من الأرقاء، ويرتمي إلى مولاته التي هي درجات
السعادة والارتقاء ، وما تهجم المملوك بهذه الخدمة إلا لما كان عند نفسه المثابة،
ولا ثقل على خاطره الشريف إلا لوقوع ذلك من مكارم مولانا بموقع الإصابة، وقد
جعل المملوك السؤال مفتتح عبوديته لمولانا ومولاته، بحسنة قد أهداها إلى
صحائف حسناته .

٢٢- ومنهم : أحمد بن أبي الفتح محمود الشيباني كمال الدين، أبو

العباس^(١)

(١) هو أحمد بن أبي الفتح محمود ، الشيباني الدمشقي، المعروف بابن العطار؛ الإمام الأديب،
الكاتب البليغ، الناظم النائر؛ حدث بصحيح البخاري بالكرك بالإجازة سنة ٧٠٠هـ، وكان ديناً
وقوراً ، عارفاً بفنّ الترسل، خبيراً؛ كتب الدرج بخطه الجميل أربعين سنة . مولده سنة ٦٢٦هـ .
ووفاته في ثالث عشري ذي القعدة، سنة ٧٠٢هـ.

وترجمته في : الوافي بالوفيات ١٦٧/٨ وأعيان العصر ٣٨٥/١ وتالي وفيات الأعيان ٢٥ والنجوم
الزاهرة ٢٠٣/٨ والمنهل الصافي ٢١٠/٢ والدليل الشافي ٨٨/١ والبداية والنهاية ٣١/١٨
وتذكرة النبيه ٢٥٦/١ وعقد الجمان ٢٩٠/٤ -

في الأصل: أحمد بن أبي الفتح بن (؟) محمود.....

* بحر يقذف الدر، وأفق يطلع النجوم الغرّ، وكان للعالم جمالاً، وللدن
 كمالاً، جعل للبيان سحرًا، وللطيب سحرًا، وقدمته الدولة على الرؤساء،
 وعظمتها على الخلطاء والجلساء، وكانت الملوك تنزله منزلة لسانها ويمينها، وتحله
 محلة ترجمانها وأمينها، وظلت تصرف به البأس والندی، ويتصرف في الأولياء
 والعدى آونةً تحسب نسيبه سؤالاً، ويجود بسية نوالاً، وآونةً تحز بقصبة
 الغلاصم، ويجر بكتبه لجدّ الأيدي والمعاصم، وطالما فتحت به المعقل الأشبة،
 وساق سرجها السوام في رياض النجوم المعشبة، ثم قفلت الممالك بأقاليده،
 وقفلت المسالك بتقاليده واصطفته الرئاسة لقربها، وأصفت له السياسة موارد
 شربها، وكتب كُتب السر أكثر عمره، وصرف ديوان الإنشاء مدةً بأمره وكان
 بدمشق عينا لأعيانها، وزينا وحلية لبيانها، راقياً للإيوان، رائساً للديوان، وكان
 عمي ثم أبي لا يعتمد كل منهما إلا على أمانته، ولا يرنح فكره إلا بإيضاحه
 وإبانته، وخطه أبهج من الروض الأريض، وأزين من النقش المخضر على معاصم
 الغواني البيض، وله من كثرة الاطلاع ما حقق له المآرب، وصدق أنه الشمس
 ضوءها يغشى المشارق والمغارب، ولم يكن أكثر منه اتّضاعاً في ارتفاع، وتنازلاً
 وهو في اليفاع، لا يجد في نفسه حرجاً لأحد، ولا مضضاً ممن أنكر حقه
 وجحد، لا يضره أي مكان حله، ولا يضره لبس عباءة أم حلة، وكان يتعرف إلى
 الله عساه ولعله، ويتعرض لقضاء حوائج الناس لله لا لعله، هذا بلا تكلف يشق
 عليه في عرضه مطلوب، أو يشق به لعرضه أردية أو جيوب، مع ملازمته تلاوة
 يؤنس بها جانب الجامع المعمور، ومراة يُشرق بها وجه النهار ويعمر قلب
 الديجور، وعمل زاكٍ صحب به الأحياء، وجاور سكان القبور.

ومن نشره قوله :

طالما حل الرتب العالية بجليل مقداره، وحلى المناصب العالية بجلي أنواره، وما شب على معاطف مناقبه ذوائب فخاره، وهامت الأفكار في أودية محامده وما بلغت وصف محله ومقداره، وافتخر قلم الفتيا براحته، فتباعد السيف عن قربه خوفاً من مهابته، وسدد إلى الحق سهام أحكامه، فأصابت الأغراض وعالج الأفهام بإفهام كلامه، فشفي صحيحه الأمراض، وكان فلان ثمرة هذه الدوحة النضرة، ونشر هذه الروضة الخضرة، فرسم بالأمر العالي أن يفوض إليه تدريس المدرسة الأمينية بدمشق، فليكتب بها دروس فضله التي لا تدرس الأيام آثارها، ويغرس في قلوب طلبتها حب فوائده ليجتني ساعة غرسها ثمارها، لتصبح هذه المدرسة كنيفاً ملئاً علماً، وقلباً حُشي فهماً، وفلكاً تبدي شمساً وتخفي نجماً، وكنانةً تخرج من طلبتها في كل حين سهماً.

قلت: هذا من توقيع كتبه في الأيام الكاملية حين خرج سنقر الأشقر على الملك المنصور لقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان، وقد أخذت الأمينية^(١) له من نجم الدين بن سني الدولة^(٢).
عدنا إلى ابن العطار:

ومن إنشائه رسالته التي سماها «رصف الفريد في وصف البريد»:

أما بعد حمد الله البر، المسير في البحر والبر، والصلاة على من علا البراق،

(١) المدرسة الأمينية، قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي، وهي أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق. (الدارس ١/١٧٧).

(٢) قاضي القضاة، نجم الدين، أبو بكر، محمد بن أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن الملقب بسني الدولة؛ ولي قضاء القضاة بعد كسرة التتار على عين جالوت، فبقي سنة ثم عزل، ثم ولي قضاء دمشق وتدرّس الأمينية؛ كان مشهوراً بالصرامة والهيبة. توفي سنة ٦٨٠ هـ. (الدارس ١/١٩٠).

واخترق السبع الطباق ، وعلى آله وصحبه الذين سبقونا بالإيمان ، وعلى التابعين لهم بإحسان :

فإنه لما كانت النفوس مولعة بحب العاجل ، متطلعة إلى الاطلاع على المستقبل من الأمور والآجل ، لم تنزل أنفس الخلفاء والملوك وأنفس الأكابر من الأمراء والعظماء به كلفة صبة ، وإلى استعلام أحوال ممالكها وعساكرها ورعاياها منصبة ، وعلم مثل ذلك من خلق الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، فبردهم في الآفاق ضاربة ، وطلائعهم تارةً بالمشارك طالعة وآونةً في المغرب غاربة ، كرة في أبحار السراب تعوم ، وأخرى بالآفاق كأنها نجوم : [الطويل]

تروح فتغدو في الصباح طريدةً وتغدو فتبدو في الظلام خيالاً
تستطلع لهم خبراً ، وتطوي وتنشُرُ بساط الأرض ورداً وصدرأ ، وتعوض
أسماعهم بما تنقله إليهم أثراً ، عما فات أعينهم مشاهدة ونظراً : [الكامل]
فلهم وإن غدت البلاد بعيدة طرف بأطراف البلاد موكل^(١)
من كل فتى قد هجر الكرى ، وأشبه البدر فلا يمل من طول
السرى : [البسيط]

وخلف الريح حسرى وهي جاهدةً ومراً يختطف الأبصار والنظرا
قد أعدّ للسفر في ليله ونهاره من الخيل كل أشقر صباح ، وأشهب مساءً ،
وأصفر أصيل ، وأدهم ليل : [مخلع البسيط]

وأجم الصبح بالثريا وأسرج البرق بالهلال
وسابق الظلال فهي تزور عنه ذات اليمين وذات الشمال ، فلا تزال من ورائه

(١) البيت للبحري في ديوانه ١٧٥٢/٣ برواية : وله وإن غدت البلاد عريضة X .

مشرقاً قبل الزوال، ومغرباً بعد الزوال، موكل بفضاء الأرض يذرعه^(١) متوقع أن كل بلد يقطعه: [الكامل]

وكأثما اتخذ البروق أعنةً وكأثما اتخذ الرياح جناحاً

فمما أنبأ الكتاب العزيز من تطلع المرسلين والأنبياء، إلى سرعة الاطلاع من الأمور والأنباء، ماورد في قصة سليمان عليه السلام من طلبه سرعة إتيان عرش بلقيس، ووصوله قبل ارتداد طرفه إليه، وقد نقل عن نوح عليه السلام استبطاؤه الغراب وإردافه له بالحمام^(٢)؛ هذا وقد ضرب المثل بكور الغراب^(٣)، وخروجه في الظلام؛ ولولا اعتقاد موسى الكليم عليه السلام أنه للباري جل جلاله أرضى، لما قال: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾^(٤) وفي سيره، بأهله ومسراه، ناداه ربه بالوادي المقدس: إني أنا الله؛ وما انعقد على رهن السباق والإجماع، إلا لما فيه من فضيلة الإسراع؛ ولم يكن الشيطان الرجيم بمطرود، لو جرى على سجيته في العجلة، وبادر في السجود، ولا سيما وقد خلق الإنسان من عجل؛ وما يعلو المدرك المسرع من أنوار الجدل، وما يغشى المبطل من فتور الخجل، ومن كمال فضيلتي الحج والعمرة، ماهو واجب أو مستحب من الرمل وشتان ما بين المبطة والسريعة، ويبعد ما بين الساقة والطليلة: ^(٥) [البسيط]

(١) هو عجز بيت لابن زريق، وتماه: [ثمرات الأوراق ٤٧٦]

كأثما هو في حلٍ ومرتحلٍ موكل بفضاء الأرض يذرعه

(١) انظر عن غراب نوح: ثمار القلوب ١/ ١٠٠ وحيوان الجاحظ ٢/ ٣١٨ ومجمع الأمثال ١/ ١١٩

(٢) انظر عن بكور الغراب: ثمار القلوب ٢/ ٦٧٥.

(٣) سورة طه: ٨٤.

(٤) البيت للقطامي، في الإعجاز والإيجاز للشعالبي ١٩٢، وعنه في هامش ديوانه ٢ (ط. ليدن) وليس

في ديوانه (ط. بيروت) وهو لأعرابي في الأغاني ٢٤/ ٢١.

وربما فات قوماً جل أمرهم من الثاني وكان الحزم لو عجلوا
وكثيراً ما قيل في القوم : وعداك ذمٌ، وتخطاك لومٌ، وتحركٌ تعشٌ، وسر في
البلاد تنتعش؛ وقال سبحانه وتعالى لخلقه: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من
رزقه﴾^(١) هذا وأشرف الدراري الكواكب السواري، وما الجواري في البحر
كالسواري، وهل أجن إلا الماء الواقف؟ وهل طاب إلا الماء الجاري؟: [الوافر]
وإن لزوم عقر البيت موت وإن السير في الأرض النشورُ
والقعود مع العيال قبيحٌ، ومن يمين النجاح سرعة التسريح: [مخلع البسيط]
والمهد أسكن للصبي بحيث جاء به ومرّاً
وبفضيلة السير في البلاد والانتقال، بلغ البدر درجة الكمال، وأمنت
الشمس المنيرة من الملal: [الكامل]
والصقر ليس بصائد في وكنه والسيف ليس بضارب في جفنه
ولولا ضرب إخوة يوسف في الأرض، لما نجا أبوهم من حزنه، وقد جعل الله
رحلتي الشتاء والصيف للإيلاف، وركني الحج والعمرة للسعي والطواف، وفي
استخلاف من لا يستطيع التحيز للضرورة خلافٌ: [البسيط]
والمرء ما لم يفد نفعاً إقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر
وسعة الخطوة دليل الإقبال، وسبيلٌ إلى بلوغ الآمال، ولا ريب أن العز في
النقل^(٢)، وفي بلادٍ من أختها بدل^(٣): [البسيط]

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) من لامية الطغرائي، في ديوانه ٣٠٦ : إن العلى حدثني وهي صادقةٌ فيما تحدث أن العز في النقل

(٣) البيت من لامية الطغرائي، في ديوانه ٣٠٦ .

لو كان في شرف الثوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوماً دائرة الحمل
والحركة ولودّ، والسكون عاقرٌ، وقد ورد أن الله رحيمٌ بالمسافر، وأنه للخضر
عليه السلام خليفة^(١)، وناهيك شرفاً بهذه الرتبة المنيفة، ولا إنافة على رتبة
الخلافة؛ والسيف إن قرّ في الغمد صدي، والليث لولا الوثوب ردي، ولو
يستوي بالقيام القعود لما ذكر الله فضل الجهاد، ولولا انتقال الدّر عن البحور،
لما عوضت من الحور بالنحور، وكثيراً ما ورد في الكتاب العزيز النهي عن
التباطؤ، والحث على الإسراع: [الوافر]

وليست فرحة الإياب إلا
لوقوفٍ على ترح الوداع
[من الخفيف]

إن فيه اعتناقة لوداع وانتظار اعتناقة لقدوم
وهذا وكم بين رتبة الاتباع ورتبة الاختراع والابتداع، وبين جمود الروية
وتوقد الابتداء وكلالة الرقاد وحدة الانتباه، وشتان ما بين عقلة المشيب ونشطة
الشباب، وحسبك بأنك ﴿ ترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرّ مرّ
السحاب ﴾^(٢)، وقد علمت فائدة الإسراع بمن لا علم عنده ومن عنده علم
الكتاب، وبحركة النبض يستدل على حال القلب، ولولا إدامة الترويح عليه لغم
من الكرب، ولا يقاس موقف المأموم بمقام الإمام، وإذا كانت الشجاعة في
الإقدام، كذلك السلامة في الانهزام، وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأفلاك دائمة
الحركات، وأرسل الرياح مبشراتٍ، وللسحائب مسيرات، وبأرزاق العباد
جاريات، وأقسم سبحانه وتعالى بالعاديات والمرسلات، وللإسراع سخر لمح

(١) انظر عن خليفة الخضر: ثمار القلوب ١/ ١١٩.

(٢) سورة النمل: ٨٨.

الخير عليه السلام الريح والطير، هذه غدوها شهر ورواحها شهر، وهذه تستطلع له أنباء الملوك فتستنزلهم على حكم الذل والقهر، ولذلك درجت الملوك الحمام ورتبت البريد، فبلغت بهما في الوقت القريب ماتريد من غاية المرام البعيد، وقربت لهم مستبعدات المطالب، وأطلعتهم بسرعة الإعلام على نهايات العواقب، فبلغت هذه بسرعة إيصال البطائق، مالم يكن أحد من البشر بطائق، وارتفعت مخلقة في الهواء، وحلقت مسخرة في جو السماء، وما خفقت بأجنحتها إلا وقد وافت بالبشرى مخلقة وما أخفقت، وما خضبت كفها وتطوقت إلا للسرور وصفقت، وما حفظت العهود من الأسرار، وما ردها الحنين إلى الأوكار، وما قطعت مسافة في ساعة من نهار، وما وما وما، ولا عرجت طائفة نحو السماء إلا وقد ذكرت عهداً بالحمى، إلا أن بطائقها ربما نقلت من جناح إلى جناح، وحصل بنقلها أعظم خطر وأوفر جناح، وكشف خدرها، وأذيع سرها، فغدت مذاعة السرائر، وكانت محجوبة عن مقلة كل طائر، وذاك حافظ لما استودع من الأمانة المؤداة، أمين على ما حمل من النفقات والمشافهات، إلى الأجانب وأهل المودات، حريص على إيصال كتبها، صائن لها في حربها، صيانة الصوارم في قربها، والعيون بهدبها، يوصلها بطيها مختومة بخاتم ربها، فهو السهم الخارج عن كبد القوس، لا يزيغ عن الغرض، وتلك ربما جرحها الجوارح، وعرض لها بالبنادق من اعترض؛ وصدها عن بلوغ المرام، غموم الغمام، وعموم الظلام، وقطع^(١) طريقها، وحتم تعويقها، وقضى وحكم عليها بالتأخير، لأنها فيهما لا تطير، وذاك في الليل والنهار، والصحو والغيم يسري ويسير، ولذلك لا تسرح الحمام في المهام، إلا ويرسل تحتها البريد، مؤرخ بتاريخها فهو لها وعليها سائق وشهيد، وهي وإن شهد لها المترنم المنتدم، بالفضل والتقدم، والفضل

(١) لعل الصواب : فقطع طريقها.

للمتقدم، فرمما تقدمها البريد وسبق، وكثيراً ما توافيا فكأنما كانا على ميعادٍ
 فجاءاً معاً، في طلق كفرسي رهانٍ، وشريكي عنانٍ، وافتن فيه الناظرون وهو
 يحضر، فأصبح يومئٍ إليه بها وعين تنظر، هذا وكم شابت لقعقة لجامه
 النواصي، وزينت لمقدمه البلاد والصياصي، وسرى وجفن البرق خوفاً وطمعاً
 يغامر ويختلج، فلذلك تارة تردُّ بما النفوس به تبتهج، وتارة بما الصدور به
 تنحرج، وتشاهد بما ينزل من السماء وما في الأرض يلج، وسرى وعيون القطر
 دامعة، وسيوف البرق لامعة، وسيول العيون للطرف قاطعة، ونبال الويل في
 أكباد الأرض صادعة، ووافي المنازل والخيول بها طالعة، وبعد أن أصبحت طائرة
 أمست تحته واقعة، وكم حال دون^(١) مرامه من أوجال أو حال، وعلق لثقي ووهق
 زلق، يمنعه في سوقه من استرسال، بأوثق شبة وشكال، وعام في أملاقٍ إلى
 الذقن لا إلى الوسط، وتقطر فوافي ويده مغلولة إلى عنقه وكانت مبسوطة كل
 البسط، أو بات بعد أن كان راكباً نازلاً، وبعد أن كان محمولاً لسرجه وجرايه
 على كتفه حاملاً، وسرى وطرفه بالسماء موكل، ونزل بمنزل ليس له بمنزل،
 وليس به ما يشرب ولا به ما يؤكل: [الرجز]

بهمه فيه السرابُ يلمحُ وليلهُ بجـوه مطرَح
 يدأب فيه القوم حتى يطلحوا ثم يظنون كما لم يبرحوا

كأنما أمسوا بحيث أصبحوا

[الكامل]

يمشي زميلاً للظلام وتارة ردفاً على كفل الصباح الأشهب
 ويعدو كالحبال يمشي إلى ورا، ويغدو فلا يسأل عن السُّلَيْك ولا عن

(١) في الأصل : دونه.

الشنفرى، أو جاءت به عنس من الشام تلق ، بعد أن كان يطوي الأرض بسوقه
ويخترق، وقد فلى الفلا، وقيل له: هكذا هكذا وإلا فلا^(١): [البسيط]

يوماً بحزوى ويوماً بالعيق ويو
مأ بالعذيب ويوماً قصر تيماء
وتارة ينتحي نجداً وآونة
شعب الغوير وأخرى بالخليصاء
فكم قطع أرضاً وركب ظهراً ووجد رفقاءً، ولم يكن كالمنبت لا أرضاً قطع ولا
ظهراً أبقى ، وقلما جهز إلا في مصلحةٍ من مصالح المسلمين العامة، الشاملة
للأمة المحمدية من الخاصة والعامة؛ ما آب من سفرٍ إلا إلى سفرٍ وما سفر في مهمٍ
إلى بلد فقيل: إنه سفر ولكنه ظفر: [الطويل]

كأن به ضغنأ على كل جانبٍ
من الأرض أو شوقاً إلى كل جانب
ورد مبشراً وللمسار في الوجود مسيراً، فأزال العناء، وأنال المنى، وأفاد
الغنى، وانثالت عليه الجوائز والتشارييف من ههنا ومن ههنا: [البسيط]

ما درت الشمس إلا جاء يقدمها
وفي المغارب منه قبلها أثرُ
وكاد لشدة إحضاره ، يسبق أذني جواده في مضماره، فتراه لسرعة سيره، لا
يرتد طرفه عن أمد حتى يتعداه إلى غيره، فهو أبداً يسبق طرفه إلى ما يرمى، وما
يستولي طرفه على أمدٍ إلا ويتجاوزه ويسبق، فيكاد يأخذ مغرباً من مشرقٍ،
فيبلغ غاية الأقطار، ويخترق من الآفاق حجب الأستار، حتى يقال: إنه ما سار
ولكنه طار، وفي الأرض طار: [السريع]

قال له البرق وقالت له الر
يخُ جميعاً وهما ماهما
أأنت تجري معنا؟ قال: إن
نشطت أضحككما منكما

(١) هما لعبد الله بن أحمد بن الحارث المعروف بالخازن، شاعر بني عبّاد ، في بيتمة الدهر ٣/ ١٩١ و

معجم البلدان ٢/ ٣٨٦ والطبقات السننية ٤/ ١٢٤.

أنا ارتداد الطرف قد فتته إلى المدى سبقاً فمن أنتما
ولم يزل البريد مرتباً فيما تقدم وسلف من الأيام؛ ومعاوية أول من أحدثه في
الإسلام، وأحكم أمره الذي حكم البلاد شرقاً وغرباً، ونظر إلى السحابة فقال:
أمطري أنى شئت، فخراجك إليّ يجيء^(١)؛ وعلم أنه من أعظم مهمات الملك
العظام، فقال: ربما فسد بحبسه ساعة تدبير عام: [الطويل]

فدانت له الدنيا فأصبح جالساً وأيامه فيما يريد قيام
لا سيما في هذا العصر، وعدو الدين قد أمر أمره، واستشرى شره، وامتدت
أطماعه في البلاد، وسرى فيها منه الفساد، مَسرى السم في الأجساد، وهو أولى
الأمور التي لا يستأذن عليه، وقد وافى مسرعاً، والذي يُقال له: لعا، إذا قيل
لسواه لا لعا: [البسيط]

وجاء منه بقرطاسٍ يخب به فأوحش القلب من قرطاسه فزعا
وقد أقام الله بهم للإسلام، بالديار المصرية والشام، كل شهمٍ أمضى من
سهم، وأبعد غاية من نجم: [الوافر]
إذا جارته شهب الأفق قالت: أعان الله أبعدنا مرادا

محمود الطرائق، مقبول الخلائق عند الخلائق، خفيف الحركات، مسارِعٌ إلى
الحركات، قصيف يرجح به ظله، خفيف على ظهر المطية حملة، وإذا كان الناس
أرواحاً وأجساماً، فهو روحٌ كله، عارفٌ بالآداب، والسلوك، للمشول بين يدي
الأمراء والسلطين والملوك، عذب العبارة، خفي الإشارة، منجج السفارة، كتوم
الأسرار، موفق الإيراد والإصدار، صادق اللهجة، ثابت العدالة، مليٌّ بأداء

(١) يقصد الخليفة العباسي هارون الرشيد.

السلام وإبلاغ الرسالة، ليست معرفته على آداب السفر مقصورة ، جامع بين أدب النفس وأدب الدرس ، حسن الاسم ، وضي الرسم^(١)، سوي الوسم، سريع إلى الداعي، مبادر إلى امتثال الأوامر والدواعي، ما يفوه بالجواب إلا ورجله في الركاب ، فهم ، متى رسم لهم بالسفر يسارعون، وإلى الإجابة يهرعون ، وعلى الخدمة أنفسهم يعرضون ﴿ كأنهم إلى نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴾^(٢) والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿^(٣)

[البسيط]

لا يستقر بهم ريع ولا سكنٌ كأنهم فوق متن الريح نُزَال
ما ندب منهم ندب لهم إلا وبادر مطيعاً، وما غاب إلا ثاب سريعاً، فما ماثله في السير ذكوان، ولا ضاماه حذيفة بن بدر وقد ساق هجان النعمان^(٤): [الكامل]
ألف النوى حتى كأن رحيله للبين رحلته إلى الأوطان
والله سبحانه وتعالى يطوي البعيد لمن يشاء من خلقه، ويسهل العسير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.
إلا أن حضور النيات التي بها انعقاد الأمور الدينيات ، لا يحصل إلا بالثبات والأناة، والطمأنينة في الركوع والسجود كمال الفرض ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾^(٥) وكما ورد في التنزيل النهي عن

(١) في الأصل : ومن الرسم !

(٢) سورة المعارج : ٤٣ .

(٣) سورة الواقعة : ١٠ .

(٤) انظر عن مسير حذيفة : ثمار القلوب ١ / ٢٥١ وعيون الأخبار ١ / ١٣٨ .

(٥) سورة الرعد : ١٧ .

التباطي، ورد النهي عن التسرع وسببه ، فقال عز من قائل: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾^(١) ونهى عن العجلة تارة في الخير وتارة في الشر ، قولاً جزماً ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عدأً ﴾^(٢) ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً^(٣) ، ولا ريب أن الثبات من الله تعالى ، والعجلة من الشيطان الرجيم ، وأن الله عز وجل امتنَّ بالتثبت على النبي الكريم ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾^(٤): ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾^(٥) كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً^(٦) وإن ورد عن سليمان عليه السلام طلب الإسراع في الكتاب المين، فكذلك ورد عنه التثبت في قوله تعالى: ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾^(٧) وبماذا يصف الواصف ، أو ينعت الناعت ، فرق ما بين العجلة والتأني؟ وبين البروج المتقلبة والبروج الثابت؟ وبالتأني يحصل التأني ، ويكون المرء من أمره على بصيرة ، ويشاهد في مرأى مرآة فكره صورة الخيرة ، ويأمن من تردد الخيرة ، وقد قيل : أصاب متأناً أو كاد ، وأخطأ مستعجلاً أو كاد ، وحصل على أنكادٍ وأي أنكادٍ ، ولولا التأني قبل إرسال السهم لم تحصل به النكاية ، ولولا التثبت قبل إطلاقه ما وصل إلى الغرض ولا بلغ الغاية ، فالعجلة والندامة فرسا رهانٍ وشريكا عنانٍ ، وإن حمد المجلي يوم الرهان؛ وما

(١) سورة القيامة : ١٦ .

(٢) سورة مريم : ٨٤ .

(٣) سورة طه : ١١٤ .

(٤) سورة النساء : ١٢٢ .

(٥) سورة الإسراء : ٧٤ .

(٦) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٧) سورة النمل : ٢٧ .

زالت ثمرة العجلة الندامة، وربما كانت الهلكة في العجلة، وفي التؤدة
السلامة، وفي الثبات والأناة مالا يحصر من أمر العواقب في سائر الحالات؛
وأُسرع السحب في الجهام، وما الإقدام في كل أمرٍ من الشجاعة، ولا الثبات
من الإحجام: [البسيط]

والحرب ترهب لكن الأناة لها عند التأيد أضعاف من الرهب
لا يامن الدهر بأس الجمر لامسه وقد يروح سليماً لامس اللهب
والتسرع خرقٌ، والأناة حلم ووقارٌ، والتثبت دليل القدرة من الله عز وجل
مثبت القلوب والأبصار، وفرق سبحانه وتعالى بين الشجرة الثابتة والشجرة التي
مالها من قرارٍ.

وما كان الثبات في شيء إلا زانه، ولا التسرع في أمرٍ إلا شأنه؛ ومع العجل
الزلل، ومع الزلل الخجل، ومع الخجل الوجل، ومع الوجل الخلل الجلل .
وللثبات وثبات وأي وثبات، وقليلاً ما حصل النصر والظفر إلا بالكمين
والبيات؛ وقد حكم الصادر والوارد، والمداني والشارد، وأقر المعترف والجاحد،
واعترف الصديق والعدو والحاسد، وسارفي الأقطار والآفاق، وبلغ من بمصر
والشام والروم والعراق^(١): [الطويل]

وسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغني مغرداً
ما حصل للإسلام والمسلمين من الانتفاع، ولعدو الدنيا والدين من الوهن
والضعف والاندفاع، بثبات المقر العالي الجمالي، كافل الممالك الشريفة
الشامية، أعز الله أنصاره، ومقامه على المرج، مع قوة الهرج وكثرة المرج، وأنه قام
بذلك للدين نصيراً، وللملك ظهيراً، وأخذ هو ومن أقام بخدمته من العساكر

(١) البيت للمتنبي، في ديوانه ٢٩١/١.

الشامية بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا
واذكروا الله كثيراً ﴾ ^(١) : [الوافر]

سديد الرأي لا فوت التائي يلم به ولا زلل العجول
يعيب مضاءه وقفات حلم كعيب المشرفية بالفلول

وقد كان العدو المخذول يظن أنه يركن إلى الإحجام ، ويتربص الدوائر
والعرصات من سهام الأيام ، فأخلف الله ظنه ، وعجل هلاكه ، وضعفه ووهنه ،
وتحقق أنه الطود الذي لا يلتقى ، والصور الذي أحاط بالشام فما إن يُتسور ولا
يُرتقى ، فأجفل إجفال الظليم ، وطلب النجاة لنفسه ولم يلنو على مالٍ ولا حريمٍ ،
وحفظ الله تعالى بثباته الإسلام ، ورفه خواطر أهل الديار المصرية ، وصان أهل
الشام ، وعادت العساكر المصرية إلى بلادها ، عود الصوارم إلى أغمادها ،
والأجفان إلى رقادها ، والجنوب إلى مهادها ، وافتدى بالسلطان الشهيد قدس الله
روحه كما مضى وسبق ، وجاءت النصره بحمد الله تعالى كما أراد لا كما اتفق ،
وأصبح وأمسى يثني عليه عدوه ، فيقول حاسده : صدق ؛ وبدل الله المسلمين
بالأمن بعد الأوجال ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله
المؤمنين القتال ﴾ ^(٢) . وكان من خبر كذا وكذا .

قلت : ولشهاب الدين محمود في معنى ذلك :

أما بعد حمد الله ، ميسر أسباب النجاح ، وجاعل قوائم العاديات في مصالح
الإسلام كقوادم ذات الجناح ، فهذه تطوى لها الأرض كما تطوى لذي الصلاح ،
وتلك يتسع لها مجال الفضاء كما يتسع لمرسلات الرياح ، وربما تساويا في سرعة

(١) سورة الأنفال : ٤٥ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٥ .

القدوم، وامتازت الخيل في سرى الليل بمشابهة الفلك ومشاركة النجوم، إلا أن الخيل يعينها قوة راكبها وثباته، ويغريها بالسبق حدة عزم راكضها وثباته، ويطوي لها شقة الأرض حسن صبره على مواصلة السرى، ويقرب لها النازح طول هجره لطيف الكرى، حتى إن بعض راكبي بريدها يكاد يعثر طوق ليله بذيل صاحبه، ويلتبس على ناظره ومنتظره غدوه في المهمات برواحه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي كان الرعب يتقدمه مسيرة شهر إلى العدى، والوحي يأتيه من السماء بخبر من راح لحربه أو اغتدى.

فإنه لما كان البريد جناح الممالك، ورائد المهمات الإسلامية فيما قرب أو نأى من المسالك، وبه تنفذ المهمات في أوقاتها، وتتوافق الحركات فيما يتعين من ميقاتها، وتعرف أحوال الثغور على اتساع أطرافها واختلاف جهاتها، كان المبرز في ذلك من عرف منه السبق وألف، وسلم له التقدم في السرعة من نظرائه فما ارتيب في ترجمه ولا اختلف، فكأنه شهاب يتوقد في سمائه، أو برق تألق في أذيال الغمام بسرعة وميضه وانطوائه.

ولما كان فلان ممن جلى في هذه الحلبة، وبرز في ارتقاء هذه الرتبة، فبلغ إليها غاية لا يشق غبارها المثار، ونشر منها راية لا يتعلق منها الريح الخوافق بسوى مشاهدة الآثار، فسار على البريد في قوة الهواجر المثبطة وشدتها، وقصر الليالي المعينة على السوق وتقارب مدتها، من دمشق المحروسة إلى الديار المصرية في يومين ونصف، فكان له بذلك مزية على أقرانه، ودرجة لا يرتقي إليها إلا من جاره إلى مثلها في ميدانه؛ وسأل من علم ذلك أن يكتب له خطه بما علمه، وأن يشهد له بما تحققه من هذه الحركة التي رفعت بين الأكفاء علمه.

عدنا إلى ابن العطار:

ومنه رسالته في البندق أولها:

أما بعد حمد الله على ما أسبغ من نعمائه، ووالى من آلائه، وأباح الإنسان من شرائه، وفسح له فيما يتدرب به ليوم هيجائه، ويعدّه من قوة لدفع الصائل عليه من أعدائه، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه وعلى آله وصحبه وخلفائه وحلفائه، مامدّ الكف الخضيب وتر البرق لقوس الغمام، وحلق طائر الفجر نحو الغرب من وكر الظلام، فإن الصيد مما اتفقت الشرائع المختلفة على تحليله، ولهجت النفوس الأبية، بتقديمه على سائر الملاذ الرياضية، وتفضيله مع أنه الراحة التي لا تنال إلا بتجشم التعب، والمسرة التي لا تدرك إلا بعد النصب واللعب، وألذه من القلوب موقعاً، وأمكنه من النفوس موضعاً، ما أدركه المرء بنفسه واكتسابه، لا بمشاركة بزاته وفهوده وكلايه؛ ولذلك أجهد نفوسهم فيه كثير من الملوك والخلفاء، ولم يرضوا بالصيد من وجه الأرض، فعمدوا إلى الصيد من كبد السماء، ولم يجدوا ذلك إلا في صرع الطائر الجليل، الذي لا يشترك فيه صغير مع كبير، ولا حقير مع جليل، ولو لم يكن فيه مع حصول المراد، إلا السلامة من التقطر عن الجياد، لكان أولاهها بالاختيار، وأحقها عند الاختبار، وأنفوا من بقايا كسائر، كأشلاء الذئب، وفضلات ما أكلته الفهود، وولعت به الصقور، وولغت فيه الكلاب، فعمد كل منهم إلى الانفراد في رمائه، وصرع كل طائر يتخبط في ذمائه، مخلّق بدمائه، مراصد بارتقائه لعيون الأوتار في التفافه وتحليقه، حذر في حالتي اجتماعه وتفريقه، وتغريبه وتشريقه، وإذا فكر اللبيب فيما أودعه الباري جلّ جلاله من القوى فيها، ظهر له أسرار ما أخفاه من بدائع صنعه بين قوادمها وخوافيها.

فمنها التَّم^(١)، الذي هو أتمها صورة، وأعظمها سورة، قد علا على الغيوم لرمي بنادق النجوم، وخاض بحر الظلام، وعب فيه، وأخذ منه قطعةً بساقيه وقطعةً بفيه، حتى ورد على جبال من بردٍ، فاكتسب منها رياشه، واكتسب من بياضها أرياشه.

ثم الكي^(٢)، الذي هو في طيرانه، واعتنانه في مضماره واستنانه، كالفراس في ميدانه، كأنه النجم في حالة الرجم، لو عارضه السماك لاقتلعه، أو الحوت لابتلعه.

ثم الإوز^(٣)، الذي يمشي متبخترًا، وينقر متحذرًا، كأنما يدوس على مثل حد السيف ويمتاز على أبناء جنسه برحلة الشتاء والصيف، يبیت على فرد رجل واحدة، ويرمق موهما أن عينه راقدة، وليست براقدة.

ثم اللغليغ^(٤)، الذي يوافي من بلاد الخزر، ولا يتقي من البندق سهام القدر، ولا يخشى أن تصيبه عين من الوتر، لا يُحارب إلا بسحر الجفون من خزر العيون، ولا يستجن إلا من تدبيح الصدر بزرد موصون.

ثم الأنيسة^(٥)، تنهادى تهادي الطاووس، وتختال اختيال العروس، حتى تلتقط حبات القلوب، وتصيد سوافر النفوس؛ كم قطعوا في طلبها من أنهار نهارٍ، وسمحوا بإنفاق أكياس النجوم من خزائن الليل وما فيها من درهم ودينارٍ، فما فازوا بوصالها، ولا ظفروا إلا من على وجه الماء بطيف خيالها.

(١) التَّم: طائرٌ نحو الإوز، في منقاره طولٌ، عنقه أطول من عنق الإوز. (حياة الحيوان ١/٢٣١).

(٢) لم يذكره العمري في مسالك الأبصار ج ٢٠، ولا الدميري في حياة الحيوان.

(٣) مسالك الأبصار ٢٠/٦٤ وحياة الحيوان ١/٦٦ والمستطرف ٢/٤٤٦.

(٤) هو اللَّفْلَقُ. مسالك الأبصار ٢٠/٩٠ وحياة الحيوان ٢/٣٠٨ والمستطرف ٢/٥١٩.

(٥) حياة الحيوان ١/٦٤ والمستطرف ٢/٤٤٦.

ثم الحُبْرُج^(١) ، الذي تهادى في مشيته غير مروع ، وكأنما على كتفيه بقايا من صدأ الدروع ، لم يتدرع بمقاصة الأنهار ، ولا أوى إلى ظل الأشجار ، بل برز كأنه مناجز ، يشير ألا هل من مبارزٍ .

ثم النُّسْرُ^(٢) ، الذي علا عليها شأنًا ، وغدا لها سلطانًا ، وسار فيها بالعفاف عن دمائها أجمل السير ، وتحصن من قنة الجبل بقبة السماء ، فأصبح صاحب القبة والطير ، حتى لقد ضج الأبد من عمر لُبْد^(٣) ، لما طالت صحبته له على رغمه واستعان به النمروذ في الصعود إلى السماء على زعمه ، فما ظنك بفتية تقصد صرع من هذه قواه ، ومن جملة أنجم السماء أخواه ، لو صارعه عقاب الجو لصرعه ، أو عارضه أحد النسرين لما قدر أن يطير معه .

ثم العُقَاب^(٤) ، التي اشتهر منها الشهامة والضرادة ، حتى اشتهر ما بينها وبين الحية من العداوة ، فإنها توسد فرخها لحوم الأرناب ، وما عنقاء مغرب عندها إلا كبعض الجنادب ، وطالما حلق وراء كل جيش عصائب منها تهتدي بعصائب^(٥) ، من كل لقوة ذي دكنة وقوة ، تخال الغواني ضمختها بالغوالي ، أو درعتها الغوادي مدرعة الليالي^(٦) : [الطويل]

(١) مسالك الأبصار ٦٨/٢٠ وحياة الحيوان ٣٢٢/١ . وهو ذكر الحُبَارَى .

(٢) مسالك الأبصار ٩١/٢٠ وحياة الحيوان ٣٥٠/٢ والمستطرف ٥٢٢/٢

(٣) يشير إلى قول سهل بن أبي غالب الخزرجي ، يذكر طول عمر معاذ بن مسلم مولى القعقاع بن شور :

قُلْ لمعاذ إذا مررت به : قد ضج من طول عمرك الأبد

ولُبْدُ : هو النسْر السابغ للقمان بن عاد . وانظر مادة «نسر لقمان» في ثمار القلوب ٦٩٤/٢ .

(٤) ثمار القلوب ٦٦٤/٢ ومسالك الأبصار ٨٤/٢٠ وحياة الحيوان ٣٧/٢

(٥) إشارة إلى قول النابغة الذبياني : [ديوانه ٥٧]

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

(٦) البيت لامرئ القيس ، في ديوانه ٣٨ .

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

وأما التي تجهل بأسباقها، ولا تجهل بأعناقها، فنقول :

ثم الكركي^(١)، الذي فاق العقاب في قوة طيرانه والنسر، وأم مصر من الدربندات^(٢)، ولم يبعد على عاشق مصر، نجعت من أقصى البلاد وآفاقها ، خوارج في طلب أقواتها وأرزاقها .

ثم الغرائيق^(٣)، التي لا تبرز إلا محمرة الحلق، لقوة الغيظ وشدة الحلق، حذرة من قوس الرامي وبندقه ، مدرع كل طائر منها محبوبك الزرد من مغرزه إلى مفرقه .

ثم الضَّوْع^(٤) الذي زاد على الطيور طولاً وعرضاً، وأعد للدفاع من مغرزه ماهو أنكى من السيف والسنان وأمضى، وطالما رام الرامي إلحاقه بإرسال البنادق وراءه، فأتعب جياذ القسي وأنضى، كأنه قطعة من الغيم تصرفها الرياح، أو بقية الغلس من الليل على وجه الصباح، وكأتما ورد مرة نهر المجرة، ورعى نرجس نجومه كرة، وخاف أن يكون له إليها كرة .

ثم المِرْزَم^(٥) ، الذي يبارز بجوشن مورد وجؤجؤٍ مزرد، كأنه صرح ممرد، كأنما خرج من الهيحاء في طلب النجاء، وبه رشاش من الدماء، فتبصر فإذا الطير مسخرات في جو السماء .

(١) مسالك الأبصار ٩٧/٢٠ وحياة الحيوان ٢٤٤/٢ والمستطرف ٥١٥/٢ .

(٢) دربند : هو باب الأبواب ، مدينة على بحر الخزر (معجم البلدان ٣٠٣/١ و ٤٤٩/٢)

(٣) مسالك الأبصار ٨٦/٢٠ وحياة الحيوان ١١٣/٢ .

(٤) حياة الحيوان ٦٤٩/١ . قيل : هو ذكر البوم

(٥) حياة الحيوان ٣١٤/٢ . وهو من طيور الماء .

ثم السَّبَّطَر^(١)، الذي يبارز مبارزة الشجاع، ويلتقم الأفعوان والشجاع، قد تبدأ الرماة بصدرة وبنحره، وليس جوشنه من جناحيه إلا قدومه ووراء ظهره.

ثم العناد^(٢)، الذي اشتد بأساً، واختار شعار الخلفاء لباساً، وما سمح بإظهار ذوائبه وأشرافها، إلا ليعلم أنها من عظماء الطير أشرفها، قد تحلى من الحدق المراض، بالضدين من السواد والبياض، وما منها إلا ما يزاحم النجوم بالمناكب، كأنه يحاول ثأراً عند بعض الكواكب، لا يبرز إليها رام إلا راجلاً وهو مشمرٌ للذيل، غارقٌ إلى وسطه في وحل وسيل، يصرع فارساً من السماء على أشهب الصبح وأشقر البرق، وأدهم الليل.

ومنه قوله:

وأعلى في الخافقين خوافق أعلامه، وبسط على البسيطة قوادم عدله وخوافي إنعامه، حتى لا تشرق شمس إلا على ما ملكت يمينه، ولا تلقاه ملكٌ إلا خضع له بالسجود جبينه.

الملوك يقبل الأرض، ويجمع بين الطهورين، صعيدها الطيب، وسحابها الصيب، وينهي ورود المثال الشريف، فتناول منه كتاب أمانه باليمين، وأعطى بمبايعته اليمين، ولثمه وهو موضع رغبات اللائمين، وورده فرأى العجب، إنه البحر العذب، ولا يقذف من الدر إلا الثمين.

ومنه قوله:

وكانت المملكة الحلبية من ممالكنا بمنزلة السور على البلد، والروح من

(١) حياة الحيوان : ١/ ٥٤٩.

(٢) لم يذكر في مسالك الأبصار، ولا في حياة الحيوان للدميري.

الجسد ، وقد علم تعلق الروح بالجسد ، واتفق لها الانتقال إلينا ، ولنا بها إلى ربه الانتقال ، وأصبحت من يميننا في اليمين ، وكانت وهي من الشمال في الشمال ، ولم نر لها إلا من غذي بلبانها ، وعُني بشأنها ، وعد فارس حلبتها يوم رهانها ، فطالما طمحت إليه بنظرها ، واحتمت به من غير الأيام وغررها ، فكفها الأمور الجسام ، وحمى حماها وكيف لا تحمى وهي ذات جوشن بالحسام ، ولم يزل طامح نظره حولها يدندن ، ولهجة أمله بها تلجلج ، وعنها لالا ترن^(١) ، رأينا إنالته هذا المطلوب ، وقضينا له منها حاجة كانت في نفس يعقوب ، وحكمناه من ذلك فيما طلب ، ومثله من حلب الدهر أشطره ، ونال الزبدة من حلب .

وكان الجناب الحسامي هو الجناب الخصب لرائده ، العالي عن مسامطة مستاميه ويده ، فخرج أمرنا العالي أن يفوض إليه نيابة السلطنة المعظمة بالمملكة الحلبية ، وقلدناه أمورها ، ومن أحق من الحسام بالتقليد ؟ وجردناه للانتصار به ، ويظهر أثر الحسام عند التجريد ، وليتفقد الجيوش ولا يفسح لهم في الركون إلى الأعذار والميل ، وليتل عليهم ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾^(٢) ولا يستخدم إلا كل شهم شهد الوقعة ، إذا قفل الجيش كان ساقه ، وإذا توجه كان طليعة ، والبريد والحمام ، هما رسل المهام وأعلام الإعلام ، وأرسلهما في كل مهم معاً ، وليجمع بين تجهزهما وإن لم يجتمعا ، وليرتب أمورهما على أجمل الأوضاع ، ليتوافيا على انفراد واجتماع ، فكثيراً ما سبق البريد السائر ، وجاء قبل الطير الطائر ، فبلغ المرام ، وعاق الحمام الحمام .

ومنه قوله :

(١) كذا في الاصل .

(٢) سور الانفال : ٦٠ .

أعز الله أنصار المقام، ولا زالت مكارمه كالبحر تقذف لمن جاز به بدره، والروض يسابق من مر عليه بنشره، والمسك يبادر من دنا منه بعطره، والغيث الذي لا يقتصر على سائله بفيض قطره.

المملوك يقبل الأرض التي من حل بها نال الغنى، ومن خيم بدارها نال المنى، وما اجتاز بها إلا من وافاه إسعافه وإسعاده، وما سار أحد في الآفاق إلا ومن إنعامها راحلته وزاده، وينهي ورود كتاب فلان، يصف إحسان مولانا إليه وإنعامه، وما تعجل في مقامه الأمين من دار الكرامة، وإقامته به وبعسكره في حالتي توجهه وعوده، وشكر سحابه العميم وجود جوده، وشكر المملوك عنه صدقات ملل لا يخلو نازل من إكرامه، ولا راحل من إنعامه، ولا يزال في الإقامة والظعن، إما يؤويهم إلى كنفه أو يرسل عليهم ظلة من غمامه، وتلك سجية مولانا التي جبلت على الإحسان إلى كل إنسان، واصطناع المعروف إلى المعروف وغير المعروف، والله تعالى يوزع الدهر شكر مولانا الذي شمل بره الأنام، وسطرته أنامل الحمد في صحائف الأيام.

ومنه قوله:

ووصلنا معه طرابلس، فنزل بساحتها، وجعلها للعساكر المنصورة موطن راحتها، وموطن إباحتها، وقد تكفل البحر لها بالامتناع، وضمن لها ما يزيد على حصانة القلاع، وأمدّها من بلاد الفرنج كل يوم بمدد، وواصلها بالمرائب الكثيرة العدد، بما يزيد على أمواجه في العدد، فوصل رسل أهلها وتوسلوا بالذرائع، وبذل الأموال والقطائع، وعمارة المئذنة والجامع، فلم يقنع منهم بغير الإسلام، أو تسليم البلد بجملته، وإعادة القبلة من شرق بيعة إلى قبلته، فاعتصموا بالأسوار، وركنوا للقتال من وراء الجدار، وأطلقوا نحو كل سهم من

المنجنيق يشير عليهم بنانه بالإيمان ، ويميل تارةً إليهم وتارةً إلينا ويميد كالنشوان، فنصبنا مجانيقنا قبالة مجانيقهم التي نصبوها من وراء أسوارها، ولم نزل ترميهم حتى عاد السور رميماً، والحجر الذي كان بأعلى الأبراج في أسفل الخندق هشيماً، وكثيراً ما كانت تتبر مجانيقهم فتقضي عليهم ببوارهم، وتبشرهم من أول أمرهم بإدبارهم، وتصيبهم قارعة بما صنعوا أو تحل قريباً من دارهم، فرجعت عليها العساكر المنصورة، وفي عاجل الوقت ملكوا الباشورة، فعلموا أنه لم يبق سوى الإِسار، أو القتل أو الفرار ، فالتبست على كل منهم مذاهبه^(١): [الطويل]

فراحوا فريقاً في الإِسار وبعضهم قَتيلٌ وبعضٌ لاذ بالبحر هاربه
فهجمت العساكر المنصورة عليها هجوم الليوث الضواري، وعاجلت أكثرهم
عن الالتجاء إلى المركب أو الاعتصام بالصواري، وتصرفت فيمن بقي منهم يد
القهر، وتنوعت فيهم من القتل والنهب والسبي والأسر.

ومنه قوله مما كتبه إلى أبي الفضل بن عبد الظاهر^(٢): [السرّيع]

سقى وحيّا الله طيفاً أتى فقمّت إجلالاً وقبّلته
لشدة الشوق الذي بيننا قد زارني حقاً وقد زرتّه

وافى من الجناب العالي المحيوي، آنس الله المملوك بقربه، وحفظ عليه منزلته من قلبه، وهدهاه إلى الطريق الذي كان قد ظفر فيها بمطلب البلاغة من كتبه، ولا شغله بسواه حتى لا يسمع غير كلامه، ولا يرى غير شخصه ولا ينطق إلا بذكره لغلبة حبه، ولا رآه في المنام، ولا رآه في خفية واكتتام، ولا شاهده بدعوى

(١) البيت لبشار بن برد، في ديوانه ٣٣٦/١.

(٢) البيتان له (= ابن العطار) في الوافي بالوفيات ١٦٨/٨ والمنهل الصافي ٢١١/٢. والنص في الوافي بالوفيات

الأحلام، بلى فإن المنى أحلام المستيقظ، وهو به طول المدى حالم والناس نيام، ولا ينكر الإخلال بالمكاتبة على نائم، والقلم مرفوع عن النائم، غير أن المملوك الظاهري أماته الشوق فانتبه، بعدما زاره بعينه، وهو لا يتأول ولا سيما في أمر ما اشتبه، وما كانت زيارته له إلا منافسة له بظنه أن المملوك علقت به سنة الكرى، ومناقشة لطلبه زور الخيال حقيقة لما سرى، لينفي الوسن عن نظره، ثم ينصرف على أثره، ولما سجدت له الأجفان ظن بها سنة فزارها منها، وما كان إلا ساهياً بمزاره عن خدمته، فلا ينكر على جفنه السجود لما سها، ولكم غلة للشوق أطفأ حرها بمزاره، وأغلق به أشراك الأجفان خيفة من نفاره، وعقله بحبائل جفنيه خشية أن تنزع يد اليقظة حبيبه من جنبه، وضمها على خياله ضم الحب للعناق يمينه على شماله، ولكن ما فاز بالعناق إلا يد ويدان، وعناق المملوك للطيف من فرط الوجد بأربعة أيد من الأجفان، وإن لم تؤخذ هذه الدعوى منه بالتسليم وقيل: مازاره بل استزاره فكر له في كل وادٍ يهيم، فبلى وحقه لقد صدق مراراً؛ إن الكريم إذا لم يستزر زاراً^(١)؛ وتالله لقد وافاه ووسده على حشاه ويمناه، متشبهاً بأذيال دجاء، وفجأه فوجده على أبرج الوجد الذي عهد، إلا أن ضيف الطيف ما اهتدى إلا بنار أشواقه، وما سرى بل سار في ضياء من بارق دمه، وما يوري قدحاً من سنابك براقه، وتسور أسوار الجفون، وخاض السيول من العيون، كيف لا وهو يتحقق أن لقاءه المراد، وإذا هو نام زاره طيف كرى في الرقاد.

✽ فأجابه ابن عبد الظاهر^(٢): [السريع]

في النوم واليقظة لي راتبٌ عليك في الحالين قررته

(١) عجز بيت في العقد الفريد ٢١٢/٦ والتذكرة الحمدونية ١٠٩/٩ بلا نسبة، تمامه:

نزورك لا نؤاخذكم بجفوتكم إن الكريم إذا لم يستزر زارا

(٢) هما له (= لابن عبد الظاهر) في المنهل الصافي ٢١١/٢. والنص في الوافي بالوفيات ١٦٩/٨

تفضّل المولى إذا زاره طيفي خيالي منه أن زرته

ورد على المملوك، أدام الله نعمة الجنب العالي الكمالي، ولا أسهر جفنه إلا في سبيل المكارم، ولا سهداها إلا في تأويل رؤيا مغارم الفضل التي يراها من جملة المغام، وجعله يتغمر بحلمه هفوة الطيف، وكيف لا يحلم الحالم- كتاب شريف حبيب إليه التشبيه بنصب حبائل الهدب من الجفون، والاستغشاء بالنعاس، لعل خيالاً في المنام يكون^(١)، وليغنى اجتماعه ولو في الكرى، وتصبح عينه مدنية وإن مضى عليها زمن وهي من القرى، وينعم طرفه من التلاقي بأحسن الطرف، ويقول: هذا من تلك السجايا، أظرف الهدايا، ومن تلك المزايا ألطف التحف، ويرفع محل الطيف فيرقبه من الهدب في سلام، بل يطميه طرف طرفه ويجعلها له شكائهم، لا بل يرخيها لصونه أستايراً، ولا يصفها بأنها دخانٌ إذ كان يجلس موطن الطيف الكريم أن يؤجج ناراً، ويعظمه عن أنه إذا أرسل خياله رائداً، أن تتعبه المناظر، وأن يكلفه مشقة بسلوك مدارج الدموع، إذ هي محاجر، ثم يخشى أنه يحصل نفور من التغالي في وصف الدموع بأنها سيول، فيهلّ من أمرها ما يهول، ويقول: هل الدمع إلا ما يرش به بين يدي الطيف؟ وهل الهدب على تقدير أنها دخانٌ إلا ما لعله يرتفع لما يقرى به الضيف؟ وعن إبراد الأجفان بهذا، وإسخان العيون بهذه، وهل هما لإيلاف الخيال إلا ما يقصده من رحلة الشتاء ورحلة الصيف؟ ثم يحتقر المملوك إنسان عينه عن أنه يلزمه هذا الأمر تكليفاً، ويتدبر قوله تعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾^(٢) ويقول له: لا تطيق القيام بما لهذه الزورة للزوم من الوظيفة، لأن

(١) هو عجز بيت للمجنون، في ديوانه ٢٦٥، تمامه:

وإني لأستغشي وما بي نعسة لعلّ خيالاً في المنام يكون

(٢) سورة النساء: ٢٨.

النوم سلطان وخليفة، وأنى بذلك مع خليفة الحبيب ، ويد الخلافة لا تطاولها يد؟ والعيون في الصبا زورتها حقيقة، ويمكن ألا توصف إلا بأنها ضعيفة، فنقول : كم مثلي إنسان تطاول لاستزارة الطيف حتى طرق؟ وكم خيال أتى على أعين الناس فجاء محمولاً على الحدق؟ وكم محبٍ درأ عن النوم بشبهة تغميض الأجفان عن غير غمضٍ حد القطع على السرقة؟ ثم يأخذ في طريقةٍ غير هذه الطريقة، ويرى الاكتفاء بالمجاز عن الحقيقة، وإذا أقامت العين الحجة في تصويب استزارة الخيال يقول: ماهذه من الحجج التي تسمى وثيقة، ويرى أن تمثل الشخص الشريف في الخاطر قد أغناه عن أنه يتقلد منه الكرى، وكفاه أنه ينشد: [الكامل]

سر الخيال بطيفه لما سرى

ولم يحوجه حاشاه إلى أنه يزور له محضراً، ولا أنه ينشد :

(١)

أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

اللهم إلا أن يورد مورد العين أنفع ما يدخر، والعين الصافية ما برح عندها من الخيال الخبر، وإذا كان القلب متولي الحرب مع الأشواق، فكيف يشاحح الخيال على أنه متولي النظر؟ فحينئذٍ يشتاق إلى الوسن، ويمد له من الهدب الرسن، ويزور ويستزير، ويقصر ويتلو ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ (٢) ويذهب لأجل ذلك مذهب من يرى أنه يقدم على الأيام الليالي ، ويعظمها لأنه مظنة هجمة الخيال، ويجعل جفونه أرض تلك النجمة التي تغلب عليها، وما برحت تغلب لها أرض الجبال؛ وأما النيل فكم احتقره المملوك بالنسبة إلى كرم مولانا ونواله، وتكره

(١) هو عجز ذاك الصدر . والشطران في الوافي .

(٢) سورة المائدة : ١٥ .

مذاقه بالإضافة إلى زلاله ، وتحقق أن مقياس راحته هو الذي يستسعد به الأمم،
وأن الأصابع من الأصابع الكريمة، والعمود القلم، وأن طالب ورد ذاك تعب،
وطالب جود سيدنا مستريح، ويكفي واصف نواله له وهو غاية المديح.

﴿وَأَمَّا مَا لَابْنِ الْعَطَارِ مِنْ شَعْرِ فَكْتُبْ أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ

إِلَيْهِ (١): [البسيط]

لا تنكرن على الأقلام إن قصرت له مساع إذا أبصرتها وخطا
فعارض الطرس في خد الطروس بدا من أبيض الرمل شيب فيه قد وخطا

فقال ابن العطار يجيبه (١): [البسيط]

أقلام فضلك ما شابت ولا قصرت له مساع إذا أنصفتها وخطا
بل عارض الطرس لما شاب غيره بعشبة قبل شيب فيه قد وخطا

ومنه قوله في رثاء الظاهر بيبرس البندقداري (٢): [الكامل]

بكت القسي لفقده حتى انثنت ولها عليه من الرنين تحسر
ولحزنها بيض الصفاح قد انحنت وتبيت في أغمادها تتستر
أرخت ذوابله ذوائبها أسي ولرنكه وجه عليه أصفر
ولواؤه لبس الحداد فهل ترى كان الشعار لفقده يستشعر
ملك بكته أرائك وترائك وملائك وممالك لا تحصر
ولكم بكته حصنه وحصونه ونزيلة ونزاله والعسكر
من للمالك بعده من كافل كم حاطها بالرأي منه مسور
قد حرك الثقلين هول مصابه فالظاهر المودي أو الإسكندر

(١) له في الوافي بالوفيات ٨/ ١٧١.

(٢) القصيدة في الوافي ٨/ ١٧١-١٧٢.

٢٣- ومنهم : محمد بن عبد الله، شرف الدين، أبو محمد بن فتح الدين أبي
الفصل، ابن القيسراني، القرشي، الخزومي^(١)

* صدر إيمان وعلا، وبدر زمان أضواء الظلم وجلا، مجيل قذاح من الأقلام،
ومجيد اقتداح يشقق عن البرق جيوب الظلام، حلف زهدٍ وورعٍ، وجدُّ طال به
الأنام وفرع، وكان قريب علم لم يدعه إذ رأس، وفقه طالما ارتبط عليه ودرس، من
بيت يتمسح بأركانه، ويتمسح من إمكانه، ولم يزل أهله أهلة كتابٍ، وأهل
سنةٍ وكتابٍ، وخدموا الدول، وختموا بالأمانة الأيام الأول، وكانوا كتاب إنشاء
وحُسابٍ، وأصحاب إرث واكتساب، وأرباب فخارٍ بنفوسٍ وانتسابٍ، ومنهم
جماعة حلوا الممالك فوشوا حبراتها، ووشعوا بذائب النضار أصلها وبكراتها،
وكانوا أهل مدائح علقت كالسحاب، وعقت البحر وتعلقت بالسحاب، مع
نسب في آل المغيرة، لا تطمع في سرح كواكبه مواكب الصباح المغيرة، وكان
يتروى ثم يأتي بنثر يفوق كثيراً، ويضحى على ورقه سقيط الطل منشورا، مع
قضاءٍ بآء بيمن نقيبتها، ويجيء بدارين في حقيقتها، مع مروءة ما غبته فيها
شريكٌ، ولا فتنة عنها سطا سلطان ولا ملكٌ، وكان يجلس بين يدي كافل
الممالك لقراءة قصص المظالم، وهو يقرأ القرآن الكريم، فإذا مر بآية سجدةٍ
استقبل القبلة وسجد، وربما استدبر كافل الممالك لأجل اتباع القبلة، فوجد عليه
لهذا، وقال لعمري في الاستفال به، فكان يدرأ عنه حده، ثم يوصيه فلا تفيد
الوصايا عنده، بل يقرأ فإذا مرت به آية سجودٍ سجد، وما عليه أن لا يجد في
نفسه عليه أو وجد، مع ما كان هذا الرجل في إنابة الأدين من كبراء شمخت
بهم المناصب، وشدخت هامة المناصب .

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣/ ٣٧٠ وأعيان العصر ٤/ ٥٢٩ والذّرر الكامنة ٣/ ٤٨١ وتذكرة

النبية ١/ ٢٨٠ وعقد الجمان ٤/ ٤٧٤ .

— ولد القاضي ابن القيسراني بحلب سنة ٦٤٨هـ، وتوفي سنة ٧٠٧هـ.

* ومن نشره قوله :

وبعد ، فإن أولى ما عظم في النفوس ، وازدانت به المحافل والطروس ، الشرع الشريف ، وبه زجر أهل الاجترار والاجترار ، وتحقن الدماء وتستباح ، ولهذا تعين أن لا يحل ذروته السنية ، ورتبته العلية ، إلا من انعقد الإجماع على أنه للولاية متعين ، وأن موجب استخلاصه واختصاصه للمباشرة بين ؛ ولما كان فلان هو العالم الذي ليس لفضله جاحد ، والفقيه الواحد الذي هو أشد على الشيطان من ألف عابدٍ ، والذي عادل دم الشهداء مداده ، ومائل البحر الزاخر مدده في الفضائل واستمداده ، وباشر قضاء القضاة وقضاء العساكر المنصورة بالشام المحروس مدة متطاولة ، وشكرت مباشرته المنصبين ، وحكم بأهليته لما قامت البيئة من خبره وخبره بشاهدين ، وبرأت من عيون الأعيان إحكام الأحكام ولا أثره بعد عين ، وأبدع في تقريره المسائل وتقريره وتحويره ، وتحيل حتى قيل : هو في العلو والعلوم شريك القاضي شريك ، وبأنباء الشريعة المطهرة هو الخبير الذي ينبئك ؛ وبلغنا أنه في هذه المدة حصل له في أثناء البحث ما أزعجه وأخرجه ، وعن خلقه الرضي أخرجه ، وامتنع من الحكم أياماً ، ولم يجر له في الأمور الشرعية لساناً ولا أقلاماً ، فاقتضى اعتناؤنا بالشريعة المطهرة ، إشخاصه إلى بين أيدينا (١) ، واستعلام سبب ذلك يقيناً ، وأن نصرح له بتجديد توليه تولية مناصبه ، وتأكيده رفعة يكف بها مناصبه .

ومنه قوله :

وينهي أن المشرف العالي ورد إليه فتنسم أرواح قربه ، وأوجد مسرات قلبه ، وأعدم مضرات كربه ، وأبهجه الكتاب بعبير رياه ، وألهجه الخطاب بتعبير رقيه ،

(١) في الأصل : وأشخاصه التي بين أيدينا

فرأى خطه وشيا مرقوماً ، ولفظه رحيقاً مختوماً ، ووجده مختوماً على دررٍ كلامية ، وبشر منامية ، وحديث نفس عصامية ، نرجو من الله أن نشاهد ذلك أيقاظاً ، ونكون لأنبائه حفاظاً

ومنه قوله يصف زيادة النيل : وأقبل يعب عبابه ، ويكائر البحر المحيط انسكابه ، ويطاوله ﴿ وما يستوي البحرين هذا عذبٌ فرات سائغ شرابه ﴾ (١) وأمر زيادته يعظم عن الشرح ويكبر ، ومشاهده لقدرة الله فيه يتلو ﴿ والبحر يمدده من بعده سبعة أبحر ﴾ (٢).

وقد تلقته البلاد تلقى الحب لحبيبه ، والعليل المرتقب لطبيبه ، وهو كلما حل بقعة صد صدا ، وأجدى جداً ، وكلما حباها بأصبع شكرت له يدا ، وكان قد وصل في أثناء ذلك المفرد من الأعمال القوصية مخبراً بوفائه ، واقتضى مذهبنا الشريف الحكم بخبر المفرد ، والعمل بما عنه يروى وإليه يستند ، ومع ذلك حصل التثبت إلى أن نقل هذا الأمر من الخبر إلى العيان ، واستحق خليج مصر أن يفك عنه الحجر ، ويجري مطلق العنان ، ومن غرائب هذا البحر وإن كثرت فيه الغرائب ومنه الغرائب ، أنه كلما تكدر تبسم له الثغور وتفتت ، وأنه نيل أزرق وبصبغه تروق البلاد وتخضر ، وطرناها والخواطر الشريفة واثقة بسقيا أمنت من فوتها ، والعيون ناظرة إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، والديار المصرية قد غدت للري في أكمل زي ، وأبدت تموج الحلل وتهرج الحللي ، وزهت حسنا بالزيادة في الحسنى ، وتلا على ساكنها لسان الرحمة ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ (٣) فالمجلس يحمد الله لما أعاده على الوجود من إشراقه وأنسه ،

(١) سورة فاطر : ١٢ .

(٢) سورة لقمان : ٢٧ .

(٣) سورة النور : ٥٥ .

ويستديم النعمة بالشكر ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾^(١)

والله تعالى يجعل هذه الرحمة إلى جهاته حسنة التفريح ، مناظره بها ناضرة
الرياض في التدبيح، مظهرة فيها معنى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض
خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾^(٢)

ومنه قوله :

وينهي ورود المشرف العالي، فاطلع من جواهر الألفاظ ما لو شاهده البدر لما
أسفر، أو سمع به عبد الحميد لأحب أن لا يذكر ، فتنزهه في رياض كتابته التي
أينعت أغصانها؛ وأبهجت بفنونها أفنانها، فلولا حلها وحرمة السحر لقلنا
سحراً، ولولا أنه شغل الأعناق بمننه لقلدناها – إذ هي الدر – نحرأ.

ومن قوله يذكر النيل :

وأمسست التُّراع من تُراع، وأصبح الجذب مع ماكان فيه من القوة وقد أخذ في
النزاع، وحققت به عروس مصر أن يزيد كقطرة في بحرها إذ يزيد^(٣) وأن
باناس^(٣) لا ترفع به خلجانها من رأس^(٤) وأن ثورا^(٣) لوحف به شرب لما كمل
دورا، وأن كل رابية منها تربي على الربوة والنيرب^(٤) وكل برقٍ ماعدا برق
سحابها الهاملة خلب ، وأنها تخلص القلوب بالملق، وتسلب الألباب بالحدائق لا
الحدق، وأن البسطة في البسطة^(٥)، والنزهة في ربيعها إذا نسج بسطه، وأنها

(١) سورة لقمان : ١٢ .

(٢) سورة فصلت : ٣٩ .

(٣) يزيد وباناس وثورا : من فروع بردى .

(٤) الربوة والنيرب : من مناطق النزهات غربي دمشق .

(٥) البسطة : كورة بمصر (معجم البلدان ١/ ٤٢٢)

عما قليل تتجلى في حللها النضرة، وتبين أنها لا ماعداها الدنيا إذ هي الخضرة.
٢٤- ومنهم : محمود بن سلمان بن فهد، الحلبي، الكاتب، شيخنا العلامة،

حجة الكتاب، فرد الزمان، شهاب الدين، أبو الشفاء^(١)

* جبل أدب لا مطمع في ارتقائه، وبحر علم لا مطمح إلا إلى ما يؤخذ من تلقائه؛ رقى السماء وتلقى من ربه كلمات علم بها الكتاب الأسماء؛ ناضلت الدول بأقلامه، وكلمت ملوك العدى بكلامه، فحظي ببرها، وخطب لحفظ سرها، وتقدم باستحقاقه، واستعبد الكلام الحر باسترقاقه، وأقام بالشام ثم بمصر فطاب به الواديان كلاهما، وأغدق نوؤهما وكلؤهما، وكان كاتباً لا يعرف له نظير، ولا يعرف مثله في الزمن الأخير، تعين بدمشق فكان للكتاب والدا، وتفرد بمصر فبقي سهماً في الكتابة واحداً، وكان بابل سحر، وعنبر شجر، وعانة مدام، وغاية إقدام، وغابة أسد ذي ظفر دام، لم يزل نجي ملك همام، ورسيل بحر وغمام، بكتب طالما أينعت روضة زهر وأفق سماء، نرجسه الثريا ومجرته النهر؛ وكان لا يرضى بدارات الأقمار لزهرة كمامة، ولا بالهلال لظفر قلمه قلامه، بأدب دق على الأدباء، ورق فنسب الجفاء إلى الصهباء، فأشفق الشفق أن يكون لكؤوس كلمه مدامة، ودخان الند أن يكون على عنبر سطور غمامة، وكان في الديوانين يتصدى لمهمات الإنشاء، فكم أطال لوجوه الأيام غرراً، وقلد أعناق

(١) ترجمته في : الوافي بالوفيات ٣٠١/٢٥ وأعيان العصر ٣٧٢/٥ ومعجم شيوخ الذهبي ٣٢٩/٢ وفوات الوفيات ٨٢/٤ وذيول العبر ١٤٠ وتذكرة النبيه ١٥٢/٢ والدرر الكامنة ٣٢٤/٤ والبدية والنهاية ٢٥٩/١٨ والنجوم الزاهرة ٢٦٤/٩ والدليل الشافي ٧٢٤/٢ والدارس في تاريخ المدارس ٣٢٦/٢ والمقصد الأرشد ٥٤٦/٢ والمنهج الأحمد ١٦/٥ والدر المنضد ٤٣٢/٢ وشذرات الذهب ١٢٤/٨.

— مولده سنة ٦٤٤ هـ، ووفاته سنة ٧٢٥ هـ.

— يُقال في اسمه: محمود بن سليمان....

الممالك درراً، من تقاليد لو شيدت العماد لماماد، أو حبا بفضلهما الفاضل لأنطق
الجماد، أو أثرت ابن الأثير لاستغنى مما يثير، أو بنى على أبقارها ابن بنان لما ضم
له على قلم بنان، أو خلّت شيئاً لابن الخلال، لتاه بكرم الخلال، أو خصت ابن
أبي الخصال بخصلة لطلال بها وصال، وكسر على النصال النصال، إلى نظم وطئ
بأخمسه الطائيين، وأفنى بخلود الذكر مدة الخالدين، بما أهدي إليه وترك
الكندي مضللاً، وخلى العزيز في قومه ابن أبي سلمى مذلاً، حتى لو رسم
عبيد بولائه في القريض لما قال: حال الجريض^(١)، فأما في توليد المعاني ففات
ابني هاني^(٢)، ونهض جده وسقط صريع الغواني؛ فمن نسيب نسي به القديم،
وغزل ذكر به كل غزال ورثم كل ريم، ورثاء أسكت النائحتين الديلمي وذا
النسب الصميم^(٣)، وتشبيه ثلث الملكين ابن المعتز [و] تميم^(٤)، إلى تباس^(٥)
أرهب العسكري في «الصناعتين»، وفلك جرض^(٦) الراغب والجاحظ في
البراعتين، وكان في كل منهما إماماً، وسح في كل منهما غماماً، بسجع كم
غازل على أيكه حماماً، وأعطى الغواني على حلي ذماماً، وشق على لبة النهر
أطواقاً، وأرعى على أنامل الغصون أكماماً؛ ثم ولي بدمشق صحابة ديوان
الإنشاء، وأطلع في الصباح نجوم العشاء.

وهو شيعي في الأدب، وإن لم يكن لي أبا مثل أب، لزمته منذ قدم دمشق
حتى مات، أقرأ عليه وأقرئ مما لديه، ومن حواصله أنفقت وجمعت وفرقت،

(١) حال الجريضُ دون القريض: هذا مثلُ قاله عبّيد بن الأبرص يوم مقتله. (الأغاني ٩١/٢٢).

(٢) هما أبو نواس، وابن هانيّ الأندلسي.

(٣) مهيار الديلمي، والشريف الرضي.

(٤) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي.

(٥) كذا في الأصل. ولعل الصواب: إلى بيان.

(٦) في الأصل: حرص. وجرّضه: خنقه. (القاموس).

وسددت إلى الغرض وفوقت؛ وأقول ولا أخشى : فمهما وصفته به من المحاسن صدقت، لأن الرجل أشهر من الشمس ، وذكره أسير من « قفانبك »، قد أنجد ذكره وأتهم، وأعرق وأشأم، وغنى به الملاح والحادي، وغني به سكان الجبل والوادي، هذا إلى ما له من المشاركة في علم الحديث ، وحفظ المتن والرجال ، والاطلاع على آراء الناس ومذاهب الأمم في الملل والنحل، وفرق الخلاف ومواضع الاختلاف ، وضبط التاريخ، واستحضار الوقائع ، وذكر نوب الدهر، وتصارييف الزمان، وأيام العرب والعجم، ومعرفة النسب ودول الخلفاء والملوك وأحوال الوزراء والكتاب والشعراء، ومشاهير الأمة والأعيان من أهل كل علم، والمقدمين في كل فن والمبرزين في كل صنعة، وأسماء الكتب المصنفة والمجاميع المؤلفة، وإجادة النظر في معرفة الخطوط ، والإلمام بكتابة المكاتيب الحكيمة والشروط، إلى معرفة الأمثال الجاهلي منها والمولد، والملوكي والسوقي، وأمثال الخواص والعوام، والعربي منها والعجمي، والأصل في ضرب كل مثل، مع إتقان قوانين الديوان بما لم يجمعه سواه ، ولو تفرد بواحد منه كفاه ، وبه انتفع كتاب زمانه وتخرجوا عليه، وتدريبوا بين يديه .

أخذ الفقه عن ابن المنجّاء، والنحو عن ابن مالك، والأدب عن ابن الظهير؛ وتنقل في الوظائف ، وطلبه عمي إلى الديار المصرية بعد محيي الدين بن عبد الظاهر على معلومه ، وكتب بين يدي الوزير ابن السلعوس ، وقل أن كتب مدة مقامه بالحضرة مهم جليل إلا من إنشائه ؛ وعين لقضاء الحنابلة بمصر فامتنع ، حتى بعث إلى دمشق صاحباً لديوان الإنشاء، وأقام بها حتى مات .

ومن تصنيفه كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » و« منازل الأحباب » و« أهني المنائح في أسنى المدائح » من نظمه في المديح الشريف النبوي ، زاده الله

شرفاً، ولم يكن مثله في إعطاء كل مقام حقه موقوفاً، من غير زيادة ولا نقص؛ وذكر ملاحم الحروب على إفراط التهويل، في رقة الغزل، للطف تخيله، ودقة تخيله، واستعاراته، وغرائب تشبيهاته.

* ومن نشره قوله في توقيع لابن جماعة، بتدريس المدرسة المجاورة للشافعي:

وهو يعلم أن ذكر هذه البقعة سارٍ في الآفاق، جارٍ على السنة الرفاق، قدر شامية الشام ونظامية العراق، وأنها جمعت من العلماء أعلاماً، ومن الأمة أئمة، لولا شرف البقعة لتفرقوا في الأرض هداةً وحكاماً، فلا يقف في العلم عند غاية، وليجد في طلب النهاية، وإن لم يكن للعلم نهاية، وليمثل نفسه ماثلاً بين يدي من نسبت إليه، ويقيم روحه مقام من جلس للقراءة عليه، وليبث ما استودعه من أسرار مذهبه ليسبر عنه من معدنه، وينقل الفضل إلى الأوطان من مظنته وموطنه، وليلق بها عصا السرى، فإنها منزلة لا ينوي من بلغها سيرا، وليحمد الله على ما وهبه من بضاعته، فإنه من يرد الله به خيراً^(١).

ومنه قوله في تقليد وزير:

وليبداً بالعدل، فإن الله قدمه على الإحسان، وحلى بهما أيماناً، ويجانب الظلم وأهله، فإن الله أرهف بمحوه من الوجود سيوفنا وأقلامنا، ويقرنه بالإحسان، فإن الله رفع بهذا منار ملكنا وأعلى بذأ أعلامنا، ويمد خزائن الأموال بمكنون تدبيره، ويعد لمهمات الدولة القاهرة ذخائر تصرفه الجميل وحسن تأثيره، وليزن ذلك بالرفق، فإنه مع الخبرة أجدى من العنف وأجدر، وإذا رام المنبت بلوع الغاية، فإن المتثبت أقوى منه على ذلك وأقدر، فإن النماء مع العدل كفرسي رهان، وليس الخبير من حصل الأموال بالظلم بل من حصلها والحق عزيز

(١) من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين».

والباطل مهان، وليتحر الحق المحض فيما أمر بأخذه رفقا ويناقش على حقوق بيت المال، فإنهما سواء من أخذ لغيره باطلاً أو ترك له حقاً، وليجتهد في عمارة البلاد، فإنها على الحقيقة معادن الأرزاق، وكنوز الأموال التي لا ينفدها الإنفاق.

ومنه قوله :

وقلدته مهابتنا سيفاً يلمع مخايل النصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى قبض النفوس، عرف الأجل قدره فوقف عند حده؛ ومتى جرده على ملك من ملوك العدى، وهنت عزائمه، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قواده، وعلم أن سيفنا على عاتق الملك الأغمر نجاده، وفي يد جبار السماوات قائمه.

ومنه قوله :

وسرنا بالجيش الذي لا يدرك الطرف حده، ولا الوهم عده، وكأن ذوائب السحاب عذب بنوده، وكأن شوامخ الآكام مناكب أبطاله ومواكب جنوده، وما قصد عدواً إلا ونازلهم قبل خيلهم خياله، وقضى عليهم وعده ووعيده، قبل أن ترهف أسننته أو ترعف نصاله؛ وإذا لمع حديده وخفقت عذبه وبنوده، قيل هذا غمام تلهبت بوارقه، ودمدمت صواعقه؛ أو بحر تلاطمت أمواجه، أو سيل غصت به فجاجه، وعكس أشعة الشمس اضطرابه وارتجاجه، وما علا جبلاً إلا وألحق صعوده إليه جريه بالصعيد، وما منع الريح مواجهته إلا لتسمع صهيل خيله بأقصى الروم من أقصى الصعيد.

ومن قوله :

وما رهج العدو المخدول بالحركة ورمي الصيت؟ فإن عدة العاجز الصياح،

وقوة الجبان في القول، والقول يذهب في الرياح؛ وقد علموا أنهم ما قدموا إلينا إلا وكان أحد سلاحهم الهرب، ولا طمعوا في النجاح وكان لهم في غير الحياة أرب، يبالغون في الاحتشاد، والجازر لا يهوله كثرة الغنم، ويستكثرون من السواد، ووجود من لا ينفع أشبه شيءٍ بالعدم، فقوتهم ضعيفة، ووطأتهم خفيفة، وثباتهم أقصر من حل العقال، وصبرهم أسرع من الظل في الانتقال، وخيولهم لا تطيع أمر أعنتها إلا في الفرار، ورماحهم لا تحمل كل أسنتها إلا للخور والانكسار، وسهامهم لا عهد لها بالمقاتل، وصفاحهم كل شيء من القصب غيرها يمكن وصفه بأنه قاتل؛ فإن دلاهم الشيطان بغروره، فسيبراً منهم سريعاً، وإن أطمعهم في اللقاء فستردهم كلام سيوفنا كأقسام الكلام الثلاثة : هزيماً أو أسيراً أو صريعاً.

ومنه قوله رسالة طردية :

لا زال يمنه يستنزل العصم من معاقلها ، ويسمع السهام الصم ما تحدث به حركات الطير عن مقاتلتها ، ويلجئ ضواري الوحش إلى سيوف أوليائه لترقرق ماء الفرند فيها بمناهلها، وينهي أنه سار إلى ماواجه وجه إقباله ، متيمنا بسعده الذي مابرح يعتلق بحباله ، ومعه :

من الجوارح كل بازي شديد الأسر، صحيح على ما اتصف به من الكسر، ينظر من بهار، ويخطر في ليل رقم به أديم نهار، ذي صدرٍ مُدبَّج، ورأس متوج، ومخلبٍ خطوف، ومنسرٍ كصدغٍ معطوف، أسرع من هوج الرياح، وأقتل من عوج الصفاح، ينحط على الطير من عل، ويسبق إلى مقاتل الوحش كل رام من بني ثعل.

ومن الضواري كل حامٍ أسبق من السهم، وأخف في الوثبة من الوهم، ذي

صدرٍ مجدولٍ وساعدٍ مفتولٍ، وأنيابٍ عصلٍ، وظفرٍ أقطعٍ من نصلٍ.
ومن الفهود كل أهرت الشدق، ظاهر الحدق، بادي العبوس، مديّر الملبوس،
شئن البرائن بأنيابٍ كالمدى، ومخالب كالحاجن، قد أخذ من الفلق الغسق
إهاباً، وتقمص من السماح والبخل جلباباً، يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل
به وبشبهه، وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزالة لا تطلع على وجهه، يسبق إلى
الصيد مرامى طرفه، ويفوت لحظ مرسله إليه، فلا يستعمل النظر إلا وهو في
كفه، وتتقدمه الضواري إلى الوحش، فإذا وثب له تعثرت من خلفه.

ومعنا غلطة نحن بسهامهم منها أوثق، وهم بإصابة شواكل المراد من كل
ما ذكر أحذق؛ إذا أخذ كل منهم حنيته أرانا القمر في القوس، وإن نظم رميته
قيل: هذا حبيب وإن لم يكن ابن أوس^(١)، فما لاح طائرٌ إلا وله من السهام
أجلٌ، ووراءه من رجل الجوارح زجل؛ إن أخطأ هذا أصاب هناك، وربما كان
لهما^(٢) استهام في تحصيله واشتراك؛ وإن سنع وحش، فالسهام أدنى إلى وريده
من قلادة جيده، فإن فات فالكلب أعرف باختلاسه منه بكناسه، وأسرع إلى
احتباسه من رجع أنفاسه، وإلا فالفهد أسرع إلى لحاقه من أجله، وألزم لعنقه لو
كان يعقل من عمله، وظللنا بين قدير معجل، وقديد مؤجل، نمش بأعراف
الجياد كقوفنا^(٣)، ونقري من صواف الطير وأصناف الوحش ضيوفنا، وكنا بين
صيد تحصل وآخر يترقب، وغدونا^(٤): [الطويل]

(١) تورية باسم أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي.

(٢) في الأصل: له وما

(٣) من قول امرئ القيس: [ديوانه ٥٤]

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواءٍ مضهب

(٤) البيت لامرئ القيس، في ديوانه ٥٣. وفي الأصل: وغدونا وكان - والواو بينهما زائدة.

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يشقّب
وقد أرسلنا إليه من ذلك ما يتحقق به إن نمته أمارنا وأوري نارنا، ويستدل به
على حسن ظفرنا في سفرنا، وإنارة توفيقنا في طريقنا؛ والله تعالى لا يخلي منه
مكان تأييد ، ويبلغه من السعادة فوق ما يريد .

ومنه قوله :

وإن المخذولين أقبلوا كالرمال، واصطفوا كالجبال، وتدفقوا كالبهار الزواخر،
وتوالوا كالأمواج التي لا يعرف لها الأول من الآخر ، فصدمتهم جيوشنا المنصورة
صدمة بددت شملهم ، وعلمت الطير أكلهم ، وحصرتهم في الفضاء، وطالبت
أرواحهم الكافرة بدين دينها فأسرفت في القضاء، وحصدت سيوفنا المنصورة ما
يخرج عن وصف الواصف ، وكانوا كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف،
وأحاطت بهم كتائبنا المنصورة فلم ينج منهم إلا من لا يؤبه لهم من فريقهم،
وقسمتهم جيوشنا المؤيدة من الفلوات إلى الفرات، بين القتل والأسر، فلم يخرج
عن تلك القسمة غير غريقهم، وأعقبتهم تلك الكسرة أن هلك طاغيتهم أسفاً
وحسرة وحزناً على من قتل من تلك المقاتلة، وأسر من تلك الآسرة ، وأماته
الرعب من جيوشنا المنصورة فجاءة، واستولى عليه الوجل ، فجاءه من أمر الله
ما جاءه .

ومنه قوله مما كتب بمال ملك سيس^(١) :

وتبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن
يرتفع دونه فلا تسبل ، وتعجل بحمل أموال القطيعة ، وإلا كان أهله وأولاده في

(١) في الأصل: بمال مهلك سيس ا و سيس: بلد بين أنطاكية وطرشوس . (معجم البلدان

جملة ما يحمل إلينا، ويسلم ماعدا عليه من فتوحنا، وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخر من بلاده بين أيدينا.

ومنه قوله :

هذه المكاتبه إلى فلان، لازال مأمون الغرة، مأمول الكرة، مجتنباً حلو الظفر من كمام تلك المرأة المرة، راجياً من عواقب الصبر ما يسفر له مساء تلك المساءة عن صبح المسرة، واثقا من عوائد نصر الله بإعادته ومن معه في القوة والاستظهار كما بدأهم أول مرة، أصدرها وقد اتصل به بناء ذلك المقام الذي أوضحت فيه السيوف عذرها، وأبدت به الكماة صبرها، وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها، وبذلت فيه الأبطال من الجلال جهدها، ولكن لم يكن الظفر إليها، وكان عليهم الإقدام على غمرات الحرب الزبون، والاصطلاء بجمرات المنون، ولم يكن عليهم إتمام ما قدر أنه لا يكون، فكابرت رقاب الأعداء في ذلك الموقف السيوف، وكاثرت أعدادهم الختوف، وتدفقت بحارهم على جداول من معه، ولولا حكم القدر لانتصفت تلك الآحاد من تلك الألوف، فضاق بازدهام الصفوف على رجاله المجال، وزاد العدد على الجلد، فلم يفد الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال، وأملى للكافرين بما قدر لهم من الإنظار، وحصل لهم من الاستظهار، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام على ما ألفوه من الفرار ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾^(١) وقد ورد أنهم ينصرون كما ننصر، وإذا كانت الحروب سجلاً، فلا ينسب إلى من كانت عليه، إذا اجتهد ولم يساعده القدر، أنه قصر، مع أنه قد أشهر ما فعله في مجاله من الذب عن رجاله، وما أبداه في قتاله من الضرب الذي ما تروى فيه خصمه إلا

(١) سورة البقرة : ٢٥١ .

بدره بارتحاله ، وأن الرماح التي امتدت إليه أخرس سفه ألسنة اسنتها، والجياذ التي قدمت عليه جعل طعنه أكفالهها مكان أعنتها، فأثبت في مستنقع الموت رجله^(١) ووقف وما في الموت شك لواقف^(٢) ، ليحمي خيله ورجله ، حتى يجيز أصحابه إلى فئة مأمئهم، وأقام نفسه دونهم دريئةً لمن بدر من سرعان القوم أو ظهر من مكمئهم ، وهذا هو الموقف الذي قام له مقام النصر إذ فاته النصر^(٣)، والمقام الذي أصيب فيه من أصحابه آحاداً يدركهم الحصر؛ وكذا فليكن قلب الجيش أعدائه مع ظهورهم ألوفاً لا يدركهم الحصر؛ وكذا فليكن قلب الجيش كالقلب، يقوى بقوته الجسد، وإذا حقق اللقاء فلا يفرعن كناسه إلا الطيبي، ولا يحمي عرينه إلا الأسد، وما بقي إلا أن تعفو الكلوم وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح، وتبرأ من قلوب المضارب صدور الصفاح، وتنهض لاقتضاء دين الدين من غرمائه المعتدين ، وتبادر إلى استنجاز وعد الله، فإن الله يمحص المؤمنين ويمحق الكافرين؛ والليث إذا جرح كان أشد لثباته ، وأمد لوثباته؛ والموتور لا يصطلى بناره، والثائر لا يهرب الإقدام على المنون في طلب ثاره ، والدهر ذو دولٍ، والزمان متلون، إن دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدة ، فقد أشرق لكم منه بالنصر ليالٍ أول؛ فالمولى لا يلتفت إلى مافات ، ويقبل بفكره على تدبير ماهو آتٍ ، ويعد للحرب عدته ، ويعجل أمد الاستظهار ومدته ، ولا يؤخر فرصة الإمكان، ولا يُعد ذكر ما مضى فإنه دخل في خبر كان، ولا يظهر بما جرى عجزاً،

(١) من قول أبي تمام : [ديوانه ٤ / ٨١]

وقال لها : من تحت أخمصك الحشر

فأثبت في مستنقع الموت رجله

(٢) من قول المتنبي : [ديوانه ٣ / ٣٨٦]

كانك في جفن الردى وهو نائم

وقفت وما في الموت شك لواقف

(٣) من قول أبي تمام : [ديوانه ٤ / ٨٠]

تقوم مقام النصر إذ فاته النصر

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة

فإن العاجز من ظن أنه يصيب ولا يصاب، ولا يتخذ غير ظهر حصانه حصناً، فلا حرز أمتع من سهوة الجواد، ولا سلم أسلم من الركاب؛ وليعلم أن العاقبة للمتقين، ويدرع جنة الصبر ليكون من النصر على ثقة، ومن الظفر على يقين؛ فإن الله مع الصابرين، ومن كان الله معه كانت يده الطولى، وإذا لاقى عدو الله وعدوه فليصبر لحملته، فإن الصبر عند الصدمة الأولى؛ والله تعالى يكلؤه بعينه، ويمده بعونه، ويجعل الظفر على عدوه موقوفاً على مطالبته له بدينه.

ومن قوله في مثله على الطريق المعتاد في ذم المهزوم:

هذه المكاتبة إلى فلان، أقاله الله عشرة زلته، وأقامه من حفرة ذلته، وتجاوز له عن كبير فراره من جمع عدوه على قلته؛ بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها العدو بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه، كثيف في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه ونفعه، أسرع في مفارقة الحال من الطل في الانتقال، وأشبه في مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال؛ يحفون منه بقلب واجب، ويهتدون من تجريبه وتهذيبه برأي بينه وبين الصواب حاجب، ويأتمون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كألف، ويتسرعون منه وراء مقدم يمشي إلى الزحف ولكن إلى خلف، جناح جيشه مهبط، وطرف سنانته غضبيض، وساقة عسكره ظالعة، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعة، تأسف السيوف بيمينه على ضارب، وتأسى الجنائب حوله إذ تعد لمحارب فتغدو لهارب، وإنه حين وقعت العين على العين، وأيقن عدوه لما رآه من عدده وعدده بمعاجلة الحين، أعجل نصول العدى عن وصولها، وترك غنيمة الظفر لعداءه بعد أن أشرف على حصولها، تناديه ألسنة الأسنّة الكرة الكرة، ولا يلتفت إلى ندائها، وتشكو له سيوفه الظمأ وقد رأت موارد الوريد فيعيدها إلي الغمود بدائها؛ فمنح عدوه مقاتل رجاله، وأباحهم كرائم مال جنده وماله، وخلي لهم خزائن سلاحه التي أعدها لقتالهم،

فأصبحت معدة لقتاله، فنجاً منجى الحارث بن هشام^(١)، وآب بسلامة أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام، واتسم بين أوليائه وأعدائه بسيمة الفرار، وكان يقال: النار ولا العار، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار، وعاد بجمع موفورٍ من الجراح، موقرٍ من الإثم والاجترار، لا علم بما جرى عند أسيافهم، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الظبا في أكتافهم، فبأي جنانٍ يطمع في معاودة عدوه، وهذا قلبه وهؤلاء حزبه؟

وذلك القتال قتاله، وذلك الحرب حربه؟ وبعد، فإن كان له حمية يتطهر آثارها، أو أريحية فيشب نارها، أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية، وتبعثه على طلب غايتين، إما شهادةً مريحةً أو [عيشة] هنية؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته، ويعجل له الانتصاف من عدوه قبل إكمال سنته.

ومنه قوله:

فكم مل ضوء الصبح مما يغيره، وظلام النقع مما يثيره، وحديد الهند مما يلاطمه، والأجل مما يسابقه إلى قبض الأرواح ويزاحمه.

ومنه قوله:

وكفى السيوف فخراً أنها للجنة ظلالٌ، وإلى النصر مآلٌ، وإذا كان من بيان الحديث سحرٌ، فإن بيان حديثها عمن كلمته هو السحر الحلال.
ومن قوله في قريب من معناه:

حسب ألسنته الأسنة شرفاً، أن كشف خبايا القلوب يذم إلا منها، وأن بث

(١) إشارة إلى قول حسان بن ثابت رضي الله عنه: [ديوانه ٢٩/١ «عرفات»]

فنجوت منجى الحارث بن هشام

إن كنت كاذبة الذي حدثني

ولجأ برأس طمرة ولجام.

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم

أسرار الضمائر تكره روايته إلا عنها، فمكرر حديثها في ذلك لا يفضي إلى الملل، وإن لم يكن حسن حديثها الذي يسحر الأبواب مما يحل، فليس في الحديث سحر حلال^١.

ومنه قوله في قريب من معناه إلا أنه جعله في البلاغة:

البلاغة تسحر الأبواب حتى تحيل العرض جوهرًا، وتخيل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته في الذوق نهرًا، لكنه سحر لم يجن قتل المسلم المتحرز^(١)، فنتأول في حله؛ وإذا كان من الحديث ماهو عقلة المستوفز^(١)، فهذه أنشطة نشاطه البليغ، وحل عقال عقله.

ومنه قوله:

خطه شرك للعقول، وفطنة تشغل المطمئن بملاحة المرأى المكتوب عن فصاحة المسموع المقول، ولو لم يكن البيان سحرًا لما تجسدت منه في طرسها هذه الدرر، ولو لم يكن بعض السحر حلالًا، لما انجلى ظلام النقس عما يهدي به من هذه الأوضح والعذر.

ومنه قوله مما كتب به إلى أمير سرية:

ولأزال أخف في مقاصده من وطأة ضيف، وأخفى في مطالبه من زورة طيف، وأسرع في تنقله من سحابة صيف، وأروع للعدى في تطلعه من سلة سيف، حتى تعجب عدو الدين في الاطلاع على عوراته، من أين دهي وكيف؟ وتعلم أن أول قسمة اللقاء حصل عليه في مقاصده الحيف، أصدرناها إليه نحته

(١) من قول ابن الرومي: [ديوانه ١١٦٤/٣ والمستطرف ١٨٢/٢]

وحديثها السحر الحلال لو أنه	لم يجن قتل المسلم المتحرز
شرك العقول ونزهة ما مثلها	للمطمئن وعقلة المستوفز

على الركوب بطائفةٍ أعجل من السيل، وأهول من الليل، وأيمن من نواصي الخيل، وأقدم من النمر، وأوقع على المقاصد من الغيث المنهمر، وأروع في مخاتلة العدى من الذئب الحذر، على خيلٍ تجري ما وجدت فلاة وتطيع راكبها مهما أراد منها سرعة أو أناة، تتسنى الجبال الصم كالوعل، وإذا جارتها البروق غدت وراءها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل^(١)، وليكن كالنجم في سراه، وبعد ذراه؛ إن جرى فكالسهم، وإن خطر فكالوهم، وإن طلب فكالليل الذي هو مدرك، وإن طلب فكالجنة التي لا يجد ريحها مشركٌ؛ حتى يأتي على عدو الدين من كل شرفٍ، ويرى جمعه من كل طرفٍ، ولا يسرف في الإقامة عليه، إلا إذا علم أن الخير في السرف؛ وليحرز جمعهم، ويسبق إلى التحرز منهم بصرهم وسمعهم، وينظرهم بعين منعها الحزم أن ترى العدد الكثير قليلاً، وصدها العزم أن ترى العدو الحقيق جليلاً، بل ترى الأمر على قصه، وتروي الخبر على نصه، وإن وجد مغروراً فليأخذ خبره، وإن قدر على الإتيان بعينه، وإلا فليذهب أثره، ولا يهيج فيما لديه نار حربٍ إلا بعد الثقة بإطفائها، ولا يوقظ عليه عين عدوٍ، مهما ظهر له أن المصلحة في إغفائها، وليكشف من أمورهم ما يبدي عند الملتقى عورتهم، ويخمد في حالة الزحف فورتهم، وليجعل قلبه في ذلك ربيضة طرفه، وطليلة طرفه، وسرية كشفه؛ والله تعالى يمدد بلطفه، ويحفظه بمعقبات من بين يديه ومن خلفه.

ومما كتبه إلى بعض نواب الثغور:

أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن بيا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا وفود الظفر والتأييد اقربي؛ والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب

(١) من قول الأعشى الكبير: [ديوانه ١٠٥]

تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

غراء فرعاء مصقول عوارضها

إلى العدى، والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لاستقربت ما بينها وبينه من المدى، والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من قربها، والأسنة قد ظمئت إلى موارد القلوب، فتشوقت إلى الارتواء من قلبها، والكمة وقد زارت كالليوث إذا دنت فرائسها، والجياد قد مرحت لما عودتها من الاشتغال بجماجم الأبطال فوارسها، والجيوش وقد كاثرت النجوم أعدادها، وسأيرتها للهجوم على أعداء الله من ملائكته الكرام أمدادها، والنفوس قد أضرمت الحمية للدين نار غضبها، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنبها، والنصر قد أشرقت في الوجود دلائله، والتأييد قد ظهرت على الوجوه مخايله، وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبأت بحسن المال أوائله، والألسن باستنزال نصر الله لهجة، والأرجاء بأرواح القبول أرجة، والقلوب بعوائد لطف الله بهذه الأمة مبهجة، والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه، والنيات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعة، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها، ومن كان مع الله كان الله معه، ومابقي إلا طي المراحل، والنزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البلد الماحل، والإحاطة بعدو الله من كل جانب، وإنزال نفوسهم على حكم الأمرين الأمرين، من عذاب واصل وهم ناصب، وإحالة وجودهم إلى العدم، وإحالة السيوف التي إن أنكرتها أعناقهم فما بالعهد من قدم، واصطلامهم على أيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها، وابتلاؤهم من حملاتها بريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها.

فليكن مترقبا لطلوع طلائعها عليه، متيقنا من كرم الله تعالى استئصال عدوه الذي إن فر أدركته من ورائه، وإن ثبت أخذته من بين يديه، وليجتهد في

حفظ ما قبله من الأطراف وضمها ، وجمع سوام الرعايا من الأماكن المخوفة ولها ، وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها ؛ فإن الاحتياط على كل حال من أكد المصالح الإسلامية وأهمها ، فكأنه بالعدو وقد زال طمعه ، وزاد ظلمه ، وذم عقبى مسيره ، وتحقق سوء منقلبه وضميره ، وتبرأ من الشيطان الذي دلاه بغروره ، وأصبح لحمه موزعا بين ذئاب الفلاة وضباعها ، وبين عقبان الجو ونسوره ، ثقةً من وعد الله الذي تمسكنا منه باليقين ، وتحققنا أن الله ينصر من نصره ، وأن العاقبة للمتقين .

ومنه قوله :

هذه المكاتبة إلى فلان - أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه عنا من الانتصار والانتصار ما يظهر من صدق الصفاح وألسنة الرماح سره ، وأراه من عواقب صنعه الجميل ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها ، وأن سرار القمر لا يضره - توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها اللقاء ، وصدمننا العدو صدمة من لا يحب البقاء ، وأريناه حرباً لو أعانها التأييد فللت جموعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه ، وحين شرعت رياح النصر تهب ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب وتصب ، وكرعت الصفاح في موارد نحورهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ، ولم يبق إلا أن تستكمل سيوفنا الري من دمائهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم ، وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته الجراح حلة عنده ، أظهروا الجزع في عزائمهم ، وحكموا الطمع في غنائمهم ، فحصل لجنودنا إعجاب أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنيانهم ، وطمع منع فوارسنا أن تكف عن النهب إلى

أن نصير من ورائهم ، فاغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان العجب والطمع ، وانتهاز فرصة الكرة التي أعانه عليها المطمعان إبداء الهلع وتخليّة ما جمع ، فانتثر من جمعنا بعض ذلك العقد المنتظم ، وانتقض من حزيننا ركن ذلك الصف الذي أخذ فيه الزحام بالكظم ، وثبت الخادم في طائفةٍ من ذوي القوة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرنا جفون السيوف ، وحططنا صدور الرماح في صدور الصفوف ، وأرينا تلك الألوف كيف تعد الآحاد بالألوف ، وحلنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطماعهم ، ويرد سراعهم ، ويعمي ويصم عن الآثار والأخبار أبصارهم وأسماعهم ، إلى أن نفسنا للمنهزم عن خناقه ، وأياسنا طالبه من لحاقه ، ورددناه عنه خائباً بعد أن كانت يده متعلقةً بأطواقه ، وأحجم العدو مع ما يرى من قلتنا عن الإقدام علينا ، ورأى مناجداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا ، وعادوا ولنا في قلوبهم رعبٌ يبيتهم وهم الغالبون ، ويدركهم وهم الطالبون ، ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون ؛ وقد لمّ الخادم شعث رجاله ، وضم فرقههم بذخائر ماله ، وأمدّهم بنفقات حلت أحوالهم ، وأطلقت في طلب عدوهم أقوالهم ، وسلاح جدد استطاعتهم ، وأعان شجاعتهم ، وخیول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم ، وتحضهم على أخذ حظهم من اللقاء ، كأنها تساهمهم في أجر رواحهم وغدوهم ، وقد نظّوا رداء الإعجاب عن أكتافهم ، واعتصموا بعون الله وتأييده لا بقوة جلدتهم ، ولا بحدّة أسيافهم ، وسيعجلون العدو إن شاء الله عن اندمال جراحه ، ويتعجلون إليه بجيوشٍ تسوؤه طلائعها في مسائه ، وتصبّحه كتائبها في صباحه ، والله تعالى لا يكلنا إلى جلدنا ، ولا ينزع أعنة نصره من يدنا .

ومنه قوله مما كتبه على لسان مولود إلى أبيه ، ولم يكتب به :

يقبل الأرض ابتداء بالخدمة من حين ظهر إلى الوجود ، وتشوقاً إلى امتطاء

صهوات الجياد بين يدي سيده قبل المهود، وتمنيا أن يكون أول شيء يقع عليه نظره من الدنيا وجه مولانا الذي تعلو بنظره الجدود، وتتيمن برؤيته كواكب السعود، وينهي أنه يعجل السوق على صغره، وكأن كمال المسرة به أن يقع نظر مولانا الشريف عليه قبل البشرى بخبره، لتلقى عليه أشعة سعادة مولانا في ساعة ظهوره، ويكسى قبل أن تلقى عليه الملابس من إشراق محياه حلل نوره، ويكون أول ما يلج مسامعه صوت مولانا يحمد ربه على الزيادة في خدمه، وتكثير من يضرب بين يديه في الحرب بسيفه، ويقف في السلم أمامه على قدمه؛ فإن من يكون نجل مولانا تنطق بالنجابة مخايله، وتدل على الشجاعة سماته قبل أن تدل عليها شمائله؛ والهلال سيصير في أفقه بدرأ منيراً، والشبل سيعود كأبيه أسداً هصوراً؛ والله تعالى يهب العبد عبداً يبلغ به من طاعة مولانا ما يجب عليه، ويرزقه عملاً صالحاً يتقرب به إلى ربه وإليه.

ومنه قوله رسالة كتبها في البندق^(١) :

الرياضة - أطل الله بقاء الجناب الفلاني، وجعل حبه كقلب عدوه واجباً، وسعده كوصف عبده للمسار جالباً، وللمضار حاجباً - تَبَعْتُ النفس على مجانبه الدعة والسكون، وتصونها عن مشابهة الحمائم في الركون إلى الوكون، وتحضها على أخذ حظها من كل فنٍ حسنٍ، وتحنها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللسن، وتأخذ بها طوراً في الجد وطوراً في اللعب، وتصرفها في ملاذ السمو في المشاق التي يستروح إليها التعب، فتارةً تحمل الأكابر والعظماء

(١) الرسالة بطولها في الوافي بالفويات ٢٥ / ٣١٠ - ٣٢٨.

قال الصفدي : وغالب معانيها مأخوذ من قصيدة عينية مطولة لابن الرومي.

قلت : هي القصيدة الطردية المسماة بـ «رمي البندق» وهي في ديوانه ٤ / ١٤٧٣ - ١٤٨٠ عدتها ١٠١

في طلب الصيد على مواصلة السرى، ومقاطعة الكرى، ومهاجرة الأوطار، ومهاجمة الأخطار، ومكابدة الهواجر، ومبادرة الأوابد التي لا تدرك حتى تبلغ القلوب الحناجر، وذلك من محاسن أوصافهم التي يذم المعرض عنها؛ وإذا كان المقصود من مثلهم جدّ الحرب، فهذه صورة لعب يخرج إليه منها، وتارة تدعوهم إلى البروز إلى الملق، وتحذوهم في سلوك طريقهم مع من هو دونهم على ملازمة الصدق ومجانبة الملق، فيعتسفون إليها الدجى إذا سجدى، ويقتحمون جرف النهار إذا انهار، ويتنعمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر في إدراك الوطر، ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم، والبندق على السهام، والوحدة على الالتئام.

ولما عدنا من الصيد الذي اتصل بعلمه حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه، تقنا إلى أن نشفع صيد السوانح برمي الصوادح، وأن نفعل في الطير الجوانح بأهله القسي ما تفعل الجوارح، تفضيلاً للملازمة الارتحال، على الإقامة في الرحال، وأخذاً بقولهم: [البسيط]

لا يصلح النفس إذ كانت مُدْبِرة إلا التنقل من حالٍ إلى حال

فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العود^(١)، فكأنها كئيبٌ أضحى من الفراق على فرقٍ، أو عليل يقضي بين أصحابه بقايا مدة الرمق، وقد اخضلت عيون النور لوداعها، وهم الروض بخلع حلته الموهة بذهب شعاعها: [البسيط]

(١) من قول النابغة الذبياني: [ديوانه ٣٥]

نظر المريض إلى وجوه العود

نظرت إليك بحاجة لم تقضها

والطل في أعين النوار تحسبه دمعاً تحير لم يرقأ ولم يكف
كلؤلؤ ظل عطف الغصن متشحاً بعقده وتبدى منه في شنف
يضم من سندس الأوراق في صرر خضر ويجني من الأزهار في صدف
والشمس في طفل الإمساء تنظر من طرف غدا وهو من خوف الفراق خفي
كعاشق سار عن أحبابه وهفا به الهوى فترأاهم على شرف

إلى أن نضى المغرب عن الأفق ذهب قلائدها ، وعوضه عنها من النجوم
بخدمها وولائدها، فلبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهله، ومنعنا جفوننا أن ترد
النوم إلا تحلةً.

ونھضنا وبرد الليل موشع، وعقدة مرصع، وإكليله مجوهر، وأديمه معنبر،
وبدره في خدر سراره مستكن، وفجره في حشا مطالعه مستجن ، كأن امتزاج
لونه بشفق الكواكب خليطاً مسكٍ وصندلٍ وكان ثرياه لامتداده معلقةً بأمراس
كتانٍ إلى صم جندل^(١): [الطويل]

ولاحت نجوم الليل زهراً كأنها عقود على خود من الزنج تنظم
محلقة في الجو تحسب أنها طيور على نهر المجرة حوم
إذا لاح بازي الصبح ولت يؤمها إلى الغرب خوفاً منه نسرومرزم^(٢)

إلى حدائق ملتفة ، وجداول محتفة ، إذا حس النسيم غصونها اعتنقت
عناق الأحباب، وإذا فزك من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحباب،
ورقصت في المناهل رقص الحباب، وإن لثم ثغور نورها حيته بأنفاس المعشوق ،

(١) من قول امرئ القيس: [ديوانه ١٩]

كان الثريا علقت في مصامها بامراس كتانٍ إلى صم جندل

(٢) المزم: من طير الماء ، طويل الرجلين والعنق، أعوج المنقار، في أطراف جناحيه سواد؛ أكثر أكله
السماك (حياة الحيوان ٢/ ٣١٤)

وإن أيقظ نواعس ورقها غنته بألحان المشوق؛ فنسيمها وإنٍ، وشميمها لعرف
الجنان عنوان، ووردها من سهر نرجسها غيران، وطلها في حدود الورد منبعث،
وفي طرر الرياح حيران، وطائرها غرد، وماؤها مطرد، وغصنها تارةً يعطفه
النسيم إليه فينعطف، وتارةً يعتدل تحت ورقائه فتحسب أنها همزةٌ على ألف،
مع مافي تلك الرياض من توافق المحاسن، وتباين الترتيب؛ إذ كلما اعتل النسيم
صح نشر الروض، وكلما خر الماء شمع القضيبي: [الكامل]

وكأنما تلك الغصون إذا انثنت	أعطافها رسل الصبا أحباب
فلها إذا افتقرت من استعطافها	صلح ومن سجع الحمام عتاب
وكانها حول العيون موائساً	شرب وهاتيك المياه شراب
فغديرها كأس وعذب نطافها	راح وأضواء النجوم حباب

تحيط بملق^(١) نطافها صافٍ، وظلالٍ دوحها ضافٍ، وحصاها لصفاء مائها في
نفس الأمر راکدٌ، وفي رأي العين طافٍ؛ إذا دغدغها النسيم حسبت ماءها
بتمايل الظلال فيه يتبرج ويميل، وإذا اطردت عليه أنفاس الصبا، ظننت أفياء
تلك الغصون فيه تارة تتموج وتارة تسيل، فكأنه محب هام بالغصون هوى،
فمثّلها في قلبه، وكان النسيم كلفٌ غار من دنوها إليه فمیلها عن
قربه^(٢): [مجزوء الكامل]

والسرو مثل عرائس	لفت عليهن الملاء
شمرن فضل الأزر عن	سوقٍ خلاخلهن ماء
والنهر كالمراة تُب	صبر وجهها فيه السماء

(١) الملق : ما استوى من الأرض (القاموس)

(٢) الأبيات له (= الشهاب محمود) في حسن المحاضرة ٢/ ٣٥٤.

وكان صواف الطير المبيضة بتلك الملق ، خيام أو طباء بأعلى الرقمتين قيام،
أو أباريق فضة رؤوسها لها فدام، ومناقيرها المحمرة أوائل ما انسكب من المدام،
وكان رقابها رماح أسنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطفأ ، وأحمره
مالتهب، وكنا كالطير الجليل عده، وكطراز العمر الأول جده: [الكامل]

من كل أبلج كالنسيم لطافة عف الضمير مهذب الأخلاق
مثل البدور ملاحه وكعمرها عدداً ومثل الشمس في الإشراق

ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهله في نحافتها وتكوينها،
والأزاهر في ترافتها وتلوينها؛ بطونها مدبجة، ومتونها مدرجة، كأنها الشولة^(١)
في انعطافها، أو أرواق الأطباء^(٢) في التفافها ، لاوتارها عند القوادم أوتار،
ولبنادقها في الحواصل أوكار، إذا انتصبت لطير ذهب من الحياة نصيبه، وإن
ينصب لرمي بدت لها أنه أحق بها من نصيبه، ولعل ذاك الصوت زجر لبندقتها
أن يبطن في سيره، أو يتخطى الغرض إلى غيره، أو وحشة لمفارقة أفلاذ كبدها،
أو أسفاً لخروج بنيتها عن يدها، على أنها طالما نبذت بنيتها بالعراء، وشفعت
لخصمها التحذير بالإغراء: [البسيط]

مثل العقارب أذناً معقدة لمن تأملها أو حقق النظرا
إن مدها قمر منهم وعائنه مسافر الطير فيها وانبرى سفرا
فهو المسيء اختياراً إذ نوى سفراً وقد رأى طالعا في العقرب القمرا

ومن البنادق كرات متفقة السرد، متحدة العكس والطرء، كأنها خلطت من
المندل الرطب، أو عجنت من العنبر الورد، تسري كالشهب في الظلام، وتسبق

(١) الشولة : ما تشوّل العقرب من ذنبها . (القاموس)

(٢) أرواق الأطباء: قرونها .

إلى مقاتل الطير مسددات السهام: البسيط |

مثل النجوم إذا ما سرن في أفق عن الأهلة لكن نورها راء
ما فاتها من نجوم الليل إذ رمقت إلا ثبات يرى فيها واضواء
تسري فلا يشعر الليل البهيم بها كأنها في جفون الليل إغفاء
وتسمع الطير إذ تهفو قوادمه خرافقا في الدياجي وهي صماء
تصونها جراوة^(١) كأنها درج درر، أو درج غرر، أو كمامة ثمر، أو كنانة
نبل، أو غمامة وبل، حالكة الأديم، كأنما رقمت بالشفق حلة ليلها البهيم: [السريع]

كأنها في وصفها مشرق تنبت منه في الدجى الأنجم
أو ديمة قد أطلعت قوسها ملونا وانبعثت تسجم
فاتخذ كل لها مركزاً ، وتقاضى من الإصابة وعداً منجزاً ، وضمن له السعد
أن يصبح لمراده محرزاً: [السريع]

كانهم في يمن أفعالهم في نظر المنصف والجاحد
قد ولدوا في طالع واحد وأشرقوا من مطلع واحد
فسرت لها من الليل علينا من الطير عصابة، أظلتنا من أجنحتها سحابة،
من كل طائر أفلح يرتاد مرتعاً، فوجد ولكن مصرعاً، وأسف يبغي ماءً جماماً،
فوررد ولكن سما منقعا، وحلق في السماء يبغي ملعباً، فبات هو وأشياعه
سجداً للقسى وركعاً، فتباركنا بذلك الوجه الجميل، وتداركنا أوائل ذلك
القبيل.

(١) جراوة : أوعية .

فاستقبل أولنا ثمًّا^(١) تمّ بدره ، وعظم في نوعه قدره ، كأنه برقٌ كرع في غسقٍ ، أو صبح عطف على بقية الدجى عطف النسق ، تحسبه في ائتلاف المنى غرةً نجح ، وتخاله تحت أذيال الدجى طرة صبح^(٢) ، وعليه من البياض حلة وقارٍ ، وله كرةٌ من عنبرٍ فوق منقارٍ من قارٍ ، له عنقٌ ظليمٌ ، والتفاتة ريم ، وسرى غيم يصرفه نسيمٌ : [المتقارب]

كلون المشيب وعصر الشبا ب ووقت الوصال ويوم الظفر
كان الدجى غار من لونه فأمسك منقاره ثم فر
فأرسل عن الهلال نجماً ، فسقط منه ما كبر بما صغر حجماً ، فاستبشر
بنجاحه ، وكبر عند صياحه ، وحصله من وسط الماء بجناحه .

وتلاه كي^(٣) نقي اللباس ، مشتعل شيب الراس ، كأنه في عرائن شبيه لا وبله كبير أناس^(٤) ، إذا سفّ في طيرانه فغمام ، وإن خفق بجناحه فقلع له بيد النسيم زمامٌ ، ذو غيبة^(٥) كالجراب ، ومنقارٍ كالحراب ، ولونٍ يغرفي الدجى كالنجم ، ويخدع في الضحى كالسراب ، ظاهر الهرم ، كأنما يخبر عن عادٍ ، ويحدث عن إرمٍ : [الكامل]

إن عام في زرق الغدير حسبته مبيض غيم في أديم سماء

(١) التّم: طائر نحو الإوز، في منقاره طولٌ ، عنقه أطول من عنق الإوز (حياة الحيوان ١/ ٢٣١)

(٢) من قول ابن دريد في مقصورته : [شرح التبريزي ١٣]

إما تري رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى

(٣) الكي: لم يذكره الديرمي في حياة الحيوان .

(٤) من قول امرئ القيس : [ديوانه ٢٥]

كان أباناً في أفانين ودقه كبير أناسٍ في بجادٍ مزمل

(٥) الغيب : هو الجلد المتدلي تحت عنق الثور .

أو طار في أفق السماء ظننته في الجو شيخاً عائماً في ماء
متناقض الأوصاف فيه خفة الـ جهال تحت رزانة العلماء

فثنى إليه الثاني عنان بندقه، وتوخاه فيما بين أصل رأسه وعنقه، فخر كمارد
انقض عليه نجم من أفقه، فتلقاها الكبير بالتكبير، واختطفه قبل مصافحة الماء من
وجه الغدير.

وقارنته إوزة، حلتها دكناء، وحليتها حسناء، لها في الفضاء مجال، وعلى
طيرانها خفة ذات التبرج، وخفر ربات الحجال، كأنما غبت في ذهب، أو خاضت في
لهب، تختال في مشيها كالكاعب، وتناى في خطوها كاللاعب، وتعطو بجيدها
كالظبي الغرير، وتتدافع في سيرها مشي القطاة إلى الغدير^(١): [الطويل].

إذا أقبلت تمشي بخطر كاعبٍ رداح وإن صاحت فصولة خادم
وإن أقلعت قالت لها الريح ليت لي خفا ذي الخوافي أو قوى ذي القوادم
فأنعم بها في البعد زاد مسافرٍ وأحسن بها في القرب تحفة قادم

فلوى الثالث جيده إليها، وعطف بوجه قوسه عليها، فلجت في ترفعها
ممعنة، ثم نزلت على حكمه مذعنة، فأعجلها عن استكمال الهبوط، واستولى
عليها بعد استمرار القنوط.

وحاذتها لغلغة^(٢) تحكي لون وشيها، وتصف حسن مشيها، وتربي عليها
بغرتها، وتنافسها في المحاسن كضرتها؛ كأنها مداماً قطبت بمائها، أو غمامة
شفت عن بعض نجوم سمائها: [السريع]

(١) من قول المنخل البشكري: [الأغاني ٧/٢١]

فدفعتها فتدافعت

مشي القطاة إلى الغدير

(٢) طائر اللقلق المعروف.

بغرة بيضاء ميمونة تشرق في الليل كبدر التمام
وإن تبدت في الضحى خلتها في الحلة الدكناء برق الغمام

فنهض الرابع لاستقبالها، ورماها عن فلك سعده بنجم وبالها، فجدت في
العلو مغدة، وتطاردت أمام بندقه، ولولا طراد الصيد لم تك لذة^(١)؛ وانقض
عليها من يده شهابٌ حتفها، وأدركها الأجل لحفة طيراتها من خلفها، فوقعت
من الأفق في كفه، ونفر من في بقايا صفها عن صفه.

وأنت في إثرها أنيسة^(٢) آنسة، كأنها العذراء العانسة، أو الأدماء الكانسة،
عليها خفر الأبكار، وخفة ذوات الأوكار، وحلاوة المعاني التي تجلى على
الأفكار، ولها أنس الربيب، وإذلال الحبيب، وتلفت الزائر المريب من خوف
الرقيب، ذات عنق كالإبريق، أو الغصن الوريق، قد جمع صفرة البهار إلى حمرة
الشقيق، وصدرٍ بهي الملبوس، شهبيٌّ إلى النفوس، كأنما رقم فيه النهار بالليل أو
نقش فيه العاج بالآبنوس؛ وجناحٍ ينجيها من العطب، يحكي لونه المندل
الرطب، لولا أنه حطب: [المتقارب]

مدبجة الصدر تفويفه أضاف إلى الليل ضوء النهار
لها عنقٌ خاله من رآه شقائق قد سيجت بالبهار

فوئب الخامس منها إلى الغنيمة، ونظم في سلك رمية تلك الدرة اليتيمة،
وحصل بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمة.

وأتى على صوتها حبرج^(٣) يسبق همته جناحه، ويغلب خفق قوادمه

(١) لعله صدر بيت، من الطويل.

(٢) الأنيس - وتسمية الرماة الأنيسة: طائر حاد البصر، يشبه صوته صوت الجمل، وماواه قرب

الأنهار، والأماكن الملتفة بالأشجار (حياة الحيوان ١/ ٦٤)

(٣) الحبرج: ذكر الخباري (حياة الحيوان ١/ ٣٢٢).

صياحه، مُدبَّج المطا، كأنما خلع حلة منكبيه على القطا، ينظر من لهبٍ ويخطو
على رجلين من ذهبٍ: [المتقارب]

يزور الرياض ويجفو الحياض ويشبهه في اللون كدر القطا
ويهوى الزروع ويلهو بها ولا يرد الماء إلا خطا

فبدره السادس قبل ارتفاعه، وأعان قوسه بامتداد باعه، فخر على الألاءة
كبسطام بن قيس^(١)، وانقض عليه راميهِ، فحصله بحذقي، وحمله بكيسٍ.

وتعذر على السابع مرامه، ونبا به عن بلوغ الأرب مقامه، فصعد هو وترب له
إلى جبلٍ، وثبت في موقفه من لم يكن له بمرافقتهم قبل، فعن له نسر ذو قوائم
شداد، ومناقير حدادٍ، كأنه من نسور لقمان بن عاد^(٢)، تحسبه في السماء ثالث
أخويه، وتظنه في الفضاء قبته المنسوبة إليه، قد حلق كالفقراء رأسه، وجعل مما
قصر من الدلوq الدكن^(٣) لباسه، واشتمل من الرياش العسلي إزاراً، واختار
العزلة فلا تجد له إلا في قنن الجبال الشواهي مزاراً، قد شابت نواصي الليالي وهو
لم يشب^(٤)، ومضت الدهور وهو من الحوادث في معقل أشب: [الطويل]

ملك طيور الأرض شرقاً ومغرباً وفي الأفق الأعلى له أخوان
له حال فتاكٍ وحلية ناسكٍ وإسراع مقدمٍ وفترة وان

فدنا من مطاره، وتوخي ببندقه عنقه، فوقع في منقاره، فكأنما هدّ منه

(١) بسطام بن قيس، ترجمته في جمهرة ابن حزم ٣٢٦.

(٢) انظر عن نسور لقمان بن عاد: ثمار القلوب ٦٩٤/٢.

(٣) في الأصل: الركن.

(٤) من قول أبي تمام: [ديوانه ٥٣/١]

شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد

صخرًا، أو هدم به بناءً مشمخرا^(١).

ونظر إلى رفيقه مبشراً له بما امتاز به عن فريقه؛ وإذا به قد أظلمته عقاب كاسر، فكأنما أضلت صيدا أفلت من المناسر، أو حطت فسحاب انكشف، وإن أقامت فكان قلوب الطير رطباً ويابساً، لدى وكرها العناب والحشف^(٢)، بعيدة مابين المناكب، إذا أقلعت لجت في علو، كأنما تحاول ثاراً عند بعض الكواكب^(٣): [المتقارب]

ترى الطير والوحش في كفها ومنقارها ذا عظام مزاله
فلو أمكن الشمس من خوفها إذا طلعت ماتسمت غزاله

فوثب إليها وثبة ليث قد وثق من حركاته بنجاحها، ورماها بأول بندقة فما أخطأ قادمة جناحها، فأهوت كعود^(٤) صرع، أو طود صدع، قد ذهب بأسها، وتذهب بدمها لباسها، وكذلك القدر يخادع الجو عن عقابه، ويستنزل الأعصم من عقابه، فحملها بجناحها المهيض، ورفعها بعد الترفع في أوج جوها من الحضيض، ونزلاً إلى الرفقة، جذلين بريح الصفقة.

فوجد التاسع قد مر به كركي طويل السفار، سريع النقار، شهى العراق،

(١) من قول بشر بن عوانة : [منتهى الطلب ٢٥٩/٨]

فخر مضر جاً بدم كائي هدمت به بناء مشمخرا

(٢) من قول امرئ القيس : [ديوانه ٣٨]

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

(٣) لو قال : إذا أقلعت لجت علوا كأنما تحاول ثاراً عند بعض الكواكب

لكان بيتاً من الطويل، مع أنه في الأصل من بيت أبي تمام : [ديوانه ٢١٧/١]

مكارم لجت في علو كأنما تحاول ثاراً عند بعض الكواكب

(٤) العود : المسن من الإبل.

كثير الاغتراب ، يشتر بمصر ويصيف بالعراق ، لقوامه في الجو هفيف^(١) ، وأديمه لون السماء طراً عليها غيم خفيف ، تحنُّ إلى صوته الجوارح ، وتعجب من قوته الرياح البوارح ، له أثر حمرة في رأسه كوميض جمر تحت رمادٍ ، أو بقية جرح تحت ضماد ، أو فص عقيقٍ شقت عنه بقاء ثمادٍ ، ذو منقارٍ كسنانٍ ، وعنقٍ كعنانٍ ، كأنما ينوس على عودين من آبنوس^(٢) : [السريع]

إذا بدا في أفق مقلعاً والجو كالماء تفاويفه
حسبته في لجة مركباً رجلاه في الأفق مجاذيفه
فصبر له حتى جازه مجلياً ، وعطف عليه مصلياً ، فخر مضرجاً بدمه ، وسقط مشرفاً على عدمه ؛ وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون ، وأصابه القدر بحبةٍ من حمأ مسنونٍ ، فكثر التكبير من أجله ، وحمله راميه على وجه الأرض برجله .
وحاذاه غرنوق^(٣) حكاة في زيه وقدره ، وامتاز عنه بسواد صدره ، له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خلفه ، معقودتان من أذنه مكان شنفه^(٤) : [السريع]

له من الكركي أوصافه سوى سواد الصدر والراس
إن شال رجلاً وانبرى قائماً ألفيته هيئة برجاس^(٥)
فأصغى العاشر له منصتاً ، ورماه ملتفتاً ، فخر كأنه صريح الألحان ، أو نزيف بنت الالحان ، فأهوى إلى رجله بيده وأيده ، وانقض عليه انقباض الكاسر على صيده .
وتبعه من المطار صوغ^(٦) كأنه من النضار مصوغٌ ، تحسبه عاشقاً قد مدَّ

(١) الغرنوق : طائر أبيض طويل العنق ، من طيور الماء . (حياة الحيوان ١١٣/٢)

(٢) الشنف : القرط . (القاموس) .

(٣) البرجاس : غرض في الهواء على رأس رمح . (القاموس)

(٤) الصُّوغ : لم يذكره الديميري في حياة الحيوان . ولعله : الضوع : طائر من طير الليل ، من جنس

الهوام . (حياة الحيوان ١/٦٤٩)

صفحته، أو بارقاً قد بث لفحته: [السريع]

طويلة رجلاه مسودة كأن منقاره خنجر
مثل عجوزٍ رأسها أشمط جاءت وفي رقبتها معجر^(١)

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كثر، فسقط كفارس
تقطر عن جواده، أو وامق أصيبت حبة فؤاده، فحمله بساقه، وعدل به إلى
رفاقه.

وأقرن به مرزم^(٢) له في السماء سمي معروف، ذو منقارٍ كصدغٍ معطوف،
كأن رياشه فلق اتصل به شفق، أو ماء صافٍ علق بأطرافه علق: [الhezj]

له جسمٌ من الثلج على رجلين من نار
إذا ألقع ليلاً قلـ ت برق في الدجى سار

فانتحاه الثاني عشر متمماً، ورماه مصمماً، فأصابه في زوره، وحصله من
فوره، وحصل له من السرور ما خرج به عن طوره.

والتحق به شبيطر^(٣) كأنه مدية مبيطر، ينحط كالسيل، ويكر على الكواسر
كالخيل، ويجمع من لونه بين ضدين، يقبل منهما بالنهار ويدبر بالليل، يتلوى
في منقاره الأيم تلوي الثنين في الغيم: [البسيط]

تراه في الجو ممتدا وفي فمه من الأفاعي شجاع أرقم ذكر
كأنه قوس رامٍ عنقه يدها ورأسه رأسها والحية الوتر

(١) المعجر: ثوب تعتجر به المرأة. (القاموس).

(٢) المرزم: من طير الماء، طويل الرجلين والعنق، أعوج المنقار، في أطراف جناحيه سواد؛ أكثر أكله السمك (حياة الحيوان ٢/٣١٤).

(٣) الشبيطر: هو السميطر، طائر طويل العنق جداً، يُرى أبداً في الماء الضحاح؛ والظاهر أنه مالك الحزين (حياة الحيوان ١/٥٧٤).

فصوب الثالث عشر إليه بندقه، فقطع لحيه وعنقه، فوقع كالصرح الممرد أو الطراف الممدد.

وأتبعه عناز^(١) أصبح في اللون ضده، وفي الشكل نده، كأنه ليل ضم الصبح إلى صدره ، أو انطوى على هالة بدره: [البسيط]

ترأه في الجو عند الصبح حين بدا مسود أجنحة مببيض حيزوم
كأسود حبشي عام في نهر وضم في صدره طفلاً من الروم

فنهض تمام القوم إلى التتمة ، وأسفرت عن نجاح الجماعة تلك الليلة المدلهمة، وغدا ذلك الطير الواجب واجباً، وكمل به العدد قبل أن تطلع الشمس عيناً أو تبرز حاجباً، فيالها ليلة حصرنا بها الصوادح في الفضاء المتسع، ولقيت فيها الطير ما طارت به من قبل على كل شملٍ مجتمعٍ، وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها النظام، أو شربٍ كأن رقابهم من اللين لم يخلق لهن عظامٌ، وأصبحنا مثنين على مقامنا، منثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا، داعين المولى جهدنا، مدعين له قبلنا أو ردنا ، حاملين ماصرعنا إلى بين يديه، عاملين على الشرف بخدمه والانتماء إليه: [الطويل]

فأنت الذي لم يلف من لا يودّه ويدعو له في السر أو ندعي له
فإن كان رمي أنت توضح طريقه وإن كان جيش أنت تحمي رعيه

والله تعالى يجعل الآمال منوطةً به وقد فعل ، ويجعله كهفاً للأولياء وقد جعل.

ومنه قوله مما كتبه جواباً عن قيل من ادعى إليه في البندق:

ولازالت قدمه فضله مذهبة الفوائح بالفتوح، منبضةً بالنجوم عن قوس عزم ،

(١) العناز : العقاب الأنثى . (القاموس) . ولم يذكر في حياة الحيوان .

مذ تشبه به هلال الأفق لم يجسر نسر السماء الطائر أن يلوح، منبعثةً عن فتكات
اهتمامٍ، لا ذو الجناح أمامه بناجٍ، ولا يسلم منه مثار الوحش الجموح، مطرزة حلة
الظلام برداء شفقٍ، نشره في الأفق من صوب صابيةٍ دم الطير المسفوح، صدرت
هذه المكاتبه تتلقى بالقبول وجه قصده الجميل، وتقابل سعد طائره الميمون
بواجب الود الجليل، ويشني على عزمه الذي ما برح يسري في برده اليمن إلى
رواتبه كل فخارٍ، ويشني أعنة الثناء إلى هممه التي استخارت التوفيق في الادعاء
إلى قديم مجدنا الذي تتشرف به الأقدار، فجاد وتشكر سداد مقصده الذي لا
يخفي مواقع إصابته الليل، واشتداد ساعده الذي أسبل الجناح على رجل حامله
في الأفق إسبال الذيل، معلمةً أن مكاتبته الكريمة وردت منبعثة عن طروقه مظان
الاسترواح، وسراه إلى مواطن النجح التي يحمد فيها عند الصباح، في رفقةٍ من
أولياء دولتنا، ما فيهم إلا من حسبه في الولاء صميمٌ، وحديث مجده في إصابة
مواقع الصواب في الخدمة قديم، مرهفاً عزمةً ما رأى نجوم أهلتها النسر الطائر إلا
أصبح كأخيه واقعاً، ولا نهضت إلى باسط جناح تهينه في أفق السماء إلا خرَّ
بين يديه متواضعاً، وأن السعد هياً له مقاماً يستنزل فيه عظيم الطير من عواصم
الأفق، وتسلك فيه رسل قوسه إلى أرواح ذوات الجناح المحلقة في الفضاء أقرب
الطرق، وأنه حين مرّ به من اللغالب صفٌ قد أوثق بعضه القدر، وأوثق أوله بدره
عزمه، والبدر لمن بدر، أرسل أعزه الله عن كبد القوس ابنها فانت، وخطب إلى
نفس تلك العصبه من الطير نفسها فما ضنت، وصرع لغلغة مليحة مُليحةً،
فأصابها في أقوى قوادمها إصابةً صحيحةً صريحةً، فأهوت إلى بين يديه من
مكانم مكانها، وحملها القديم الذي أشار إليه رافعاً بالقسم بعلي لشأنها فتمنى
كل تمٍّ^(١) لو حصل كما حصلت، وود كل صوغٍ^(١) لو صيغت عيونه في جملة

(١) أسماء طيور مضي التعريف بها في النص السابق.

حليها التي فصلت، وأنه ادعى لنا بهذه النسبة التي تثنت بالقبول أحكامها، وتقضى بانتساج الأواصر حكامها، وقد علم بذلك جميعه، وأفضنا في شكره، وأفضينا إلى غاية الثناء الجميل عند ذكره، وسررنا ببلوغ الوطر وحصول الظفر، وتفاءلنا أنه كذلك ينزل على حكم سيوفنا كل من كفر، وقابلنا ذلك بوجه القبول المبتهج، وأمضينا حكم هذا الانتماء الملتحم والانتساب الممتزج، ومن أولى منه بهذا الفخر الذي انتضمت عقوده، وتقابلت في أفق مجده سعوده؛ فليأخذ حظه من بشرى هذا القبول وبشره، حبرة خبره الذي يتضوع الوجود بنشره، والله تعالى يجعل مطالبه مقرونة بالنجاح، قادمةً إليه بأنباء السعود على أوثق قوادم وأثبت جناح.

ومنه قوله في النيل:

وأجرى الخلق على عوائد كرمه، وأجرى لهم بقدرته من حجب الغيب مواد نعمه، وأعلى لديهم موارد نيلهم، حتى ما كان يشرب معروق ساقه من نيلهم بتناول الماء بفمه، وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد، وأذن له في الرفع عن محله، فسجد على الترب شكراً وتيمم الصعيد، وإن لم يبق به الآن على وجه الأرض صعيداً، وأقبل بعد تقصير عامه الماضي بوجه عليه حمرة الخنجل، وعزم سبق سيفه إلى المحل العذل بالأجل، وحزم أدرك الجذب موجه قبل أن يقول سأوي إلى جبل، واستظهار على كل ما علا من الأرض حتى إن الهرمين باتا منه على وجل، ومهد الأرض التي كانت ترقبه فهوّلها المنظر على الحقيقة، ووطئ بطن الثرى فنتج الخصب بينهما، وذبح المحل في العقيقة، وتجمعد على الآكام فخیل للعيون أنها تسيل، وشيب مفارق الثرى ببياض زيده، وعادة بياض الشيب أن يخضب بورق النيل، فيستقبل نعم الله التي سيسم الأرض وسمها،

ويولي النعم وليها، ويأتي بالركاب أتيها، حتى تغص بالنعم تلك الرحاب،
ويظن لعموم ذي البلاد الشامية أن نيل مصر ركب إليها على السحاب .
ومنه قوله في مثله :

صدرت ، ونعم الله قد عمت، وآلاؤه مع تحقق المزيد قد تمت، والسيل قد
بلغ في تتبع بقايا القحط الربى، والنيل قد عمّ بنيله حتى كلل مفارق الآكام،
وعمم رؤوس الربى، وحمى الأرض من تطرق المحول إليها فأصبحت منه في حرم،
وظهرت به عجائب القدرة، ومنها أن ابن ستة عشر بلغ إلى الهرم، وبث جوده في
الوجود، فلو صور نفسه لم يزدها على مافيه من كرم^(١)، وتلقت منه النفوس
أبهج محبوب طرد ممقوتاً، ووثقت من حمرة بالغنى والمنى، إذ لم يدر أياقوتاً
يشاهد أم قوتاً، وجرى في الوفاء على أكمل ما ألف من عادته، وظهر بإشراقه
وعموم نفعه، ظهور الشمس، فألقى على الأرض أشعة سعادته، وبلغ الله به
المنافع فزعزع الجبال الشم ولم يتجاسر على الجسور، وأقطع الخصب الأرض
كلها، فله كل بقعة مثال مرأى ومنشور منشور، وبعث إلى كل عمل من سراياه
جنوده عارضاً مغضباً على الخل، ما يخطر إلا وسيفه مشهور، وجرى الأمر في
التحليق على عوائد السرور، وعلقت ستارة المقياس لا للإخفاء على عادة الأستار
بل للإشاعة والظهور، واستقر حلم المسرة على السنن المعهود، وعاذ الناس به
عند مرورهم إذ ذاك برحمة الله ﴿يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾^(٢)
وها هو الآن يرفع إلى كل تلة على جناح النجاح، ويخيف السبل وما عليه
حرج، ويقطع الطرق وليس عليه جناح.

(١) من قول أبي تمام : [ديوانه ٢ / ٣٤٠ والإعجاز والإيجاز ٢٢٦]

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

(٢) سورة هود : ١٠٣ .

ومنه قوله يبشر بركوب السلطان بعد تقطر كان حصل له عن جواده :

ولا زال مبشراً من النصر بما يقر عين الهدى، ويكمد قلوب العدى، وينذر
أهل الكفر من ركوبنا اليوم بطلائع ركابنا عليهم غداً ، ويسر حزب الإيمان من
أخبار موكبنا الشريف بيوم كفر الدهر ذنب إساءته بالأمس وافتدى .

صدرت تخصه ببشرى عمت بشائرها، وسرت بالمسرات الكاملة بوادرها،
وتأرجت الأرجاء ، فلولا أمانة الكتب لقليل : تمت بأسرار السرور ضمائرها،
وطارت بها محلقات التهاني في الوجود، ووجب بسببها وجوب سجود الشكر
على كل مؤمن يتعبد عند تجدد النعمة بفرض السجود، وذلك أنه قد علم ما كان
حصل من تأخر ركوبنا هذه الأيام، بسبب ما كان حصل من التقطر الذي كانت
عاقبته بحمد الله مأمونة، وكبوة الجواد بحسن المال فيه ميمونة^(١)، بما ألفنا من
عوائد تأييد الله وعونه مضمونة ، وكان تأخر الركوب في تلك المدة اللطيفة
لموافقة آراء الحكماء في خدمة المزاج، وملاطفة العلاج، وقد منّ الله سبحانه
وتعالى في كمال الصحة، وشمول العافية، وزوال البأس ﴿وإن تعدوا نعمة الله
لا تحصوها﴾^(٢) ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، وسطرناها مبشرة بركوبنا
الذي خضعت له أعناق الكفر والشقاق، وسارت به ركائب البشائر ونجائب
التهاني في الآفاق ، وضائق به فجاج الأرض بأولياء الطاعة، فلولا سلوكهم آداب
الخدمة في الترجل بين أيدينا زلزل ركض خيلهم بمصر أطراف العراق، فكان
ركوبنا في موكبنا المنصور يوم كذا ، وكان يوماً مشهوداً ، ووقتاً من مواسم الزمن
معدوداً ، ربت فيه النعم على الحصر، ورفل به الدين في حلل التأييد والنصر،
وسرى إلى أرواح العدى رعبه، وعزّ به في كل أفق دين الإسلام وحزبه، وتحقق به

(١) في الأصل : ميمونة فيه

(٢) سورة إبراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨ .

العدو الذي أملى له أن حركته حركة الذبيح، وجمعه الذي ألفه الشيطان بغروره للتكسير لا للتصحيح، وتضاعف شوقه إلى الجنب العالي في ذلك المركب الذي أخذ فيه الأولياء من المسرة بأوفى القسم وأوفر النعم، ورفلوا فيه في مطارف الحبور، واتخذوه بينهم عيداً سموه عيد السرور، وقد عجلنا بإعلامه بذلك لعلمنا بمحبته الصادقة، ومولاته التي هي بمحض الصفاء ناطقة، ولأننا نعلم مضاعفة سروره بها، وأدائه نذور الشكر بسببها، فليسر الأولياء بإشاعتها، وتتقدم بضرب البشائر في وقتها وساعتها؛ والله تعالى يضاعف إقباله، ويبلغه من النعم أمنيته وآماله.

ومنه قوله في تقليد لنائب البيرة^(١) بالاستمرار:

وعلم العدو أنه الندب الذي كثرت في سبيل الله أيامه، وما قصده العدو إلا وتمنى الذهاب، وحث للهرب الركاب، وقنع من الغنيمة بالإياب، وولى جمعهم الأدبار، ولم يعد إلى أهلهم سوى الأخبار، وما أقدموا عليه إلا وقد جعل الرعب من بين أيديهم سداً، ومن خلفهم سداً، فهم لا يبصرون، وما قاتلوه بعدما قابلوهم إلا أن الله طمس على قلوبهم، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، وكم أرسلوا في أيامه إلى الثغر السوابق، فضرب بينهم بسور، وطارت إليهم من كنانة بأسه حمام الحمام بأجنحة النسور، وسرت سراياه في بلاد العدو فسبقها الرعب إليهم، وأحاط النهب بما لديهم، واستولى عليهم الذعر حتى صاروا يحسبون كل صيحة عليهم، واطلع على خفايا أحوالهم، فما أجمعوا أمراً إلا وعلموا به إذ يأترون، ولا مكروا مكرراً إلا أظهره الله عليهم، والله أعلم بما يمكرون.

وكان فلان هو الذي ما شام معه العدو بارقة ثغر إلا وأمطرتهم^(٢) من الوبال

(١) البيرة: بلد قرب سميساط، بين حلب والثغور الرومية؛ وهي قلعة حصينة. (معجم البلدان ٥٢٦/١).

(٢) كذا، والصواب: وأمطرتهم.

بوابل، وأوقعهم من النكال في كفة حابل، فاقتضت الآراء الشريفة أن يزداد أمره
 تمكناً، وقدره تحلياً بالنعمة وتزيناً، وسره استقراراً بعلو رتبته وتوطناً، وثغره
 تحسباً، بما افتر من النعمة وتحصناً، ولذلك رسم بالأمر الشريف، لازالت الثغور
 بمهابته تبتسم، والجنود تتحكم بسطواته في ذخائر العدى وتقتسم، أن نجد له
 هذا التقليد الشريف باستمراره في النيابة بالبيرة على أجمل عوائده، وأكمل
 قواعده، لنهوضه في مصالح الإسلام والمسلمين بما أحصى الله ونسوه، وإجراءً
 عليه بما ألفه سلفنا الطاهر من رشد كفايته وأنسوه، ولأنهم غرسوه في هذا الثغر
 لتنتمي به المصالح، ويتعين أن يتعاهد بالإحسان سقياً ما غرسوه؛ فليتلق هذه
 النعمة بباع الشكر المديد، ويبرق بعلو الهمة إلى الزيد من فضل الله عليه، فإن
 لديه المزيد، ويجرد على من جاوره من العدى سيف عزمه، فإن نصر الله بأسافنا
 أقرب إليه من حبل الوريد، ويجعل سراياه طلائع جيوشنا المنصورة، فإنها قد
 تكون بأقصى الممالك، وماهي من الظالمين ببعيد، ويكون متيقظاً للعدو في حال
 سكونه، فإنه قد يتحامل الجريح ويتحرك الذبيح، والحازم من تراه في الأمن في
 درعه^(١)، فلا تبدو ليلة إلا وهو لها متيقظ في العدو وإن غفل، مشمراً له عن
 ساق العزم وإن أسبل ملابس غروره ورقل، فإنه إذا فعل ذلك لم يلحقه ندم ولا
 لوم، والخاسر من جلبت عليه تعب سنة راحة يوم، وليكن وله من الكثافة في كل
 فريق فرقة ناجية، ومن القصاد بكل طريق عصابة بأسرار القلوب ناجية، ليعلم ما
 يأتي وما يذر، وإذا لم يأت بعدوه حراك فما يضر مع الأمين مبيته على حذر،
 وليضم الأطراف التي يطمع العدو بها في فرصة يختلسها أو دنية يفترسها،
 وليتعاهد منه رجال الثغر بالإحسان الذي يؤكد طاعتهم، ويجرد قوتهم في

(١) من قول صريع الغواني: [ديوانه ١٢].

لا يامن الدهر أن يدعى على عجل

تراه في الأمن في درع مضاعفة

الجهاد واستطاعتهم ، فإنهم رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وتقربوا بالجهاد في سبيله إليه ، ولا يدع بالثغر مملوكاً نصرانياً ، فإنه يطلع على الأسرار ، ويتطلع إلى الكفار ، ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشركٍ ، أولئك يدعون إلى النار .

ومنه قوله :

وينهي أنه أرسل طيها قصيدةً تنوب عن حضوره ، وتعتذر لقصوره ، وتنبيئ عن مساهمة خاطره لخاطره الكريم في مساءته وسروره : [الطويل]

ومن سر أهل الأرض ثم بكى أسيً بكى بعيون سَرَّها وقلوبِ

ولما سام المملوك قلمه السعي في ذلك ، مال إلى النفور ، وجنح وقال : ماعادتي أن أسعى إلى هذا الجنب الشريف إلا في التهاني والمدح ؛ فقال له المملوك : إن مساء تلك المساءة أوجب أجراً ، واستقبل من المساء فجرأ ؛ فكتب ما يقف الخاطر الشريف على مضمونه ، ويتحقق به أن لمضمار حقه مدى تقف جياذ القرائح من دونه .

ومن قوله :

يقبل الأرض رافعاً مجاب الدعاء ، فاسحاً مجال الولاء ، ناشراً على أعطاف الطروس حلل الثناء ، مبشراً نفسه والمسلمين ، بما من الله به من قدوم مولانا تحت ألوية الظفر والنصر ، محبوبا بيمن العزمات التي قسمت أعداء الله وبلادهم بين الحصد والحصر ، متوسلاً إلى الله تعالى أن يجعل عزماته المرهفة في سبيل الله ، حيث سلكت ملكت ، وسيوفه المجردة على أعداء الله ، أين سفرت من الغمود سفكت .

ومنه قوله من توقيع حسبة :

وبعد ، فإن أولى ما أنعم فيه نظر الاختيار ، وأمعن فيه تدبر الارتياح

والاعتبار، أمر تعم الأمة منافعه، وتتم به بركات الرزق الذي تدر بالتقوى منابعه، ويزال به الغش عن الأمة في الملابس والمطاعم، ويزداد به البخس في المكيال والميزان اللذين هما من أظهر المضار وأخفى المظالم، وتراعى به الهيئات الدالة على إتمام المروءة وإكمالها، وتدحض به النقائص التي تنتقد على أرباب المكانات في أقوالها وأعمالها؛ ولما كانت الحسبة هي الأمر الذي اشترك عموم نفعه، والمعنى الذي نبه على حصول الاضطرار إليه في إباحة الشيء ومنعه، والسبب الذي يحسم به مواد الأذى في التعرض إلى البيوع الفاسدة، والإقدام على مزج الأقوات النافقة بالكاسدة، والتحرز من الغش في الأشياء التي لا يترك صانعها هو وأمانته، ولا يقنع منها بسوى اليقين، وإن غلبت على واضعها عفته وصيانتها، فإن البلوى بها قد تعم، والحزم بها في ترك التقليد؛ وإذا كانت الأفراد لا تظهر مع الهيئة الاجتماعية، فبين من يتحراها بالمباشرة، وبين من يتلقاها بالقبول، بون بعيد؛ فلذلك يتعين أن يكون مباشرها ممن هدته العلوم الدينية إلى ما يعتمد من مصالح لا يخرج فيها عن حكمها، وحدته القواعد الشرعية إلى ما يستند إليه فيها من عوائد لا يعدل بها عن وسمها الشريف ورسمها.

وكان فلان هو معنى هذه الألفاظ المجملة، وسرّ هذه المقاصد التي كان يحتاج إيضاحها من ذكره إلى التكملة، وبتجاربه للفضائل قوة في الحق لا تستفزها الرقى، واستقامة في الإنصاف لا تميلها الأهواء عن سنن التقى؛ ورسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الحسبة الشريفة، تفويضاً يمضي حكمه في مصالحها، ويجمل نظره في داني الأمور ونازحها؛ فليفعل في ذلك ما تقتضيه هذه الرتبة من منع احتكار، وقطع أسعار، وتفقد ما يصنع من منسوج ومرقوم ومشروب ومطعم ومجلوب ومخزون ومكيل وموزون ومعدود ومذروع وباقي على هيئته ومصنوع، ويجعل لذلك حداً في الجودة معلوماً، وقدراً في القيمة

مفهوماً، ووصفاً في العلو والدنو والتوسط بينهما مرسوماً.
ومنه قوله توقيع خطابة:

وبعد، فإن صهوات المنابر لا تستقل بكل راكبٍ، ولا تستقر إلا تحت كل فارسٍ يزاحم شرف علمه الكواكب بالمناكب، ولا تذعن إلا لمن إذا امتطى أعوادها أطال في المعنى وأطاب، وإذا قال: أما بعد لم تختلف الآراء في أنه دل على الحكمة بفصل الخطاب، وإذا ذكر بأمر الله أصبح كل قلب جامع، وغض كل طرف طامح، ورد كل عبدٍ عن طاعة ربه نازح، وأصغى من صغى منه إلى قول مشفقٍ في الله صالح، وخرجت الموعظة منه على لسان صادقٍ فلم تعد حبات القلوب، وتتبع كلامه أدواء الضمائر فشفاها، ولا داء أوجع من الذنوب، ووثقت النفوس في أنه قول إمام عصره فتلقته بالتسليم، وجلست العلماء تحته للاقتداء بفوائده، فكان على الحقيقة فوق كل ذي علم عليم؛ وأحق المنابر بارتداد من يصلح لاقتعاد غاريها، وأولاها بالصدود عمن برز في صورة خاطبها، ما كان من أعظمها رفعةً، وأكرمها بقعةً، وأفخمها جماعة وجمعة، وأقدمها شهرةً في الآفاق وسمعةً، وأعجبها بناءً وأنباءً، وأحملها عن أئمة الأمة أثقالاً وأعباءً، وأكثرها زجلاً بالتلاوة والأذكار، وأعمرها بالقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار؛ ولما كان المسجد الجامع بدمشق المحروسة هو الذي زاحم الأرض المقدسة بمنكبيه، فلو كان للمساجد الثلاثة رابعٌ لشدت إليه الرحال، وتحقق بالرفعة التي لا تسامى أن نور المشكاة تشرق من أرجائه ﴿في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ رجالاً^(١) تعين أن نختار لها من هو رجل المنابر، وبطل المحابر، وهو فلان الذي شفت مواعظه القلوب وأثمرت بالتقى، واستلت سخائم الصدور، واستقرت من المصلي على النقا،

ورسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه الإمامة بالمسجد الجامع بدمشق المحروسة، والخطابة بمنبره الكريم، عملاً بالأولى في التقديم، واحتياطاً للإمامة التي هي أثبت دعائم الدين القويم، فليحل هذه الرتبة التي لم تقرب لغيره جياها، وليحل هذه العقيلة التي لا تزان بسوى العلم والعمل أجياها، ويرق هذه الهضبة التي يطول إلا على مثله صعودها، ويلق تلك العصابة التي تجتمع للاقتداء به حشودها؛ ويعلم أنه في موقف الإبلاغ عن الله تعالى لعباده، والإنذار بما ورد عن الله ورسوله على مراد الله ورسوله لا مراده؛ وتحت منبره من الأعيان من إن تلقَّ غيره القول بتقليده تلقاه بانتقائه وانتقاده؛ فيعتصم بالله في قوله وفعله، ويتيقن أن الكلمة إذا خرجت من القلب لا تقع إلا في مثله، وليجعل خطبة كل وقت مناسبةً لأحوال مستمعيها، متناسبة في وضوح المقاصد بين إدراك من يعي غوامض الكلام ومن لا يعيها، وليوشح خطبته بالدعاء لإمام عصره، ومالك أمصار الإسلام مع عصره، وللأمة بعموم تخصيصه وحصره، وهو يعلم أنه يكون في المحراب مناجياً لربه، واقفاً بين يدي من يحول بين المرء وقلبه، فليلجأ إلى الله تعالى في الإعانة بالإخلاص على هول مقامه، ويسأله التثبيت بالعصمة في مستقره ومقامه، وليراع من وراءه من أهل التكليف، وتكثر جماعتهم بتجنب ما نهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً من ترك التخفيف، ولينظر في عموم استطاعتهم دون خصوصها؛ فإن فيهم العاجز وذو الحاجة والضعيف، وليحافظ على فروض الكفايات الوازنة، والسنن التي ينادى لها: الصلاة جامعة، وليغرس في كل قلب حبه، ليقوموا إلى الائتتمام به وهم فارهون، وليعمل في البداية في ذلك بصلاح نفسه، فقد جعل صلى الله عليه وسلم ممن لا تجاوز صلاتهم آذانهم من أم قوماً وهم له كارهون.

وله مما كتبه على قصيدة:

فليس فيها بيت دخل في شفاعه أخيه، ولا معنى يثبت على غير قواعد
الصحة أو أخيه، ولا كلمة يصلح في مكانها سواها، ولا قافية أو هي السناد ركنها
أو أضعف الإقواء قواها، وكل بيت منها بيت قصيدٍ يعقد بالخنصر عليه، أو
سلك فريدٍ يشار ببنان البيان إليه، أو مقر معنى رئيسٍ تجلس نفائس المعاني بين
يديه.

* وأما نظمه، فمنه: [البسيط]

هذا ولم يبق لي في لذة أرب*
وأين هم خلفوني مفرداً ونأوا
وأين نيل مرامي من لقائهم
إلا اجتماعي بأصحابي والرامي
فبت أسهر أجفاني لنوأم
ضاق الزمان وهياً سهمه الرامي

ومنه قوله: [الكامل]

ملك يوطد ركنه من ملحيد*
ألف الوقائع والسرى دون الكرى
يروى لسان سنانة في حربه
متيقظ العزمات يعجل بأسه
أو معند بجذاله وجلاده
فقصور لذته ظهور جياده
خبر المدرع عن صميم فؤاده
جيش العدو بها عن استعداده

ومنه قوله: [البسيط]

بانوا بقلبي وقلبي سار يتبعه
ويح الحب الذي سارت أحبته
وخلفوه يناجي الركب بعدهم
بانوا فصوح نبت الروض بعدهم
فلست أطمع منهم في خيال كرى
عنه ولم يقض من توديعهم وطرا
فلا يبلغه عن ركبهم خبرا
هذا وقد غادروا دمعي به غُدراً

ومنه قوله يعزي ببت: [الطويل]

وكم أوجهٍ قد غبن في ظلمة الثرى
ولا كالتى في المجد خالات أمها
ومنه قوله^(١): [المتقارب]

رأتني وقد نال مني النحول
وقالت: بعيني هذا السقام
ومن قوله: [الكامل]

ورأيت في الماء يسبح مرةً
فظننت أن البدر قابل وجهه
ومنه قوله^(٢): [السريع]

وسرت به في البحر جاريةً
لو أن حكم البحر طوع يدي
ومنه قوله: [الطويل]

أقول له والغصن يشبه قده
أفيك سوى ذا الوجه تسبي به الورى؟
ومنه قوله^(٣): [الطويل]

مضوا فاسترد الدهر أنسى الذي مضى
وبانوا فآلى البان لآمال بعدهم
كأن له عندي بقربهم قرضا
ولا عانقت أغصانه بعضه بعضا

(١) الوافي بالوفيات ٢٥ / ٣٣٠ وأعيان العصر ٥ / ٣٨٨ والغيث المسجم ١ / ٢٦٢ وفوات الوفيات

٤ / ٢٦٢ وفوات الوفيات ٤ / ٨٤ والنجوم الزاهرة ٩ / ٢٦ .

(٢) الوافي بالوفيات ٢٥ / ٣٣٤ وفوات الوفيات ٤ / ٨٥ .

(٣) فوات الوفيات ٤ / ٩٢ .

ومنه قوله: [السريع]

هئنئ بالطفل الذي استرجعت به العلى ماضعاً من دينها
تكاد تخفى الشمس إن قابلت طلعت خفياً على عينها

ومنه قوله: [الرملى]

دع فؤادي والصبا إن الصبا عاجت سكر فؤادي فصحا
وأعد لي ذكر من حل الحمى فعسى يرجع قلب نرجا
يا أخلائي ومن حسن لي كلفني فهو الذي قد نصحا
أرشدوني هل قضى حق الهوى من ببذل الروح فيه سمحا

ومنه قوله يرثى شيخه مجد الدين بن الظهير: [الطويل]

بكته معاليه ولم ير قبله كريم مضى والمهلكات نواده
ولا غرو أن تبكي المعالي بشجوها على المجد إذ أودى وهن صواحيبه
أما والذي أرسى ثبيراً وحلمه لقد طاش حلمي يوم زمت ركائبه
وقفنا وقد جد الوداع عشيةً فممسك دمع يوم ذاك وساكيه
أنودع نقس المجد بيتاً مصرعاً طويلاً على زواره متقاربه
ظننت بأنني مخلص في وداده وأخطأ وهمي، أسوأ الظن كاذبه
رجعت وأمسى الجود يصحب نفسه إلى رمسه فالجود - لا أنا - صاحبه

ومنه قوله^(١): [الكامل]

قل لي عن الحمام كيف دخلتها يا صاحبي لتسر خلا مشفقاً
أدخلتها وأولئك الأقوام قد شدوا المآزر فوق كئيبان النقا؟

(١) الوافي بالوفيات ٢٥/ ٣٣٥ وأعيان العصر ٥/ ٣٨١ وفوات الوفيات ٤/ ٨٥.

ومنه قوله يصف قناة احتفرت وأنبط ماؤها لقرية المعيصرة: [البسيط]

أعرتها نظرة غراء لو لمحت	سحائب الصيف لانهلت غواديها
فأصبحت مثل ظهر الأرض باطنها	نوراً كأن الشربا ركبت فيها
يكاد يقطعها الساري على فرسٍ	ركضاً وليس تدانيه أعاليها
تبدو على الثرب من بطن الثرى فترى	تقبل الأرض إجلالاً لمنشيتها

ومنه قوله: [المتقارب]

إذا دغدغتني أيدي النسيم	فملت وعندي بعض الكسل
فسل كيف حال قدود الملاح	وعن حال سمر القنا لا تسل

ومنه قوله يمدح المنصور لاجين أيام نيابته بالشام، ويذكر إحراقه نصرانياً تعرض إلى مسلمة في رمضان: [الكامل]

يامن به وبرأيه وروائه	بلغ المراد الدين من أعدائه
ياكافل الإسلام قبلك لم يقم	هذا المقام سواك من كفلائه
أرسلتها بالعدل أحسن سيرة	بك يقتدي من كان من أكفائه
وغضبت للإسلام غضبة نائِرٍ	لله غير مشارك في رأيه
وحميت سرح الدين من متخلصٍ	رجس يسن الغدر في استخفافه
أخفى سراه للحريم ومادري	أن الإله وأنت من رقبائه
جمع الخيانة والخنا في الأرض والـ	إشراك بالرحمن فوق سمائه
فأمرت أمراً جازماً بحريقه	ورأيت أن القتل دون جزائه
ظهرت من دمه الثرى وقذفته	في النار إذ هي منتهى نظرائه
ورفعت قدر السيف عنه وإنه	ليجل عن تنجيسه بدمايه
أرعبت أهل الشرك منه فكلهم	يلقى خيالك واقفاً بإزائه

وسلبتهم طيب الحياة فمن غفا
أو لو تخيل في المقام بحرمة
يا داعي الإسلام صنت السرب أن
ماغرت إلا للإله وخلقه
واستشهد الشهر الشريف فإنه
عظمت حرمة وأهلك الذي
فاسلم لهذا الدين تحرس سربه
فاشكر إلهك بالذي ألهمته

ألفى دبيب النار في أعضائه
خشى الحريق ومات في أعقابه
تدنو كلاب الشرك من ضعفائه
من فتك شر عبيده بإمائه
يثني بما أبدت في أثنائه
لم يرع حق الله في آثائه
وتغص جفن الشرك منك بمائه
فيما فعلت يزدك من نعمائه

ومنه قوله يهنئ بإبلالٍ من مرضٍ: [مجزوء الكامل]

صحت بصحتك الأمانى
وجرى شفاؤك والسرو
برء أتى وضئى مضى
ولكل يوم سجدة

وضفت بها حلل التهاني
ر كما جرى فرسا رهان
فهما علينا نعمتان
للشكر لا بل سجدتان

ومنه قوله في وداع الحجرة الشريفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام:

[الكامل]

يا سيد الثقلين دعوة من أتى
فارقت ربك أولاً لأداء ما
ورجعت أضحك للتواصل مرة

يسعى إليك ولو على الأجفان
كتب الإله علي في القرآن
أخرى وأبكي للفرق الثاني

ومنه قوله وقد أشرف على مكة المعظمة: [الطويل]

أقول لصحبي والفيافي كأنها
دعوا طي عرض البید بالسير والسرى

صحائف خطت بالمطي سطورها
فهذا حمى ليلى وهاتيك دورها

ومنه قوله: [الرمل]

قاتل الله رفيقاً بالحمى
غار من برق الثنايا فسقى
وكئيب في الحمى تحسبه
يرقب الأرواح إن هبت صباً

أنفد الأدمع واستبقى الغراما
وجنة الصب ولم يسق البشاما
ظله الناحل وجدا وسقاما
علها أن تبلغ الحي السلاما

ومنه قوله: [الطويل]

كأني بكم والبيد تطوى لديكم
وقد عبرت عن وجدكم عبراتكم

وقد فزتم دون المتيم باللقا
إذ الدمع منك ثم أفصح منطقا

ومنه قوله: [الطويل]

سلوا الركب هل مروا بجرعاء مالك
وأحسبه مابين سلع إلى قباً

وهل عاينوا قلباً تركت هنالك
أقام وإلا فهو مابين ذلك

ومنه قوله: [الطويل]

إذا البرق من تلقاء كاظمة عنا
حسبناه إيماض الثغور على النقا
متى قال حاديننا رويداً فبينكم
وهبنا له شطر الحياة فإن أبى

أذاب الحشا منّا وذاد الكرى عنا
وليس به لكنه قارب المعنى
وبين الحمى مقدار يومين أو أدنى
ولم يرضه ما قد وهبنا له زدنا

ومنه قوله: [الخفيف]

هل لحي إلى اللقاء سبيل
أو يلذ المقام ثارٍ بدارٍ
مزعم للمسير عنها ولا زاً

وجيوش الفناء فينا تجول
ليس يدري متى يكون الرحيل
دٌّ وإن كان فهو نزرٌ قليل

يده فهو فارغ مشغول

شَغَلْتُهُ وَفَرَّغْتُ مِنْ لَهَا

ومنه قوله: [مجزوء الكامل]

بسنا الصباح وقد تنفس
ر بالكواكب وهو أطلس
فكأنه ثوب مقنّس
رد أولاً ثم المورّس
ب تظل تخلعها وتلبس

ولي الدجى وكأنكم
وغدا رداء دجى تدث
علق الظلام بذيله
والشمس تبدو في المورّ
كالخود تجلى في الثيا

ومنه قوله: [البسيط]

ناء قريب سفور الوجه محتجب
نهرأ طفت فيه أكواب من الشهب
بجدول من نمير الماء ذي شعب
بالنور معقودة الأزار من ذهب

تبدي السماء لنا معنى الحمى بسنا
إذا ظمئنا توهمنا مجرتها
كأنها روضة حفت أزهارها
أو حلة من بديع الوشي معلمة

ومنه قوله: [الطويل]

لأسأل ما بين المحامل عن قلبي
وقد قال للساوي إلى طيبة سربي^(١)
على أنه وافي الهوى واقرب الحب
على كثرة الأسباب شيئاً سوى ذنبي

عسى وقفة بالركب يا حادي الركب
فعهدي به لما استقلت ركابكم
وقد تقعد الأقدار من قل حظه
ولكنني لم أتهم في تأخري

ومنه قوله^(٢): [الطويل]

(١) في الأصل : وقد قال لي للساوي... ١٠٠٠

(٢) الوافي بالوفيات ٣٢٩/٢٥ وفوات الوفيات ٤/٨٣.

وبات كطرفي نجمه وهو حيران
كان دموع العين والليل طوفان^(١)

أسرّوا إلى ليلي سراهم فما انجلا
كلانا غريقاً في الدموع وفي الدجى
ومنه قوله^(٢): [الطويل]

حوته وقد زان الثريا التئامها
بكف فتاة طاف بالراح جامها
صفوف صلاة قام فيها إمامها

كان الداراي والنجوم ودارة
حباب طفا من حول زورق فضة
كان سهيلاً والنجوم وراءه
ومنه قوله في الرثاء: [الطويل]

ليغني عن التصريح باسمك من يكتفي
لمن تحته يبلي ومن فوقه بضني
كعاداته الأولى فيغري ولا يغني
ويخطر في ذهني أخوه فاستثني

أبحر الندى طود المعالي وإنه
حللت برغمي في الرغام وإنه
أمر على مغناه كي يذهب الأسى
وأقسم أن الفضل مات لموته
ومنه قوله: [الطويل]

ولا ذاقها قبلي محب ولا بعدي
وبان المصلي منعماً وأحدلي وحدي

شربت بكاسٍ مارآها آخر أسى
فكرر بسمعي ذكر سفح طويل
ومنه قوله: [الكامل]

أبكي الطلول مصرحاً ومعرضاً
فزمامها بيدي وما ضاق الفضاً

بانوا وخلفني الأسى في ريعهم
ولو استطعت فراقها لتبعثهم

ومنه قوله وهو من باب المغايرة: [الكامل]

(١) في الأصل : كان الدموع ١٠٠٠.

(٢) الوافي بالوفيات ٣٣٧/٢٥ وأعيان العصر ٣٨٩/٥ وفوات الوفيات ٤/٨٦.

تترى فمدرع وآخر حاسر
ووددت أني في الهزيمة طائر

ولقد ذكرتكَ والفوارس نحونا
فنسيت حبك عند ذاك مخافةً

ومنه قوله: [البسيط]

(١)
في الجود لابسواه يضرب المثل^(١)
كرائم الخيل ممن بره الإبل
لا ناقة لي في هذا ولا جمل

من حاتم عنده واطرح [به] فبه
أين الذي بره الآلاف يتبعها
لو مُثل الجود سرحاً قال حاتم:

ومنه قوله: [البسيط]

ثوب الظلام كنجم لاح في أفق
يطفي الجوى أو يروي غلة الحرق
إما على صحن خدي أو على حدقي
روحي وتدرك ما تلقاه من رمقي
بالشوق يأتيك إن طال المدى وبقي

ياراكب الناقة الوجناء مشتملاً
يؤم قبل ازدحام الركب طيبة كي
كن لي رفيقاً لأسعى نحوها عجلأً
عساك تحيي بما توليه من كرم
وإن أتيت فقل: خلفت مرتهناً

ومنه قوله: [المتقارب]

وزاد سروري وزال العنا
وهذا الرسول وهذا أنا
تملى وإياك أن تغيبنا
وآثاره من هنا أو هنا
وهذا التواصل قد أمكنا
وإن حسن الدمع عند الهنا

بلغت مرادي ونلت المنى
فماذا الذي أرتجي بعد ذا
فبشراك بشراك يا ناظري
فحيث التفت رأيت الرسول
تملى فهذا مكان الحبيب
وخل الدموع إلى وقتها

(١) صدره في الأصل : من حاتم عنه واطرح فيه ا . وأصلحته اجتهداً.

وختمت ذكر شيخي رحمه الله بهذه الأبيات ، المتضمنة للمديح الشريف ،
لنختم بالصالحات عمله؛ وإني لأؤمل أن يحسن به في دار الكرامة نزله، وأن لا
يخيب في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلم أمله ﴿ ختامه مسك وفي ذلك
فليتنافس المتنافسون ﴾ (١)

٢٥- ومنهم : علي بن محمد بن سلمان بن حمائل ، الشيخ الإمام ، جمال
الدول ، علاء الدين ، أبو الحسن (٢)

* أهل هذا البيت بجذتهم للأُم (٣)، من بيت صلاح ما فيه شبهة لمن يذم،
وكتب الإنشاء منهم جماعة، وتلقوا بالفطرة سر هذه الصناعة، فنقدوا لسلطان
البراعة، ونفثوا سحر البيان في عقد البراعة، وكان هذا الرجل نسيج وحده في
العوارف الحسان، ونسيب جده - أعني غانماً - غانماً للإحسان ، مع ملابسته
للدول في أمورها، وممارسته لها في أحوال حزنها وسرورها، إلا أنه كان يحجزه
دينه، ويحجبه يقينه، وكان أقوم أهل بيته برئاسة لا كبر فيها، ورياضة لا كدر
لصافيتها، ومروءة كانت تلذ له ولو أدت إلى الخطر، وأبدت الأهوال دون الوطر،

(١) سورة المطففين : ٢٦ .

(٢) ترجمته في : تلخيص مجمع الآداب ١٠٥٨/٢/٤ (دمشق) و٣٣٤/٢ (طهران) ومعجم شيوخ
الذهبي ٤١/٢ وذيول العبر ١٩٥ وبرنامج الوادي آشي ٩١ والوافي بالوفيات ٣٣/٢٢ وفوات
الوفيات ٧٨/٣ والوفيات لابن رافع ١٠/١ والدرر الكامنة ١٠٣/٣ وتذكرة النبيه ٢٨١/٢
والمنتقى من درة الأسلاك ١٤١ والدليل الشافي ٤٧٨/١ والبداية والنهاية ٣٩٤/١٨ وشذرات
الذهب ٢٠٠/٨ .

- ولادته سنة ٦٥٢ هـ . ووفاته بتهوك سنة ٧٣٧ هـ .

- يُقال في اسمه : علي بن محمد بن سليمان . . .

(٣) شُهر المترجم بأنّه : علاء الدين بن غانم

وغانم هو جده لأمه . (الوافي ١٩/٨) . وقال ابن حجر: وغانم : أبو جدته من أبيه . وقال الوادي آشي :
منسوب إلى خاله .

ووقع على القصص فأولى مننا، وأجرى الله به الخيرات زمناً، ولم يقصد إلا وجه الله بفعله ، ولا أسدى المعروف إلا لأهله، ثم مات غالب من جرى لهم به ذلك المعروف، وبقي في بقاياهم، وحصل به الملوك الذين كتب عنهم الآخرة ببعض دنياهم؛ ولم يكن أسرع منه إلى أداء حق واجب، ولا أدعى لصحبة صاحب، ولا أسبق إلى عيادة مريض، وتشجيع جنازة، وتنويع كرامة وغزارة، مع ملازمة الصلاة في الجماعة ، وتعهد للمسجد لو قدر لما غاب عنه ساعة، ومداومة تلاوة لا يفتر من ترددها، وصلوات لا يخل بأورادها؛ هذا وبأبه مفتوح، وسحابه ممنوع، وتَجَشَّمُ مع جلَّسائه مطروح وتَجَهَّمُ بالنسبة إلى غيره خَفَّةٌ روح، لبشاشة وجه تروي غلة الصادي، وسعة صدر تفيض على رحاب النادي، وسرعة إجابة تعاجل صوت المنادي، مع يدٍ في هذا الشأن لا يخونها بنانها، بل يزينها ببيانها.

«ومن نشره ما تتعب القرائح في أثره، قوله يصف قلعة^(١) :

ذات أوديةٍ ومحاجر، لا تراها العيون لبعدها مرماها إلا شزراً، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلا نزرأ، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعةٌ بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندقٌ يحفها كالبحر المحيط، إلا أن هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ، ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء^(٢) ولا حرَّ الهواجر، وقد توعرت مسالكه، ولا يداس فيه إلا على المحاجر، يتفاوت ما بين مرآة العلي وقراره العميق ، ويقتحم راكبه الهول في هبوطه، وكأنما ﴿خر من السماء فتخطفه الطيرُ أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيقٍ﴾^(٣)

ومنه قوله ، ولقد أحسن في وصف القلم، فقال :

(١) النص في الرافعي بالوفيات وفوات الوفيات

(٢) من قول حمدونة الأندلسية ، أو المنازي : [وفيات الاعيان ١/ ١٤٣]

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاء مضاعف الغيث العميم

(٣) سورة الحج : ٣١.

القلم الذي كم أعان من هو قارئ للحروف، ومن هو لصنوف الضيوف قاري، وهو الراكع الساجد في ملازمة الخمس طاعة للباري، شق لسانه فنطق، وأنار صباحه وعليه جلابيب الغسق، ثم خضع له السيف، وزاره معنى تخيله لما مد، وهكذا في الظلام زور الطيف، ولم يزل يعظم ويتسود، ويحكي الرمح فيتخطر، والغصن فيتأود، ويقيم فلا يقتات، ويسافر فيتزود.

ومنه قوله :

فسارعوا إلى إنجاد من نازله العدو من إخوانكم المسلمين ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾^(١)

وامضوا عليهم بقدمكم وإقدامكم، وانصروا الله بجهادكم واجتهادكم ، فإنكم ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾^(٢) وكتاب الله أولى ما عمل به العاملون ، قال الله تعالى : ﴿انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾^(٣).

ومنه قوله :

قد تجردوا عن العلائق، واشتغلوا بخدمة المخلوق^(٤) عن الخلائق، وبرئوا من التكلف، وزهدوا في عرض الدنيا، فهم من الذين تعرفهم بسيماهم و﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾^(٥)

(١) سورة التوبة : ٣٦ .

(٢) سورة محمد : ٧ .

(٣) سورة التوبة : ٤١ .

(٤) كذا في الأصل، ولعل الصواب : بخدمة الخالق عن الخلائق .

(٥) سورة البقرة : ٢٧٣ .

ومنه قوله يصف الكرة :

وانتهى إلى حديث الرغبة في تلك اللعبة، وهي الجارية التي لم تزل بالضرب دائية شاسعة، مبتدلة من الطراد والإبعاد، دائرة في أرض الله الواسعة، فلم تزل أيدي الأيديين، وحملات المؤيدين، خافضة لها رافعة، تالية في مجال القتال إلى النجم، فإذا وقعت الأرض تلاً لها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾^(١)، من الشجر الأخضر كونها، وإذا سأل عنها سائل، قيل ﴿صَفراءُ فَاقِعَ لَوْنُهَا﴾^(٢)، لا تزال الفوارس إليها كالجهاد بالجياد تتعادي، وعليها مع المرافقة والمصادقة بالتنافس تتعادي، تشبه الهامة الملقاة بين أرجل الجياد في الحرب، ولا تزال هاربة من طالبها لكثرة ما يقع فيها من الضرب، تنفر من الأبطال نفور حمر مستنفرة فرت من قسورة^(٣)، وتتواثب عليها الرجال تواثب الليوث الضاربة الضارية، فكم لهم من الكرة على تلك الكرة.

ومنه قوله في توقيع رجل يعرف بالجمال إبراهيم :

فليعمل بتقوى الله في هذه الأعمال، آتياً فيها من حسن الثاني كل ما يليق أن تشاهده العيون من الجمال، وهو أدري بما يعتمد، إذ هو الصدر الذي كل أحد يعلمه عليم، والرئيس الذي لا يخفى بين الرؤساء، وهل يخفى مقام إبراهيم؟

ومنه قوله من كتاب كتبه :

يقبل اليد، لازالت بمننها مواسية، ولكلوم القلوب بطب كلامها آسية،

(١) سورة الواقعة : ١ .

(٢) سورة البقرة : ٦٩ .

(٣) من قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ فُرت من قسورة [المدثر : ٥٠، ٥١]

ولعهود محبيها على ممر الأيام، وإن نسيها من نسيها، غير ناسيةٍ، وينهي ورود الكتاب الكريم، فتسلى عن كل من حجبته النوى، وتلى بنضارته ومحاسنه عن وجه الجفاء قد جف، وعصر بالذم قد ذوى، وعلم الإشارة العالية إلى أمر الحبيب النازح، والذي جد في الصد وكان غير مازح، وإنه استدل من كلام المملوك على شدة موجدته لبعده، وعدم صبره عن استجلاء وجهه، واعتناق قده، ودعا بعودة ذلك الغائب قبل أن يذوي عوده، ورجوعه قبل أن تنطفئ بطلوع الذقن سعوده، وقد تحقق تفضله، وهو نعم من أمه الشاكي وأمله^(١): [الطويل]

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءةٍ يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

ومنه قوله في كتاب إلى قاضي القضاة إمام الدين القزويني^(٢):

أدام الله الأنس بقرب الجناب العالي القضائي الإمامي، وجعله للمتقين إماماً، ورأيه للصواب زامماً، ولقائه بمنه حيث يحل تحيةً وسلاماً؛ ورد المشرف الكريم الذي تلقاه بقلبه قبل يده، وحل منه بمحل روحه من جسده، وناظره من أسوده، وسر بما تضمنه من أخبار قربه، وبما دل عليه من فنون فضله الذي المملوك منه على بينة من ربه، ويحقق الإشارة الكريمة في تعويض قضاء القضاة إلى نظره الكريم، وحصول التعويل في ذلك على مقامه الذي يتشرف به كل عظيم، ولقد نال هذا المنصب من جلالته قدره ما سر به واغتبط، وتحقق بمصيره إليه أنه على الخبير به سقط، ووصل التقليد الشريف، وقُبل وقوبل بالامتثال، وحصل السرور به وعم، وكمل به هناء القلوب وتم، وعرض له من الارتياح إلى لقائه، ما سلبه القرار، وعظم به الشوق عنده أعظم ما يكون، إذا دنت الديار من

(١) البيت بلا نسبة في المستطرف ١/ ١٢٣.

(٢) القاضي إمام الدين، أبو المعالي، عمر بن عبد الرحمن بن عمر، القزويني الشافعي، كان جميل

الأخلاق، كثير الإحسان؛ توفي بالقاهرة سنة ٦٩٩ هـ. (البداية والنهاية ١٧/ ٧٣٢).

الديار^(١)، ولولا ما يعلمه من التصدي لمهمات الإسلام، لما نابت في قصد لقائه الأقاليم؛ والله تعالى يقدمه قدوم البدر بروج سعوده، ويديم في المعالي سموه إلى الغاية التي لا مزيد على غايتها في صعوده.

* ومن شعره قوله: [الطويل]

وناحت لنوحي ساجعاتُ الحمايم	بكيت بدمعٍ فاق دمع الغمام
ومن بعدهم جاورت غير ملائم	على جيرةٍ جار الزمان لفقدهم
نعمت بها دهرًا كأحلام نائم	مضت لي بهم أيام أنسٍ حميدة
إذا لمع برقٍ لاح منها لشائم	وإني بأرض الشام أشتاق أرضهم
وقاراً لنا إلا بخلع العمائم	فله أيام الصبا حيث لا نرى

ومنه قوله^(٢): [الطويل]

أشاهد مرأى حسنهما متمليا	وكم سرحة لي في الربى زمن الصبا
فأقضي هوى من طيبه حتف أنفيا	ويسكرني عرف الشذا من نسيمها
فيبرز من أكمامه لي أيديا	وأسأل فيها مبسم الروض قبلة
فأبدى لعيني حسن مرأى بلاريا	فله روض زرته مستنزها
يكر على من زاره متعمديا	غدا الغصن فيه راقصاً ونسيمه
نسيم الصبا أضحى [به] متمشياً	ترجلت الأشجار والماء خر إذ
فيغرق وجه الأرض من كثرة الحيا	تغنت لديه الورق والغصن راقص*

وهذه أبيات لله من سمع مثلها لو حصلت لابن خاقان لجعلها واسطة

(١) من قول إسحاق الموصلي: [معجم الأدباء ٢/٦٠٥]

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

(٢) الوافي بالوفيات ٢٢/٣٧ وفوات الوفيات ٣/٨٣.

«قلائده» أو ابن بسام لاتخذها من أفضل «ذخيرته»^(١).

ومنه قوله^(٢): [البسيط]

فعد نفسك من أهل القبور بها	فعن قليل إليها سوف تنتقل
واذكر مصارع قوم قد قضوا ومضوا	كأنهم لم يكونوا بعد ما رحلوا
يا ليت شعري ما قالوا وقيل لهم	وما الذي قد أجابوا عندما سئلوا

ومنه قوله^(٣): [مجزوء الرمل]

سَلَبَ الْمُهْجَةَ مِنِّي	بالجفون الفاترات
لو يزور البسيت لم ير	م الحشا بالجمرات

*وكننت قد بعثت له درجين أحمرين من الورق، ثم لم أعد أجهز له بعدها

شيئا، فكتب إلي: [البسيط]

يامن مكارمه عمت فكم شملت	ذا فاقة مابقي منه سوى الرمق
قد كنت أرسلت لي درجين لونهما	من حمرة مثل لون الشمس في الأفق
وبعد ذلك لم أفرح بمثلهما	من سيدي لا ولا شيء من الورق

فبعثت إليه درجين أحمر وأبيض، وكتبت إليه معهما: [البسيط]

أمسك سحابك لا يفضي إلى الغرق	فقد كفى منه صوب الوابل الغدق
بدائع من علاء الدين بت بها	الذ في طيب تقبيل ومعتنق
مطلوبه ورق مني ويا عجبا	من الغصون إذا احتاجت إلى الورق

(١) الإشارة إلى كتاب «قلائد العقيان» لابن خاقان الأندلسي، وكتاب «الذخيرة في محاسن أهل

الجزيرة» لابن بسام الشنتريني.

(٢) الوافي بالوفيات ٣٧/٢٢ وفوات الوفيات ٨٣/٣.

(٣) الوافي بالوفيات ٣٧/٢٢ والدرر الكامنة.

وقد بعثت به تجلى الحدود له في أحمر شرق أو أبيض يقق
وما علي إذا أرسلت رائده وعاد بالشهب مخبوءاً أمن الأفق
هذا علي وهذا جود راحته يامن رأى البحر والأنواء في نسق

٢٦- ومنهم : عبد الباقي بن عبد المجيد بن أبي المعالي متى بن أحمد بن محمد
ابن عيسى بن يوسف^(١)، القرشي ، الخزومي أبو المحاسن، تاج الدين، المعروف
باليمني، المكي مولداً.

* أحد مشاهير الأدباء، وأحد جماهير الأولياء، سرحة فضائل، ودوحة علم
يتفياً ظلالها عن الإيمان وعن الشمائل، بحر يؤخذ منه در^(٢) بلا ثمن،
وروض^(٢) تجد منه روح الرحمن من قبل اليمن، قدم مصر قديماً ثم الشام، وأقام
بدمشق مدة، ثم هفت به ريح يمانية، وذهب بلبه برق علانية، فسلب قراراً،
وغلب استقراراً، وعاد إلى وطنه آيباً، وعاد سكره لا دماً ولا عائباً، واتصل
بالمملك المؤيد داود، ووصل منه بثقة ودود، فعول عليه وقلده كتابة السر لديه،
وبقي حتى أمحى من أديم السماء هلاله، وأضحت في تلك الأفياء ظلاله، فقربه
قريبه المملك الظاهر قريباً حقه المملك المجاهد ابن المملك المؤيد، فأخذ أمواله
واجتاحها، ونزف أمواله وامتاحتها، وتطلبه ليردي به، ففر وسكن مصر، ثم ما

(١) ترجمته في : الوافي بالوفيات ٢٣/ ١٨ وأعيان العصر ١٢/ ٣ وذيل العبر ٢٣٣ وفوات الوفيات
٢٤٦/ ٢ والمنهل الصافي ١٣٤/ ٧ وثانية في ٤٠٢ باسم عبيد الله بن عبد المجيد، والدليل الشافي
٣٩٣/ ١ وفوات ابن رافع ١٧١/ ١ والدرر الكامنة ٣١٥/ ٢ وتعريف ذوي العلا ١٦ وتذكرة
النبية ٤٤/ ٣ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٣٣٤/ ١ والنجوم الزاهرة ١٠٤/ ١٠ وشذرات الذهب
٢٤١/ ٨. وانظر بعض إنشائه في نهاية الأرب ١٤٩/ ٨ وما بعد.

— ولادته سنة ٦٨٠هـ، ووفاته سنة ٧٤٣هـ

— هو صاحب كتاب «إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين».

(٢) في الأصل : دراً... وروضاً.

استقر فقصد دمشق، ثم أتى القدس الشريف واستوطنه ، واتخذ المسجد الأقصى موطنه ، ورأيته به بين علوم ينشر جناحها، وتعبداً يضيء في حندس الليل صباحها .

ومن نشره قوله من رقعة كتبها إلي، قال فيها :

وكتب المملوك في يوم توقدت جمرته، وطالت في نهار القيظ حجوله وغرته، وناره على الأكباد موقدةً ، لو لم يكن إلا لأن المملوك فارق سيده، ونسيم المملوك سموماً، وشربه يحموم، وحشاه تكاد تذوب، وجفنة كراه في نهاره وليله مسلوب، وهيئات ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ (١).

فكتبت عنها إليه جواباً منه :

وكتبتها واليوم قد طار في أفقه جناح الشعاع، وأوهم الصبا وغرقة اللماع، وصر الجندب في نواحيه، وسكت الطير بعد تلاحيه ، وغرق في آله الليل، وعرف بسواده في كف ماحيه، والشمس في كبد السماء ترمي بشرير كالقصر، والأصيل قد آلى أن لا يمد ولا يجنح للعصر.

ومن نشره - أعني اليماني - قوله :

وينهي أنه بلغه وفاة الولد، وأن الله نقله إليه ولم يعلق بشيء من الذنوب، وجعله ذخيرة وفرطاً لمولانا، يوم يجازي كل امرئ بما قدم من سالف العمل المحسوب، فلقد جرع الأحشاء صابه، وجرح القلب ساعة التفريق مصابه، وقطع الأكباد فقده، وأورث الأحزان بعده، فياله من قررة عين أورثها القدر قذى الأجفان، وغصن سؤدد اقتطفه قبل الإزهار يد الأحزان، وهلال حسن اعتور نوره

الحدثان، وثمره جود أودعت مدارج الأكفان ، وربع أنسٍ أمسى صاحبه بالخطوب خللاً، وقادح أمر أضحى بيان أمره جللاً ، على أن الخطوب لا تزاحم إلا ثبيراً، ولا تعاند بورودها إلا كبيراً ، وفي سجاياه الكريمة خلال قل أن تكون [في] غيره من الناس ، وصفات تفرد بها وهي الثبوت عند هجوم الباس، ولئن غاب من سماء علائه هذا النجم الزاهر، وذهب أثره المنير الباهر، فكم في فلك محامده من نجم سيادةً بأنوار الرئاسة ساطع، وكوكب فضلٍ ما يقال له: هذا غاربٌ حتى لا يقال لأخيه هذا طالع.

ومنه قوله من كتابك كتبه إليّ:

وينتهي أنه لما كان من خدم هذا البيت الشريف، والغني بسمة ولائه بين أوليائه عن التعريف، وقد سارت مدائحه في هذه البقية العمرية مغربةً ومشرقةً، ومنجدةً ومعركةً، يهجم بها وجفنه لبعده عن باب سيده لا يذوق غمضاً، ولا يعرف ليلاً أقبل أو يقضى ، وقصارى مناه أن لا يقبل فيه قول حاسدٍ، أو جاهل، حاشا المجلس الشريف، أو عالمٍ معاندٍ؛ ومولانا يعذر المملوك ، فإنه كتب هذه الضراعة والليل قد أسفر دجنه، والسهر قد ترسم المملوك حتى تغير ذهنه، والمملوك ما يتغير في هذا البيت المعمور العمري ظنه.

فكتبت له جواباً منه :

وانتهى إلى هنا، والنسيم في السحر قد هلل ثوب الظلام ، وسحب رداءه على أعقاب ذيول الغمام، والجوزاء قد انتشرت تحت مسبح السرطان، وشعاع الشمس المحمر قد غرق في مقلة الأسد الغضبان، والديك قد طلع على شرف الجدار، وصباح في الليل منه جاويز النهار ، والمصابيح قد فرغ سليطها، وكثر في ضوء الصباح تخليطها ، فوقف المملوك وقفة الحيران، وتَمَلُّمٌ تَمَلَّمٌ في ضوء الصباح تخليطها ، فوقف المملوك وقفة الحيران، وتَمَلُّمٌ تَمَلَّمٌ

الغيران، وأراد أن يطيل القول بقدر ما يدعوه إليه رائد الشوق، ويحمله على أن يحمل السمع الكريم فوق الطوق، ثم رجع فعاتبه فكره الطليح، وجاذبه قلمه الطريح، وأنبه أدبه، وقال له: قد آن لك أن تريح الرجل من تطويلك وتستريح. ومنه قوله - أعني اليماني - في كتاب يزعمه في معنى الكتاب يزعمه في معنى الكتاب الفاضلي بفتح القدس:

هذا وعلوم الديوان العزيزة محيطة باستيلاء أهل التثليث على البيت المقدس، والمسجد الذي هو على التقوى مؤسس، وأنهم جعلوه مفزع طريدهم، ومقر شريدهم، ومقل رهبانهم، ومعلم أديانهم، ومقر طالبهم، ومنتجع هاربهم، ومنهج شرعتهم، وعمود بيعتهم، وعكاظ نفاقهم، وموسم شقاقهم، وبادي سمارهم، ومظهر شعارهم، ومنار منارهم، وملتقط أخبارهم، ومنزل أخبارهم، مع أن طوائف الفرنج ببيعته طائفة، وأمم النصارى على دين الصليب به عاكفة، لا يعرفون عن الإنجيل غير ما بدّلوه، ومن القرب غير ما مثّلوه، فنهض إليه الخادم في جحفل من أولياء الدولة القاهرة، يرون الموت مغنماً، والسلامة مغرماً، والهزيمة عاراً، والإدبار ناراً، ما حلوا بأرض إلا وأنبتت من ساعتها قناً، ولانازلوا حصناً إلا بلغوا من شامخه المنى، بايعوا الله على إخماد الكفر جهاراً، وعاهدوه على أن لا يذر ماضي سيوفهم على وجه الأرض من الكافرين دياراً، فلما شاهدنا رفعتها، وميزنا علوها ومنعتها، رأينا معهداً أخذ الشيطان على أهله أن لا يخفر لهم عهداً، وعلماً أمسى لدين النصرانية على ما ادعوه فرداً، قد كملوا عدتها وعديدها، واستخدموا للمحاربة شقيها وسعيدها، وإذا رأوا على أرجائها حفيراً أضحى بجمالها سواراً، ولحمايتها من التطرق إلى منازعة نزعها أسواراً؛ بناءً ولكن تقصر عن مماثلته يدان، وإتقان هو بلا شك من صنعة الجان، وعمارة ولكن من ساحر عنيد، وتدبير ولكن عن رأي شيطان مريد، وتماثيل يخيل إلينا

من سحرهم أنها تسعى، وصحراء أرضٍ ليس لمن أقام بها ظل هناك ولا مرعى؛ فاسترقينا مكاناً دلنا عليه حسن الإيمان، نصبنا على أرجائه منجنيقاً هدر بazole، وهثم ثغر تلك الأبنية نازله، وتجسدت عصيه حيات تلقف ماصنعوا، وفرقت ما جمعوا، وظل لنا ولهم يومٌ ولا كيوم ذي قارٍ، وحرب ولكن أين حزب أهل الجنة من حزب أهل النار، سيوف مخروطة، وأيدٍ منا ومنهم بالدعاء مبسوطَةٌ، وعجاجُ انعقد مثاره، وقسطلٌ ولكن استعر بحوافر الصوافن أواره، بذلوا أنفسهم دونها، وراموا ولو بهلاكهم صونها، وعلا شرفاتها منهم أُمٌّ لا تحصي، وجمعُ آلت يد المنية لعددهم لابد تستقصي، ولم تزل المنايا تسخن بقوة الله ذلك الحفير، وتورد سكان تلك البقاع بعون الله سوء المصير، ثم سارت رجاً فتنا، وجال النقب في أرجائها، وبلغت الأماني من النصر غاية رجائها، وصيرناها بالحديد، والطلل الدارس بعد المشيد، وحملنا عليهم بقلب رجلٍ واحدٍ، فانطمس محكم التلثيث، واستبان طريق الواحد، وتفرق من بها بين أسير أثقلته أغلاله، وقتيل غرته بالإقدام آماله، وطريدٍ لا يعرف له مكاناً، وخائفٌ كلما تبدى له مرأى ظنه إنساناً، وفتحناها بكرة الجمعة، وغدت أعلام الخلافة المعظمة على بقايا شرفاتها خافقة، وأطلاب الإسلام لاستئصال شأفتهم متلاحقة، وقام خطيبنا على صهوة المنبر الأقصى مرتجلاً، وصاغ أوصاف المواقف المعظمة والمواطن المكرمة لجيده حلياً، وذكره الحرب وكان ناسياً، وألان له بالمواعظ قلباً كان لعدم الأذكار قاسياً، وأعدنا إليه ما كان يعهده من الجمع، وتقدمنا بهدم ما استحدث من البيع، وشيدنا ما دثر من مشهدٍ، اعتمدوا تخريبه ومعبدٍ، واستنقذنا معالم الصخرة الشريفة من الإشرار، فعادت إلى أخوة الحجر الأسود، وهذا الفتح وإن كان المقصود منه مكاناً مخصوصاً، فهو فتح يشتمل على مدنٍ عامرةٍ ورباعٍ غير عامرةٍ، وقلاعٍ مرفوعةٍ، وفاكهةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ، وقرى ظاهرةٍ، وركبان

واردة وصادرة، وهذا المسجد شقيق الحرمين ، وثالث الرحلتين، ومعبد الأنبياء ، وموطن بركة الأولياء، فله درة فتحةً أقر نور الدين في ناظره وشعار الإسلام في مشاعره .

قلت : ووقفت له على رقعةٍ ذكر فيها يوماً، أصبح والثريا فيه كأنها في بروج المطالع، كف جودٍ تخطمت في رؤوس الأصابع^(١)، والصباح جام لجين ملأته أشعة الشمس خمراً، والمجرة بحرٌ مزبدٌ يقذف القواقع درأً، والنسر قد ضجر مما حام، وسهيل قد تقدم خوفاً من الزحام، وقد عارضت وسط السماء الشعرى ، كأنها ياقوتةٌ في مذكرى ، والجوزاء قد مالت كشارب قهوةٍ لم تمزج، أو حسناء تنفست في المرأة إذ نظرت محاسنها ولم تتزوج.^(٢)

والرقعة هذه مضمونها وهو : أسعد الله مولانا بهذا اليوم الذي تمثلت ثرياه صورة كأس يطاف به على الجلاس، وأتى نسره إلى المجرة حائماً على الورود، رازئاً كأنه مجهود، والجوزاء مسيلة الذوائب ، وسهيل لها خاطب، والشعرى شعرها وغدائرها الغياهب، ومد الله عمر مولانا ومتعته بشرف المناقب .

*وبهذا ذكرت قولِي من قصيدةٍ وهو : [الكامل]

شق الصباح غلالة الظلماء وجلا النهار غدير كل سماء

(١) هما بيتان من مجزوء الخفيف :

والثريا كأنها في بروج المطالع
كف جودٍ تخطمت في رؤوس الأصابع

(٢) من قول أبي بكر الخالدي : [ديوان الخالدين ٣٤]

وتمايل الجوزاء يحكي في الدجى ميلان شارب قهوةٍ لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض هي فيه بين تخفّر وتبرج
كتنفس الحسناء في المرأة إذ كملت محاسنها ولم تتزوج

لولا كواكبُ في الصباح تأخرتُ
بصبيحة رقت حواشي هدها
حتى تجلت مثل خودٍ خُتِّمت
وبدا سهيل ثم والشعري تلي الـ
وكأنما زهر المجرة روضة
والنسر في شفق الصباح مشمّرٌ
عُدنا إلي اليميني :

ومن شعره قوله يذم مدينة عدن^(١): [الكامل]

عدن إذا رمت المقام بربيعها
بلدٌ خلا من فاضلٍ وصدوره
فلقد تقيم على لهيب الهاوية
أعجاز نخلٍ إذ تراها خاوية
وقوله: [الوافر]

إذا حلت أيادي البرق رمزاً
وأمرت الغيوم خيول سيلٍ
أثرن ببياته فكسا ربوعاً
وباع المشتري لما توالى
وأطلعت الرياض نجوم نورٍ
وولى عسكر الظلماء هزماً
فحينئذ ترى عقد الثريا
فما هذا التاني يا نديمي
على كنز العمام سقين حرزا
على وجه الثرى يجمزن جمزا
تعرت عن ملابسهن خزا
محبتته لكف الأرض بزا
فتغريها أيادي الشرب حزا
أخافت من سنان البرق وخزا
على جيد الحمائل قد تجزا
لقد خالفت إذ خالفت عجزا

(١) الوافي بالوفيات ١٨ / ٢٦ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧.

وجام الشرب ينسب للثريا وشمس الراح نحو الكرم تعزى
فواصلني بها فلعل دائي يزول إذا شربت الخمر مزا
على نهر المجرة والدراري عيون حولها ببدين غمزا
فجرد جيش لهوك يا خليلي لغزو غنيمة من قبل تغزى

٢٧- ومنهم: عبد الله بن علي بن محمد بن سلمان، عرف بابن غانم، جمال

الدين، أبو الفضل، المقدسي.

* شاب برع وبهر، وطلع مثل الكواكب وظهر، وما أعرف في أي وقت اشتغل، ولا متى ألهب سعفه واشتعل، كأنما لقن سحر البيان من حين ولدته أمه، وبزغ في الأفق نجمه، وأتى بلطائف الشباب، وتلاءم في الكؤوس جائل الحباب، هذا إلى حسن خطي كأنما نعمة عذاره، وقيام حسنه عند المحبين بأعذاره، وهذا كله في مدة أقصر من رجع النفس، وأسرع من قدح الزناد للقبس، في زمان أعجل من إيماء المليح، وأقل من مقام الضيف عند الشحيح، لكنه لما جاء بالألفاظ يبهر حسنها، ويرجع وزنها، ظن أنه قد انتهى، وتناول بإحدي يديه القمر وبالأخرى السها، فترك الطلب، وقد كان له انتصب، واستنزف ثمده البلى حتى نضب، وكان يشغله ما يشغل الشباب، ويصرفه عن الثبات على حال ما يصرف النسيم الهاب، فكان لا يرى مستقراً قدر دقيقة، ولا رجع طرف حقيقة، فكان يعيبه التهور ويزينه كثرة التصور؛ وما سلم حتى ودّع، ولا تلقته القوابل حتى شيعه من شيع.

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٧/ ٣٥١ وأعيان العصر ٢/ ٦٩٦ وفوات الوفيات ٢/ ٢٠٦ والدرر

الكامنة ٢/ ٢٧٨ وتعريف ذوي العلا ٢٦ وتذكرة النبيه ٣/ ٥٤.

- مولده سنة ٧١١هـ، ووفاته سنة ٧٤٤هـ.

- في الأصل: عرف بابن جمالدين (٢) أبو الفضل غانم المقدسي.

*ومن نشره قوله في جواب كتبه عن نائب الشام تنكر^(١) إلى نائب طريق في معنى الحريق الذي حصل بدمشق في سنة أربعين وسبعمئة:

أعزَّ الله أنصار المقر الشريف، وحرس بره الذي يتحرى، وحبوه الذي يتسرع إلى القلوب ويتسرى، وأمره الذي يبرد بنداها كل كبدٍ حرى، وسره الذي إذا ناجته خواطر الإشفاق والإرفاق أنشدتهما: قفا نبك من ذكرى^(٢).

المملوك يُقبلُ الباسطة الشريفة تقبيلاً يُبرِّدُ به الغليلَ، ويُداوي بطبه الفكرَ العليلَ، وينهي ورودَ مشرفةٍ تتضمنُ أمرَ الحريقِ الذي حصلَ بدمشق في هذه المدة، حتى أحرقها بناره، وحفَّ جنتها بالمكارة، وسلَّ عليها سيفَ الضرام، وحكَّم عليها حكَمَ الدهرِ على الكرام، وأطلع في وجهِ شامِها لغيرِ الحُسْنِ شاماً، وكاد يأتي عليها لولا تداركُ لطفِ الله به ﴿يا نارُ كوني برداً وسلاماً﴾^(٣) وهجم على جيرون^(٤) فغير دهشتها، وعلى الخضراء^(٥) فرمى فرشتها، وعلى اللبادين فكسر قلبها، لأنه كان زُجاجاً، وعلى الوراقين فما شعرت حتى صار باللهب كلُّ وراقٍ سراجاً، وكل طلحيةٍ وقد تفرق طلحها المنضود، وكل كراسيةٍ وقد ردَّ^(٦) وجوهها البيض وهي سودٌ، وأضحى فم الفؤارة يُصاعد جمرات أنفاسٍ، وسوقُ النحاسين يُرسلُ منه، إلى سور الجامع شواظٌ من نارٍ ونُحاسٍ، وكل محبوبة

(١) تنكر، الأمير الكبير المهيب، سيف الدين، أبو سعيد، نائب السلطنة بالشام؛ كان محمود السيرة، مرضي الطريقة، له في الخير باعٌ طويل؛ قبض عليه السلطان وقتل، دفن بدمشق سنة ٧٤٤هـ. (الوافي بالوفيات ١٠/ ٤٢٠).

(٢) مطلع معلقة امرئ القيس.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩.

(٤) جيرون: اسم قصرٍ مقابل الباب الشرقي للجامع الأموي، لاتزال أطلاله باقية.

(٥) الخضراء: قصر معاوية، جنوبي الجامع الأموي.

(٦) في الأصل: وقد زدها.

بالطرائفين وقد رأت مكروهها، وكل براعة دهماء وقد أبيض بالنار فودها،
فلذلك سودت الدوي وجوهها، وغادر كل دكان دكاً، فأوسع قوائم العُمدِ
وأضلاع السقوف كسراً وفكاً، وأقعد بيت الساعات إلى قيام الساعة، ودخل إلى
باب الجامع لكن لغير طاعة، وكاد يصلّي به من يُصلي، ويقبل على صف
العابدين فيُولي، واهتزت المئذنة بحُمى نافض، وتشعث وجه المشهد الأبّي
بكري، فكأنما أصابته عين الروافض، وترقرقت عيون العابدين من الألم، ورَقَّ
صَحْنُ الجامع لما تَمَّ هُدَاةُ الساجدين من المِئذنةِ بنارٍ على علم، وما زالت مرآت
الذهب حتى خربت المنار، وصف بعد ذلك في صحن الجامع ما فضل عن أكل
النار، فيالها داهيةً عمت المسلمين، ومصيبة سودت وجه الدنيا فبيض الله وجه
الدين، وواقعة لها اقتربت الساعة، وقارعة لولا المعوذات لما قبلت فيها شفاعاً،
ويالها عيناً دخلت على هذه الأسواق فحلت، وبدأ استجدت منها محاسنها
فأعطتها وما تخلت؛ كانت لعمارتها رمانة فأمست جلنار، وكانت محاسنها
ليس عليها غبار، فأصبحت لا تُعرَفُ من الغبار، وما سكت لهذه النار لسان،
ولا خفي لها شخصٌ ولا عيانٌ، ولا نشفت الدموع التي أطفأتها، ولا بردت
ضلوع القياسير التي دفأتها، حتى طلعت شمس الفتنة من غربها، وتعال
أصواتُ النائبة عن قُربها، وأتى النقص من جهة الزيادة، وسعى الداء بما وسع
العيادة، فصار سوقُ الكفت كفاتاً، وسوقُ الخام رفاتاً، وخرجت قيسارية القاس
عن القياس، وتوارد الإيأس والرجاء في أمر البلد بمجموعه ولكن غلب الإيأس،
فركب المملوك بنفسه ومن عنده من الأمراء، وبأيديهم أسلحة المعاول، وعلى
عواتقهم لقطع عنق النار سيوف الجداول، فكم من رأس داسته النار دوساً، وكم
من قدٍّ وقوسٍ تصرفت فيهما، فصار القوس قدّاً والقُدّ قوساً، وكم من أوتارٍ
أخذت منها الأوتار، وكم من سهامٍ نفذت لها في قلب الإسلام كما شاء

الكُفَّارُ، وكم من حلقةٍ انفضتْ، وكم من عينٍ بيضاء اسودتْ، وعينٍ سوداء ابيضتْ، وكم من لجامٍ دخل فيه لسانُ النارِ فلاكهُ، وكم من بحرٍ سرجٍ رمى عليه اللهبُ شبكهُ فاكلَ أسماكهُ، وبقي المملوكُ كلما دار إلى دارٍ سبقهُ إليها المقدارُ، أو أشار إلى دُكانٍ تداعتْ منها الأركانُ، هذا والصباغةُ تعودُ عينَ ذَهَبِها من عَيْنٍ لَهَبِها، والمئذنةُ ترجفُ فرائصُ تختها من مصرعٍ أختها؛ وتدارك الله الحال بلُطفه، ومن بإطفاء ذلك الحريق، ولولا منه لم نُطْفِئْهُ ولم نُطْفِئْهُ؛ ولم تقتصر الحال على هذين الحريقين، بل تتابع بعدهما لهما أمثال، وما يشك المملوك في صدق ما أشار إليه مولانا من تلك الحكايات، وضربه من الأمثال، فإنه ما يسعُرُ هذه النار إلا عدوٌّ أزرقٌ، ومن أحرَقَ قلبه بحريق جانبٍ من معبده فلا غرو إذا أحرَق.

ومنه قوله: [الكامل]

يا سادة نرحوا دموعي عندما	نرحوا وعهدي منذ ذلك عامٌ
أو ما وجدتم ريّ دمعي عندما	وافاكم من ناظريّ غمام ^(١)
كيف اعتقدتم سلوتي عن ذكركم	أيطيب إلا بالكمال كلامٌ
ها أنتم في ناظريّ ما دمت يقف	ظاناً وتجلوكم لي الأحلام
أشجى فراقكم دمشق فغصنها	قلق إذا ناحت عليه حمامٌ
ونزلتم الشهباء فاختلفت لأن	علمت بأن النازلين كرام
طابت بكم وبطيب كلّ حمى غدا	يعزى لإبراهيم فيه مقامٌ

ويُنهي ورود مثاله الكريم، بعد أن وجد عن بعدٍ ريحه، وشام برقه العالي، قبل أن يأتي قميصه بالبشرى الصريحة، وأحسن الخاطر بسروره الزائر، وإن كان ما كل روايات الخواطر صحيحة ﴿﴾ فلما رآه مستقراً عنده قال: هذا من فضل

(١) في الأصل: ريّ دموعي عندما X . وبهذا ينكسر الوزن.

ربي ﴿١﴾ وصدقت ظنون حبي ، ويا أيتها الأيام التي قد طال بيني وبينها عتب
النوى حسبي ، ثم عطف على الكتاب الكريم يغازله ، ويُصاعدُ فيه نظر اللوم
وينازله ، ويقول له : أين لطف الترسل إذ عدمنا لطف الكلام ؟ قد احترقنا بنار
إبراهيم ولا برد ولا سلام ، قد أخذ بفراقه لذة أيامنا نهبا ، وقد كنا ونحن بالشعراء
لا نُطبق جفاءه ، فكيف وقد ركب علينا الشهباء ، وشرع في فنون العتب
ينسقيها ، وفي حمل الشكوى يُوسقيها ، إلى أن فض لطيمة الطرس ، ففاح عبيره ،
ولاح حبيره ، وباح بالبيان صغير لفظه وكبيره ، فكل زهرة حرفٍ عليها للحسن
ندى ، وكل غصن سطرٍ طفا حب القلوب عليه نقطاً ، وبدا يود ابن هلال (٢) لو
استعار منه معنى الكمال ، ويتطلع ياقوت (٣) إلى أن يكون فصاً لخاتمه الذي ختم
به على هذا السحر الحلال ، ويتهافت المسك على أن يكون به تحرير ذلك الحرير ،
ويخلع صوف ذلك الغزال ، فلما رأى المملوك نسمات تلك المحاسن قد ناوحت
الهبوب ، وتراوحت بالشمال والجنوب ، وأنشد لسانُ حالها ، ومن أين للوجه
الجميل ذنوب ؛ قبل بشفاعة حسنه الأعذار ، ونادى حرب العتب : ضعي الأوزار ؛
وعاود وصف الشوق فيقول : ما الربيع على أنس البلاد به ، وتحلّى عاطلُ الروض
بذهبه ، واستطال صاحي الطير بخيامه المضروبة ، حيث حبالُ الشمس من طنبه ؛
بأشدُّ من شوق المملوك إلى تلك المحاسن ، التي من رأى خط شبابها تحقق أنه ما
محاه آسن ، وقد آن للملوك أن يهرب من الاستهداف لهذه الأوصاف ، وألا
ينسبه إلى انحراف كل قليل الإنصاف ، وما أكثر القليل ذكر مولانا المقام ،

(١) سورة النمل : ٤٠ .

(٢) علي بن هلال ، ابن البواب البغدادي ؛ كان في أول أمره مزوقاً يصورُ الدور ، ثم أذهب الكتب ، ثم
تعانى الكتابة ، ففاق الأولين والآخرين فيها ؛ توفي سنة ٤١٣ هـ . (سير أعلام النبلاء ١٧ / ٣١٥) .

(٣) جمال الدين ، ياقوت بن عبد الله المستعصمي البغدادي ، صاحب الخط البديع ، وإليه انتهت رئاسة
الخط المنسوب في زمانه ، توفي سنة ٦٩٨ هـ . (مقدمة كتابه «أسرار الحكماء») .

ومقامه فشوق وما ذوق، وعرض ببيتين أنشرا من لسان المملوك وقلمه ميتين ،
فخذنا حذوهما في اللفظ ، وتصرف في المعنى ، وقال في معنى ما مولانا بصدده
من ملازمة الاشتغال: [الوافر]

أقمت مجاوراً في كسر بيتي	لأن تنقلي داءً عقام
إذا رزق الفتى عقلاً ودنيا	ودنيا برّة طاب المقام

آخر تنمة :

مللت من المقام على خمول	وحل من الهموم بي انتقام
ولو أني سعت لكسب مال	حلال طاب لي فيه المقام

وإذا وصلت المقامة تمت المقامة، وإلا فكلام المملوك خبط عشواء، في هذه
الحالة نسق المملوك من كتابه عرف الأدب الوردي فتنهد ، وارتاح إلى ذلك الدّين
الذي عري المملوك من فضله، مع أنه ما برح حتى للرياض بالكسوة يتعهد، فيا
شوقي إلى دنائره وقد ألقاها الشرق في بناني، وإلى وجناته الوردية وقد وقفت
نصب عياني، ولكن ما أفعل في سوء الحظ، غايتي أن ألومه، ومولانا يعرض عليه
لهفاتي، وما يخفي عنه طريق أكرومة .
ومنه قوله :

وينهي ورود البشرى التي ملأت الوجود بشراً، والوجود نشراً، وأقامت
بالسراثر سوقاً أضحت تباع به البشائر وتشري، بما حصل لمولانا من الإقبال
الشريف الذي تعددت تشاريفه، وتحددت تكاليفه، وتزيدت على وسع الآمال
مصاريفه، من تيجان عمام اعتدلت فوق مفرقه، وألوان فراج أحرق في سمور
سجفها زركش النجوم، فلاحت تلك اللمع من محرقه، ومن هالات طرحات
كأنما كن لشهابه المشرق فلك تدوير، ومن أبدان سنجاب حكّت ببياض البطون

وزرقة الظهور طلوع الشمس في يومٍ مطيرٍ؛ فقابل المملوك وسائر الممالك المحبين هذه النعمة بحقها من الشكر، وأفاق بهبوب نسيمها، وإن كان غرامه في هذه المدة بمطالعة «مسالك الأبصار» لا يدعه يفتيق من السكر، فله هذا الحبيب المشنف، والغريب المصنف، والمنوع المنور، والدهر الذي هو بأهله من لدن آدم مصورٌ؛ حرس الله هذا الجمع الصحيح، وهذا الفصل الذي نثر من الدر في حجور التراجم كل مليح، وهذا السياق الذي سير الشموس من الطروس على نجائب، وهذا الوفاق الذي حصله بين البر والبحر، وحدث عن العجائب بعجائب، فما كان للمملوك دأب في هذه المدة إلا التقاط درره من أصداف الأوراق، واجتناء ثمره من غصون تلك السطور، وكله قد راق، فإن اعترضته عنبرة ثناء فتتها على جمر الشوق فتاً، أو عارضته عرائس تصانيف الأولين أقام تلك المجلدات الخمس فتصير ستاً، والمرجو من الله تعالى رؤية ذلك الوجه الكريم على ما يسر الأولياء ويسوء الأعداء، وحاشاه أن يكون له أعداء.

* ومن شعره قوله في مليح نظر إلى الشمس عند غروبها مضمناً: [الرملة]

وغزال غازل الشمس وقد	وقفت فوق ثنيات الأصيل
فتعوضناه منها بدلاً	«وتفارقنا على وجه جميل»
ومنه قوله غير مضمن: [السريع]	

وذي دلال حسنه وافرٌ	تقصّر الأوصاف عن كنهه
رنا من الشمس وقد غربت	بفاتر اللحظ إلى شبهه
ففوضت في الحسن من بعدها	ولاية العهد إلى وجهه
ومنه قوله مضمناً: [المنسرح]	

ورب ظبي مخضر شاربه	رطب حواشي اللمى موردها ^(١)
--------------------	---------------------------------------

قال وشمس الأصيل قد وقفت على ثنابا الأصيل تنشدها
كعاشقٍ سار عن هواه ففي مقلته دمعاً يرددها
«قفا بها قليلاً علي فلا أقل من نظرةٍ أزودها»

ومنه قوله : [الكامل]

نعس الحبيب فقليل : ماذا شأنه فأجابهم بالحاجب المقرون
وبطرةٍ أشـثرت وطرفٍ أدعج كالنون فوق العين تحت السين

*فهؤلاء أعيانُ كتاب المشاركة، ممن مات وفات، وبقي منه ما ينشر العظام الرفات،
وأكثرهم قد جهل قبره وفني، وما فني ذكره ولا بره، خلا عمِّي الصاحب شرف الدين
أبي محمد عبد الوهاب رحمه الله، فإنني ذكرته في كتاب «فواضل السمر في فضائل
آل عمر» إذ لم يكن بدُّ من ذكره هناك مع أقربائه، وسلف أهل بيته وآبائه، وكذلك
والدي تغمده الله برحمته، وإن كان دون أخيه قدر مقالٍ لا مقامٍ، ودرّ نظامٍ لا
انتظام، وسيأتي ذكر جماعةٍ من أهل هذا البيت في الكتاب المذكور، ومنه يعرف
خبرُ كل معروفٍ غير منكورٍ، على أنني بشهادة الله لآنف لي ولسلفي أن ننحاز إلى
هذه الفئة، أو نلم كرى بعيونها المغفية؛ ولله المعري حيث يقول^(٢): [البسيط]

دع اليراع لقوم يفخرون به وبالطوال الردينيات فافتخر
فهن أقلامك اللائي إذا كتبت يوماً أتت بمدادٍ من دمٍ هدرٍ

(١) الشطر الأول مكسور وزناً.

(٢) شروح سقط الزند ١٥٦/١.

فأما الأحياء بالجانب الشرقي، فمن يطلق عليه هذا الاسم بالاستحقاق، فبقية:

٢٨- ومنهم: زين الدين الصفدي، أو حفص، عمر بن داود بن هارون بن

يوسف الحارثي^(١)

* من بيت قضاء وخطابة ببلاد صفد والساحل من زمان الفتوح، وهم أهل قرى لا يغلق بابهم المفتوح، وفيهم بَيْنَيْن^(٢) من يضيف الوارد والصادر، ويطيف كرمه بالعاجز والقادر، على قلة يسار، وخلة إعسار، وبرع هذا الرجل فيهم وتادب، وتذهب أدبه وتهذب، وأتقن علم العربية، وتم له تمام الفضائل الأدبية، إلى فقه درسه، وفضل نوعه وجنسه، وعلم معقول أدركه بمجرد التصور، ووازع إيمان منعه فيه من التهور، واطلاع أشرف من يفاعه، وأطل عليه من شرف ارتفاعه؛ كل هذا إلى ذكاء يتدفق سيله، ويعرف من بين النجوم سهيله، وتفرد بمعرفة التنفيذ للمهمات قل من يحسنها، أو يحير جواباً حيث ينطق ألسنها، هذا مع خط كائناً ألحف جناح الطاووس، أو تلالأت تحت جناحه أشعة الشموس، وحسن مصاحبة تطمئن بها النفوس، ومواظبة على علا يسود بها ويسوس؛ صحبته من قديم، وعرفه أولياء الأمر، وتنبه ذكره ثم رقد، وهب لهب صيته ثم خمد، وجرى ماء حظه يتدفق ثم جمد، ورتب في كتابة الدرج في عدة مواضع من الممالك في أقرب مدة من الزمان، واشتهر برجاجة العقل والكتمان، ووفور الفضل والأدب، ثم كتب الإنشاء بدمشق ثم بمصر، فأنشأ غر التقاليد ورقم برودها، ونظم ما استجدت منه أجياد الحسان عقودها، وحضر بين

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٤٦٥/٢٢ وأعيان العصر ٦١٠/٣ والدرر الكامنة ١٦٥/٣ وتذكرة النبيه ١١٧/٣.

(٢) تَيْن: قرية بمرج بني عامر، من أعمال صفد؛ ضبطها الصفدي فقال: وهي بنونين بينهما باء آخر الحروف، على وزن بَيْن. (الوافي بالوفيات ٤٦٥/٢٢).

وهي قرية المترجم، بها ولد سنة ٦٩٣هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٩هـ.

يدي المقام الشريف؛ وكان عندي موضع الثقة، وقدمته لأهليته، ثم بعد أن رفعت ذلك الشعار، وخلعت ذاك الرداء المعار، وقلت: الموت ولا العار، لبث قليلاً ثم تبعته عوادي الضراء، وروعته في وسط السراء، ثم كان في صفد بين قومه إلا أنه لا يجد قوت يومه، وبقي حياً ميتاً، لا يملك بيتاً، ثم انفرجت حلقة ضائقته، وعادت لواضع شارفته، وفسح له في سكنى دمشق، فعاد إلى صدور مجالسها، ثم كتب في ديوان الإنشاء بها، وحل مفاخر رتبها، فتبلل عودها بأندائه، وأشرقت سعودها باستظهاره على أعدائه، ثم طلب إلى مصر ووقع بالديست، وهو الآن جمال الأوان، وكمال الديوان، وبيده الأزيمة، وإليه الأمور المهمة، وفضله يستحق التتمة.

✽ومن نشره قوله في ورقة كتبها إلى والدي:

وينهي أن إحسان مولانا وصل إلى ذلك الفقير الصالح، الذي من قرية نين، وهي قرية المملوك التي أخرجته، وإنما خدمته للبيت العمري هي التي خرجته، وإلى طبقات الناس درجته، وقد بقي يعوزه كتاب كريم إلى مُشَدِّ صفد، نظراً لكتاب الكريم الذي صار في يده إلى نائبها، والمملوك يسأل الصدقة عليه بالمطلوب، وأن يكون كتاباً حسناً يعيره مولانا سماحة كرمه وقلمه، ويلحفه جناح جاهه وكلمه، صدقة على المملوك دونه، ويداً يَقْبَلُهَا وَيُقْبَلُهَا ممتنة غير ممنونة، والوحى الوحى، وقد ضجر المملوك وهو استحي؛ والله يرفع درجة مولانا، حتى يكون على الكواكب مستفتحاً، ولنظرة في حديقة الحجر منزهاً، ويعرف نرجسها مترنجاً.

ومنه قوله في تهنئة بعود الركاب السلطاني من الحج:

وجمع الحجيج في سنتهم الواحدة بين حجتين، وكتب لمناسكهم بيمينه أجر مصلي القبلتين، وتم لتوجههم بأنواره الهدى والنور، وحصلوا من صفقته

الرابحة على تجارة لن تبور، ووقاهم لفح الهجير تطوفهم بالكعبتين، ذات المقام وظله، وأمنهم العقبي تمسكهم بالعروتين، من^(١) البيت العتيق وفضله، وعشوا إلى ضوئين من ناره التي هي أم القرى، ومكة المسماة في الذكر القديم أم القرى، فهذه المهاجرة التي جددت السنة بمحمدِها، والمثابرة التي أعلنت الألسنة بمدح سؤدها، وهو الجدير بأن يوفيهما من استبشاره وشكره أكمل وظيفة، وأن يقدر موقعها حق قدره، وإن كان مما لا تطيق الأمة تكليفه.

ومنه قوله وقد أهدى إليه صاحب له طبق مشمش مع غلام مليح:

وصل البر الذي زاد على منتهى الطلب، وأشهد النواظر بين يدي قضيب البان كرات الذهب، وجاء بالبدر وقد اتسق، والنجوم وقد ركبت في دائرة الطبق، فبهت لدنو صور الكواكب من اللمس، وتسير القمر في منازل الأرض، وهو الذي لا ينبغي أن تدركه الشمس، ثم تأمل وتملى، واستجلى واستحلى، وقال: شكراً للمرسل والرسول، وبإحسان الحامل وبإلذة المحمول؛ أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه، ومرحباً بكرم جمع بين تنوعه وتسرعته، أين الأمل من هذه الغاية؟ وكيف غفل الدهر حتى تناهى في الإحسان إلى هذه النهاية؟ مولى يسعى إلى عبده، وغصن يجيء بثمره تيمس في أوراقه من برده.

ومنه قوله في ذكر الدواة:

وقد أرسلها مشتعلة بالشيب مفارق رأسها، مستعدية على وضعها الذي انتزع روحها باستمداد أنفاسها، واستحال عليها مع الدهر حتى عكس النقب في روعها من قرطاسها، فهي بيضاء إلا أن السواد كان أنقى لسماها، وناجية عندها أن الغرق أسكن لروعتها من نجاتها، وأملها أن يسودها يد لك لا تسود إلا من النفس، وأن تدل لها من سالب صبغتها وهو الطرس، فيطيل لسان فمها،

(١) في الأصل: ومن.

وهو القلم يمج على حواشيه لعاب الظلماء في لهوات الشمس .

ومنه قوله :

أمر وفاء النيل ؛ وذلك أنه عند تسطيرها ورد المثال الشريف يتضمن نبأه
بسطوره التي كأنها جداوله ، وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها ،
فكأن المسؤول لاشك سائله ، وما أظنه إلا حياً نزل دون تلك الديار مهابةً لمن حلها
من مطايا الغمام ، وأحلها من أجله أن يلزم بها ركباً ، فمشى على وجهه إليها
تناهياً في الإكرام ، ولم يزل يجري لمستقر له ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك
آخره أوله ، ووارده في كل ساعة يشهد بنجاح رأي الرائد على التحقيق ، ومخلقه
المتواري لحجاب الماء يومئٍ بإصبعه إلى حسن العاقبة على أنه في حالة الغريق ، ولو
قدر على المقال لظهر خافيه ، ونطق بتوفية عوائده ، وأنى ينطق والماء ملء فيه ؛
حتى إذا تكمل سمو أمواجه حالاً على حال ، وتنور أقاصي الأرض من ثنية
المقياس ، فأدناها النظر العال ، لم يملك طبعه السيال أن غطى مساوئها البادية ،
ورأى ظمأها إليه مع القصور عنه ، فنقع بانتقاله إليها غلة كبدها الصادية ، وكان
له الفضل على الثرى والورى في ذلك المسعى ، وقالت ألطافُ الله المتتابعة : هذا
الماء وسيتلوه المرعى ، وكان هواؤه المعتدل على اعتلاله عدلاً ، فحمل قلب كل
غديرٍ ما أطاق ، ولم تبق عين بقعةٍ كانت فارغةً إلا وكلها عند نظرة الدمع مآق .

ومنه قوله :

وينهي أنه لو أمكن دفاع القضاء ، أو قبل غريم الموت المتقاضى أخذ الفداء ،
لحمي هذا المحترم بأنصار الرجال ، لا بجواري العيون المحزونة ، ولصرفت عنه المهج
يد المنون ببذل نفوسها المصونة ، فقد كان والله شقيق الشمس رفعةً وهدي ،
ومباري غرة البدر في الندي ، ورسيل الغيث في الندى ، وإن أمسى الزمان لتواري

شخصه آية ليلٍ ما محيت ، وظلة غيمٍ رأيت عليها لمحة بارقٍ لمعت ثم زويت؛
 فلعهدي وهو بآية نهار حياته المبصرة أحسن^(١) اجتلاءً ، وأبهى وأبهريين
 المشاهد في المعنى والصورة رؤيةً ورواءً؛ طوبى له حل في أمنع جوارٍ، وحصل
 على سعادةٍ في دار القرار، يفرح بها من إرث شقوة الحزن في هذه الدار، والمملوك
 منذ سمع نعيه يحسد صم الرماح، ويتزود من سواد مقلته ودمعها ، في ظلمة
 باكٍ من فقد نورها على الصباح ، وما أدعو لمولانا وحده إلى سنة العزاء المشروط،
 ولا أقول له : مهلاً ليذهب بك فرط الجزع على أخيك مذهب القنوط، وإنما
 أشرك نفسي معه في التعزية والتسلية، وأتجلد وإن كان لا جدل على نفوذه هذه
 الرمية المصمية، فأتعلل وأتمثل بقول الأول: [الطويل]

ولو لم أكن منكم لعزيتكم بكمٍ ولكن حظي في المصاب جليلٌ
 إلا أن أخصه لاختصاص نسبه، وأفرده بجامع أدبه، فلا أجمع لأقسام الكمال
 من أدبه، وأستشهد بأن أنشد: [الطويل]

ومن يك ذا نفسٍ كنفسك حرةً ففيه لها مغنٍ وفيها له مسلي
 ومنه قوله^(٢):

وينهي ورود المشرف الكريم ووقت الصوم قد حان، وهلالُهُ في عنان السماء
 مرخى العنان، يُشارُ إليه للبيان بالبنان^(٣)، كأنه الطليعة وهي الراء من أول
 رمضان، أو الساقة وهي النون من آخر شعبان، أو الخائف اختفى عن العيان،
 وترامته الأبصار فاستعان، أو طالبٌ حاجةٍ مع الشمس أدركه الليل فوقف وقفة
 الحيران، أو كوة في غارٍ فغار، أو رقيبٌ وقد اختبأ ليطلع عن مغيبات الأسرار، أو

(١) كلمة «أحسن» مكررة في الأصل.

(٢) النص في الوافي بالوفيات ٢٢ / ٤٧٥-٤٧٧.

(٣) في الأصل : يشار إليه البيان بالبنان ١.

الحاجب لا جرم أنه حجب عن الإفطار، أو كأنه ما انهار من جرف النهار، أو
 المخلب الصائل على النظار، الصائد ما جاوره من النجوم لتتكمل فيه الأنوار ،
 وتمم باجتماعها إليه في صورة الأقمار، أو المنجل الحاصد للأعمار، القاصد حتى
 ماعلا نهر المجرة من الأنهار، أو طوق لم ينضم ، أو مبدأ عمامة لمعم، أو قرط
 خائته العلاقة فانقطع ، أو ما انخرم معه في شحمة الأذن لما وقع، أو علامة عضه،
 أو قلامة مبيضة أو قطعة من سوار فضة ، أو تشريف نواره غضة، أو شفة فتاة
 بضه، أو حافر جواد حلى أرضه، أو وطاة حاف خلى من أثر كعبه بعضه ، أو
 درهم فيه ثلثة، أو دينار مخسوف الجانب لحكمة، أو تمثال، عشر في ختمة، أو
 نصف دائرة من خط بيكار ما أتمه، أو عرجون قديم، أو ما مال من كأس نديم، أو
 شطر من كرة مقسومة، أو ضاحك أسنانه مهتومة، أو هالة والت قطرا منها غير
 مركومة، أو لثام على حنك، أو زورق من ورق حمولته من عنبر الحلك، أو حجل
 نزع من ساق، أو روق راجع من الأوراق^(١)، أو ما انحل من الخصر من النطاق، أو
 وقف من عاج، أو صدع في زجاج، أو جدول منعطف، أو قفل في فلاة قد
 حذف ، أو لبة فؤاد، أو غصن أثقله الثمر فانآد، وعقد سماءه بأرضه أو كاد، أو
 ثغرة في سور، أو فم قدح مكسور، أو نوى محفور، أو فخ منصوب على طول
 الدهر، أو عرق مغروس ، أو بعض مافي ريش الطاووس من المنقوس ، أو حلقة
 منقوصة ، أو أذن ريم مقصوصة، أو ضفيرة معقوصة، أو خاتم زال فصبه ففغر، أو ما
 انداح من رمية في صفحة الماء بحجر، أو طية من أعكان، أو سرّة محققة في كشح
 ريان، أو ذؤابة مردودة ، أو حزة من بطيخة مقدودة ، أو خيزرانة ملتقية غير
 معقودة أو قوس محني القرى، أو عروة مفكوكة من العرى، أو فتر مرفوع ، أو
 طيلسان مقور مقطوع، أو قبضة إبريق مخلوعة ، أو آلة للطيب مصنوعة ، أو يد

(١) في الاصل : من الاوراق

التفت على عناق حبيب، أو شعرة مشيب فضلت من خضيب، أو ما أحاط من الإكليل بالجبين، أو محراب لبعض المصلين، أو سالف تحسين، أو مشقة قاف أو سين، أو ما اندفع في جؤجؤ السفين أو أحد الجفين، أو عذار حول الخدين، أو رأس من كتابة صاد لم يلتحم، أو عين أو دال منقلب، أو طاء منفصل الطرفين، سقط ألفه المنتصب، أو مبسم مثقوب، أو تعريقة جيم مكتوب، أو عقرب شائلة، أو شعلة نار لعبت بها الريح الجائلة، فهي مائلة، أو حية ملتوية، أو صولجان مقصوف لم يبق منه سوى الحنية، أو ترقوة بدا عظمها، أو طارة غرض خرق هيأتها سهمها، أو فلكة مغزل مشظاة، أو دُف أمسكت كف سوداء على أعلاه، أو ما تحت تنفس [المرأة في] المرأة^(١)، أو قنطرة منكوسة الوضع في البنيان، أو طبق قائم أخذ من حافته شيء فبان، أو غرة في أدهم من الخيل، صانعت بها الشمس عن نفسها لحاطف الليل، أو رداء أسبله الشرف فكف الغرب منه الذيل، أو صعدة، أو مكان ورقة من وردة، أو قفل على تجليد، أو إحدى المطيفين بالوريد، أو لبب مركب، أو كوز مرتب، أو قتب مجرد أو سرج مؤكد، أو قربوس منه مفرد، أو واحدة من خشكنان، أو حدقة نجلاء من إنسان، أو طعنة ميلها بسنان، أو سيف لان في يمين ضارب، أو مطرح القلادة من ترائب الكاعب، أو المملوك مما شفته الأشواق، وصنعت به عوادي الفراق، أو ماخذه في خذه الدفع المهرق؛ وكان للناس اشتغال باستقبال الهلال، وقلب المملوك في اشتغال مما عنده من البلبال، ومن ضنى جسده البال، وحالت الأحوال وما استحال، وبات وطرفه يتملى من المشرق الكريم حظاً ماله مثال، وتأمل منه لفظاً بمعانيه تضرب الأمثال، وتقلب وجهه في أفقه الدال على ودّ صبح، فليس به اعتلال.

(١) الزيادة عن الوافي.

ومنه قوله :

وعلمنا ما ذكره من أمر الصقر الذي وقع له ، وملاحظه فيه من القبول ، فأرسله وحمله إلى حيث حملة ، ووصل وقد طرز رقوم المحاسن حلله ، وزانته بدباجةٍ مكملةٍ ، وحليةٍ مكلملةٍ ، خالصاً كالذهب ، متوقداً كشرة لهب ، موشى الصدر كما طفت على الكأس فواقع الحب ، أو كروضةٍ منها مالم يخرج من الآكام ، ومنها ما هب مع النسيم حين هب ، حسن الاستعداد للتدريب ، مدركاً فإذا دعي يجيب ، مظفراً كجد مهدية فلا يخيب ، وقد قبلناه تبركاً بما يهديه ، واشتغلنا به اشتغالاً حقق ما لحظه من القبول فيه ، ورفعناه من يدنا الشريفة إلى رتبةٍ لا يصل معها ، وإن كان بغيرها يتيه ، وقدمناه على ما عندنا من الجوارح على كثرة عددها ، وغزارة مددها ، كتقدم المقام على الملوك الصائلة في عديدها وعددها ، فلو رآه وله في حلاوة الالتفات تشوف الريم ، وفي طلاوة الإنصات دل الأغيد الرخيم ، وإلى أغراض مرسله تشوف الواله إذا ظل يهيم ، وإصابة الباع المستفيد بالسهم المستقيم ، وعلى الصيد حرص الغريم على الغريم ، وفي طلبه سورة الظالم وثورة الظليم ، إن أعطي الكمة فحليمٌ ، وإن كشف عنه غطاؤه فبصره حديدٌ ، ورأيه حكيمٌ ، فاقترب ، فيدٌ تطلقه وأخرى تحتطب ، وسابق يحصل ما يجتذب ويجتلب ، وسائق^(١) يقد ثقةً بعوائده ولا يرتقب ؛ يهفو بقوادم أقوى من قوائم ، وعزائم على النجح علائم ، كأنه كبير قومٍ ، أو ممسكٌ لصومٍ ، يعفو عما كسره ، ويعف عن شرهٍ ، إذا افترس حرس ، وإذا أحرز حرز ، وإذا أدرك ترك ، ولكن من مخالبه في شرك ، كأنه يعرف التحليل فيبقى للتذكية ، أو يحب الثناء فيعمل على التزكية ، حتى إذا أدى الأمانة ، وقضى إدمانه ، وسطا في صيانةٍ ، تنحى جانباً ، وانتحى مجانباً ، واحتشم هائباً ، انطوى على الطوى ، وأعرض مع الخوى

(١) في الأصل : وسائقاً .

على ما حوى ، فإذا أباحه محصله مما يأكله ، وأطلقه عما أوثقه ، وخلي ما بينه وبين ما صاد ، بايته باقتصاد ، كان عليه رقيباً بمرصداً ، وتناول قدر الحاجة ، بشهوة مهاجة ، ورجع إلى الكمة بطرف غضيض ، وبطش غير مهيض ، وثبات بعد وثبات كطرفي نقيض ، بصره ثم تصرفه بين أيدينا في صيده ، وحسن تلقفه لما يعن له بلباقة كيده ، ورشاقة أيده ، ولا يثنى عليه ثناء من أنهب سعيه ، ورام ورمى فتم مرامه وصح رميه ، ونحن نشكر مكارمه التي ملأت الحقائق والحقائب ، ومدت عصائب جنود وجود يتبعها من الطير والعفاة عصائب .

* ومن نظمه قوله : [الوافر]

أقولُ وقد سألت قصاص قنلي فقام لها الكرى بالإعتذار
كفاني من توفاكم بليل ويعلم ما جرحتم بالنهار

ومنه قوله : [الطويل]

وما مثل هذا اليوم يخلف دره فيخلفه بالدر بيض الغمام
وقد عكس التشبيه فيه فعهنه جبالاً لصُلع الأرض مثل العمائم

ومنه قوله وقد أهدي إليه حلواء : [الوافر]

ولما جاءني منك افتقار حلا فحكى ثناءك حين يجري
حصلت بما أتى وحصلت مني على الحلوين من برٍ وشكرٍ

ومنه قوله : [الوافر]

أتى زيدٌ إلى الحمّام يثني معاطفه كما مال الرديني
فكان الماء وهو عليه جارٍ يرينا لؤلؤاً فوق اللجين

ومنه قوله : [الطويل]

ولما أراد الصب خطأ تسابقت
مدامع عينيه تحاول محوه
كأن بعينه من الخط غيرة
على وجه محبوبي إذا سارنحوه
ومنه قوله مما يكتب على عصابة ذهب لامرأة حسناء: [الوافر]

تأمل هذه الوجنات تزهي
وقد حلّى تحليها الدلال
تري شمس الضحى منها ومني
تتوجهها على الرأس الهلال
ومنه قوله^(١): [السريع]

أنزلت من أهواه في مقلتي
صوئلاً له من أعين الحسد
فجاء قلبي من طريق الكرى
يسرقها منها فلم ترقد
ومنه قوله: [الكامل]

تبسم ثغرها والخال يبدو
عليه كقلب ظمآن إليه
فقلت: الصبح؟ قالت: كيف يأتي
وليل الخال بوابٌ عليه
وكتب إلي: [البسيط]

إنّا لتملكنا من هيبةٍ خرس*
وإن خلونا وخلصنا وحشةً عرضت
فنحن منكم وفيكم لا يزال لنا
حالان في حبكم ماحال بينهما
وهل علمتم وحكم الحال واحدة*
إذا مرضنا تداوينا بذكركم
ومن لنا لو لثمنا تربكم فيها
في حيكم وعلينا منكم حرس
عذنا بأسمائكم فاعتادنا الأنس
من غيرةٍ حرس*، من هيبةٍ خرس*
عهد الهوى وعليكم ليس تلتبس
أنا على النأي للأذكار نختلس
ونترك الذكر إجلالاً فننتكس
شفاء أكبادنا والبرء يلتمس

أرض لها قبسٌ من نوركم وكذا
تفديكم أنفسٌ منا تحبكم

فكتبت إليه : [البسيط]

من وطء أقدامكم يندى بها اليبسُ
حياتها منكم في موتها نفسُ

مرت على عجلٍ والركب محتبس
وبان بان الحمى واهتز إذ خطرت
وفاح من مسك دارين لنا سحراً
وبت والليل يرميني بأنجمه
فقمت في غفلة النوم أشربها
وما توهمت أن الليل منصرمٌ
وافت تذكر بالعهد القديم وما
ثقي سليمى بودٍ لا يغيره
بل ما تجن جوى منه القلوب ولا
يا جيرة القدس ما قلبي كصخرته
لم نعتقد بعدكم والله يعلم ذا
قول ابن زيدون من حر الصبابة في
عتباً وصلحاً ولا يدري بنا أحدٌ
فسرُّ عاذ لنا لا كان عاذلنا

فما شككت بها والأمر ملتبسُ
ولاح ضوء هلالٍ أو بدا قبسُ
نشر الخمائل إلا أنه نفسُ
مثل العيرون ومنها أعينٌ نُسُ
صرفاً من الراح إلا أنها لعس
حتى تجرد من جلبابه الغلس
نسيته وهو لي في وحشتي أنس
نأي الديار ولا يذكى له الحرس
يبيدي هواه ومنه الجمر يقنيس
وليس لي عين سلوانٍ فتلتبس
إلا الوفاء لكم والحر محترسُ
« بنتم وبنا » وسوف البين ينعكس^(١)
والودُّ ببراً أحياناً وينتكسُ
وكان أفصح نطق العاذل الحرسُ

(١) إشارة إلى نونية ابن زيدون ، ومنها : [ديوانه ١٤١-١٤٨]

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحننا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

٢٩- ومنهم : خليل بن أبيك الصفدي، أبو الصفا، صلاح الدين^(١)

هو خليلي الذي أنادي ، وصاحبي إذا شكرت الأيادي، والذي أنادي منه خليل الصفاء، وصديق الوفاء، والذي أَرْضاني عن صنيع الليالي لما أتاني بنجومها قليلاً، والذي لم أخال سواه إلا قلت ﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾^(٢)، والذي صحبت أبا الصفاء من وده الذي لم تشبه الشوائب، والخليل إلا أنه كان - لأحمد - أكثر مما كان عنده ابنه في النوائب، والذي عاقدني منه خليلٌ صدقٍ فما ذممت له ذماماً، وأوقد لي من حميته ناراً خليلية كانت برداً وسلاماً، موسويةً فلماذا ما تركت ظلاماً، والذي لم يزل يرشد من خاطري مضلاً، ويريني في صفائه ما أردت ممثلاً، ويغنيني أن أقف عند سوى تصانيفه، وأقول : خليلي هذا ربع عزة فاعقلاً^(٣)، وملاً مسمعي بأدبه حتى قلت يكفيكما، وأغنى ناظري بكتبه فقلت : خليلي هباً بارك الله فيكما، وقررت له وأقررت ، أنه إمام المحسنين، وبايعته واتبعته وأنا من الموقنين، وبسطت يدي فبايعت ملك البلغاء خليل أمير المؤمنين، ورتعت في مراد تصانيفه أستزيرها وقنعت بمذاكرته ولم أقل : خليلي هل من رقدة أستعيرها؟ أقسم بالله وهو أكد الأيمان، وأوثق ما يقف معه أهل الإيمان، ما إن رأيت منه آدب، ولا مع

(١) ترجمته في : المعجم المختص ٩١ وذيول العبر ٣٦٤ ووفيات ابن رافع ٣٨٦/١ والمنهل الصافي ٢١١/٥ والدليل الشافعي ٢٩٠/١ والنجوم الزاهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة ٨٧/٢ وطبقات الشافعية الكبرى ١٠/٥ والذيل على العبر ١٣٤/١ وتذكرة النبيه ٢٦٨/٣ والمنتقى من درة الأسلاك ٣٥٣ وتعريف ذوي العلا ١٤١ وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢٢٧/٢ والذيل التام ٢٠٠/١ والبداية والنهاية ١٨/٦٨٠ وشذرات الذهب ٣٤٣/٨.

- ولادته سنة ٦٩٦ هـ أو ٦٩٧ هـ، ووفاته سنة ٧٦٤ هـ.

(٢) سورة الفرقان : ٢٨ .

(٣) صدر بيت لكثير عزة ، تمامه : [ديوانه ٩٥]

خليلي هذا ربع عزة فاعقلاً قلو صيكما ثم ابكيا حيث حلت

غناه عن التحصيل أدّاب، ولا أظن مثله أجمع لمُدحة وآبدة، وأخبار أُمم باقية وبائدةٍ لديها واقدة، ولا مقل الفراقِد عن التطلع إلى هذا، وماكسا الزمان مثله ثوبيه، ولا حمل الوجود حفيّاً شبهه بين جنبيه، فهو محدث يحدث بالصحيح، وتروى عنه العجائب، والمعروف وكله غرائب، كم قال وكم ألجم الحصر كل لسن، وقام بالسنة وكل سنده علي وحديثه حسن، هذا على أنه حاملٌ فقهٍ لا ينقل إلى أوعى منه، ومتقن علمٍ لا يؤخذ القديم والحديث إلا عنه، نعم وأنعم به من مؤرخ ينسئ الأُم وينشر الرّم، وينشد ضوال الأنباء وقد أماتها البكم، وأقبرها الصمم، فشق أصداف اللحود عن دُررهم، وكشط جلد الدهماء عن غرهم، وأوجدهم فما كتب من التاريخ وجوداً ثانياً، فأقاموا به أرواحاً وسئلوا فقالوا فصاحاً: ساقهم في تاريخه فكأنما قاموا في صعيدٍ واحدٍ لديه، وأتى بهم من عهد آدم وهلم جرّاً إليه، أجل، وهو أجل كاتبٍ تخضع لطرسه مهارق السحائب، ويخشع لقلمه سيف البرق المسنون، ويسقط قلبه الواجب، وأضاء أيضاً له نور حكمةٍ، يغلب فجرها الطالع مشارق الأنوار، ويغل فكرها السابق يد القيرواني^(١) إن نظمت أبقار الأفكار، ويذهب التحصيل وليس من بدره المنير درهم ولا من شمسهِ المشرقة دينار؛ وينبو دونه مضرب السيف ولو أن الآمدي ذا الفقر ذو الفقار، فاما ابن سناء فيخفي في طي البروق إشاراته، والرازي يرزأ كتبه، وتحف في لسان القلم عباراته، وقل أن وجد في علم إقليدس مثله من يحل إشكاله، ويجل أشكاله، ويغدو من قُل علمه الأفلودي للأرض مقسماً، ولقادير الكواكب متوسماً، بل لو وصل إلى ابن واصل علمه لقنع بما فضل، أو ابن العديم جمال الدين ماعدم ماتعنى إليه وماوصل، وكل هذا عوّل على أدبه الذي هو أغض من ورق النبات، وأحسن من تذهيب الحياء فضة خدود البنات، بقريحةٍ

(١) يقصد ابن رشيّق القيرواني، صاحب «العمدة في محاسن الشعر وآدابه».

أصفى من الماء ، وأورى من النجوم في الظلماء ، وأغرب من عنقاء ، وأطرب من ورقاء .
 وكتب الإنشاء مصرأ وشامأ فكبت ، وجرت معه القرائح إلا أنها السوابق
 فكبت ، وطاب به الواديان ، وطال الناديان ، وقلد الممالك ماهو أعلق بها من
 أطواق الحمائم ، وأعبق فيها ل جنوب الغمائم .
 وله التصانيف الكثيرة الكبيرة بنفسها ، الأبيكار التي ما أوت إلا سراقق نفسها .
 *وما كتب لي من نثره ، وأتبعه من شعره قوله ؛ من ذلك كتاب كتبه بشارة بوفاء
 النيل ، وهو :

ضاعف الله نعمة الجناب العالي ، وسر نفسه بأنفس بشرى ، وأسمعه من
 أنباء الهناء كل آية أكبر من الأخرى ، وأقدم عليه من المسار ما يتحرز ناقله
 ويتحرى ، وساق إليه كل طليعة إذا تنفس صبيحها تفرق الليل وتفرى ، وأورد
 لديه من أخبار الخصب ما يتبرم به محل المحل ويتبرا ؛ هذه المكاتبه إلى الجناب
 العالي ، تخصه بسلام يرق كالماء انسجاماً ، ويروق كالزهر ابتساماً ، وتحفه بثناء
 يجعل المسك له ختاماً ، ويضرب له على الرياض النافحة خياماً ، وتقص عليه من
 نبأ النيل الذي خص البلاد المصرية بوفادة وفائه ، وأغنى به قطرها عن القطر فلم
 تحتج إلى مد كافة وفائه ، ونزحه عن منة الغمام الذي إن جاد فلا بد من شهقة
 رعه ودمعة بكائه ، فهي الأرض التي لا يذم للأمطار في جوها مطار ، ولا يزم
 للقطار في بقعتها قطار ، ولا ترمد الأنواء فيها عيون النوار ، ولا تشيب بالثلوج
 مفارق الطرق ورؤوس الجبال ، ولا تبست البروق ساهرة لمنع العيون من تعهد
 الخيال ، ولا تفقد فيها حلى النجوم لاندرج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس ،
 ولا يتمسك المساكين في شتائها كما قيل بحبال الشمس ، وأين أرض يخمد
 عجاجها بالبحر العجاج ، وتزدحم في ساحاتها أفواج الأمواج ، من أرض لا تنال
 السقيا إلا بحرب ، لأن القطر سهام ، والضباب عجاج قد انعقد ، ولا يعم الغيث

بقاعها، لأن السحب لا تراها إلا بسراج البرق إذا اتقد، فلو خاصم النيل مياه الأرض لقال: عندي قبالة كل عين إصبع، ولو فاخرها لقال: أنت بالجبال أثقل، وأنا بالملق أطبع، والنيل له الآيات الكبرى، وفيه العجائب والعبر، منها: وجود الوفاء، عند عدم الصفاء، وبلوغ الهرم، إذا احتد واضطرم، وأمن كل فريق إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان إذا كسر، وهو كما يقال سلطان، وهو أكرم منتمى، وأشرف منتمى، وأعذب مجتنى، وأعظم مجتدى، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصه، وهو أنه في هذا العام المبارك، جذب البلاد من الجذب وخلصها بذراعه، وعصمها بخناده التي لا تراعى من يراعه، وحصنها بسواري الصواري، وماهي إلا عمد قلاع، وراعى الأدب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا كل يوم بخبر قاعه في رقاعه، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً، وأقبلت سوابق الخير سراعاً، وفتح أبواب الرحمة بتخليقه، وجد في طلب تخليقه، تضرع بمد ذراعيه إلينا، وسلم عند الوفاء بأصابعه علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره، فرسمنا بأن يخلق، ويعلم تاريخ هنائه ويغلق، فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوج موجه، ويهيل كثيب سده هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور الميثوثة، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قسي قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته، ولولا ظهرت في باطنه من بدور أناسه أشعتها المعكوسة، وبشر بركة الفيل ببركة الفال، وجعل المجنونة من تياره المتحدر في السلاسل والأغلال، وملأ أكف الرجاء بأموال الأمواه، وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد، وهنأت طلائعه بالطوالع التي نزلت بركاتها من الله تعالى على العباد، وهذه عوائد اللطاف الإلهية بنا، التي لم نزل نجلس على موائدها، ونأخذ ما نهبه لرعايانا من فوائدها، ونخص بالشكر قوادمها، فهي

تدب حولنا وتدرج، ونخص قوادمها بالثناء والمدح، فهي تدخل إلينا وتخرج، فليأخذ الجنب العالي حظه من هذه البشرى، التي جادت بالمن والمنح، وانهلث أيادها المغدقة بالسح والسفح، ولتلقاها بشكرٍ يضيء به في الدجى أديم الأفق، ويتخذها عقدًا يحيط منه بالعنق إلى النطق، وليتقدم الجنب العالي بأن لا يحرك الميزان في هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعط كل عامل في بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى في إسقاط الجباية خيانة؛ والله تعالى يديم الجنب العالي لقص الأنباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهاني والأفراح لديه، بمنه وكرمه.

ومن ذلك جوابٌ كتبه عن النائب بالشام، إلى الملك الأفضل صاحب حماة، وقد أرسل مشمشاً كافورياً: لازل إحسانه كالعلم المشهور، وجوده المنظوم يهدي من الثمرات ماهو كاللؤلؤ المنثور، وبره يتحف بماهو كالشهد في الطعم واللون، وكالنجم في الشكل والنور، وكرمه يتضوع نشرأ، وكيف لا وقد جاد بما ينسب إلى الكافور؛ وينهي ورود المشرفة العالية قرين ما أنعم به مولانا من المشمش الكافوري، فوقف عليها وقابل إحسانه بشكرٍ يشرق نوراً، وثناءً يدير على الأسماع كأساً كان مزاجها كافوراً، وواجه جوده بحمدٍ يتلوه منه وجه الروض بمنثوره، وتجد الألسنة لمنظومه لذة تنسي الأسماع ماقاله أبو الطيب في كافوره، ومتع ناظره بتلك الكواكب التي اتسقت من العلب في أفلاك، وتنسقت كالدرر ومالها غير حُسن الرصف أسلاك، وتأملها وهي كرات بلور اكتنفها الأصيل والشفق، وركبت حين ملأت الصدور طبقاً عن طبق، فأكرم بها هدية كانت بحلل الأشجار أزراراً، ولجنات الأوراق ناراً؛ كيف مكنت فروعها يد قاطفها من السلب؟ وكيف أقبلت في حلة الروع والوجل وهي طيبة القلب؟ كأنها لم تكن لقسي الغصون بنادق، ولا في رقع الأوراق بنادق، فالله يشكر

لمولانا هذا الإحسان العلوي الذي جاد بالنجم زهراً، والجود الروضي الذي ملأ العيون حسناً وملأ الصدور درا، وأدام الله أيامه التي تسبق فيها الغرائب، وتستبق إلى مكارمها الرغائب، بمنه وكرمه.

ومن ذلك جوابٌ كتبه إليه أيضاً، وقد أهدى إليه رخاما ملونا:

وينهي وصول الرخام الملون الذي فتح به عين هذه الدار المكونة، وأهدى إلى روضها الداوي أزهاره الملونة، ولا غرو فإن العيون توقظها الشمس بالأشعة من المنام، والأزهار توجد بالرياض من جود الغمام، ولو لم يكن كرم مولانا سحاباً، لما جاد بالوان قوس قُزَح، ولو لم يكن علوه كالشمس لما انبعثت عنه أنوار تلهب شعاعها في هذه الدار وقدح، وتحاشى المملوك تشبيه ذلك بالزهر، فإن هذا أبداً يانعٌ، وذلك يؤول إلى الذبول، أو التمثيل بالأشعة، فإن هذا أبداً مشرقٌ، وذاك بذهاب سره يحولٌ ويزولٌ؛ وهذه معجزة كرم لمولانا، فإن ريش الطاووس صار له جلمداً، وقوس السحاب تجسّد له على طول المدى، فلو ناظره مباهٍ بمحاسنه لكان له الفخر، ولو حاولت المياه أن تبليه لما بالى بما لها عليه من الزخر، ولو أجرت دموعها عليه لما لابتك، فما كل باكٍ خنساء، ولا كل جمادٍ صخر، ولو رأت العيون لسبحت الألسن من راح له صانعاً، ولو أراد بليغٌ أن يقوم بحقه وصفاً لوجده مانعاً، والله يشكر لمولانا هذا الإحسان المديد الوافر، والفضل الأفضلي الذي أنبت في الروض أزاهر.

ومن ذلك مقامةٌ أنشأها في الحريق الذي اتفق بدمشق، سنة أربعين وسبعمئة، وسماها «رشف الحريق في وصف الحريق» وهي:

حكى شعلة بن أبي لهبٍ عن أبي الزناد شهابٍ، أنه قال: لم تزل أُذني متشنفة بأوصاف دمشق، متلذذة بماء الأقلام في ذكر محاسنها من التعليق

والمشق، حتى رأيت الحزم، شد الكور إليها والحزم، فآزمت السير، ولم أزر الطير،
وقطعت أديم الأرض بالسير، وركبت إليها مطاء الشوق قبل مطايا السوق، ولم
يتلفت القلب إلى الوطن، ولاحن النجيب إلى العطن، حتى بلغت بعد مكابدة
السرى، وإثارة العجاج من الثرى، فلما حلت مغناها وجدتها: [الكامل]

بلداً أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
وكأنما الأنهار فيه سلافة وكان ساحات الديار كؤوس

فألقيت العصا في ساحتها، وألفيت زوال التعب في مُصافحة راحتها، فما
سرت فيها إلى روضٍ إلا وأجلسني من الترجس على أحداقه، وقام السرو من
السرور بين يدي على ساقه، وجرى الماء في خدمتي لكرم أخلاقه، وظللني الدوح
لطيب أعراقه، ومد الغصن لي ستور أوراقه، وغنى لي الحمام على عوده، ولو
تأني أو تأبى جره بأطواقه. قال:

فشفيت سقمي بنسيمها العليل، واستروحت إلى ما نقله عن بانه وبنفسجه
لا إلى ما يتحمله من الإدخر والجليل، وخلت أنه بلطف مسه يلين له الجندل،
وجننت بعرفه المنذلي، وما رأى الناس من جنّ بالمندل، وبردت بأنفاسه حر
الصباة والجوى، وقلت: [الكامل]

أضحى نسيم دمشق حياها الحيا بمشي الهوينا في ظلال حماها
فكأنه من مائها وهضابها ماداس إلا أعيناً وجباها

وقطعت بها زمنا ألد من وصال الحبيب، وأشهى إلى النفس من التشفي
بأذى الرقيب، فلا أبعد الله مافي بساتينها من شجرات، ولا قدر الكسوف على
ما فيها من كواكب الثمرات، ولا دك هضبات أزهارها التي تضوع بطن نعمان
برياها، لا بمن مشى به من الخفرات، فإنها: [الخفيف]

شوقتنا إلى الجنان فزدنا في اجتناب الذنوب والآثام
 قال : ولازمت جامعها الذي تحيرت العقول في تكوينه وكنهه، وحسنه
 الذي لم يكن فيه عيب سوى أنه لم تقع العين على شبهه، ولله من نظم درأ فيه
 حين قال فيه : [المتقارب]

دمشق لها منظرٌ رائعٌ وكلُّ إلى وصلها تائقٌ
 وكيف تُقاس بها بلدةٌ أبى الله والجامع الفارقُ

فإنه يوقظ النائم، بحسن رخامه القائم، ويجلو بهيم الدجى حصّة الفجر من
 حصّه، وتروي لك زخرفته حديث الحسن بفصه، كم زهرت فيه ليلة النصف من
 ذبالة هي نجمٌ توقد، وكم دار به دولابٌ كانت قناديله تدور مثل الفرقد، وكم
 طلع في سماء صحنه من ثريا، وكم تمنى من القمر لو كان بين نجومه فما اتفق له
 ذلك ولا تهايا، وكم جلّيت عروسه في عقود وقود، وكم تمتعت الأبصار فيه
 بوجوه تخجل البدر في ليالي السعود، وكم فيه من عمودٍ قام على قاعدة، وكم
 به من منجور كغضون أوجه العجايز وأزراره ناهدة، وكم من أعطافٍ رؤيت في
 صحنه مائدة، وكم من طائرٍ لرفع نسره مخفوض*، وكم حسن بناءٍ عند بنائه
 يعرب أنه مرفوض*، كم أظهرت الصنّاع فيه بدائع لا يدعيها غيرهم ولا يتعاطى،
 وكم أبرزوا فيه من معجز لأنهم جعلوا الحجارة أوراقاً والرخام أخياطاً، قد عمر
 الله تعالى أوقاته بالذكر، وأراح قلب من يراه من الهم، وأراح عنه الفكر.

قال : فلما رأيت مجموعة المختار ، وأن العيون تودُّ لو نسج له من شعر

جفونها أستار، قلت (١) : [الطويل]

تقولُ دمشقُ إذ تفاخرُ غيرها بجامعها الزاهي البديع المشيدِ

(١) هما له في نزهة الأنام في محاسن الشام ٤٦ .

جرى لتناهي حُسنه كلُّ جامعٍ وما قصبات السبق إلا لمعبد
قال : فبينما نحن ذات ليلةٍ وقد وردنا حمى المضاجع، ودخل ضيف الطيف على
مقلة الهاجع، وإذا بالأصوات تعجُّ، والدعوات تلج أبواب السماء وتلج: [الطويل]
فلو نشدت نعشاً هناك بناته لمات ولم يسمع لها صوت منشد
فسألت عن الخبر ممن عبر، فقال : إن الحريق وقع قريباً من الجامع، وانظر إلى
نسج الجوِّ كيف انتشرت فيه عقائقُ اللهب اللامع؛ فبادرت إلى صحنه والناس فيه
قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، ورأيت النار وقد
نشرت في حداد الظلماء معصفرات عصائبها، وصعدت إلى عنان السماء
عذبات ذوائبها: [من الطويل]

ذوائبُ لجت في علو كائنما تحاول ثاراً عند بعض الكواكب
وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها
وهي ترمي بشرر كالقصر، فكم زمرٍ أضحت لذلك الدخان جائية، وكم نفسٍ
كانت في النازعات وهي تتلو : ﴿ هل أتاك حديثُ الغاشية ﴾^(١) ولم تنزل النار
تأكل ما يليها، وتفني ما يستقلها ويعتليها، إلى أن ارتقت إلى المئذنة الشرقية،
ولعبت ألسنتها المسودة في أعراض أخشابها النقية، وثارَت إليها من الأرض
لأخذ الثار، وأصبح صخرها كما قالت الخنساء: كأنه علمٌ في رأسه نارٌ^(٢)؛
فنكست وكانت للتوحيد سبابةً، ولمعبدِها المطرب شباةً، وابتلي رأسها من
الهدم والنار بشقيقةٍ، وأدار الحريق على دائرها رحيقه: [المقارب]

(١) سورة الغاشية : ١ .

(٢) عجز بيتٍ للخنساء ، تمامه : [ديوانها ٣٨٦]

أغر أبلغُ تأتمُّ الهدأةُ به كأنه علمٌ في رأسه نارُ

وبالأرض من حبها صفرة^١ فما ينبت الروض إلا بهارا

وترقى إليها أو لو العزم من النظارة، وصبروا على النار والشعث بعد النعيم والنضارة، وكادت نارها تكون كنار القيامة وقودها الناس^(١) والحجارة؛ هذا وينفسج الظلام يذوي، ولينوفر^(٢) النار يشب على الماء ويقوى، حتى نثرت غصون ذوائب النار شررها في النواحي، وظننا الدخان روضة سوسن تخللها نرجس وأقاحي، وعقد الدخان سماء أخرى، وأطلع الشرار فيها كواكب زهراً، وكان أهل دمشق دعوا طارق النيل والفرات ليقري، وخافوا ضلاله فرفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمراً، إلى أن أتاها البحر - لازال نصره عجاجاً، ولا برحت سيوفه تكاثر البحار أمواجاً - فانكشفت لما أن رأت من وجهه سراجاً وهاجاً، وطفئت لما أن رأت جوذه عذباً فراتاً، وبأسه ملحاً أجاجاً، وكاثرهم بهمم أمرائه فأحكم إخمادها وتلقى بصدرة من خطب الزمان مدهى؛ ولما طلع في روض السماء ياسمين النهار، وعاد إهليلجاً ما رؤي بالليل من الجلنار، وقف النادبون على الرسوم، ورأوا صنع النار التي عكست نار الآخرة، فكان لكل مكانٍ منها جزءٌ مقسوم^(٣): [الطويل]

فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ولا نحن من فرط الجوى كيف نسأل

وأصبح باب الساعات^(٤) وهو من آيات الساعة، وخلت مصاطب الشهود من السنة والجماعة، وعادت الدهشة وقد آل أمرها إلى الوحشة، وحسنها البديع، وقد ثلت النار عرشه، كأن لم أر بها سميراً، ولا شاهدت من بنائها

(١) في الأصل: النار والحجارة ١.

(٢) هو النيلوفر المعروف.

(٣) البيت للبحثري، في ديوانه ١٧٨٨/٣.

(٤) في الأصل: الساعا. وباب الساعات: هو الباب الجنوبي للجامع الأموي، ثم أطلق عليه: باب الزيادة، وبهذا يعرف اليوم.

وقماشها جنةً وحريراً، قد سلط الله عليها النار التي ما لها ردةٌ ، وأحرق أزهار ثيابها الملونة بوردةٍ ؛ ونظرت إلى الوراقين وقد زال ما بها من الطرائف، وطاف عليها من الدثور والخراب طائفٌ، فيا ضياع أوضاعها المكونة، وياسواد وجوه أوراقها الملونة، ولحت اللبادين وقد صارت كالعهن المنفوش ، ومحيت بأيدي النار سطور كل خاتمٍ منقوشٍ ، وأصبح أهلها كالحمام تنوح على أقفاصها، وتود اللآلئ أنها لم تخرج إليهم من مغاصها، فما منهم إلا ربُّ نعمةٍ سلبت ، أصبح بعد الجديد في خلقٍ، أو غنيٌّ أمسى بعد ما ضم قفصه يكدي في الخلق، وكادت الخضراء^(١) تذهب بالنار الحمراء .

قال : فلما رأيت تلك الأطلال الدائرة، ونسخ هاتيك الظلال المتصلة بالهاجرة ، وخطوطها وزواياها كيف أحاط بها سوء الدائرة : قلت عند مشاهدة تلك الحال في الحال : [الطويل]

حريق دمشق قد بدا لعياني	ليظهر لي عند البيان معاني
غدت ناره في الجو تعلو وترتقي	كأن لها عند النجوم أمانني
لقد ضوءاً الآفاق لامع برقها	وما كلُّ برقٍ شمتته بيماني
وقد كاد يححو آية الليل ضوءها	ويبدي نهراً بعد ذلك ثاني
ونالت عنان الجو حتى رأيتها	يصرفه من تحتها بعنان
وطالت إلى نهر المجرة في السما	لتقصّد شيّ الحوت والسرطان
فأبصر أهل النيل لما ترفعت	لجّوم شرارٍ في سماء دخان
كأن دخان النار غبراء مغزلٍ	وكل شرارٍ فيه مثل سنان
ولو لم تكن نار الأعادي لما غدت	وجنّأها بادٍ بكل بنان
ولا صبغت بالزعفران قميصها	سروراً ولا طالت بكل لسان

(١) الخضراء : قصر معاوية ، ويقع جنوبي الجامع الأموي .

قال: وما نفض الناسُ غبار ذلك الهدم، ولا رماد ذلك الصدع الشديد الصدم، حتى وقع بالمدرسة الأمينية^(١) حريقٌ ثانٍ، ودهمت شقراء النار دهماء الظلام، ولم يوجد لعنانها ثانٍ، فجمعت بين عين الوداع وسين السلام، وكانت كحُمى أبي الطيب، فليس تزور إلا في الظلام^(٢) فيا لسوق الكفت كيف باد وفتت الأكباد؛ علكت النار الجمه، وكسفت نجمه، أين بأسه الشديد، ومنافعه التي لا تبيد؟ سكت زبره، ورفع خبره.

وبالسوق الخيم، كيف ذهب، وعدم النصر على الكافرين، فتبت يدا أبي لهبٍ، لقد تمسكت النار بأطنابه، وتجلد لها والنار تحت ثيابه، وأمسى وكل عمودٍ غصنه مهصورٌ، وكل خامٍ وهو على البلى مقصورٌ، كأن الشاعر قديماً تخيل ما يحصل لها من الأوام، فقال: سقيت الغيث أيتها الخيام.

وبالسوق القسي كيف محي من الوجود ونسي، لم يبق لقوسٍ قلبها، ولم يعطها لباريها ربها، كأنما كان للنار عند القسي أوتارٌ، وكان نسخها كان محققاً فجاءهم بقلم الطومار، أو كأن امتهانها كان معلقاً بثلاث الليل بعد ما رقت حواشيها ولم يقع عليها غبارٌ، فكم قسيٍ توفر من النار سَهَمها، وعظم بوهنها وهمها، وأقامتها النار بعد ما كانت حنايا، وأفنت قرننها وما اختلط بعظمٍ أو الحوايا، لم تبطش ولها أيدٍ، ولم تهرب ولها أرجلٌ ولم تثنٌ وهي مرنانٌ، ولم تدفع الأذى عن نفسها ونفثها يقتل، ولم ينبسط لها إلى الدفع قبضةٌ، ولم تصل إلى غرضٍ، ولم ينبض لعرق وترها نبضةٌ؛ قد قال لها لسان النار: هل سمعت بهذه الحادثة في ملحمة ابن عقبة؟ أو اتصل بناؤها بقوس السحاب فانتظره وارقب؛ كيف غفلت عن هذه النازلة، وأنت عدة قومٍ قليلاً من الليل ما

(١) مضى التعريف بها.

(٢) من بيت أبي الطيب المتنبّي: [ديوانه ٤/ ١٤٦]

وزائرتي كان بها حياءٌ فليس تزور إلا في الظلام

يهجعون؟ وكيف نمت ولا عجب لمن نعس وهو ذو قرون؟

قال : فبينما هما في المناجاة ، وتكرار المحاجة ، إذ جاء النار خير مالِكٍ ، وأشرف من زهيت به الدول والممالك ، فجاس خلال ضرامها ، ودخل لظاها فتلقته ببردها وسلامها ، وتتبع أثرها الذي أثر اقتلعه واقتحمها ، فتعلقت إذ تألقت في الجو ، والفرار قدام الملوك طاعة ، ولم ير تلك الساعة أحد أقرب منه إليها ، ولا أسلط سطاً منه عليها ، وثب في جهاتها ممالكه وأمرؤه ، وصغار بنيه وكبرائه ، فهم قوم* : [الطويل]

إذا ركبوا زادوا المواكب بهجةً وإن جلسوا كانوا صدور المجالس
فلم ير أسهل من خمودها ، ولا أسرع من إبطال حركتها وجمودها ؛ ونصر-
أعز الله أنصاره- هذه الملة الحمديّة ، وحاز بهذه المنقبة الكرامة الأحمدية .

ولما رأيت مسك هذا الختام ، وأن الجيش تعالى وانحط القتام ، قلت* : [السريع]

جاء ليظفي النار من إسمه	بحرٌ فأخفى زندها الواري
ومن يكن بحرًا فلا غرو أن	تطفأ لظى منه بتيار
وقام في الله لدفع الأذى	مؤيداً بالقدّر الجبار
وغير بدع أن يرد الردى	بمرهف الحدين بتار
لأنه سيفٌ ولم يدخر	إلا لخطب طارق طار
واقترحم النار بوجه حكي	بدر الدجى إذ لاح للشاري
فانظر إليه وهو في وسطها	تشاهد الجنة في النار

قال : ولم يزل الناس من أمر هذه النار في قلقٍ ، وحدث نفى عن قلوبهم القرار ، ورمى جفونهم بالأرق ، وحنق يود الصبح لو تنفس ، والفجر معه لو انفلق ، حتى أظهر الله تعالى أن النصارى قصدوا الجامع بذلك ، وتخيلوا أن النار تلعب في

جوانب دمشق، وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ^(١)؛ وتوهموا أن فعلاتهم المذمومة تغطي مساوئها الليالي الحوالك، فعل من صور الصور بيده وعيدها، وكفر بالوحدانية وجحدها، وعكف على الخيانة والجناية، واعتمد على عقلٍ أداه إلى أن الواحد تعالى ثلاثة، فتهيب بعض الناس رميهم بهذا الحجر وأعظم نسبة هذا الفعل إليهم، وفجر وخوف بانتصار الفرنج لأهل ملتهم، وإزاحة علتهم، وكشف غمتهم، والأخذ بثأر رمّتهم؛ فقال من صدق في إيمانه، وكان من أنصار الإسلام وأعوانه^(٢): [الوافر]

أعباد المسيح يخاف صحبي ونحن عبيد من خلق المسيح

فما كان إلا أن صممت العزيمات السيفية، وعمت بإحسانها الشامل، حتى خلصت النفوس البريئة من هذه البرية، وأيقظت عين حزمها الراقدة، واستبدت مرةً واحدةً؛ ورسم بإمساك من أبرم هذا الأمر وحرره، وبيت على فعله وقرره، فأقروا بما فعلوا، ووجدوا ما عملوا، فضربوا بسياطٍ كشطت غلظ الغلظ من جلدتهم، وأوهنت قوى شجاعتهم وجلدهم، كم فيهم من أسود اللمة فتق جلده الشيب، وخطٌ وخطٌ على جنبه ما كان مخبوءاً له في الغيب، وأقبل بعضهم يوبخ بعضاً فيما أشار، ويتبرم هذا إذ يتبرأ ذاك من هذه الآثار، ويتسابون فيما بينهم، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقَّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ﴾^(٣). ولقد قلت فيهم عند التشفي، والانكفاء عن عقابهم بما يكفّ الحنق ويكفي: [الكامل]

حرثت جنوبهم وشقت أرضها ليلاً فجاد نباتها بشقيق

(١) من بيت أبي نواس: [ديوانه ١٥٩/٢]

وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذو نسبٍ في الهالكين عريق

(٢) البيت لزبي العلاء المعري في سقط الزند ٢٤٦/١.

(٣) سورة ص: ٦٤.

وأريد تأريخ الحريق فخطه الـ
 و الي على أضلاعهم بعقيق
 ولما أخذ سُحِتْ أموالهم، وصرف في إيجاد ما أعدموه بفعالهم ، نظر في
 سوء منقلبهم ومآلهم، وتمام المقابلة على تجنيس أعماله، وورد المرسوم العشرين
 بتسميرهم على الجمال ، وإظهار ما لهذه الملة القاهرة من العز والجمال، فقضى
 الله تعالى فيهم أمرهم، وجعلهم آية لأهل الصليب وعبرةً، وأخرجوا وطباع
 الورى على عدم رحمتهم مجبولة، وقدموا في حلقة الناس ، فخرج كل واحد
 منهم بجمل وست فحولة، وأقيموا رقباء للشمس كالخرباء، فليس لهم من دونها
 ستر منسبلٌ ، وتنوع الناس في شتمهم، فقال: أشبعتمونا شتما^(١)، ورحنا
 بالإبل: [الكامل]

انظر إليهم في الجذوع كأنهم
 قد فوقوا يرمون بالنشاب
 أو عصبه عزموا الرحيل فنكسوا
 أعناقهم أسفاً على الأحباب
 وطيف بهم بياض يومين، ثم أنزلوا ليجعل كل سطلٍ منهم دلوين، فجردوا
 من ثيابهم، وجمع شمل السرور بتمزيق إهابهم: [السريع]

ساقهم البغي إلى صرعةٍ
 للحين لم تخطر على بالهم
 كم أملوا المكروه في غيرهم
 فنالهم مكروه آمالهم
 وسبق السيف فيهم العذل، وقال كل مسلم لمصرعهم: تركتني أصحاب
 الدنيا بلا أملٍ؛ وبقيت أشلاؤهم طريحة الحفير ، وألقوا في جهنم وبئس المصير.

*ومن شعره قوله: [البسيط]

أدعوك يا موجد الأشياء من عدمٍ
 وصانع العالم العلوي والأرضي

(١) في الأصل : شيئاً.

إن كنت تعرض يوم الحشر لي عملاً

فلا تفدر له طولاً على عرضي

وقوله: [السريع]

يارب إن لم ألق منك الرضا

عمري وحاشا فضلك الغامر

فعند حفر القبر لا تنسني

يا حسنه نقداً مع الخافر

وقوله: [من الوافر]

يقول الفكر لي دنست ثوب الشد

شباب في غداة الشيب تنعب

وتغسله بدمعك كل وقت

وما ينقى لأن الطبع أغلب

وقوله^(١): [السريع]

لا تسأل الناس فياني امرؤ

ما طاب لي عرْف من العرْف

واقنع ولا تجمع حطاماً فكم

في الدهر للدينار من صرف

وقوله^(٢): [السريع]

لا تجمع الدينار واسمح به

ولا تقل: كن في حمى كنفي

مالدهر نحوي فينجو الهدى

ويمنع الجمع من الصرف

وقوله^(٣): [السريع]

يازمنأ وقعنا شؤمه

في محنة ليس لها كاشفه

الفضل يحتاج إلى عارف

والحال يحتاج إلى عارفه

وقوله: [من السريع]

(١) الغيث المسجم ٤٠٣/٢

(٢) تذكرة النبيه ٢٧١/٣

(٣) الغيث المسجم ٢٦١/٢

لا ترع للملاق عهداً ولا
فأنت تدري ماجنته يد الرُّ
تصغ لما نمقه واختلق
رامي على الطير برعي الملق
وقوله مضمناً^(١): [الطويل]

يقول لنا المقياس والنيل هابط
«ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابضٍ
لنقطع آمال المنى والمطامع
على الماء خائنه فروج الأصابع»
وقوله: [السريع]

لا تطغ تلق الشر كالنيل إذ
كم جاءه بالشر شرٌّ إلى
طنى وزاد الأمر في هيجه
أن كسر الأضلاع من موجه
وقوله^(٢): [المجتث]

لِمَ لا أهيم بمصرٍ
ومما ترى العين أحلى
وأرئضيها وأعشق
من مائها إن تملق
وقوله: [البسيط]

لقد رأيت بمصر مذحلت بها
تسود في عيني الدنيا فلم أرها
عجائباً مارآها الناس في جيل
تبيض إلا إذا ما كنت في النيل
وقوله: [البسيط]

قالوا: علا نيل مصر في زيادته
فقلت: هذا عجيبٌ في بلادكم
حتى لقد بلغ الأهرام حين طمى
أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما

(١) هما في الغيث المسجم ٧٦/١ و ١٢٥/٢ وتعريف ذوي العلا ١٤٧.

والثاني بلا نسبة في المستطرف ٣/٣٦٤ وفيه تخريجه، وأراه من قول المجنون: [ديوانه ١٩٧]
فأصبحتُ من ليلى الغداة كقابضٍ على الماء خائنه فُروجُ الأصابع

(٢) الغيث المسجم ٧٦/٢.

وقوله ^(١): [السريع]

قد زاد هذا النيل في عامنا
وكاد أن يعطف من مائه
فأغرق الأرض بإنعامه
عُرى على أزارار أهرامه

وقوله: [مخلع البسيط]

قد حارب الريح نيل مصر
فجاءت الريح بانزعاج
وعض من غيظه الأصابع
كسّر من مرجه الأضالع

وقوله: [الهزج]

وعين ماؤها صاف
ولم أر قبلها عيناً
كمثل الشمس في الأوج
حراجبها من الموج

وقوله: [البسيط]

ركبت في البحر [يوماً] مع أخي أدب
شرحت يابحر صدري اليوم ، قلت [له:]
فقال : دعني من قال ومن قيل
لا تنكر الشرح يا نحوي للنيل ^(٢)

وقوله: [الكامل]

لك إن تغب شخصٌ وذكرٌ أصبحا
فخيّام جفني فوق ذا مضروبة
ملكبن في ذاتي وذلك لائق
ولواء قلبي فرق هذا خافق

وقوله: [السريع]

كأنما الليل إذا مادجا
صحيفةٌ سودا وشخصي به
وصدّ من قلبي به مغرى
من انتحالي ألف صفرا

(١) الغيث المسجم ٧٦/٢.

(٢) مابين حاصرتين، زيادة لإقامة الوزن.

وقوله^(١): [الطويل]

أتاني وقد أودى السهأُ بناظري
فقلت له: يا طيب الأصل هكذا
يمزق جنح الليل بارق فيه
أخذت الكرى مني وعيني فيه

وقوله: [الكامل]

لما رقدتُ أتى خيالك بغتةً
لو أن صحبي شاهدوني في الكرى
فغدا فؤادي خافقاً يتموج^(٢)
والقلب يرقص في الخيال تفرجوا

وقوله^(٣): [المتقارب]

ضمنت خيالك لما أتى
وقمت ومن فرحتي باللقا
وقبلته قبلة المغرم
حلاوة ذاك اللمى في فمي

وقوله: [السريع]

عجبت إذ زارت على خفيةٍ
هذا فضول من نسيم الصبا
من أعلم الواشي بمسراها
فهو الذي ينقل رباها

وقوله: [السريع]

قلتُ له: زرني فلا بد أن
فالريح ماتكنم سرّاً وما
يدري بنا الواشي ويغري العذول
يبرح رباك يعاني الفضول

وقوله: [السريع]

قالوا: وشى الحلبي بها إذ مشت
إليك من قبل ابتسام الصباح

(١) تعريف ذوي العلا ١٤٦.

(٢) في الأصل: ... أتاني خيالك بغتة ١٨.

(٣) تعريف ذوي العلا ١٤٤ والغيث المسجم ٢٤٣/١.

ثم تذكرت فضول الوشاح	فقلتُ : لا خلخالها صامتٌ
	وقوله ^(١) : [الكامل]
راحٌ يعيد الصب بعد هلاكه	علم الوشاة بأن ريق معذبي
لكن هذا من فضول سواكه	أما أنا لم يبد هذا من فمي
	وقوله : [السريع]
أسكرني لما ترشفت فاك	يقول : لما قلت هذا اللمى
أستغفر الله ذكرت السواك	سواك ماذا لمى مبسمي
	وقوله : [المتقارب]
وقد زرت في الحندس المظلم	إذا شئت حليك أن لا يشي
ح وخلي سوارك في المعصم	فردي السوار مكان الوشا
	وقوله : [الخفيف]
إن تثني واستره خوف العيون	قال لي : لاتفه بميل قوامي
عنك هذا الحديث بين الغصون ^(٢)	قلت : [إن] الصبا التي قد أشاعت
	وقوله : [البسيط]
فؤاده طار حتى ليس يألفه	أقول : يا غصن هلا ملت نحو فتى
قلت : النسيم الذي مازال يعطفه	فقال : من قال : قدي مثل غصن نقأ؟
	وقوله مضمناً : [الطويل]

(١) الغيث المسجم ١/ ٤٥١ .

(٢) صدره في الأصل : قلت للصبا X ١ .

قوامك إلا بالصبا في التنسم
وقف وقفة قدامه تتعلم

أقول لغصن البان : إن كان لم يمس
فعارض حبيبي حين يثني قوامه

وقوله : [من السريع]

بأنه لم يقسُ يوماً علي
يربطه الخصر على غير شيء

يوهمني من لين أعطافه
ويخدع البند إلى أن غدا

وقوله : [مجزوء الكامل]

والطير يصدح فوق غصن
ويعلم الغصن التثني

لم أنسه في روضه
فأعلم الورق البكا

وقوله : [المجتث]

وفي الحشا منه غصه
وإن أتى جاء برقصة

بهتز قدك لينا
يغيب عني حيناً

وقوله : [الخفيف]

عطفه والتوى من اللين غصنه
لا يرى في الربا ولا الكذب وزنه

أيها الأهيف الذي قد تثني
لك ردف من وانر وبسيط

وقوله : [المجتث]

وعطفه المتثني :
ولا كثيبك وزني

يقول ردف حبيبي
ما أنت يا غصن قدي

وقوله : [الهمزج]

وضاعف خالقي حسنك
لأنني لم أجسد وزنك

لقد أضعفني حزني
فها أنا لم أزن وجدي

وقوله: [البسيط]

ألبستها من عناقي وهي نائمة
يا خجلتا في غد منها إذا أخذت
ثوبا يزر بلثم غير منفصل
مرآتها ورأت ما أثرت قبلي

وقوله: [المنسرح]

يا برقُ بلغ رسالتي فمها
لأن بيني وبين مبسمها
إن أنكرتني فصف لها عللي
ليلة زارت علامة القبيل

وقوله: [مخلع البسيط]

قلت له: إن بعـدت عني
أما ترانا لما اعتنقنا
تَفَضَّلْتُ بَيْنَنَا العواذل
مادخلت بيننا الغلائل

وقوله: [الوافر]

نظرت إلى الرياض ولي مجازٌ
فكم أبصرت من آسٍ تبدى
يؤديني إلى المعنى الحفيقي
وما اندملت جراحات الشقيق

وقوله: [المتقارب]

عذارك والطرف يا قاتلي
وقد صار بينهما نسبةٌ
يُحاكيهما الآس والنرجس
فهذا يدب وذا ينعس

وقوله^(١): [الخفيف]

إن عيني مذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الغرادي
يامر السهد في كراها وينهي
لا تسلم ماجرى على الخد منها

(١) تعريف ذوي العلا ١٤٢ وتذكرة النبيه ٣ / ٢٧١ والمنتقى من درة الاسلاك ٣٥٣ والمستطرف

وقوله (١): [الكامل]

أملت أن تنعطفوا بوصولكم فرأيت من هجرانكم ما لا يرى
وعلمت أن بعادكم لا بد أن يجري له دمعي دماً وكذا جرى

وجاءت شتوة وشّعت بروقها حاشية السحاب، ووشّت لم الجبال الشائبة
توشية الخضاب، وهدرت رعودها الصائلة، ووفت عهودها السائلة، وتوالت مدة
لا يكشف فيها سماء، ولا يكشف بأيام الثلوج المصبحة ظلماء، ودامت أياماً لا
تفصل فصالها عن سحائب، ولا تولد بكرة يوم إلا وهي في طفولتها شائبة
النواصي والذوائب، هذا ولا تصبح صبيحة ضاحك إلا ووجه الأرض عبوس،
ومعطف السماء في لبوس بؤس، وقوس السحاب ترمي بقسي مالها وتر، وغدُر
الثلج الصافية كالبلور كلها كدر، والسقوف وقد أرقها المطر فأنهرها، والطرق قد
عرفها اللثق ونكرها، والبرد قد اشتد كلبه، ولهذا غطى جمده الماء، ولم يشترف
حتى شرب العذب البارد ممزوجاً بمثل الدماء.

فكتبت إليه:

كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل يرعب مقدمه، ويرهب
تقدمه، ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه؟ وكيف حاله مع رعوده
الصارخة، ورياحه النافخة، ووجوه أيامه الكالحة، وسرر لياليه التي لا تببت منها
بليلة صالحة وسحابه وأمواجه وجليده، والمشى فوق زجاجه، وتراكم مطره
الحثيث، وتطاوّل فرع ليله الأثيث، ومواقده السود الممقوتة، وذائب جمره المحمر،
وأهون بها ولو أن كل حمراء ياقوتة، وتحدر نؤيه المتصعب، وتحير نجمه
المتصوب؟ وكيف هو مع جيشه الذي ما أطل حتى نصب مضارب غمامه،

(١) الوافي بالوفيات ٣٥٨/٢ والمستطرف ٩٥/٣.

وظلل الجو بمثل أجنحة الفواخت من أعلامه؟ هذا على أنه عرّى الأبنية، وحلل
 مما تَلَفَ ذَمُّهُ سالف الأشتية، فلقد جاء من البرَد بما رضى العظام وأنخرها، ودق
 فخارات الأجسام وفخرها، وجمد في الفم الريق، وعقد اللسان إلا أنه^(١) لسان
 المنطيق، ويبس الأصابع حتى كادت أغصانها توقد حطباً، وقيد الأرجل فكانت
 لا تمشي إلا تتوقع عطباً، وأتى الزمهرير بجنودٍ ما للقوي بها قبل، وحمل
 الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصمهم منه من قال: ﴿سأوي إلى جبل﴾^(٢)،
 ومدّ من السيل ما استبكي العيون إذا جرى، واجتحف ما أتى عليه وأول ما بدأ
 الدمع بالكرى، فكيف أنت ياسيدي في هذه الأحوال؟ وكيف أنت في مقاساة
 هذه الأهوال؟ وكيف رأيت منها ما شيب بثلجه نواصي الجبال؟ وجاء من البحر
 فتلقف ثعبانه ما ألقته هراوات البروق من عصبي، وخيوط السحاب من حبال؛
 أما نحن فبين أفواج من السحب تزدحم، وفي رأس جبل لا يعصم فيه من الماء
 إلا من رحم؛ وكيف سيدنا مع مجامر كانون وشرار برقها القادح، وهم ودقها
 الفادح، وقوس قزحها المتلون؟ رد الله عليه صوائب سهامه، وبدّلنا منه بوشائع
 حُلل الربيع ونضارة أيامه، وجعل حظ مولانا من لوافحه ما يذكيه دهنه من
 ضرامه، ومن سوافحه ما يولده فكره من تؤامه، وعوضنا وإيَّاهُ منه بالصيف إذا
 أقبل، وأراحنا من هذا الشتاء، ومشى غمامه المتبختر بكمه المسبل.

فكتب إلي جواباً:

وينهي ورود هذه الرقعة التي هي طرازٌ في حلة الدهر، والحديقة التي تذكّر
 بزمّن الربيع وما تهديه أيامه من أنواع الزهر، فوقف منها على الروض الذي
 تهدلت فروعُ غصونه بالأثمار، ونظر منها إلى الأفق الذي كلُّ كواكبه شمسٌ

(١) لعل الصواب: ولو أنه

(٢) سورة هود: ٤٣.

وأقماراً ، فأنشأت له أطرابه، وأعلمته أن قلم مولانا يفعل بالألباب مالا تفعله
 نغمات الشبابة، وأرشفته سلفاً كورسها الحروف، وكل نقطة حباية ؛ وشاهد
 أوصاف هذه الأيام المباركة القدوم، المتصلة الظلام ، فلا أوحش الله من طلعة
 الشمس ، وحواجب الأهلة، وعيون النجوم، فما لنا ولهذه السحائب السحابة،
 والرعود الصخابة، والبروق اللهابة، والغمام السكابة، والثلوج التي أصبحت
 بحصبائها حصابةً والبرد الذي أمست إبره لغضون الجلود قطابةً، والزميتا التي لا
 تروي عن أبي ذرٍ ، إلا ويروي الغيث عن أبي قلابه، كلما أقبلت فحمة ظلامٍ
 قدحت فيها البوارق جمرتها، وكلما جاءت سحابةٌ كحلاء الجفون رجعت وهي
 مرهاء لما أسبلت من عبرتها، فما هذا طوبة^(١)، إن هذا إلا جبل ثهلان، وما هذا
 كانونٌ، إن هو إلا تنور الطوفان، التي متى قطن هذه الثلوج يطرح على حباب
 الجبال ، وإلى متى تفاض دلاص الأنهار، وترشقها قوس قزح بالنبال؟ وإلى متى
 تشقق السحاب مالها من الحُلل والحبر؟، وإلى متى ترسل خيوط المزن من الجو
 وفي أطرافها على الغدران إبر؟ وإلى متى تجمد عيون الغمام وتلحها البروق
 بالنار؟ وإلى متى نثار هذه الفضة وما يُرى للنجم ديناراً؟ وإلى متى نحن نحنو
 على النار حنو المرضعات على الفطيم؟^(٢) وإلى متى تبكي هذه الميازيب بكاء
 الأولياء بغير حزن، إذا استولوا على مال اليتيم؟^(٣) وإلى متى هذا البرق تتلوى
 بطون حياته، وتتقلب حماليق العيون المحمرة من أسود غاباته؟ وإلى متى يزمجر
 عتب هذه الرياح العاصفة؟ وإلى متى يرسل الزمهرير أعواناً تصبح بها حلاوة

(١) طوبة : من شهور القبط ، يبدأ يوم الخامس والعشرين من كانون الأول . (الأزمنة والأنواء لابن الأجدابي ١٤٣) .

(٢) من قوله حمدونة الأندلسية أو المنازي : [وفيات الأعيان ١ / ١٤٣]

حللنا دوحه فحننا علينا حنو المرضعات على الفطيم .

(٣) هو بيت من الوافر:

بكاء الأولياء بغير حزن إذا استولوا على مال اليتيم

الوجوه تالفة؟ أترى هذه الأمطار تقلب من أزيارٍ؟ أم ترى هذه المواليد تنتهي فيها الأعمار؟ كم من جليدٍ يذوب له قلبُ الجليد، ويرى زجاجه الشفاف أصلب من الحديد! وكم من وحلٍ لا تمشي هريرة فيه الوجي^(١)، وكم من بردٍ لا ينتطق فيه نرم الضحى! اللهم حوالينا ولا علينا، لقد أضجرنا تراكم الثياب، ومقاساة مال هذه الرحمة من العذاب، وانجماع كلٍّ عن إلفه، وإغلاق باب القباب، وتخلل الضباب زوايا البيوت، والأطفال ضباب الضباب، كل ضبٍّ منهم قد لزم باطن نافقائه، وقدم بين يديه الموت بداية بدائه، قد حسد على النار من أمسى مذنباً وأصبح عاصياً، وتمنى أن يرى من فواكه الجمرات عناباً أو قراصيا، فإن كانت هذه الأمطار تكاثر فضائل مولانا، فيا طول ما تسفح، وإن كانت العواصف تتشبه ببأسه، فيا طول ما تلفح، وإن كانت البروق تحاكي ذهنه المتسرع، فيا طول ما تتألق، وإن كانت قوس قزحٍ تتلون خجلاً من طروسه، فيا طول ما تتألق، وإن كانت الرعود تحكي جوانح أعاديته، فيا طول ما تفهق وتشهق، وإن كانت السيول تجري وراء جوده، فيا طول ما تجري على طول المدى وما تلحق؛ والأولى بهذا النوء الباكي أن لا يحاكي، والأليق بهذا الفصل المبغض ألا يتعرض؛ ورحم الله من عرف قدره، وكفى الناس شره، وتحقق أن مولانا في هذا الوجود ندرة.

فأجبتة :

وقف لمواقع القلم الشريف ووقف عليه، وتيمن بمجرد إقباله إليه، وقبلةً لقرب عهده بيديه، وعده لجلالة المرة لما أمره على عينيه، لا برج الشهد من جني ريقه

(١) إشارة إلى قول الأعشى : [ديوانه ١٠٥]

ودع هريرة إن الركب مرتحلٌ وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ

وفيها :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الرجى الرجلُ

المُعلل، والطرب بكأس رحيقه المحلل؛ والتيه وحاشاه منه في سلوك طريقه المدلل،
والجهد - ولو كلف - لا يجيء بمثل سيره المدلل، والسحاب لا يطير إلا بجناح
كرمه المبلى، والروض لا يبرز إلا في ثوب زخرفه المحلل، والبرق لا يهتز إلا في مثل
ردائه المشلل، والنصر يفضي لمواضيه على حد حسامه المفلل، والفجر لولا بيانه
الوضاح لما أُرشد دليله المضلل، والبحر لولا ما عرف من عبابه الزاخر لما ذم على
غزر المادة نواله المقلل، والفخر - ولو شمش بآنفه - لا ينافس عقده الموشح، ولا
يتناول إلى تاجه المكلل، وفهمه فهام، وعلمه فزاد صقال الأفهام، وقصر عن
معرفته فما شك أنه إلهام، وانتهى في الجواب إلى وصف أنواء تلك الليلة
الماطرة، وما موهت به السحب من ذهب برقها، وقتلت الأنواء من خيوط ودقها،
ونفخت فيه الرياح من جمر كانونها، وأظهرت حقيقته الرعود من سرّ مكنونها،
وما تبثه عارضة ذلك العارض الممطر الذي هو أقوى من شآبيبها، وأوقى مما
أرقته^(١) السّماء من جلابيبها، وأسرى من برقها المومض في غرابيبها، وأسرع من
سرى رياحها وقد جمعت أطواق السحب وأخذت بتلابيبها؛ وسبح الملوك من
عجب لهذه البلاغة التي كملت الفضائل، وفضلت عن العلم وفي الرعيّل الأول
علم الأوائل، وفضلت مبدعها وحق له التفضيل، وآتته جملة الفضل وفي
ضمنها التفضيل، وانطلقت لسان بيانه وأخرست كل لسان، وأجرت قلم كرمه
وأحرزت كل إحسان، ونشرت علم علمه وأدخلت تحته كل فاضل، وأرهفت
شبا حده وقطعت به كل مناظر وكل مناضل، وقالت للسحاب: إليك - وقد
طبق - إليك، فإن البحر قد جاءك؛ وللنوء - وقد أغدق - تنح، فإن الطوفان قد
ضيق أرجاءك؛ وللرعد وقد صرخ: اسكُتْ، فقد آن لهذه الشقاشق أن تسكت؛
وللبرق وقد نسخ آية الليل: استدرك غلطك، لئلا تبكت؛ أما ترى هذه العلوم

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: أخته، أو أراقته.

الجمّة وقد زخر بحرها، وأثر في الأبواب سحرها، وهذه الفضائل وكيف تفننت فنونها، وفتنت عيونها، وتهدلت بالثمرات أفنانها، وتزخرت بالمحاسن جناتها، وهذه الألمعية وكيف ذهبت الأصائل، وهذه اللوزعية وما أبقّت مقالاً لقائل، وهذه البراعة التي فاضت وكلُّ منها سكران طافحٌ، وهذه الفصاحة وما غادرت بين الجوانح، وهذه البلاغة التي سالت بأعناق المطي بها الأباطح^(١)، وهذه الحكم البوالغ، وهذه النعم السوابغ، وهذه الهمم التي ترقّت بتوجهها إلى السماء، فكشفت غياية عارضها، وكفت غواية البرق وقد ولع خط مشبيه بخط عارضها، حتى جلاها وأضحّاها، ﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾^(٢) وجلا صدأ تلك الليلة عن صفيحة ذلك اليوم الشمس، وبدل بذلك الصحو المطيع من ذلك الغيم المؤنس، وأترع غدیر ذلك النهار خالصاً من الرنق، وضوّع غير ذلك الثرى خالياً من اللثق، وأطلع شمس ذلك اليوم يوشع جانب مشرقها، ويوشى بذائب الذهب رداء أفقها.

كما قلتُ: [السريع]

كأنما اليوم وقد موهت مشرقه الشمس ولا جاحدٌ
ثوبٌ من الشرب ولكنه طُرزَ منه كُثمُه الواحدُ

أستغفر الله، بل ذلك بشر ذلك البشر، بل الملك الكريم وصفيحة وجهه المتهلل الوسيم، لا بل صفيحة^(٣) عمله وصفيحة أمله، وأتمودج راية الثناء عليه، وصنويده البيضاء وصنع يديه؛ فله تلك اليد المقبلة، ولله تلك اليد المؤملة،

(١) من قول كثير عزة: [ديوانه ٥٢٥]

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

(٢) سورة النازعات: ٢٩.

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب: وصحيفة.

ولله تلك المواهب المجزلة ، ولله تلك الراحة التي لا تقاسُ بأتملةٍ ، ولله ذلك البنان الساحرُ ، ولله ذلك البيانُ الساهرُ ، ولله ذلك اللسانُ المُدربُ ، وذلك البحر الزاخر ، ولله ذلك الإنسان الذي طال باع عمله وطار ، فأوقد ضرام ذلك الصحو شعاع فهمه ، وطاب جنبي ثمره وجناب حلمه ، وطاف الأرض صيته ، ونفق كاسد الفضائل باسمه ؛ لقد ألبس المملوك رداء الفخار ، وعرفه العوم وكان لا يطمع أن يشق بحره الزخار ، ومحى عنه صبغ دجنة تلك الليلة ، وفرج عنه لباس تلك السحب وقد ضم عليه ذيله ، وفرق ذلك النور المعتلج وقد جاره جفنه ، وأجرى مثله سبكه ، وأطلق لسانه من الاعتقال ، وأنطق بيانه فقال ، وحمى له هجير الذكاء فقال ، ووقفه ولولا إيقافه لغبر على آثاره في وجهه من سبق .

فكتب هو الجواب : [الكامل]

ويرف في روض البيان خمائلا	جاء الجواب يزف منه فواضلا
يامن غدا بحرا يموج فضائلا	أغرقت غر السحب حين وصفتها
ما أرسلت تلك السطور جداولا	لو لم تكن يميناك بحراً زاخراً
أخرجته فيعود ضرباً داخلا	ضرب من السحر الحلال متى تشأ
إلا وزان مشاهدا ومحافلا	ما إن جلا راويه بحر بيانه
والنجم أقرب من مداه تناولا	فمتى يروم به اللحاق مُقصر
برج حوى معناه أفقاً كاملا	أبرزته أفقا فكل قرينة
أمست معانيها تصيح بلا بلا	فكأنما تلك الحروف حدائق
والسطر فيه غدا عذاراً سائلا	وكان ذاك الطرس خد رائق
وتركتني بعد التحلي عاطلا	مهلاً أبا العباس قد أفحمتني
هل كنت تحسب أن تجيب الفاضلا	بالله قل لي عندما سطرته
ماكان ضم على اليراع أناملا	أقسمت لو جارك في إنشائه

حركت منك حميةً عدويةً
 كم فيه من لامٍ كلامة فارسٍ
 هل شئت أن تُنشئ الجواب سحابةً
 يافارس الإنشاء رفقا بالذي
 لو رام أن يجري وراءك خطوةً
 فاحبس عنانك قد تجاوزت المدى
 والفاضل المسكين أصبح فيه
 فاسلم لتبليغ النفوس مرامها
 كم فيك لي أملٌ يروق لأنني
 وكتبت أنا الجواب إليه: [الكامل]

وافى الكمي بها يهز مناصلاً
 سبق الظلام بها ونبه ليله
 حمراء قانيةً يذوب شعاعها
 حمراء قانيةً تحث كؤوسها
 ذهبيةً ماعرق عانة كرمها
 كف كمنبجس النوال كأنما
 كرم خليلي يمد سماطه
 ولهيب فكرٍ لو تطير شرارةً
 يذكي به في كل صبحه قرّةً
 عجباً له من سابقٍ متأخرٍ
 دانوه في شبهٍ وماقيسوا به
 مائل به البحر الخضم فيّانه

ملأت فضاء الطرس منك جحافلا
 قد هز من ألفات خطك ذابلا
 تندى فجاءت منك سيلاً سائلاً
 نازلته يوم الترسل راجلا
 نصبت له تلك الحروف حبائلا
 وتركت سحبان الفصاحة باقلا
 من بعد ماقد راح فينا خاملا
 فالدهر في أبواب فضلك ماثلا
 أدري بأنك لا تُخيب آملًا

ويرم صبغاً للشبيبة ناصلا
 ولو انه في الفجر حلى العاطلا
 وترى حصا الياقوت فيها سائلا
 وقع الصوارم والوشيج الذابلا
 لكنهما كف الكريم شمائلًا
 دفع السيول تمد منه نائلًا
 ويشب ناراً للقري وفواضلا
 منه لما بل السحاب الوابلًا
 فهماً لتيران القرائح آكلًا
 فات الأواخر ثم فات أوائلًا
 من ذا تراه للغمام مساجلا
 لا يرتضي خلقاً سواه ممائلًا

وافت عقيلتنه ولو بدأ امرؤ
 جاءت شبيه الخود في حللٍ لها
 قد خضبت بدم الحسود أما ترى
 حللٌ على سحبان تسحب ذيلها
 خلت الهلال يلوح طلع نقابها
 بنت القريحة ما ونت في خدرها
 جاءت تصوغ من العناق أساوراً
 قبلتها وأعدت تقبيلي لها
 وأنت وجيش النوء مرهوب السطا
 والبرق مشبوب الضرام لأنه
 وأنت ورأس الطود يشكولمة
 وكأنما نثرت قراضة فضة
 ملأت به كل الفضاء فلا ترى
 والأفق كالكأس المفضض ملؤه
 أبناء يوم قد تفهق ضوءه
 والجو منخرق القميص كأنه
 والسيل منحدر يسيل مهنداً
 لله أنت أبا الصفاء فإنني
 أنت الذي حلقت صقراً أجداً
 يامن ينفق سوق كل فضيلة

فيها استقل من البروج معاقلا
 حُمِر بتذهيب الحدود لها حُلَى
 أثر السواد بها عليه دلائلا
 وتجمر من طرف الذبول الفاضلا
 حتى نضت فرأيت بدرأ كاملاً
 حُسْنُ المليحة أن تواصل عاجلا
 لا بل تخوض من السيول خلاخلا
 إن المتيم لا يخاف العاذلا
 ملأ الوجود له قناً وقنابلا
 صاد الغزالة حيث مد حبالا
 قد عمت بالثلج شيباً شاملاً
 أيدي البروق وقد خرقت أناملا
 إلا لجيناً جامداً أو سائلا
 صهباء قد عقدت حباباً جائلا
 وبدا ذبالاً في الأصائل ناحلا
 حنقٌ يقدر من السحاب غلائلا
 إفرنده ذهبٌ يمد سلاسل
 ألقى خليلاً منك لي ومخاللا
 وصممت في برديك ليثاً باسلا
 إسار فما أبقيت بعدك فاضلاً^(١)

[فكتب هو الجواب]: [الخفيف]

يا فريداً ألفاظه كالفريد	ومجيداً قد فاق عبد الحميد ^(١)
وإمام الأنام في كل علم	وشريكاً في الفضل للتوحيدي
عرف العالمون فضلك بالعد	-م وقال الجهال بالتقليد
من تمنى بأن يرى لك شبهها	رام نقضاً بالجهل حكم الوجود
طال قدري على السماكين لما	جاءني منك [عقد] درٍ نضيد ^(٢)
شابه الدر في النظام ولما	شابه السحر شاب رأس الوليد ^(٣)
هو لغزٌ في ذات خدرٍ منيع	نزلت في العلى بقصر مشيد
هي أم الأمين ذات المعالي	من بني هاشمٍ ذوي التأييد
أنت كنت البادي لمعناه حقاً	حين لوحث لي بذكر الرشيد

* وهذا آخر من ختمنا به أهل قطرنا أحياءً وأمواتاً، ولا حفلة بمن تخطيناه فواتاً، إذ كان هؤلاء هم أعيان القوم ، من أول هذه الملة وإلى اليوم، ممن اشتهر لعلو قدره أو لغلو دره، وثم بقايا ماحلوا مع أحد هذين، ولا كانوا في قسميها اللذين .

وهذه جملةٌ كافيةٌ في الكتاب المشارقة، وإنما أطلعنا من شمسهم شارقةً ، وهي دالةٌ على مابعدھا من نهارٍ يطنبُ في الخافقين، ويطيبُ ملائتي النيرين الشارقين .

(١) عبد الحميد ، كذا في الأصل، وأراه يقصد عبد الحميد، الكاتب الأموي المعروف .

(٢) الزيادة لازمة لإقامة الوزن والمعنى .

(٣) الوليد : هو البحتري .

آخر السفر الثاني عشر من «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» ويتلوه إن شاء الله تعالى في السفر الثالث عشر، : فأما الكتاب المغاربة، وما لهم من نجومٍ غير غارية.

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه الطيبين، الطاهرين؛ حسبنا الله ونعم الوكيل . هـ(*) .

(*) يقول محققه إبراهيم بن حسين بن صالح: وكان الفراغ من تحقيق هذا الجزء المبارك، عصر الأحد، الحادي عشر من شهر ذي القعدة الحرام، سنة ١٤٢١ من هجرة سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، الموافق للربيع من شهر شباط، سنة ٢٠٠١ من ولادة السيّد المسيح عليه السلام. حامداً لله تعالى على نعمه، ومُصلّياً على خيرته من خلقه ومُسلماً. والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات.

فهرس المترجمين

الصفحة	المترجم
9	١ أبو اسحاق، الصابي
38	٢ أبو محمد، عبد الله بن عمر بن محمد الفياض
39	٣ الحريري، أبو محمد، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان
53	٤ أبو الفرج، عبد الواحد بن نصر بن محمد، الخزومي، المعروف بالبيغاء
67	٥ بديع الزمان الهمذاني
119	٦ أبو نصر العُتبي
124	٧ الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، أبو إسماعيل، مؤيد الدين، الطغرائي
135	٨ أبو علي، الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشخباء العسقلاني
140	٩ القاضي الفاضل، محيي الدين، أبو علي، عبد الرحيم بن علي بن الحسن العسقلاني
253	١٠ محمد بن محمد، عماد الدين، أبو حامد القرشي الأصبهاني
269	١١ نصر الله بن محمد بن محمد، ضياء الدين، أبو الفتح ابن الأثير الجزري
312	١٢ ابن زبادة، قوام الدين، أبو طالب، يحيى بن سعيد بن هبة الله الشيباني
314	١٣ شهاب الدين النسائي، أبو المؤيد، محمد بن أحمد بن علي الخرندزي

- ١٤ ابن أبي الحديد، عز الدين، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المدائني 318
- ١٥ أخوه: موفق الدين، القاسم بن هبة الله، أبو المعالي، المدائني 323
- ١٦ ابن بَصَاقَة، أبو الفتح، نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي الغفاري 325
- ١٧ محمد بن نصر الله بن محمد بن محمد، أبو عبد الله، الشيباني 337
- ١٨ ابن قرناص، محيي الدين، الحموي 346
- ١٩ ابن العجمي، كمال الدين، أحمد بن عبد العزيز الحلبي، أبو العباس 348
- ٢٠ ابن الأثير الحلبي، تاج الدين، أبو جعفر، أحمد بن سعيد 351
- ٢١ شهاب الدين، أبو محمد، يوسف بن أحمد بن عبد العزيز العجمي 362
- ٢٢ أحمد بن محمود الشيباني، كمال الدين، أبو العباس، ابن العطار 365
- ٢٣ محمد بن عبد الله، أبو محمد، ابن القيسراني، القرشي 393
- ٢٤ محمود بن سلمان بن فهد الحلبي، شهاب الدين، أبو الثناء 397
- ٢٥ علي بن محمد بن سلمان بن حمائل، علاء الدين، أبو الحسن 447
- ٢٦ عبد الباقي بن عبد المجيد بن متى بن أحمد، القرشي، الخزومي، اليماني 454
- ٢٧ عبد الله بن علي بن محمد بن سلمان، ابن غانم، أبو الفضل المقدسي 461
- ٢٨ زين الدين الصفدي، أبو حفص، عمر بن داود بن هارون الحارثي 469
- ٢٩ خليل بن آيبك الصفدي، أبو الصفاء، صلاح الدين 480

فهرس المصادر المعتمدة في الحواشي

[المخطوطة والمطبوعة]

- آداب الملوك، للثعالبي، تحقيق د. جليل العطية، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م.
- اتعاض الحنفا، للمقرئزي، ط. د. جمال الشيال ومحمد حلمي أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧م.
- أحسن ما سمعت، للثعالبي، تحقيق: أحمد تمام وسيد عاصم، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٨٩م.
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء = تاريخ الحكماء.
- الأزمنا والأنواء، لابن الأجدابي، تحقيق د. عزة حسن، ط. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٤م.
- أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، ط. مطبعة أولاد أرفاند، القاهرة ١٩٥٣م.
- أسرار الحكماء، لياقوت المستعصمي، تحقيق سميح صالح، ط. دار البشائر، دمشق ١٩٩٤م.
- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، لليمانى، تحقيق د. عبد المجيد دياب، ط. مركز الملك فيصل ١٩٨٦م.
- أشعار اللصوص، جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي، ط. دار الحضارة الجديدة،

بيروت ١٩٩٣م.

– الإعجاز والإيجاز، للشعالبي، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار البشائر، دمشق ٢٠٠١م.

– أعيان العصر، للصفاي، تحقيق د. علي أبو زيد وزملائه، طه. دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.

– الأغاني، للأصفهاني، مصورة دار الكتب المصرية، والهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

– الأمالي، للقالبي، تحقيق عبد المجيد الأصمعي، مصورة دار الكتب المصرية، ط، المكتب التجاري، بيروت.

– الأمثال والحكم، للرازي، تحقيق د. فيروز حريجي، ط. المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ١٩٨٧م.

– إنباه الرواة، للقفاي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار الكتب المصرية ١٩٥٢م.

– الأنساب، للسمرقاني، تحقيق عبد الرحمن العلمي وغيره، ط. أمين دمج، بيروت ١٩٨٠م.

– أنساب الخليل، لابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي، ط. القاهرة ١٩٦٥م.

– البغاء، حياته، ديوانه، رسائله، قصصه؛ جمع وتحقيق هلال ناجي، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٩٨م.

– بدائع البدائ، لابن ظافر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية – صيدا ١٩٩٢م.

- البداية والنهاية ، لابن كثير، تحقيق د. عبد المحسن التركي، ط. دار هجر ،
الرياض ١٩٩٧م.
- برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ ، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت
١٩٨٢م.
- بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم، تحقيق د. سهيل زكار ، ط. دار
البعث ،دمشق ١٩٨٨م
- بغية الوعاة، للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. الحلبي،
القاهرة ١٩٦٤م
- البلغة في تاريخ أئمة اللغة، للفيروز أبادي، تحقيق محمد المصري، ط. وزارة
الثقافة بدمشق ١٩٧٢م.
- بهجة المجالس ، لابن عبد البر، تحقيق د. محمد مرسى الخولي، ط. القاهرة
١٩٦٢م.
- البيان والتبيين، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- تاريخ الإسلام، للذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام التدمري، ط. دار الكتاب
العربي ، بيروت ١٩٨٦م.
- تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي، تحقيق حامد الفقي، ط. المكتبة السلفية،
المدينة المنورة.
- تاريخ الحكماء ، للقفطي، ط المتنبي، القاهرة (بلا تاريخ).
- تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار صادر - بيروت
١٩٩٧م.

- تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق عدد من المحققين، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق. (لم يتم).
- تاريخ الطبري، للطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م.
- تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق د. عدنان درويش، ط. المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٩٤م.
- تاريخ ابن الوردي، ط. القاهرة ١٢٨٥هـ.
- تالي وفيات الأعيان، للصقاعي، تحقيق جاكليين سوبليه، ط. المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٧٤م.
- التذكرة الحمدونية، لابن حمدون، تحقيق د. إحسان عباس وأخيه، ط. دار صادر، بيروت ١٩٩٦م.
- تذكرة النبیه، لابن حبيب، تحقيق محمد أمين، ط. دار الكتب المصرية ١٩٧٦م.
- ترويح القلوب بذكر الملوك بني أيوب، للزبيدي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط. المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٦٩م.
- التطفيل، للخطيب البغدادي، تحقيق : د. عبد الله عسيلان، ط. دار المدني، جدة ١٩٨٦م.
- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، محمد قنديل البقلي، ط. الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٤م.
- تعريف ذوي العلا، للتقيّ الفاسي، تحقيق محمود الأرنؤوط وأكرم البوشي،

- ط. دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.
- تكملة إكمال الإكمال ، لابن الصابوني، تحقيق د. مصطفى جواد، ط. عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٦م.
- التكملة في وفيات النقلة، للمندري، تحقيق د. بشار عواد معروف ، ط. الرسالة، بيروت ١٩٨١م.
- تكملة المعاجم العربية ، لدوزي ، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، ط. وزارة الثقافة، بغداد ١٩٧٨م.
- تلخيص مجمع الآداب ، لابن الفوطي، تحقيق د. مصطفى جواد، ط. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٣م.
- تلخيص مجمع الآداب ، لابن الفوطي، تحقيق محمد الكاظم، ط. وزارة الثقافة ، طهران ١٤١٦هـ.
- تمام المتون، للصفدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. القاهرة ١٩٦٩م.
- التمثيل والمحاضرة، للشعالبي، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو، ط. الحلبي، القاهرة ١٩٦١م.
- التنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة الأصبهاني، تحقيق د. محمد أسعد طلس، ط. المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٦٨م.
- توضيح المشتبه، لابن ناصر، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط. الرسالة ، بيروت ١٩٩٣م.
- ثمار القلوب ، للشعالبي ، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار البشائر ، دمشق ١٩٩٤م.

- ثمرات الأوراق، للحموي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧١م.
- الجامع الكبير، للترمذي، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م.
- جمهرة الإسلام، للشيزري، نسخة مجمع اللغة العربية بدمشق.
- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، تحقيق عبد السلام هارون، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.
- الجواهر المضية، لابن أبي الوفا القرشي، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو، ط. دار هجر، الرياض ١٩٩٣م.
- حسن المحاضرة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م.
- الحوادث، لمؤلف مجهول، تحقيق د. بشار عواد معروف، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٧م.
- حياة الحيوان، للدميمري، ط. انتشارات ناصر خسرو، طهران.
- الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط. الحلبي، القاهرة ١٩٦٥م.
- خاص الخاص، للشعالبي، تحقيق : د. صادق النقوي، ط. دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٩٨٤م.
- خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، (قسم مصر) تحقيق : أحمد أمين وزملائه

- ط . لجنة التأليف، القاهرة.
- خريدة القصر، للعماد الأصبهاني، (قسم العراق) تحقيق : محمد بهجة الأثري، ط . بغداد.
- الدارس في تاريخ المدارس، للنعمي، تحقيق جعفر الحسيني، ط . المجمع العلمي العربي، دمشق.
- الدرر الكامنة، لابن حجر، ط . دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ مصورة الهند .
- الدر المنضد، للعلمي، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، ط . مكتبة التوبة، الرياض ١٩٩٢م.
- الدليل الشافي ، لابن تغري بردي، تحقيق فهم شلتوت، ط . جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٨٣م.
- ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد محمد حسين، ط . الرسالة، بيروت ١٩٧٣م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط . دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ديوان أوس بن حجر، تحقيق د . محمد يوسف نجم، ط . دار صادر ، بيروت ١٩٦٧م.
- ديوان البُحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م.
- ديوان بديع الزمان الهمذاني ، تحقيق يسري عبد الله، ط . دار الكتب العلمية

بيروت ١٩٨٧م.

– ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، ط. الشركة التونسية ، تونس ١٩٧٦م.

– ديوان أبي بكر الخوارزمي، تحقيق د. حامد صدقي، ط. نشر التراث المخطوط ، طهران ١٩٩٧م.

– ديوان أبي تمام، بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٥١م.

– ديوان جرير، بشرح ابن السكيت وغيره، تحقيق محمد نعمان أمين طه، ط. الحلبي ، القاهرة.

– ديوان جميل بثينة ، تحقيق عبد الستار فراج، ط. نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٧م.

– ديوان الحارث بن حلزة، تحقيق د. إميل يعقوب ، ط. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١م.

– ديوان ابن الحجاج، نسخة دار الكتب المصرية (شعر تيمور ٦٠٦).

– ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د. وليد عرفات، ط. دار صادر ، بيروت ١٩٧٤م.

– ديوان الخالدين، تحقيق د. سامي الدهان، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٩م.

– ديوان الخنساء، بشرح ثعلب، تحقيق د. محمد أنور أبو سويلم، ط. دار عمار، عمان ١٩٨٨م.

- ديوان ابن الخياط الدمشقي، تحقيق خليل مردم بك. ط. دار صادر، بيروت ١٩٩٤م.
- ديوان أبي دهل الجمحي، رواية أبي عمرو الشيباني، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن، ط. مطبعة القضاء، النجف ١٩٧٢م.
- ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٧م.
- ديوان ابن زيدون، تحقيق علي عبد العظيم، ط. مكتبة نضهة مصر ١٩٥٧م.
- ديوان الشريف الرضي، ط. وزارة الإرشاد الإسلامي، إيران ١٤٠٦هـ.
- ديوان أبي الشيص الخزاعي، صنعة: عبد الله الجبوري، ط. المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٨٤م.
- ديوان صريع الغواني، بشرح الطبيخي، تحقيق د. سامي الدهان، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.
- ديوان الصنوبري، تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.
- ديوان طرفة بن العبد، بشرح الشنتمري، تحقيق لطفي الصقال ودريّة الخطيب، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٥م.
- ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق د. عزة حسن، ط. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٨م.
- ديوان الطغرائي، تحقيق د. علي جواد ود. يحيي الجبوري، دار الحرية، بغداد ١٩٧٦م.
- ديوان ظافر الحداد، تحقيق د. حسين نصار، ط. مكتبة مصر ١٩٦٩م.

- ديوان عبد الصمد بن المعذل ، تحقيق د. زهير زاهد ، ط. دار صادر ، بيروت ١٩٩٨م.
- ديوان أبي العتاهية، تحقيق د. شكري فيصل ، ط. جامعة دمشق ، ١٩٦٥م.
- ديوان عدي بن الرقاع العاملي، بشرح ثعلب، تحقيق د. نوري القيسي ود. حاتم الضامن، ط. المجمع العلمي العراقي ١٩٨٧م.
- ديوان عروة بن الورد ، بشرح ابن السكيت، تحقيق محمد فؤاد نعناع ، ط. دار العروبة، الكويت ١٩٩٥م.
- ديوان العماد الأصبهاني ، جمع وتحقيق د. ناظم رشيد، ط. جامعة الموصل ١٩٨٣م.
- ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي ، ط ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٧م.
- ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق د. محمد التونجي ، ط. المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ١٩٨٧م.
- ديوان القاضي الفاضل، تحقيق د. أحمد أحمد بدوي ، ط. وزارة الثقافة، القاهرة ١٩٦١م
- ديوان القطامي ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب ، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠م.
- ديوان كثير عزة، تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٧١م.
- ديوان كشاجم، تحقيق د. النبوي شعلان، ط. الخانجي ، القاهرة ١٩٩٧م.
- ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق د. إحسان عباس، ط. الكويت ١٩٨٤م.

- ديوان المتنبي، بشرحه المنسوب إلى العكبري، وهو لابن عدلان، تحقيق مصطفى السقا وزملائه، ط. الحلبي، القاهرة ١٩٧١م.
- ديوان مجنون ليلى، تحقيق عبد الستار فراج، ط. نهضة مصر، القاهرة.
- ديوان المعاني، للعسكري، تحقيق القدسي، ط. القدسي. القاهرة.
- ديوان ابن المعتز، تحقيق د. محمد بديع شريف، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.
- ديوان المقنع الكندي (ضمن شعراء أمويون) تحقيق د. نوري حمودي القيسي، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٨٧م.
- ديوان منصور النمرى، جمع وتحقيق الطيب العشاش، ط. مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م.
- ديوان النابغة الذبياني، بشرح ابن السكيت، تحقيق د. شكري فيصل، ط. دار الفكر، بيروت ١٩٨٠م.
- ديوان نصيب بن رباح، جمع وتحقيق د. داود سلوم، ط. مكتبة الأندلس، بغداد ١٩٦٨م.
- ديوان أبي نواس، بشرح حمزة الأصبهاني، تحقيق إيفالد فاغنر، ط. فيسبادن (لم يتم).
- ديوان يزيد بن الطثيرة، جمع وتحقيق د. ناصر الرشيد، ط. دار الوثبة، دمشق.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.

- ذكر أخبار أصفهان، لأبي نعيم الأصفهاني، تحقيق ديدرنغ، ط. ليدن ١٩٣٤م.
- الذيل الثام على دول الإسلام، للسخاوي، تحقيق حسن مروة، ط. دار العروبة، الكويت ١٩٩٢م.
- الذيل على الروضتين، لأبي شامة، ط. دار الجليل، بيروت ١٩٧٤م.
- الذيل على العبر في خبر من عبر، لابن العراقي، تحقيق: صالح مهدي عباس، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩م.
- ذيل مرآة الزمان، لليونياني، ط. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ١٩٩٢م.
- ذيل العبر، للذهبي والحسيني، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب، ط. مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٦م.
- ربيع الأبرار، للزمخشري، تحقيق د. محمد سليم النعيمي، ط. دار الذخائر، إيران.
- الرسائل، لابن الأثير، تحقيق أنيس المقدسي، ط. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٩م.
- رسائل بديع الزمان الهمداني، بشرح الأحذب، ط. دار التراث، بيروت.
- رسائل الحريري، نسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، رقم ٦٢ أدب.
- رسائل الصابي والشريف الرضي، تحقيق د. محمد يوسف نجم، ط. مطبعة حكومة الكويت ١٩٦١م.
- الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة، تحقيق إبراهيم الزبيق، ط. الرسالة، بيروت ١٩٩٧م.

- زهر الآداب ، للحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، ط. دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٩م.
- سرح العيون ، لابن نباتة المصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦٤م.
- سنا البرق الشامي، للبنداري، تحقيق د. رمضان ششن، ط. دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧١م.
- سنن الترمذي = الجامع الكبير.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط. المكتبة الإسلامية، استانبول.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط. الرسالة ، بيروت ١٩٨١م.
- سيرة السلطان جلال الدين منكوبرنى ، للنسائي ، تحقيق د. ضياء الدين موسى بونبادوف، ط. موسكو ١٩٩٦م.
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق محمود الأرناؤوط، ط. دار ابن كثير ، دمشق ١٩٨٦م.
- شرح أشعار الهذليين، للسكري، تحقيق عبد الستار فراج، ط. دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥م.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، لثعلب ، تحقيق أحمد زكي العدوي، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٤م.
- شرح مقصورة ابن دريد، للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط. المكتبة

العربية بحلب ١٩٧٨ م.

— شروح سقط الزند، للتبريزي وغيره، تحقيق لجنة إحياء آثار أبي العلاء، ط. القاهرة.

— شعر الخوارج، جمع وتحقيق د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢ م.

— شفاء القلوب، للحنبلي، تحقيق د. ناظم رشيد، ط. دار الحرية، بغداد ١٩٧٨ م.

— صبح الأعشى، للقلقشندي، ط. المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣ م.

— الصُّبح المنبي، للبديعي، تحقيق مصطفى السقا وغيره، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧ م.

— صحيح البخاري، تحقيق محمد ذهني، ط. المكتبة الإسلامية، إستانبول ١٩٧٩ م.

— صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الحديث، القاهرة ١٩٩١ م.

— الصداقة والصديق، للتوحيدي، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، ط. دار الفكر، دمشق ١٩٩٨ م.

— الطالع السعيد، للأدفوي، تحقيق سعد محمد حسن، ط. الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٦ م.

— طبقات الشافعية، للإسنوي، تحقيق د. عبد الله الجبوري، ط. وزارة الأوقاف، بغداد ١٣٩٠ هـ.

- طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق د. محمود الطناحي وغيره، ط. دار هجر، الرياض ١٩٩٢م.
- العبر في خبر من عبر، للذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط. الكويت ١٩٨٤م.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وغيره، ط. لجنة التأليف، القاهرة.
- عقود الجمان، لابن الشعار، (نسخة السليمانية - إستانبول) نشره فؤاد سزكين، ألمانيا ١٩٩٠م.
- عيون الأخبار، لابن قتيبة، تحقيق أحمد زكي العدوي، ط. المؤسسة المصرية العامة، القاهرة ١٩٦٣م.
- الغيث المسجم، للصفدي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥م.
- فصل المقال، للبكري، تحقيق د. إحسان عباس وزميله، ط. الرسالة، بيروت ١٩٧١م.
- الفصوص، لصاعد الأندلسي، تحقيق د. عبد الوهاب التازي سعود، ط. المغرب ١٩٩٣م.
- فضائل الشام ودمشق، للربيعي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط. المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٠م.
- الفوائد والأخبار، لابن دريد، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار البشائر، دمشق ٢٠٠١م.
- فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار صادر،

بيروت ١٩٧٣ م.

- القاموس المحيط، للفيروز أبادي، تحقيق نصر الهوريني، ط. الحلبي ١٩٥٥ م.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري، ط. دار صادر، بيروت ١٩٧٩ م.
- كشف الظنون، لحاجي خليفة، تحقيق الكليسي وبالتقايا، مصورة عن طبعة إستانبول.
- اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير الجزري، ط. دار صادر، بيروت ١٩٨٠ م.
- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله الكبير زملائي، ط. دار المعارف، القاهرة ١٩٨١ م.
- ما يعول عليه في المضاف والمضاف إليه، للمحبي، نسخة دار الكتب الوطنية بتونس.
- مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٥ م.
- محاضرات الأدباء، للراغب الأصبهاني، ط. دار مكتبة الحياة، بيروت.
- المختار من رسائل الصابي، تحقيق الأمير شبيب أرسلان، ط. دار النهضة الحديثة، بيروت.
- المختار من شعر بشار، للتجيب، تحقيق محمد بدر الدين العلوي، ط. لجنة التأليف، القاهرة ١٩٣٤ م.

- مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور، تحقيق عدد من المحققين، ط. دار الفكر، دمشق ١٩٨٤م.
- المختصر المحتاج إليه، للدُّبِّي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.
- مسالك الأبصار جـ ٢٠، للعمري، تحقيق محمد نايف الدليمي، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٩٩م.
- المستطرف، للأبشيهي، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار صادر، بيروت ١٩٩٩م.
- الاستفادة من ذيل تاريخ بغداد، للدِّمِيَّاطِي، تحقيق محمد مولود خلف، ط. الرسالة، بيروت.
- المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري. ط. دار الكتب العلمية، بيروت - مصورة حيدر أباد، الهند.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، ط. دار صادر، بيروت - مصورة الطبعة الأولى بالقاهرة.
- مطالع البدور في منازل السُرور، للغزولي، ط. مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ١٣٠٠هـ.
- معاهد التنصيص، للعباسي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٧٠م.
- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م.
- معجم الألفاظ الفارسية المعربة، لإدِّي شير، ط. مكتبة لبنان، بيروت

١٩٩٠م.

- معجم البلدان ، لياقوت الحموي، ط. دار صادر ، بيروت ١٩٧٧م.
- معجم الشيوخ، للذهبي، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، ط. مكتبة الصديق، الطائف ١٩٨٨م.
- المعجم المختص، للذهبي، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، ط. مكتبة الصديق الطائف ١٩٨٨م.
- مقامات بديع الزمان الهمذاني، بشرح محمد عبده، ط. الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٨٣م.
- المقصد الأرشد، لابن مفلح، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، ط. مكتبة الرشد، الرياض ١٩٩٠م.
- المقفى الكبير، للمقريزي، تحقيق محمد اليعلاوي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩١م.
- المنازل والديار، لأسامة بن منقذ، تحقيق مصطفى حجازي، ط. دار سعاد الصباح، القاهرة ١٩٩٢م.
- المناقب والمثالب، لريحان الخوارزمي، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار البشائر، دمشق ١٩٩٩م.
- منتخب من كتاب الشعراء، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق إبراهيم صالح، ط. دار البشائر دمشق ١٩٩٤م.
- المنتخل، للميكالي، تحقيق د. يحيى الجبوري، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٠م.

- المنتظم ، لابن الجوزي، تحقيق عبد القادر عطا وغيره ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م.
- المنتقى من درّة الأسلاك، لمؤلف مجهول، تحقيق عبد الجبار زكار ، ط. دار الملاح ، دمشق ١٩٩٩م.
- منتهى الطلب من أشعار العرب، لابن ميمون ، تحقيق د. محمد نبيل طريفي، ط. دار صادر ، بيروت ١٩٩٩م.
- من غاب عنه المطرب، للثعالبي، تحقيق يونس السامرائي، ط. عالم الكتب، بيروت ١٩٨٧م.
- المنهج الأحمد، للعلمي، تحقيق عدد من المحققين ، ط. دار صادر ، بيروت ١٩٩٧م.
- المنهل الصافي، لابن تغري بردي ، تحقيق محمد أمين، ط. الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٨٥م.
- المؤلف والمختلف ، للآمدي، تحقيق عبد الستار فراج، ط. الحلبي ، القاهرة ١٩٦١م.
- الموطأ، للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥م.
- نشر الدر، للآبي، تحقيق محمد علي قرنة وغيره، ط. الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٠م.
- النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي ، مصورة دار الكتب المصرية.
- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، لابن سعيد، تحقيق د. حسين نصار،

- ط . دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧١ م .
- نزهة الألباء، لابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط . نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٧ م .
- نزهة الأنام في محاسن الشام، للبدري، ط . السلفية، القاهرة ١٣٤١ هـ .
- نزهة الخاطر وبهجة الناظر، للأنصاري، تحقيق عدنان محمد، ط . وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١ م .
- نفح الطيب، للمقري، تحقق د . إحسان عباس، ط . دار صادر، بيروت ١٩٦٨ م .
- نقائص جرير والفرزدق، لأبي عبيدة، تحقيق بيثان، ط . دار الكتاب العربي، بيروت .
- نكت الهميان، للصفيدي، تحقيق أحمد زكي . ط . الجمالية، القاهرة ١٩١١ م .
- نهاية الأرب، للنويري، مصورة دار الكتب المصرية والهيئة المصرية العامة .
- الوافي بالوفيات، للصفيدي، تحقيق عدد من المحققين، ط . مطابع مختلفة، بإشراف المستشرقين الألمان .
- الوفيات، لابن رافع السلامي، تحقيق عبد الجبار زكار، ط . وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥ م .
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق د . إحسان عباس، ط . دار صادر، بيروت ١٩٦٩ م .

— يتيمة الدهر، للشعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط. دار الفكر
بيروت ١٩٧٣ م.